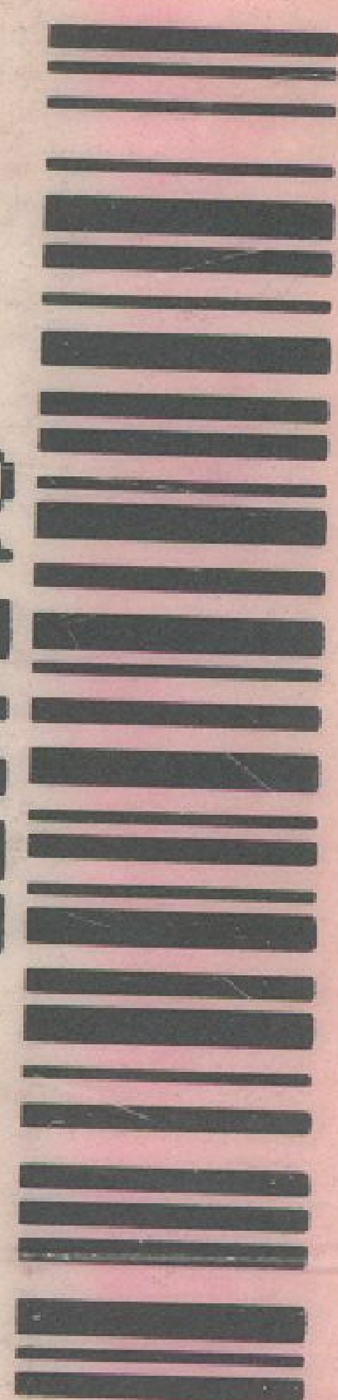



كتاب الهلال

١٥١

رجال عرفتهم

بقلم عباس محمود العقاد

سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصــدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥١ ـ جمادى الاولى ١٣٨٣ ـ اكتوبر ١٩٦٣

No. 151 — October 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى الســـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـــا ســـوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر أنحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحــرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجــزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

رجال عرفتهم

بقلم

عباس محمود العقاد



تقديم

فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب حين بدأت حياتى الصحفية قبل الحرب العـــالمية الأولى بسنوات ، ومنهم من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة ، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفنــاهم كما عرفنا الأولين ، ووصفنا معرفتنا بهم كما وصــفنا معرفتنا بأولئك الشيوخ والأقطاب ، من زاوية خاصة تتيح لنا أن نقول عنهم ما ليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير

وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفيــة ، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننــا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو

نحلل « الشخصيات » من وجهتها العامة ، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها ، وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته ، فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والأعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم

وقد اتفق التقاء هذه الزملة المختارة فى مجموعة واحدة كما يتفق التقاء الصور المتفرقة فى جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك ، بغير مفاضلة مقصودة بين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم ممن نعرفهم كمعرفتنا بهؤلاء الأعلام والأقطاب ... وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفة فى مكانتها وحق الكتابة عنها ، فلا تحسبها مسألة تقديم وتأخير ولا مسألة موازنة وترجيح ، وانما هى رحلة أخرى من رحلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية ، ولا مفاضلة

بين معالم الرحلات فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير

وحسبنا عند أصدقائنا القراء أن تكون هذه المجموعة « حفلة استقبال » اجتماعية ، نعرفهم فيها بأقطابها وأعلامها كما عرفناهم على سنة التحية فى مجالس الأصدقاء . وذلك خير ما نبغيه

عباس محمود العقاد



علي يوسف

- ١ -

تجرى المقارنة احيانا بين الكاتب الصحفى الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة ، وبين كاتبنا الصحفى الذى يكتب الآن فى صحافتنا ، بعد ان بلغت مع الصحافة العالمية آخر اطوارها ، من وسائل الطباعة والتحرير الى وسائل الادارة والتوزيع

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن أن تتعدد الى غير نهاية فنقول : ان الفارق هنا هو الفارق بين « روبنسون كروزو » فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترتسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطيارة الى رقم الحجرة فى الفندق الى اسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق ، وكل يوم من أيام الرحلة ، منذ « قطع التذكرة » الى تسليم البطاقة عند باب المطار الاخير ، مع سلامة الاياب

وفارق آخر ربما أوجز لنا تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة : وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين

ان طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفا وتحليلا وأداة طبية او كيماوية بين يديه ، ويستوحى وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ، ومن كشف الاشعة ورسامة

القلب وشهادات للاحوال الخاصة والعامة يرجع اليها فى سجلاتها اذا شاء

ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم فى اكثر العيادات ، فربما أعوزته السماعة فلم يعتمد فى جس النبض على وسيلة غير الاصغاء بأذنيه ، وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة « لتشخيصها » وتدبير علاجها

وكتابنا الصحفيون من أعلام القرن التاسع عشر كثيرون ..

ولكننا اذا نادينا أسماءهم من الذاكرة ، لم يكن منهم من هو اسرع تلبية للنداء العاجل من اسم « على يوسف » صاحب « المؤيد » اخيرا ، وصاحب « الآداب » قبل ذلك

ان « على يوسف » كان يصنع « صناعته » الصحفية ليتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على اساتذتها فى الشرق والغرب ، ولا على ادواتها التى تمليها عليه

لم يكن يعرف لغة للصحافة غير العربية ، ولم يكن يعرف من العربية غير ما اعتمد فى معرفته على نفسه ، بل غير ما اعتمد على نفسه قبل ذلك فى اختيار أستاذه الذى يراجعها عليه

وكان يسمع ، ولاشك ، بالصحافة الاوربية ويعرف منها بالسماع اكبرها وأشهرها ، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفة واحدة لينهج على منهجها ، ولم يكن من غايته ولا طاقته أن يعرف «التيمس» أو «الطان» ليحكي هذه أو تلك فى طبعها وتحريرها ، ولكنه — هو واقرانه من كتاب عصره — كانوا يبتدئون فى الصحافة

طريقا آخر غير تلك الطريق التى تقدمتهم فيها الصحف الاوربية : طريقا يستطيعونها وتستدعيهم اليها ، وقد تكون الطريق لكل صحفى منهم غير الطرق الاخرى التى يستقيم عليها سائر زملائه

كان « على يوسف » يرتجل صناعته الصحفية فى كل شىء : فى التقاط الاخبـار ، وفى جمع الآراء ، وفى تحرير المقالات ، وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاة الامور

وظهر من قضية « التلغرافات » التى سيق من أجلها الى القضاء انه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان قبل وصولها الى ديوان الوزارة ، لأنه كان على صـلة بموظف المكتب الذى يتلقاها ، ولم يكن احـد يعرف « الواسطة » التى تحمل النبأ من مكتب البرق الى مكتب التحرير

وكانت تعبئة الآراء قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة فى وقت واحد ، بل كانت ادارتها كلها مجهولة يخترعها كل صـاحب صحيفة على سنته فى اختراع هـذه الادوات المرتجلة

أما « على يوسف » فقد كادت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ، ومن يرجع اليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون اليه

فلما اتهم اللورد كرومر هـذه الامة بالتعصب الدينى وعداوة الاجانب ، جمع الشيخ « على يوسـف » نماذج الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة ترشحه لابداء الراى فيها ..

فقال الخواجه ميماراكى اليونانى : « أشهد اننى ماشعرت قط فى معاملاتى مع المصريين بأننى اعامل اناسا يخالفوننى فى العقيدة »

وقال الفرنسي وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسي : « أننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الامة المصرية .. اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التى اليها معاملاتنا »

وقال شكور باشا الادارى اللبنانى : « اننى افضل أن أمشي وحدى ليلا في جهات السيدة زينب والنحاسين ، على أن أمشي وحدى ليلا فى جهات مونمارتر بضواحى باريس »

وقال اسكندر عمون المحامى : « ان المصرى أكثر اكراما للغريب من سائر الشعوب »

وقال باسيلى تادرس باشا : « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى أو الجنسى فى مصر »

وحين سأل الشيخ كلا من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بخيت من رجال الدين الاسلامى لم ينس ان يسأل رجلا ينكر الاديان جميعا وهو الدكتور شبلى شميل الذى قال : « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

أما المقالة فهى الصحفة المختارة على مائدة الشيخ على يوسف بغير جدال

وقد تكتب المقالة فى موضوعها بأسلوب أجمل من أسلوبها ، وعلى نمط من اللفظ والمعنى أبلغ من نمطها فى لفظها ومعناها ، ولكن مقالة « على يوسف » هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره ولا يؤدى الغاية منها أحد كما يؤديها بقلمه ورأيه .. فهى من الكلم المفصل على حسب قياسه جملة جملة وسطرا سطرا من فاتحتها الى ختامها ، وليست من الكلم « المجهز » على قياسه ولو على وجه التقريب الذى يحكمها أحكام التفصيل

واذا اردنا أن نجمع لهذه «الشخصية» النادرة مفتاحها فى كلمة واحدة ، فهى كلمة « العصامية » حيث تصل العصامية أحيانا الى حدود المغامرة

لقد كان لـ « على يوسف ومصطفى كامل » طريقتان مختلفتان ــ بل مختلفتان جدا ــ فى الكتابة الصحفية وفى الخطة السياسية ، وفى الدعوة الوطنية

ولقد فرق النقاد بين الطريقتين ، فكان الفرق بينهما عند اناس أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة ، وان طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال .. وكان الفرق بينهما عند أناس آخرين هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم ،أوهو الفرق بين الشباب والكهولة ، او الفرق بين السياسة القوميةوسياسة القصر والحاشية الخديوية ، أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف

لكن الواقع أن الفرق الوحيد الذى يحتوى جميع هذه الفروق هو « شعور العصامية » فى نفس الرجل الذى كان مثاله الاعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته الى مكانة السيد الموقر ، ليرعى له السادة الوارثون للسيادة كرامة الرأى وكرامة « الخاطر » كما نقول فى عرفنا المأثور

وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى « الاعتبار » كما يتكلم ذوو الاعتبار ، ولا يخف به القلم خفة الحديث المتعجل أو الحديث المستثار

واذا قال ، كما كان يقول كثيرا ، أنه لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع .. فليست كلمة الرعاع هنا مقابلة عنده لكلمة النبلاء أو الارستقراطيين » .. وليس انكاره

لـ « مصطفى كامل » انكاراً لانسان دونه فى المقام والمكانة الاجتماعية ، لأن « مصطفى كامل » كان له نصيبه من الالقاب التى خلعت على الشيخ على يوسف ، وان لم تغلب عليه

وانما كانت المقابلة عنده مقابلة بين خفة النزق والعجلة ورصانة « العقلاء » من ذوى الراى والحنكة فى كل طبقة، ولهذا كان يكثر من تلقيب « مصطفى كامل بالطائش » ، ويكثر من وصف سياسته بالطيش ، ويجذبه عرق الدراسة العتيقة فيقول معتذرا من تكرار كلمة الطائش انها تطابق اسم مصطفى كامل فى حساب التنجيم ، لأن مجموع الحروف بحساب الجمل فى كلمة طائش وكلمتى مصطفى كامل واحد ... وهو « ٣١٩ »

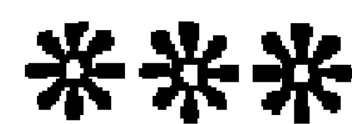
وهذه القيمة ـ قيمة العصامى الذى بلغ فى المكانة الاجتماعية مبلغ ذوى الراى ـ هى هى التى جعلت لكتابته السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء ، وهى هى التى جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أسندت اليه وظيفة « سيد السادات » أو شيخ الطريقة الوفائية الصوفية

وقد كان يكتب عن خصوم القصر الخديوى جميعا ، فيبيح لقلمه من المغامز فى الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لامره وايعازه ، ولكنه كان يأبى كل الاباء ان يحمل على رجل ممن أحسنوا اليه فى نشأته الاولى ، كمحمد عبده ، وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، لان هذه المحافظة على سمت الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثة والمقام المدخول

فاذا جاء بين تضاعيف الاخبار فى صحيفة « المؤيد » شىء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية ، فانما كان

يترك كتابته لغيره او يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرامة وينفى عنه شبهات العتب والملام

غير أن المحافظة على المظهر شيء ومطاوعة الحيلة والدهاء من وراء الستار شيء آخر .. ففى الوقت الذى كان فيه التشهير الصريح باسم محمد عبده محرما على اقلام المؤيد ، كان وكيل المؤيد بالآستانة يتطوع لمصاحبة الشيخ المفتى الغريب عن المدينة ، فيقحمه من مواطن الفرجة ما يتحاماه امثاله ، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفجاوا الشيخ والوكيل بين مواطن الريبة ..ثم ينتهى الامر الى « وصمة » شائنة تصيب الشيخ فى دار الخلافة الاسلامية ، فلا يشق على الخديو بعد ذلك ان يعزله من مناصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الاعظم ، ويتراجع امامها مجلس الوزراء فى مصر ، فلايعتبر عزل المفتى فى هذه الحالة اخلالا بنظام العزل والتوظيف



وقد عمت الصبغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله فى السياسة وفى علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين ، وظهرت فى كل تصرف من تصرفاته العامة حتى فى صياغة المبادىء الوطنية التي قررها لحزبه اساسا للمطالبة بحقوق الامة ونظام الحكومة . فقد أوشك ان يجعل هذه المبادىء توريطا دبلوماسيا من كلام المحتلين أنفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابا للاحتجاج على ولى الامر أو اتهامه بتحريض الصحف والاحزاب عليهم ، اذ كان انتساب الشيخ على يوسف الى القصر الخديوى امرا مفروغا منه مفهوما بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد ، وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين

ـ خارج القطر ـ كأنهم ملحقون بسفارات القصر ، قبل ان توجد له سفارات ..

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ، ويقولون ان اصلاح الاداة الحكومية غرض من أغراضهم الاولى التى ينجزونها قبل مغادرة البلاد

والشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب الاصلاح ، فاى اعتراض للدولة البريطانية عليه أو على الخديو اذا اقام قواعد حزبه على المطالبة بالاصلاح ؟..

والمحتلون كانوا يقولون انهم يدربون المصريين على حكم انفسهم ويحولون بين الامير والاستشار بالسلطة فى مسائل الادارة والمال على الخصوص

والشيخ على يوسف يقيد الاصلاح بانه « اصلاح على المبادىء الدستورية » ، ولا يذكر الدستور على اطلاقه لانه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الانجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية

ولما ذكر « الاستقلال » ذكره مشروطا بالمعاهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى ، وقال ان تحقيقه تنفيذ لوعود هذه الدولة بالجلاء ، وقد زادت هذه الوعود على السبعين

وكل مقالة من مقالات « المؤيد » فى السياسة العامة فهى على هذا النمط ، مذكرة رسمية لا يأبى السفير ان يوقعها باسمه واسم ولى أمره ورئيس حكومته ، فاذا جاوزت هذا الحد الى شىء من الشدة فى التعبير فغاية خطبها ان تكون بمثابة المقال « الموعز به » الى لسان حال رسمى من السنة الحكومات التى تسمى احيانا « بالصحف

الشبيهة بالرسمية »

وقد اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته فى الحملة على لورد كرومر بعد اعتزاله ، أو عزله، من منصب المعتمد البريطاني فى القاهرة ، وكان الشيخ على حريصا على ترويج الظن الذى شاع فى البلد عن نجاح الخديو فى مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه فى مكانه ، ولكنه كان على حذر شديد من اعلان هذه الدعوى مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها الى الاخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها لرجالها وخدام سياستها

فاذا بالشيخ على يوسف يخلص من هذا المأزق على احسن حال من الكياسة والانصاف ، فيتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة فى خطاب الوداع ، ويسأل : لماذا كل هذا الحنق والرجل لم يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال ؟..

واذا بالشيخ يعترف للعميد المعزول بكل مأثرة من مآثره المدعاة ، فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر انكارها عليه انكارا على دولته كلها من ورائه

ثم يعمد الشيخ اللبق الى الخطبة الكرومرية نفسها ، فلا يضيف اليها حرفا من عنده ، بل يأخذها بنصوصها للايقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين او المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه

كان الامير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك فى حفلة التوديع ، فلم يكن تعليق الشيخ على يوسف نقدا للامير — عم الخديو — بل كان ابرازا واضحا لاساءة كرومر

اليه ، مرة بالانحاء على أبيه اسماعيل ومرة بالسكوت عن الاشارة اليه كأنه من سقط المتاع،وهو حاضر أمامعينيه:

« هذا الامير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصهباحترامه دائما ، وكان له فى عهده أعظم اثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد انه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه فى جنب ما وجه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات »

ولم يتحدث الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته ، بل كانحديثه عنهمجميعا كأنهم ضحاياه وضحايا سياسته وسوء خلقه فى حاضره وماضيه

قال كرومر عن رياض باشا انه علق الجرس فى عنق الهر ، فكان ثناء على يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء اللورد عليه ، ولكنه استدرك قائلا ان اللورد :

« لم يقل ان رياض باشا لما أراد فى زمنه هو ، أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت يده وحلف اللورد الا يعود الى خدمة الحكومة ما دام هو فى البلاد، وزاده عقوبة فرفت ابنه من وكالة الداخلية فىاليوم التالى من استقالة ابيه.. فكان المستبد اسماعيل اخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر »

وأثنى كرومر على بطرس غالى باشا ومدحه بسعة الحيلة فى حل المشكلات فقال الشيخعلى :

« نعم .. ولكنها المشكلات التى كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالى ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة اخرى .. »

وتساءل الشيخ على :

« لماذا أعرض اللورد عن ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظارا فى الحكومة وليس لهم عمل مطلقا فيها ؟ »

وقد أشاد كرومر بالوفاق الانجليزى الفرنسى الذى تم على يديه فسرد له « الشيخ على » سلسلة من الاساءات الى الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين ، وانه يفعل ذلك « حبا فى مصلحة مصر » ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انجليزية »

ولم يكن كرومر ليعدل عن هذه الخطة مرة الا اذا جاءه الأمر من رؤسائه فى العاصمة البريطانية

والحق ان براعة على يوسف فى التعقيب على اقوال كرومر كانت هى البراعة « الموصوفة » للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبعهده ، وقد قلنا ـ فيما تقدم ـ ان مقالة على يوسف هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره وان كتب ماهو اجمل منها وما هو ابلغ منها وأوفى ..

فهذه المقالات فى توديع كرومر هى بعض الشواهد على هذه « الخصوصية اليوسفية » .. اذ لم يكتب احد من مودعى كرومر نظيرا لها بهذا الأسلوب « الدبلوماسى العصامى » الفريد ، وان كتبوا على أساليبهم ما هو جدير بالاعجاب من ناحيته فى عبارته وفحواه

ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ الألمعى فى كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب «الانسان» قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يأبى لها أن تقوده فى مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها

العاطفة فى نفس « العصامى » الذاكر لعصاميته ، كيفما تقلبت به الحال بين الرضا والغضب ، أو بين الفرح والأسى

وله فى رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعدة من عدد البلاغة غير الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذى بطلت فيه حيلة الالسنة والاقلام كما بطلت فيه حيلة العقول والقلوب

نعاه بقلمه فقال :

« فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر امس ولده الوحيد ــ عمر يوسف ــ فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الايام كثير الآلام . فالى الله مآبك يا عمر ، والى الله مآبك ايها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه

« الى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الارض، ثم هوى الى حفرة ابدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب ، بل هناك قلبان اولى بهما أن يكونا قبره : قلب والده الحزين وقلب أمه الثكلى . . »

وعاد من تشييع جنازته فكتب الخبر بقلمه وهو يمحو سطوره بدموعه ، وقال بعد كلمات :

« خرجنا به من الدار التى ولد فيها ، فألفها منذ كان طفلا يحبو الى ان صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء : من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب الى الشارع والى المنتزهات تحيط به الخدم ان يصيبه اذى ، الى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع ان يعيش فيه انسان ساعة من الزمان ولكنه ــ مع ما به من وحشة ووحدة ــ أوسع المنازل بعد الموت وآنسها لمن يلقى الله طاهرا مثل عمر

« خرجنا به ، لاكما يخرج فيعربته الىالمدرسة يصحبه خادمه ، بل محمولا على الاعناق مودعا بجماهير المشيعين، في سرير كما تزف العروس مغشى بالحرير الابيض مجللا بالزهور ، ولكنه كان زفافا محزنا يعلوه جلال الموت خطيبا يصيح : الصبر اجمل .. والناس يصيحون . سار مشيعوه جميعا مطرقى الرءوس كأن عليها الطير وتخاف أن يطير . الا رأسين كانا يتلفتان الى النعش بنظرات الملهوف: رأس والده الحزين فيمقدمة الجنازة، ورأس والدته الثكلى في مؤخرتها .. فيهما اربع أعين هامية ، ودونهما قلبان مستعران ومهجتان زافرتان »

ويشاء القدر لهذه العصامية التى لم تفارقله فى تشييع فلذة كبده ، واعز أهله عليه ، ان تلازمه الى آخريات حياته ، وان تسلبه كثيرا كما وهبت له كثيرا .. فقد صحبتها دفعة الثقة بالنفس فى مغامراتها ، فغامر فى طلب الحب كما غامر فى طلب الكسب ، فلم تكتب له السعادة فى هذا ولا ذاك ، لانه شقى بالحياة الزوجية التى حسبها غاية الامل نعمة وشرفا

وشقى بالمال الذى اقتناه فضاع كله بين عثرات الجد وعثرات الطموح والاقدام ..



من المصادفات التى عرضت لى فى حياتى الصحفية ، اننى جلست على مكتب على يوسف اياما فى اثناء نيابتى عن الأستاذ احمد حافظ عوض الذى كان يتولى رئاسة «المؤيد» فى تلك الأيام ، وقد دعى الاستاذ احمد حافظ عوض لمصاحبة الخديو فى رحلته التى طاف فيها بأقاليم الوجه البحرى على سبيل المظاهرة أمام الانجليز ، لانه احس انهم يفكرون فى خلعه وتعديل نظام الخديوية وولاية العهد فى الأسرة العلوية ، وقد كانت سفرته الأخيرة من مصر بعد الطواف بالاقاليم وزيارة الوجهاء والنواب فى مساكنهم واستقبال الشعب فى المنازل والطرقات والتهويل على الدولة المحتلة بمظاهر الولاء التى أراد أن تحف به قبل رحيله من الديار ، ولكنه خلع فعلا بعد سفره بثلاثة أشهر ، واحتج الانجليز لخلعه بانضمامه فى العاصمة التركية الى دول أوربة الوسطى ، متابعة للدولة العثمانية

وقد عهد الى الاستاذ احمد حافظ عوض ان أتلقى رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة أثناء تلك الرحلة ، وأفهمنى انه يعد العدة لتأليف كتاب عنها يقدمه الى الخديو بعد عودته الى الديار ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ! ..

فلا الخديو عاد الى الديار ، ولا عاد اليها كتشنر الذى رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله

فى هذه البلاد . ولا الكتاب « المنتظر » كتب فيه حرف واحد ، لأننى رفضت العمل فيه ، واستقلت من تحرير « المؤيد » أثناء اشتغال الاستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه

ومن المصادفات أن يتفق لى الجلوس على ذلك الكرسى، وأن أكتب على ذلك المكتب الذى لم أكد أفرغ من حملاتى على صاحبه وعلى سياسته أثناء حياته وبعد مماته ، ولا أذكر أننى لقيت فيه صاحبه غير مرة واحدة كانت هى المرة الوحيدة التى حييته فيها لكلام كتبه فى السياسة الوطنية

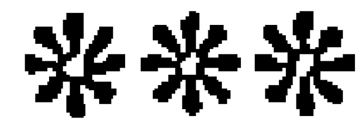
وكان كثير من الشبان المصريين قد تفرقوا بين الأحزاب السياسية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ، فمال معظمهم الى جانب الحزب الوطنى لأقتراب السن والتعليم بين مصطفى كامل « الحقوقى » وطلاب مدرسة الحقوق الذين كانوا أكثر الطلاب اشتغالا بالسياسة ، ومالت طائفة منهم الى حزب الأمة وهم فى الغالب ابناء الأسر الذين تألف الحزب من آبائهم وذويهم ، ولم يجنح احد من الشبان الى حزب الشيخ على يوسف وهو حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ، لأن خطة الحزب كانت الى «الدبلوماسية» أقرب منها الى السياسة او الى الدعوة الوطنية ، وكان « المؤيد » يتبع فى كتابته أسلوب الصحيفة التى تعتبر لسانا شبيها بالرسمى للقصر والحاشية الخديوية ، وليس هذا الاسلوب بالذى يروق الشاب او يوافق حماسته الفتية ، ولم يكن الاعراض عن « المؤيد » من جانب واحد لانه أعراض متبادل من الطرفين ، وكان على يوسف يأبى على الطلاب ان يشغلوا بغير الدراسة فى سنوات التعليم ، وكان مذهبه أن ينتظر رجال الغد الى أن

يأتيهم غدهم الذى هم رجاله . . أما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم ان يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد

وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الاحزاب منذ اللحظة الأولى ، فلم يكن لى حزب أتعصب له وانتمى اليه ، ولم تكن لى صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها فى كتابتها ، ولكننى كنت افضل « الجريدة » فى جانب الثقافة ، وافضل « اللواء » فى شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لمقالاته الشرقية والاسلامية ، واعتقد أن الخطة المثلى هى خطة «مصر للمصريين» تمييزا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية ، وكان بعضهم يترخص فى تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب المفتى» لأن الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله كان اشهر المعروفين بذلك الرأى فى تلك الفترة ، ومعه فى ذلك سعد زغلول واحمد لطفى السيد . .

على أننى ــ فى المعارك القلمية ــ كنت أجد نفسي الى جانب مصطفى كامل كلما نشبت الخصومة الحامية بينه وبين على يوسف . وكنت أكتب الى اللواء منتصرا له كلما دخلت المعركة فى دور من أدوار المساجلة الأدبية ، ومن ذاك ان الشيخ على يوسف كان يكثر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ، ويتخذ لهذا اللقب شفيعا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف فى كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب .! وكنت يومئذ ادرس حساب الحروف والطوالع فيما كنت أحاوله من فضول الاستطلاع ، فلفقت لعلى يوسف لقبا مساويا لاسمه بذلك الحساب ، وهو لقب « نورى » بفتح النون أو ضمها على السواء ، ومعنى نورى بالفتح أنه من شذاذ الآفاق المعروفين باسم النور . . وكان هو متهما بالانتساب اليهم كما كان يقال عنه أنه من

« المسلمانية » الدخلاء من ناحية جده الأول .. وواجهه خصومه فى قضية الزوجية بهـذه الدعوى أمام القضـاء الشرعى، ليثبتوا أنه غير كفء للزواج من بنت «السادات» ويؤيدوا بذلك طلب التفرقة بين الزوجين



ثم حدثت المعركة القلمية التى جمعت الرأى العام كله على تعـدد الوانه واذواقه فى صف واحد مع الشيخ على يوسف ، والتى سمع فيها صاحب المؤيد هتافا بحيـاته بعد عشر سنوات مضت من أيام قضيته التى اشتهرت باسم قضية « التلغرافات » وظل فيها الشيخ على « بطل الساعة » فى حومة الصحـافة بضعة شـهور ، وقد كان الهتاف بسقوط «المؤيد» وحياة « اللواء » يتكرر ويتواتر فى المظاهرات الشعبية حتى اصبح على حد تعبير الظرفاء من أولاد البلد كليشيهات مسموعة ، وحتى اضطر الشيخ الى التسليم بها وعمد الى الشعر لتعزية نفسـه ومكايدة خصـومه ، كلما واجهوه بمظاهرة من مظاهراتها ، فنظم هذين البيتين :

يدعون للـواء بالحيـاة
لأنه يعـد فى الأمـوات

ويهتفون يسـقط المؤيد
لأنه نحو السماء يصعد

أما المعركة القلمية التى أعادت الهتاف بالحياة والتحية الى مسـمع الشيخ ، فهى معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حـول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذى ألقاه على ملأ من كبـار الموظفين واصحاب المقامات « الرسمية » من المصريين والاجانب والشرقيين ، ولعل

الشيخ على يوسف قد « صعد الى سمائه » فى هذا الأفق لأنه أفق الكتابة « الدبلوماسية » ولأنه استطاع بالأسلوب «الدبلوماسى» أن يعزل اللورد كرومر وحده فى ذلك الموقف بين مختلف التيارات السياسية ، أو اســتطاع ان يكون دبلوماسيا وحماسيا الى الغاية فى دفاعه عن ولى نعمتــه « الخديو عباس الثانى » خصم كرومر اللدود

كتب الشيخ على مقاله فى السابع من شهر مايو «١٩٠٧» وهو اليوم التالى لالقاء الخطاب ، فاشترك فى التهليل له والاعجاب به قراء الصحف من كل طائفة وطبقة ومن كل مشرب ونزعة ، وأهــدى اليه «جوهرى» كبير محبرة من الفضة المذهبة ، وازدحمت رحبة « المؤيد » بالمتظاهرين والهاتفين من الطلاب وجمهرة الشباب .. ومنهم أزهريون، ودرعميون ، وحقوقيون ، وموظفون .. وتلقى « المؤيد » رســائل التأييد ممن لم يكن يؤيده أو يطيف به من قريب أو بعيد ، فأصبح « المؤيد » لفظا ومعنى ، وكان « أولاد البلد » يأبون عليه ان يكون كذلك الا بالقاف القاهرية .. لأنه « يقيد » قلمه بقيود الأمير ..

وفى هذه المعركة كتبت للمؤيد كلمة التأييد التى كنت فى المعارك السابقة اكتبها عليــه ، وقلت عن تلك المقــالة الطنانة اننا :

« تلوناها كلمة كلمة وسطرا سطرا ، فكنا كلمــا قرأنا كلمة ازالت تأثير لمحة من تلك الخطبة ، وكلما تلونا سطرا انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ، فكأنما حل ثقل وارتفع ، اوهام جهام وانقشع ، ولا غرو ان كانت مسهبة طويلة ، فانها تذيب سبابا كالقار اســود لا يصهر الا على اشد حرارة النار »

لقيت صاحب المؤيد فى مكتبــه للمرة الاولى والأخيرة

لاسلمه تلك الكلمة ، فاستقبلنى مع رهط من الزوار والمحررين ، ورأيته يكتب وهو يحمل الورقة فى يده ويلتفت الى محدثيه لحظة ثم يعود الى ورقته يسطر فيها كأنه لم ينقطع عنها ، ثم وضع الورقة على المكتب بعد الفراغ منها ، وسألنى : هل انت طالب ؟ ..

ولم اكن يومئذ طالبا ولا موظفا بل كنت بين طالب وموظف ، لأننى كنت استعد للعمل بمصلحة التلغراف وأتلقى دروسا فى الكهرباء والكيمياء بمدرسة الصناعة ، فقلت : بين طالب وموظف !

فابتسم واستفسرنى ، واوجزت له تفسير هذا العمل الجامع بين طلب العلم والوظيفة ، وقد نبهته ذكرى « التلغرافات » على ما يظهر فأقبل على التحدث الى وعاد يسألنى : وما الذى أعجبك فى المقال ؟.. فقلت : اعجبنى المقال كله ، وبخاصة موقع الاستشهاد فيه بهذين البيتين ، وهما من شعر ابى العلاء :

ربما اخرج الحزين جوى الحز
ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما
ن ، فانحى على رقاب الجياد

فقال وهو يقطع الكلمات : اذن انت طالب .. وموظف .. واديب ، ووعدنى بنشر الكلمة فنشرها بهذا التقديم « من حضرة الفاضل صاحب الامضاء »

وكان الامضاء « ع.م. العقاد » على عادة التوقيع بأوائل الحروف فى المجلات الأوربية التى كنا نقرأها

وتشاء المعارك القلمية ــ والحرب سجال كما يقال ــ أن يقرأ الشيخ بعد ذلك هذا التوقيع تحت مقال عنه بعيد جداً من مقالات الثناء والتأييد لأننى كنت أوقع به كتابتى

فى صحيفة « الدستور » لصاحبها الاستاذ محمد فريد وجدي ، وفيها كتبت وصفا مجملا للمظاهرة « العدائية » التى لقيها الشيخ بدار الجريدةبعد سنة من تاريخ خطاب اللورد كرومر ، ولها قصة نوجزها فيما يلى :

« شرع المحتلون بعد عهد كرومر فى تنفيذ سياستهم الجديدة التى سميت بسياسة الوفاق بينهم وبين الخديو عباس ، فكف المؤيد عن انتقادهم ومحاسبتهم ، وتجاوز المجاملة احيانا الى الرضا والتأييد ، وسرت فىالامة يومئذ حركة قومية تطالب الاحزاب جميعا بتعيين موقفها من السياسة الجديدة ، فأعلن الأستاذ الجليل ـ احمد لطفى السيد ـ عن خطاب شامل يلقيه بدار «الجريدة» فى شارع غيط العدة ، بيانا لموقف حزب الأمة من السياسة المصرية على العموم « مايو سنة ١٩٠٨ » .. واكتظت دار الجريدة بمئات من المستمعين بينهم كثير من الطلبة والشبان ، ونجح الاستاذ الجليل فىاجتذاب الاسماعاليه، ولكننى سمعت الى جانبى همهمة متواصلة فى أثناء القاء الخطاب ، ورايت خمسة أو ستة من الشبان يخرجون ويعودون ومعهم قراطيس ملأى بالطماطم والبيض ، ومع اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما ، وهما متحفزان

«وكانالمقصود بهذه الحركة كلها ابراهيم الهلباوى بك، ولكنها تناولت الشيخ على يوسف اتفاقا حين رآه الحاضرون فىالاجتماع ، ولم يكن منظورا ان يشهده لما بين حزبه وحزب الامة من الخلاف الشديد .. فما هو الا أن فرغ الاستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت فى جو المكانتلك الحمائم وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط جلاد دنشواى .. ثم تلاه الهتاف بسقوط المؤيد وصاحبه أو سقوط سياسة النفاق، ونال الرجل من قذائف الحاضرين

يومئذ اذى غير قليل .. وقد وصفت الحفلة فى صحيفة الدستور فقلت ان مظاهرة غيط العدة نسخت مظاهرة قضية التلغرافات ، وان الشعب المصرى اذا كان قد حيى صاحب المؤيد عند الحكم ببراءته فى تلك القضية فقد سحب تحيته الأولى بهذه الثورة عليه ..

« ولقيت الشيخ على يوسف مرة اخرى فى تلك السنة بفندق شبرد على الأرجح ، حيث أقيمت حفلة توديع لوفد من أعيان البلاد اعتزموا السفر الى لندن لاقناع وزارة الخارجية بتوسيع نصيب مصر من الحياة النيابية ، وكان هذا الوفد مؤلفا من اسماعيل اباظة باشا ومحمد الشريعى باشا ومحمود سالم بك والسيد حسين القصبى وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك والدكتور ابراهيم الشوربجى وبعض المترجمين والمحررين .. وحضرت هذه الحفلة منتدبا من جريدة «الدستور» ولم نكن راضين عن مخاطبة الانجليز فى مسألة الدستور . ولكن الصحيفة ندبتنى لتسجيل ما اراه فى تلك الحفلة أو الوليمة على الأصح ، لأنها كانت مقصورة على من ذكرنا من الاعيان وبعض الصحفيين ومنهم الشيخ على يوسف عن «المؤيد» وفارس نمر باشا عن « المقطم » وآخرون

« وفى تلك الوليمة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه فى التعليق على اجتماع دار الجريدة فسألنى: انت عم العقاد ؟.. قلت : نعم .. قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة ؟.. قلت : هى مشابهة اسماء .. فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل لعلها مشابهة فى غير الأسماء أيضا . وهو يعنى ـ على ما اعتقدت ـ ثورة السيد حسن موسى وتمرده ، لأنه كان فى أكثر

احواله مغضوبا عليه من المؤيد وشيعته السياسية »

ولا اذكر انني قابلت الشيخ فى مجلس من المجالس الخاصة غير هذه المقابلات اكثر من مرتين ، يحضرني فى احداهما حديثه عن الرتب والنياشين بمكتب أحمد زكى باشا السكرتير العام لمجلس النظار

وكنا مع زملائنا الصحفيين فى طوفتنا اليومية بين « نظارة » الداخلية ومجلس النظار لتسلم نشرات الاخبار الرسمية التى تطبع فى الدواوين وتوزع على مندوبى الصحف فى مواعيدها اليومية ، وقد نشر فى ذلك اليوم خبر الانعام على احمد زكي باشا برتبة من رتب التشريف اظنها الباشوية ، فخطر لنا ــ نحن زمرة الصحفيين ــ أن نمر به مهنئين باعتباره زميلا كبيرا فى صناعة القلم ، فوجدنا عنده الشيخ على يوسف يهنئه ويحدثه فى مسألة من مسائل المجلس ، وكان معنا الأستاذ جورج طنوس مندوب « الوطن » لصاحبه جندى ابراهيم ، وكان جورج مشهورا بين زملائه وعارفيه باللجاجة وقلقلة الحديث ، فتطوع للنيابة عنا وافتتح التهنئة مخاطبا للسكرتير العام على النغمة التى كانت مألوفة فى ذلك المقام ، فجعل يقول له بصوته الجهورى كلاما فى هذا المعنى : « ان الرتبة تزدان بك ولا تزينك ، وان الباشوية لقب يفخر به صاحب العزبة وصاحب الثروة من المال والعقار ، واما صاحب القلم فهو يذكر باسمه ــ احمد زكى ــ وكفى ، وبهذا نناديك أيها الكاتب الكبير ولا نزيد .. »

وقاطعه الشيخ على متململا ، وتوقعنا أن يقول شيئا يرد به على تهنئة الزميل اللجوج لأكثر من سبب .. فان رجلا يعلم الناس انه لسان حال القصر يأبى له « دوره » السياسى ، ان لم نقل شعوره النفسانى ، أن يوصف أمامه

انعام الامير بأنه تحصيل حاصل ونافلة من النوافل التى لا يحفل بها أصحاب الأقلام ، واذا سكت على يوسف ـ لسان حال الأمير ـ عن هذا الاستخفاف بألقابه ونعمه فمن العسير أن يسكت عنه على يوسف « موزع » الرتب والنياشين .. اذ كان للرتب والنياشين موزعون معروفون يبيعونها بأسعارها من رتبة الميرمران الرفيعة بألف جنيه الى رتبة البيكوية من الدرجة الثانية بثلثمائة او اربعمائة جنيه ، لان بخل عباس الثانى كان يأبى عليه أن يسخو بالاعانة من ماله على كبار الاعوان أو يسخو بها على ادارة الصحف الكبرى كلما احتاجت الى المال الكثير ، وكانت لصغار الصحفيين اعاناتهم من « ميزانية المعية السنية » ومن هبات ديوان الأوقاف ..

اما « المشروعات الصحفية الواسعة » فقد كان المعول فى سداد نفقاتها على أثمان الرتب والنياشين ، وكان لها موسمها كل عام فى مناسبات الاعياد والمهرجانات الخديوية،

فكانت الحصة الاولى من هذا المحصول السنوى للشيخ على يوسف واعوانه فى الاسكندرية وعواصم الاقاليم ؛ وكان سكوت الشيخ عن تهوين شأن هذه « السلعة » على مسمع منه غير معقول ولا منتظر ، ولعل صاحبنا جورج طنوس لم يقل كلمته تلك الا وهو يتعمد اثارة الشيخ واستفزازه للرد عليه ، ولم يمهله الشيخ ـ فعلا ـ أن يتم كلامه الى نهاية ثرثراته التى لم تكن لها نهاية . فاستوقفه متبرما وقال وهو يخاطبه خطاب من يعرفه ولا يجهل عاداته بين زملائه : « مهلا .. مهلا .. يامعلم .. ان الرتبة تقدير من ولى الامر وتقرير لفضل صاحبها بين من يعرفونه ومن يجهلونه . وهل ترفضها يا معلم جورج ؟ .. »

ثم التفت الى السكرتير العام فأعاد عليه التهنئة وهو يقول : سيهنئك اصحابنا هؤلاء بمزيد من الرتب الى اعلاها وارفعها ان شاء الله ! »

***

أما مقابلات الطريق فقد كانت مركبة الشيخ تصادفنا أحيانا في طريقنا مع أصحابنا من العباسية حيث أسكن الى الحي الحسيني حيث نلتقي بأكثر اخواننا الادباء ، أو الى مقهى عابدين الي جوار مدرسة الحقوق القديمة حيث كنا نلتقي بطائفة من الطلاب الحقوقيين وغير الحقوقيين ، وليست هذه المقابلات العرضية وسيلة من وسائل التعريف تفيدنا كثيرا فى كلام نكتبه عن الشيخ كما عرفناه ، ولكن احدي هذه المقابلات ربما عرفتنا بالشيخ فى خليقة من خلائقه التى أثرت عنه طوال حياته . وهي خليقة « المحافظة » على السمت القديم كما نشأ عليه ، وربما عرفتنا مقابلة أخرى بهوى من أهواء نفسه أو أهواء قلبه التى كادت تشغله كما شغلته المحافظة على شارة السمت والوقار .

رأيناه مرة فى طريقه الى قصر عابدين فى يوم من ايام التشريفات فرأينا عجبا من أزياء الرتب المدنية ، لانه حافظ على العمامة مع كسوة التشريفة التى تؤهله لها رتبته الرفيعة ، ولم يشأ أن يغير عمامته كما غيرها الكثيرون ممن يلبسون كسوة الباشوية وكان يبدو وهو جالس كأنه يلبس العمامة على « بدلة الافندية » من لابسي السترة والبنطلون ، وهو زي كان يتزيى به فى القاهرة أبناء طائفة واحدة هى طائفة عمال شركة النور الذين كانوا يخرجون الى الشوارع فى المساء يسترتهم الملونة وسراويلهم الافرنجية لاشعال مصابيح النور ، وقد سخر اخواننا الشبان بهذه

المفارقة وتنادروا بها غير قليل ، ولكننى فى الواقع أعجبت بالرجل لهذه المحافظة وهو يتحدى العرف والسخرية ، واحسست فيها عصامية تأبى أن تفصل مظاهر الألقاب بينها وبين ماضيها ..

ومرة أخرى رأيت الشيخ مع السيد توفيق البكرى قادمين فى مركبة واحدة من قصر السيد بالخرنفش الى ناحية باب الحديد ، فاذا هما فى زى واحد من ملابس النزهة الفضفاضة على غاية من الاناقة التى يقصدها القاصد من لابسى هذا الزى التقليدى فى القاهرة الفاطمية! .. وزاد المشابهة فى لون الكساء وتفصيله وهندامه أن الشيخ والسيد كانا نمطا واحدا فى البنية والقامة وصورة الوجه الدقيق والراس الصغير ، فكأنما كان الشيخان فى تلك « الطلعة » الانيقة فتيين من فتيان الحسينية الظرفاء يتبادلان المجاملة بهذه المباراة « الودية » فى معرض من معارض الصبوة .. ولكنها صبوة فى حدود « التقاليد » على سنة « المشيخة » من ائمة الطريق .. وكلا الرجلين كان من أبناء « الطريق » فى مقام الرئيس أو مقام المرشح للرئاسة !

ولا ننسى أن « قضية الزوجية » قد عملت عملها المنتظر فى الاندفاع بالشيخ الى هذه الطلعة العاطفية .

ان السيد البكرى كان طراز القدوة المختارة بين أبناء طبقته وزيه فى الوسامة والقسامة ووجاهة المركب والشارة ، وقد طمح الشيخ الى البناء بأكرم الكرائم من بيت السادة الوفائية ، فهل تطيب نفسها أن تراه ، وتراه أترابها معها ، فى طلعة دون طلعة الطراز المرموق من سلالة السادة البكرية ؟ !

على انها فتنة « عاقلة » لم تجاوز حدودها التقليدية فى نطاق المشيخة كما تقدم ، ولم يسلم حافظ ابراهيم من غلو الشعر حين قال فى وصف تلك الصبوة من الشيخ الكهل أثله :

أتاه الغرام بسن الشيو
خ فجن جنونا ببنت النبى

فان الصبوة لم تخرج الرجل قط عن سمته الذى طبع عليه طبعا وتكلف ما لم يطبع عليه منه تكلفا طويلا ، وماكان لمثل تلك الصبوة أن تنسى الرجل كل ما كان يشغله فى بواكير شبابه الى خاتمة حياته : وهو شاغل « المقام » الملحوظ بين ذوى الشرف الموروث من علية السادة وذوى القدر والمهابة ، وربما كان تحفظه المتأصل فيه هو الذى ألزمه ، على غير اختيار منه ، ديدن المحافظة الى حد الاحتجاز ، أو الاحتجاز الى حد الانزواء ، أو الانزواء الى حد الاستكانة التى لم تفارقه بعد ارتفاعه بالجد والجهد معا الى حيث أراد من دنياه

كتب الامير شكيب أرسلان فى عدد يناير من المقتطف (١٩٢٧) فى روايته لبعض ذكرياته عن صاحب المؤيد :

« كنا نجتمع دائما فى مجلس المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، واكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد افندى زغلول المحامى الشهير بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ على يوسف ، يأتى فيجلس فى الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكنا مستمعا ونكاد نرثى له لضعفه ومسكنته .. »

ولا نستغرب أن يرى « على يوسف الشاب » فى ابان

فقزه وانقباضه وخفاء ذكره على سمة توصف بالمسكنة التى يرثى لها من يراه ، لأن الناظر الى صاحب المؤيد بعد ارتفاع الشأن وذيوع الصيت كان يستطيع أن يصفه باستكانة تشبه المسكنة اذا نظر اليه وهو صامت ساكن بين الجلساء والنظراء ، لولا ان الاستكانة صفة لا يوصف بها المرء وهو يملأ الدنيا بما يقوله وما يقال فيه .. !

وانما هو مزاج أصيل فطر عليه هذا العصامى الناجح وعرفه من ذات نفسه فعرف ما خلق له وما لم يخلق له من أول مسعاه ، فلم يضيع جهده عبثا فى غير مايستطيع

انه خلق لكل ما يبلغ المرء بالذكاء والحيطة ولباقة القلم وحضور الخاطر وحسن التفاهم مع القلائل المعدودين: من النافعين والمنتفعين ، ولم يخلق للسيطرة الغالبة فى جلبة الزحام ولا للعظمة المزهوة بالطنين والخيلاء ، فانتهى الى غايته وهو يبدو فى زاويته كالقابع المستكين ، لولا أنه يقدر على خطوب لا يقدر عليها القابع المستكين





مصطفى كامل

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الانجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه ..

سنوات ثمان تسمى بحق سنوات الثورة ، ولكنها أحق من ذلك أن تسمى سنوات الخطابة ، لان الثورة قد اشتعلت اشتعالها الاكبر قبل ختامها .. أما الخطابة فلقد كانت فى أوجها عند موالد الزعيم ، وبلغت قمة ذلك الاوج عند دخول جيش الاحتلال ..

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب احد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة أجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى كان ينافسه « الفتوة » على عهد الحملة الفرنسية ، لانه حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ثم صارت معسكر الجيش المحتل وبقيت الى جوارها ساحة المحافل القومية من ركب المحمل الى ركب الولاية بعد مبايعة الامير ، الى ركب العروض العسكرية

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطباء الثوريين ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الازهر فى تلك الفترة ، وهو فى المكان الاوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الاخرى

كان مصطفى كامل فى الخامسة أو السادسة يوم كان

« عبده الحامولى » يسأل : أين تسمعك هـذه الليـلة ؟ فكان يجيب مازحا : أنا الليلة سهران مع عبد الله نديم فى فرح آل فلان ..

ولم يكن « عبد الله نديم » وحده خطيب هذه الحفلات، بل كان معه عشرات الخطباء المعممين والمطربشين يتداولون منابر المساجد والاعراس ، ممن لم يشتهروا شهرة عبدالله نديم .. وكان يصحب أستاذهم الاكبر تلميـذه الناشىء « مصطفى ماهر » فى سن تكبر سن مصطفى كامل ببضع سنوات : وهو التلميذ الذى قال عنه النديم مرة انه أخطب من « غلادســتون » ، لانه تكلم فى أربعة موضــوعات وغلادستون لا يحسن أن يتكلم فى أكثر من موضوع !

وانقضت سنوات الصدمة الاولى بعد الاحتـــلال فى ركود من حركة الخطابة ، وفى ركود من كل حركة سياسية أو اجتماعية ، ولكنها كانت بمثابة فترة الانتقال بين اختفاء الخطباء الاول وظهور الخطباء اللاحقين ، لان مهمة الخطيب فى عالم السياسة لم تلبث أن تجددت على اشدها وأوسعها بعد ذهاب الدهشة من قيام الجيش المحتل فى عاصـمة البلاد

وجاء فى هذه الفترة زمن كانت الخطـابة فيه أهم من الكتابة ، وكان الصحفى الذى يحسن أن يتكلم كما يحسن ان يكتب أقرب الى الميدان من زميل يحسن عمل الصحافة ولا يحسن عمل المنبر ، ولو كان زميله هـذا أقـدر على البيان وأوفر حظا من الفكر والدراية

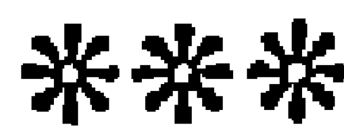
ويكفى أن نذكر أربعة من أصحاب الصحف اليومية ، بعد انقضاء عشرين سنة على دخـول المحتلين ، كانوا من الخطبـــاء الكتاب : وهم مصطفى كامل فى « اللواء » ، وفارس نمر فى « المقطم » ، وجندى ابراهيم فى « الوطن » ،

ومحمد أبو شادى فى «الظاهر» ، ولم يكن تادرس شنودة المنقبادي صاحب صحيفة « مصر » خطيبا فى طبقة هؤلاء، ولكن رئيس تحريره توفيق عزوز كان أقدر المتكلمين على المنابر بين أبناء الطائفة القبطية مع زميليه اخنوخ فانوس وجندى ابراهيم . وكان على يوسف صاحب « المؤيد » لا يخطب مرتجلا ولكن كتاب صحيفته الخطباء لم يكونوا قليلين ، وفى مقدمتهم « ابراهيم الهلباوى » كاتب مقالات : « الى أين نحن مسوقون » .. بل لا ننسى أن « احمد لطفى السيد » رئيس تحرير « الجريدة » — وقد غلبت عليه شهرة الفلسفة والكتابة — كان من المحامين وكان قبل ذلك من وكلاء النيابة المبينين

وتتشابه الاسباب التى أبرزت مهمة الخطابة فى البلاد الشرقية غير مقصورة على الديار المصرية ، ولكننا نذكر الاسباب التى حفظت للخطابة مهمتها بعد الثورة العرابية فى هذه الديار : وأولها قيام المحاكم العصرية ، واشتداد الحاجة دفعة واحدة الى المحامين ولو لم يدرسوا القانون بمدارس الحقوق .. ومنها افتتاح الكنائس الانجيلية وانتداب الخطباء المفوهين من القسس للوعظ على منابرها .. وقد عنى المسيحيون القبط بمنافسة هؤلاء الخطباء كما عنى المسلمون المعممون والمطربشون ، وأذكر أننى حضرت أياما فى « قنا » كان « الانبا لوكاس » يعظ فيها على منبر الكنيسة القبطية ، والقس اسحاق يعظ على منبر الكنيسة الانجيلية ، والشيوخ الادباء يخطبون فى المساجد ومعهم أشهر المحامين والقضاة الشرعيين ، وأشهرهم محمد نور أستاذ مكرم عبيد فى الخطابة

ولد مصطفى كامل فى هذا العصر عصر الخطابة ، وشهد خطباء حى الصليبة فى الخامسة والسادسة . وهى سن

التقليد والمحاكاة ، واستفاد من حى « الصليبة » أول نفحة من نفحات « الوطنية المحلية » التى كانت مدار التنافس على بطولة القاهرة بين « فتوة » الحسينية وفتوة الصليبة ؛ وربما تعثر بين الحبو والعدو فى احدى تلك الوقعات التى كانت تنتقل من ساحة الازهر احيانا الى جوار شيخون أو جوار قيسون .. لانه لم ينس هذه الحمية « المحلية » بعد أن وصل فى تعليمه الى المدارس التوجيهية ، وكانت دعوته الاولى أنه دعا الى تأليف جمعية « الصليبة » فانتظم فيها نحو سبعين من المواطنين المحليين ، قبل أن يدعو الى تأليف الحزب الوطنى بعدة سنين ..



رأيت مصطفى كامل لاول مرة وأنا فى الخامسة عشرة، أى فى مثل سنه يوم تصدى لقيادة « الوطنية المحلية » بحى الصليبة ..

كنت ببلدتى اسوان اشتغل مع زملائى باحدى الدعوات المحلية ، وهى دعوة التطوع للتعليم بالمدارس الاهلية ..

وقد تقدمنا فى هذه الدعوة زميل لنا فى مدرسة اسوان الاميرية تخرج قبلنا وانتظم فى وظيفة عسكرية بمصلحة خفر السواحل : وهو اللواء محمد صالح حرب رئيس جماعة الشبان المسلمين ، وكان يساعد المدرسة الاهلية التى تبعناه فى التعليم بها ويتبرع لها بالمال من مرتبه ، بعد أن حيل بينه وبين التطوع للتدريس فيها ..

وقدم مصطفى كامل الى أسوان فى موسم الشتاء ، ومعه الأمير حيدر ومدام جوليت آدم وكاتبة انجليزية من الاحرار تسمى مسز يونج — على ما أذكر — وهم

جميعا فى رحلة نيلية ..

وخرج مصطفى كامل ذات صباح يتمشى على شاطىء النيل ومعه الكاتبتان الفرنسية والانجليزية ، فوقفوا عند باب المدرسة الاميرية وسألوا البواب عن « حضرة الناظر » فغاب هنيهة ، وعاد يقول لهم : انه غير موجود !

وذكر مصطفى كامل أن صاحب المدرسة الاهلية — وقد كان يراسل اللواء — قد دعاه الى زيارتها فقال لصحبه : مدرسة بمدرسة .. فلنذهب الى المدرسة التى « ناظرها موجود » ..

ودخل غرفة السنة الرابعة وفيها درس اللغة العربية، فجلس مكان التلميذ الذى كان يكتب على اللوحة ، وأملى عليه هذا البيت لابى العلاء ليعربه ويشرح معناه :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجم مصطفى كامل هذا البيت الى اللغة الفرنسية فى طلاقة وثقة ، وناقش التلميذ فى شرح معناه ، فتلعثم التلميذ ولم يجب بطائل ، فأسعفته معتذرا له بأن الغيم الذى لا يمطر فى اسوان ولا يسير نعمة محبوبة ، وان الغيم الممطر وغير الممطر عندنا قليل !

ولاح لى أن « الباشا » لم يسترح لهذا التعقيب ، ولم يتقبل منه الاشارة الى خطئه فى اختياره ! وان لم يكن فى الامر غير فكاهة تتلاقى فيها التخطئة والتصويب

صورة مصطفى كامل التى بقيت فى خلدى مدى الحياة هى الصورة التى انطبعت فيه من أثر هذه الرؤية الاولى..

حركاته كلها كانت تنم على احساسه بدقة تكوينه ،

يبدو ذلك من شموخه وزهوه كما يبدو من طول طربوشه وارتفاع كعبه ، ومن سترة « البنجور » التى كانت لاتلائم سنه وهو دون الثلاثين ..

وهذا البيت من قصيدة ابى العلاء - اليس فيه تعريض بالاجسام التى تسد عين الشمس فتحجب الضياء ولاتجود بقطرة من الماء ؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوقار ، فلم تسمح له بمجاراة روح الفكاهة ولا سيما الفكاهة على حسابه ، والفكاهة التى فيها تخطئة لاختياره

وقد كان من شأن المواقف الاخرى التى اقتربت فيهـا من شخص مصطفى كامل أن تؤكد هذه الصورة ولا تمحو عندى ظلا من ظلالها ..

كنت أحرر صحيفة « الدستور » مع صاحبها الاستاذ محمد فريد وجدى ، وكان الاستاذ وجدى أحد الاعضاء الذين دعوا الى تأسيس الحزب الوطنى قبل وفاة مصطفى كامل ببضعة أشهر ، فلما انتهى رئيس الحزب من عرض برنامجه اقترح ارسال تبليغ بالبرق الى وزارة الخارجية البريطانية لاعلانها بتأليف الحزب الوطنى ومطالبتها بالجلاء فأقره الاعضـاء جميعا على اقتراحه ما عدا الاستـاذ « وجدى » الذى كان من رأيه أن يعمم ارسال التبليغ الى جميع الدول ، دفعا لشبهة « المركز الخاص » الذى تدعيه بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد ، فأبى مصطفى تعديل اقتراحه وأصر على طلب قبوله بصيغته التى عرضه بها على الاعضاء ، وكاد ان يقاطع صاحب « الدستور » فلم يتبادلا الزيارة بعد ذلك .. الى أن توفى مصطفى فخرج صاحب « الدستور » من قطيعته ورثاه بمقال حزين جعل عنوانه : « مال أكبر راس فى مصر . انا لله وانا اليـه

راجعون » .. فلم تزل كلمة « أكبر رأس » تعلق بذاكرتي منذ ذلك اليوم الى أن ذكرتها في كلمتي عن « الملك أحمد فؤاد » بمجلس النواب : أكبر رأس تحطم الدستور ..

***

كنت أحرر صحيفة الدستور مع صاحبها كما تقدم ، وكان صاحبها عضوا في الحزب الوطني .. والصحيفة لسان من السنة هذا الحزب القليلة في ذلك الحين بين الصحف اليومية والاسبوعية .. كانت « الدستور » لسان الحزب الثاني و « اللواء » لسانه الاول ، ولكنني لم أشترك في الحزب بعد اعلان تأليفه كما اشترك فيه زملاؤنا الصحفيون .. ولا يخطر لي الآن ، ولم يخطر لي قبل الآن أن تلك الصورة التي ارتسمت في ذهني من لقاء مصطفى كامل للمرة الاولى هي التي أخرتني عن طلب الاشتراك في حزبه ، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين الينا في حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية يومذاك ، وكنت اتشيع له اذا تشبت المعركة بينه وبين خصومه كما تقدم في الكلام على الشيخ على يوسف — صاحب « المؤيد » — وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسي ما لم اكن اعرف استطيع أن أقول ان اختلاف الطبيعة البعيد قد رسم امامي مثالا للامامة المذهبية غير هذا المثال ، فان مصطفى كامل كان من اصحاب الطبيعة الخطابية الشعورية وكانت الطبيعة الادبية والفكرية أقرب الى واحرى بالاتباع ، فضلا عن نفور أصيل عندي من التقيد بالحزبية في الرأى أيا كان مقصدها في السياسة أو الادب أو الثقافة على الاجمال

واختلاف الطبيعة هو الذى جعل لي سبيلا في المسائل القومية غير السبيل التي كان يختارها مصطفى كامل في

كثير من مواقفه العامة ..

فلم يعجبني موقف المصرى المتوسل أمام تمثال فرنسا يناجيها ويناديها :

يا فرنسا يا من رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
انقذى مصر أن مصر بسوء
وارفعى النيل من مهاوى الهلاك

ولم يكن أدب فرنسا ، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ ثورتها ، داعيا عندنا للثقة بنجدتها واستعدادها لانقاذ مصر أو سواها ، ولم تكن طبيعتى التى تأبى طلب المعونة من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين عنها مما يقنعنى بامكان التعويل فى قضية الاستقلال على معونة دولة قط ، من الدول الكبار أو الصغار

ولهذا أيضا لم يعجبنى تعليق الاستقلال المصري بالسيادة العثمانية ، لأننا على عطفنا الدائم على الدولة العثمانية فى مكافحتها للتعصب الاوروبى لم نكن نفهم أن هذا العطف ينتهي بجهادنا الي الرضا باستقلال تشرف عليه سيادة دولة أخرى ، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرا بين المصرية والعثمانية حتى فى أحاديثه الخاصة .. كما قال فى جوابه لسؤال الجنرال « بارنج » شقيق لورد كرومر : هل أنت مصرى أو عثمانى ؟ فكان جوابه : مصرى عثمانى

وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله : وكيف تجتمع الجنسيتان ؟

قال مصطفى : ليس فى الامر جنسيتان ، بل فى الحقيقة جنسية واحدة ، لأن مصر بلد تابع للدولة العلية ، والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شيء من احكامه

ولقد اوشكت ثورة مصطفى كامل أن تنحصر فى الثورة على الاحتلال ، ولا تنظر الى تبديل شيء من النظم السياسية او الاجتماعية .. فلم يكن فى نزعات نفسه ، ولو قبس ضعيف من الثورة على المساوىء الخديوية ،

ولم يختلف فى كثير ولا قليل عن أبناء عصره فى تعظيم الالقاب الرسمية واعتبارها «انعامات» مشرفة لمن يتلقاها، بل كان على صلة بالقصر الخديوى فى التوسط بين طلابها وبين الامير لتوزيعها على من يتطلع اليها ، ولا شك أنه كان انظف الساسة الذين كانوا يومئذ يتوسطون مثل هذه الوساطة ، لأنه كان ينفق منافعها على خدمة الدعوة الوطنية لحاجته الى المال فى هذه الدعوة وبخل الخديو بالمال الكثير أو القليل بغير هذه الوسيلة ، ولكن ايمان مصطفى كامل بشرف هذه الرتب والالقاب ربما كان أدعى الى النقد من وساطته فى توزيعها ، فقد بلغ من ايمانه بها أنه لم يصدر « اللواء » يوم جاءه خبر الانعام عليه بالباشوية من دار الخلافة الا بعد تغيير « الكلشيه » الذى كان اسمه فيه متبوعا بلقب الباشوية

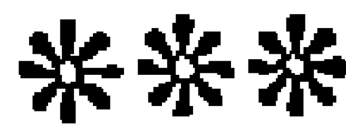
جاء فى الجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا وهو أحد رؤساء الحاشية الخديوية :

« ان الرتب أصبحت كالسلع السهلة ، وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون ، منهم الشيخ على يوسف ، وحسين بك زكى ، وأحمد بك العريس ، وابراهيم بك المويلحى وهو مقيم بالآستانة يأتى كل شتاء لأخذ بضاعته من مصر ، وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر »

ولا شك فيما قاله صاحب المذكرات من تخصيص مصطفى كامل بين سماسرة الرتب والنياشين بالانفاق من

منافعها على الدعاية الوطنية ، ولاسيما الدعاية فى العواصم الاوروبية ، ولكن حرص « الباشا » على الوجاهة التى لا تقل عن وجاهة الامراء ربما كلفته هناك أضعاف نفقة الدعاية

ولم تخف دخائل هذه الاحوال على طائفة الصحفيين ، والمشتغلين بالسياسة الوطنية ، ولكنها لم تغض من قدر الزعيم الشاب ، ولم تشكك أحدا فى اخلاصه لدعوته وغيرته على قضية بلاده ، وبلوغه بالشعور الوطنى مبلغ الهوى الذى يملك على العاشق لبه ويجرد هواه للاوطان من تقدير الوطن بحساب المبادىء والواجبات أو حساب المطالب والآمال ، فقد كان مصطفى كامل من أكثر المجاهدين شفيعا الى قلوب أنصاره وخصومه ، لنزاهة أخطائه جميعا من شائبة الغرض الملتوى والنفاق الذميم



ان الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة ، وربما كانت زعامة مصطفى كامل أقل الزعامات خطأ فى أوائل دعوتها ، ولست أذكر اننى تبينت هذه الاخطاء أو تبينت غيرها من الاخطاء السياسية بحثا وتفكيرا وامعانا فى تحقيق المطالب الوطنية وتحقيق أساليب العمل لها والوصول اليها .. فان هذا البحث جهد لا يطيقه عقل صبى فى الخامسة عشرة أو شاب فيما دون العشرين وهى سنى يوم عملت فى الصحافة اليومية ، فلا اذكر — اذن — اننى احجمت عن الاشتراك فى حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء فى ذلك الحين ، ولكن الذى اذكره جيدا اننى كنت اقرأ مقالات مصطفى كامل واسمع خطبه فأحمد له غيرته واعجب

بصدقه فى جهاده ، ولكننى ارانى أمام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذى أتلقى منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب اليه بديهتى المتطلعة الى الوعى والمعرفة ، فان ذلك الاسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان له أبلغ الاثر فى جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الاسلوب المختار الذى عهدته فيما اطلعت اليه من كلام مقروء أو كلام مسموع

ولعل أشهر الامثلة للاسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان ذريعة التأثير الكبرى فى خطب مصطفى كامل قوله فى خطبة زيزينيا الكبرى وهى أقوى خطبة وآخرها قبل وفاته اذ يقول :

« بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فانت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر .. »

فان هذا الاطناب وما شابهه لا يعطينى ما أتطلبه من الاقناع ولا من العبارة الادبية عن العواطف ، وانما هو أشبه بدقات النفير تتكرر على وتيرة واحدة لتحتفظ بأعصاب السامعين فى طبقة مشدودة من الانفعال والتنبه ؛ سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغيرها من العقائد الشعورية

واحسب أن قدرة مصطفى كامل على هذا النوع من التأثير كانت تطغى على كل قدرة خطابية فيه ، ومنها القدرة على الاقناع .. فلم تبلغ قدرته على الاقناع فى كلام قرأته له او سمعته عنه مباشرة يسوقه الى الاعراب عنه أو اعطائه نصيبا من أسباب التأثير الى جانب الحركة الخطابية الشعورية ، واسميها « الحركة » لأنها فى الواقع أقرب الى بواعث الحركة « اللاارادية » من مجامع الاعصاب

ولا يظهر ذلك فى الخطب كما يظهر فى الاحاديث الخاصة والمساجلات الشفوية ، فلم يكن مصطفى كامل المتحدث مقنعا للجنرال « بارنج » حين سأله هذا هل هو مصرى أو عثماني ؟ فقال له انه مصرى وعثمانى معا لأن التابع يشبه المتبوع فى أحكامه .. فماذا لو قال له الجنرال : ولكن التابع لا يحسن به ان يشتهى التبعية وان «يتحمس» لها ويصر على البقاء .. وقد يحمد من المتبوع ان يستبقى علاقته بتابعه ولا يحمد من التابع أن يستبقى تلك العلاقة برضاه .. !

وانه لمن ضعف الاقناع أن يفوت الزعيم الوطنى المتحدث ان يجيب « بارنج » سائلا : هل أنت انجليزى أو بريطانى ؟ .. فكل جواب لهذا السؤال محرج للمجيب موافق للمصرى العثمانى من وجهة نظره فى مناقشات السياسة مع البريطانيين الانجليز

وخلاصة ما بقى فى نفسى من أثر لهذا الزعيم المجاهد — كما عرفته — أنه كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ، ولكن زعامته كانت تتسع فى عصره — وبعد عصره — لزعماء آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لأن الوطنية المصرية كانت تشمل مصطفى كامل بكل ما احتواه من غيرة وحماسة ، ولكنه رحمه الله لم يكن يستغرق الوطنية المصرية بكل ما تحتويه أو ينبغى أن تحتويه





محمد فريد

محمد فريد من أكبر أعلام الوطنية المصرية ، بل من خيرة شهدائها الذين يستحقون التمجيد والتخليد فى صفحاتها الباقية ..

عرفته فى اسوان قبل أن القاه فى القاهرة بسنوات عديدة ..

عرفته من قضية « المؤيد » التى اشتهرت بقضية التلغرافات ..

وعرفته من مؤلفاته التاريخية ، لأن كتابه فى تاريخ الدولة العثمانية كان أول كتاب قرأته فى تاريخ هذه الدولة ..

وقد كان فى هذا الكتاب مؤرخا واسع المصادر حريصا على التحقيق ، مع عطف واضح على الدولة وكراهة لاعدائها

وقد كان شأنه فى ذلك شأن جميع الشرقيين أو جميع المسلمين خاصة ، لأن الدولة العثمانية كانت احدى الدول القلائل التى بقى لها استقلالها فى الشرق ، وكانت الى جانب هذا دولة الخلافة الاسلامية ، فكان لها نصيب كبير من عطف الشرقيين الطامحين الى استقلالهم ، ومن عطف المسلمين الذين بايعوا آل عثمان بالخلافة ، بعد زوال الخلافة العباسية

وهنا موضع ايضاح لا غنى عنه فى سياق هذه الفصول

فقد تقدم غير مرة أننا كنا ننكر السيادةالعثمانية ونكره أن يكون الاعتراف بها مبدأ من مبادىء الوطنية المصرية . فمن الواجب أن نلفت الانظار هنا الى الفارق بين كراهة الدولة العثمانية وكراهة سيادتها ، وانما كان استقلال مصر مطلوبا اعندنا كاستقلال الدولة العثمانية ، بل كان استقلال مصر مقدما بالطلب عندنا على استقلال الدولة اذا وجبت المقارنة بين المطلبين ..

وأذكر فى هذا السياق اننى كنت أعتقد ان تشبث الدولة العثمانية بسيادتها على الامم الاخرى يضيع عليها جهودها فى غير طائل ، ويعرضها للمتاعب على غير جدوى

ومن المصادفات العجيبة أن الرأى الذى أخذ به « مصطفى كمال » زعيم الترك العظيم بعد الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩٢٠ ، كان هو الرأى الذى دعوت اليه قبل ذلك بثمانى سنوات ، وهو أعتماد الدولة على بلادها الاسيوية ، واعفاء نفسها من المشكلات والجهود التى يسوقها اليها الاحتفاظ بالسيادة على امم البلقان • فكتبت فى مجلة «البيان» ــ سنة ١٩١٢ ــ مقالا بعنوان «مستقبل الدولة العثمانية » قلت فيه : « كذلك زلزلت الصدمة قلوب العثمانيين فيئسوا من الدنيا ، كأن أوربا هى كل الدنيا . ولو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت الا فى أوربا لحق لهم الا يرجوا منها بعد الآن ثمرا . ولكنها شرقية المنبت ، وهذه أرومتها لا تزال فى الشرق ، وما هذه الولايات الاوربية الا فروع منها لا يميتها انفصالها منها . وقد كان يمكن أن يدور التاريخ دورة غير التى دارها فلا تتحول أنظار محمد الفاتح البتة الى القسطنطينية .. »

وهذا رأينا القديم فى مسألة السيادة العثمانية على الامم الاجنبية ، فأحرى به ان يكون هو رأينا الاقدم فى مسألة السيادة على هذه البلاد

لقد كنت اومن بهذه العقيدة وانا أشد ما اكون غيرة على الدولة العثمانية واهتماما بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومن أجل ذلك شغلت نفسى بقراءة مئات الصفحات فى ذلك التاريخ وأنا لا أعدو الرابعة عشرة ، ومن أجله كتبت ما كتبت عن مستقبلها لأنه ـ على ما اعتقدت ـ هو المستقبل الوطيد الذى تستقر فيه على اسس المنعة والتقدم والسلام

وجئت الى القاهرة وانا أسمع اسم « محمد فريد » الوطنى المخلص ، ولا أنسى اسم « محمد فريد » العالم المؤرخ !

ولقيته مرات فى المجتمعات الكبيرة والمجتمعات الصغيرة ، ولكنى لم أتحدث اليه فى مجلس خاص غير مرة واحدة

وكان ذلك فى مكتب صحيفة « الدستور » ..

كان هذا المكتب فى منزل بدرب الجماميز الى جوار ديوان المعارف العمومية

وكان الدور الارضى منه مخصصا للمطبعة ، والدور الثانى على قسمين : أحدهما مسكن الاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك صاحب الدستور ، والآخر مكتب التحرير والادارة ..

وكان الاستاذ وجدى بك يؤثر الكتابة فى مسكنه ، وقلما يجلس فى مكتبه الا لاستقبال زائر أو مراجعة عمل من أعمال الصحيفة . واذا بـ «محمد فريد بك» يحضر الى الدار ذات يوم على غير موعد ، فجلست معه أتحدث اليه ريثما

يرتدى الاستاذ وجدى بك ويحضر للقائه ..

ولست أذكر تاريخ اليوم على التحقيق ، ولكننى اذكر انه كان بعد أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ لأن حديثى مع « سعد » رحمه الله كان مدار الكلام فى تلك الفترة ، وقد جرى حديثى مع « سعد » حوالى ذلك التاريخ ، وكان أول حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين

وقال « فريد بك » رحمه الله بعد ان عرفنى ! « انك لتحفظ لجارك فى درب الجماميز حق الجوار »

ففهمت ما أراد ، وقلت : « وهو حقيق بحفظ الجوار »

ثم انتقل الكلام الى تعليم اللغة العربية ، فقلت : ان تحويل التعليم من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم لا يتأتى فى شهر واحد ولا فى سنة واحدة ، لانه خطوة لابد أن تسبقها خطوة أخرى من تخريج المعلمين وتأليف الكتب أو ترجمتها

ووافق ما قلت أن سعدا قد أمر فى تلك السنة نفسها بتعيين المتخرجين من مدرسة المعلمين للتدريس فى المدارس الثانوية ، والابتداء بالتعليم باللغة العربية فى السنة الاولى من تلك المدارس ، ثم فى السنة الثانية

ولاح لى أن « فريد بك » لا يصر كثيرا على قوله فى هذا الموضوع ، ويحيل فيه الى ما يذكره الشيخ عبد العزيز جاويش

ثم حضر الاستاذ وجدى واستأذنت فى الذهاب الى مكتبى ، وانصرف فريد بك بعد قليل

تلاحقت الضربات على ذلك الزعيم الكريم وذهب الاضطهاد الظالم بثروته العريضة ، وهى تقدر يومئذ بمئات الالوف

وغادر الرجل القطر ليستطيع العمل فى حرية وطلاقة ، واستقر به المطاف فى عاصمة الدولة العثمانية

وهنا تتجلى بطولة « فريد » ..

لقد كان «فريد» يناصر الدولة العثمانية وهو فى غنى عنها ، ولعلها هى التى كانت فى حاجة الى مناصرته ... وكان رأيه فى علاقة مصر بالدولـــة العثمـــانية ذلك الرأى الذى أعلنه حزبه فى تقريره عن حوادث سنة ١٩٠٧، وهو أولا « استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة فىعام١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمـــد على ، والضـــامن للاســـتقلال الداخلى للبلاد »

وهو أخيرا « بذل الجهد لتقوية علاقة المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية »

ولقد غادر «فريد» وطنه والعـــداء بينه وبين الخديو عباس على أشد ما يكون العداء. وقد علم وهو فىالآستانة أن العسكريين من رجال الدولة يقصـــدون بالحملة على مصر فى اثناء الحرب العالمية الأولى أن يغيروا نظام الحكم فى البلاد المصرية ويتعرضوا لحقوقها وحقوق عرشها .. علم هذا وهو فى قبضة أيديهم ، ولعله فى حاجة ماسة الى كل معونة منهم ، ولا ملاذ له من غضبهم فى مصر لانهـــا موصدة أمامه ، ولا فى أوربا لانها تضطرب بأهوال الحرب فى كل بقعة من بقاعها ، فلم يحفل بشىء ممـــا يصيبه من جراء غضبهم ، وراح يعلنهم باستنكاره لخطتهم واحتجاجه عليهم ، وعلق فى عروة كسائه شعار « مصر للمصريين » وقد كان أبغض شعار الى القائمين بالامر فى الآســـتانة يومذاك !

حدثنى صديقى الفاضل الدكتور حسين همت بك ــ وهو

ممن شهد تلك الايام فى الآستانة ـ ان طلعت باشا أخطر رجال الدولة التركية فى عهده ـ كان يمتعض كلما لمح ذلك الشعار الذى يحمله فـــريد وصحبه ، وكان يعجب لانهم ينكرون على الترك حكم مصر ، وانهم ليتكلمون التركية خيرا مما يتكلمها أهل الآستانة !

ومع هذا ظل فريد وصحبه يحملون شعارهم ، ويعلنون استنكارهم حتى تعذر عليه البقاء فى العاصمة التركية ، فهجرها الى أوربا ليتنقل بين ربوعها على غير هدى، ويشقى بتلك المعيشة الضنك فى ظلمات تلك الغاشية العالمية ، بغير أمل وبغير عزاء ..

نعم المثل للوطنية الصادقة ذلك الشهيد الكريم ..

رحمه الله ، وخلد ذكراه ..





مصطفى لطفي المنفلوطي

في فترة من تاريخ ثقافتنا ، وفي أيام لاتتجاوز أيام الحرب العالمية الأولى ، كان السائل يسأل : من أكتب الكتاب في لغتنا العربية ؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة : انهما اثنـــان : الشيخ على يوسف والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى !.

وربما حرص المجيب على تقديم لقب الشيخ على الاسم، خلافا للعادة في تداول أسماء المشهورين ..

وكانت عصبية لا شــك فيها ، قد نسميها بالعصـــبية الأخوية ، أو العصبية المحليـــة ، أو العصبية الفخرية ، ولكنها ــ بأى الاوصاف وصفناها ــ وزنة لازمة لتصحيح التقدير في موازين الأدب والأدباء ، فلا تصح هذه الموازين ولا تعرف الحقائق التى كمنت زمنا وراء أســباب الاقبال والاعراض على مدارس الكتابة عنــدنا بغير الوقوف على معنى تلك العصبية

ونسأل : ما معناها ؟

فلا نستطيع أن نقول انها عصبية بين المعممين والمطربشين، لان السيد توفيق البكرى والشيخ عبد العـــزيز جاويش والشيخ حفنى ناصف قبل ذلك كانوا من المعممين، ولكنهم لم يحسبوا في عداد الزمرة التى تجنح اليها تلك العصبية وتخصها بالتنويه والتفضيل

كذلك لا نستطيع ان نقــول انها عصبية الســـبق الى موضوع الكتابة المختـــارة ، فان المويلحى الكبير والمويلحى الصغير قد سبقا معا الى الكتابة في موضوع المقالة الانشائية

والمقامة الادبية ، وكتب كلاهما فى الصحف السياسية كما كتب علي يوسف دائما وكما كتب المنفلوطى أحيانا، ولكنهما لم يحسبا فى عداد تلك الزمرة ، ولم يسمع لكتاب « عيسى ابن هشام ذكر بين نماذج الانشاء التى اختارها للتلاميذ مدرسو اللغة العربية كما اختاروا مقالات « النظرات » و « العبرات » و « المختارات » و « مجدولين » و « فى سبيل التاج » ، وكل كتاب ألفه المنفلوطى أو ترجمه بمعونة غيره

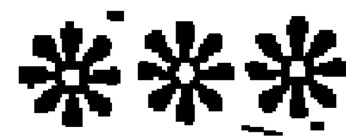
ولم تكن العصبية عصبية المعهد الذى أنتمى اليه على يوسف والمنفلوطى، لأنهما أزهريان لم يتما التعليم الأزهرى والمدرسون الذين يزكونهما فى دروس الانشاء او يتشيعون لهما فى «الحزبية الادبية» أكثرهم من خريجى دار العلوم، وبينهم وبين اخوانهم الأزهريين منافسة لا تخفى

انما كانت تلك العصبية فى حقيقتها عصبية المعرفة باللغة الاجنبية والجهل بها ، فهى لا تشمل المطلع على لغة أجنبية ولو كان من أصلاء المعممين كالسيد توفيق البكرى ، وهى لا تستثنى أحدا يجهلها ولو كان من غير المعهد الذى ينتمى اليه المعجبون .. وقد لحق بالكاتبين المعممين كاتب مطربش كان له سهمه فى هذه العصبية لأنه لم يحصل من اللغات قسطا يعتمد عليه فى المطالعة والكتابة ، وهو مصطفى صادق الرافعى خريج المدرسة الابتدائية وربيب الأسرة « المشيخية »

وقد كانت « العصبية اللغوية » لا تخلو من ناحيتها الفكاهية كما هو الشأن فى كل عصبية من قبيلها ، ولكن اصحابها لم ينفردوا بهذه الناحية الفكاهية ، لانهم كانوا يقابلون من الطرف الآخر بناحية تضارعها أو تزيد عليها فى نزعتها المضحكة ، اذ كان « المتفرنجون » يومئذ يزهون

برطانتهم المستعارة زهو الحديث النعمة أو زهو الغنى الذى نسميه « غنى الحرب » وان كان غناه من غيرها ، وقد كان بعض هؤلاء المتفرنجين ينسى لغته ـ لغة الام كما يقال ـ فى عرض الخطاب فيلوى لسانه بالكلام الدارج فى الانجليزية او الفرنسية ، كأنه يجهل ما يقابله باللغة العربية الفصيحة أو العامية

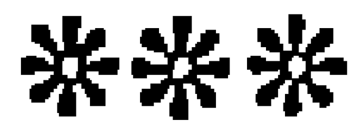
وكان المعنيون بالادب منهم يبالغون فى اشتراطهم تعلم اللغات لتكوين ملكة الكتابة حتى خلطوا بين القدرة على الكتابة وبين القدرة على توسيع موضوعاتها وتصحيح معلوماتها واختيار مناسباتها العصرية بعد مناسباتها التقليدية ، وما زالت العصبيتان على انفراج بعيد فى الزاوية الى ما قبل الحرب العالمية الثانية بقليل ، ثم أخذت هذه الفرجة شيئا فشيئا فى الاقتراب حتى التقى الخطان أو كادا قبيل هذه الأيام ، لأن دارسى العربية عرفوا اللغات الأجنبية وتعلموها واطلعوا على ثقافتها وعلى المترجم من روائعها ، ودرس « المتفرنجون » آداب شعرائنا وكتابنا الذين سبقوا أيام الحضارة الفرنجية وتقدموها ، فكفكفوا من غلوائهم الأولى وعلموا أن ملكة الكتابة قد توجد على احسنها وأبلغها عند اديب لا يعرف كلمة من اللغات الأوربية



وذات يوم من أيام الحرب العالمية الأولى ، والزاوية المنفرجة آخذة فى التلاقى والاقتراب ، شاءت أزمة الصحافة المعطلة اوالمقيدة أن اشتغل بالتعليم ، ناظرا لمدرسة المؤاساة الاسلامية ومدرسا للادب والترجمة ، ثم مدرسا بالمدرسة الاعدادية الثانوية فمدرسة وادى النيل الثانوية

وعلى صفحات كراسة الانشاء التقيت بالأسلوب

المنفلوطى لأول مرة ، وعنيت بنقده لأول مرة فى دروس التعليم ، قبل عنايتى بنقده فى مجال الثقافة الواسع ببضع سنوات



كانت الوصية الأولى لطالب « الانشاء » عند أساتذة اللغة العربية باجماع الآراء : اقرأ كتب المنفلوطى واكتب على منواله

وكانت موضوعات الانشاء كلها تنتهى بالبكاء على بطل من الأبطال المألوفين فى النظرات والعبرات ، وهم كلهم أناس يبكون ويبكى عليهم لانهم مخذولون منكسرون أومضيعون فى ذمم اللئام وقرناء السوء ، وقل منهم من هو مسئول عن خيبته أو قادر على انصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجنى عليه، وكان من ديدن التلاميذ اذا كان الموضوع في غير هذه الأغراض أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون بعدها الى مناسبة للبكاء والشكوى يسردونها أحيانا بكلماتها المسطورة فى القصة أو المقال

فى ذلك العهد كنت أناهز الخامسة والعشرين ، وكانت قراءاتى المفضلة فى فلسفة الحياة موزعة بين فكرتين تجتمع حولهما جملة الأفكار عن المثل الأعلى للشباب الناظر الى مكانه من الدنيا ومن الناس : وهما فكرة « السوبرمان » للفيلسوف الالمانى فردريك نيتشه ، وفكرة البطولة أو عبادة البطولة لتوماس كارليل فيلسوف البريطان الأيقوسيين الذى كان بعض ابناء وطنه يلقبونه بالأيقوسى « المتجرمن » لأن كتابته عن الأدب الألمانى كانت أكثر وأقرب الى الاعجاب من كتابته عن أدب بلاده

وقد كتبت عن نيتشه مقالا فى مجلة « البيان » قبل الحرب العالمية لعله كان أحد المقالات الثلاث أو الأربع الاولى التى كتبت عنه باللغة العربية وتحدثنا كثيرا مع

الشيخ البرقوقى صاحب « البيان » عن كتاب « الابطال » فلم يهدأ حتى عهد الى زميلنا الكبير « محمد السباعى » بترجمته والابتداء به قبل سائر الكتب المختارة للترجمة والتلخيص فى برنامج المجلة

ونشبت الحرب العالمية الاولى بعد قليل ، فلم يكن لقراء الأدب الغربى يومئذ حديث فى غير فلسفة «نيتشه» داعية القوة والعظمة عند الألمان ومحرك القوم فى رأى بعض النقاد الى الحرب والمغامرة فى سبيل السيادة على العالمين

ولم أكن قط مؤمنا بفلسفة نيتشه، ولامعجبا بسوبرمانه على صفته المترددة بين أشتات أقواله ودعواته ، فقد كان مثال القوة المحبوبة عندى ذلك البطل القوى الذى يعطى الضعفاء من قوته ولا يأخذ من ضعفهم لنفسه ، مجتمعين كانوا أو متفرقين

ولم يكن بطل كارليل كذلك مثلى الاعلى فى تقدير العظماء وانما كان النفور من استكانة الضعف عندى أقوى من الاعجاب بسطوة البطولة ، ما لم تكن بطولة فداء وزجر للطغاة من الأبطال ، وقد حفزنى التفكير اللاعج فى هذه المسألة — أثناء السنة الاولى من سنوات الحرب — الى تأليف رسالتى عن « مجمع الاحياء » للموازنة بين فلسفة القوة وفلسفة السوبرمان وفلسفة المثل الاخلاقية العليا ، وجعلت ذلك على ألسنة الحيوان من الثعلب والقرد والحمامة والأسد وابن آدم وبنت حواء الى ختام الرسالة بخطاب الطبيعة ، وفى خطاب القرد أقول عن الخير أمام القوة :

ويحسب الخير أنه منذ اهتدى اليه الناس تراجعت القسوة وتمردت النفوس على شريعتها ، فأصبح أقوى الاقوياء لا يجرؤ على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء ، الا أن يتمحل لها المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل ، فبطل القول القديم : اعمل ما تستطيع.

وخلفه القول الجديد : أعمل مايحق لك عمله ، وعامل الناس بماتحب أن يعاملوك به .. ولست أعني ان القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع ودانت له فى الصغائر والكبائر فهذا مالا يدعيه الحق وماينبغى للحق أن يدعى ماليس له ، ولكن عنيت أن الناس لايسلمون اليوم بظلمها وان اضطروا الى الخضوع لها ، ولا تقتنع ضمائرهم بشريعتها وان لم تكن لهم حيلة فى تبديلها ، وياضيعة العالم ان سلموا ، وياسوء المنقلب ان اقتنعوا .. اذ ليس وراء ذلك الا أن يسترخى الاقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ،وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء ، فتنعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء ، وينهار سلم النشوء والارتقاء ، الى حضيض الموت والفناء ، فاذكروا ياقوم — أقوياءكم وضعفاءكم — أن التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوى منكم والضعيف ، وانه لاشيء يشرف التسليم له الاقوياء كما يشرف الضعفاء غير الحق ، فاتخذوه لكم قبلة واماما ، واجعلوه لكم صاحبا ولزاما ، واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الاداب وله ندحة عن سلوكها ، ولم يلجأ اليها وفى وسعه الاستغناء عنها ، لان الطبيعة لاتملك الخيار بين طريقين .. »

ولقد بلغ بى الاشمئزاز من الاستكانة للضعف مبلغ النفور الحسى مما لا يطاق النظر اليه بالاعين أو لا يطاق شمه بالانوف ، وبعض ذلك ظاهر من القصيدة التى نظمتها خلال الحرب العالمية وقلت فيها أوجه الخطاب الى الشباب الضعفاء :

نحوا وجوهكم عنى فقد سئمت
نفسى المقابر فى أسلاخ احياء

فى كل دار شباب ينهضون بها
الى العلا بين جيران وأعداء

لا يحفلون أماشوا وهى ناجية
أم أصبحوا طى أرماس واحناء

يعلو بهم ذكر من بادوا ومن لحقوا
وأنتم عار آباء وأبناء

أأنتم بشر ؟ انى برئت اذن
من آدم حين يدعونى وحواء

***

ويتصور القارىء « معلم انشاء » يعالج فى طويته كل

هذا النفور الثائر على أعراض الاستكانة والخور ، ثم يرى أمامه ـ عند جمعه لأول محصول من محاصيل الكراسات الانشـائية ـ تلا من تلك الكراسات لا تخلو احـداها من ميزاب دمع أو مأتم شجو وانين ؟

لقد كانت « مظاهرة » ضعف لم أجد ما أقابلها به غير مظاهرة سخرية تصلح لها، أوجاها الى منظر حجرة المطبخ التى تطل عليها الفـرقة المدرسـية وفيها خزين اللوازم المدخرة لاعداد الطعام من البصل والثوم والأرز والدقيق وما اليها، وكانت المدرسة الاعدادية التى اشتغلت بالتعليم فيها مع صديقى المازنى مدرسة « نصف داخلية » .. أى انها تقدم طعام الغداء للطلبة ولمن يشاء من المدرسين مع خصم ثمن الوجبات آخر الشهر من المرتب وعليه الزيادة من حساب القهوة او الشاى أو الأشربة الصيفية
واستدعيت الطباخ الى الغرفة ، وسألته سؤال العارف كما يقال : اعندك بصل صعيدى حار ؟

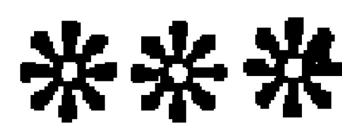
قال الرجل مستغربا : كل البصـل الذى عنـدنا من الصعيد ، ومن الصنف الجيد ، والغالب عليـه انه حـار شديد الحرارة !.

قلت : حسن .. هذا ما نريد ، فاذا جـاءك أحـد من تلاميذ هذه الفرقة فاعطه ما يطلب من هـذا الصنف ، ولا تتركه يفارقك حتى تذيقه الكفاية منه لمسيل الدموع .. مقدار منديل او منديلين ، وقدم الحساب ـ باسمى ـ الى ضابط المدرسة السيد عبدالحميد ..

وكان السيد عبدالحميد هذا من أظرف الضباط الذين عرفناهم فى المدارس الثانوية ، وهو الذى كنا نسأله عند الحضور صباحا : هل دق الجرس الثانى ؟ فيجيب وهو جاد لا يبتسم : من زمان يا استاذ .. قبل الأول !..

وانصرف الرجل وهو لا يصدق اذنيه ، حتى واجهته بالضابط الظريف وأفهمت هـذا سر « المظاهرة » فتممها من فنونه المعهودة ، ومنها ان البصل لازم للعمل فى حصة الانشاء .. ومنها أن المطبخ قد أصبح ملحقا بالمعمل فى دروس هذا الأستاذ !.. الى آخر ما اخترعته بديهته التى لم تكن تخذله فى مثل هذا المقام

والتفت الى الطلبة قائلا : من كان منكم يخزن فى عينيه فائضا من الدمع فالبصل اولى بمهمة تصريفه من كراسة الانشاء !.



ولا يحسبنى القارىء العصرى الحديث اننى بالغت فى شعورى بافراط المنفلوطى فى البكاء او بافراط فئة من شباب تلك الآونة فى النعومة والفتور ، فاننى لم اقل عن دموع المنفلوطى الا بعض ما رثاه به شوقى وهو يقول من أبيات كثيرة :

من شوه الدنيا اليك فلم تجد
فى الملك غير معذبين جياع

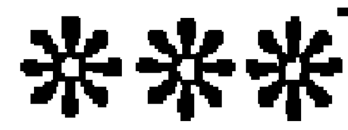
ابكل عين فينة ، او وجه، ترى
لمحات دمع أو رسوم دماع ؟

أما الشباب الناعم فقد كان موضوعا مألوفا مطروقا بين موضوعات التمثيل الفكاهى والاحاديات المسرحية « المنولوجات » .. وكان اشهر الممثلين المغنين سلامة حجازى يخصهم بغير قليل من نغماته ، واحداها قصيدة الدكتور شدودى التى نظمها بعنوان : « فتى العصر » وقال فى مطلعها :

بالله قل لى يا فتى العصر ماذا تركت لربة الخدر

فلم تكن سورة « السوبرمانية » ولا البطولة المعبودة هى التى كانت تحضرنى حين رأيت الكراسات أمامى تفيض بكلمات « النظرات » و « العبرات » ، وبعضها منقول بحروفه من مقالات هذا الكتاب أو ذاك

وقد عرفت أسلوب المنفلوطى فى الصحف قبل التفانى بأسلوبه المنقول فى كراسات الانشاء ، ولكننى كنت أتناوله من جانب المطالعة الأدبية العامة ولم أنظر الى الجانب «التربوى» ولا شعرت بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند ناشئتنا قبل أن أشهد هذا الأثر فى أكبر معاهد التعليم «الأهلى» فى تلك الآونة



وسرعان ما وصلت قصة الدموع والبصل الى السيد المنفلوطى من طريق المطبخ أو طريق الفرقة او طريق الضابط الظريف .. فقد أشار اليها فى أول لقاء بيننا بعد ذلك بالمكتبة التجارية ، ولم أكن القاه كثيرا فى المجالس الخاصة ولا أذكر اننى لقيته فى مجلس خاص غير مرة أو مرتين ببيت الامة ، ولكننى كنت اشترى اكثر كتبى العربية من المكتبة التجارية فألقاه هناك بين حين وآخر ، ويجرى بيننا الحديث كثيرا فى المسائل العامة وقليلا فى المسائل الادبية والثقافية .. وفى هذه المرة لقيته يوقع على بعض الأوراق ، فقال لى بلباقته « البلدية » التى اشتهرت عنه: بسم الله .. أو « بسم اللا » باللهجة الدارجة ، وهى كما يعلم القراء دعوة الى الطعام

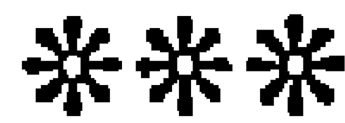
فقلت له سائلا : « بسم اللا » فى التوقيع فقط أو فى قبض الفلوس ؟!

فعاد يقول بتلك اللهجة البلدية ايضا : الحكاية لاتستحق

« مش قد المقام » .. انها أرخص من « البصل ! »

قلت مجاريا له فى سياقه : ولعله أحلى من العسل على حد نداء الاخوان فى منفلوط ..

ولاح لى فى المناقشة الوجيزة التى جرت بينى وبينه ، على أثر ذلك ، أننى لم أنفذ منه الى موضع اقناع فى كل ما ذكرته عن أدب الشكاية أو أدب البكاء ، وايقنت أنه غير قابل للتحول عن الشعور التقليدى بأن العاطفة هى الرقة وان الرقة هى البكاء ، وكل ما سمعته منه حول هذا المعنى يتلخص فى انه يسأل الله أن يلهمه اعطاء الرحمة حقها واعطاء البأس حقه ، ولعله عنى بذلك تصويره للعاشق المبارز فى قصة « ماجدولين » وتصويره للبطل المغامر فى قصة «فى سبيل التاج» ، ووصاياه الحسنة فيما كتب عن القضية الوطنية ، وهو غير قليل بتوقيع منه أحيانا وبغير توقيع



وكانت أيام الاعياد مجتمع الادباء بمجلس الزعيم الكبير سعد زغلول ، فلقيت المنفلوطى مرة من هذه المرات ومعنا جعفر ولى باشا – وزير الحربية يومئذ – وهو كثير الاطلاع على منظوم العرب ومنثورها ، وأساتذة لا اعرفهم ، فجرى الحديث عن أساليب بعض الكتاب فقال سعد : انني أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل مفهومة لا بأس بها فى الصياغة ، ولكننى أتتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان أحداها مما تقدمها او لحق بها .. فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق « بالقطاعى » ولا يبيعون بالجملة !

قال الشيخ المنفلوطى : يغلب يا باشا ان يشيع هذا

الأسلوب بين الصحفيين الذين يكلفون ملء الفـراغ ، ولا تتيسر لهم المادة فى كل موضوع

فابتسم الباشا وقال للشيخ : « انك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهنا واحد منهم ! » ثم التفت الى وقال : «ما رأيك يا فلان ؟ »

قلت : « هو ما يقول الشيخ المنفلوطي مع اسـتدراك طفيف .. »

قال : « ما هو ؟ »

قلت : ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من تصدي لملء فراغ لا يستطيع ملأه سـواء كتب فى الصحافة أو فى غير الصحافة

وعاد الشيخ المنفلوطى فقال : « أن العقاد لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء »

قال الباشا : « أو كذلك ؟ »

ثم تفضل بوصف موجز لكاتب هذه السطور ليس من حقنا ان نرويه

ولسـنا نريد أن نخص الأدب المنفلوطى كلـه فى تلك الزاوية التى تلاقينا لديها على كراسات الانشاء ، فهكذا عرفناه ويعرفه غيرنا اذا لقيه من هنا وعلى يمينه « سوبرمان » نيتشه و «بطل» كارليل ، وعلى يساره قضية تربوية فى إبان أزمتها

ولكن المنفلوطى فى غير هذه الزاوية ، يعـرف بمكانته الادبية العامة .. فلا يعرف له نظير بين اعـلام الادباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده الى ما بعد وفاته ، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع ان يقرب بين أسلوب الانشاء واسلوب الكتابة كما استطاع صاحب

«النظرات» و «العبرات» ، فربما ذهب القصد فى الكتابة بجمال الانشاء فى اساليب الناثرين المجيدين ، وربما ذهب الاسلوب «الانشائى» الجميل بالمعنى المقصود فى كتابة أدباء الفكر والتعبير ، ولكن المنفلوطي — قبل غيره — هو الذى قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح فى سهولة لفظ ووضوح معنى وسلاسة نغم ، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف فى مسوح النساك ، وليس لدروس الانشاء نموذج اصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية ، وعن أدبه هذا اقول فى بعض فصول « المراجعات » :

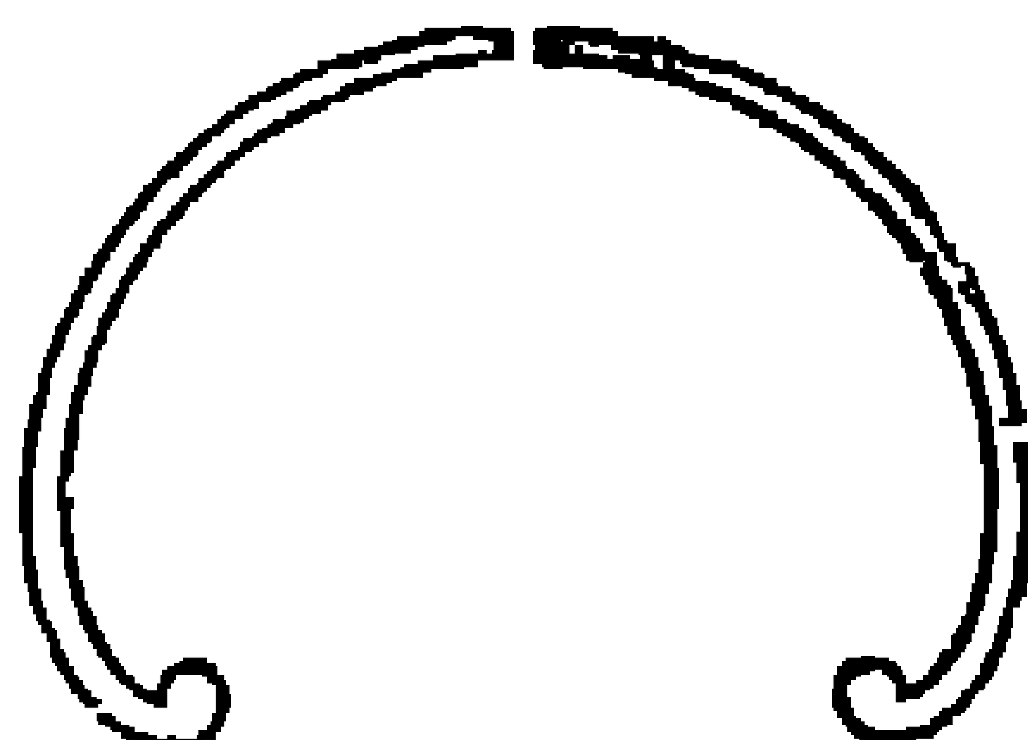
« انه احد الذين ادخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى ، بعد ان ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد .. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل فى كل رسالة .. وكانت اغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة القائها ..

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطى للفن وما كتب بغير كلفة ، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد المجاهد فى أمثال هذه الرسالة : رسالة التقريب بين حفاوة الانشاء ورخصة الخطاب واطراح الكلفة.

ويتمثل طابع الرائد فى تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب لخاصة أمره .. فكان المنفلوطى « يدبج » مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل فاصلة ، وكان يكتب رسائله لصحبه — ومنهم المتعلمون بل المعلمون — فلا يبالى أن ترد فيها أمثال هذه التعبيرات الدارجة : « فيدونى تلغرافيا » أو « مرسول لحضرتكم » أو « تأملوا الاسطوانات حتى لا تكون مستعملة ثم ارسلوها فى البوسطة .. » أو « فهموها أن ترسل شهادة المدرسة المتخرجة فيها » .. أو « أهديك سلامى » أو « تلامذتك بخير يسلمن عليك وأرجو تبليغ سلامى لحضرات الافاضل اخوانك المعلمين .. » .

وكلها من شواهد النظر الى الكتابة الفنية كأنما هي كتابة «الاستعداد والحفاوة » وما عدا ذلك من كتابة الاغراض الخاصة فرخصة العرف فيها أولى من كلفة الاستعداد ، أو كلفة « السمعة والحشمة ! »

وتعيد الينا قدرة المنفلوطى على تبسـيط الأسـلوب الجميل كلمة « أناتول فرانس » التى يقول فيها : « ان البساطة الجميلة هى القدرة على اخفاء الجهد والكلفـة ، وان النور الابيض بسـيط فى النظر ولكنـه أوفر الألوان تركيبا لأنه « توليفة من جميع الألوان »





محمد المويلحي

كانت للحياة الادبية فى القرن الماضى مؤامراتها ودسائسها التى تشبه المؤامرات والدسائس فى حياة القصور الملكية ، والصواب أن مؤامرات الادب ودسائسه كانت فى باطن أمرها فرعا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الامير ، وكان للقصر أشياع ودعاة بين أصحاب الاقلام كما كانت له خصوماته معهم على حسب الظروف والعلاقات التى تتغير بينهم جميعا من حين الى حين ، وربما كان حامل قلم عونا على حامل قلم آخر مرضاة للسياسة أو مرضاة للمنافسة المعهودة بين ابناء الصناعة

وكان لمحمد المويلحى صاحب « عيسى بن هشام » نصيب واف من مؤامرات القصور ، ولعله استحقها بقدم الصلة بين أسرته ، وبين الاسرة الخديوية من عهد مؤسسها محمد على الكبير ، وقد عاش أبوه ابراهيم فى معمعان سياسة القصور بين عابدين بالقاهرة ويلدز بالآستانة ، وكان صاحب القلم الوحيد الذى اصطحبه الخديو اسماعيل الى منفاه ، سفيرا له فى علاقاته بعد المنفى بالسلطان عبد الحميد

ولم يسلم المويلحيان معا من مؤامرات عابدين ، ولم يسلم عابدين ولا يلدز معا من مؤامرات المويلحى الكبير على الخصوص ، وكان حامل القلم الذى اختارته حاشية عابدين للنكاية بالمويلحيين صحفيا من أقرب الناس اليهما واشدهم اعجابا بهما ومحاكاة لهما فى أسلوبه ، وهو صاحب « الصاعقة » احمد فؤاد ، وما كان يرجو لصاعقته

حظا فى ميدان الصحافة أعظم من مقارنة « مصباح الشرق » صحيفة المويلحيين فى هذا الميدان

وقد كانت وقيعة « أحمد فؤاد » بالمويلحى الكبير او انا لا تحصى من الشائعات والاراجيف و « القفشات » التى كان ينشرها على الاندية والقهوات ، وكانت وقيعته الكبرى بالمويلحى الصغير أنه كان يجرده من ملكة الكتابة الادبية ويزعم ان « عيسى بن هشام » من قلم ابيه ، وأنه كان يرى مسودات المقالات بخطه فى مطبعة المصباح !.. وكانت وقيعته بأبيه انه طامع فى امارة الشعر بقصر الامير

اما المويلحى ابراهيم ، فكان اكثر من ند « لاحمد فؤاد » فى ألوان الوقيعة ، اذ كان يفل الحديد بالحديد .. ويكيل لتلميذه المتمرد بالكيل الذى يكيل به ذلك التلميذ ، ويزيد

وقد سكت عنه حتى أوهمه الصلح والرضا ، ثم أوفده برسالة الى الاستانة من تلك الرسائل التى كانت تغدق الهيل والهيلمان على حامليها بين عابدين ويلدز وبين يلدز وعابدين ، ثم بادر فأبلغ الخبر الى مدير « الشحنة » بالآستانة فتلقى هذا صاحبنا احمد فؤاد على « اسكلة الميناء » وانتزع منه أوراقه انتزاعا ، فاذا هى سبيله الى السجن بدلا من دار الضيافة !.

واما المويلحى محمد ، فقد كان على مشابهته لابيه فى كثير من خصاله أقرب الى عزلة التصوف وترفع الوجاهة والامارة ، فلم يكن يعنيه من أحاديث أحمد فؤاد وامثاله الا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة أو سخرية واسعة ، ونسميها بالسخرية الواسعة لانها كانت تتسع حتى تشمل السخرية بالشهرة الادبية نفسها .. فماذا لو لم يكن المويلحى الصغير كاتب عيسى بن هشام او كاتبا على الاطلاق ؟ ذلك خطب هين كما كان المويلحى الصغير يقول ، ولم يكن فى الواقع

يبالغ فى تكلف السخرية بالشهرة الادبية ، لانه كان يرتضى لنفسه منزلة أحب اليه وأرفع عنده من منزلة الاديب الصحفى المشهور ، وهى منزلة الوجيه الحكيم العزوف عن الدنيا والناس

ولقد شاعت وقيعة أحمد فؤاد فى حينها ، فلم نكد نسمع احدا يتكلم عن « حديث عيسى » الا وهو يتقبلها أو يتساءل متشككا : أحقا كتبه المويلحى الصغير ولم يكتبه له أبوه ؟

وكنا نحن نعلم من أخبار « محمد المويلحى » أنه أوفر اطلاعا من أبيه .. وندرك الفارق البعيد بين ملكته الادبية الناقدة وملكة أبيه المرتجلة ، ونعرف خلال سطوره مدى اطلاعه على كتب اليونان وكتب الاوربيين المتأخرين ، مما توفر عليه ولم يتوفر عليه أبوه من قبله .. ولا بعد اشتراكه معه فى حياته الادبية ، فكنا نعجب لشيوع تلك الوقيعة ولا نستطيع أن نفسره بغير هوى النفوس لاستماع الوشايات والاغترار فى تفرقتهم بين ملكة الاب وملكة الابن بالتفرقة بين اسم المويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير

ولكننا لقينا صاحب « عيسى بن هشام » بعد العلم به من طريق المطالعة وطريق السماع ، فعرفنا سببا أدعى من ذلك السبب لرواج الوقيعة التى اذاعها صاحب « الصاعقة » ، فقد كان « محمد المويلحى » أصدق مثل رأيناه لقول القائل : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه »

.. حتى كنا نروى المثل بعد ذلك : « سماعك بالمويلحى خير من أن تراه » وقد نزيد عليه المويلحى الصغير توكيدا للنسخة الجديدة من ذلك المثل القديم !

كان صديقنا المازنى يقول عن مشهور من مشاهير الشرق الحديث بغير حق : انك لاتحتاج الى أكثر من خمس دقائق

فى محادثته لتنزل به الى مكانه من الاحتقار

والمويلحى الصغير تراه خمس دقائق ، فلا تحتقره ولا تشعر من سمته ورصانته أنه قابل للاحتقار .. ولكنك تقدر له ماشئت من الصناعات الموقرة غير صناعة القلم او صناعة الكتابة الفنية ، فاذا تكلم زادك ايمانا بأنه من ابعد خلق الله عن الكتابة ، ولاسيما كتابة اللباقة الفكاهية، لانه يتعثر فى كلامه وتعترضه فأفأة قد تطول حتى تضطره الى اختتام الكلام والاشاحة بوجهه علامة الضجر من الحديث أو الرغبة فى السكوت ، وانما هو استحياء من تلك العثرات التى تعترضه احيانا خلال الحديث

رايته أول مرة ــ كما رأيته آخر مرة ــ بكساء « البونجور » الذى لايغيره فى الشتاء ولا فى الصيف ، وان غيره من لون الى لون ومن نسيج الى نسيج ..

ورأيته بعد المقابلة الاولي أسابيع متوالية لم أكن أسمع منه خلالها غير الكلمات التى يفوه بها رئيس العمل وهو يوقع الاوراق الرسمية أو يعيدها للمراجعة والاستيفاء ، ولكننى كنت فى كل مقابلة من تلك المقابلات القصار أخرج من مكتبه وقد أزددت علما بسرعة خاطره وسداد ملاحظته وقدرته على ايجاز القول والكتابة بما يفيد على البديهة ، بغير كلفة ولا اطالة روية

***

لقيت « محمد المويلحى » لاول مرة فى ديوان الاوقاف وهو يومئذ مدير قسم الادارة ، ويتبعه تحرير مجلس الديوان الاعلى ومجلسه الآخر الذى كان يسمى بمجلس الادارة أو المجلس الادارى ، ومن أقلامه قلم «السكرتارية» وهو يومئذ ندوة المنشئين والمترجمين والادباء والمحررين ، يعملون « رسميا » فى اعداد المذكرات التى ترفع الى

المجلسين وتهذيب أسلوبها وتصحيح لغتها ، ولا يفرغ منهم لهذا العمل فى الواقع غير اثنين او ثلاثة ، مع الاستعانة — قليلا أو كثيرا — بمعارف الادباء اللغوية ، اذا التبس عليهم الامر فى صحة كلمة أو سلامة أسلوب ، وقد كان فى قلم السكرتارية من المنشئين والشعراء والمترجمين والمشتغلين بالادب والتحرير رهط منظور اليه فى الديوان كله من طراز عبد العزيز البشرى ، وعبد الحليم المصرى ، واحمد الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ، وامين الدولة ، ومحمد فكرى ، وغيرهم فئة قليلة من الكتاب الديوانيين غير معروفين بين أكثر الموظفين ، وغير هؤلاء رهط اخر فى الديوان ولكن فى غير قلم السكرتارية ، نذكر منهم صديقينا الشاعرين المجيدين على شنوقى ومحمود عماد

وكانت كتابتى الادبية ـ السياسية — طريقى الى وظائف الديوان ، والفضل فى ذلك لخصلة من خصال الفضول المحمود عند صديقنا الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة « البيان » طيب الله ثراه .

كان من دابه ان يطمئن الى تحرير مجلته باهدائها الى شيوخ الادب والصحافة وسؤالهم اعن موضوعاتها كلما زارهم أو زاروه فى مكتب المجلة ، وكان ممن يسألهم فى ذلك حافظ عوض ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد المويلحى ، وهو قليل الزيارة ، لايزار فى غير مكتبه بالديوان . فلاحظ حافظ عوض ان اسم الكتاب الذى أترجم بعض فصوله لايطابق أصله باللغة الانجليزية وهو « الاكاذيب المتفق عليها ، فى مدنيتنا » والمجلة تذكره باسم « الاكاذيب المقررة فى مدنيتنا الحاضرة »

فزاد انتقاده من ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لاننى ترجمت العنوان كما ذكره الاستاذ حافظ ، ولكنه هو

اقترح تسجيع العنوان لانه اجمل بعناوين الكتب ، فلما جاءه النقد من بعيد — وهو على عادته سريع التصديق — قال لى انه لن يرفض رأيا لى مطاوعة لرأى السجعة بعد الآن .. !

وكنت أسمع من البرقوقى غير مرة انه يحفل برأى مصطفى صادق الرافعى فى البلاغة العربية ، ولكنه لا يحفل به ، بل يرفضه ، فى أذواق الادب الحديث ومباحثه الفكرية ، وقد أنحى الرافعى على « ماكس نوردو » صاحب الكتاب وعلى كاتب هذه السطور مترجم فصوله فكانت هذه الشهادة المعكوسة خيرا من الثناء فى تقدير الشيخ

ثم سأل المويلحى — وهو يعلم عنه كثرة الاطلاع على امثال هذه المؤلفات باللغات الاوربية — فعاد المويلحى يسأله : بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شىء !

قال : اتراه يعيش على شىء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ اننى لا أنتمى الى السيد حسن موسى العقاد المشهور ، واننى اعيش بالقليل مما يردنى من اهلى وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة ، فقال المويلحى مبتسما : انه اولى بالوظيفة من أكثر « التنابلة » عندنا ، فشجعنى ماسمعت على طلب الوظيفة فى الديوان ، فطلبتها فأجيب طلبى لساعته ، بغير امتحان وبدأت العمل فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية وهى وظيفة من اخطر وظائف الديوان فى تلك الفترة ، قبيل تحويل الديوان الى وزارة ذات « ميزانية » ملحقة بميزانية الدولة

وتتابعت المناسبات التى كانت تدعونى الى مراجعة

« المدير » فى بعض الاوراق ، فلا أذكر اننى سمعت منه حديثا غير الذى يصدر من « مدير الادارة » وهو يملى توقيعاته ويوجه مرءوسيه ، ألا مرة واحدة كان الحديث فيها دائراً بينه وبين بعض زواره حول مسألة تتصل بالسياسة وطلب الدستور ، فجرى ذكر الفيلسوف « هربرت سبنسر » وعلمت من أشارته الوجيزة اليه انه كان على المام بكتابه عن « الانسان والدولة »

على أن الاحاديث التى تتعاقب عن مسائل فنية تتعلق بتحرير المذكرات واملاء التوقيعات لاتخلو بطبيعتها من دلالة على مبلغ اقتدار الرئيس الادارى فى فن الكتابة الادبية ، وكل ما استحضره اليوم من اشارات المدير المجملة ، وتصحيحاته العاجلة ، وتوقيعاته المبرمة ، أنهامن ايحاء «معلم» فى صناعة القلم على هينة وفي غير كلفةولامشقة .. فكان على أناته فى الحديث يملى التوقيع المصحح للعبارة الرسمية فلا يتوقف فى الاملاء ، ولا ينسى ضرورة التوفيق بين العرف الديوانى وبين العبارة العربية الفصيحة ولا يبدو عليه انه ينتقل من الارتجال الى الروية وهو يمضى فى املائه على من حوله .. وقد يتعدد هذا الاملاء فى وقت واحد

ومما روجع فيه حكمه الفنى ـ والديوانى معا ـ كلمة طال عليها الخلاف بين انصار العرف الديوانى وانصار الابتكار والتجديد فى أساليب الموظفين .. فقد كان المألوف بعد اقرار المذكرة أن تذيل بكلمات قليلة لاتتغير لتوقيع المدير عليها ، وهى : « محول على مجلس الادارة » ، أو « محول على المجلس الاعلى ! » ..

وخطر لاديب من ادباء السكرتارية ان يخرج على هذه الوتيرة حبا للتصرف الذى يليق بأمثاله وأنفة من «التقليد» الذى يلتزمه الموظف العتيق ! فذيل المذكرات المعروضة

على الجلسة كلها بكلمة « محال على المجلس » ولم يذكر صفته اكتفاء بعنوان الديباجة .. واحتكم المختلفون الى المدير ، فكانت احدى الفتاوى التى ظهر فيها صاحب « عيسى بن هشام » من وراء صاحب العزة البيك المدير

قال المويلحي : الحق انني لا ارى صيغة « التحويل » الا ذكرت محطة باب الحديد ، وذكرت « محولجى » الرصيف !

ولا بأس بصيغة « محال » بدلا من صيغة « التحويل» فهي صحيحة مليحة .. ولكن يخشى اذا قيل «محال على المجلس» ان يفهم المجلس انها مستحيلة عليه .. وتبتعد هذه الشبهة اذا قيل « محال اليه » .

ثم سأل : ولماذا لا يذكر اسم المجلس الذى تحال اليه ؟

فقال صاحب التعديل : لانه معروف من ديباجة العنوان ...

فحكمت « النكتة » حكمها على صاحب « عيسى بن هشام » وقال للاديب المتحذلق : وهل تكتب على ظرف الجواب « ملحق بما تقدم » بدلا من العنوان السابق فيما تقدم من الجوابات ؟ .. ان الوثائق الرسمية لا تعرف الملل من التكرار ، فاكتبوا اسم المجلس كاملا فى ذيل كل مذكرة ولا « تدوشونا » بمشكلة « محلول ومحال » فى جلسة اخرى فلا حرج من تكرار صحيح فى أمثال هذه الاوراق !

***

وربما لمحنا صاحب « عيسى بن هشام » قبل صاحب العزة المدير فى هذه الملاحظة الديوانية ، فمنها نلمح ذوقه فى اجتناب ما يتحرى اجتنابه من الكلمات المطروقة ،

وتلك على الاكثر كلمات اللغة الفصحى التى تسرى الى اللهجة العامية فتجرى على ألسنة الناس مجرى العبارات التى يختلط فيهـا الابتذال بالافصاح ، ثم تتلبس – مع تداعى الخواطر – بكلمات معلقة بأحاديث السوق او احاديث الصناعة اليومية ، واظهرها هنا مادة التحول الفصحى التى « تحولت » مع الاستخدام الحديث الى تحويلة الرصيف والى اقافية « المحوالجى » على حد التعبيـر الدارج بين « شخصيات » عيسى بن هشام

وانك لترجع الى كتابات محمد المويلحى ، فلا تلبث أن تلاحظ اذا التفت الى هذه العادة القلمية عنـده انه اقل كتاب عصره اساغة للكلمات المطروقة من هذا القبيل الا على سبيل النكتة والدعابة .. وقد كانت هذه الكلمات المطروقة تتخلل المقـالات فى عصره بالعشرات والمئـات ، ولكنك تحسبها فى كتابات المويلحى فلا تراها تزيد على أصابع اليدين .. وقد تعمدت أن أراجعهـا فى كتابه « علاج النفس » ، وهو فى اكثر من مائتى صفحة ، فوجدت منها قوله : « انصرافهم بكليتهم نحو المستقبل » ، او قوله : « فترى الواحد منا اذا اضطجع فوق فراشه » ، أو قوله : « أن الفضل فيها بينهم ليس للشخص » الى عبارات كهـذه لا يخطر للقارىء أنها من قبيل اللفظ الدارج المطروق الا اذا علم انها قد سلكت سبيلها الى الشارع والسوق

وربمـا كان الابتذال ابغض شىء الى الرجل فى كل خصلة من خصاله ، وفى كل شاغل من شواغل حياته ، فمن مراقبتى لمسلكه المطبوع قرابة سنتين استطيع أن أفهم انه كان – كما تقدم – يرتضى لنفسه سمتا واحدا لا يعلوه عنده سمت يظهر به الانسان بين الناس ، وذلك هو سمت السرى الحكيم العزوف عن مواطن الزحام ،

فهو عنده أعز واكرم من سمت الرئيس الملقب والاديب المشهور ، وهو فى طبيعته وراثة قد زادها تمكنا منه انه لم يرث من أبيه طلاقة اللسان التى كانت تحبب اليه غشيان المجلس او مناوشة الجلساء بالكلام كما كان يناوشهم بالقلم على صفحات الاوراق

وروى عن أبيه انه مر بدكان تاجر كبير ــ وهو راكب ــ فحياه فلم ينهض لرد تحيته ودعوته الى النزول لديه ، فمضى قليلا ثم عادالى التاجر يسأله عما عنده من فناجين القهوة حتى عرض عليه التاجر فنجانا ثمنه عشرة مليمات فألقاه من يده على الارض فانكسر ، وناول التاجر قرشا وهو يقول ويهم بالانصراف : ان من يقيمه ويقعده قرش لايحق له ان يترفع عن رد التحية على كائن من كان

وقد كان عزوف محمد اشد من عزوف ابيه ، وكان يلزم داره شهورا لايفارقها اذا صفرت يده من المال الذى يجارى به أقرانه فى مجال الانفاق خارج الدار ، واستقال من وظيفته بديوان الاوقاف بعد اعلان الحرب العالمية الاولى ــ وهو لا يستغنى عن مرتب وظيفته ــ لانه احس أن أعوان السلطان الجديد يغضون من قدره ولا يعاملونه بما هو أهله ، وعكف على داره بقية حياته لا يبرحها الا لرياضة أو عمل يلجئه الى الخروج

وفى اعتقادنا ان هذه الانفة انما كانت وليدة اعتزازه بنسبه وعقله قبل اعتزازه بأدبه وعلمه ، وان مواجهة أقرانه بهذه الانفة قد أصبحت عدته الكبرى لحفظ مكانته بالكرامة الملحوظة ، بعد أن زالت ثروة البيت التى كانت تغنيه ــ لو بقيت ــ عن احضار هذه المناظرة فى ذهنه ، بين اناس من ذوى البيوتات اقدر منه على مظهر البذخ والجاه

واشد ما تكون هذه المنـــاظرة حين يتنافس أبنـــاء « الذوات » من الطبقتين المتقاربتين فى ذلك العهد : طبقة « الذوات » أبناء العرب ، وطبقة الذوات « أبناء الترك » أو طبقة الوجاهة « البلدية » وطبقة الوجاهة « ألا تركة » .. فانك لا تقلب صفحتين من حديث « عيسى بن هشام » الا لمست فيهـا هواه من أبنـــاء البلد وسخريته ـ بل استجهاله واستحماقه ـ لنفخة الذوات من الطبقة الاخرى، وهو لا يعفى أبناء البلد من دعابته وغمزه ، ولكنه يداعبهم ويغمزهم كما يفعل أبناء الاسرة الواحـــدة فى مناوشـــات الدار بغير زراية ولا نقمة ، وعلى غير هذا النحو كان منحاه اذا كتب عن الآخرين

بل نحسب انه لم يكن يألف موضـوعا للكتـابة الا ما يحسب من موضوعات الناقد المترفع أو المشرف المتبسط فى ســاعات فراغه ، فكل ما كتبه فى « حـديث عيسى بن هشام » فهو نظرات الى الدنيا والناس من هذه الشرفة المطلة عليها وعليهم ، وكل ما اتخذه من أدوار هذا النقـد الاجتماعى ، فانمـا هو دور « فرجة » لا دور صـناعة قلمية ، مهما يبلغ من شأنها فما بلغ فى عرف مناظريه من ذوات « الا تركة » أن تقارن منزلة الوجاهة والرئاسة

وهذه العصبية بين « ذوات » البلد وذوات « الا تركة » هى التى ضمته مع اسرته جميعا الى معســكر الثـوار وابعدته عن معسكر « الخديو » واعوانه من الجراكســة وخدام الدولة ، وقـد كان بيت المويلحى أقرب الى بيت محمد على منذ قيامه فى الحكم من أكثر البيوتات الوطنية

ولما فرغ من نشر « عيسى بن هشـــام » لم يعمد الى اتمامه و « تقفيله » كما يقال فى اصطلاح التـــأليف .. ولكنه عمـد الى موضـوع آخـر من موضوعات الحكمة

والتهذيب تليق بتلك الشرفة التى يستوى عليها الناقد الاجتماعى .. فألف كتابه « علاج النفس » الذى طبع بعد وفاته ، وساقه مســـاق الواعظ الحكيم للمتأدب المستمع ، وان كان قد تلطف فى تقديمه فقال انه ليس « فى منزلة أوامر الطبيب للمريض بل فى منزلة دواء مجرب من مريض الى مريض ومن عاجز مســـتزيد الى طالب مستفيد »

ولا نرى أن الامر فى ليـــاذه بتلك « الشرفة » كان أمر وجاهة وسمعة وكفى ، فانه كان فى لبابه اقرب الى قداسة الدين لـــا فيه من حفظ أمانة الانتساب الى خاتم النبيين وسـيد المرسـلين ، اذ كان بيت المـويلحى ينتسب الى الحسين رضى الله عنه ، وكانت له بهذا النسب سيادة مرعية في بلاد العرب ، وولاية على محلة «المويلح» لا ينساها خلفاؤه الأدباء في عهد المناظرة والمنازعة بين سلالة العرب الاقدمين ، وسلالة الترك المحدثين

***

ان المويلحى الصغير قد أصبح أكبر المويلحيين فى العصر الحاضر ، وانما يذكر « بحديث عيسى » وقلما يذكر بكتابه الاخر عن « علاج النفس » ، وهو على هذا طبقة فى بابه لا تقصر على طبقة عيسى بن هشام فى بابه ، ولكن مزية هذا أنه فاتحة منفردة فى الادب العربى الحديث تذكر بها حقبة كاملة سجلها فأبدع فى صـــدق تسجيله وحسن تمثيله ، وكان فيها الكفاية لذكر كاتبها بين الرعيل الاول من رواد عصره وما بعد عصره من عصور الآداب العربية المقبلة ، وسيظل هذا الكتاب نموذجا يقتدى به من يطلب التجديد ، ويتعلم الابتداء به على نهجه القويم • فهو مثال من النقد الاجتماعى يضارع أبلغ المثل فى الآداب الاوربية المعاصرة ، ولكن المؤلف لم يقطعه مبتورا من جذوره بموطنه ليغرسه

غريبا بين مواطن الضاد على غير منبته .. بل تناول جذور المقامة العربية فأقامه عليها وأحسن تناولها واقامتها لفظا ومعنى ، فهو مقامة يرتضيها « بديع الزمان » ومنهج من النقد العصرى يرتضـيه « سـويفت » و « لى هنت » و « هاينى » و « أناتول فرانس »




وراء
التراجم
والسير

- ١ -

فى حديثنا عن محمد المويلحى صاحب عيسى بن هشام ، أشرنا الى دسائس الادب ، بل ودسائس القصر ، فى عصره .. وقلنا :

« أن مؤامرات الادب ودسائسه كانت فى باطن أمرها فرعا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الامير »

واتفق أن نشرت احدى المجلات الادبية قبل كتابة الحديث ــ فى باب « الفكر والأدب قبل ستين سنة » ــ نبذتين منقولتين عن صحيفة « مصباح الشرق » وصحيفة «الصاعقة» لهما اتصال وثيق بتلك المؤامرات ، وفيهما دلالة على محور المؤامرات التى كانت تدبر فى القصر وتتصل بالكتاب والادباء ممن تحدثنا عنهم ، وهم على يوسف ، ومصطفى كامل ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والبكرى ، ومحمد المويلحى ، ولا يستطيع ناقد خالى الذهن مما وراء تراجمهم من خفايا القصور أن يفهم طبيعة الحملات الأدبية والمناوشات القلمية ، فضلا عن حملات السياسة ومناوشاتها التى يشتركون فيها ، ومن هنا وجب أن نكشف النقاب عما وراء تاريخ الادب من تاريخ القصر فى تلك الفترة

جاء فى النبذة التى نقلت عن « مصباح الشرق » بعنوان

حادثة دراكتوس :

« اشتغل صاحب المؤيد طول الاسبوع بالكتابة عن حادثة دراكتوس فكتب ما يلى : « ساءنا أن أحد أبناء الذوات المشهورين بالذكاء والنباهة قد استعمل الشدة والقسوة مع محرر احدى الجرائد الاسبوعية المشهورة بحسن الكتابة والتوقيع ، والنابغ فى الانتقادات الشخصية ، فضربه على خده وصفعه على قفاه .. ولا صحة لما قيل من أنه جره بيده من اذنه بلا جريرة ولا ذنب سوى أن المضروب رحب بالضارب عند دخوله حانة دراكتوس قائلا مازحا : أهلا بالفاتن او الفتان ».

ثم عقب محرر « المصباح » على ذلك قائلا :

« ثم كتب ــ المؤيد ــ غير ذلك فى عدد ٥ نوفمبر ما يضيق المقام عن نقله لطوله .. وقد حدثت لنا حادثة كنا نظنها من الامور الخاصة . أنا محمد المويلحى اقر واعترف بأننى كنت فى دكان دراكتوس عشية يوم السبت ٢٥ من شهر اكتوبر مع جماعة من الاصحاب ، وبينما أنا جالس اذ دخل محمد بك نشأت وقال لى : بونسوار مويلحى ! فأجبته كعادتى معه مازحا : أهلا بالفتنى ! وهى تعريب الكلمة التى يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية Petit interegant فما كان منه الا أن ضربنى بكفه على وجهى فلم أتحرك من مكانى ولم تتغير جلستى ، وقلت له : ما زدت أن فعلت ما يمكن لاى حمار فى الطريق أن يفعله مع أكبر كبير » الخ الخ

***

فهذه القصة احدى قصص ثلاث لهــا سلسلة من العناوين المتقاربة : عام الكف ، وعام الكفاء ، وعام الكفر ، محورها هم : محمد المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، وبواعثها من دسائس القصر رغبة الحاشية فى

الاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى البلاد ، ولا سيما الرئاسات التى لها اشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ، وتقترن بها منافسة أصحاب الاقلام على مركز شاعر الامير ، وكاتب الصحيفة السيارة التى تعتبر لسان حال الامير

ولقد كان محمد المويلحى مرشحا للعمل الصحفى الذى يمثل سياسة الامير ، ويقوم مقام لسان الحال بالنسبة اليه .. وكان يعين اباه على طموحه الى مركز شاعر الامير ، فكان كلاهما منافسا خطيرا للشيخ على يوسف فى عالم الكتابة السياسية والمنادمة الشخصية للامير فى مجالسه الخاصة ، وهما أكتب من الشيخ على من الوجهة الادبية وأوسع ثقافة فى اللغة العربية واللغات الاجنبية ، واقدم عهدا بالاتصال الوثيق بالاسرة الخديوية التى صاحبتها اسرة المويلحى منذ عهد مؤسسها ، ورفع شأنها عند هذه الاسرة انتساب المويلحيين لآل البيت النبوى نسبة اثبت من تلك التى ادعاها صاحب المؤيد بعد ذلك عندما أراد الخديو عباس ترشيحه لمشيخة السادات الوفائية ، ومهدوا لذلك بمصاهرة الشيخ على يوسف لهذا البيت على الرغم من عميده السيد عبد الخالق ، مما انتهى به الامر الى قضية الزوجية المشهورة وعزل الخديو للشيخ احمد ابى خطوة قاضى المحكمة الشرعية التى حكمت بالغاء الزواج ، وتعيين الشيخ الرافعى الذى كان يأوى السيدة صفية فى بيته بعد صدور القرار بالفصل بين الزوجين خلفا للاستاذ الامام

فما هو الا ان سمع الشيخ على يوسف بخبر اللطمة التى أصابت محمد المويلحى حتى فتح لاخبارها وتفصيلاتها صدر صحيفته ، وحرص على تسمية المكان الذى وقع فيه الحادث باسم « الحانة » وتحريف الكلمة التى قالها

المويلحى لتظهر للسامعين بها كأنها من لغة المفازلة ، وفى كلا الامرين مايعطل المويلحى عن الترشيح لمقام لسان الحال ومقام المشيخة الصوفية ، ولم يحفل المويلحى بالرد على « المؤيد » الا ليقول ان الحادث وقع فى « دكان » لا فى حانة ، وان الكلمة التى فاه بها هى كلمة « الفتنى » لاكلمة الفتان ».

وسمى المؤيد العام كله باسم عام الكف ، والح على ذكر الحان فى المنظومات الشعرية التى كانت تنشر تحت هذا العنوان ، ومنها :

يا صريع الاكف صـــدغك أمسى
خلقا مثل طيلسان بن حـــرب
انت فى الحـــان فى أمان وسـلم
وهو فى معمعان حـــرب وضرب

ومنها :

لا تدخل الحـان والصـناع ثائرة
حتى تقـام حواليك المتـاريس

والح الشيخ كذلك على ذكر شهر الصـيام فى ابان المعمعة ، فكتب بعض شعراء هذه المقطوعات يقول :

ان شهر الصوم قد حل ففـز
فيه بالاجـر وشكر الشـاكرين

وختم المقطوعات بأبيات تشير الى شهر رمضان يقول ناظمها :

ان هذا الشهـر شهـر يجتنى
فيـه امثالك صفع الصـافعين
قد محـونا آية الـكف وهـا
نحن نتلو اليـوم آى الراحمين

وكان المشاع يومئذ ان المقطوعات جميعا من نظم الشاعر اسماعيل صبرى لان المويلحى كان يلقبه فى مجالسه باللقيط ..! ولكن المعلوم ان شعراء آخرين قد اشتركوا فى نظمها ، ماعدا حافظ ابراهيم صديق المويلحيين

***

وجاء دور الشيخ على يوسف فى تشهيرات هذه العناوين المتسلسلة فظهر عام الكفاء بعد عام الكف !.. اذ كان السيد عبد الخالق قد طلب تطليق ابنته من صاحب المؤيد لانه غير كفء للزواج من الشريفات وجده مشكوك فى اسلامه ، واستعان المويلحى باطلاعه الواسع على الادب العربى القديم فاستخرج من قصة الشاعر الاحوص مع مطر زوج أخت امرأته التى كان يهواها ببيتين من أبيات الاحوص كأنما نظما لهذه المناسبة ، وأبيات الاحوص هى :

كأن المالكين نكاح سلمى
غداة نكاحها مطرا نيام
فلا غفر الآله لمنكحيها
ذنوبهم ، وان صلوا وصاموا
فلو لم ينكحوا الا كفيئا
لكان كفيئها الملك الهمام
وان يكن النكاح أحل شيئا
فان نكاحها مطرا حرام
سلام الله يا مطر عليها
وليس عليك يا مطر السلام
فطلقها فلست لهنا بكفء
والا يعل مفرقك الحسام

وكأنما الاشارة هنا الى ان الامير نفسه هو الكفءلبنت السادات ، وليس الشيخ على الذى أذن له الامير فى زواجها

ولم يكن مع المويلحى أحد من كبار الشعراء فى عـــام الكفاء غير حافظ ابراهيم ، وقد كان « يرد الجميل » فى وقت واحد للشيخ على يوسف بعد حملات المؤيد على المفتى ، وللشاعر أحمد شوقى منافسه على الشهرة وعلى مطمع آخر ستأتى الاشارة اليه ، فنظم حافظ لهذه المناسبة قصيدته البائية بعد طول صمته ، وقال فيها :

حطمت الـــيراع فـــلا تعجبى
وعفت البيـــان فـــلا تعتبى

فـــلا تعذلينى لهـــذا الســكو
ت فقد ضاق بى منك ماضاق بى

الى ان قال عن قضية الزوجية ، ولم ينس الناحية الدينية فيها :

وقالوا « المؤيد » فى غمـــــرة
رماه بهـــا الطمع الاشـــعبى

دعاه الغـــرام بسن الكهـــــو
ل فجـن جنــــونا ببنت النبى

فضج لهـــا العـرش والحاملوه
وضج لهـــا التبر فى يشـــرب

وقالوا لصيق ببيت الرســــو
ل أغار عــلى النســـــب الانجب

والطمع الاشعبى فى البيت يشير الى ضـــياع ثروة الشيخ على فى مضاربات « البورصة » وهى من المقامرة التى لا تحمد من أحد ، فضلا عن شيخ الطريق

ولقد كان لحـافظ ابراهيم نصيبه المهم من هـــذه الدسائس التى كانت تحاك لترشيحه لوظيفة شاعـــر الخلافة فى البلاد العربية الاسلامية ، منافسة لشاعـــر الامير أحمد شوقى ، فما زال به الخبثاء حتى زينوا له

نظم ابيات فى انشاب « شكيب » معشـــــوق ابى الهدى الصيادى صاحب النفوذ الاكبر فى حاشية السلطان عبد الحميد ، فقال على لسان الشيخ ابى الهدى :

وأفض الاذكار حتى يغيبـــــــا
اخـــــرق الدف ان رأيت شكيبا
فاسألوا سبحتى فهل كان تسبيحـ
ـى فيهـا الا شـكيبا شـــكيبا

فذهبت مساعى من رشحوه لذلك اللقب الفخم بعـد اقترابها من النجاح

***

اما عام « الكفر» فلم يكن له شأن هذين العامين من اقلام الادباء ، ولم يهتم به صاحب « المؤيد » كثيرا لانه آثر ان ينتظر للخلاص من مزاحمة مصطفى كامل مناسبة أخرى ، وتلك هى مناسبة اغلاق الصحف التى كـان مصطفى كامل يصدرها باللغات الاجنبية ، وهى التى كان على يوسف يخشى أن تجعل مصطفى كامل لسان حال للامير فى الصحـــــافة الاجنبية ، ولم يكن يخشى مزاحمته فى الصحافة العربية لان مصطفى كامل نفسه كان ينوى ان يقطع صلته الصحفية بالقصر ، حتى كتب خطابه الصريح الى الخديو عباس يبلغه فيه انه سيبتعد عن كل صـــلة بالحاشية الخديوية صيانة لمقام الامير من تهديد المحتلين اياه من جراء تلك الصلة ، وهذه هى الفعلة التى استكثرها بعض المتملقين على صحفى يخاطب أميره ، فحملوا عليها بعنوان « عام الكفر » وأســكتها الناصحون بايعاز من الامير

على ان صحيفة المويلحيين لم تصبح لسانا ســـياسيا للقصر ، ولكنها أصبحت لسانا للحركة الادبية مســموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الـكتاب

والشعراء ، وكان قولها فى ذلك منتظرا مرموقا فى أندية الادب والثقافة ، ومنها اندية القصر نفسه وأنديةالمعارضين لسياسته ومؤامراته . وكانت خطتها العامة — فيماعدا فترات القلق الزئبقى التي اشتهر بها المويلحى الكبيرعلى الخصوص — ان ترجح كفة حافظ ابراهيم على منافسيه، فلم يكن من اليسير أن تساق الى خطة الزراية به وتهوين شأنه ونكران فضله ، ولكن « مصباح الشرق » كانت تنافسها ، وتحاكيها صحيفة اخـــرى على اسلوبها هى صحيفة « الصاعقة » الاسبوعية ، وصاحبها أحمد فؤاد تلميذ المويلحى ، يواليه يوما ويكيد لهايامًاعلىحسبالطلب والجزاء ، وفى الصاعقة كانت تنشر الحملات التى يأباها « مصباح الشرق » ، ويترفع عن قبولها أو مجـــاراة طلابها .. ولاسيما الحملة على حافظ ، ومحاولة الايقاع بينه وبين نصيره الاكبر الاستاذ الامام ، وقد أملى على صاحبها ان ينكر على حافظ قدرته على الشعر والنثر معا ولو كان من النثر المترجم .. فلا يصلح بطبيعةالحال لولاية الديوان العربى ومعه ديوان الترجمة ، فجاء فى مقال نشرته بعد صدور الجـــزء الاول من ترجمتـــه « للبؤساء » :

« .. انا لنبدأ بأولهم ذلك المعجب بنفسه الذىعرضه الغرور للاستهزاء به ، وهو حافظ ابراهيم .. ولما كان معدوما من مزية تمييز الصحيح من الفاسد والخطأ من الصواب والجيد من الردىء ، وكان مجبولا على الاعجاب بنفسه .. ظن فاسده صحيحا وخطأه صوابا ورديئهجيدا فيما جمعه فى البؤساء من خليط كلام الفابرين .. »

الى قول الكاتب :

ولقائل ان يقول : لو ان الكتاب كذلك لما قرظه المفتى ،

فنجيب المعترض بأن فضيلة المفتى من العلماء الاعلام ، واعنده من الاشتغال بأمور الاسلام ما يشغله عن قراءة مثل هذه الترهات ، ولكن جبرا لكسره وتخلصا من الحاح جافظ وفرارا من تحمل غصص رؤيته والاجتماع به .. قال ماقال ، وعلم الله ان فضيلة الاستاذ تأذى كثيرا من تقريظ البؤساء »

ويقول المطلعون على احوال القصر ان المويلحيين أوشكا فى وقت من الاوقات ان يبلغا مطلبهما من الامير وهومركز شاعر الامير للمويلحى الكبير ومهمة الدفاع عن سياسته للمويلحى الصغير

وربما كان ابراهيم المويلحى أصلح أبناء عصره لوظيفة الشاعر فى قصر الامارة كما كانت تفهم فى تلك الحقبة ، لانها كانت وظيفة تجمع بين نظم الشعر لمناسباته ومواسمه، وبين منادمة الامير فى مجالسه وسهراته وساعات طربة وخلوته لسماع المغنين والمغنيات ، ولم يكن ابراهيم المويلحى دون على الليثى ومحمود ابى النصر فى فن النظم ولا فى المنادمة ، بل كان أعرف منهما بأدب العرب والافرنج وأقدر منهما على الحديث فى مختلف شجونه ، وقدرته على نظم التواريخ بعدد الحروف المعروفةبتواريخ «الجمل» لم يكن يدانيها احد من معاصريه ، وقد كانت هوى الملوك والامراء من شعر المديح لتسجيل أوقاته ومواعيده ، فلم ينظم شاعر من هذا الفن قصيدة تضارع قصيدة المويلحى الكبير التى استقبل بها عباسا الثانى « سنة ١٩٠٢ » وكل شطر منها تاريخ للسنة الهجرية « سنة ١٢٢٠ » يوافق معانى الكلمات فى غير تكلف ظاهر يقتضيه التوفيق بين النظم ومجموع الارقام ، وهذه أبيات منها :

وافى الخديو فحسب النيل أفراحا

واستبشر الناس لما نجمه لاحا

والمجد ينصره ، والقطـــر يشكره
والملك يذكره ، بالعدل ان ســـاحا



وقد كان الخديو عباس يأنس لابراهيم المويلحي في مجالسه ، ويعلم ولع جده اسماعيل بمسامرته ومنادمته ، فضلا عن الاعتماد على لباقته للسفارة بينه وبين ولاة الامر في الدولة العثمانية ، ويعلم ان جده قد بلغ من ولعه به انه اصطحبه دون غيره من أصحابه وندمائه عندمفارقة القطر الى منفاه ، ولعله كان موضع اختياره شاعرا له لولا اعتراض المحتلين على تقرير هذه الوظيفة في الميزانية ، لان النظام المالي في حكومات العصر الحديث لايعرف عملا يسمى عمل الشاعر أو النديم الخاص بمجالس الملوك والامراء ، ومن أجل هذا سميت وظيفة « أحمد شوقي » باسم رئيس الديوان العربي ولم تعرف « وسميا » باسم شاعر الامير

وربما كان طموح الوالد الى هذه الوظيفة سببا من اسباب نقد ابنه لشعر شوقي وقوله — على الخصوص — انه لم يكن يحسن الحديث عن الملوك والامراء ، ولولا ذلك لما تحدث عن اسماعيل وهو يقول عنه انه « الخديو المشار اليه » .. ولا تحدث عن توفيق فقال « ثم مد الى العزيز يده فقبلتها واجما .. » ، ولاذكر انه كان يركب حمارا ابيض وهو يذهب للقاء الامير ، ولا أكثر في مقدمته من الزهو والسهو والحشو كما قال ، ولا شبه العزيز بعمر بن الخطاب فقال وهو يصف حفلة البال :

فهو بينهم عمـــر والوفود تنتــــدب

وانما عمر بن ابي ربيعة هو الاجدر « بمجلس الطرب والعزف ، والرقص والقصف ، والقدود والخـــدود ،

والصدور والنهود ، والنحور والعقود .. »

فقد كان هذا النقد ــ كما هو ظاهر ــ اقرب الى نقد « لياقة النديم » منه الى نقد بلاغة الشاعر ، وعند لياقة النديم تنتهى منافسة المنافسين للاديب الظريف والسمير الممتع ابيه ابراهيم !

الا ان المويلحيين كانا ــ ولا ريب ــ وفاق الشروط جميعا ــ بمقياس الامير قبل كل شيء ــ لوظيفة شاعر القصر ولسان حاله ، لولا قصورهما عن شرط واحدكان عند الامير أهم وألزم من جميع هذه الشروط ، وهو شرط الاستقرار والكتمان الذى لابد منه لكل من يعمل فى حواشى الامراء ، فقد كان كلاهما ــ ولا سيما الاب ــ من أصحاب المزاج الزئبقى الذى لا يطول قراره ، ولم تكن لهما حالة فى السياسة ولا فى العلاقات الحميمة يطول الاطمئنان اليهما ، فلم يفلحا حيث أفلح شوقى الصامت الحصيف ، وعلى يوسف الناطق الامين بلسان الحال



وفى « الصاعقة » التى كانت تخدم الحاشية الخديوية كما تقدم ، نشرت أعنف قصيدة من قصائد الهجاء للخديو عباس ولجميع الامراء فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده ، وتلك هى قصيدة الاستقبال التى اتهم البكرى والمنفلوطى بنظمها ، وهى فيما نرجحه من نظم البكرى كلها ما عدا بيتا أو بيتين اشترك فيهما المنفلوطى أو أضافهما اليها بموافقة السيد توفيق

وقد كان موقف العميد « الصوفى » الكبير من بيت محمد على كموقف المويلحيين بين الاقبال والاعراض ، وبين المودة والجفوة ، وبين المعونة والمكيدة ، ولكن عميد السادة البكريين كان له موقفه الخاص بين رواد القصر

وهو موقف بيت البكرى من بيت الاسرة العلوية ، فكان على حذر دائم من الخديو عباس لانه ـ فى ذكائه واطلاعه على ما وراء الستار ومصاحبته لعباس منذ ايام الدراسة ـ لا يجهل سياسة البيت العلوى من جميع البيوتات التى اشتركت قديما وحديثا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة ، وأولها : بيت البكرى العريق .. وسياسة عباس لم يكن بها خفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فانه كان يحاول جهده ان يحل فيها أشياعه ومريديه وينحى عنها الاقوياء من أبنائها ذوى « الشخصيات » الملحوظة فى الدوائر العليا ، واحذر ما كان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الاجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكونوا أقرب الى هذه الاوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الاجنبية ونشوئه نشأة الامراء فى المعاهد الاوربية. ومن يدرى ؟ .. أن أعيان القاهرة وقناصلها كان لهم الشأن الاول فى تنصيب الولاة حتى بعد قيام الاسرة العلوية الى أيام اسماعيل ، فاذا حدثت بين زعازع السياسة التركية والاوربية حادثة تدعو الى تغيير الاسرة الحاكمة ، فهل من البعيد ان يرشح للحكم الجديد سليل بيت عريق فى البلاد له من سمته وتربيته وعلاقته بالآستانة ووكالات الدول ما يلفت الانظار اليه عند البحث عن الخلف المطلوب ؟

والذى لا نشك فيه ان القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها ، لان المناظرة بالآباء والاجداد والمقابلة بين الدخيل « القولى » والاصيل « البكرى » تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى على انتمائه لآل البيت النبوى بغير تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريخ الولاية ، ولقد كانت اخر كلمة وجهها

السيد توفيق الى الخديو عباس حين وبخه هذا وقال له على مسمع من الملأ فى حفلة المحمل : أنت قليل الادب :

« كلا .. لست انا القليل الادب .. انا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك .. »

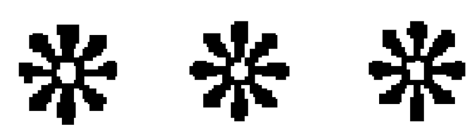
لاجرم يكون قائل هذه الكلمة هو ناظم تلك الابيات التى يقول فيها :

يذكرنا مرآك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا
سهام بلاء وقعهن شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا أصبح « القولى » وهو عميد
أعباس ترجو ان تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
تكون ببطن الارض حين تسود

ونحن ننقل الابيات هنا كما سمعناها بالرواية مخالفة للقصيدة المنشورة فى « الصاعقة » بعض المخالفة وكل ما فيها من ذكر القصور والنعمة المحدثة والاسرة الطارئة كلام من له نشأة راسخة فى القصور والنعمة التالدة والحسب العريق

ولم يكن عباس ــ وهوالذى سماه كرومر أستاذا فى فن الدسائس ــ قاصرا عن « رد الجميل » من نوعه فى هذه الحملة ، فانه أراد أن يستخرج من مادة الشعر وثيقة على البكرى بخط يده تسقطه فى بيئة الدوائر الاجنبية العليا : وأهمها عنده دوائر الوكالة البريطانية .. فأوعز الى ولى من أولياء القصر بين رجال الادب ان يستدرج السيد الى كتابة قصيدة ينظمها فى موضوع

من موضوعات الغزل المحظور ، وكان حفنى ناصف اقرب هؤلاء الادباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع اليه .. فلما ذهب يزور السيد وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه تعمد حفنى ان يستثيره وقال له : أيها السـيد ! انك ممن لاينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! .. وحمى غضب السيد فتحداه ان يجاريه فى نظمه ان استطاع ، وقبل حفنى التحدى على شريطة ان يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكـرى ابياتا فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفنى ابياتا فى معناها ثم أخذ ابيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليـه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب الى النافـذة يوهم السيد انه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ، ولكنه مزق ورقته وابقى الورقة الاخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها الىالقصر ليسلمها الى الخديو فأسلمها الخـديو الى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، وقيل انها كانت اخر العهد بدعوةالسيد الى حفلات الوكالة البريطانية واخر العهد بزيارة العلية من رجال الدول لقصر الخـرنفش ، حيث كانت لهـم زيارات متكررة فى المواسم والاعياد



نقرأ ل « حفنى ناصف » ـ رحمه الله ـ رسالة منابلغ رسائل العتاب على الاسلوب السلفى كتبها الى توفيق البكرى يقول فيها ، وكان قد زاره فتخطاه السيد الى جاره ولم يقرئه السلام :

« ..وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهيئنا بكماله ، فمر يتعرف وجـوه

القوم حتى حازانى ، وكبر على عينيه أن ترانى .. »
الى أن يقول :
« فان حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الاجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس . والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ، ويتخطى الرقاب الى صروف ، ويخترق لاجله الصفوف ؟ فان زعم السيد أنه أعلم بتصريف الاقلام فليس بأقدم هجرة فى الاسلام ، وان رأى أنه أقدر منى على اطرائه ، فليس بالممكن أن يتخذه من أوليائه .. »

والمقصود بصروف كما هو معلوم صاحب «المقتطف» الدكتور يعقوب صروف ، ولم يؤثره السيد لانه أقدر على اطرائه ، فان الدكتور يعقوب لم يكن من أصحاب أقلام الاطراء ، ولكنه آثره لانه ربما كان أقدر فى الدوائر العليا على محو المسبة التى جاءته من ناحية الحاشية الخديوية

* * *

ونحن لانجاوز فى مقالنا هذه بعض الامثلة على مؤامرة الادب التى لاتفهم دون العلم بما وراءها من مناورات القصور ، ولم نزد فيها هنا على مايحيط منها بالأعلام الذين كتبنا عنهم فى هذا الكتاب



— ٢ —

في مقالاتنا بعنوان « حياة قلم » عرضت مناسبة لعلاقة « ابراهيم المويلحي » بمؤامرات القصور في القاهرة والآستانة ذكرنا فيها بعض حوادثها ملخصة في القصة التالية :

« .. حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد بالاستانة — وهي حركة تركيا الفتاة — وأن رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين !

« وكانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال .. ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه على شارع محمد على بالقاهرة ، واتفق يوما أن المويلحي الكبير — صاحب مصباح الشرق دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة: قادر انت يارب أن تسقط هذا السقف اعلى من تحته ، فيستريح عبد الحميد ! قال محمد عبده — وكان من زوار الحجرة — نعم .. لو تقدمت انت خطوتين ! »

ذكرنا طرفا من أخبار المؤامرات وقصرنا الكلام فيها على أعلام الادب الذين تقدمت الكتابة عنهم ، وهم على يوسف ، ومصطفى كامل ، والمنفلوطي ، والمويلحي

صاحب عيسى بن هشام ، ولكنهم طائفة معــدودة من الذين اتصلوا بالقصور واجتذبتهم حبائلها أو اشتملت عليهم شباكها ، وغيرهم كثيرون من أبناء عصرهم وأبناء العصر الذى يليه تعرضوا لمثل ماتعرض له زملاؤهم من قبل ، وامتزجت حياتهم العامة والخاصة كما امتزجت حركاتهم الادبية والفكرية بأسرار تلك المؤامرات ، فلا سبيل الى تقديرهم وتقدير بواعث أعمالهم بغير الاطلاع على تلك الاسرار .

ومن أشهر الاخبار عن العلاقات المتصلة بين القصور ودوائر الادب ، ذلك الخبر الذى لم يكتب فى حينـه ، ولكنه ورد فى مذكرات أحمد شفيق باشـا التى نشرها بعد خلع السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى ، وذلك هو خبر الاستاذ الامام محمد عبده مع شـبكة الجاسوسية الصحفية فى القاهرة والآسـتانة ، وكان الخديو عباس شديد النقمة على الاستاذ لمعارضته اياه فى سـياسة الازهر وديوان الاوقاف ، ولكنه لم يكن يستطيع عزله لغير سبب يمكن تقريره والاستناد اليه ، ولم يكن نظام مجلس الوزراء يسـمح له بالتصرف فى المناصب الكبرى بوحى من اهوائه الشخصية ، فأراد أن يتمسح بحقوق الخليفة الاكبر ــ عبد الحميد ــ فى المسائل الدينية ، وأنتهز فرصة السياحة الصـيفية وسفر الاستاذ الى الآستانة لتوريطه فى موقف مريب يؤدى بالاتفاق مع جواسيس « المابين » الى اعتقـاله « متلبسا » بحالة من الحالات الشـائنة التى لا تجمل بمفتى الديار .. فلا يصعب على الخديو بعـد ذلك ان يأمر باخراجه من المناصب الدينية ومن وظيفة التعليم بالجامع الازهر ، ولا يستطيع المستشـارون الذين

يشهدون مجلس الوزراء أن يعارضوه باسم القانون المالى ونظام تأديب الموظفين

وقد تولى هذه المهمة مكاتب « المؤيد » بالآستانة فقدم نفسه الى الاستاذ ، وعرض عليه خدمته لتمكينه من الفرجة على مناظر البلد التى يجهلها السائح الغريب ولايهتدى اليها بغير دليل ، ولولا يقظة الشيخ محمد عبده وانتباه بعض المصريين فى الآستانة الى خبيئة هذه الدسيسة لاعتقل الشيخ فى جهة من جهات اللهو المنكر يراقبها الشرطة ، ويستطيعون على الاقل أن يخرجوا من البلد من يصطدم فيها بالمشاغبين الغرباء .. فيحق القول على الامام « المتهتك » وتكون هى القاضية على سمعته وعلى جهوده ومشروعاته فى سبيل الاصلاح

وأمثال هذه « المؤامرات » بين سماسرة القصور وحملة الاقلام أكثر من أن تحصى ، كنا نسمع ببعضها فى حينه .. ولكنها لاتنشر فى الصحف السيارة الا بأسلوب التورية والتلميح ، أو تنشر عنها الكتب التى تصاغ بأسلوب « القصة » الخيالية وابطالها جميعا معروفون

ولم تنقطع هذه المؤامرات كل الانقطاع الى زمن فاروق ، ولكنها ذهبت شيئا فشيئا على مراحل متعاقبة ، ترتبط كل الارتباط بتواريخ القصور « ذات الشأن » كما يقال فى التعبيرات الحديثة ، وهى مراحل العلاقة بين قصر يلدز وقصر عابدين ، ثم مراحل العلاقة بين قصر عابدين وقصر الدوبارة ، وهو عنوان دار الوكالة البريطانية المشهور

ولهذا كانت الناحية الدينية غالبة على هذه المؤامرات فى مرحلتها الاولى ، وكان محورها الاكبر مسألة الخلافة

ومسألة السمعة الدينية أو الدعاية التى لها علاقة بالدين وبالاخلاق

كان السلطان العثمانى يتهم الخديويين بالسعى الى تحويل الخلافة من الترك الى البلاد العربية ، وكان الخديويون يحذرون من سلطان الخليفة لانه السلطان الذى كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام الوراثة أو يساوم الدول الاوروبية على حساب الخديوية المصرية ، كلما كانت له فى ذلك مصلحة من مصالح السياسة الدولية

ومن هنا جاءت تلك القضايا التى ترتبط بمناصب الافتاء ومشيخة الطرق الصوفية ومنازعات الزوجية والكفاءة لها من وجهة النسب والوجاهة الاجتماعية ، كما جاءت تلك الاقاويل التى تدور على اتهام كبار الرجال العاملين فى نهضة هذه الامة ، لانهم ينازعون الخليفة أو الامير ، ولا يسهل التغلب عليهم بغير التشهير وتدبير المواقف التى تنفر الناس منهم باسم النخوة الدينية على الخصوص

وقد ذهب عهد عبد الحميد ، وبقيت لمسألة الخلافة ذيولها التى شهد المعاصرون آثارها فى حياتنا الفكرية .. فان الثورة الفكرية التى اشتبكت فيها أقلام العلماء والادباء شهورا فى هذا البلد بعد ظهور كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لم تكن لتشتعل هذا الاشتعال لولا طموح احمد فؤاد الى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانه عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الامبراطورية الهندية ، ولو بلغ من شأن الخلاف أن يشغل أقلام العلماء والادباء كما شغلهم يومذاك لما بلغ من شأنه أن يستفحل حتى يؤدى الى سقوط الوزارة واثارة المشكلة الدستورية على وضع جديد

وللناقد الادبى ـ اذن ـ أن يجعل شعاره « فتش عن القصر » أو « فتش عن قضية الخلافة » ليفهم حقيقة لاغنى عنها فى تقدير مدارسنا الادبية فى الجيل الماضى وتقدير أسباب التجمع والتفرق بين حملة الاقلام فى كل مدرسة منها ، وبغير هذا « الشعار » يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الاسباب الكامنة وراء تكوين تلك المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة ..

ولنضرب لذلك ـ مثلا ـ قصيدة الاستقبال التى قيل فى مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد

وقيل فى ختامها :

اعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الارض حين تسود

فدسيسة القصيدة ـ على حد قولنا دسيسة الرواية ـ هى قضية الخلافة واتهام الخديو عباس الثانى بالطموح اليها

والاطراف المعنيون فى القصيدة ـ كما ظهروا للناس ـ هم السيد توفيق البكرى ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ حمزة فتح الله ، واحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » ومن وراء الستار السيد ابراهيم المويلحى والسيد محمد المويلحى ، والسيد على يوسف ، وأدباء الحاشية الخديوية

فالسيد توفيق البكرى شيخ الطرق الصوفية ، والسادة البكرية ركن مهم من أركان قضية الخلافة بما كان له من المكانة الدينية وماكان له فى الآستانة من « الصفة الرسمية » التى خولته منزلة من الرئاسة تقارب منزلة الخديويين ، وهذه هى الصفة التى عناها حين أهانه الخديو عباس فقال فى جوابه :

« أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك »

والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى كان فى تلك الآونة طالبا فقيرا من طلاب الجامعة الازهرية ، ولكن انتسابه الى الشرف النبوى هو الذى قربه من شيخ الطرق الصوفية وزج به فى منازعات الخلافة ومناوراتها

والشيخ حمزة فتح الله هو احد علماء اللغة من المغاربة الذين كان القصر الخديوى معنيا بضيافتهم مع أمثالهم من علماء البلاد العربية ، لاكتساب الصفة الاسلامية .. ودوره فى قضية القصيدة أنه شطرها ليرد هجاءها الى ناظمها ، ويعنيه عناية خاصة من ناحية النسب وعراقة البيت ، وفى هذا التشطير يقول :

قدوم ولكن لا اقول سعيد
على فاجر هجو الملوك يريد
لئام لهم « بيت » من اللؤم عامر
وملك وان طال المدى سيبيد

واحمد فؤاد هو صاحب صحيفة « الصاعقة » التى انشئت لتكون صحيفة « الهجاء الاجتماعى » الاخرى أمام السيدين المنتسبين الى الامام الحسين ، وقد كان يومئذ الى جانب الآستانة ، فى تردده الطويل بين القصرين : قصر يلدز وقصر عابدين

والمويلحيان ، وعلى يوسـف ـ كلهم ينتسب الى الشرف ، وكلهم يخوض معركة الكفاية الزوجية باسم الانتماء الى السادات ، ومنظومات عام الكف وعام الكفء بعض ثمرات هذه المناوشات

ومن وراء ذلك حاشية الادباء فى قصر عابدين ودورهم فى القضية مستور ، ولكنهم يقومون به من وراء الحملات التى تشن على أدباء القضية من وراء ستار

* * *

وفى المرحلة الثانية من مراحل المؤامرات بين القصور وحملة الاقلام ، تأتى مؤامرات النزاع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة مقر العميد البريطانى الذى كان يلقب بقيصر قصر الدوبارة ، واليه يوجه حافظ ابراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا
فالشرق ريع له وضج المغرب

وعنه يتحدث حين قال :

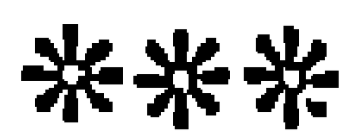
وما دام فى قصر الدبارة ربه
فسعد ودنلوب لعمرك واحد

وعلاقته البعيدة بمدارس الشعر تظهر فى منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم أن يسمى قصائده بالكروميات معارضا بها « الشوقيات »

* * *

ولولا أن عاملا جديدا ظهر فى الوسط ـ وهو عامل الحركة الوطنية ـ لكان مجال المؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر ، بلا

استثناء ، لمجاله الاكبر بين يلدز وعابدين ، ولكن ظهور هذه الحركة تحول بأصحاب الاقلام الى معركتها الصريحة فى الصحف وعلى منابر الخطابة ، ولم يترك للشئون الديوانية من الجانبين غير « اجراء ادارى » فى يد الانجليز لصرف الاقلام عن الكتابة السياسية ، واجراء ادارى آخر فى يد الخديو لصرفها عن الصحافة « المشاغبة » عموما الى ديوان الاوقاف ، فكان نفوذ المستشارين وراء تشجيع المجلات العلمية والادبية باشتراك الوزارات فى مئات النسخ من أعدادها الشهرية أو نصف الشهرية ، وكان نفوذ الخديو وراء تعيينات الادباء الكبار والناشئين بديوان الاوقاف ، ومنهم محمد المويلحى كاتب « مصباح الشرق » و « عيسى بن هشام » وأحمد الازهرى صاحب مجلة « الازهر » وعبد العزيز البشرى ابن شيخ الاسلام ، ومعهم ادباء آخرون لم يكن للخديو يد مباشرة فى تعيينهم بالديوان ، ولكن تعيينهم هناك شغلهم بالشعر عن الكتابة الصحفية وجعل من بعضهم شعراء يتسابقون الى نظم المدائح الخديوية فى مناسبات المواسم والاعياد



وانتهت بانتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية مدرسة الكتاب والادباء الذين كانوا يضعون قدما فى هذا البلاط أو ذاك وقدما أخرى فى بلاط صاحبة الجلالة ، ونشأ الجيل الجديد من الكتاب والشعراء فى الهواء الطلق ، أو فى جو الحركة الوطنية بما اشتمل عليه من نواح واطراف .. تارة الى القصور وتارة عليها فى صف المعسكر الجديد ، وهو معسكر الامة بنواحيه واطرافه التى اشرنا اليها

انتهت تلك المدرسة من أصحاب الاقلام ، ولم تنته مؤامرات القصر « القلمية » من طرف واحد او من كلا الطرفين .. وقد كانت المصروفات السرية بعض وسائل القصر الخديوى لاصطناع الانصار ومحاربة الخصوم ، ولم تكن كلها تصرف فى خدمة السياسة الخديوية أو مطامع الخديو الشخصية ، ولكنها كانت كلها تصرف فيما يرضى الموكلين بتوزيعها على محررى الصحف والمشتغلين بالادب المنظوم والمنثور ، وبعضهم كان من كبار موظفى القصر ، وغيرهم كانوا من سماسرة الرتب والنياشين غير الموظفين ، وربما استعين بأموال الخاصة لهذا الغرض اذا خيف انكشاف الامر لديوان الرقابة على الميزانية

والى عهد غير بعيد كان لاموال الخاصة ـ مع المصروفات السرية ـ عملها فى اصطناع المحررين والمؤلفين لتعبئة المعسكر « القلمى » حول دعوة الخلافة تارة ، وحول الخصومات الادبية التى تعنى القصر تارة أخرى

فكانت الخاصة فى عهد أحمد فؤاد تتولى الانفاق على أبناء بعض الكتاب فى المدارس المصرية والاجنبية ..

وكانت هذه الخاصة ـ مع مكتب المصروفات السرية ـ تنفق على انشاء المطابع والمجلات لمحاربة الادباء المخالفين لسياسة القصر والمناصرين لدعوة غير دعوته الخفية أو العلنية

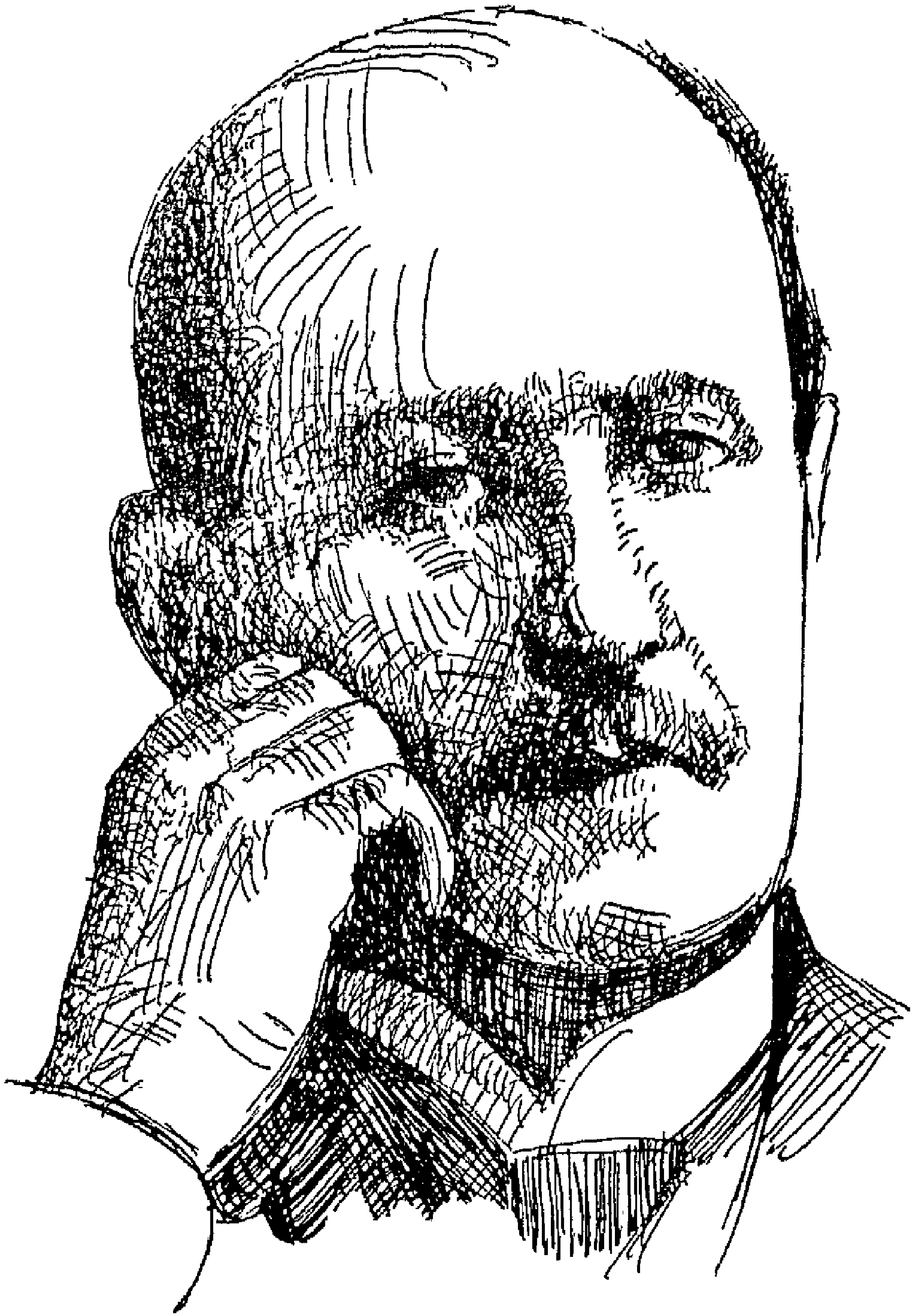
فى هذه الفترة نشأت المدرسة الادبية التى ينتمى اليها كاتب هذه السطور ، وفى هذه الفترة تعرضت هذه المدرسة للتشهير والتنديد فى الصحف الاسبوعية التى تخصصت للهجاء الاجتماعى والمناورات الادبية والسياسية .. وكلها صحف يعرف من عرفوها أنها

تقصد بحملاتها من يبذلون المال فى سبيل اتقائها ، ولا يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، الا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها ! ..

وتقدير الحملات الادبية ، والمدارس الفكرية أيضا ، فى هذه الفترة المتأخرة يعود بالناقد المحقق - لامحالة - الى ماوراءها فى سراديب القصر وحواشيه ، فلاحيلة له فى اجتناب هذه الناحية الخفية لتصحيح الحكم على طبيعة كل حملة أدبية ولباب كل خصـــومة عامة أو خاصة بين القائمين بها ، وان لم يكن كله لازما فى أمر المدارس المتأخرة لزومه فى أمر المدارس على عهد الادباء الأســـبقين

ونظرة واحدة الى ماوراء الستار قد تغنى عن بحوث مستفيضة يجتهد لها الباحثون لوزن الدعوة أو وزن الحملة بميزانها الصـــحيح ، فلن يدرك البـاحث حق الاسلوب من الرفق أو الشـــدة ، ومن الاعتـدال أو الاندفاع ، اذا كان نظره قاصرا عما يســتدعيه ويدفع بصاحب القلم اليه ، فان الاسلوب الذى يستدعيه نقد فكرة غير الاسلوب الذى يستدعيه احباط مـكيدة من وراء الستار ، يمالئها سلاح السلطان كما يمالئها سلاح الدرهم والدينار





الدكتور يعقوب صروف

كنت فى زيارة للقاهرة حين لقيت الدكتور يعقوب صروف صاحب «المقتطف» حوالى سنة ١٩٠٥ ..

وكانت زيارات القاهرة فرصة للبحث عن الكتب الخاصة التى لا تصل الى الاقاليم مع الباعة المتجولين ، وقد يتطلب البحث عنها زيارة حى « الكتبية » الى جوار الأزهر ، أو زيارة حى الفجالة حيث تباع المطبوعات العصرية ، لأن قوائم المكتبات لم تكن يومئذ شيئا معروفا فى بيئات النشر والمطالعة ، وكان المعروف المتداول منها لا يغنى عن البحث فى المطبعة التى طبعت الكتاب والمكتبة التى تبيعه .. وقلما يباع فى سواها ..

أما الكتاب الذى قصدت الى دار المقتطف فى مدخل شارع عبدالعزيز للبحث عنه ، فهو كتاب «الكائنات» للشاعر الباحث العراقى جميل صدقى الزهاوى ، وكانت مجلة المقتطف هى التى تولت طبعه فى القاهرة لانه يبحث فى موضوع من موضوعات « فلسفة ما وراء الطبيعة » .. وهى تلك الموضوعات التى كانت تثير الريبة فى الاقطار الشرقية الى ما بعد أوائل القرن العشرين

ولقد كان لقاء الدكتور يعقوب صروف ــ فيلسوف العصر عند المحدثين ــ هو الغرض الاول من زيارة الدار، اذ كان فى وسعى ان اسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان فى وسع عامل المخزن أن يتولى اخراج الاذن ببيعه من رئيسه فى ادارة المقطم أو ادارة المقتطف، ولكننى قدمت الى القاهرة من مدينة « قنا » حيث كنت اعمل تلميذا بالقسم المالى فى انتظار التثبيت وأنا خارج من احدى «المعامع» الادبية او الفكرية ، التى كان « يعقوب

صروف » محـورا من اهم محـاورها الكثيرة طوال ايام الحرب الروسية اليابانية ..

ولابد من ذكر الحرب الروسية اليابانية فى هذا المقام، لانها كانت فى الواقع محور المحاور فى ميادين العصبيات السياسية والوطنية ، والصحفية والادبية يومذاك ... بل كانت محور المحاور فى كل عصبية يثور لها الشـبـاب الذى يعنى بشأن غير شئونه الخاصة كيفما كان ..

وكان النزاع حول الطرفين ــ روسيا واليابان ــ يشمل ضروبا من النزاع حول كل موضوع عام يشغل أذهـــان الناشئة على الخصوص ..

فكان النزاع الوطنى يميل بالاكثرين من الشبان المصريين الى جانب الدولة الشرقية الناهضة ، او دولة « الشمس المشرقة » التى الف فيها مصطفى كامل كتابه بهذا الاسم، كأنها المثال الاول للامم الشرقية المجاهدة فى قضايا الحرية والنهضة والاستقلال ، وفيها يقول حافظ ابراهيم :

هـكذا الميكاد قد علمنـــا
أن نرى الأوطان اما وأبا

وكان التنافس بين خريجى المدارس الانجيلية والمدارس المحلية الارثوذكسية على أشده وأوسعه فى عواصم الصعيد، ولا سيما فى أسيوط ، فكانت روســيا رمزا لعصبية المدارس الارثوذكســية ، وكانت اليــابان رمزا للعصبية الاخرى لانهـــا صديقة الدول الانجيلية التى تعـــادى روسيا فى قضايا السياسة العالمية ، وفى مقدمتها انجلترا والولايات المتحدة ..

وكانت العداوة بين دولة القيـاصرة ودولة الخـلافة الاسلامية سببا لعصبية اخرى ، جمعت انصار دولة الخلافة

الى صف واحد يناصر اليابان ، فى سبيل الوطنية وفى سبيل الدين ..

وكان أصحاب المقطم والمقتطف للمرة الاولى فى صف واحد مع انصار الوطنية وانصار الدولة العثمانية ، مع ما هو معروف من موقفهم حيال تركيا وحيال بريطانيا

أما عصبية الثقافة ، فقد ابرزت امام الخريجين من المدارس الانجيلية اسمى «يعقوب صروف» و « فارس نمر » صاحبى المقتطف والمقطم ، لانهما كانا فى عالم الكتابة انبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة فى عالم الصحافة الشرقية . وكانت هذه العصبية تبلغ مبلغ الهزل على السنة المتشيعين لهذين الكاتبين حين يجعلونها موضوعا من موضوعات النظم شعرا وزجلا ، وهم لا يحسنون هذا ولا ذاك باللغة الفصحى ولا باللغة العامية .. ومما يحضرنى من ابيات «الزجل» فى الثناء على « فارس نمر» قول احدهم:

فارس نمر تعلملى وتهذبلى
وفى فنون العصر نابغلى

نابغلى فى علوم العصرى
وكان ساكنلى فى بلاد الشاملى

واسمع له فى الخطابة وتعال قل لى
واقرا له فى المقطم والمقتطف يا خلى

واذا بلغ بالحماسة «الادبية» ان تنطق من لا ينطق بهذا « النشيد » فقد يتصور القارىء العصرى كيف كانت حماسة المتشيعين لكاتب المقتطف وكاتب المقطم عن فهم وادراك صحيح

أما نحن ــ من غير ناشئة المدارس الانجيلية ــ فقد كان تشيعنا لليابانيين لا يبلغ عندنا ان يشفع لـ « فارس نمر » أو يقربه الينا ، كاتبا أو سياسيا ، أو عالما كما اشتهر

فى اوائل عهـده بالصحافة ، ولكننا كنـا نمحض يعقوب صروف من اعجابنا الادبى كل ما كنا نأباه على زميله، وكان اعتزال صروف للدعاية السياسية يخرجه من ميـدان الخصومة ويكسبه من كرامة العلم ولاء مشتركا نتفق عليه مع زملائنا الخريجين من المدارس الانجيلية

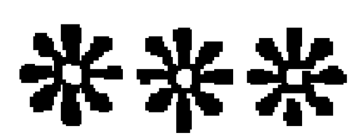
وقد أذكر الى اليوم كيف لقينى رهط منهم بعد عودتى الى قنا ومعى نسخة من كتاب «الكائنات» عليها كلمة بخط العالم الكبير

ولقد كانوا يستمعون لى كأنهم يستمعون الى حديث رؤيا غير قابلة للتصديق ، وكانوا يسألون : كيف حييته؟ وكيف رد عليك التحيـة ؟ وماذا قال لك حين أسـلمك الكتاب ؟ وهل فاتحك فى بحث من بحوثه ؟.. وماذا قلت له عن المؤلف ، وعن موضوع التأليف؟. وقد كانت دهشتهم الكبرى اننى لم أجد فى الرجل ما يثير الدهشة ان كانت الدهشة بمعنى الرهبة ، بل كان الرجـل فى الحق مثـلا للطيبة الابوية والوداعة الحكيمة ، فلم يختلف شعورى بلقائه الاول بعد ان لقيته مرات فى مكتبـه وفى داره وفى بعض المجالس الادبيـة ، ولم اره بعد ذلك على غير تلك الصورة التى شهدتها منه أول مرة ! .. بساطة لا تخلو من تحفظ السمت والوقار ، وعاطفة أبوية يشمل بها كل من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين

عتب على اول الامر اننى فاجأته بالدخول الى مكتبـه بغير استئذان ، ولكنه عاد يستسمحنى حين أكدت له اننى طرقت الباب طرقا خفيفا لعله لم يسمعه وهو مستغرق فى القراءة .. فقال مبتسما : « بل هو ثقل فى السـمع يعترينى من حين الى حـين ، فلا تؤاخـذنى اذا عتبت عليك ..! »

ولكن الحـدة التى فاتتنى من صاحب الدار لم تفتنى

من عامل المخزن حين خرجت بالكتاب لتسليمه ورقه الاذن ببيعه ــ وأظنه كان متمصرا طال مقامه بالقاهرة ــ لانه نظر فى عنوان « الكائنات » وقال مازحا : « جاك كائنة ! » .. وهى دعوة لايعرفها غير المصريين أو المتمصرين، وانما قالها ليقول اننى افلحت فى تهدئة غضب الدكتور واعفيته من الجزاء الذى كان مستحقا له لو لم اقنع الدكتور ببراءة موظفيه من التقصير ، لاننى قصدت ان القاه ابتداء ، ولم يكن دخولى الى مكتبه لخطأ من اولئك الموظفين



ولا يحضرنى تفصيل الحديث الموجز الذى سمعته من الدكتور صروف فى تلك المقابلة الاولى ، ولكنه دار على الاجمال حول فلسفة « ما وراء الطبيعة » وعلقت بذهنى كلمة منه لغرابتها أو لغرابة صدورها من « الفيلسوف يعقوب صروف » . وتلك هى قوله انه لا يتقبل تلك الفلسفة ، أو لا يهضم تلك الفلسفة ، أو عبارة دارجة بمعنى هاتين العبارتين ، على حد قول القائلين فى التعبيرات الاوربية الشائعة : « اننى لا ابتلع هذه الفلسفة »

وفوجئت ، ولا غرابة ، بذلك التصريح من رجل لم يشتهر فى عالم الثقافة العربية يومئذ بما هو اشهر من صفة الفيلسوف ، ولم نعلم أن أحداً غيره وغير زميله « فارس نمر » حصل على لقب « الدكتور فى الفلسفة » من جامعة غربية ، وانما كنت أفهم فى بداءة عهدي بالاطلاع على فلسفة « ما وراء الطبيعة » انها هى الفلسفة كلها أو هى الفلسفة فى أهم مسائلها وقضاياها ، فان لم تكن هى كذلك فهى ــ على الاقل ــ شيء لا يصعب هضمه على «الفيلسوف» ــ بألف التعريف !

الا ان الدكتور عرفنى بتلك الكلمة العابرة بحقيقة

رسالته فى نهضة الثقافة العربية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فكان من الخطأ ان نفهم من تلقيبه بالدكتور فى الفلسفة أنه فيلسوف كفلاسفة البحوث المنطقية النظرية ، فى قضايا الغيب المجهول ومشـــكلات «ماهية الوجود» على منهج أرسطو وابن سينا وابن رشد والغـزالى ومحيى الدين ، وانما هو فيلســوف فى نطاق العلوم التجريبية التى يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وان تناولت مباحث التاريخ والاخلاق ، ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لاثبات الفضاء المحدود وغير المحدود

وبعد أكثر من عشر سنوات ، سمعت منه مثل هـذا الرأى فى فلسفة « ما وراء الطبيعة » خـــلال حديث اذكر مناسبته ولا اذكر زمنه على التحديد ، وقد كانت هـذه المناسبة تعقيبا على مقال للآنســة « مى زيادة » حــول فلسفة « برجسون » لم أقرها على كثير مما فيه ، وكان الدكتور صروف يقرأ تعقيبى وهو يبتسم ، ويقــول بين آونة واخرى : « يا رجل !.. اتتمرجل على بنت ؟.. » فاستعدت منه المقال ، وعلمت بعد ذلك انه أطلع الآنسة على ملخص ذلك التعقيب !

وفى خلال المناقشة حول كلام الآنسة ، وتعقيبى عليه، علمت منه مرة اخرى انه ينظر الى الفلســفات التى على غرار فلسفة برجسون من ناحيتها العلمية التى تنطبق على قضايا الحياة الانسانية ، ولا تخوض وراء ذلك فى احاديث «الغيبيات» وفروض ماوراء الطبيعة ، وان فكرة التطور فى كتابة برجسون تعنيه لانها على اتصال بمذهب داروين ، ولا اذكر اننى سمعت منه ــ يومئذ ــ كلاما يدل على التوسع فى الاطلاع على مذهب الفيلسوف الفرنسى، ولا على مذاهب زملائه الاوربيين فى تلك الفترة

وبعد سنوات أخرى قرأت خلاصة المناقشة التى دارت بين الدكتور صروف وبين الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مجلس على مبارك باشا ، فأكدت لى أصالة هذه النظرة الى الفلسفة فى رأى الدكتور صروف منذ زمن بعيد ، وخلاصة هذه المناقشة انهم تحدثوا فى المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور : « ان الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها » ثم تساءل الحاضرون : « من يكون الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح ؟ » . قال الدكتور فى رواية السيد رشيد رضا : « هو الذى يتقن جميع العلوم » .. فقال الشيخ محمد عبده : « اذن لا يوجد على الارض فيلسوف » فعاد الدكتور يقول ما معناه : « انه لا بد ان يتقن علما من العلوم ويلم بسائرها » فقال الشيخ محمد عبده : « ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية ، على الم بالعلوم ويتقنون بعضها .. فما أكثر الفلاسفة بين الاطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى ! » ولما سئل الشيخ محمد عبده : « من يكون الفيلسوف اذن ؟ » قال : « ان الفيلسوف ـ كما يفهمه ـ هو الذى له رأى فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه »

ولم أزل القى الدكتور صروف بين آونة وأخرى الى ما قبل وفاته بقليل ، فأعرف منه فى كل مقابلة صورة واحدة لم تتغير منذ رأيته للمرة الاولى : صورة فيلسوف له عقل عالم مشغول بالواقع من الخبرة العملية ، وله مع هذا العقل العلمى قلب انسان ودود يحب الخير للناس ويغتبط بتوفيقهم للنجاح ..

واذكر اغتباطه بتوفيق الناشئين الى النجاح لأن كتابه المترجم عن صمويل سمايلز باسم « سر النجاح » كان

اول كتاب قرأته له واخبرته باعجابى به حين سألنى عن مؤلفاته ، ولم أزل كلما زرته اسمع منه سؤالا واحدا قبل كل سؤال : « ماذا صنعت لنفسك ولمستقبلك ؟ » فوقر فى نفسى ان كتاب « سر النجاح » لم يكن مجرد كتاب ترجمه وأضاف اليه ودل به على طريقته العلمية فى تحقيق السير والاخلاق ، ولكنه كان قبل ذلك ترجمانا لسجية الخير والمودة فيه ، وعنوانا لرغبته فى الحياة الناجحة ورغبته فى تعليم الناشئين جميعا كيف ينجحون ويسعدون بالحياة

كان يقول لى مازحا : « اياك أن تكون من شعراء شكوى الزمان ومعاتبة الاخوان ؟ .. وحذار ان تحسب « البؤس » زينة للاديب وقسمة مقدورة للاذكياء ؟ » !..

وسألنى مرة : « الا تصدق قول القائل : ان الناس فى طلب الدين حتى يصلوا الى العلم ، وفى طلب العلم حتى يصلوا الى المال ؟ »

وقبل أن أجيب سؤاله ، ولعله سأله وهو لا ينتظر جوابى عليه ، قال : « انك ان صدقته او لم تصدقه تستطيع ان تكون على يقين من حقيقة حسابية لا خلاف عليها وهى : اجمع الدراهم والدنانير تجمع نفسها ! »

ولا اعرف أحدا من كبار الادباء الذين عرفتهم فى ايام نشأتى قد عناه امر عملى الذى اعول عليه فى معيشتى غير اثنين : احدهما الدكتور صروف ، والآخر محمد المويلحى الذى رشحنى للعمل بديوان الاوقاف »

فلما علم الدكتور صروف أننى استقلت من العمل بالمدرسة الاعدادية ، فكر مليا ثم قال : « اننى اعلم أن القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل ان يكونوا من المسلمين، لانها تنوى ان تندبهم من حين الى حين

للسفر الى خطوط القتال وراء القناة وفى حدود سيناء ، ولا تريد أن يكونوا متهمين فى رواياتهم عن مناعة تلك الخطوط ان كانوا على غير دين الترك المغيرين على البلاد

فلما تبين منى النفور من القيام بهذه المهمة الصحفية مع وفرة العائدة منها ، قال : « أرى ان شعورك غير مستريح اليها .. وقالها بالانجليزية : «You don't sympathize with the mission».

فأجبته : « نعم .. فان المسألة ان كانت من احدى جهتيها غارة تركية على حدود مصر ، فهى من الجهة الاخرى حرب بين الجيش التركى وجيش الاحتلال ! »

قال : « فليكن لك رأيك وشعورك » .. ثم سألنى أن اعود اليه بعد يوم لامر لا علاقة له بهذه البعثة ، فاذا به قد اتصل بمدير مدرسة وادى النيل ليبلغه انه يرشح لمدرسته معلمين يعرف كفايتهما الادبية وصلاحهما للتدريس ويسأله أن يزوره غدا ليلقاهما عنده اذا شاء

اما اختياره لهذه المدرسة بذاتها ، فقد كان سببه — كما علمنا بعد ذلك — ان له (اطيانا) باقليم الفيوم ، وانه عرف عبد الله وهبى باشا لهذا السبب معرفة وثيقة يوم كان عبدالله باشا كبيرا للمهندسين المشرفين على الرى فى ذلك الاقليم ، وقد ذكر لنا أن الباشا كان حسن العناية بأطيانه ، ولم يذكر لنا أنه هو — أى الدكتور صروف — كانت له يد فى تزكية الباشا عند كبار الرؤساء الانجليز ، ودفع الوشاية التى عرضته للمحاكمة وانتهت باستقالته دون تقديمه الى مجلس التأديب .

وقد كان من جراء ذلك ، ان عبدالله وهبى باشا لم يأمل خيرا فى وظائف الحكومة لابنائه ، فأنشأ المدرسة الثانوية باسم « وادى النيل » لابنه الاكبر ، واتجه أبناؤه الآخرون اسماعيل ويوسف وعباس للعمل المستقل فى المحاماة وفن

التمثيل وشركات الهندسة والمعمار

وانني لأذكر كلمة «الاطيان» هنا كما كان يرددها الدكتور فى طيبة وديعة لا ننساها ، لاننا كنا نحس منه ارتياحا لتكرارها وهو يقول : « ذهبت الى اطيانى » و « شكرت لعبدالله باشا عنايته بأطيانى » ، و « فكرت فى قضاء الصيف بأطيانى » ، .. وكنا نحس مع هذا التكرار بغبطة بريئة كغبطة الطفل بكسوته الجديدة فى غير عتو ولا خيلاء ونحس مرة اخرى اننا مع الفيلسوف العليم بحكمة الحياة وحب النجاح

وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالى بمدرسة وادي النيل لان الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحى باب اللوق ، وكانت مكتبتى الخاصة لاتكفى للمراجعة فى مباحث التاريخ والادب التى كنت أتطلب مراجعتها بدار الكتب وفى غيرها ، وقد رخص لى الدكتور فى الانتفاع بمكتبة المقتطف ومجلداته القديمة كلما وجدت فيها منتفعا لبحوثى التي كان يسميها بالبحوث «السبنسرية» نسبة الى هربرت سبنسر امام مذهب الفلسفة والتقدم فى الفلسفة الانجليزية ، اذ كان يقول كلما ناقشته فى رأى مخالف لرأيه انها حجة سبنسرية : Spencerian argument

وان طريقتى فى الاستدلال تشبه طريقة سبنسر فى تحقيقاته ، وما كنت لأعيد هذا « التقريظ الشفوى » اليوم فى كتابتى عنه لولا انه سجله فى المقتطف حين قرظ ديوان صديقنا المازنى ، فقال عن مقدمتى له انها اشتملت على تحقيقات تشبه طريقة سبنسر فى الاستدلال

***

وعلى تعدد الزيارات لم يكن ينسى كلما زرته أن يسألنى عما أصنعه لنفسى ولمستقبلى ، وعما أجده فى المدرسة وفى شواغلى الادبية ، وكان يحثنى كل مرة على اتمام دراستى لابى العلاء المعرى التى نشرت منها مقالين فى المقتطف ثم اقتضبتها

للعودة اليها مع زيادة الشرح والتحليل .. فاذا انتقل الحديث الى موضوعات المقتطف أو موضوعات الدكتور التى يفكر فيها ، فقلما كان الحديث يستطرد بنا الى غير اللغة ومسائل الاجتماع مما له علاقة بالدين والاخلاق ، وقلما عرض للسياسة الا ان تتفق الزيارة على اثر حادث من الحوادث البارزة التى لا يتخطاها المتحدثون فى ابانها، وكذلك رأيته يوما وعلى وجهه مسحة الامتعاض الظاهر بعد أن تعاقب القاء القذائف على طائفة من الوزراء ورؤساء الدولة ، فقال بشىء من المرارة : « اننا تقدمنا جدا وأفرطنا غاية الافراط فى التقدم .. ولم لا؟ .. هذه مبادىء التطرف فى الوطنية تنتهى الى الطرف الاقصى من مبادىء الفوضويين ! »

وزرته يوما وهو يقرأ كلاما فى الصحف عن نهضة الاسلام وعودة السلطان الى الامم الاسلامية يستشهد فيه الكاتب بالآية القرآنية من سورة القصص : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

فسألنى بلهجته اللبنانية متبسطا : « وليش ما عمل؟ »

قلت : « ان الخالق يريد ، وعلى الخلق أن يعملوا بما أراد »

فعاد يقول فى جد ووقار : « نعم يعود الاسلام اذا عاد اهله الى صدق العقيدة .. » ثم يستطرد فيقول : « أن الاعرابى والمعزة لا يبقيان على شىء أخضر حيث ذهبا .. ولكن غيرة الاسلام هى التى ابتعثت من الاعرابى صانعا للدول والسلطنات » وأحسبه قال : « ان عالم الاسلام — محمد عبده — قد عرف طريق العودة ودل المسلمين عليه ، وما من طريق لتلك العودة غير العلم والاخلاق »

وربما جشمه البحث عن تحقيق كلمة لغوية أن يصعد السلم ليلتقط هذا الكتاب من هنا وذاك الكتاب من هناك، فلا يستريح او يحقق الصواب فى الكلمة قبل استعمالها فيما يكتب أو يترجم ..

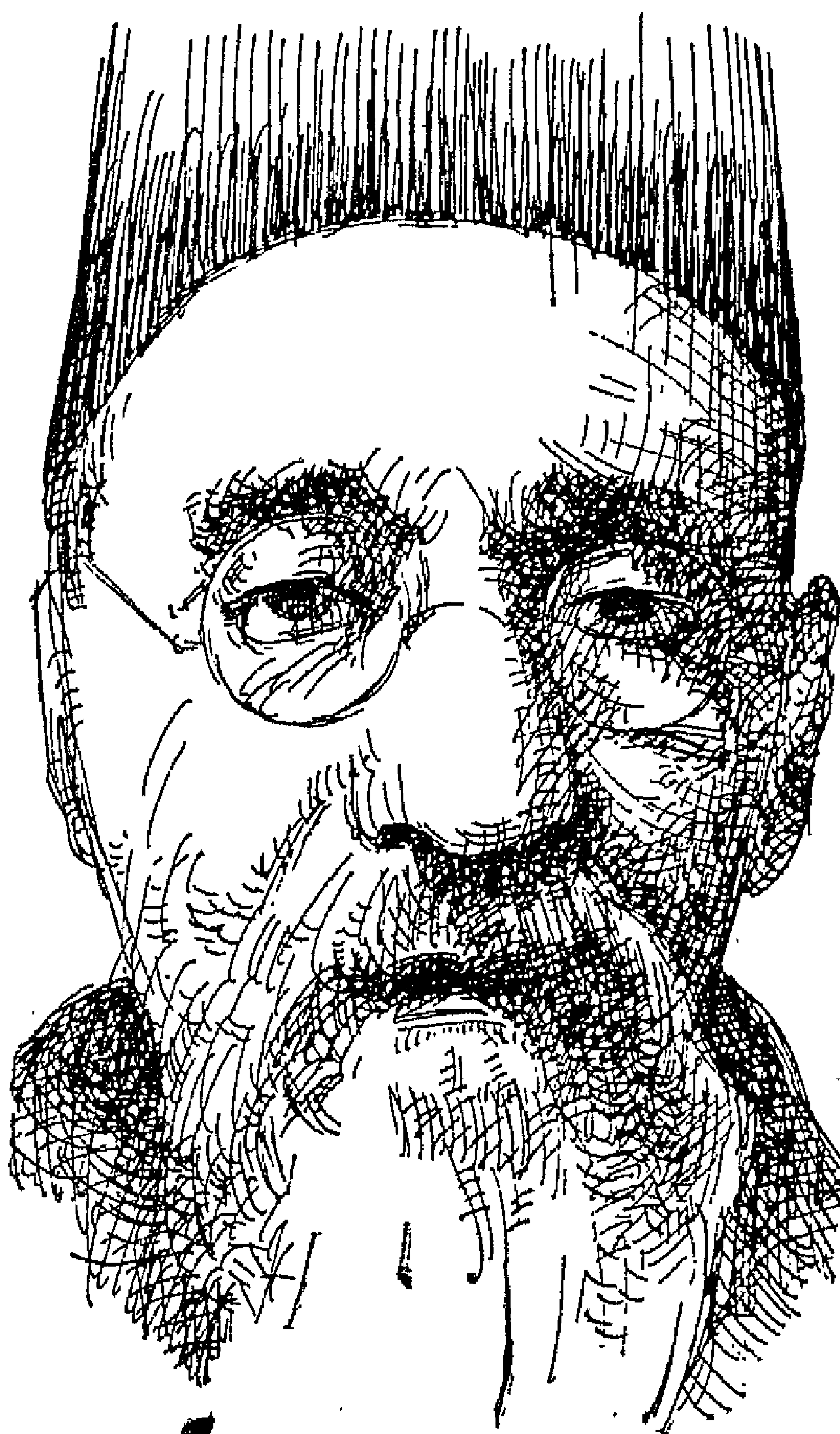
رأيته يوما على السلم يبحث عن كلمة «الشهية» هل وردت فى الكلام الفصيح بمعنى القدرة على اشتهاء الطعام؟ وهل من الجائز ان يقال على بعض التوابل والابازير انها تفتح « الشهية » ؟ .. فانتهى على أن كلمة المشهيات أصح ما يقال فى هذا المعنى، وأن القابلية خير من «الشهية» للدلالة على المقصود من تهيئة الجسم لطلب الطعام

ووجدته يوما يردد كلمات « نفق ونبق ونبك » بتفخيم الباء والكاف ، لانه كان يشك فى أصل كلمة « النفاق » ويحسب أن اجتماع الفاء والقاف فى هذا الوزن قليل فى اللغة العربية مطروق فى اللغات السامية والتركية

قلت له : « لقد اجتمعتا فى كلمتى الفقر والفراق وهما عربيتان بلا خلاف » . قال ضاحكا : «يا سوء ما اجتمعتا : فقر وفراق ! .. »

وتطرقت الاحاديث كثيرا الى مسائل الدين ، ولم يكن يكتم رأيه أن الخلاف قائم بين بعض العقائد وبعض المشاهدات العلمية ، ولكننى لم أسمعه قط يتكلم عن الدين فى اجماله بغير الاحترام ، ولم يكن له موقف من الديانات ورجالها غير موقف « سيد المجتمع » من العلية المسئولة ، وهو كما رأيت منه فى شتى المناسبات شبيه بموقف الرجل المهذب أمام الشيخ المطاع ، بما له من حق السن والخبرة فى كل ما خالفته فيه

وكذلك كان الفيلسوف الوديع فى عادات تفكيره وسلوكه: انسانا اجتماعيا يعطى العلم والعمل حقهما ، ولا ينسى حقا من حقوق العرف والتقاليد



جميل صدقي الزهاوي

— ١ —

من اللمحة الاولى تمثل لى كل ما فى طوية هذه «الشخصية» القلقة من نقائض التفكير :

حماسة تختلج لها كل اعصاب جسده ويتهدج معها صوته وتتلاحق فيه كلماته ونبراته ..

وفيم هذه الحماسة ؟..

فى النداء بالعقل وحده ، دون أن تخامره سورة من حماسة العاطفة والخيال ..

ذلك هو الزهاوى فى حديثه ، وذلك هو الزهاوى فى صفحات كتبه ودواوينه ..

دعوة الى برهان الواقع والمنطق، وصرخة من صرخات الشعور .. كأنها فقدت كل برهان وكل وسيلة من وسائل الاقناع ..

وكان لقائى الاول له فى مجلس الآنسة «مى» بمسكنها الاول عند ضريح الشيخ « المغربى » وهو من مزارات القاهرة فى حى من احيائها التى تسمى بالافرنجية ..

وقد ساقنا الحديث عن الضريح المعترض فى غير مكانه الى الحديث عن الخرافات التى تروى عن كرامات الاولياء، واستطرد به هذا الحديث الى ذكرياته عن مجلس الاعيان بالعاصمة التركية يوم كان عضوا من أعضائه العرب فى عهد السلطان عبدالحميد

قال : « ان قطعة من قطع الاسطول العثماني احترقت، فقام احد زملائه فى المجلس يقترح على الوزارة ان تشترى من كتاب « البخارى » نسخا بعدد قطع الاسطول تودعها فيها ، امانا من الحريق وضمانا للسلامة »

فوثب الزهاوى ليرد على الزميل ، وليقول له : « ان السفن الحربية لا تسير فى هذا الزمن بالبخارى .. وانما تسير بالبخار ! »

وقد وثب الزهاوى وهو يعيد هذه القصة ما استطاع الوثوب ..

وداعبته قائلا : « وهل سلمت من عاقبة هذا التجديف ؟ »

قال فى غير تمهل : « ان لم اسلم فاننى لم أندم !.. »

وأعجبت الآنسة « مى » بحديثه ، فأولعت به تستثيره لمناقشتى فى مسألتين لم يكن بيننا قط وفاق على واحدة منهما : مسألة الألم ، ومسألة المرأة

فقد كانت تدين بأن الالم طبيعة الحياة ، وكنت أعود بقضية الالم الى قضية المرأة كلما سمعتها تردد هذه العقيدة ، فما هى الا طبيعة الشكوى التى تحلو لبنات حواء ، وطبيعة الحنان الذى يسرها أن تعطيه كما يسرها ان تتلقاه ..

أما الخلاف على قضية المرأة ، فقد كنت فيها مع السيدة والدة الآنسة طرفا واحدا تنفرد أمامه الآنسة وحدها كلما اختلفنا على كفاية المرأة للنيابة وللانتخاب ، فى ابان معركة الدستور ..

وأذكر أننى استحلفتها يوما اذا تنافس امامها مرشح يمشى على قدميه الى صندوق الانتخاب ومرشح آخر

يصل اليه فى سيارته « الرولز رويس » فمن منهما يظفر بصوتها ؟

فأسرعت والدتها تجيب عنها : « انا اقول لك ولاحاجة بك الى كلامها : صاحب السيارة ولا خلاف ! »

فلما حمل الراية فى هذا الخلاف رجل « من جنسى » كانت شماتتها اكبر من شماتة الغلبة فى الرأى ، وطفقت تستعيده الى قضية المرأةتارة والىقضية الالم تارةاخرى كلما اوشكنا ان نفرغ منهما ، فلما اردت أن احسم هـــذا « النزاع » المدبر اخيرا وقلت للاستاذ : « اننى قد أرى معك أن الآلام اكثر من الافراح فى الحيــاة .. » صفقت بيديها وضحك الزهاوى ، ولم امهله حتى حسبت عليه هذا الضحك حجة تفند دعواه، فسألته : « ألعلك لاتنتصر كثيرا مثل هذا الانتصار ؟ »

ولسنا بصدد الافاضة فىهذه المسألة لبيان ما اعتقد فى نصيب الحياة من اللذة والالم ، ولــكننى اوجز ما عنيت بكثرة الالم مع انكار طبيعة الالم فى الحيـــاة .. عنيت أن الحــوائل دون الفرح قد تتكاثر وتتكرر ، ولكنها لا تمنع أن طبيعة الحياة بغير حائل هى الفرح والرجاء ..

***

ورأيت بقيــة النقائض فى هذه « الشخصية » ـ التى لا تعرف التوافق بينها وبين نفسها ـ يوم زرته بمسكنه فى حجرته المفروشة الى جوار صحيفة الاهرام ، فقد كان نصير السفور الاكبر يخاطب زوجته من وراء ستار كثيف يحجبها عن النظر ويكاد يحجب صــوتها الخفيض لو لم نجتهد فى الاصغاء اليه !

ولم اكد افرغ من التحدث اليه فى جملة عقــائده حتى تحققت أنها وثبــات كوثبــات اللاعب الرياضى فى ســاعة واحدة : صعود وهبوط ثمهبوط وصعود ، ثم عود الى

الصعود وعود الى الهبوط .. كأنمـــا كان كل وقت من اوقاته نموذجا مختصرا لادوار التطور فى العمر كله ، لولا انها ادوار لا تتسلسل على اطراد ..

وعلمت بسفره فى اللحظة الاخيرة ، فأسرعت الى محطة العاصمة اودعه وتمنيت ان اراه مرة اخـرى فى القـاهرة فقال : « ذلك ما ارجوه ، واحب الى ان اراك فى بغداد »

ثم تمت النقائض جميعا بعد سفره ببضعة أشهر .. اذ سألنى أحد قرائه فى تونس عن رأيى فى أدبه ، فأبديت ذلك الرأى كما اعتقـدته ، وقلت انه فى بحـوثه الفكرية ارجح منه فى معانيه الشعرية

وكان من الحق ان يغتبط نصير العقل على العاطفة بهذا الثناء الذى لا غنى فيه من وجهة نظره ، لو استقام على السواء فى ايمانه بالعقل دون الشعور والخيال ، ولكنـه غضب مما كان خليقـا ان يرضيه ، وجـاءنى البريد من بغـداد بخطاب عليه توقيع مسـتعار ، يقول كاتبه : ان مجلة « لغة العرب » للاب الكرملى تنوى ان تتناول ديوانك بالنقد اللاذع فى لفظه ومعنـاه ، وان الزهاوى صـديق للكرملى فى وسعه ان يثنيه عما ينتويه !

ان فى هذه المناورة « البريئة » دلالة على طيبة فى غضب الرجل أظرف وأطرف من طيبته فى رضاه ، وانها ـ ولاريب ـ لن تصدر من قلب يضمر الكيد ، او يكون له من الكيد حظ أوفر من حظ الطفل البرىء !



- ٢ -

اطلعت فى مجلة « المكتبة البغدادية على مقال للسيد اكرم زعيتر اعن (ذكرياته لشاعر العراق الزهاوى) قال فيه من حديث جرى بينه وبين الشاعر فى آخر لقاء له قبل سفره من بغداد :

« قال - أى الزهاوى - هل اطلعت على الاوشال ؟ قد كنت أظن وقد رق عظمى أن زمنى لن يمتد بى كثيرا ، فسميت مجموعة قصائدى الاخيرة « الاوشال » ثم نظمت بعد ذلك قصائد اخرى ، أعتقد أنها آخر ما انظم فى حياتى التى أرانى مغادرها قريبا ، وقد جمعتها فى ديوان سميته الثمالة ليكون آخر ما يطبع لى ... »

قلت : « وهل للاستاذ شعر لم يطبع غير الثمالة ؟ »
قال : « أجل .. انه ديوان لاينشر فى القرن العشرين »

وكنت قد علمت من الزهاوى نفسه أن له شعرا كثيرا لاينشره ، وانه سيوصى بنشره بعد وفاته . وفارق القاهرة وهو يكرر لى حديثه عن الشعر المطوى الذى يعتقد أنه اذا نشر فى يوم من الايام فلن يتسع لنشره بلد غير القاهرة بين البلدان الشرقية

وقد سمعت أخيرا ان كتابا ظهر فى القاهرة باسم « الزهاوى وديوانه المفقود » فاعتقدت لاول وهلة انه هو مجموعة الشعر التى تحدث عنها الزهاوى الى الاستاذ أكرم زعيتر ببغداد وأومأ بنبأها الى فى القاهرة ،

واطلعت على الكتاب لمؤلفه الاديب « هلال ناجى » فصدق ظنى فى موضوعه ، وان كان المؤلف الاديب قد توسع فى أبوابه فتناول فيه مباحث شتى عن الزهاوى وما كتبه وما كتب عنه ، غير ديوان « النزغات » وهو اسم الديوان المفقود

وحرص المؤلف على تحقيق نسبة « النزغات » الى الزهاوى ، فاستقصى الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة .. وكلها مقنعة ، بل قاطعة ، فى اثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى احتواها ديوان « النزغات » ، كما تركه الزهاوى عند تسليمه الى الاستاذ سلامة موسى ، وعند انتقاله منه الى الدكتور زكى أبى شادى بغير زيادة فيه ، وهو مرقوم على الآلة الكاتبة غير مصحوب بالاصل المخطوط

على اننا نستطيع أن نصحح نسبة النظم فى هذا الديوان الى الزهاوى من الدليل « الداخلى » فىأسلوب الشاعر « النظمى » كما يقول النقاد ، واظهر مافى هذا الدليل « الداخلى » أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل على كثير من ذلك الشد والفتل الذى يطوع به الشاعر كلماته لأوزان العروض

فالشاعر الذى يقول :

عاش فى الغاب القرد دهرا طويلا

قبل أن يلقى للرقى سبيلا

هو الشاعر الذى يقول فى ديوان النزغات :

ـ هذه الدنيا دار كل جزاء ـ

وهو الذى يقول فيه :

عسى الذى عاف أرضه أن
يضـــــمه عالم جـــديد

وغير ذلك كثير من « الاسلوب النظمى » فى ســـائر منظومات الديوان ..

أما الاسلوب « الفكرى » فهو كذلك مطابق لاسلوب الزهاوى فى كل مانظم من الشـــعر منذ عالج نظمه فى أوائل حياته ، ومما لاشك فيه أن أفكار الديوان المفقود ليست غورا جديدا فى تكوين آراء الشاعر مع الزمن كما قد يتوهم القارىء من قول الزهاوى أنه آخر مانظم ، وانه يحتوى أفكارا لم ينشرها قبل ذلك فى حياته

اذ المحقق من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الايمان واليقين ، أن هذه الدلائل جميعا قد وجدت فى مؤلفاته الباكرة كما وجدت فى مؤلفـاته الاخيرة ، على درجة واحدة من القوة والوضوح

واغلب الظن أن العـالم الدينى المفـكر محمد فريد وجدى قد أصاب الحقيقة حين قال فى مجلة الازهر مما نقله الاديب هلال ناجى فى الصـفحة الـ « ٣٠٠ » من كتابه .. فانه لاحظ أن الزهاوى : « يكتب الشىء ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه الكائنات .. فقد جرى فيه على أسلوب الماديين .. ثم ختمه بكلمـة تحت عنوان « ابتهال » حقر فيها كل الآراء التى قررهـــا فى الكتاب ، وذكر أنه انما جرى فيها على اسـلوب الماديين لبيان مذهبهم .. اما هو فيبرأ الى الله منهم ومن آرائهم، ويرجو من يقرأ الكتاب الا يعتد بما قرره فيه »

ثم عقب الاستاذ وجدى على هـذا الاسلوب قائلا :

« انه أسلوب فى الكتابة كل مايمكن أن يعتذر عنه انه يلجأ اليه هربا مما قرره »

وكل ما نزيده على تعقيب الاستاذ وجدى ان الزهاوى قد يبادر فى مفتتح كتابه الى تحقير آراء المتهجمين على الحقائق الكبرى كحقائق عالم الغيب وما يسميه الباحثون بحقائق ما وراء المادة ، فانه افتتح كتابه «الكائنات» الذى الفه فى مقتبل صباه بهذين البيتين :

وما الارض بين الكائنات التى ترى
بعينيك الا ذرة صغرت حجما

وانت على الأرض الحقيرة ذرة
تحاول جهلا أن تحيط بها علما

وهذا غاية ما يقوله المفكر المتواضع أمام عظمة الكون لكبح الغلاة من الباحثين فى حقائقه عن الشطط الاهوج والغرور الكاذب بقدرة العقل البشرى على ادراك هذه الاسرار المطبقة حول حقائق الوجود

والذى نلاحظه فى مواقف الزهاوى العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها فى وقت واحد :

فكل شكوك الزهاوى بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الاولى ، لانها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والاساطير التى يلصقونها بالدين وهو برىء منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى أن يفهمه المؤمنون به على صحته ، وقد كان خطأ الزهاوى الاكبر انه يتلقى حجة العقائد من الاوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين . . وانما تقوم قضية الدين على الضمير الانسانى الذي يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع فى العالم ، ولم

تقم حجـــة الدين قط على ما يفهمه المقلدون او يفهمـــه المغرورون من الادعياء • .وانما تقوم حجته على البصيرة الصادقة والوحى الأمين

لا جرم كان تقريره لقواعد الايمان بعد ذلك سهلا غنيا عن جهد التردد والبحث فيأمثال تلك الشكوك ، ومن حق من يبتلى بأمثال تلك الشكوك أن يثـوب يقينـه الى يقين الزهاوى الذى عبر عنه بهذه الابيات فى موقف الحساب :

قال ما دينك الذى كنت فى الد
نيـا عليه ، وأنت شـيخ كبير

قلت : كان الاسلام دينى وهـ
ـو دين بالاحتـرام جــدير

قال : من ذا الذى عبدت فقلت
الله ربى وهو السـميع البصير

وقبل ذلك يقول من كلمة منثورة : لم آت فى حيـاتى أمرا ادا ولا ارتكبت منكرا •• انظم الشعر وأودعه عصارة شعورى وتفكيرى ، واجعله منبرا ادافع منه عما يتراءى لى انه الحق ، غير حاسب لمخالفة الناس اياى حسابا ... وهذا ما كان يثيرهم على ويجعلهم يعملون على معاكستى حتى هموا مرة أن يقتلونى مع انى معتقـد بالوحى مؤمن بالانبياء وبالمرسلين وملائكة الله وكتبه ، وقمت بشـعائر الدين كلهـا فصمت وصليت وزكيت وجاهدت وحججت الى بيت الله وزرت قبر رسوله الكريم »

وهو الذى ردد هذه الشهادة فى مواطن كثيرة من شعره ، كما قال فى هذا المعنى غير مرة :

أنا ما كفرت كل عمـرى بالكتـاب المنزل
أنا لم ازل أشدو بنعـت للنبى المرسـل

وانه بمثل هـــذا اليقين لخليق أن يكذب كل هاتيــك الشـــكوك التى تثيرها أوهام الجهــلاء وخرافات أصحاب الخرافات من المقلدين

وجملة القول فى الديوان المفقود وفى الدواوين المنشورة انها طور واحد من الفكر لم يتغير فى مدى خمسين سنة ، ويوشـــك أن ينقل كل بيت فى ديوان من هــذه الدواوين المتتابعة الى ديوان آخر صدر قبله او بعده ، بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق أو فى الاسلوب ، الا ما تقتضيه المرانة الطويلة من تيسير النظم فى نهاية الشوط بعد تعسر فيـه عند الابتداء

والسرعة الى التفكير ، مع السرعة الى العدول عن الفكرة فى وقت واحد ، هما آفة العجلة فى مواجهة الزهاوى لمسائل العلم والادب او مسائل الاجتماع والاخلاق ، فليس أسرع منه الى اختطاف الرأى الشائع أو اختطاف الرد عليه ، ونحسب أن بنية الرجل « مسئولة » كما يقولون عن هذا الولع بالسرعة والقلق من الاستقرار .. فان مصابه بالداء الذى اقعده عن الحركة قد بدأ معه اضطرابا مقلقا قبل أن يثقل على أعصابه ويثقله عن حركته ، وما اكثر ما نظم فى «الصراط» وصعوبة العبور عليه من شعره الاول ومن شعره الاخير

ولا ريب عندنا ، ولا عند قراء الزهاوى شعرا ونثرا ، فى قدرته الفكرية ولا فى ملكته الرياضية ولكنك تراجعه من بواكيره الى خواتيمه فيبدو عليه انه يثب الى الآراء وثبة بعد وثبة ولا يتطور معها على امد مديد يتصل فيه الانتقال من مكان الى مكان ، فهو فى وثباته المتلاحقة على مكان واحد يصعد منه وينزل اليه ، ويثبت عليه صاعدا ونازلا ومترددا ومستقرا ، وهكذا كان فى آخر ديوان كما كان فى اول ديوان وللقارىء بعده أن يبقيه حيث شاء ، بما هو أهل للبقاء .

- ٣ -

جاءنى الخطاب الآتى من أحد القراء بتونس .. قال كاتبه الاديب بعد ديباجة التعارف :

« أما الآن فبقيامكم ضد الثرثارين ، وتقويضكم لبناء ما كانوا يحسبونه آثارا أدبية ، واماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتاب المبرزين .. قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقى فى اللغة والادب ، اذ أدركوا ما ترمون اليه فى انتقاداتكم فهبوا يتبارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » .. نحو « الجمال » .. نحو « المثل العليا » .. تلكم الكلمات الحية التى ما وجهت طرفى نحو أى سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة ممـــا تكتبون الا عثرت عليها .. ولصرف مهجتكم الى هـــذه المطالب ونقدكم الصحيح الخالص من الاغراض ، وسعيكم وراء الحقيقة ــ رضى القوم أم غضبوا ــ أتيت اعرض عليكم كلمة فى رفيق صباى ومربى روحى راجيا منكم التفضل بابداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفا .. لأن كل هاتيكم الخلال جعلتنى كما جعلت غيرى يعتبرون قولكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه

ذلكم الرفيق يا سيدى هو فخر العراق كما تقولون جميل صدقى الزهاوى ، فقد عرفته منذ دخلت المدرسة وولعت بديوانه حتى أننى كدت أن احفظه نثرا ونظما ، فمن نزعته فى الشعر الى قوله فى القبر :

ولست بمسئول اذا ما سكنته
آكنت عبدت الله قبلا أم اللاتا

الى قوله فى مهاجميه :

يا قوم مهلا مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله فى تكفيرى

وعندما أسأم استمرار قراءتى فيه ، أعمد بعد تحضير واجباتى المدرسية الى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسى كأننى انتقلت من روضـــة حافلة بازهار من كل صنف زاهية بالماء الزلال الجارى و « الهزار » على أغصـــان أشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية الى أرض قاحلة لا ماء فيها ولا شجر ولا هزار .. فلا البث ان أعود الى ديوانى الأول ، وشغفى به يزداد كلما رأيته سابقا وغيره لاحقا .. وهكذا ..

وما أقوله لكم فى ديوانه ، أقوله لكم فى مباحثه التى تنشر فى « الهلال » ، حتى اننى لم أجد فيه فصلا من فصول جميل انقبضت نفسى لذلكم كثيرا .. واذا رأيت فيه مبحثا له قدمته على سائر الموضـــوعات ، فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهنى جمل منه .. ومن الجمل أفكار ، ومن الافكار مناقشة ، تنتهى بى الى قضاء جزء كبير من أوقاتى معه . وحمادى القول ان السـيد جميـــل لهو أحق بالنقد من سواه ، وبمن يظهر آثاره الأدبية والفلسفية . وهـــذا لا يتصـدى للبحث فيـــه الا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره ، اذ من العار أن نبقى كما قال فيلسوف العراق لا نعرف قيمة للاديب فى قطرنا الا بعد مماته :

من بعد ما فى قبره أوصـــاله تتبعثر
ماذا من التكريم يرجو ميت لا يشعر

هذا وانني اعتذر الى سيدى الأستاذ من تجرئي على مكاتبته ، اذ لست ممن يراسلون أمثاله .. واولا اعجابي بـ « جميل صدقي الزهاوي » وحبي لناقد خبير ينشر للقراء آراءه ، ويبين لهم فجها من ناضجها ، ما تسرعت في المراسلة . أترجى ما يقال في فخر العراق وعنه »

جاءني هذا الخطاب من شهر مضى ، وفيه غير ما نشرت هنا كلام مسهب في مثل هذا المعنى ولواحقه .. فتوسمت من أهجته وخلوص اعجابه أدبا جما ونفسا مستشرقة الى الحقيقة ، وهممت أن أجيبه الى رغبته ولكنني ترددت لانني أعلم انني استطيع ان اتبسط في شرح كل رأى أراه في الأدب والشعر ، دون ان اعرض للأستاذ الزهاوى نقدا أو تحبيذا وخلافا أو وفاقا ، ولأنني أوقر هذا الباحث الفاضل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغبنه بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه ـ لغير ضرورة من ضرورات البحث ـ مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندى من القدر والرعاية .. ثم عن لى أن في الكلام عليه مجالا لكلمة أخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية وبين بديهة الفيلسوف وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الأستاذ الزهاوى ومن يعجبون به خاصة .. اذ هو ممن يقال فيهم قول حق لا يغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة والضمير الواثق من قصده وعمله ، فكتبت هذا الفصل الموجز آملا أن أجيء فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل لا أحب أن امسه بغير ما يرضيه

اول كتاب قرأت للزهاوي كان كتاب « الكائنات » او

رسالة الكائنات ، لأنها عجـــالة مختصرة من القطع الصغير .. وكان ذلك قبل عدة سنوات ، وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة .. فراقنى من الرسالة سداد النظـــر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجـــرأة على العقائد الموروثة مع ما فى ختام الرسالة من اعتذار لا يخفى ما وراءه ولا يغير رأى القارىء فيما تقدمه . وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء باشارات ابن سينا ونجاته ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب .. ثم قـــرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار ، وكان آخر ما قرأت له رسالة « المجمل مما أرى » ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين

هل الزهاوى شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ؟.. ان آثاره فى الشعر والنثر تدعوك الى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بـــين طلاب المقاصد الشعرية .. وقد يختلف جواب النـاس على السؤال الذى سألناه فيمده بعضهم من الفلاســفة وبعضهم من الشعراء ، ويميل به بعضهم الى فريق العلماء .. أما انا فرأيى فيه أنه صاحب ملكة علمية تطـــرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صــاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صــاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الاشياء التى يحسـها ويدركها او يمكن أن تحس وتدرك بالعيان ومـا يشبه العيان ، فاذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكتــه المنطقية لا حجاب عليها .. ولمست فى آرائه مواطـــن

التحليل والتعليل ، ولكنك تضل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا ، وتلتفت الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها واعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش ابدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ، ولاتنطبق فيها الاجفان ولا تتناجى فيها الاحلام .. وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا او شمسا ، ولكنها كذلك ليل وغياهب لا تجدى فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل ان يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتممهما ويأخذ منهما لا ليلغيهما ويصم دونهما اذنيه .. فأما الزهاوى فهو يحاول ان يلغى الخيال والبداهة ، ويظن ان الانسان لايتصل بالكون الا بعقله ولا يهتدى الى الطريق المفطور الا بعقله ، وليس هذا بصحيح فى حكم العقل نفسه اذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الاول وقصارى مطمحه الاخير

ان كل منطق لا يكون صحيحا الا اذا دخل فى حسابه امران محيطان بنا متغلغلان فينا لا مهرب منهما ولا روغان .. نعنى بهذين الأمرين « المجهول » أولا و « العاطفة » ثانيا ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدما ما لم يكن لهما فى زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسبها الشعراء ، وهو ، اذا أراد ، حصر نفسه فى معمله وخرج منه بنتيجة عملية لاغبار عليها من ناحية النقد والاستقراء .. ولكن الفيلسوف اذا خرج الى دنيا لا مجهول فيها ولا عاطفة توحى اليها انما يخرج الى دنيا غير دنيانا هذه .. وانما يأتى لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذى يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه ، وقد يصيب بمنطقه هذا فى حقائق الأرقام والاحصاءات ولكنه لا يصيب به فى معانى الشعور وأسرار الحياة ، اذ كيف يحسب حسابا

لهذه المعانى والاسرار وهو لايحسنها ولاينقاد لدوافعها ؟.. وكيف يصيب فى المباحث النفسية وهو لايحسب حسابا لتلك المعانى والأسرار ؟

من منا يكون محبا معقولا مطابقا للمنطق اذا هو نظر الى حبيبه بالعين التى يراه بها جميع الناس ؟ ان نظرك اليه قد يكون معقولا مطابقا للمنطق اذا نظرت اليه بتلك العين التى يراه بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ، ولكنك انت نفسك — انت الناظر — لا تكون « محبا منطقيا » موافقا للمعقول والمعلوم من شئون المحبين حين تتساوى انت وسائر الناس فى الاعجاب بحبيبتك ، لأن المحب المعقول هو الذى يرى حبيبته بعين لا يراها بها الآخرون .. وكذلك الحياة قد تكون انت منطقيا اذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الاحياء يعرفون الحياة .. ولكنك لا تكون « حيا منطقيا » اذا أنت لم تعرفها كما يعرفها كل حى مخدوع بها غارق فى غمرة عواطفها وأشجانها .. فكن لنا « حيا منطقيا » أو انت اذن انسان لا يعنينا رأيه فى الحياة لأنه ليس منها بمكان قريب أو على اتصال وثيق

والزهاوى تخونه الحقيقة حيث يسعى اليها على جناح من العقل ، لا يعضده جناح من الشعور .. فلم أغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول — بالمنطق — أن يثبت الرجعة الى هذه الأرض بعد الممات أو الى عالم آخر ينتقل اليه الانسان ، فهو يقول فى «المجمل مما أرى » ان « مظاهر الحياة من مظاهر المادة التى ليست فى أصلها الا قوة . وان هذا الفضاء الذى صرحت بأنه لايتناهى ، يحتوى على عدد غير متناه من العوالم النجمية ، وان فى كثير من هذه العوالم نظاما مثل نظامنا الشمسى ،

وان فى ذلك النظام ارضا مثل ارضنا ، وفى بعضها أرض تشبه ارضنا الى زمن محدود ثم تختلف عنها ، وان فى كل أرض مشابهة لارضنا انسانا مثلى وآخر مثلك واخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى ارضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم فى هذه تماما ..

« وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا فى حالتها الحاضرة ، وبعضها آخذت تهدم ، وبعضها فى بداءة تألفها .. فاذا مات الانسان فى أرضنا ، فهو يولد فى غيرها من نفس آبائه الذين ولد فى أرضه هذه منهم ، واذ أن هذه الارضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير متناهى العدد .. غير أنه فى كل أرض واحد يجهل أن له امثالا فى هذا الكون اللامتناهى ، وان الذى يشقى فى هذه قد يسعد فى التى تشبهها الى زمن محدود ثم تخالفها فان عدد هذه المخالفات أيضا غير متناه ، والذى يسعد فى هذه قد يشقى فى تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء .. فان زيدا اذا كان هنا شقيا فهو فى آخرى سعيد ، واذا كان سعيدا فهو فى تلك شقى . وأرضنا هذه بعد أن تصير الى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين ، فيجرى عليها تطوراتها طبق ما جرت فى دورها هذا ، ويتولد آباؤنا كما تولدوا ، ونتولد منهم كما تولدنا ، ونموت كما فى هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف نتكرر الى الابد ..

« ورب قائل : ما الفائدة من هذا التكرار وهو لا يتذكر ما مر به فى أدواره الأولى ؟ فأجيب : ان فائدة التذكر هى العلم ، فاذا حصل الينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر وكفى به نفعا انه يطامن الانسان أن موته مؤقت ليس ابديا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة .

الأول ان العالم بما فيه من الاجرام غير متناه . والثانى أن لا شيء يذهب الى العدم بل ينحل تركيبه وينحل الى الاثير بعد تطورات متعددة .. وهذا الاثير يتركب من جديد فيكون مادة بعد تطورات متعددة ، ثم ينحل ثم يتركب الى ما لا يتناهى . والثالث أن جواهر كل جرم من الاجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد ، وأقدارها كذلك متناهية .. ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهى السعة . والأرض هذه تتألف فى أزمنة غير متناهية على أشكال متناهية لان جواهرها متناهية ، وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التى تتألف عليها وتدور من أحدها الى الآخر .. فهو كغيره من الاشكال يتكرر الى مالا نهاية له . والانسان جزء متمم لشكلها الحاضر .. فهو أيضا يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاما ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدورى الاعظم »

هذه هى نظرية الدور كما أجملها الاستاذ الزهاوى فى رسالته « المجمل مما أرى » .. فالمنطق هنا يتكلم ، ولكن حب الحياة هو الذى يحركه الى الكلام !.. على أنه بعد منطق لم يمتزج بالحياة فى الصميم لانه يتعزى بالعلم ، والحياة لا يعزيها أن تعلم بأنها خالدة وانما يعزيها أن تشعر بالخلود ، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطىء لانه يستلزم الدور ولا شيء يدعو الى استلزامه .. فما دامت الجواهر لا تتناهى ، والحركات لا تتناهى ، والفضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكوين الاجرام بأشكالها لا يتناهى .. ولا حاجة الى تكرارها وعودتها هى بعينها مرة بعد مرة إلى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحا عن لا نهاية الزمان التى تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلى أو فيما سبق قبل الآن ، يجب ان نضرب صفحا

عن لا نهاية الزمان لأن لا نهاية الفضاء موجودة فى هـذه اللحظة ، فأى شيء فيهـا يستلزم ان الارض مكررة فى مكان غير مكانها الذى هى فيه ؟.. لا شيء !. واذا لم يكن انسانا مكررا على هذه الأرض بعينها ، فلماذا نفرض أن كل انسان مكرر فى أرض تشبهها تمام الشبه فى هـذا الفضاء السحيق ؟

***

ثم الى أين ننتهى من كل ذاك ؟.. ننتهى الى أن الأستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعور ، فمن ينشده فلينشد عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه فى هذا المجال وان خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضـايا المنطقية .. فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان



— ٤ —

قرأت فى زميلتنا « السياسة الاسبوعية » ردا للاستاذ الزهاوى على مقال كتبته عنه مجيبا به الاديب التونسى الذى سألنى ابداء رأيى فيه ، وكان فحوى ذلك المقال ان نصيب الاستاذ الزهاوى من الملكة العلمية أكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية .. ولم يرض الاستاذ عن هذا الرأى فكتب رده فى السياسة الاسبوعية يناقشه ويناقض الاسباب التى بنيته عليها .. فهو يحب أن يقول انه فيلسوف وانه شاعر لايقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرنى أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء فى الارض واحدا أو أكثر ، فاننى لم أتكفل بهم ولا تحسب على أخطاؤهم أو يختلس منى صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل فى غير حقيقة تجلى او رأى يستوضح : فان الجدل الذى يطول فيه الاخذ والرد لغير شىء من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة .. فاذا رجعت اليوم الى الموضوع فليست رجعتى اليه لحرص على تقليل حظ الزهاوى من الفلسفة والشعر ، ولا لمطاولة فى الجدل ، وانما هى لاستخراج الحقيقة التى أردتها من رد الاستاذ نفسه ، وبيان المعنى الذى ذهبت اليه من طريقة الاستاذ فى ملاحظة الاشياء وفهم اعمال الناس

ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير فى ادراك

الاستاذ الزهاوى لاعمال الانسان ، ولهذا فانه يخطىء فى تصورها والحكم عليها ومتابعتها الى أسبابها وغاياتها ، وفى رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف ـ فضلا عن الشاعر ـ الى حسبان ذلك الحساب ، وفهم الانسان ومكانه فى هذا الكون كما هو انسان فى حقيقته لا كما يتصوره الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور .. واليك بعض هذه الادلة مأخوذة من ذلك المقال :

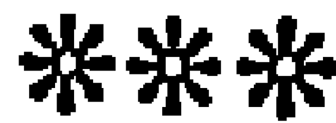
(۱) يقول الاستاذ الزهاوى : « من طار بجناح العقل أخيرا لندبرغ وصل الى باريس من نيويورك فى ٣٤ ساعة فليخبرنى الاستاذ الى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟ » .

وأنا مخبره الى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة أخبره أنهم وصلوا من نيويورك الى باريس فى ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غدا فى أقل من هذه الساعات ، لأن لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التى هتفت له هتاف الحمد والاعجاب . ولم يسبق لندبرغ طائر فى الفضاء ، ولن يلحق به طائر مثله ، إلا كانت العاطفة هى محركه وهى جناحه وهى جزاؤه اذا نجح وعزاؤه اذا خاب ! وليس الطيران كله الا حلما من أحلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الاجير يحقق ما تعلقت به الاخيلة واتجهت اليه الرغبات

وأى عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين فى هذا المضمار القاتل ؟ وأى عقل يزين له أن يرفض المال الذى انثال عليه من شركات الصور وطلاب

المحاضرات والمســاجلات ؟ ليس العقل هو الذى اعطانا الطيارين وآلات الطيران ، وانما هي دوافع الاحســـاس وبواعث الخيال ، وهى « العواطف » التى تحمل الانسان على كل جناح اذا قعد به التفكير وحده فى قرارة العجـز والجمود.

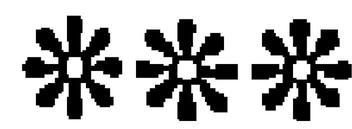
وتتجاوز نحن هذا الحد الى ما بعده ، فنقول ان الغربيين فى هذا الزمان يسبقوننا فى ميدان الكشف والاختـراع لانهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب.. لا لأنهم يحسنون ما لا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصـــنوع يصنعه الغربيون نســتطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله. ولكننا لا نستطيع البداية لانها وليدة البواعث وهى قاعدة عندنا ناهضة عندهم .. فالتفــاوت بيننا وبينهم تفاوت فى البواعث أى فى الخلق والاحساس وليس تفاوتا فى العقل والتفكير ، وطريقتنا نحن فى الاحساس بالامور هى التى ينبغى أن يتناولها الاصلاح وليست طريقتنا في فهم ما يحتاج الى الفهم والتحصيل.



(٢) ويقول الاستاذ الزهاوى : « أنا مادى لا أرى لغير الحواس أبوابا للمعرفة مستثنيا من ذلك معـرفة ذاتى ، ولا آذن للخيال أو العاطفة أن يلجا باب الشعر الا اذا اطمأننت الى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى ما زلت أتغنى بها فى شعرى »

أما الذى أقوله أنا فهو أن الحياة هى خلقت الحواس ، وهى صقلتها وهذبتها وألهمتها أن تعى ما يتصل بها ، وان الحياة لم تعلن افلاسها بعد خلق الحواس ولا قبله فهى شىء أكبر من الحواس وهى على اتصال وثيق لا انفصام له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الآناف

والاذواق والاسماع والابصار •• وأن الحواس تتفاضل بقدر ما فيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الاشياء .. فالدنيا لا تتغير . ولكن نظر الشباب اليها غير نظر الشيخ واحساسه بها على الجملة غير احساسه •• لماذا ؟ لان الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التى خلقتها ونوعتها وهى قادرة على تغيير الخلق والتنويع • وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق الذى يجهل أن الوظيفة تسبق العضو ، وأن القوة الحية تنشىء الحاسة وتزيدها وتهذبها •• فهذه القوة الحية تدرك ما هى فيه وان اختلف اسلوب ادراكها عن أسلوب الحواس فى الادراك ، بل لولا هذه القوة الحية الخالقة لما عملت حاسة فى الجسم شيئا ، فلتكن للحواس اذن معرفتها المحدودة التى نعهدها فى العلوم والصناعات ، ولكن لا يعزب عنا ابدا ان وراء هذه الحواس ينبوعا لا ينفذ من وسائل الادراك ، وان كان ادراكا لا حد له من الصيغ والتعريفات



(٣) ويقول الاستاذ الزهاوى : « لو جعلنا الخيال والبداهة فى المنزلة التى يضعهما فيها الاستاذ الفيلسوف لوجب أن يكون الانسان الابتدائى ، بل الحيوان ، أكبر فلاسفة الارض •• لولا ما ينقصهما من البصيرة والحساب، إما الذى اعرفه انا فى الفيلسوف فهو تحريه للحقائق المستورة عن الاكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره ، وما الفيلسوف ذاك الذى يرضى عواطفه والا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما سبق • وكم جرح دارون الشهير عواطف الناس بنظريته فى نشوء الانسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم

مقتوه وعادوه وسبوه لانه خالف عواطفهم ، ولكن فى النهاية كان هو الفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوى عواطف لا غير »

هذا الذى يقوله الاستاذ الزهاوى .. ! ويدهشنى منه أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المغنون و « أولاد البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية الاحساس ! فهم اذا قالوا : « فلان صاحب عواطف » قصدوا بهذه الصفة أنه لا يجرح عواطف الآخرين وأنه « حسيس » بالمعنى الذى يفهمونه ! وليس هذا ما نريد ، لان العواطف قد تجرح العواطف كما تبقى عليها .. فالحب عاطفة ولكنه يجرح نفوسا كثيرة ، والغضب والاعجاب والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من النفوس أكثر مما تواسيه ، وليس تقسيمنا الناس الى أصحاب عقول وأصحاب عواطف تقسيما لهم الى من يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونها ، فان اصحاب العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم فكانوا بذلك أقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المغنين و « أولاد البلد » المتظرفين

وأدعى من هذا الى الدهشة أن يقول الاستاذ أن نصيب الحيوان والانسان الاول من الخيال والبديهة أكبر من نصيب الانسان الاخير ، فالحقيقة أن الحيوان لا خيال له ولا بديهة .. وأن الانسان الاول أقل نصيبا من الانسان الاخير فى هاتين الملكتين . وليس نصيبنا نحن من الفهم ما نعلم أننا نفهمه ، بل نحن نفهم أشياء شتى بالبديهة وبالخيال ولا نعلم بها وهى تعمل عملها فى الاحساس والتفكير

ولقد ذكر الاستاذ اسم دارون صاحب النشوء والارتقاء

.. فهل له أن يذكر أيضا ان الخيال كان أصدق من العقل ألوفا من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على انفراده ، وكان الخيال يقص علينا قصصه ويجزم لنـــا بتقارب الانواع وتلاقح الانسان والحيوان ؟ .. نعم ان الخيال لم يفصل لنا « النظرية » العلمية لان له شأنا غير هذا الشأن . ولكن ألم يعم العقل عن تلك النظرية كل أعمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف من وراء الظلال والرموز ؟ وهل للاستاذ أن يذكر أيضا أن دارون ما كان لينفذ بفطنته الى تقارب الانواع لولا روح العطف الذى كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على الوجوه والاعضـاء ؟ أيمكن أن يؤلف كتـــاب التعبيرات الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ، ولا يسرى بينه وبين الاحياء سيال من الاحساس الدقيق ؟ .. وما هو نصيب العقل بعد كل هــــذا فى مذهب النشوء والارتقاء ؟ ما كان له من نصيب الا أن يصحح أخطاءه هو لا أخطاء الخيال ولا أخطاء الاحساس .. فالحقـائق التى استند اليها النشوئيون قائمة منذ الابد ، والعقل هو الذى كان يداريها أو يضلل فيها الخيال والاحساس

ويسألنى الاستاذ : « لا أدرى أى مناسبة للعـــاطفة بالمنطق » وهذا الذى أقوله أنا .. وأقول معه ان مناسبة العاطفة أنها هى شىء موجود لا يصح المنطق الا اذا حسب له حسابه ، فأى منطق يحق له أن يقول عن عمل من أعمال الناس ينبغى أن يكون هكذا ، أو لا ينبغى أن يكون كذلك ان لم يكن يحس العاطفة الانسانية ويستكنه مضامينهـا ويقيم لها وزنها ؟ .. ان الاستاذ ينبئنا أن العقل أسعد الانسان بالعلم ، فما هى السعادة .. ؟ ان لم تكن عاطفة فهى لا شىء ، وان لم يكن العلم علم انسان « عاطف » فلا حاجة به لانسان

نود أن يتأكد هذا فى العقول لاننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذى ينقصهم هو « الاحساس القويم » وان سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل . أما نظرية الدور والتسلسل فهى لا تعنينا فى هذا الصدد ، ولكنى أرجو الاستاذ الزهاوى أن يسأل نفسه هذه الاسئلة وهى :

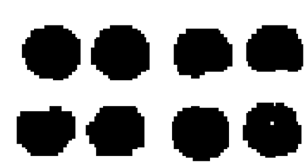
(ا) ألا يمكن أن نقول ان عدد « الاشكال » لا نهاية له بنفس المعنى الذى نريده حين نقول ان عدد الاجرام والجواهر لا نهاية له فى هذا الفضاء الذى لا يتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد فى الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل ! لماذا يتحتم أن يكون أحدهما فى هذا الزمن والاخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الاميال ؟ ان المقتضى للتماثل هو أن الاشكال تتناهى والجواهر لا تتناهى فى قول أصحاب الدور والتسلسل . . حسن ، فلا داعى اذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين فى الزمان والمكان ، بل يجب أن نرى أناسا كثيرين يتماثلون على سطح هذه الارض فى المدينة الواحدة وفى الوقت الواحد ، والا كان رأى أصحاب الدور والتسلسل باطلا يستند الى دليل مشكوك فيه . . أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا اذا أنكرنا عليهم دعواهم : اذهبوا فطوفوا الفضاء الذى لا حد له ، وجوسوا فى جوانب الزمان الذى لا بداية له ولا نهاية فان لم تجدوا أناسا يتماثلون واجراما تتماثل فنحن اذن المخطئون وأنتم المصيبون ، وان وجدتم فعودوا الينا بالنبأ اليقين ؟ !

. ان اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهى بهذه المثابة ككل لحظة من الماضى أو المستقبل ، وان هذا الموضع

من المكان هو ككل موضع غيره فى اقتضاء التماثل ان كان له اقتضاء .. فاذا وجب ان نرى شخصين أو اكثر من شخصين يتماثلون كل التماثل على كوكبين بعيدين فى زمنين بعيدين ، فيجب ـ لهذا السبب عينه ـ ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين فى هذا المكان فى الزمن الحاضر .. والا فما هو المانع آن كان أصحاب الدور والتسلسل يمنعونه فيما يزعمون ؟

نرجو الاستاذ أن يسأل نفسه هذه الاسئلة ، ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه الله أنني لا اجد عزاء لنفسى في تكرار « العقاد » الى غير نهاية بين أجواز الفضاء وأبديات الزمان .. فاذا ثبت له ثبوت اليقين أن فى هذه اللحظة عقادين لا عداد لهم ، يكتبون مقالاتهم فى بلاغاتهم الاسبوعية التى تصدر فى قواهرهم وأفريقاتهم للرد على الزهاويين الذين لا أول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف ، فرجائى اليه ان يكتم عنى هذه الحقيقة فما فى علمها ألا الشقاء بتضاعف الاشغال وتراكم الاحمال ، وما فى ذلك ترفيه ولا عزاء .. !





محمد فريد وجدي

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتهـــا حتى رثت وبليت وأصبحت حروفا بغير معنى ..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الاقلام فى عصر واحد: كلهم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات .. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصـــفات ، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز ..

الا اننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » لنعيد اليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا ينحرف عنها كثيرا ولا قليلا حتى فى لغة المجاز .

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الاقلام ورجال الحياة العامة ، فلم نعرف أحدا منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة او العامة ، وفى خلقه أو تفكيره ، وفى معيشته اليومية أو معيشته الزوجية وأوجز مايقال عنه فى هذه الحالات جميعا أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الاعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل « الفريد »

نعم : الفريد حتى فى لغة الجناس ، لان اسمه فريد ..

والفريد حتى فى عزلته ، لانه كان فى عزلة النســاك والرهبان ، عليما غاية العلم بالتحليل والتحريم .

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة ، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا

الطعام بين أهل بيته ، واجتنب الولائم التى يدعى فيها الى طعام غير طعامه

واخذ نفسه بسمت الاولين من عباد الله الصالحين ، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين ، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين

ذكرنا فى حديث الخديوى والبكرى ـ فى غير هذا الفصل ـ قصة الطرق الصوفية يوم توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها ان السيد محمد توفيق البكرى كان محنقا على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للامير فى ميدان الاحتفال ، فخلا الميدان الا من الموظفين المدعوين .. وغضب الامير لانه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام ، فانتهر السيد « توفيق » وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت قليل الادب ..! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو يقول للامير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الادب .. اننى وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على ابائك وأجدادك .. »

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى فى هذا الموقف ، لان الصحف الاسلامية لاتغضب الامير من أجل شيخ الصوفية ، ولان الصحف غير الاسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين

الا صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها فريد ، فانها اخذت بناصر البكرى وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة ، ولكن صاحب الدستور نظر الى شىء واحد فى هذا الخلاف ، وهو ان مظاهر

الطرق الصوفية بدعة لايستحسنها ، وان الامير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها

وتتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور صباح اليوم التالى ليوم خروج المحمل . فقد أطلع البكرى على الصحيفة فارسل الى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة اليه ، فلم يقبل منه « فريد وجدى » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد اليه البقية قبل ان ينتصف النهار

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثرا من اثار « المبدأ » الذى لاينحرف عنه الرجل قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف احب الناس اليه ، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى ان يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما غير مقصـــور على الـدولة البريطانية ، فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه ، فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الاخرى ، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها ان يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لايوافقها

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الازمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة : وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » .. فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض ان يجعل صحيفته لسانا للحزب الا بشروطه التى يرتضيها ، ولو وافق الحزب على بقائها لسانا للجامعة الاسلامية ..

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من

شتى الجوانب - ومنها جانب الحاشية الخديوية - كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها ، فلما استنفد كل ماقدر على انفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والادارة بمقدار غير يسير .. فأبت عليه نزاهة النفس ان يؤخر مليما واحدا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات ومنها على مانذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشا ، فاتفق على حسبانه بثلاثة عشر قرشا ، واشترط على التاجر ان يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الاجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الاثمان

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه ..

وهو كذلك - أو اكثر من ذلك انفرادا بين كتاب عصره بجهوده فى مؤلفاته ، فلا نعرف أحدا منهم توفر وحده على تأليف «دائرة معارف» كاملة ، ولا على التأليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية ، ولا على الاستقلال وحده باصدار صحيفة يومية ، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور ، ولو استطاع وحده ان يؤدى اعمال التحرير خارج المكتب ، ومنها الاحاديث واخبار الدواوين ، لاستقل وحده بالادارة والتحرير

واشرف مايكون صاحب المبدأ اذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتبا ناشئا ، خامل الذكر ، ليس لى بحق الشهرة ان يكون لى راى

مستقل مسموع ، ولـكنى كنت أخالفه فى بعض أرائه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراءالمادة وتحضير الارواح ، وأشهر ماكان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من سعد زغلول ، فلم يمنعنى ذلك أنأنشر فى الدستور مايخالف هذا الموقف ، وان احادث سعد زغلول حديثا ينفى كل مايعزوه اليه كتاب اللواء .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقدهمن تحضيرالارواح وصارحنى غاية الصراحة فى امر المتشابهات من العقائد والاحكام فلا أذكر اننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تقترب الافكار والاراء

***

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفردا كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال ، وان سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام ، وانه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ ، وان لم يكن يشتغل بنظم الشـــعر فى غير موضعه من قصص الخيال

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله :

رمت المخاوف والمخـــاطر فرويت ما لم يرو شـــاعر
وجمعت ما بين البـــــدا وة والحضـــارة والمظاهر
وشـــهدت ما لو قلتـــه عـــدوه من عبث الخواطـــر
وخـــرجت من ذا كلـــه بحقيقـــة تنفى المـــكابر
هى أن هـــذا الناس قـــد ســـحرتهم فتن سواحر
ظنوا الســـعادة فى التنا نق والتظرف والتفـــاخر
واقامة الدور الشـــــوا هق والعـــلالى والمقاصر
والجـــرى أعقـــاب اللـــذ ائذ والتورط فى الكبـــائر
بين افتنان بالقشـــــــــور ووقفـــة حول الظـــواهر
أما الســـعادة فهى فى ان تفتـــق الحجب السواتر
وتحصـــــل السر الذى شـــقت لطلبـــه المـــرائر
وتنـــال من معنـــاك ما حرمتـــه همـــات فواصر
أن ترتقى بالـــروح حيـــ ث الحق عالى القدر سـافر
هذى السعادة كلهـــــا فاظفر بها ان كنت ظـــافر

وله شعر فى هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

ضل اهل الالمعيه فى علاج المدنيه
هى من اقدم مهد عضلة العلم القويه
هى للجثمان غنم وهى للروح بليه
والذى قر عليه الرأى من اهل الرويه
انها شر ضرورى لخير البشريه

ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعريةلكان فريد وجدى فى طليعة الشعراء المطبوعين ، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة فى الطبع سلمت من العقد المركبة وتقابلت فيها الاعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الاهواء .. فلاتشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير

ومن صراحة خلقه وايمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره ، أنه كان يستمع الى رأيى فى شعره فلا يغضبه ولا يهمه ان يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه ، وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه، فقال : والله انه لخير كثير ، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟

***

روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى ، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، أن السيد عرض عليه الزواج فقال : ان جمال الدين وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى اليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ عليش وهو يسعى الى الازبكية ليجلس الى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعى « الجرسون » ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات

أقول انى قد رأيت بعينى فى الواقع ماهو أغرب من هاتين الصورتين . وهو منظر « محمد فريد وجدى »

يتمشى فى قلب الازبكية بين المتاجر والحانات وهى لاتدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام ، ولعله هو أيضا لا يدرى ان هذه هى الازبكية الا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشـــاهد الافلام

فقد كان السير على الاقدام من رياضات الرجل قبيـل الاصيل كل نهار ، وكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه ، تارة الى مفازة الخلاء وتارة أخرى الى حى السكة الجديدة ، وحينا الى قصر النيل وحينا اخر الى شارع جلال أو عماد الدين ، ولا يحس من يراه فى مكان من هذه الامكنة ، وهو ينظر الى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه ـ لانطوائه على نفسه ـ يتمشى فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان

وكنت أراه احيانا فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار الناس ، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض اخباره ، ومنها فى قفشات الادباء « أولاد البلد » انه يعيش فيما وراء المادة .. فى عطفة من عطفات عالم الروح ..

فلما رأيته لاول مرة بعد اعلانه عن انشاء صحيفـة الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك الاعجوبة التي كنت أشهدها كما يشهدها غيرى من عابرى الطريق ، ولا يشعرون بها ..!

« ما وراء المادة » كله ينتقل الى حى الازبكية فى ضوء النهار ؟ ! ..

اننى لاشعر اليوم انه منظر عجب غاية العجب : منظر اعجب من جمال الدين رب الاسرة والدار ، أو منظر الشيخ عليش جليس القهوة والبار ..

وقد صحبته فى رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه ، فعلمت حقا انه كان يغشى تلك الاماكن وكأنه لايغشاها ، لانه يستطيع ان يمضى فى عزلة عما حوله كما يستطيع ان يجلس الى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريرته ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه .. انه بعيد عنهم وانهم بعيدون عنه ، فى عالم آخر من وراء المادة .. اذا شاء أولاد البلد الظرفاء

وكنت قد عرفته من كتاباته زمنا قبل ان اعرفه راى العين ، ولكننى بعد ان صاحبته فى مكتب الدستور من يوم انشائه الى يوم تعطيله — الا فترات من الزمن لا تحسب — اراني أستطيع أن أقول اننى كنت أعرفه من كتاباته كذلك وانا معه فى دار واحدة ، لانه كان يعمل فى مسكنه بالدار ولا ينتقل الى مكتبه الا للقاء طارىء من الزوار ، أو للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة احوال الادارة والتحرير والتوزيع ، وكان يعفينى من اطلاعه على ما اكتب قبل ارساله الى المطبعة ، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه الا اذا طرأ من شئون الصحيفة ما يدعو الى مشورته او تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه

قرأت اعلانه عن طلب محرر للصحيفة ، فكتبت اليه اخبره بأننى أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لاول مرة .. فجاءنى الرد منه بعد يوم او يومين يسألنى ان القاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف — يومئذ — محمود سلامة ، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبنى منه ما يعجبنى من مدرسته كلها : وهى مدرسة عبدالله نديم واحمد سمير ، وكنت اعرف مكان مطبعة الواعظ لاننى فكرت زمنا فى اصدار صحيفة على مثالها وفى مثل حجمها ، قبل أن أستقيل من وظيفتى الحكومية

فلما ذهبت الى الموعد ـ بالدقيقة ـ اخرج الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى أشرت اليها فى الخطاب ، ثم اختار صحيفةمن الصحف التى كانت على مكتب صاحبالواعظ وقال لى : هل قرأت هذا ؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت انه يشير الى مقال عن رحلة لكاتب المقـــال فى العاصـــمة الفرنسية ، كنت قد أطلعت عليـــه قبل ذلك . فرددت الصحيفة اليـــه وأنا أقول : اننى لم أذهب الى باريس ، ولكن موضع العجب عندى أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معـــارض الخلاعة والمجون ، فهلهذه هى باريس ؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما فى طوية نفســـه من براءة طيبـــة كبراءة الطفولة ، وقال : هذه هى باريس كلها اذا كانت القاهرة كلها هى ماتراه الساعة . . هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم ؟ . .

وسرت معه حيث سار ، فلاح لى أنه كان كأنما يسير معى ولا يوجهنى الى مكان مقصود بعينه ، أو كأننى كنت اوجهه كما كان يوجهنى على السواء . .

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها ، أنه عرض علىمقال الصحيفة عن رحـلة باريس امتحانا لرأيى بعد أن أغنـــاه اسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة ، وبعد أن أغنـــاه حضورى الى الموعد ـ بالدقيقة ـ عن امتحان نظامى فى العمل . . فلى أن أعتبر نفسى محررا بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة ، ولى أن أسأله عما اشاء عن نظام العمل المطلوب

ولم أســـأله عن شىء من ذلك ، ولكنـــه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من انشاء الصحيفة وبيان خطتها

فى السياسة والوطنية .. ثم مضت الايام بعد الايام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لا يعاوننا فيه أحد غير أخيه ــ احمد ــ الطالب بكلية الحقوق ، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة فى الاقاليم ، ولم ينقطع عملى فى الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بينى وبين أخيه ، لاعتراضه على بعض آرائى فى السياسة الحزبية ، والحق انه اعتراض لم يكن فيه ما يسوء لولا اننى استكثرته من الاخ الاصغر وهو يعلم ان اخاه الاكبر لايبدى على ما اكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية

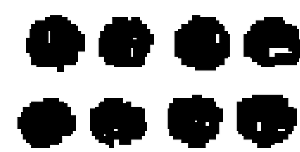
ولم ألق محمد فريد وجدى بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات ، وكنت قد برحت القاهرة الى اسوان ثم عدت الى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر

وفى حديث من احاديث الرياضة على الأقدام كان لقائى الاول له بعد عودتى الى القاهرة ، فاننى عرفت مسكنه بعد انتقاله اليه من مسكنه بدار الصحيفة ، فقصدت اليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية ، فقال لى وقد نظر فى الكتاب ولمح على وجهى أعراض السقم : وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء ؟..

وأذكر اننى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء ، فابتسم ابتسامته الأبوية ، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى : اكتب هنا .. ثم أملى على كلاما فحواه اننى ساعود الى هذه الأسطر وأنا شيخ معمر ، لكي أعرف اننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير ..

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الخلق الفريد ..

ان يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ كما عاش ايامه فى عزلة من دنيا الحياة





الشيخ رشيد رضا

يقول محمود رشاد بك فى رحلته الروسية : « سألنى التتار عن الشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف والشيخ رشيد رضا ومصطفى باشا كامل وفريد بك وجدى وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين »

وقد لقيت أنا فى بلدتى أناسا من أبناء أفريقية الغربية الذين يعبرون باسوان فى طريقهم الى الحج ذاهبين او عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « المنار » ويعول اعليها فى فهم شعائر الاسلام واحكامه ..

وقد تكفى نظرة فى باب الاسئلة والفتاوى التى كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها فى الاقطار الاسلامية ، لانها كانت تتلقى الاسئلة والفتاوى من جميع الاقطار ..

وقد كنت أطلع على بعض اعدادها حرصا منى على متابعة آثار الشيخ محمدا عبده فى كل مظنة ، فكنت أحمد لها الدعوة الى التحرر من ربقة القديم ، ولكنى أسأل نفسى دائما بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشىء « غير مستساغ » فى كثير مما يكتبه الشيخ رشيد ؟ »

ولم يكن هذا شأنى وحدى فيما كنت اقرأ من كتاباته،

ولكنه كان شعورا يشاركني فيه عدد غير قليل من القراء ، وما زلت أسائل نفسي حتى تبين لي بعد تجربة الحياة والأدب ، وبعد لقاء الشيخ رشيد ، انه ضرب من الحاجة الى الصقل ، ولا سيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة . فما احسب أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يلتفت الى شيء من طرائف الحياة التي تتجلى في نقائص الدنيا وأعاجيبها ، ولا غنى عنها لتمام التعاطف والتفاهم بين الناس .. لقيته مرات لا تحصى .. ولكنى لم أتحدث اليه غير ثلاث مرات أو أربع في مناسبات قليلة ..

أولها في دار المنار بدرب الجماميز .. كانت دارا صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه الى حجرة لا تزيد في مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، وفيها ديوان مفروش ، وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الاستاذ وقد اثنى قدمه ، وفي يده ورقة ، يكتب عليها للمنار

وكنت اعبر بتلك الدار كثيرا في طريقي الى دار الكتب، فلم يخطر لي أن أزورها أو أعرج عليها ، حتى اعلن الشيخ رشيد عن كتابه في ترجمة الاستاذ الامام ، وصدر منه جزءان ، هما الجزء الثاني والثالث ، وارجىء صدور الجزء الاول الى حين

كان الجزء الثاني يشتمل على طائفة من مقالات الأستاذ الامام ووسائله التي نشرت بتوقيعه أو بغير توقيعه

وكان الجزء الثالث يشتمل على المراثي الشعرية والنثرية التي قيلت فيه الى ما بعد حفلة الاربعين ، ومعها بعض كلمات المقدرين والمؤبنين من أبناء البلاد الشرقية والغربية

ولم تكن « ميزانية » الكتب يومئذ تسمح لى بشراء جزءين كبيرين فى وقت واحد ! فاخترت أن أبدأ بالجزء الثانى ، وارجىء شراء الجزء الثالث بضعة أسابيع

ولقيت عاملا على السلم فأخبرته بما أطلب ، فلم يبد مانعا .. وذهب ليجيئنى بالجزء الذى طلبته ، وعاد به وانا فى حضرة الشيخ رشيد . وتناولت الجزء واخرجت الثمن ـ فسأل الشيخ رشيد : « ما هذا ؟ »

ثم قال : « ان الجزءين لا يباعان على انفراد .. »

ولا أخفى على القارىء اننى حين سمعته يسأل : « ما هذا ؟ » خطر لى انه سيعفينى من الثمن ، بعد أن تناول الحديث بينى وبينه سيرة الأستاذ الامام ، ولمحت منه الرضا عن رأيى فى خصومه وناقديه ..

فلما فهمت مرمى سؤاله شعرت بخيبة أمل ، وازداد شعورى هذا حين أصر على بيع الجزءين ، مع توكيدى له بأننى سأعود بعد فترة لشراء الجزء الأخير ..

ثم تأخر صدور الجزء الاول أكثر من عشرين سنة ، وهو الجزء الذى يحتاج من المؤلف الى عناء ومراجعة وتحضير ، فهيأت تلك المساومة نفسى لاعتقاد خاطىء فى حق الرجل ، ووقع عندى انه بادر الى اصدار الجزءين لما فى هذه المبادرة من كسب لا يجشمه شيئا من الكلفة والمشقة ، وانه أخر الجزء الاول لما يتجشمه فيه من التعب ، وما يلقاه فى سبيله من الخصومات ..

ولكن الجزء الأول صدر بعد طول التأخير ، وظهر من وقائعه واخباره أن « الشيخ رشيد » كان موفور العذر فى أرجاء صدوره ، لانه لم يكن يستطيع نشره فى عهد عباس الثانى ولا فى أبان الحرب العالمية ، فانتظر حتى زالت المحظورات التى حالت دون أصداره طوال تلك السنين

ولقيت الرجل مرة أخرى مع اللجنـــــة التى تألفت للاحتفال بعيد المقتطف الذهبى ، وكان الدكتور فارس نمر باشا قد دعانا الى حفلة شاى فى داره للاعراب عن شكره للجنة الاحتفال وشكر زميله العلامة يعقوب صروف

وجلست مع سعيد شقير باشا والشيخ رشيد ..

وطاف فارس باشا بضيوفه يحييهم فقال للشيخ : « انك يا سيد تسمن كثيرا ، الا تتعود رياضة المشى ؟ امش بقدر ما تستطيع »

ثم استطرد الحديث الى الصحة ، فقال سعيد باشا : « انه يحس أعياء وخواء يشبه « الدوخة » »

فسألته : « هل كشفت عن الكبد ؟ »

فقال : « ان المصيبة كلها من هذه الكبد ! »

ولاح على الشيخ رشيد كأنه قد سمع منى نبوءة ، فسألنى : « وهل درست الطب ؟ »

قلت : « ان علاقة الكبد بهذه الحالة لا تحتاج الى علم طبيب »

ثم تبين لنا من جملة الحديث ان عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع على مسائل الفقه والدين

وتحققنا من هذا حين صدر الجـــزء الاول من تاريخ الأستاذ الامام ووجدت فيه اشارة استفهام بعـــد اسم « عبد الله منو ؟ »

فاستغربت ان يكون الشيخ على غير علم بتاريخ هـــذا القائد الفرنسى وقد دان بالاسلام وكانت له علاقة فى مصر ببيت من أكبر البيوتات الاسلامية ، ولكن الاطلاع على

هذه المسائل التاريخية لم يكن على ما يظهر من هم الشيخ

***

ولقيته مرة أخرى فى قطار « المترو » ليلة من ليالى شهر رمضان ومعه قريب له يسمى على ما اذكر «عاصما».

فجرى الحديث على المعجزات ..

وقال الشيخ : « ان المحقق من سيرة النبى عليه السلام كاف للدلالة على وحى القرآن ، لأنه عليه السلام لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين ، وكان يشكو انقطاع الوحى فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه »

فقلت : « انه دليل حسن ولكنه غير ملزم ، فقد اشتهر مثلا عن النابغة الذبيانى انه لم ينظم الشعر قبل الاربعين أو نحوها ، وذلك تعليل لقب « النابغة » فى بعض الروايات . واشتهر كذلك عنه وعن غيره انه « أجبل » ، أى انقطع عن النظم فترة ثم عاد اليه ، فنحرت قبيلته الذبائح فرحا بانطلاق لسانه ، لأنه أنفع لها من غزوة تنتصر فيها على أعدائها ..

« انما المعجزة الكبرى هى الرسالة المحمدية التى لا ينهض بها فرد ولا امة بغير معونة الهية ..

« وانما المعجزة الكبرى هى أثر القرآن فى الضمائر وأثره فى تواريخ الأمم الاسلامية وغيرها »

ومن حق الشيخ أن أذكر له فى هذا السياق انه لم يغضب ولم ينكر وجاهة التعقيب على كلامه .. ودعانى ملحا الى زيارته فى دار المنار ...

ولكننى لم ألقه بعد ذلك ، وان كنت ألقاه حينا بعد حين فى صفحات مجلته المنار ، لأنها من المجلات العربية التى حرصت على اقتنائها من اول اعدادها الى آخرها


عبد العزيز جاويش

كلما ذكرت الشيخ عبد العزيز جاويش ذكرت زيه على الخصوص .. لأنه كان أول ما لفتني اليه ، ولم يزل موضع التفاتي بعد ذلك كلما رأيته أو سمعت بخبر من أخباره في بعض المناسبات ..

كان لنا زميل في مدرسة أسوان الاميرية ، لا تقل شهرته بيننا بالجهل عن شهرته بالعبث وقلة المبالاة ..

وتخرج بعدنا من المدرسة ، فعينته وزارة المعارف مدرسا بها للترجمة ، لشدة الحاجة يومئذ الى المدرسين

وكنا نعجب لكتابته العربية أكثر من عجبنا لكلامه باللغة الانجليزية ، فهو يعرف الانجليزية كما يعرف العربية ، ومعرفته للعربية بعد ذلك هي موضع الشك الكبير ..

وانه ليلقي درسه في الترجمة ذات يوم اذا بمفتش معمم يدخل عليه ، فظنه مفتشا للغة العربية قد ضل طريقه الى هذه الحصة ، فاطمأن على جهله وعلمه .. ومضى في درسه بغير اكتراث ، ولم يكن من دأبه كما اسلفنا ان يكترث لشيء من الاشياء

وفوجيء باعتراض من المفتش المعمم ، فقال له بغير تردد : « ان هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر »

وسأله المفتش : « ما هو ؟ »

فقال : « كتاب مرشد المترجم »

وطلب منه المفتش أن يريه القطعة فى الكتاب ، فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة منها ، ثم أشار الى جملة فى الصفحة .. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان : « هى هذه القطعة ! »

وهنا المباغتة التى كان أهون منها على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ، لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الانجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية ..

ان المفتش المعمم هو الشيخ عبد العزيز جاويش مؤلف كتاب مرشد المترجم ، مع زميل من المعلمين !

وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها الى الآن .. لا عجب اذن ان يظل زى الشيخ عالقا بذهنى على تعاقب الايام

***

وذهبت سنة وجاءت سنة ، وتتابعت سنوات بعد سنوات ، والفت فى القاهرة منظر الشيخ فى جبته الغراء .. وهى فى اشد شتائها قلما احوجتنا يومئذ ــ نحن أبناء الصعيد ــ الى معطف ثقيل ..

ثم استقال الشيخ من وظيفته بوزارة المعارف ، بعد انشاء مدرسة القضاء الشرعى واسناد نظارتها الى المربى الكبير عاطف بركات بك ، وأخذ فى حملته على وزارة المعارف على النحو الذى يذكره قراء اللواء فى تلك الأيام

وحضرنا يوما الى مكتب الصحافة بوزارة الداخلية ،

فسألنا موظف فيه : « هل صحيح ان الشيخ جاويش اعتزل عمله فى تحرير اللواء ؟ »

فقال زميل صحفي : « ان صحيفة «الوطن» قد نشرت الخبر » وقال زميل آخر : « انى اشك فى صحة الخبر » وقلنا جميعا : « ان دار اللواء قريبة ، والسؤال هناك أيسر من الشك بغير دليل »

ودخلنا مكتب الشيخ فوجدناه فيه ، وتبين من الكلمة الأولى ان الخبر غير صحيح .. ثم مضى الشيخ فى كلامه من التعليق على صحيفة الوطن الى تعليق على الصحف عامة ، وعلى السياسة والأحزاب ، ثم الى الكلام عن حرية الصحافة وحرية الزعماء السياسيين

وجلست اسمع وأنا أعجب لرجل يفهم الوطنية المصرية فى نهضة المطالبة بالاستقلال . ثم ازداد عجبى حين قدم للمحاكمة ، فكان دفاعه الاول انه « غير مصرى » لانه ينتمى الى اسرة تونسية ، وتونس خاضعة للحماية الفرنسية ..

ثم ازداد العجب حين سافر الى الآستانة ، وانشأ فيها صحيفة«الهلال العثمانى»لينشر بها دعوته السياسية على الوجه الذى كان يفهمه ولم يعدل عنه بقية حياته ، وبلغ غايته حين علمنا انه انشأ فى الآستانة حزب « الوطن العثمانى » ليعارض به حزب محمد فريد الذى جعل شعاره « مصر للمصريين »

وكانت صحيفة « الهلال العثمانى » تصل الينا سرا فى فترات متقطعة ، فكنت اسأل نفسى : هل بلغ من يقين الشيخ بمذهبه فى الوطنية أن يفترض قبوله على كل مصرى يسمع باسمه من بعيد ؟

وعدنا الى زى الشيخ حين سمعنا نبأ الحملة التركية

على هذه البلاد ، فقد قيل يومئذ ان كســــوة المشيخة الاسلامية كانت فى حقيبة الشيخ ، وانه قد حيل بينه وبين مصاحبته الحملة فى اللحظة الأخيرة لامتعاض شيخ الاسلام هناك من حركاته حول مصر والحجاز

***

وانتهت الحرب ، ولقيت الشيخ اتفاقا قبل تعيينه مرة اخرى بوزارة المعارف ، فاذا هو هو فى تفكيره وتقديره عن السياسة الوطنية .. انقرة هى صاحبة القول الفصل فى السيادة المصرية ، انقرة هى المرجع الاخير فى الامتيازات الاجنبية ، معاهدة سنة ١٨٤٠ هى اساس ما نطالب به من حقوق !

قلت : « الحمد لله .. لقد تغيرت مصر كثيرا فى عشر سنوات ، وان لم يتغير الشيخ عبد العزيز جاويش ومن جرى على مجراه »

***

لقد ذكرنا الشيخ رشيد رضا فى الفصل السابق ، وبين الشيخ رشيد والشيخ جاويش جامعة بعيدة لا غنى عن الاشارة اليها لتقدير كل منهما معا ، وكل من دخل معهما فى هذه الجامعة .. فبعد جمال الدين ، ومحمد عبده ، أصبح من هم كل شيخ ناشىء ان يصبح استاذا اماما او نمطا آخر من جمال الدين ..

ومن هنا نشأت مدرسة رشيد رضا ، ومصـــطفى المراغى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الحميد الزهراوى ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى ، والنجار ، وغيرهم

ولكن الشيخ عبد العزيز كان يتشبه ب «جمال الدين» حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الامام ..

وفارق آخر بينه وبين الشيخ رشيد ، ان « الشـــيخ رشيد » كما قلنا كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة ..

اما الشيخ عبد العزيز ، فقد كانت فيه من ابناء البـــلد الظرفاء مشابهة كثيرة ..

ذهبت يوما لزيارة الأستاذ محمد صادق عنبر بمكتب صحيفة العلم على ما أذكر ، فوجدت الشيخ عبد العزيز يصيح صيحة المحنق الذى يغالب ضحكا مكظوما : « انه خبر ادهش البقر .. انه خبر ادهش البقر ! »

فسألت الأستاذ صادق عنبر : « ما هذا الخبر ؟ »

فجعل يغمغم بين الضحك والخجل وهو يقول : « انه مصحح عندنا من أهل الشرقية جاءه من بلده خبر عن بقرة قتلها قطار السكة الحديد ، فأختار للخبر عنوانا يليق بهذه الفاجعة العالمية .. وكتبه بهذا العنـــــوان : « خبر أدهش العالم ! » ... وفى رأى الأستاذ كما سمعت ان الدهشة من حق البقر فى هذا المقام !..

قلت : « صدق أبو العيناء .. رأوه يأكل فى الطريق امام الغادين والرائحين فلاموه ..

فقال : « أمن البقر حياء ؟ .. »

« وأراد أن يثبت لمن لاموه ان القوم بقر فوقف ونادى : أيها الناس ! قال « هى بن بى » عمن لا يوثق له برأى : من بلغ طرف لسانه أرنبة انفه دخل الجنة فلم يبق من حوله احد الا أخرج لسانه يحاول ان يبلغ أرنبة انفه ! »

« ومضى أبو العيناء وهو يقول لمن لاموه : الم اقل لكم ؟»

وقد أبى الأستاذ صادق الآن ينقل الحديث المروى لصاحب الخبر ليرى أين هو من قول الشيخ عبد العزيز ومن قول أبى العيناء


ابراهيم الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : احدهما حزب محمد شريف باشا والآخر حزب مصطفى رياض باشا ..

وقد يخطر للقارىء العصرى أن تعريف الاحزاب بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية .. ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الامم البرلمانية ، فكان الحزبان المتناظران فى انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو ذاك الوزير

كان حزب « شريف » أقرب الى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » أقرب الى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب الشيخ « ابراهيم الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشىء ، واستطرد قائلا : « ان ناظر النظار سيخرب بيتك أن لم تكف عن الحملة عليه »

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

ـ انه لا يستطيع

فعجب العالم المحقق وقال : « كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟ »

قال الشيخ ابراهيم : « وليكن ناظر النظار ، أو أكبر من ناظر النظار .. ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله ، فانه لا يستطيع ان يخرب لى بيتا » ففزع العالم المحقق ، وخيل اليه ان المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله !

فصاح بالشيخ الناشىء حنقا : « أهذا الذى تعلمتموه من جمال الدين ؟ »

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين ، فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل ان نتعلمه من جمال الدين ! »

قال الرجل « اعلمنا كم نحن الكفر ؟ »

قال الفتى المتحذلق : « بل علمتمونا ان قــدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسـبب واحد ، وهو انه ليس لى بيت ! »

على أن تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترىء على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجــالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحـاديث ـ أو تلك الدروس ـ وكانت كل احاديث جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوى قائلا : « يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ »

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : « اغرب عنى أيها الخبيث .. لعنة الله عليك ! »

والهلباوى الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوى الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى انه رحمه الله كان « ذلاقة لســان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها »

ومن هذه الذلاقة المتعجلة ، كان يؤخذ على الهلباوى كل ما هو مأخوذ عليه

***

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصـــــاب فى الثمن : « والله ولا لسان الهلباوى ! »

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أى طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نســـــمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها « قضية دنشواى» التى وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواى قلت فى كتابى سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى اسوان ، فأغمى على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات »

ويستطيع القارىء اذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا وجها لوجه فى دار الجريدة ، يوم ألقى الاستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا اليه فى الكلام عن صاحب « المؤيد » ..

لقد كان اغتباطى شديدا بما اصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول انصافا له اننا رأينا فى الرجـــــل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى

اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وابى الهلباوى الا ان يقتحم الجمع خارجا من الدار فى ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والايذاء

وغاب الهلباوى زمنا عن ميدان السياسة ، ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لـ « سعد زغلول » .. وكانت المساجلات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها ، ولكنى أشهد القارىء أننى ما وجدت القلم ينبعث فى يدى انبعاثا الى القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب الهلباوى وأحاديثه ، فردودى عليه فيما اعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوى شأن فى موقف من أهم المواقف فى حياتى السياسية ، لأنه الموقف الذى اعتزمت فيه جديا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التى عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، فعقد الاحرار الدستوريون اجتماعا فى دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا بالهلباوى هو خطيب الاجتماع ..

واذا بى جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ، ويتجاوز الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة سانحة لارغامى باسم الائتلاف ..

وجاءتنى دعوة الى بيت الامة حيث تجتمع طـــائفة من اعضاء الوفد على رأسهم مصطفى النحاس باشا ..

ما الخبر ؟..

الخبر ــ كما قالوا ــ ان مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : « وما شأنى فى هذا البيان ؟ »

قالوا : « بل الشأن شأنك .. لأن فحوى البيان ان الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك »

قلت : « انكم أحرار فيما تكتبون ، ولـكننى سأرد لا محالة على هذا البيان ، واقول لكم سلفا اننى أنا المسئول عما أكتب ، ولم يعلم النـــاس قط اننى اكتب باشارة من احد »

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من اجل زياراته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته التى أوشكت أن تعصف بالبرلمان ، وأرسل الى سعد من يقول له أن اللورد يعتقد انه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .. ولم يفاتحنى فى الامر حتى انقضت الازمة ، لكى لا أفهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ! .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا أن صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : « لن اسمعه ، وان اسكت عن الرد عليه .. »

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد باشا ، والمرحوم صبرى

أبو علم باشا ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟ »

قلت : « كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة «مصر» — وكانت من الصحف الصباحية — وفيها كنت أكتب مقالاتى كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : « اذا كنت لم استطع ان اقنعكم بوقف بيانكم ، فلن تستطيعوا اقناعى بوقف المقال .. »

ثم قلت لهما : « اننى املك ان انشره فى غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بينى وبين نشره فيها »

وكان قد جاءنى فعلا من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة قال مكرم باشا : « اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر »

قلت : « ما هو ؟ »

قالا : « ان يخلو المقال من الملام الشديد »

قلت : « اننى اذا ذكرت الحقائق كما حصلت ، فلا حاجة بى الى ملام شديد »

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوى بك لا يقع لى فى طريق

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت اكتب فى صحيفة « الجهاد »

ثم زارنى يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى : « لقد مررت بدارك وأنا فى مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة

وقلت لنفسي : « فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فمـــا رأيك ؟ »

قلت : « انه فضل لك سبقتني به ، وعلى ان اشاركك فيه »

وزرته فى دار البلاغ — بعـد يوم أو يومين — فاذا بالهلباوى بك هناك ..

فكدت أهم بالرجوع ..

بيد أن الهلباوى بك كعادته هجام لا يتردد ، فجـذب يدى وبدأنى بالحديث

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة ان واقعتى معه آخـــر ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره واسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل احب أن يكتب الله لى ثواب اخراجك من تلك الجمـــاعة .. ولكنه فاتنى ، واراك خارجا منها على التسعين ... ! »

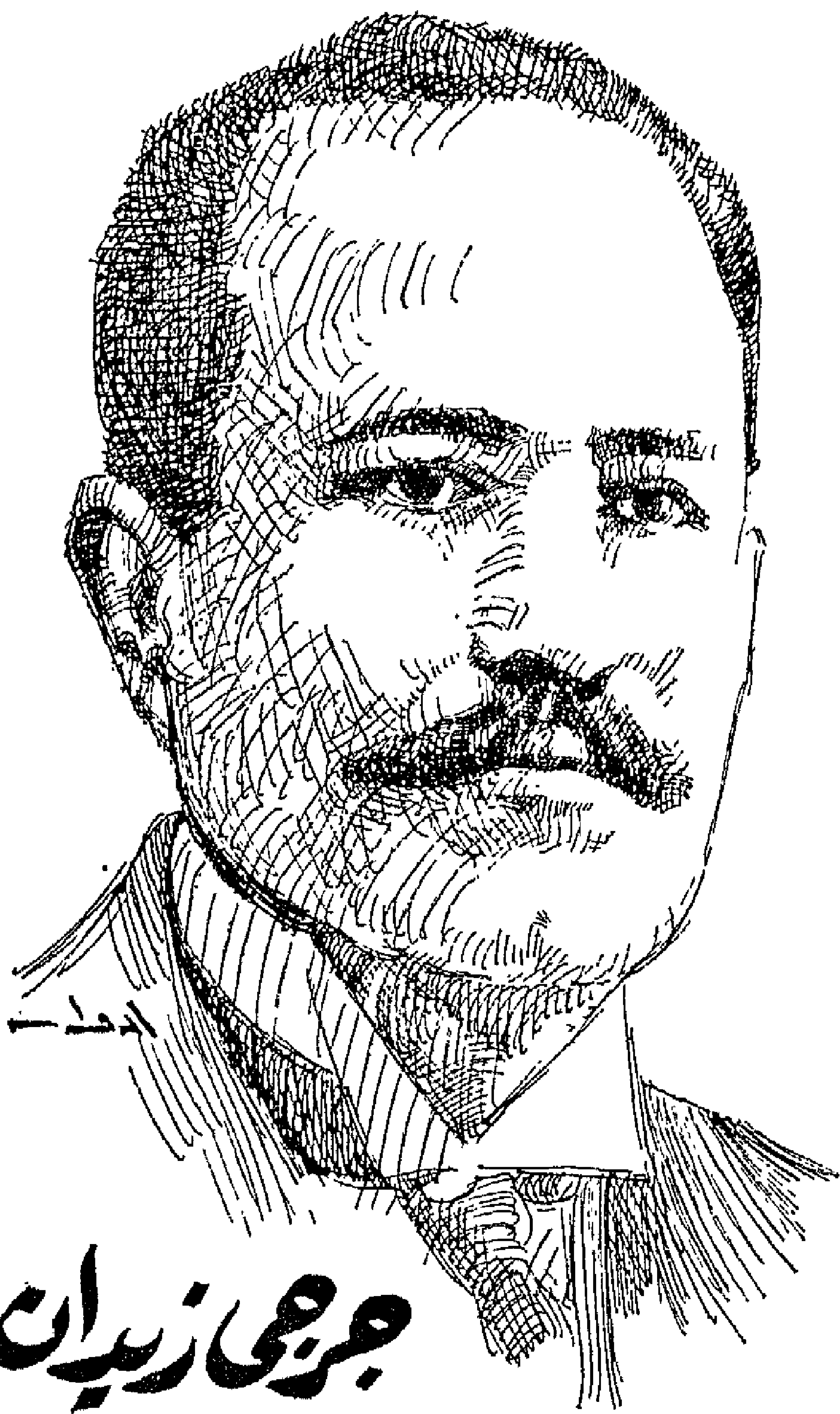
وبعد حديث متشعب ، دعانى والاستاذ عبد القـادر الى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود باشا رحمه الله

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز اليوسف اليومية وواليت الـكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنـــا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر ، الا اننى اذكر من طرائف السهرة ان السيدة روز اليوسف كانت تخاطب قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام ..

نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار





جرجي زيدان

كنت حوالى سنة ١٩٠٥ اعمـــل فى دواوين الاقاليم : قنا ثم الزقازيق ..

وكنت أزور القاهرة مرة كل اسبوعين ، أو كل شهر ، عندما كنت أعمل فى الزقازيق ..

ازورها لغرضين فى وقت واحد : ان اشـــهد التمثيل بفرقة سلامة حجازى ، وان ابحث عن الكتب التى لاتصل مع الباعة المتجولين الى الاقاليم ..

وفى مرة من هذه المرات ، قصــــدت الى حى الفجالة لأسأل عن كتاب ما ــ أى كتاب ــ فى فلسفة الجمال ..

ولم اكن اعرف اسم الكتاب الذى ابحث عنه لأنه ــ كما ظهر لى بعد ذلك ــ لم يوجد من قبل باللغة العربية ، ولم يوجد الى اليوم . وانما كنت اتصفح فصـــول الاديب الخطيب الانجليزى ادمون بيرك عن الجليل والجميـــل ، فخطر لى أن مثل هذا المبحث لابد ان يكون مطروقا باللغة العربية ، وكان اعتقادى فى كتابنا المحدثين منذ اواسـط القرن التاسع عشر كاعتقاد اجـــــدادنا في الاوائل اذ يقولون : ما ترك الاول شيئا للاخر .. فاذا كانت اللغة الانجليزية قد اشتملت على بحث فى فلســـفة الجليل والجميل ، فاكبر الظن أن كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة بحث من هذه البحوث ..

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضـــدة المعدة لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين : أحدهما مطربش والآخر معمم ، وطـــرق مسمعى اسم السيد توفيق وصهاريج اللؤلؤ ، فسمعت الرجل المطربش يقول لمحادثه المعمم : ان السيد توفيـــق قد عاد بالنثر العربى خمسمائة سنة الى الوراء

وسألت البائع : هل يوجد عنـــدكم كتاب فى فلسفة الجمال ؟

قال مستغربا : فلسفة ماذا ؟

فأعدت قولى بلهجة التوكيد : فلسفة الجمال !

والتفت الرجل المطربش الى هذا الحوار ، فنظر نظرة استفهام الى البائع ، فاجابه هذا :

ـ ان الافندى يسأل عن كتاب فى فلسفة الجمال !

فتمهل الرجل المطربش ، ثم قال : ما اظن كتابا فى هذا الموضوع قد الف باللغة العربية ، ثم ســـألنى هل رايت الكتاب المطلوب وعرفت اسمه ، أو اسم مؤلفه

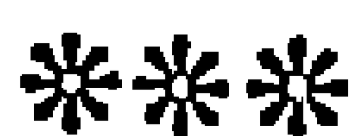
قلت : كلا .. ولكنى رأيت شيئا فى بحث الجليـــل والجميل بالانجليزية فخطر لى ان البحث مطروق بلغتنا ..

قال فى تؤدة وهو يبتسم : ينبغى حقا ، ولكنه لم يطرق فى كتب مستقلة ، ولا يزيد ما كتب عنه على بعض الاشارات المتفرقة فى المجلات

علمت من البائع ان الرجلين المتحادثين هما : جرجى زيدان صاحب الهلال ، وابو بكر لطفى المنفلوطى أخـــو مصطفى لطفى المنفلوطي الكاتب المعروف .. وابوبكر نفسه كاتب لم يشتهر شهرة اخيه ، وهو الذى كان يكتب بعد ذلك بسنوات فى جمعية « مصر الفتاة » مقالات يحكى بها

مقالات أخيه فى المؤيد باسلوب كاسلوب «صهاريج اللؤلؤ» فى التفخيم والاغراب

ولا ازال اذكر صورة جرجى زيدان كما رايته فى ذلك اليوم : رجلا بسيط المظهر بعيدا من كل تكلف فى زيه وجلسته وحديثه : يتكلم فى الادب والبلاغة والاحاديث العامة بأناة العالم المحقق ، ولكن بسهولة المتحدث المفيد .. كأنه يقول ما يقوله للتعليم دون أن يبدو عليه مظهر المدرس فى حصة التدريس ، ولا اذكر اننى رأيت من ابناء عصره كاتبا بمثل شهرته ومكانته وبمثل هذه البساطة فى المظهر والحركة والحديث ، وقد رأيته بعد سنوات فى داره وفى ساعات فراغه فلم أجد بين مظهره وهو بعيد من الناس ومظهره وهو فى المكتبة العامة أقل خلاف .



وقد طبعت اول ما طبعت من كتبى بمطبعة الهلال ، وهما كتاب خلاصة اليومية ، ثم رسالة الانسان الثانى عن المرأة وتاريخ طبعهما كما هو مكتوب عليهما (سنة ١٩١٢)

ولهذه المناسبة كنت أرى « جرجى زيدان » احيانا فى مكتبة الهلال واحيانا اخرى فى مطبعة الهلال ، فان لم يكن فى المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع فالدار التى كان يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة ، والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مألوفات ذلك الزمن ، ولم يكن شيوع التليفون بين المكاتب والمنازل كشيوعه فى هذه الايام ، وانما كان طالب الزيارة يطرق الباب ويسأل عن صاحب الدار : اهو حاضر ؟ وهل يمكن لقاؤه ؟.. وغالبا ما يجاب بغير حاجة الى موعد آخر محدود

وكان العمل مقسما بين الاخوة الثلاثة : جرجى للمجلة

ومترى للمطبعة ، وابراهيم للمكتبة ، وليس بين المطبعة ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل .. أما المكتبة فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات ..

واحسب ان الامر لم يدع الى مقابلتى اياه بداره اكثر من مرة واحدة سألته فيها عن رايه فى فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، وعلمت فيما عدا هذه المقابلة ـ عرضا ـ مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى المباحث والمطالب ، وان لم تكن لزاما من موضوعات النشر بمجلة الهلال

سألته : ايهما اصح واصوب ، نظرة المتفائل او نظرة المتشائم ؟

وربما كان السؤال : اى الفلسفتين اصدق ، فلسفة التشاؤم أو فلسفة التفاؤل ؟

لست اذكر نص السؤال بكلماته ، ولكننى اذكر موضوعه العام لاننى كنت مشغولا به فى كل مطالعة وكل نظرة الى مسائل الادب والحياة ، وفى كلا الكتابين اللذين طبعتهما بمطبعة الهلال اشارة الى الامامين المتشائمين : ابى العلاء ، وشوبنهور ، وهما متلازمان فى ذهن كل قارىء عربى يسمع بالتشاؤم فى الثقافة الاوربية ..

ففى خلاصة اليومية اقول بعنوان القول والقائل : .. « انظر الى ما قيل لا الى من قال ـ قاعدة لا يصح اطلاقها فى كل حالة ـ فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها ، فان كلمة مثل قول المعرى :

تعب كلها الحياة فما اعـ
جب الا من راغب فى ازدياد

يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه فى كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها .. فاننا نثق بأن المعرى مارس الامور الجوهرية فى الحياة ودرس

الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، نكدا أو رغدا ، ولم يسبر منها اولئك العامة الا مايقع لهم من الامـــور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة »

وفى رسالة الانسان الثانى بعنوان عصر المرأة أقول :

« وقفت على آراء فى المرأة للفيلســـوف الالمانى ارثر شوبنهور ، فأعجبنى حذق الرجل وجراته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها فى اوربا خلوا من التهذيب وســـلامة الذوق . وان كنت أراه قد غلا فى مذهبه الى حد ربماكان الدافع به اليه غلو المدنية العصرية فى نظرها الى المـــرأة ورعايتها اياها »

وقد سألت صاحب الهلال فى هـــذا الموضـــوع لاننى انتظرت ان اعرف الرأى الراجح من تجاربه كما اعرفه من اطلاعه ودرسه .. فسمعت منه الجواب المفيد عن الامرين

قال لى فى بســـاطة الرجل الذى يتحدث عن الجو أو أحاديث السمر العارض :

« اننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرفذلك من التفاؤل ، وقد يكون رأيهما واحدا فى حقيقة من الحقائق العملية ، أو الفكرية ، ولكن هذا يجعله سببا للرضـــا والآخر يجعله ســـببا للسخط على حسب مزاجه .. فليست المسألة معهما مســـألة صحة أو بطلان ، ولكنها مسألة التأثر على حسب المزاج

واحسب انه قال ايضا : اننا نترك البحث عن الاصـــح ونبحث عن الاصلح ، فنرى ان التفاؤل اصلح للعمل فى الحياة والنجاح فيها .. لانه اصلح لاحتمال الشدة واصلح للأمل فى النتيجة

وأحسن ما حسن عندى من ســـمت الرجل ، ومن

بساطته فى حديثه ، وبساطته فى كتابته — انه لم يتخذ من قواعد العلم كتافا لعقله يحجر عليه ويحرجه احراج الموسوس الذى يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها واطرافها ، ثم يرى انها هى العلم وكل ما عداها فليس من العلم فى شىء

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشا يخشى عليه اللابس ان تنكسر قصبة فيه اذا طاوع عقله فى الحركة بعض المطاوعة ، ولم يتخشب مع الكساء المزركش ، على سنة الوقار أو على سنة الجمود . .

فقد كان على اطلاع واسع فى العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع ، ولكنه كان فى سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم ان العقل قد يكون «علميا» وهو يخوض فى كلام لم يقرره العلم ولم يقرر نقيضه كذلك

ولهذا كان جرجى زيدان يبيح لفكره ان ينظر فى « علم الفراسة الحديث » وليس هو من العلوم التى فرغت التجربة من قوانينها كما فرغت — مثلا — من قوانين الحركة

وكان يبيح لفكره ان ينظر فى أصول اللغات واصول الكلمات واصول القواعد اللغوية دون ان يكون للعلم حكم قاطع فى كل اصل من تلك الأصول

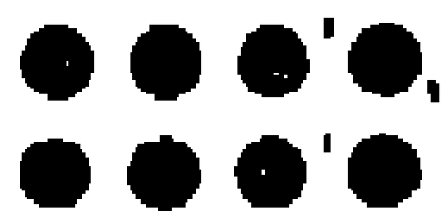
فان لم يكن ما يقوله علما مصبوبا فى قالبه الأخير ، فهو — بلا شك — مادة علمية يجب ان تتهيأ لقالبها على شكل من الأشكال ، ويمتنع علما ان تترك بغير التفات اليها . فان عمل العلم فى تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الاشكال أوجب من صب القوالب على الشكل

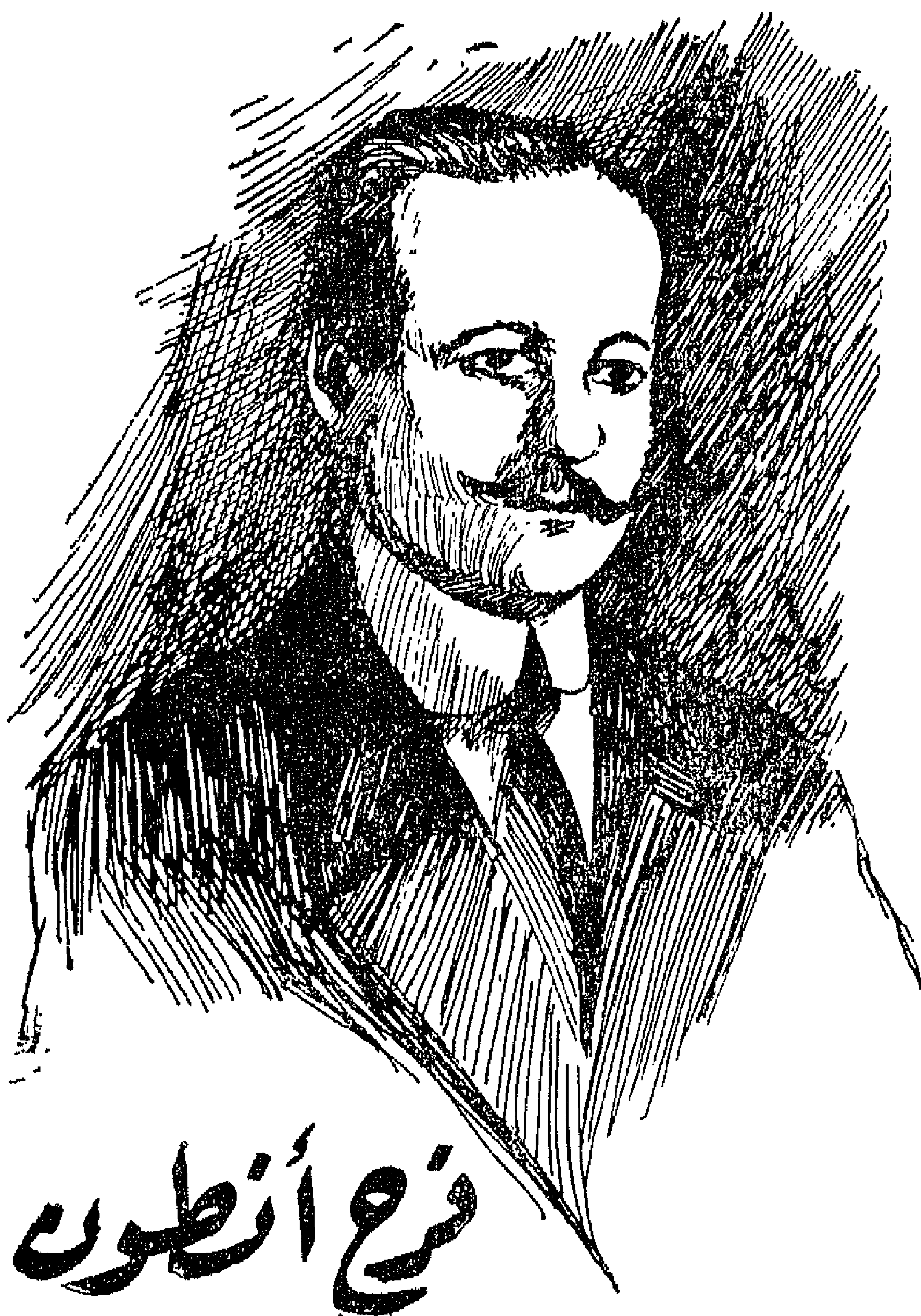
الاخير .. وأوجب من ذلك الا يكون « الشكل الاخير » هذا هو كلمة الختام ، وهو الحكم الذى لا يقبل النقض والتنقيح

وقد كتب جرجي زيدان فى كل مسألة من مسائل عصره الاجتماعية والفلسفية والادبية ، فكان فى كل منها بسيطا تلك البساطة التى عهدناها منه وهو يتكلم عن اسلوب البكرى أو عن كتاب فلسفة الجمال ، أو عن فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، ولكنه قال فيها جميعا رايه الذى لم يناقضه العلم ولم يأت بما هو اثبت منه على اختلاف النظر فى الأمور

ولسنا نحسب ان تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث والتفكير ..

انما يسمح به - فى غير حاجة الى الرخصة من احد - للعقل الذى يستمد بساطته من مصدر واحد : وهو مصدر القوة التى هى اكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة ، وهى فى طمأنينتها الى قدرتها على سبك القوالب وصهر المادة التى تملأها تعالج المادة فى دور التشكيل كما تعالجها فى قالبها الأخير




فرح أنطون

مضت عدة سنوات على احتجاب ذلك الطيف الذى كان كثيرا ما يرى فى هذه العاصمة غاديا أو رائحا فى خطوة وئيدة وعزلة بعيدة ، كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس الى حيث لا يعلمون ، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لا يذكره الى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق .. على وجهه سماحة تظللها سحابة من اسف شجى ولوعة مخامرة ، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى رأى العين طمأنينة راضية ، وعلى شفتيه صمت مصر كظيم يصف لك من صاحبه هاتفا دعائم الحق داعيا مناديا حتى مل وفتر ، فلم يستمع اليه مصيخ ولم يجب الى صوته صدى ، فأطبق شفتيه اطباقة من لا ينوى افترارا ولا يهم بصيحة ولو علقت النار بردائه .. مضت سنوات على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته ، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزءا فادحا وألما بارحا ونزعة شديدة وشقة بعيدة ، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جفلته لواغط الاصوات فأوى الى ظلمته الساكنة ..

مضت سنوات على وفاة « فرح أنطون » ..

ولقد رأيت « فرحا » مرارا ، ولكننى لم أكلمه الا مرتين

او ثلاثا . وكانت مرة منها فى مكتب « الأهالى »، اذ كان يعمل فى تحريرها ، فتلاقينا فى غرفة الأستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه ، فسمعت من نبرة صـــوته وفاق ما رأيت من خشوع نظرته ، وأحسست موضع دائه فقلت له مؤاسيا ــ وكان كلامنا على النهضة السياسية ــ انك يا « فرح افندى » طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيرا مما كانت فى هذا الملتقى المضطرب . فأومأ برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : « انه يا أخى تيار جارف .. فماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالى السائر المغذ بمن كان قبله فى مفترق الطرق ؟! » فبدا لى أن الرجل يئس من الحياة ، وأنه جرب كل سهامه حتى ساء ظنه بالسهام والهدف . على أنه كان الى يوم وفاته ممسكا بالقوس لا يحول بصره عن الهدف الذى خدعه ، وذلك ديدن غالب فى النفوس الراجية ، وهو كهامة الأمل تتردد حتى تفيض روحه ..

ما يئس ذلك الفاضل الأبى هذا اليأس الا لأنه أبعد منزع الرجاء ، فلم يكن غريبا ان يمنى بحسرة المضيع المنبت عن غايته .. لم يكن ذلك غريبا ولو أنه كان فى بلاد الغرب الناشط منشؤة ، وفى ذلك الميدان الممهد جهاده . فكيف به وقد نشأ فى هذا الشرق المسرف الذى يمشى بين الأمم فى أطمار الفاقة ، ويمزق ما يضفى عليه من نسج العقول تمزيق البذخ والغنى !! الا اننا نقول : من أين للشرق المسكين أن يفعل غير ما فعله ؟ ومن أين لعظمائه المغبونين ان يفعلوا غير ما يفعلون ؟!. كفاهم عزاء انهم أضخم من عظماء الغـــرب واجبا واجل منهم قربانـا ، فان يكن امدهم بعد الأين والنصب قريبا واثراهم بعد

الجهاد ضئيلا قليلا فلتكن سلواهم – لابل فخرهم – أن واجبهم ثقيل وان سفرهم على قرب الامد سفر طويل ..

وفرح أنطون : كسائر الكتاب الذين يستوحون قلوبهم ويقطرون على القرطاس من دمائهم ، مفكر تؤثر فى تفكيره عوامل الحياة وتنبث فى نفسه ألوان الجو الأدبى الذى يحيط به . ولقد فاتنى ان احيط بكل ما كتب ذلك الأديب الفقيد ، ولكن الذى قرأته من كتبه ناطق بحياة صاحبه ، يدل على انه من وحى ذهن لا تمر به مذاهب الفكر الشائعة فى زمانه عبثا ولا تتعارض حوله تيارات الحياة بغير جدوى ، ولعل أصوب ما يقال فى كتاباته انها خير دليل على اتجاه تيار الفكر فى أيامه وخاصة فى نشأته الاولى ، اى فى عهد الصبا المتفتح للدنيا ، المقبل على كل جديد ، الذى قل ان يوصد بابه فى وجه طارق من طوارق الأفكار الجميلة ، أو يضن بموضع فى نفسه على ضيوف الأحلام اللاعبة والخواطر الوسيمة .

نشأ « فرح أنطون » فى سورية ، وكانت نشأته فى أواسط النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فبقى فى حياته الفكرية أثر واضح من وطنه المكانى ووطنه الزمانى . فأما وطنه المكانى فظاهر الأثر فى حملته على رجال الدين وشغفه بالمؤلفات التى تنحى عليهم أو تخفض من دعواهم وتقوض من دعائم سلطانهم .. فمن ذلك اكثاره من الكتابة عن تلستوى وتلخيصه لكتاب رينان فى « تاريخ المسيح » واشتغاله بالمقارنة بين « الدين والعلم والمال » وبين ما يتنازعه سدنة هذه الأرباب الثلاثة من سيادة على الضمائر والأجسام . ومن ذلك دعوته الى الفصل بين الكنيسة والحكومة ، ورأيه الذى ارتآه فى كلامه على ابن رشد ذاهبا فيه الى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية

والدنيوية فى الخلافة الاسلامية ، وهو الرأى الذى كان من أسباب فشله وكساد مجلته « الجامعة ».

ولعل سائلا يسأل : ولماذا يكون التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية ؟ .. فأقول لهذا السائل : اننى كنت كذلك أعجب لهذا الامر وأستغرب الغيظ الشديد الذى تتوهج به كتابة السوريين الاحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم ويصفون تغلغله فى شئون قومهم .. وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التى يقبض على زمامها رجال الدين فى سورية ، فخطر لى أنه لا عجب ! لان رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية فى العالم ، وأوسع رعاة الكنائس اشرافا على حياة اتباعهم .. فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم

وناهيك بها من سطوة هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم ، فللحوادث التاريخية التى حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الاجنبية دخل عظيم فيه . وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت فى البلاد السورية — ولا تزال — معقد آمال الشعب المسيحى فى الحرية السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى من صلة معروفة ، وأنها كانت ولا تزال قائدة الافكار وقدوة المسترشدين لانها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار . واذا اجتمعت لفئة واحدة أزمة السطوة الروحية من كل جانب — كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين — فغير عجيب الا يرضى عنها ، وأن يتبرم بها ، فريق الشبان

المتعطشين الى المعرفة الحرة ، التواقين الى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الابية والعقول الطليقة والاخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات .. وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والاغراء بها هجيراهم وشغلهم الشاغل فى كل ما يدرسون ويكتبون . وهذا ما تراه فى كتابات « فرح أنطون » مع شيء من الرفق والاعتدال ، وتراه على تفاوت فى الجرأة وغلو فى اللهجة - فى كتابات الادباء السوريين المهاجرين الى الاقطار الامريكية

اما وطنه الزمانى ، فأثره ظاهر فى الطريقة الكتابية التى تبعها منذ عهده الاول ولم يغيرها الا قليلا فى عهده الاخير .. ونعنى طريقة الكتاب القائلين « بالعودة الى الطبيعة » .. وهى كما لا يخفى الطريقة التى كانت كتبها وآراؤها ميسورة للقارىء الشرقى فى ذلك العصر حين يأخذ فى مطالعة الآداب الفرنسية ، ولاسيما الخفيف القريب المتناول منها . فلما ترعرع « فرح » واشتاقت نفسه الى ما عند الغربيين من زاد الفكر ولذة النفس ، ألفى بين يديه كتب روسو وبرناردين وغيرهما تدعوه الى موائدها السهلة الهنيئة .. فأقبل عليها ولهج بها وتملكت لبه وأصابت من فطرته الوادعة الكريمة موقعا حسنا .. وحق لها ان تصيب ذلك الموقع لانها كانت فى عصرها اصدق ما يعبر به عن سآمة النفوس من آفات المدنية وأدرانها وجور الطغاة من ساسة القرن الثامن عشر ، ويخيل اليك ان اديبنا كان يكتب بقلم من اقلام أولئك الفلاسفة والادباء الذين تعشقهم وأغرم بآرائهم لقرب مأخذه من مأخذهم ومشاكلته اياهم فى اسلوبهم وطلاوة عبارتهم . ولا اقول انه كان يقلدهم أو يترسم خطاهم ، فانى أجله عن ذاك ولا اضعه دون برناردين مثلا فى منزلة او صفة ، ولكنى اقول انه توافق فى الفطرة

وتطابق فى النظرة يسلكه فى مضمارهم ويتقدم به الى صف الكثيرين منهم ..

على اننى لا احسبه استمر طويلا على الايمان بعقيدة العود الى الطبيعة وابتغاء السلام فى حظيرتها ، اذ هى عقيدة لا تثبت على تجارب الايام واختبار حقائقها ولا تبهر النظر فى ضوء المذاهب المستحدثة بعد روسو وتلاميذه . ولا اشك فى انه اجتواها واعرض عنها بعدما زاول من حقائق الدنيا ونظر فى دارون ونيتشه .. فان الاطلاع على دارون ونيتشه ومن حذا حذوهما ينشىء للنفس احساسا جديدا « بمسئوليات » الحياة ، يغض من قداسة الرجعة الى الطبيعة ، ويجعل النكوص من المعترك وصمة وعارا . هذا فضلا عن ان الطبيعة التى يصورانها ليست بالملاذ الانيس ولا بالملجأ الامين من شرور المدنية واوضار المجتمع .. انما هى والمدنية سواء فى حكم تنازع البقاء وبطش الاقوياء بالضعفاء والاشرار بالاتقياء

وفى مناجاة الكاتب لشلال « نياجرا » وقفة تريك العابد يمسح صنمه ويؤنبه ويسبح باسمه ويذكر له قلة غنائه عنه .. تريك « فرحا » يحب الطبيعة وينكرها ويلومها ويعذرها ويقول فيها ما يقوله الكافر الذى يود لو يؤمن والمؤمن الذى شق عليه ان يكفر .. ففى مزاجه حنين الى عقيدته القديمة فيها ، وفى عقله نبو عنها وسوء ظن بها . ومن هذا النزاع بين مزاجه وعقله استملى مقالا من غرر ما يقرأ على نمطه فى آدابنا الحديثة ، وبث زبدة حياته وصفوة تجاريبه فى بضع صفحات لا يمل تكرارها .. وعندى انها حسب كاتبها من اثر فى عالم الكتابة ان لم يكن له قط اثر سواها ..

كان « فرح انطون » كاتبا على استعداد للرواية والقصص ، وكانت ملكته القاصة تظهر أحيانا فى مقالاته الادبية والسياسية كما تظهر فى رواياته وحكاياته .. فمال به هذا الاستعداد الى وضع الروايات فأحسن وارتفع فى روايته « اورشليم الجديدة » ثم تقلبت به صروف ، وألمت به محن ، وتجرع من مرارة الخيبة مرارا .. وطلب اليه وهو بين اليأس والرجاء ان يترجم او يكتب للمسرح ، فلبى وبدأ بداءة حسنة ، ولكنه لم يحقق بغيته ، ولم يصنع شيئا يليق به او يضاف الى محاسنه .. وقد حضرت احدى رواياته التلحينية ، فما أطقت الصبر اعلى اكثر من فصل منها .. ولم أر فى موضوعها ، ولا فى فنها ، ولا فى غنائها ، ولا فى ممثليها ، ولا فى الجمهور الذى يسمعها ، أثرا لـ « فرح انطون » الذى نعرفه ، ولا علامة على ملكته السامية ومكانته الادبية ، وهى زلة نأسف لها ونعتبر بها . ولكن هل هو أول من يلام على اضطراره الى هجر ملكته والخروج عن جادته ؟ الم يكن يربح فى الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة ؟ .. فمن المسئول عن ذلك ؟ .. أهو أم الجمهور الاحمق المأفون ؟ ! وماذا كان يصنع « فرح أنطون » ان لم يؤلف تلك الروايات ؟ ! .. ألا فلنعلم اننا اذا كنا لانختار للاديب النابغ المريض المنقطع الموارد الا أن يموت بيننا على «الكتمان» جوعا ، فقد يحق لذلك الاديب ان يختار لنفسه خاتمة أسلم واكرم من تلك ..



رجال حول "مي"

فى سجل الادب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطويـــة الى اليوم ، وان كانت منها ما يهم ان يطلع الى عالم النور من طيات الخفاء . .

ونعنى بالادب الخاص ، ذلك الادب الذى لم يقصــد للنشر وان كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير اصحابه فى حياتهم الخصوصية . وعـلى رأس هــذه الصفحات صفحة « الندوة » التى كانت تعقـــدها نابغة جيلها « مارى زيادة » وقد اختارت لتوقيعهـــا الادبى اسم « مى » من الحرفين الاول والاخير فى اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتى هذه الصفحةعلى رأس أمثالها بين صفحات هذا الادب الخاص ، لمكان «مى» من نهضة الادب ونهضة المرأة فى آن

او جمعت الاحـــاديث التى دارت فى ندوة « مى » لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الاغانى » فى الثقافتين الاندلسية والعباسية

واو جمعت الرسائل التى كتبتهـا « مى » أو كتبت اليها من نوع هذا الادب الخاص لتمت بها ذخيرة لا نظير لها فى آدابنا العربية ، وربما قل نظيرها عند الامم الاوربية

التى تصدرت فيها المرأة مجالس الازياء الادبية والازياء الاجتماعية ، الا ان يكون ذلك فى عصر « الصالونات » او عصر النهضة منذ القرن السابع عشر الى ما قبل القرن العشرين

اذكر هذا بعد قراءة الرسائل التى نشرتها مجلة «الهلال» للعلامة المفضال استاذ الجيل احمد لطفى السيد ، فان هذه الرسائل تعرفنا بصورة للطفى السيد لا نعرفها من كتابته فى الجريدة ولا فى كتابته فى تراجم ارسطو ، ولا فى كتابته بدواوين الوزارة ، وفيها من طابع الشخصية ، وطابع الندوة ، وطابع العصر ما تحسبه خاصا ان شئت ، وتحسبه ملكا عاما ، من ناحية الفن ، لقراء الادب الذى اقترن باسم لطفى السيد ، واسم مى ، وأسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين

وعند مى — على ما نعلم — انماط عديدة من الرسائل التى تسللت فى عداد هذا الادب الخاص ولا ندرى أين موضعها الآن ، وان كنا نخشى ان تكون قد احرقتها أو ردتها الى كتابها لتسترد منهم كتبها اليهم ، كما صنعت فى غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها ..

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند اصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه ، وانقاذه ، وتسليمه لاصحاب الحق الاخير فيه ، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون ..

كم كان زوار تلك الندوة العالية ؟ وكم كان كتاب الرسائل منها واليها ؟

اننى اعد ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد اسماؤهم على القلم فى هذه الساعة : لطفى

السيد ، عبد العزيز فهمى ، شبلى شميل ، سليمان البستانى ، احمد شوقى ، خليل مطران ، انطون الجميل ، داود بركات ، نجيب هواوينى ، توفيق حبيب ، توفيق اسكاروس ، أمين واصف ، مصطفى عبد الرازق ، مصطفى صادق الرافعى ، هدى شعراوى ، احسان القوصى ، ادجار جلاد ، سليم سركيس ، يعقوب صروف ، حافظ ابراهيم ، اسماعيل صبرى ، ادريس راغب ، فؤاد صروف ، عبد القادر حمزة ، منصور فهمى ، طه حسين ، ملكة حفنى ناصف ، مجد الدين حفنى ناصف ، عبدالستار الباسل ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشيكل ومع حفظ المقام ، كما يقال فى هذا المقام

وكل زائر من هذه النخبة كان حقا له ان يزور الندوة فى موعدها فى اصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ، أو واجبه ، ان يعتذر لفوات موعده منها بعض الايام ، بل كان من حقه ان يكتب رسائل الاعتذار او رسائل السؤال والتحية وان لم يكن من مطمعه دائما ان يتلقى الجواب ..

أكل هؤلاء عشاق ؟ ..

وعلى كل من هؤلاء ينبغى ل «مى» ، اذا اجابت ، ان تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق الى الوهم كلما ذكرت تحيات الرسائل ، أو القصائد احيانا ، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة ايضا ، الى طبيعة الندوة وطبيعة التحية « العرفية » التى تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، ان لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها ادباء وشـــعراء وكتاب قصة واصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة

ان فات احدا من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ، فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة

وان فات «ميا» أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها ـ كما قد يخطر على بال الاقدمين ـ ان تصدها بالعبوس والغضب ، فليست هى زيارة « ندوة » اذن .. ولكنهـا زيارة واحدة قد تنتهى كما تبتدىء عند باب الدار

وهذا هو تأويل الرسائل على اسلوب الفن العاطفى ، او العاطفة الفنية ، بين صاحبة الندوة وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار

ولكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هـــذا الاطار من التحية

لطفى السيد واسلوب الجنتلمان الفيلسوف ..

وعبد العزيز فهمى واســلوب الصمت الخجل ، كأنه الصبى فى مجلس الفتيات القريبات ..

وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر فى معــرض الهوانم ..

وشبلى شميل واســـلوب المصـــارع فى حلبة الفكر والشعور ..

وخليل مطران وأســـلوب موليير على غـــير مسرح التمثيل ..

وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات فى صالون من أشهر صالونات البيوت

ومصطفى صادق الرافعى وأسلوب المفاجأةبالكتابةالتى يغنى الاطلاع عليها عن السماع ..

واسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم انحق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكناية والتلميح،وهو الذى كان يكتب الابيات قبل يوم الزيارة مستئذنا فى الحضور :

ان لم امتع بمى ناظرى غدا
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

وأحمد شوقى وأسلوب الايماء من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين !

تتألف لجنة من لجان المحافل الثقافية ،فيخرج شوقى من صمته مرة واحدة ليشترط أن تكون «مى» سكرتيرة اللجنة ، والا فلا احتفال ..

ويدركه لطفى السيد ليسأل ، أهذا اقتراح شعرى أو اقتراح فى النظام ؟! ..

وغير ذلك من الاساليب كثير على كل لون ، ومن كل طراز ، ولكنها كلها أساليب التهذيب واللباقةالتى تناسب الزوار وصاحبة الدار ..

وبين الزائرين الذين كانت لهم زلفى الرعاية الطويلة ادريس راغب رئيس المحافل الماسونية الى عهد الملك احمد فؤاد ، ولم تكن «مى» من اعضاء المحافل الماسونية على ما أعلم ، ولكن ادريس راغب كان يملك مطبعة المحروسة وينزل لوالد مى الياس زيادة عن حق ادارتها واصدار الصحيفة منها ، وكانت ل « ادريس راغب » هواية صحفية تمكنت منه على الخصوص بعد عزله عن وظائف الادارة على اثر القضية المعروفة بقضية ارض المطرية بين الخديو

عباس وحسن موسى العقاد ، فاقتنى المطابع لاصدار الصحف الفرنسية والعربية ، وخص والد مى بالاشراف على المطبعة العربية دون ان يقيده بسياسة يمليها اعليه ، وكانت زيارته لندوة مى أشبه بالزيارات العائلية كلما اصطحب معه احدى كريماته الفضليات ، وان ابت عليهم محافظة الاسرة أن يجلسن مع الزوار ، فاذا حضر منفردا عرفنا ذلك من سؤال مى عن آل بيته السيدات ، ومن جوابه بالاعتذار عنهن » أو دعوتها الى زيارتهن فى موعد قريب ..

وكانت الآنسة مى حريصة على تقاليد العرف فى الصالونات العائلية الى حد التكلف .. فهى تعقد ندوتها الاسبوعية للادب والادباء ، ولكنهالا تنسى برنامج الصالون المصطلح عليه فى البيوت ، ولا تحب ان يظن الزوار العائليون أن أدبها ينسيها تقاليد(ربة الصالون)فى مجتمع الاسرة ، وأن مادة الثرثرة الاجتماعية (نمرة) منتظرة فى كل صالون يحضره اناس من أصدقائها الادباء الذين تعرفهم معرفة عائلية وتقابل زوجاتهم واخواتهم فى بيوتهم وفى ندوتها ، وقد كان يلوح لى غير مرة انها كانت تنتظر من اولئك الزوار العائليين خبرا أو أخبارا عما يجرى فيه الحديث بينهم فى شئون الزواج والطلاق والخلاف والوفاق وتعقب عليه بملاحظة عابرة أو نكتة فكهة ، الا ان يكون فيه شيء من المساس الصريح بالاخلاق المرعية ، فهى فى هذه الحالة تتابعه بالصمت أو تصرفه بكلمة عابرة ..

قال أحد الحاضرين يوما : أسمعتم أن الاستاذ حافظ رمضان قد تقدم لطلب الزواج من السيدة هدى شعراوى ؟

فقالت : « انه خطيب كفؤ للزوجة المخطوبة ، والتفتت

الي كالمتسائلة عن رأيي في رأيها هذا ، لان الخطيبين لهما شأن في الحياة العامة ، فقلت بغير اكتراث كأنني أساق سوقا الي الحديث :

ـ ان الامر يعنيهما ، وبارك الله للعريس في العروس وللعروس في العريس .. !

وقد كانت « الحشمة الصعيدية » لا تفارقني بحكم العرف الذي نشأت عليه ، وكنت اشهد مجلس والدي في صباى فلا اسمع خبرا من هذه الاخبار التى تدور على الحريم وكل ما يتصل به من سر او علانية ، فاذا عرض اتفاقا فانه يعرض ليصرف على الاثر ولا يعاد اليه .. وكانت رحمها الله مولعة بالالحاح على في هذه الاحاديث خاصة ، وهي تنظر الى تحرجي من الخوض فيها نظر الحضرى الى الريفي (الخام) القادم من القرية صباح يومه .. !

سألتني مرة : هل صحيح ان الاستاذ عبد القادر حمزة تزوج من السيدة منيرة ثابت صاحبة الامل ؟

قلت : لا اعلم .. ولم ينشر الخبر في البلاغ على الاقل !

قالت متهافتة : أو لا تعلم من أخبار زملائك في البلاغ الا ما ينشر في الصحيفة ؟

قلت : أو ما يعنيني أن ينشر !

فعادت تقول في شيء من التخابث المصطنع : لالاياااستاذ .. لعل الخبر لا يرضيك لامر يعنيك ..

وكانت تتحدث قليلا جدا عمن يخطبونها كأنها تعتذر لرفض الخطبة بعد الخطبة ، لغير سبب وجيه في رأى الاصدقاء الذين قد يلومونها على اعراضها الدائم عن الزواج

قالت مرة لمن سألها عن خطبة شاب من اسرة غنية ذات لقب غير مقبول :

أتريد أن تناديني غدا باسم مدام « بعجور » ..ونحن نذكر اسم «بعجور» هنا بدلا من اسم الاسرة الصحيح، رعاية لشعور ابنائها الاحياء

وخطبها طبيب لبناني فعاتبها صديق له لانها ردته بشيء من الجفاء ، فقالت : انه لطيف .. لطيف لا خلاف، ولكن اللطف الذى قد يسميه من شاء (تأنثا) لا يعجبنى

وخطبها صحفى ثرثار كانت تصفه بيبوسة المخ ، فلم تزد فى جواب السائلين على السماح للخطيب المرفوض يوما من أيام الندوة بالانطلاق فى الحديث على عادته من اللجاجة والعنت ، فكاد الحاضرون أن ينصرفوا جميعا.. وكان هذا هو جوابها الغنى عن البيان ! ..

وتحدث بعضهم عن فتيات لاهيات متطرفات فى الحرية الاجتماعية ، وأبدى اشفاقه من فوات حظهن فى الزواج بمن يناسبهن ، فقالت ساخرة :

ـ ولكن هؤلاء وأمثالهن ، يا استاذ ، هن اللواتى يسرع اليهن الازواج من الاكفاء ، وفوق الاكفاء ! ..

ولقد كان لكل من رواد ندوتها العائليين ، دور (عائلى أدبى) ملحوظ على منهجه المألوف ..

كان للدكتور شميل دور الاب العصرى الذى يحض فتاته على (التحرر) من قيود التربية العتيقة ، وكان رفع الكلفة مع الناس جميعا طبعا من طباع الدكتور شميل لا يتكلفه مع أحد . فاذا استقبلته يوما فى الندوة ، فلمح على محياها اثرا من آثار الوجوم والاحتجاز ، صاح

بها صيحته ـ الفضنفرية ـ : ما هذا يا صغيرتى ! ..
انا حاضر هنا الى صغيرة مثل بناتى .. فماذا ارى ؟شيخة اناديها ياأم شولى ؟

وكان شميل يملك حريته كلها فى الندوة ، كأنه صاحب الدار وصاحبته هى الضيفة الزائرة فيه .. فرفع عصاه ذات يوم على الخطاط المشهور نجيب هواوينى ولم يدعه حتى أخرجه من الباب ، وذنبه الذى استحق عليه هذا الطرد العنيف انه كتب قصيدة كان الدكتور يلقيهاويقول فيها على ماأذكر :

ماذا دهاك وكنت دين سياسـة
ورئاسـة يأيهـا الاسـلام

فكتب الخطاط (الكسلان) بدل الاسـلام ، وثارت ثورة الدكتور على الرجل الذى يبلغ من غبائه ان يكتب فى القصيدة الواحدة قافية بالنون بعد قافية بالميم ، وابى ان يكون لمثل هذا حق فى حضور ندوة يحضرها من يقرءون ويكتبون !

وكثيرا ما كان شميل يحمل على « الادباء » فى عصره حملاته المنكرة ، ويصيح بهم كأنهم حاضرون امامه يخاطبهم ويخاطبونه :

ـ فضونا من غلبتكم يا أدباتية يا اولاد الكلب .. !

وكانت الآنسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هذه الصيحة :

ـ قلمك يقول اننا اولاد القرد ولسانك يقول اننـا اولاد الكلب .. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا اليه !

وكان للاستاذ داود بركات مثل هـذا الدور الابوى المتحرر من الفتاة الرصينة المتحرجة ، وقد يتجـاوز

النصيحة الكلامية الى الاخذ بيدها فى محافل العائلات التى يسمح فيها بمراقصة الفتيان والفتيات ، ليجذبها جذبا الى مراقصة هذا أو ذاك من زوار الدار ، وكانت هى تتملص من يده بلطف ووداعة ، ولكن بعناد واصرار ..

والاستاذ الجميل كان كصديقيه شبلى وبركات فى هذه الابوة الادبية ، ولكنه كان يؤثر نصيحتها برعاية صحتها وراحتها على النصيحة بالتحرر والانطلاق من قيود التحرج والاحتجاز ، وقد كانت له شدة تبلغ منه غاية ما يستطيعه بمزاجه (الدبلوماسى) المطبوع ، كلما لحظ عليها نوبات العناد والاصرار فى أيام مرضها الاخير ، فربما قال لها وهو يظهر قلة المبالاة :

ـ ماذا تظنين وانت تهملين صحتك هذا الاهمال ؟ أتظنين ان العالم الادبى يحفل من احتجاجك الصامت هذا ويجلس للبكاء عليك أو للضراعة بين يديك .. التفتى الى نفسك .. التفتى لمصلحتك ، والا فأنت الباكية وحدك لما يصيبك من هذا الاهمال ، وهذا العناد ..

اما الاستاذ خليل مطران فقد كان دوره فى الابوة الادبية كهذا الدور بعينه ، ولكن من ناحيته الفنية الشعرية .. ولعله كان دور (الاب) المراح فى صورة من صور ابطال « موليير » تلقى القبول والاختيار ، حيث تكون الابوة هناك ابوة جد والزام ..

كانت طريقته معها طريقة الدعابة السمحة والنقد المباح ، وكان فى دعابته احيانا يضع تكلفها الاجتماعى او العاطفى موضع « الرياء » المتفق عليه ، ويغايظها بابراز هذا الرياء للعيان ، فلا تغضب منه ولا تأباه ، بل تضحك منه كما يضحك الزوار ..

خرجت يوما لتودع سيدة جليلة وكريماتها من

اصدقاء مطران فخرج معهن ، وطال بهن الموقف عند باب الندوة بين التوديع ، واعادة التوديع ، والحزن للفـراق والرجاء فى قرب اللقاء .. فلما انقضى هذا « الفصل » الذى لا حيلة فى تمثيله على البـــداهة او على الرويـة ، سبقهم الشاعر الكبير عائدا الينا وهو يفرك يديه ويتباكى من الحسرة والاسى ، وراح يقول وهو ينظر الى الآنسـة :

ـ يا سلام .. يا سلام .. « الجماعة دول وداعهـم مؤثر . مؤثر قوى .. ! »

فقلت له متشككا كأننى أقتص من دعابته التمثيلية !

ـ مش باين يا استاذ ..

قال : رحمتك يا اخ ... اتريد ان الطـم ؟ وحضر فى اثناء ذلك زائر كبير من زوار الندوة وهو يغالب الضحك على خلاف عادته من الوقار .. فقال مطران : الحمد لله .. ماذا يضحك يا استاذنا الجليل !

وكان الزائر الحاضر هو العالم الفيلسـوف الامثـل الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، وقد مــر ببار اللواء فى طريقه الى دار الآنسـة فاستوقفه صديقه الادارى الاديب « أمين واصف » وحدثه عن رئيسها احمد شفيق (باشا) فى جماعة الرابطة الشرقية ، وراح يحكيه وهو يمشى الى محطة العاصمة بملابسه التى اخترعها لتوحيـد الازياء الشرقية ، وكان من حديثه عنه انه لم يسلم عليه حين رآه للوهلة الاولى ، لانه حسبه فى ذلكالزى مسجونايسفرونه تحت الحراسة الى الليمان !

وأنقلب (التباكى) القريب الى « انفجارة » مندفعة من ضحك القوم جميعا ، لانهم كلهم يعرفون اضاحيك امين واصف ومراسم الشيخ المتزمت الغالى فى التزمت احمد شفيق

وثاب الشيخ عبد الرازق الى وقاره بعد هنيهة ، فقال كالمعتذر من هذه الثورة الضاحكة الى الآنسة ربة الدار :

ـ ما هذا ٠٠ اننا نضحك هذا الضحك مرة واحدة ، فلا تؤاخذينا ، فالعتب على القافية ..

ولحقه مطران بغير أناة وهو يواصل ضحكه ويقـــول للشيخ : أضحك ، اضحك يامولاى .. من الذى يطـــول ضحكة من هذه الضحكات فى هذه الايام ؟!

***

ومن مطران مورد « مى » الاكبر من النوادر المسموعة والفكاهه المنقولة عن المصادر العربية ، منه سمعت نادرة « الاسطقسات » التى تعودت أن تعيدهافى بعض المناسبات كلما ذكرت الفلسفة ، وقيل ان غموضها داء يسكن العقل ولا يفارقه بفراق الروح للجسد :

مات « ابن سينا » فصدرت الاوامر الســـماوية الى الملكين الموكلين بأهل المقابر لسؤاله عن ربه ودينـــه قبل ان يستعد للحساب بفلسفته المعهودة ، وسأله منكر :

ـ ما ربك ؟

قال : انه اسطقس فوق الاسطقسات !

فنظر الملك الى صاحبه مستفسرا وأومأ اليه أن يعيد هو سؤاله لعله يســـمع ما لم يسمعه ، فقـــال له نكير :

ـ من الهك ؟

قال الشيخ مرة أخرى : قلت لك انه اسطقس فوق الاسطقسات ٠٠ الا تسمع ؟

فلبث الملكان لحظة يتبادلان النظر ، وهمـــا لا يفهمان شيئا ، ولا يدريان كيف يتممان الحساب ويخلصان من

هذه المهمة مع هذا الميت المتعب ، واتفقا أخيرا على الرجوع الى الله ليأمره بما يراه ..

فلما رويا القصة سألهما : ومن هو الرجل ؟

قالا : اسمه ابن سينا ولقبه « الشيخ الرئيس »

قال جل وعلا : ويحكما .. تريدان أن تفهما من هذا الرجل حسابا ؟ .. انه قضى عمره يزعم انه يتكلم فى صفاتى الالهية ولا اسمع منه كلاما مفهوما وأنا صاحب الصفات .. أتفهمانه انتما فى سؤال وجواب .. دعاه ولا تعودا اليه ..

وكان مطران أخبر زوار الندوة باللغة التى يجيب بها عن اسئلتها كلما سألت عن أحد ، أو عن امر ، لا يسمح المقام بالصراحة « التامة » فى الحديث عنه . جرى ذكر شيخ من كبار المستهترين فى زمانه فضحكنا ، فسألت لماذا تضحكان من سيرة هذا الشيخ .. من هو ؟!

قلت : انه شيخ « متعبد » وشرب الخمر أخف معاصيه . .

قالت : ياحفيظ ..

والتفتت الى مطران ففهم انها تستزيد البيان ، فقال : هو رجل مستريح الضمير ..!

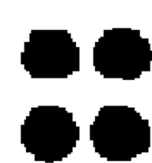
وربما كانت الالفة « العائلية » أقرب من الفة الادب فى ترجيح دور مطران فى الندوة ، لان والدة الآنسة مى ــ وهى سيدة ذكية حازمة ــ كانت تعرف أهله كما تعرفه وتستمع اليه وان لم يتحدث عن الادب والفلسفة ..

وانطلق ذات ليلة فى نوادره ومداعباته واخباره لا يكاد

يسكت أو يؤذن السامعين بالسكوت ، فهمست فى اذن الآنسة أقول : يحق للسيد خليل أن يعجبه كلامه كما يعجبنا ، فأنه محدث ظريف خبير بأفانين السمر

وسمعت والدتها هذه الملاحظة الهامسة فابتسمت وقالت بصوت مسموع : انه كأمه تماما .. أمه مثله كلمة كلمة !

وقد كنت ـ كلما ازددت معرفة بـ «مى» وبحياتهافى ندوتها وفى بيتها ـ اشعر بحنان هؤلاء الافاضل الابويين نحوها ، فأنهم ـ ولا ريب ـ كانوا يقصدون التسرية عنها ،ويدركون من بواكير صباها ان فرط التزمت فى طويتها يجاوز حده المأمون ، وانما يوشك أن تعانى كثيرا من عادة العزلة النفسية التى جنت عليها فى اخريات أيامها ، وأنها تغالب شجنا كمينا لا نطوائها الشديد على ذاتها ، يخيل الى انه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق فى سليقتها الدينية





أحمد لطفي السيد

— ١ —

كان فى فكرته « افلاطونيا » بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها « الافلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الاثرة والانانية ، كالحب العذرى كما نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب الى ما نعنيه فى هذا المقال ، ان الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعا وحسبة بغير جزاء ، والا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لان الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الافلاطونى كما شرحه الفيلسوف اليونانى فى كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » .. وقد اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم جمهورية افلاطون

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلا على وفاق هذا الدستور ، وكان — من زمن بعيد — يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها الى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفيا بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى

أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين اخوته ، فأبى ذلك وأصر على الاباء ولم يتقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوما حتى وصلنا الى نادى « محمد على » ، وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى، اذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعانى الى اتمام الحديث فى مجلسه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحيانا طعام الغداء أو العشاء ..

وحضر الى النادى صديقه الدكتور بهى الدين بركات ، فعلم منه عرضا انه ينوى السفر الى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعى حضوره ، فسأله مصطنعا الجد كعادته فى توجيه بعض الاسئلة التى يريد أن يستطرد منها الى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور بهى الدين : وهل من حق « الرجل العام » أن يفرغ لخاصة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه - على ما يظهر - كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :

- وهل العمل فى الارض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : انما هو سؤال ليس الا ..

قال الدكتور بهى الدين : أهو سؤال برىء ؟

قال الاستاذ : اما أنه سؤال برىء فلا .. !

ومضى الدكتور بهى الدين يتحدث عن العمل الـــذى

يسافر الى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين ..

فعاد الاستـــاذ يقول : أما هــــذا فمرخص به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه واصدقائه من أيام الدراســـة الثانوية عبد العزيز فهمي « باشا » يداعبه كثيرا من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه فى رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : انك يا لطفى تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية

وكان أمتع الوان الحـــديث بين الرجلين الكبيرين تلك الاحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثنـــاء الطريق من دار المجمع الى مصر الجديدة ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيرا أن يدعوانى الى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولاسيما الجلسات التى يطرأ فيها بعض الخلاف بينى وبين عبـد العزيز « باشا » فى مسائل اللغة أو الادب .. وحدث ذلك كثيرا أيام المناقشة على كتابة اللغة العـــربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الـكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه

فقال لى مرة ، وقد انس من الاستاذ لطفى شيئا من الميل الى ترجيح رأيى :

ـ أوع تطلع فيها يا عقاد على طريقة استاذنا « لطفى » .. ان « لطفى » ينظر الى هذه الامور التى نشتغل بهـــا نظرة الارباب .. قل له : ما رأيك اذا كتبت العربية غدا بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : ويجرى ايه ؟

فقال لطفى : « ويجرى ايه » ؟

وعاد عبد العزيز يكرر الحديث عن نظـــرة الارباب

وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التـــكرار ، حتى قال متأثرا :

ـ ألا ترى انك تسخر منى بهذا الحديث عن الارباب والنظريات الكونية ؟

فأسرع عبد العزيز يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب المدين المماطل :

ـ ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلا :

ـ ليكن حديث أرباب ٠٠ دع الارباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى لطفى السيد ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم عبد العزيز فهمى ، آلا من امثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقفل » عبد العزيز فهمى التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضا ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية

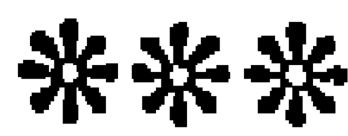
روت احدى الصحف عن الامير محمد على توفيق انــه يستنكر الدعوة الى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فثارت عليه ثائرة عبد العزيز فهمى وبسط لسانه فيــه بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى محمد على ، وقدكان الامير محمد على رئيسه يومذاك ، وكان من أيسر ما قال فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

ـ أتحسبون اننى لا أحترم الامير محمد على ؟ أتحسبون انه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة « كخذروف الوليد » يستحق منى غير الاحترام ؟ ٠٠ كلا ٠ اننى مطالب

باحترام ولى العهد بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى توا الى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهنئة او المعايدة : انه يســـأل الله أن يرزق الملك ولى عهد رشيدا تقر به عيناه !

وسمع لطفى السيد بهذه الجملة ، فخــاطبه تليفونيا ليزجوه أن يترك الامير وشأنه على الاقل فى أحاديث النادى .. فوضع عبد العزيز سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من هذا المسلك مع صديقه الا بعد أيام ، وإن كان على هذا فى سائر أحواله عظيم الاكبار له عظيم الثنـــاء عليه



ولا شك ان كلام القاضى الكبير عن نظـــرات صديقه الكونية لم يخل من أســـلوب الدعابة التى تبيح بعض المبالغة ، ولكنهما ـ بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات ـ لم تخل من العدل فى تقرير الواقع الى حد محدود

ف «لطفى السيد» كان ينظر الى المسائل الفكرية ولاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أن تتعادل فيها جميع الجوانب والاطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماما بما يعتقد فيه الخير والصلاح ، وكنا نلمس على محياه امارات الغم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الامور على غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية ..

الا أن الامر الذى كان يبيح لصـــديقه أن يحسبه من الارباب فى تفكيره ، أنه على كل ايمانه بعقائده العقليـــة والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى ايمان كهذا الايمان ، على خلاف ما يراه بعقله ووجدانه ..

وكان كثيرا ما يقول لمن يحتم أمرا من الامور : وهل في هذه الدنيا شيء ضروري ؟ وهل في هـذه الدنيا أحـد ضروري ؟ وهل يمتنع غدا أن تتساوى النتائج وتتلاقى الاضداد التي نحسبها الآن على افتراق بلا لقاء ؟

رأى لـ ((سعد زغلول))

وهذه النظرة المحيطة هي سر ((ديمقراطيته)) في مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه في العمل ، وان خالفوه أبعد المخالفة في الاراء ، ولا أذكر مرة واحدة في نحو عشرين سنة قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، انه حـاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر في اتجاه المناقشة أو يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه ، وانما كان على الدوام في نهاية المناقشة ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك انه كان معهم على خلاف ..

تلك السماحة الواسعة في تقدير وجوه الخلاف ، جعلته مرجعا للمشورة الصادقة بين أصدقائه وتلاميذه من المشتغلين بالحكم والقائمين بأعمال الوزارات ، فقد كان يمحضهم الرأى من جميع جوانبه ويوازن لهم بين جميع احتمالاته ، ويتركهم أحرارا فيما يختـارون ، وان كان ليتركهم أحياناً أخرى على باب التيه يحارون بين مضطرب الافكـار ومفترق الظنون والتقديرات ، ولا أدرى ممن سمعت ـ أمن سعد زغلول ام من محمد محمود ـ ان لطفى السيد قوى الفـكر ولـكنه قد يكون في بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين ، فيقف به هذا التعارض دون العمل المستطاع ، أو يقف به دون الحمـاسة لرأى من الرأيين ، ولا بد من الحماسة ((ذات النظر الواحد)) لمن يريد أن يمعن امعان الجد والعناد في طريق مقصود الى غرض محدود ، ولم يكن لطفى السيد قط ذا نظر واحد

يحجب عن تفكيره سائر الانظار ..

ويلوح لى ان السماحة الخلقية تشارك هذه السماحة الفكرية فى مسلكه الديموقراطى بين الناس وبين المعتقدات ..

فلم يكن من طبعه أن يصادم أحدا أو يصطنع فى الخصومة قسوة ولددا .. ولكنه كان يثبت فى مكانه ويترك لمن يخالفه أن يصطدم به اذا شاء ، ولا سماحة فيما وراء ذلك اذا سامته السماحة ان يتحول عن مكانه الذى استقر عليه ، فهو عند رأيه لا ينحرف عنه وان أعطاه من الصور الفكرية ما يدفع عنه شر الضغينة والافتراء ..

مصر للمصريين

كان من مبدأ لطفى السيد ـ كما هو معلوم ـ ان استقلال مصر مقدم على الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وكان هذا معنى شعاره وشعار زملائه فى الرأى والعقيدة : أن مصر للمصريين

ووقعت الجفوة بينه وبين الخديو عباس الثانى لان الخديو وجده على غير ما كان يرتضيه حين اختاره عضوا فى الجماعة السرية التى تنشر الدعوة الى القضية الوطنية فى الديار الاوربية . واتفقا مع أعضاء هذه الجمعية على سفر لطفى من مصر واقامته بسويسرا سنتين لاكتساب الجنسية السويسرية والانتفاع بهذه الحماية فى مكافحة الاحتلال ، فلم يستحسن لطفى السيد هذه الحيلة ولم يلبث أن تنحى عن الجماعة حين احس أن الخديو يريد أعضاءها خداما لشخصه وأعوانا لسلطته على غير المبادىء الدستورية ، وتمت القطيعة بينه وبين القصر بعد ولاية لطفى لتحرير « الجريدة » لسان حال حزب الامة .. فتحمل القصر وحاشيته معاذيرهم لرفع الدعوى الجنائية

عليه ، واتخذوا من مناداته الصريحة بالاستقلال التـــام « دليلا « قانونيا » على « خيانة » السيادة المعترف بهـــا للخليفة العثمانى والمتفق عليها فى العـــلاقات الدولية ، بمقتضى المعاهدات التى يقـــرها المحتلون ولا يستطيعون « قانونا » أن يسقطوا العقوبة عمن يخرج عليها ..

وخطر للطفى السيد أن يحبط هذه المكيدة بعد أن جهرت بها الصحف الموالية للقصر ، ومنها « المؤيد » الذى كان له وزنه ونفوذه فى الصحافة العربية ..

قال لطفى السيد مدافعا عن رأيه : انه يدعو الى استقلال مصر ولا ينكص عن هذه الدعوة ، ولكن التمام غير الكمال .. وقد يقال ان الطفل انسان تام ولكن الانسان الكامل لا وجود له بين الاطفال ولا بين الكبار ، وكان من حجته التى اعدها للدفاع عن رأيه أن بقاء الخلافة لا يقتضى أن تكون مصر مسلوبة السيادة ولا أن يكون استقلالها ناقصا غير تام ..

وشاءت المصادفات فى دراســـات المجمع أن تعرض مسألة الفرق بين التمام والكمال ، وأن أذكر رئيسنا برأيه القديم ، فابتسم وقال : لعله من الوجهة السياسية رأى مقبول ، ولكننى لم أندم على شىء ندمى على ذلك التفسير الذى احبطت به دسيسة القوم .. ووددت لو أننى تركتهم يدعون ما يدعون ولم الحق مبدأ « الاستقلال التام » بأى تفسير

وبقى الرجل على شعار « مصر للمصريين » ومبـــدأ « الاستقلال التام » بغير تفسير .. وكان هو ثالث ثلاثة وضعوا صيغة توكيل الوفد فى طلب الاستقلال التام ، أما الاثنان الاخران فهما صديقاه عبد العزيز فهمي وســـعد زغلول .. ولولا انه لم ينتخب عضوا للجمعية التشريعية

لكان ثالثهما فى زيارة دار الحماية للمطالبة بالغاء الحماية البريطانية والاعتراف لمصر بالاستقلال التـام ، مع انكار السيادة العثمانية والحماية البريطانية على السواء

المرشح الديموقراطى

وقصة سقوطه في انتخابات الجمعية التشريعية آحدى اعاجيب الدعاية الانتخابية التى تعرض لها من جراءالمناداة بالحقوق الديموقراطية ، اذ كان منافسه يشيع عنه انه يطلب للمرأة الحق فى الجمع بين أزواج أربعة لانه يطلب لها المساواة الديموقراطية ، ويسألونه : هل انت حقا من طلاب الديموقراطية ؟ فيجيبهم بالتأكيد ويعيد لهم الشرح من جديد ..

ومما اذكره اننى ذهبت الى مكتبه بالجريدة لمؤاساته فى هذه الخيبة المؤسـفة ، فوجدته قد تلقـــاها بصبر الحكماء وفكاهة العظة والاعتبار ، وهو لا يخفى اعجابه بذلك « الريفى » الماكر الذى غلبه باسم الديموقراطية !.. ثم حضر « الشيخ طه حسين » وأنا عنده ، وكان شابا يلبس العمامة لا يزال .. فاذا بالاستاذ يتبســـط معه ويعزيه لان زميله فى ترجمة بعض الكتب ـ الاستاذ محمد رمضان ـ قد خرج بمثل هذه الهزيمة من معركة الانتخاب وكان الشاب طه حسين كفؤا لهذه الدعاية فكان جوابه للاستاذ : اننى اتقبل التعزية ولكننى أرجو يا أستاذنا ألا ترفضها .. !

وهذه الديموقراطية التى نادى بها لطفى السيد ـ فكرة وقولا ـ قد عاش لها وعاش بها عملا وايمانا ، وقد كانت هى الطابع الذى طبع عليه بمزاجه قبـل ان يطبـع عليه بتفكيره ودراسته ، ولم تمنعه شيمته التى تتمثل فيها كل خلائق الوجاهة الفطرية أن يكون « أرستقراطيا » بالشكل

ديموقراطيا بالموضوع ، اذا جازا هذا التعبير

كان هذا الرجل الممتاز بشخصيته وخلقه فكرة في حياة ، أو حياة ملكتها الفكرة في خاصة شأنه وعامة عمله وقوله .. واخالنــا نقيمه في مقامه والوطيد بين مفكري العصور حين نقول انه في عصرنا هذا زميل عـــربي لارســـطو اليـــوناني ، تجـــدد مع الزمن في مدرســـة الثورة الفرنسية .. مدرسة فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو . وعاش بعدهم فتقبل من حكمة العصر ما كانوا يتنزلون الى قبوله من حكمة القرن العشرين ، ولـكنه لم يزل بعـــد منتصف هذا القرن العشرين على نمطه السلفي الافلاطوني، فكرا في اهاب انسان

حول مذكرات عبد العزيز فهمي

بعد وفاة « لطفي السيد » رحمه الله ظهرت لزميله وصديقه عبد العزيز فهمي « باشا» مذكرات عن تاريخ حياته تكلم فيها عن اعمالهما في الحياة العامة وفي حركة الوفـد المصري الذي كانا عضوين فيـــه ، واستوقفني خلال المـذكرات بعض مواضع للملاحظة والتصـحيح ولم يتسع المجال للتعقيب عليها جميعا، فاكتفيت بما جاء منها من مقدمات الحركة وهو كاف للإبانة عن مـدى الاختلاف بين الواقـع والرواية في سائر المذكرات . وهذا هو التعقيب كما نشرناه في صحيفة الاخبار :

قرأنا في مذكرات الاستاذ عبد العزيز فهمي « باشا » فصلا عن تأليف الوفد المصري وعن الاعضاء الثلاثة الذين قابلوا المندوب البريطاني « سير ريجنالد ونجت » قال فيه :

« هؤلاء الثلاثة هم سعد زغلول وعلي شـــعراوي وعبد العزيز فهمي .. ومما تجب ملاحظته هنا ان اختيار هؤلاء الثلاثة انما وقع بطريق المصادفة والاتفاق ، والا فبـــاقي اخوانهم فيهم من هو اكفأ في النضال المنطقي واولى بالسفارة مثل رجلنا الكبير احمد لطفي السيد . ولعل التقـــدم في السن كان هو السبب الطبيعي الذي ادى الى اختيارهم »

هذا ما جاء فى المذكرات بنصه منقولا عن احد الاعضاء الثلاثة ، يليه كلام عن المناقشات التى دارت بين سعد وزملائه حول الاستعداد لاثارة القضية المصرية امام مؤتمر الصلح ، يدل كله على ضرورة « التبييض » فى كل كلام يتعرض لمسائل الخلاف فى السياسة لانه يحتمل السهو والنسيان كما يحتمل التأثر بالميول والخصومات ، ولكننا نكتفى هنا بالفقرة الاولى من هذه القصة كلها لان الحقيقة فيهاأظهر من ان تحتاج الى المراجعةوالمناقشة ، وهى تتعلق بسبب اختيار الاعضاء الثلاثة لمقابلة ممثل الدولة البريطانية دون غيرهم من المشتركين فى الوفد بعد تأليفه:

لم يكن اختيار هؤلاء الاعضاء الثلاثة مصادفة واتفاقا لم يكن للتقدم فى السن على سائر الاعضاء ، ولكنهم كانوا هم نواب الجمعية التشريعية بين الاصدقاء الخمسة الذين تألفت منهم نواة الوفد فى المرحلة الاولى ، وهم كما ذكرهم الاستاذ احمد لطفى السيد فى قصة حياته : «سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود ولطفى السيد » .. ولم يكن الاثنان الاخيران من اعضاء الجمعية التشريعية ، فتقرر الاكتفاء بسعد وكيل الجمعية وشعراوى وعبد العزيز العضوين فيها ليكون للثلاثة صفة الكلام بالنيابة عن الامة

وقد كان الانتخاب للجمعية التشريعية اهم اسباب هذا الاختيار باتفاق الاعضاء ، ولكنه لم يخل من اسباب اخرى لوحظت فيه ــ كما سمعنا من سعد بعد ذلك ــ ومنها ان على شعراوى يمثل اعيان الفلاحين ، وان عبد العزيز فهمى الذى كان نقيبا للمحامين يمثل طائفة المتعلمين ، وان الاول من الوجه القبلى والثانى من الوجه البحرى ، فهم صالحون لتمثيل الناخبين فى أوسع نطاق ..

ولما تقرر القبض على الزعماء الاربعة ونفيهم الى جزيرة مالطة ، لم يكن هذا الاختيار ايضا من قبيل المصـــادفة والاتفاق فى نظر الجهات الرسمية ، ولكنه كان عند هذه الجهات موافقا لتقاليد البروتوكول فى نظام الاولية ،فكان سعد زغلول رئيس الوفد ووزيرا سابقا ، وكان اسماعيل صدقى عضوا يليه فى الاسبقية الوزارية ، وكان محمد محمود مديرا من كبار الموظفين ، وكان حمد الباسل يحمل لقب الباشوية ويمثل رؤساء العشائر فى البلاد

فلم يكن هنالك محل للمصادفة ، ولا لاعتبارات السن، فى اختيار الزعماء من جانب الوفد او من جانب السلطات الرسمية .. ولكنه عمل من اعمال النظام متفق عليه ، وقد سها عن ذلك رجل من اولى الناس بذكر مسائل النظام فضلا عن كونه احد هؤلاء الزعماء فكيف بسائر الروايات؟ وكيف بسائر الرواة ؟ ..

أما بقية الكلام على المناقشات التى دارت عند التفكير فى اثارة القضية الوطنية ، فهى أحوج من هذه القصة الى التعقيب ، وهى لحسن حظ التاريخ مما يكفى للتعقيب عليه مجرد البيان الوجيز ..



- ٢ -

كان حزب الامة يضم بين أعضاء مجلس ادارته وسائر اعضائه البارزين فئة كبيرة من السروات وأصحاب الجاه والثراء فى البلاد ، وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة انهم من « غير المرضى » عنهم فى قصر الامير ،وأرادوا أن يتخذوا لحزبهم صحيفة على « أوجه » طراز بين الصحف الاوربية، وبخاصة صحافة فرنســـا التى كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال ، فاختلفوا زمنا على اختيار احدى الصحيفتين الكبريين فى باريس مثالا لصحيفة الحزب اليومية ، وهما الطان والجرنال

اما الطان فكان المرجح لها عند العارفين بالشئــون الصحفية ان ترجمة اسمها «الزمان» تجعلها اصلح للنداء عليها فى اللغة العربية

ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا ، فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الامة ويتجنب الاتصال بقصر عابدين وقصر الدوبارة على السواء أن يتخذها مثالا لصحيفته القومية

فانتهى الخلاف الى اختيار « الجورنال » نموذجـــا

لصحيفتهم .. و «الجريدة» هى ترجمة اسم الجورنال

وظهرت « الجريدة » على مثال الجورنال فى الصبغة « غير الرسمية » وفى نظام التحرير وترتيب الصفحات ، واظهر ما كان فى هذا النظام فتح صفحات « الجريدة » للكتابة الادبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما أفسحت فى صفحتها الاولى ـ الى جانب المقال الافتتاحى ـ موضعا بارزا لقصيدة عاطفية أو مقال طريف من مقالات الوصف والنقد اللغوى ، وترددت على صفحاتها أسماء هيكل وعبد الرازق وطه حسين ومحمد السباعى وشكرى والمازنى والغاياتى وكاتب هذه السطور ، وغيرهم وغيرهم كثيرون

وكان اللواء لسان حال الحزب الوطنى ، والمؤيد لسان حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية يتقبلان الكتابة بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية ولا يرحبان بالكتابة الادبية الا اذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب النابهين من طراز شوقى وحافظ ومطران والمويلحى والمنفلوطى وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ، فاتجه الادباء الناشئون الى « الجريدة » ولا سيما الطلبة والموظفون ، اذ كانت الكتابة فى السياسة محظورة عليهم ، وكانوا يكتبون فيها أحيانا الى الصحف عامة ـ ومنها الجريدة ـ بتوقيع مستعار

وكنت ارسل مقالاتى أو مقطوعاتى الشعرية بالبريد فتنشر بعد يوم أو يومين من وصولها ، ولكنى قدرت لاحدى المقالات انها لا تحل عند قلم التحرير محل الترحاب اذا وصلت اليه محولة من مدير التحرير ، فتعمدت أن أسلمها الى المدير يدا بيد ، ولم أجد صعوبة فى لقائه عندما قصدت الى مكتبه على غير ميعاد ..

كانت المقالة على ما أذكر نقدا لكتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه عن « كلمات نابليون » .. وكان الاستاذ جمعه قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمتها بحروفها ولم يشر الى هذه الترجمة ، فلما نبهت الى ذلك فى تعليقى على كتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه تذكرت انه صديق لاكثر المحررين « بالجريدة » .. فكان ذلك من دواعى التفكير فى لقاء الاستاذ أحمد لطفى السيد لتسليمه المقاله ، ولارضاء فضول الشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الكبير الذى كنا نقرأ له ولا نراه

واستقبلنى مدير الجريدة استقبال الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بارسالها الى المطبعة على الاثر ، وهو يقول مبتسما : الا تخاف من نابليون يا بنى ؟! ..

قلت وأنا أعلم ان كلمة الديموقراطية من احب الكلمات اليه وأكثرها ترددا على لسانه وقلمه : الحمد لله على نعمة الديموقراطية !!

ولفت نظرى أن أمام الديمقراطية المصرية يلبس « البونجور » ويحرص على السمت « الارستقراطى » فى زيه وتقاليد سلوكه المهذب مع زواره ومرءوسيه ، فثبتت فى ذهنى هذه الصورة ولا تزال ثابتة الى اليوم .. فاذا ذكرت « لطفى السيد » فى غيبته فلست أذكره الا وهو يلبس البونجور ، بعد أن رأيته عشرات المرات بالزى « الافرنجى » المألوف

وعزز هذه الصورة عندى اننى رأيته بعد ذلك يخطب بدار الجريدة وهو يلبسها ، ورأيته وهو يلبسها بديوان الاوقاف ، اذ حضر يوما لزيارة وزيرها « محمد محب باشا » وكنت فى حجرة استقباله ، لاسلم مدير المكتب

بعض المذكرات التى تعرض على مجلس الادارة

أما ان « لطفى السيد » ديموقراطى المبدأ فى تفكيره وسياسته ودعوته الوطنية فلا مراء فى ذلك ، ولاخلاف..

وأما أنه « ارستقراطى » السمت والشارة فى مظهره ووجاهته فذلك أيضا مما لا مراء فيه ، ولا خلاف

ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين ولا أراهما نقيضتين ..

لانني لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبةالوجهاء من ابناء الفلاحين انهم جميعاديموقراطيون على هذا المثال، فهم كلهم ديموقراطيون لانهم ينكرون سيادة الطبقةالتركية واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية ، وقد كان الوجيه التركى يأبى على اكبر الوجهاء الفلاحين ان يساويه أو يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره ، وقد سمعنا الكثير من تعليقات البيوتات التركية على قبول رئيس الوزارة لمصاهرة سعد زغلول ، وهو ــ على وجاهته بين أبناء الفلاحين ــ علم مشهور من أعلام القانون فى عصره

قال لى عبد العزيز فهمى «باشا» مرة : ان لطفى ديمقوقراطى الرأى والعقيدة ، ولكنه طول عمره ارستقراطى بين الارستقراطيين .. وحكى لى أنه كان يقتنى جوادا خاصا يتنقل به من بلد الى بلد للتحقيق والتفتيش وهو وكيل للنيابة ، ولا يكلف نفسه أن يطلب جوادا من خيل الشرطة كغيره من وكلاء النيابات ، وانه كان يتحدى عظمة التركى بعظمة الفلاح ، فيلبس قفطان الوجيه الريفى، وهو فى الدار

ان « أحمد لطفى السيد » أشهر المنادين فى الصحافة بمبدأ مصر للمصريين ، قد كان ديموقراطيا ليساوى

المصريين بغيرهم من أصحاب السيادة فى بلادهم ، وكان ارستقراطيا ليتحدى الارستقراطيين من أولئك السادة المتغطرسين ، وقد أصهر الى أسرة رجل كان من أقران الخديو اسماعيل فى زمانه ، وهى أسرة المفتش اسماعيل صديق

فليست ديموقراطية لطفى السيد الغضاء للعرف الاجتماعى فى آداب الطبقات ، ولكنها ديموقراطية المساواة بين ابناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء ـ كل الغرباء فى الاصل ، لانهم شركاء الطبقة فى المجتمع وأجانب من جميع الاجناس على عهد سيادة المحتلين

والديموقراطية على هذه السنة بجميع معانيها هى المبدأ الواسع الذى كان يلحظه هذا الفيلسوف الوجيه فى حقوق الرأى وفى حقوق الطبقة ، فليس ايمانه بتغليب رأى الكثرة مانعا عنده للقلة أن تبدى رأيها وتقابل به آراء الاكثرين من المخالفين

كان شعار « الجريدة » كلمة الفيلسوف الاندلسى ابن حزم وهو من قرائه فى مسائل الاخلاق والعقائد واختلاف الطوائف والعبادات

وكان ابن حزم يقول : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها لاول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس اياه أشد وأكبر من مدحهم اياه »

وقد وضع هذا الشعار تحت عنوان الجريدة منذ صدورها فى شهر مارس سنة ١٩٠٧ الى احتجابها بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات ، لانه كان فى طوال هذه المدة يعلم أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه ، وكان أنصار الاحزاب من القائلين بالسيادة العثمانية والمشايعين للحاشية الخديوية والجانحين من الطرف الآخر الى

مشايعة السلطة الفعلية أو مشايعة الاحتلال .. كل أولئك الانصار كانوا أضعاف انصاره فى حزب الامة ، وقد فارقه شطر كبير من هؤلاء الانصار فى منتصف الطريق ، وجنحوا الى ناحية القصر احتجاجا على ما سموه « استبداد محرر الجريدة بسياستها » وفيها ما فيها من مناصبة الامير

وهذا الديموقراطى الذى اباح للقلة ان تعلن رايها فى غير مداراة ولا مواربة ، هو هو الديموقراطى ، الذى يسلم للكثرة بحقها عند مفترق الطريق ، وعند مفترق الطريق هذا سلم للكثرة من اعضاء اللجنة السياسية بما قررته فى المفاوضات التى أجرتها وزارة أحمد ماهر ، وهو على رأى فى تلك المفاوضات غير ما تراه

ولقد هنأنى فى الصباح الباكر على مقال كتبته بالاهرام مؤيدا فيه خطة الوزارة الماهرية ، فلما وافق اللجنة أخيرا على قرارها سألته فى ذلك ونحن عائدان فى سيارته من المجمع الى مصر الجديدة ، فقال : اذا كانت كثرة اللجنة وكثرة أهل البلد على هذا القرار فالكثرة لها حكمها الذى لا حيلة لنا فيه

وذكرته يومئذ — مازحا — بمخالفته للزعيم سعد زغلول بعد مفاوضات لورد ملنر ، فقال : بل هذا — أيها الاخ — من ذاك .. فقد خالفت سعدا ، ولكنى لم أخالف كثرة الوفد فى النهاية

على أن المبالاة بالعرف الغالب لم تكن شيئا هينا فى تقديرات هذا السرى الفيلسوف ، فقد كان يولى ذلك العرف فوق حقه من المبالاة ، الى جانب تقديراته الفكرية أو تقديراته المنطقية .. فلم تزل رعايته للفكر مع المراسم والتقاليد أرجح عنده من هذه الرعاية له الى غير الجانب

الموافق لتلك المراسم والتقاليد

وليس من التناقض أن يكون لطفى السيد الفيلسوف كذلك ، وهو الثائر على الجمود والرجعية بلا مراء ، فانه فى ثورته يقف الى جانب مجتمع كبير ، ولا يقف الى جانب الشذوذ والانفراد ، وانما كان ايمانه بمبادىء الحرية على قواعد الثورة الفرنسية ايمانا أيده مع الزمن أضعاف من خالفوه

***

لقد كانت لهذا الثائر تقاليده التى يثور عليها ويعلن الحرب على أنصارها ..

ولكنه لم يكن يحاربها الا من أجل تقاليد أخرى يسالمها ويقرها ويعمل على اقرارها ..

وانما كان يفضل بعضها على بعض بشفاعة الواقع ، أو بشفاعة « قانون » التقدم كما آمن به الثائرون العلميون فى ابان القرن الماضى ، وثبتت عليه بقيتهم الى هذه الايام من القرن العشرين

***

لقيته بمكتبه وهو مدير لدار الكتب لتجديد رخصة الاستعارة ، وقدم زميله العالم الجغرافى « رأفت بك » مدير المتحف العربى التابع لدار الكتب فى بناء واحد .. فحيا تحية مقتضبة يلوح عليها شىء كثير من الامتعاض والابتئاس ، والتفت اليه الاستاذ لطفى يسأله : كيف حال متحفك وآثارك يارأفت بك ؟ .. قال « رأفت بك » ولم يفارقه امتعاضه وابتئاسه : انها اثر بعد عين .. شباب هذا العصر لايحفلون بماض ولاحاضر .. لايقرأون .. لا يدرسون .. افتقدهم فى متحف آثار أو معرض فنون فلا تجدهم ولا تسمع خبرا عنهم ، ولكنهم موجودون ليلا ونهارا بين المراقص ، والقهوات ، والبـــارات .. زفت

وقطران .. زفت وقطران .. الا يسمع هؤلاء الشبان بأحوال اندادهم فى البلاد الاوربية ؟ ألا يسمعون بأندادهم من الاوربيين فى بلادنا ؟ .. الا يعرفون المفازة والغابات ومصاعد الجبال التى ينطلق اليها الشباب يستجلون فيها جمال الطبيعة وينشدون فيها صحة الجسد والذوق ؟

فنظر اليه الاستاذ لطفى مليا ، وقال له معاتبا فى لهجة لا تخلو من التأنيب اللطيف : الله .. ومالك منفعلا ثائرا هكذا يا سيدنا البك ؟ ..

فهدأ « رأفت بك » ثم قال بصوت كصوت الصدى يحاكيه فى لهجته : عفوا يا سيدنا البك ..

قال الاستاذ لطفى : يغضبنى ذلك أكثر مما يغضبك ، ولكن الحق على من فى هذه التقاليد الرثة ؟ .. أرأيت هناك شابا يخرج الى المفازة والغابات وحده ؟ .. الا يخرج الفتى ومعه الفتاة أو تخرج الفتاة ومعها الفتى ؟ .. ألا يعرفون الحب بينهم قبل أن يعرفوا حب الجمال فى السهول والجبال ؟

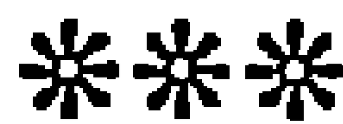
وشاركت الاستاذين فى الحديث قائلا : « وهل يبتعد الفتيان عندنا عن البنات حيث يذهبون الى المراقص والبارات ؟

قال الاستاذ لطفى : وماذا يصنعون ؟ انهم يسرقون الحرية فى المرقص والبار ، وأن نصيبهم من الحرية المشروعة لا يزيد عن نصيب الفتيات فى الخدور

وهنا نلتقى بالجنتلمان الديموقراطى فى مجلسه وفى تفكيره .. انه لم يستطع أن يجيز لزميله ذلك « الانفعال » الممنوع فى قانون « الاتيكيت » .. ولم ينتصر للثورة على التقاليد الرثة الا لأنه ينتصر لتقاليد أخرى لاتزال فى ثوبها

القشيب .. ولكنها ، على أية حال تقاليد لها شفاعة من « قانون » التقدم المتفق عليه • وقد ظل الفيلسوف السرى على ايمان بهذا التقدم المتفق عليه حتى نهاية حياته ، وحتى بعد تعديل ذلك القانون بقانون آخر ينسخ منه مادة مرفوضة كلما أقر منه مادة مقبولة ، وهو قانون التطور الذى لا يقول بالتقدم المطلق المطرد فى كل سبيل ، ولا يستلزم ان يكون كل حديث فى عصرنا أصلح من كل قديم فى ماضى العصور وبخاصة فى مسائل الاخلاق والاداب

وكلما أباح فيلسوفنا لنفسه أن يمضى مع ابن حزم فى شجاعة الرأى ومخالفة الاجماع ، عاد الى رأيه المخالف فلم يتقبله الا لانه قانون الغد المتفق عليه سلفا ، لو سارت الامور حيثما ينبغى أن تسير • وقد قال فى ذلك من نصائحه للشباب : « كل ما تفكر فيه أو تلفظه أو تفعله انظر هل ترضى أن يكون قانونا للعالم أولا .. فان رضيت فافعله فى غير خوف ، وان لم ترض فلا تفعله أبدا »



وقد رأيت « أحمد لطفى السيد » مديرا للجريدة ومديرا لدار الكتب ومديرا للجامعة وعضوا بمجلس الشيوخ ووزيرا ورئيسا للمجمع اللغوى ورئيسا للجمعية الخيرية ، فلم تحتجب عنى خصلة من خصلتيه فى وظيفة من هذه الوظائف المتلاحقة .. وهما السمت الوجيه والديموقراطية الصادقة ، وكانت « ديموقراطيته » أجمل ما تكون فى مجال الرأى ومباحث التفكير ، وقد شهدناه نحو عشرين سنة فى هذا المجال بعد أن عملنا معه عضوا بمجمع اللغة العربية ثم رئيسا للمجمع بانتخاب أعضائه ، فكان أقدر رئيس عرفناه فى مجمع من مجامع البحث العلمى دانت له ديموقراطيته بغير كلفة ، ودان لها زملاؤه احتراما لحق الحرية الفكرية ، واحتراما لرئاسته الابوية

.. تلك الرئاسة التى كان لها سند من العطف المتبادل أقوى من اسناد المراسم والتقاليد

وكان رحمه الله يشترك فى المناقشة ويورد الشواهد فى أثنائها من محفوظاته الكثيرة ، وأولها القرآن الكريم وفى جملتها قصائد الشعراء الاقدمين من الجاهليين والمخضرمين والامويين والعباسيين ، وربما حفظ للمحدثين كما يحفظ للأقدمين ، ولكنه يقصر شواهده فى مقام الاحتجاج بالسند المقبول ،على الاولين دون الآخرين

وكان اجماع الاعضاء على توقيره وحبه يريحه كثيرا من كلفة الرجوع الى النظام فى رعايته لسنة المساواة التامة بين الاعضاء عند ابداء الآراء ، ولكنه كان يعمد الى الصمت الوديع كلما احتدم النقاش وحميت وقدة الخلاف وتكلم من يتكلم ورد عليه من يرد واعترض عليهما من يعترض دفعة واحدة ، تختلط فيها الاصوات وتحار معها الاسماع

ويميل الرئيس الى اقرب الاعضاء اليه يسأله مستسلما هل آمنت معى بأننا فى المجمع اللغوى ويتفق أن أكون الى جواره فأقول : بغير شكل يا استاذنا .. وبتسكين الغين فى هذه الساعة ! .

ويعود النظام توا فى لمحة عين ، وقبل أن يحوجه الاعضاء الى دق الجرس ، لانهم يفهمون من همسته فى أذن جاره أو انطوائه على صمته أنه يدق لهم أبلغ الاجراس! ..

وقد عرفناه من قبل ، ومن بعد ، على صورته التى لا تتغير ولا يختلف مظهر منها عن مخبر ، لانها صورة المفكر الذى تتجلى أعمق أفكاره فى مسالك حياته ، والذى يعيش لفكره وبفكره وعلى وفاق فكره : ثائرا محافظا على قدر، وديموقراطيا فى قرارة طبعه ، يزيده من الديموقراطية ولا ينقصها عنده أنه لم ينسها قط وهو فى سمت العلية وفى عزوف الحكيم الفيلسوف

- ٣ -

كان لطفي السيد من المرحبين بالظاهرة الادبيـة التى تمثلت فى فن المنفلوطى ، أو فى أسلوبه الانشائى ، عنـد ظهورها فى عالم الصحافة وبعد جمع المقالات فى كتـاب « النظرات » ، لان المقالة الانشائية كانت « قالبا لفظيا » لا عناية فيه بالمعنى قبل المنفلوطى ، وقبل محمد المويلحى فى فصول عيسى بن هشام على التخصيص ، فكانت كتابة المنفلوطى على عهد « الجريدة » التى كان يحـررها لطفى السيد ظاهرة ملحوظة بين المنشئين

وقد كتب فى تقريظ مقالات « النظرات » يقول :

« من الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعهـا تتلاشي فى بيئة الكتاب ، لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة .. بل لا يكتب الا اذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثـوب الذى يناسبها على تفصيل مودة الاذواق الحاضرة وحسـبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هـذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل ، الا أن كتاباتهم على قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الاولى التى تدفعها الى الاخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح ، وهى خير اللغات وأبقاها .. »

ثم ينتقل من هذا التمهيد فيقول عن أسلوب المنفلوطي بين هذه الاساليب :

« من اشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطي .. أكاد لا أجد له في طريقته مثيلا بين كتابنا ، فانه يمتاز بالمساواة ، وقل من يعرف المساواة . يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى الالفاظ الذى لا يكاد يشاركه فيه معنى آخر »

والمساواة والخصوص في هذا السياق كلمتان من تعبيرات لطفي السيد ، لم يكن معناهما غنيا عن التفسير عند استخدامهما للمعنى الذى أراده .. فقد أراد بالمساواة أن تكون العبارة اللفظية مساوية للغرض الفكرى الذى تؤديه ، وأراد بالخصوص أن يكون اللفظ على قدر معناه، أو يكون باصطلاح العرف الحديث كثوب « التفصيل » وليس كالثوب المجهز لكل لابس على التقريب بعد القص والتوسيع .. وقد يصح أن يقال عن اسلوب المساواة والخصوص انه هو أسلوب « القصة » بمعنييه : معنى الاقتصاد ومعنى الارادة ، لان اسلوب القصة هو الاسلوب المحكم الذى لا فضول فيه ، وهو الاسلوب الذى يؤدى به الكاتب لفظه لانه يقصده بذاته وفاقا لغرضه ولا يقصد غرضا سواه ، ولولا أن كلمة القصد اقرب الى الاحكام والتقدير منها الى التسوية والتنسيق لكان فيها الغنى عن كلمتى المساواة والخصوص

والتفات لطفي السيد الى هذه «الخاصة» في الاسلوب الانشائي لم يكن بالامر الغريب من كاتب «القصد المحكم» في اللفظ والمعنى ، لان تحديد ما يريد بالكلمة كان هو طبيعة عقله الغالبة على تفكيره وتعبيره ، بل على تقديره للأمور وتقديره للاعمال .. فلم يكن للعمل عنده شأن أكبر من شأن المطابقة للكلمة والمطابقة للفكرة التى تدل

عليها ، وكانت حياته لفكرته هى الحياة الاولى التى تتلوها بعد ذلك كل حياة عملية تعنيه ..

وكانت مرانة عقله على تحديد عباراته تشغله للتسلية والرياضة كما تشغله للجد والتدبير ، كأنه الجبار الرياضي الذي يداعب صحبه بالضغط على أكفهم عند المصافحة أو بالشد على ظهورهم عند المعانقة ، يوهمهم أنها ملاكمة ومصارعة وليست بمصافحة وعناق .. وكذلك كان لطفى السيد يصنع بتحديد معانى الالفاظ كلما طابت له الدعابة مع صاحب أو زميل ، بين يدى عمل من أعمال الفكر والنظر أو أعمال الادارة والتنفيذ

دخل الى مكتبه بوزارة الداخلية وكيل الوزارة يتأبط ملفات الحركة الادارية فبادره قائلا :

ــ ماذا تتأبط يا حسن (١) .. خيرا ؟ !

قال حسن : نعم خير ان شاء الله .. الحركة الادارية !

قال لطفى السيد متجاهلا : حركة ؟ .. وهل هذه حركة فى الزمان أو فى المكان ؟

وربما كان الكلام على حركة الزمان والمكان أول كلام من نوعه ورد على مسمع وكيل الداخلية الحائر فى أمره بين يدى هذا الفيلسوف الوزير ، فعاد يقول : بل هى حركة التنقلات بين المديرين ووكلاء المديريات والمأمورين وموظفى الادارة على العموم

قال الفيلسوف : وهل هى حركة بغير مقتض ؟ ولماذا يتحركون ؟ هل طلبوا منك أن تحركهم ؟ .

ثم انقضت هذه المحادثة كما شاء الوكيل أن يقضيها

(١) حسن رفعت « باشا » أقدم وكلاء الداخلية فى عهده

وكانت فكـــاهة الليلة فى مجلس رئيس الوزارة محمد محمود !

***

وعاد الى مصر مع ثلاثة اعضاء من الوفد لمراجعة الامة فى المقترحات البريطانية ، فقابله الصحفيون على الميناء وسأله أحدهم : هل انتم قادمون بمهمة سـياسية ؟ فكان جواب الصحفى القديم على الصحفى الناشىء :

ــ ماذا تعنى بالسياسة : دبلوماسية أو بوليتيقية؟

وحاول صاحبنا ان يخلص من الورطة بقوله :

ــ أعنى الاثنتين !

قال الفيلسوف : ليس لنا مهمتان ،ولسنا سفراء فتكون لنا مهمة دبلوماسية ، ولا وزراء فتكون لنا مهمة بوليتيقية! .. ولقد ذهب الصحفى الحائر فكتب هذا اللغز الفلسـفى كما استطاع ، وبدل فيه وعدل كما أراد ..

***

ولما الف أصدقاؤه الاحرار الدستوريون حزبهم كان هو معارضا لهذه التسمية ، وظل معارضا لها بعد تأليف الحزب بزمن طويل ، وانما كان اقتـــراحه أن يسـمى الحزب باسم « الحريين الدستوريين » وحجته فى تفضيل هذه التسمية أن كلمة الحريين هى التى تقابل كلمـــة «ليبرال» بالفرنسية والانجليزية .. والا فماذا نسـمى المحافظين خصوم الاحرار ؟ هل نسميهم « بالعبيـد » وهـــم لا يقنعون بالحرية وحدها دون السيادة عـــلى العالمين ؟ !

ولم يكن يكرثه أن يداعبه اخوانه من ظرفاء الحـزب قائلين : أهلا بالحرى .. سلاما على الحـرى .. ذهب الحرى .. جاء الحرى .. ولا لزوم للتسمية مع هـــذا التحديد

قال لطفى السيد فى قصة حياته :

« نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية. وقد لفت نظرى فى أرسطو انه اول من ابتدع علم المنطق واكبر مؤلف له أثر خالد فى العلوم والاداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض اصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الاوربية .. ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة ارسطو فلا جرم ان آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية، والطريق الاقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .. »

والحق أن لطفى السيد كان « أرسطيا» قبل أن يعرف أرسطو او يفكر فى ترجمته ، لان تكوين عقله المنطقى هو الذى حبب اليه منطق ارسطو حين اطلع عليه ، وحبب اليه صاحب المنطق حتى كان يتحدث عنه متبسطا فيسميه « سيدنا أرسطو رضى الله عنه » .. وقد استفاد من أرسطو ما كان مستفيده من مراجعة عقله بغير اصطلاحات المنطق والفاظه « المخصوصة » على حد تعبيره ، فان الفكرة المحددة كانت ديدنا طبيعيا عنده ولم تكن من الدروس التى تكتسب بالتعلم ، وقد كان حرصه على حد الفكرة اشد وأكمل من حرصه على حد العمل ، لانه عرف بالتجربة أن نتائج الاعمال قد تختلط بينها وقد تتناقض المقدمات والنتائج فيها ، لكثرة العوامل المنطقية وغير المنطقية التى تحيط بها . ولكن حدود الفكرة فى ذهنه لم تكن تلتبس بين معنى ومعنى ، ولم تكن تخرج على حدود المساواة بين أغراضها وعباراتها ، وقد كانت كلمة «يجرى ايه » تجرى على لسانه ــ كما لاحظ صديقه عبد العزيز فهمى ــ عند التسوية بين نتائج الاعمال ولو كانت فى

ظاهرها على ابعد ما تكون من التناقض والاختلاف ، ولكن « يجرى ايه » كانت تنقلب الي « يجرى كل شيء » اذا حدثت التسوية بين كلمة وكلمة لا تتساويان في النتيجة المنطقية ، لان حدود المنطق واضحة امامه بمقيـــاس الشعرة وبغير لبس ولا اختلاف بين أقرب النتائج واشدها شبها فى ظاهرها

وقد ذكرت فى غير هذا المقال أن استاذ الجيـــل كان يتجنب التصريح برأيه أثناء مناقشات المجمع اللغـــوى تورعا منه عن التحيز الى جانب من جوانب المناقشة، ولكنه كان فى اللجان التى تعد القرارات للفصـــل فيها يشترك فى المناقشة ولا يترخص فى رأيه عند المعارضة بين اقتراحه واقتراحات غيره ، بل أذكر فى جلسة من جلسات اللجان أننا قضينا نصف الوقت فى الخلاف على كلمتى المفكرة والمذكرة ، أيهما أصلح للترجمة عند التفرقة بين اليومية والقائمـــة والمدونة والمذكرة ، فكانت معارضته لكلمـــة « المفكرة » طويلة فى غير هوادة ، واستغرقت نحو نصف الوقت كما تقدم . . لانه ـــ كما قال ـــ لا يفهم كيف ينسب التفكير الى المفكرة وكيف يكون الخلط بين مدلول التفكير ومدلول التذكير



فى أوائل عهدى بالصحافة قـــرأت مقـــــالات لبعض الرحالين السياسيين حكموا فيها على احدى الامم الشرقية حكمهم الذى يداخله الهوى كما يداخل احكام الساسة على العموم . . ثم قرأت نقدا للرحلة ولامثالها من الرحـــلات يدور على فكرة واحدة ، وهى أن رحلة الاسابيع المعدودة فى أمة من الامم ـــ كبيرة كانت أو صغيرة ـــ لا تكفى للحكم عليها

وقرأت النقد كما قرأت الرحلة فوافقت النـــاقد فى

تخطئته لكثير من أحكام كاتب الرحلة ، ولكننى عدت الى نفسى أسألها : أمن الحق أن الامم لا تعرف من سياحة أسابيع بين ربوعها ؟ وهل اقامة السنين تكفى من ليس لديه مقياس صحيح للعلم بأحوال الامة التى قام فيها ؟.

وظلت هذه الخاطرة تشغلنى زمنا طويلا حتى انتهيت منها الى الرأى الذى اعتقده اليوم وهو : ان العبرة بالمقياس وبمن يقيس ، وليست العبرة بطول الوقت او قصره عند فقدان المقياس الصحيح ، وصح عندى ان شيئين اثنين قد يعينان الناظر على العلم بنصيب الامة والفرد فلا يصعب الوصول الى تقدير هذا النصيب فى بضعة أيام ، فضلا عن الاسابيع

هذان الشيئان هما : تقدير الكلمة وتقدير الوقت ، فلا شك فى تقدم الامة التى تعرف للكلمة قيمتها وتعرف للوقت قيمته ، ولن تكون الامة التى تستخف بالكلمة أو تستخف بالوقت على نصيب من التقدم أو من قوة الخلق وسلامة الفطرة ، ولو اعجبتنا جميع ظواهرها الاخرى

وليس من الصعب أن نعرف نصيب الامة من تقدير الكلمة وتقدير الوقت بعد يومين نقضيهما بين أبنائها ، ففى عناوين الدكاكين ونداءات الباعة ومواعيد المواصلات ومواعيد الزيارات مادة كافية للقياس الصحيح فى جميع الحالات

وقد درجت ــ منذ وقرت فى نفسي هذه العقيدة ــ على قياس العظماء وغير العظماء بهذين المقياسين : ما قيمة الكلمة عند هذا العظيم أو عند هذا الاديب أو عند هذا الانسان كائنا من كان ؟ وما قيمة الوقت عنده فيما يعنيه ؟ .. ولا اعرف اننى أخطأت تقدير انسان امكننى أن أعرف قدره بهذين المقياسين

وكذلك تعرف قيمة الكلمة على حسب معدنها المأثور عند من يقدرها ويحرص عليها ، فاذا كان هناك تفاوت بين عظيمين يقدران الكلمة ويحرصان عليها فمعدن الكلمة هو موضع التفاوت بين ذينك العظيمين

ولقد خطر لى يوما أن أقابل بين لطفى السيد وبين أناس ممن عرفتهم من أبناء جيله وهم : سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود ، فظهر لى مرة أخرى ان الكلمة هى الرجل كما قيل ..

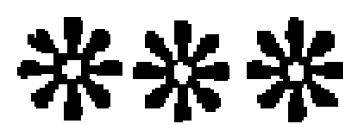
وكانت الكلمة عند سعد زغلول كائنا عضويا يكاد ينضح بالدورة الدموية ، وكان هو يفهمها هكذا من كلام غيره كما كان يفوه بها من كلامه على غير تعمد منه ، فلا يسمعها السامع الا أحس انه سيحضر معها أثرها « الحيوى » انفعالا نابضا فى نفس المخاطب بها فردا كان أو جماعة

وكانت الكلمة عند عبد العزيز فهمى « حيثية » فى حكم قضائى ، يعنيه منها قبل كل شىء ماذا تقرر من الحكم وماذا تدفع من وجوه الاشكال أو الاعتراض ، وقد يسمع الكلمة فلا يستريح اليها لانه يحس ان هناك اعتراضا قد يرد عليها وان لم يتضح له هذا الاعتراض لاول وهلة ، ثم يعرف السبب فلا يلبث أن يبدل الكلمة المقبولة بالكلمة المعترض عليها ، وله على ذلك قدرة المراثة على التمييز بين النصوص وقدرة الاطلاع على كتب الادب والقانون .

وكانت الكلمة عند محمد محمود ، بل كانت كلمات اللغة كلها ، تصريفا لكلمة واحدة هى كلمة « الكرامة » أو الوجاهة ، وربما التقى فى هذا التصريف قاموس السيد الصعيدى وقاموس « الجنتلمان »

أما لطفى السيد فالكلمة عنده « حد منطقى » فى قضية كاملة ، ولا التباس عنده بين حد وحد من الوجهة المنطقية الصميمة ، وانما يعرض لها اللبس حين تتعرض للنزاع

بين المنطق العقلى والمنطق « السيكولوجى » أو منطق الوعى الخفى والوجدان العاطفى ، لانه ــ على تسليمه الدائم بجوانب الضعف الانسانى ــ لم يكن من طبيعة عقله أن يسمح للضعف أن ينتقل الى كفة الميزان فى موازنته بين الحقائق الفكرية ، وربما جاء من هذا العزل بين منطق الفكر ومنطق النفس أن روح الفكاهة فى كتابته تختفى وراء الرأى الممحص والتقدير المحكم بالقياس الصحيح



ولقد كان يستطيب « القفش الحلو » كما سماه فى بعض مقالاته ، ولكنه لم يكن سريعا الى «لقط» النكتة ، ولم تكن له تلك الضحكة العميقة التى تملأ الافواه كما تملأ الصدور .. وقد يشترك المجلس كله فى الضحك ولا يشاركهم فيه ، فيحيل الخطأ على نفسه ويقول معتذرا : لا مؤاخذة ! اننى بطىء فى فهم النكتة ! ..

ومما أذكره نماذج شتى من النكات « البلدية » التى كانت تضحك جلساءه ولا تضحكه ، ومنها حديث أطرفنا به الاستاذ عبد الوهاب خلاف ــ رحمه الله ــ عن صاحب له ولنا من الشيوخ المعممين الملتحين الذين لا يعطون المشيخة ولا اللحية كل حقهما من التزمت والحشمة ، وكانت مناسبة الحديث « دردشة » عارضة على حد تعبير رئيسنا فيما يقال قبل انعقاد جلسات اللجان الخاصة بالمباحث اللغوية فى موضوع من الموضوعات ، وكان موضوع الجلسة تعريب المصطلحات الموسيقية أو تهذيبها

قال الاستاذ عبد الوهاب عن ذلك الشيخ المرح انه شوهد وهو يتأبط ذراع الموسيقى المعروف « سامى الشوا » فسئل :

ــ ما الذى يجمع هذا على ذاك ؟ وما الذى يقرن بين.

زمرة الاولياء وزمرة الطرب والغناء ؟

قال الشيخ غير متلعثم :

ــ ولم لا ؟ .. هذا شيخ « كمان » !

وشوهد الشيخ فى احدى سهراته وامامــــه كأس من الويسكى ، فسأله الزائر الطارىء مستنكرا :

ــ أما تستحى لهذه العمامة فوق هـــذه اللحية التى وخطها الشيب

فقال كذلك غير متلعثم :

ــ وماله : هذه أيضا (بلاك آند هوايت !)

وكان يقول للمازحين من أصحابه كلمـا ذكروه بوقار اللحية :

ــ انها لا تربينى .. أنا الذى أربيها !

وقد كان الرئيس ــ خلال هذه الدردشة ــ يبتسم ولا يضحك ، ويعود فيلقى اللوم على تقصيره هو فى هذا المجال ..

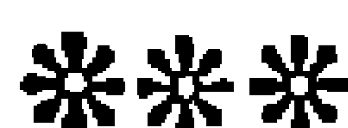
وعلينا ان ننصفه من نفسه فى هذا اللوم ، لان النكتة الجناسية فى الواقع ليست من أجود النكات ولامن أصدق الوان الفكاهة ، وليس بالمستغرب من العقل المنطقى ولا من صاحب القلم الحريص على « ألفاظ الخصوص » ألا يأنس الى لعب الجناس «اللفظى » والا يشغل باله بعد استيفاء شروط العقل بحواشي المشابهات فى الآذان ، وقد مرت بنا فيمـا نقلناه من تقريظه لاسلوب المنفلوطى كلمة من الكلمات الجناسية يتحاشاها فى مكانها من يلقى باله الى مشابهاتها ، ولكنها لم تكن مما يتحاشاه أرسطو المصرى فى لغة الجد والتحقيق ..

انه يقول عن كتاب الخصوص :

«ان كتاباتهم — على قلتها — هى المربى الوحيد للامم والعلل الاولى التى تدفعهـا الى الاخذ بكلّ نوع من انواع الرقى والنجاح »

وكم من نكتة جناسية فى هذه « العلل » لمن يشاء أن يحكم « القافية» فى لغة التفكير والتعبير ؟

الا ان الانصاف الذى يعفى فيلسوفنا من اتهام نفسه بالتقصير فى مجال النكتة ، لا يمنع المنصف أن يلاحظ أن نصيب الروح الفكاهية فى كتاباته قليل يشكو الحرمان من جور الجد المنطقى عليه



وبعد .. فان الكلمة عند لطفى السيد هى موضـوع مقالنا ، ولكننا ذكرنا فى عرض المقـال مقياسا آخر للامم وللرجال غير مقيـاس الكلمة وهو مقيـاس الوقت .. فلا ننسى ان نضيف هـذا المقياس الى ذلك المقيـاس ، ولا نرانا بحاجة الى كلمات كثيرة لنقول أن الكفة ستبقى على رجحانها فى الحالتين :

لقد تولى لطفى السيد رئاسة مجمع اللغة وهـو يقارب التسعين ، فلم يتخلف عن المجمع يوما واحدا وهو قادر علي الخروج من داره ، ولم تأت السـاعة الحادية عشرة فى يوم من أيام حضوره وهو بعيد من كرسيه بقاعة الجلسـة ، ولا تتم الدقيقة التاسعة والخمسـون ويده بعيده من جرس التنبيه !





ميرزا محمد مهدي خان

زعيم الدولة ورئيس الحكماء

نشرت فى صحيفة « الدستور » سلسلة من الفصول عن شعراء الفرس النابهين معتمدا فيها على قصائدهم واخبارهم المترجمة الى اللغة الانجليزية .. وحدث فى صيف سنة ١٩٠٩ أن شاه الفرس أراد أن يلغى الحياة النيابية فتشبت الثورة فى البلاد ، واضطر الى النجاة منها بنفسه فبايعت الامة ولى عهده .. وهو فى نحو الحادية عشرة من عمره . ونقلت الانباء البرقية عنه أنه بكى حين بويع بالملك بين تلك الزعازع المرهوبة ، فكتبت يومئذ مقالا فى صحيفتى « الدستور » و « مصر الفتاة » وجهت فيه الخطاب الى الشاه الصغير ، وقلت فى مفتتحته : « أنت فى الشرق .. بين أمة الشعر والشعور » .. ثم قلت : « انك ان لم تضمر لهم سوءا ولم تحمل عليهم ضغنا ، فالعرش أوثر من المهد ، وحجر الامة ألين ملمسا من حجر الام ، وأنت مع ذلك أسعد أسلافك ، لانك أول من رفعته ايران الى عرشها بيدها ، وأيمن شاه لانك توليت الحكم فى العهد الذى سيذكر التاريخ انه أول عهد وافق نهضة الاسلام من جديد »

ولقينى غير واحد من صحبى بعد نشر هذا المقال وهم يقولون لى : « ان مقالك قد اعجب الدكتور « مهدى خان » وهو يحب أن يراك »

فمن هو هذا الدكتور « مهدى خان » ..

لقد كانت القاهرة يومئذ تموج بالتيارات السياسية ، بين ظاهرة وخفية .. كانت كأنهـا مرصـد الحوادث فى الشرق الاسلامى كله ، فكان فيها دعاة من العرب ، ودعاة من الترك ، ودعاة من الفرس ، ومن آسـيا الوسطى على اختلاف شعوبها ، ومنهم من يعمل للحـرية والتجديد ، ومنهم من يعمـل فى خدمة المستبدين ، بل فى خدمة الاستعمار ..

وكان الدكتور « مهدى خان » فى ذلك الحين علمـا من الاعلام المشهورة بين أولئك الدعاة ..

كان يعرف فى بلاده باسم « الدكتور ميزرا محمد مهدى خان زعيم الدولة ورئيس الحكمـاء » .. وكان مولده فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان قد ناهز التسعين حين لقيته ، وكان نموذجا صادقا لثقافة القرن التاسـع عشر فى زمنه وفى وطنه ، لانه تعـلم الطب فى فـارس ثم حضر دروسا مختلفة فى علم الاديان المقـارنة على أسـاتذة من الالمان ، وكان ينظم الشعر الفارسى أحيانا ، ويكتب العربية والتركية ، ويتكلم الالمانية مع أهلهـا ، وربمـا كان على معـرفة بالفرنسـية .. ومن مراجعه فى الطب كتب ابن سينا والاطباء الاقدمين ، ولهذا كان يشترك فى مباحث الفلسفة كما طرقها أولئك الفلاسفة الاطباء

ولست على يقين من تفصيلات برنامجه السـياسى ، ولكننى أعلم أن صحيفته « حكمت » كانت تصادر أحيانا فى بلده ، وكان يرسلها سرا فى كثير من الأوقات الى جهات من بلاد الدولة العثمانية تنقل منها الى ايران وبعض بلاد المسلمين الذين كانوا تابعين يومئذ للحكومة القيصرية

وكان شديد السخط على الحركة البابية ، ويعتقد أنها

تخدم مآرب الانجليز والامريكيين فى ايران ..

ولم ألقه على اثر كتابة مقالي الى الشاه الصغير ، ولكنني لقيته بعد ذلك بفترة وجيزة .. وعرفني اليه صديقنا الشاعر المجيد الاستاذ على شوقى رئيس قلم النظارة بوزارة الاوقاف

كان من أسباب ترحيبى بمعرفة الدكتور « مهدى » انه مرجع موثوق به فى الشعر الفارسى خاصة ، وقد تحققت منه مما كنت أرجحه ترجيحا عن خطأ الترجمات الاوربية لشعر الخيام وغيره من شعراء الفرس المترجمين ، فاذا هى فى الواقع محشوة بالاغاليط ، عن جهل باللغة تارة ، وعن رغبة من المترجمين فى التزويق تارة أخرى .

وكان للرجل فضل فى تمكننا من حضور ليلة عاشوراء بالتكية الفارسية ، ولم يكن ذلك ميسورا لكل راغب فيه .. فلم يكن فى التكية ليلة شهدنا الحفلة احد من المصريين غير حسين رشدى باشا وثلاثة من الزملاء والادباء هم : الاستاذ المازنى ، والاستاذ على شوقى ، والاستاذ عبد الرحمن البرقوقى رحمه الله ..

على أننى مدين له بالفضل فى الوقوف على أسرار مسألة من اخطر مسائل السياسة الشرقية فى أيامها ، وهى مسألة المطبعة العثمانية التى يتوقف على العلم بها تقدير أناس يحسبون الان من أبطال الحرية والدعوة الوطنية

فقد كنت أرى الرجل كلما زرته فى مكتبه شديد الحذر على أوراق صحيفته ، وعلى أسماء المشتركين فيها من المقيمين فى ايران وروسيا على الخصوص ..

وكنت أعيب عليه هذا الحذر ، وكان يقول لى : « انك يا بنى لا تعلم انها مسألة خطرة على حياة المئات .. ومن

يدرى ؟ فقد تتعرض لما تعرض له أصحاب المطبعة العثمانية من حيث لا نعلم وذلك غاية ما نخشاه

اما مسألة المطبعة العثمانية هذه فيستطيع من شاء ان يراجعها في الصحف المصرية « ابريل سنة ١٩٠٢ » .. وخلاصتها كما سمعتها من هذا الرجل العليم بها — دون أن نتوسع هنا في تفصيلاتها — ان احرار الترك نشطوا يومئذ لنشر الدعوة الى الدستور والحكومة النيابية ، واصدروا بالقاهرة صحيفة كانوا يرسلونها خفية الى أنصار هذه الحركة في أنحاء الدولة العثمانية .. وقلق السلطان عبد الحميد ، واشتدت رغبته في الوقوف على أسماء هؤلاء الاحرار من رعاياه المقيمين في بلاده وجزاؤهم — لو انهم عرفوا — قضاء بالموت او بالعذاب في غيابات السجون .. فاذا بقضية تدبر في القاهرة للحجز على المطبعة العثمانية ، ظاهرها انها دعوى مدنية وباطنها انها حيلة للاستيلاء على الاوراق التي فيها الاسماء والعناوين

ويفزع احرار الترك حذرا من سوء العاقبة على اخوانهم الغافلين في بلادهم ، فيلجأون الى الوكالة البريطانية ..!

وتتخطى الوكالة البريطانية القانون ، فتأمر بكسر الاختام وتسليم الاوراق الى اصحابها وترك ما في المطبعة ما عدا ذلك محجوزا عليه ، وتكسب بذلك ولاء طائفة من احرار الترك ، ومعاكسة السلطان عبد الحميد ..

وهنا يقرأ العجب من شاء الرجوع الى الصحف في تلك الايام : بين الغيرة على الاختام ، والغيرة على ارواح المئات من طلاب الحرية والدستور



فؤاد "الصاعقة"

اذا كان سبب من أسباب السمعة مانعا للكتابة عن أحد ، فهذا الكاتب الصحفي أولى الناس بالسكوت عنه . .

ولكنه أحق الصحفيين بالكتابة عنه اذا كان تاريخ « الادوار الكتابية » فى حياة الصحافة عندنا موجبا للكتابة عن صاحب الدور . .

فقد كان « أحمد فؤاد » صاحب صحيفة الصاعقة الاسبوعية اشهر الصحفيين من أبناء جيله فى تمثيل ذلك الدور الذى عرفناه فى صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها فى أواسط القرن التاسع عشر . . فاذا وجب ان تختصر أسماء الصحف التى يصح ان نطلق عليها عنوان « صحافة الهجاء الاجتماعى » فى اسم واحد — فاسم « فؤاد الصاعقة » هو ذلك الاسم الذى لا يزاحمه شريك مثله فى هذه الصناعة . .

كان الناس يعرفون اسم « فؤاد الصاعقة » ولا يعرفون اسم « أحمد فؤاد » اذا انفرد بغير هذه القرينة . . وقد يكتفون باسم « الصاعقة » ولا يزيدون ، فيعرف قراء الصحافة من يريدون . .

وقد كان « فؤاد الصاعقة » ممثلا فى المجتمع المصرى لدور واحد على صورتين : صورة تظهر فى محيط الادب

الشعبى وهى صورة « الادباتى » المتجول بين بلاد الريف والحضر ..

وصورة «مفصحة» من هذا الادباتى وهى صورةالاديب «الاريب» المحتال لعيشه فى لغة المقامات ، واسم « أبو زيد السروجى » فى مقامات الحريرى عنوان عليه

واذا أردنا أن نترجم هذه الصناعة بالاسلوب الاقتصادى لتفسير الادب والتاريخ ، فالصحفيون من طائفة أحمد فؤاد هم « محصلو ضريبة الوجاهة والهيبة » فى المجتمع الجديد ..

ولنا أن نتخيل أن هذا المجتمع سلطان من السلاطين الاقدمين كان له خدامه على طريقته ، وكان لهؤلاء الخدام نصيب من التزاماته وجباياته المقررة على رعاياه ، فان هؤلاء الادباتية « يخدمونه بالرقابة على أصحاب الجاه والهيبة فيحيلهم بتحصيل الضريبة لحسابه أو لحسابهم من جميع هؤلاء ، هربا من تكلف المغارم والوفاء بحق الجزاء الصريح .. لان المجتمع نفسه وأصحاب الجاه والهيبة فيه ، أولئك الجباة المسلطون عليهم ، كلهم جميعا غير صرحاء

على أن « الوظيفة » هذه لم تكن مخجلة لاصحابها ، ولا كان أصحابها يكتمونها ويدورون حولها ..

جلس أحدهم بين زمرة من الكتاب والفضلاء يتحدث عن صديقه السرى الذى يستدنيه منه ويسومه أن يجاريه بتعاطى المخدرات وشم « الكوكايين » وكان يومئذ بدعة « أولاد الذوات » المتبطلين من رواد السهرات

قال الادباتى السروجى الحديث : « ولكن من ذقنه فت له .. كان ـ بسلامته ـ يريد منى أن اشم له الكوكايين لاعينه على السهر ، ولكننى كنت أسهر بغير كوكايين

وأجمعه عندى الى ساعة الحاجة فى آخر الليل .. تلك الساعة التى توصد فيها أبواب الصيدليات ومخابىء العقاقير الممنوعة ، وتحلو فيها الشمة الواحدة بأضعاف سعرها فى جميع الاسواق السوداء ، وأبدى لصاحبنا الغيرة على خدمته والتحرق على شمة أو شمتين معه قبل انقضاء السهرة ، فلا يقنعنى فى الجرام الواحد أقل من ثمن عشرة جرامات ، وأخرج من هنا وفى جيبى حصيلة الاسبوع من الكوكايين المدخر لتلك الساعة ، ثم أعود اليه ببقية « العشرة الجنيهات » قروشا معدودات .. ولم أصرف من الورقة نصف مليم » !

وتحدث صحفى آخر عن كلمة غمز بها بعض الوجهاء وفهمها ذلك الوجيه وفهم المقصود منها ، فأرسل اليه خمسة جنيهات ولمح هو من الوسيط أن الحكاية قابلة للمساومة والزيادة جنيهين أو ثلاثة جنيهات ..

ثم اعتدل الصحفى الادباتى ، وهو يقول فى زهو وخيلاء : ولكن فشر .! محسوبكم « برى فكس » .. كلمته واحدة لا يقبل المساومة .. عشرون جنيها على داير المليم ، والا فالذى قرأه الباشا غمزا يقرأه الناس جميعا تصريحا على المكشوف .. وعينك ما تشوف الا النور .. لقد جاءتنى الجنيهات العشرون قبل مغيب الشمس فى ذلك المساء

كان هذا الصحفى يلقب بيننا « بالزبرا » اى حمار الوحش ، وكان بعضهم يتلطف فيسميه الفنان لانه من أسماء الحمر الوحشية . فلما سمعنا منه هذه القصة صاح الاستاذ أحمد صبرى المصور المعروف متهكما متبرما وهو يلوح له بيديه فى وجهه : لا والله .. من الان فصاعدا .. حمار وكفى .. ولا زابرا ، ولا فنان ، ولا يحزنون !

على هذا المثال كان « الصحفى الادباتى السروجى »

يؤدى وظيفته فى بقايا المجتمع من القرن التاسع عشر ، وكان محصوله من هذه الوظيفة ضريبة المجتمع على الوجاهة والهيبة بحسب براعته فى التحصيل

وكان فؤاد الصاعقة أبرع هؤلاء الجباة فى استغلال وجاهة الوجيه وهيبة المهيب شفويا وتحريريا بغير عناء ، وهو عالم بحدود العرف والقانون مع كل طبقة من تلك الطبقات

كان له جعل من المصروفات السرية يصيبه حينا ويفقده حينا ويتطلبه فى جميع الاحيان ، وكان عبد الخالق ثروت (باشا) وحسين رشدى (باشا) ممن عودوه المنحة بعد المنحة من هذه المصروفات ..

وانقطعت عنه منحة ثروت باشا ، وهو لا يزال رئيسا للوزارة ، فتربص به الى ساعة اجتيازه ببار اللواء مشيا على قدميه كعادته فى أكثر الاوقات ، وتعمد ان يجلس ذلك اليوم بين رهط من كبار رجال وزارتى العدل والداخلية ، فما هو الا أن عبر الباشا بهم وهو يعرفهم جميعا حتى وثب فؤاد الصاعقة وراءه ، ووقف على قارعة الطريق يناديه : يا سى عبد الخالق .. يا سى عبد الخالق !

فهرول أولئك العلية الى داخل البار ، وعاد اليهم مقهقها وهو يقول : ليس بينى وبينه تكليف !..

وقال أحدهم وهو يلطمه على فمه : ولا بينى وبينك تكليف يا ابن ...

ولمح رشدى باشا عند محطة الرمل بالاسكندرية بعد اعتزاله الوزارة ، فوضع ذراعه تحت أبطه ونظر اليه فى غاية من الهدوء والتبسط وهو يمازحه قائلا : لا صاحب دولة الآن ولا صاحب عطوفة .. ولا حجاب على الباب ولا حراس فى الطريق .. كلانا سواء يا حسين !.. فدفعه

الباشا عنه بتلك البساطة الطريفة التي عرفت عنه ، وقال له كأنه يرد المزاح بمثله : لكن أنا عندي فلوس يا ابن ...

وكانت صحيفة « الصاعقة » أسبوعية كما تقول رخصتها أو يقول عنوانها ..

ولكنها في الواقع لم تكن اسبوعية ولا يومية ولا شهرية ولا سنوية ، اذا كان لابد من تحديد الموعد بوقت معلوم ..

وانما تصدر كلما وجدت « الضحية » التي تؤدى ضريبة الجاه والهيبة ، سواء من هذه الضريبة ثمن الثناء أو ثمن الهجاء أو ثمن النجاة من التهديد والوعيد

ويحدث كثيرا أن تقع المعاملة مع هؤلاء الضحايا بالجملة ، كما حدث في رثاء بعض الاعلام من المشاهير .. فان رثاء العلم المشهور لم يستغرق غير كلمات في بضعة أسطر ، ثم عقب « فؤاد » بعد هذه الكلمات متسائلا : أيجوز في شرعة القدر أن يموت مثل هذا ويعيش أمثال فلان وفلان وفلان .. الى آخر القائمة المطولة من أسماء المغضوب عليهم والمطالبين بسداد الاشتراك ، عن عددين في السنة ، أو بضعة أعداد !

وقد يصدر العدد من أجل عنوان واحد يتكرر على الصفحة بجميع البنوط :

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتي ريال !

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتي ..

لا تبيعوا أقطانكم ..

لا تبيعوا ..

لا .. لا ..

ويبلغ من يعنيه الامر ان الاعلان سيعاد ويعاد مع

مضاعفة الاجور فى كل مرة .. فيسرع من يعنيه الامر الى السداد ..

أما من كان يعنيه الامر فى قصة بيع القطن ؛ فهو رجل من أصحاب المزارع والمحاصيل كانت له مساهمة فى صناعة القلم على أسلوب المقامات وما جرى مجراها ، وكانت منافسة « الصاعقة » له سببا مضافا الى سبب الطمع فى ماله ، او فى ضريبة الجاه والسمعة من يديه ، فحسب عليه تلك النصيحة الفاشلة التى ضيعت على الفلاحين محصول العام زلة يهدده بها كلما نقم منه واحتاج الى جدواه

وقد يؤجر « فؤاد الصاعقة » على التحرش بالادباء والكتاب ممن لا مال لهم ولا جاه ، فيعرف قراء الصاعقة ذلك كلما طلعت لهم الصحيفة بفصل من فصول الكاتب المغضوب عليه .. يتبعه تهديد للمشتركين المتخلفين بمواصلة النشر والاعادة من امثال هذه الفصول !

وربما أخذ التوقيع الذى يوقع به الكاتب مقالاته فترجمه من عنده على هواه .. فتوقيع « ك . ك » هو توقيع « كامل كيلانى » بالحرفين الاولين من اسمه ، ولكنه عند فؤاد الصاعقة اما « كلب كلب » .. واما كاهن كذاب

ولم تبلغ الجراة بأحد مبلغ هذا « الادباتى السروجى » فى مخاطبة الامراء والرؤساء .. فقد انقطعت عنه المعونة الشهرية من ديوان المعية الخديوية ، فكتب الى الامير ، مباشرة ، خطابا يقول فيه : ان كان بعضهم يظفر بعطايا الأمير لانه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لانه ينثر .. وان كان لعيب من العيوب ، فهو ــ اى فؤاد الصاعقة ــ يضم ازاره بحمد الله على تلك العيوب ، وعلى شر منها ، وزيادة

عليها .. ثم يمضى فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيها ، كأنهما عيوب ضحية من ضحاياه ..

واسم « الصاعقة » نفسه مثل من أمثلة الشهادة على نفسه فى مقام المقابلة بينه وبين غيره ..

كان فؤاد الصاعقة يدين بالاستاذية للمويلحيين الكبير والصغير ..

وكان المويلحيان استاذين فى ذلك الجيل للكتاب من مدرسة « النقد الاجتماعى » على الاسلوب المهذب فى لفظه ومعناه ..

فأخذ تلميذهما اسم « المصباح » وحوله الى الصاعقة

واخذ أسلوب « النقد » وحوله الى أسلوب « الهجاء »

وارتد على الاستاذين بالتهديد والوعيد ، وحاول أن يتقاضى منهما ضريبة الابتزاز والاتاوة .. فعلمه المويلحى درسا قال له فيما بعد أنه قد فاته أن يتعلم منه مع الهجاء .. هجاء الالف والباء ..

أرسله الى الآستانة برسالة يغنم فيها الهيل والهيلمان ، من سلطان آل عثمان ..

فلما وصل الى الميناء كان فى استقباله مدير الشحنة السرية بدلا من مدير التشريفات بالمابين ، وقضى فى السجن ما شاء المويلحى الكبير أن يقضيه هناك ، قبل أن يشفع له ويدفع الشبهة عنه ..

ولقد سمعت من هذا « الادباتى السروجى » وصية تدل على طريقته فى تقاليد هذه الصناعة ..

كان يقول لى كلما لقينى بدار البلاغ أو الاهرام : انا أعلم انك لا تخافنى كما يخافنى فلان وفلان .. وكل ما

ارجوه منك الا تجهر بذلك أمام هؤلاء .. ردعنا نأكل عيشنا معهم ، برزقنا الله واياك ..

ومرة واحدة لقينى جالسا الى بعض زملائنا الصحفيين على قهوة بجوار البنك الاهلى ، فهتف بى كالمعاتب الناصح : كله الا هذا يا أستاذ .. ان الكاتب الذى يلقبه سعد زغلول بالجبار لا يجلس على القهوات .. دعهم يحسبونك من مردة الاساطير ، يتلو احدهم الطلسم كلما خطر له أن يراك



فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس - ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص٠ب ٣١

البـــرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

سيراليون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

سنغافورة :
M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

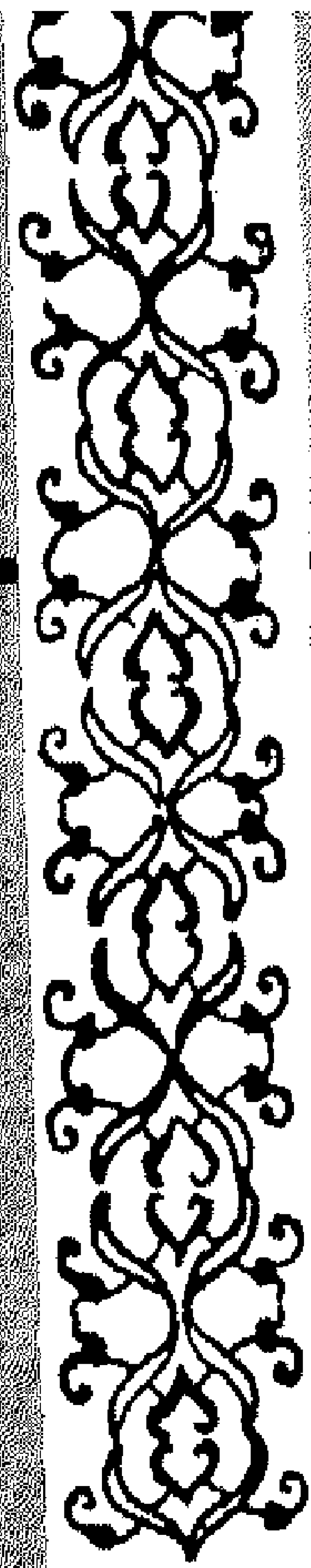
انجـــلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا :
Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street,
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

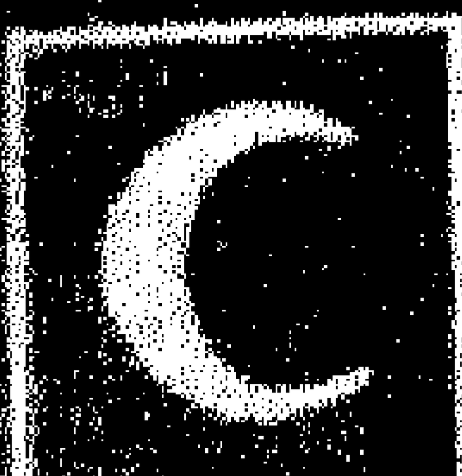
هذا كتاب جديد لم يسبق نشره، من مؤلفات الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد، تناول فيه عددا من الاعلام الذين عرفهم . ولم يكتب المؤلف عنهم بقصد استقصاء الحوادث أو تحليل شخصياتهم من وجهتها العامة، ولكنه رسم لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت له معرفتهم فيها . وقد توخى فيها ــ كما جاء فى تقديم الكتاب ((أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته .. فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والاعلام، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم))

كتاب الهلال



غراميات نابليون بونابرت

تأليف جان سافان



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٢ ـ جمادى الآخرة ١٣٨٣ ـ نوفمبر ١٩٦٣

No. 152 — November 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

غراميات
نابوليون بونابرت

تأليف

جان ساڤان

ترجمة

لطفي سلطان

مقدمة الكتاب

كان نابوليون بونابرت وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة يحب كثيرا ان يتحــــدث مع رفاقه فى المنفى عن النساء اللاتي عرفهن فى حيــــاته . وذات يوم ، نظر الى جورجو قائلا : « اننا سنتحدث حديثا طويلاعن غرامياتنا، وعن النساء» . وفى يوم آخر ، قال لمونتولون : «دعنانتحدث عن حبنا الاول ! »

ويبدو أن نابوليون قد أسر الى مونتولون بأنه كانت له فى حياته سبع عشيقات . ويذكر البعض انه أضاف يقول وكأنما يوجه اللوم الى نفسه : « انه عدد كبير حقا ! » . ونحن نترك المسئولية فى تحديد هذا الرقم تقع على عاتق مونتولون ، الذى كان مشغولا حينذاك بالكتابة من أجل قضية لويس نابوليون

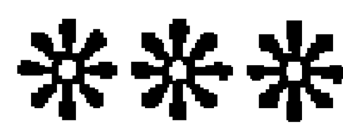
ولكن المغامرات الغرامية التى خاض غمارها ابن كورسيكا الذائع الصيت ، كانت اكثر من ذلك بكثير .. والمــؤرخ لحياة نابوليون ، كان من الممكن ان يجد قصصا غراميــة لانهاية لها لو ان نابوليون قبل أن تكون له صلة بجميع النساء اللاتى كن يعرضن عليه انفسهن

وفى ذلك كان يقول : « آه لو عرفتم مقدار الدسائس التى اكتشفتها ، وعدد النساء اللاتى ارادوزرائى تقديمهن

لى ! .. لقد كانت لدى « تاليران » دستة من العشيقات كن دائما تحت الطلب ! »

وفى هذا المجال ، يبرز اسم «رينو دى سان جان» وزير الدولة ، الذى كان مشهورا بأنه « زيرنساء» والذى غذى نابوليون بمجموعة من العشيقات . وكان « سان جان » يدعى انهن من الطبقة الراقية ، والصحيح أنه كان يجمعهن من فتيات باريس العاملات !

وعلى أية حال ، فالعدد لا يهم ! .. فقدانتصرنابوليون بونابرت فى معارك كيوبيد أكثر مما انتصر فى معاركــه الحربية ، وكانت هذه الانتصارات الغرامية من ناحيــة اخرى انتصارات سهلة .. مما جعل الامبراطور يسمع ذات مرة عبارة قاسية وجهتها اليه « هورتانس » ابنة زوجته « جوزيفين » .. فقد كان نابوليون يفتخــر بأنه لم يقابل قط فى حياته امرأة « صعبة » فأجابته «هورتانس» على الفور قائلة : « ذلك لانك لم تتعامل ، ياسيدى ، الا مع نساء متساهلات ! » . وكان هذا صحيحا الى حد ما .. !



والناس ــ لكثرة تخيلهم هذا القاهر العتيد فى صورة من يجعل الجميع يرتجفون من حوله ــ ينسون انه كان خجولا . ويجب على المرء ان يضع فى اعتباره ان نابوليون كان يتعامل مع جنود من واجبهم الطاعة العمياء ، أو مع موظفين مدنيين مرغمين ــ بحكم العادة ــ على الخضوع لمن يدفع لهم أجورهم . ولعل هذا يفسر لنا السهولة التى كان يسيطر بها نابوليون على من حوله . ومع ذلك ، فهناك شهود كثيرون يقررون ان جبروت نابوليون كان يتلاشى فى حضرة أناس مثل الامبراطور فرانز، والامبراطور الكسندر ، والوزير مترنيخ ، وغيرهم ، وان الكثيرين ممن

يحيطون به كانوا يعارضونه ويقفون فى وجهه . ولذا فان عنف بونابرت ـ الذى كان فى معظم الاحيان عنفا مبالغا فيه او متعمدا ـ ربما لم يكن مصدره سوى الخجل ، وبالتالى رغبته فى التغلب على هذا الخجل . ونحن نعلم أيضا أن نابوليون كان يقاسى عقدة من قصر قامته، ولذلك كان دائم التهكم على طوال القامة .. !

كان نابوليون ـ بسبب الخجل ـ لا ينظر قط فى عينى محدثه .. انه كان ينظر اما الى الارض ، أو الى جواره. ومن هنا ، لم يكن مسلحا فى الواقع للقيام بدور « غازى النساء » .. اما عن الشئون الغرامية ، كضرب المواعيد وترتيب المقابلات ، فحتى خدمه يعترفون بأن أبسط الرجال واقلهم مهارة كانوا يتفوقون عليه فى هذه الناحية!

وكان خجل نابوليون يبعث فى نفسه شعورا بالخوف ، فاذا جلس مع فتاة حسناء ، حدثته نفسه بأنه لن يستطيع أن يمتلكها .. ومن الغريب أن هذا الرجل العبقرى النادر الذكاء ، ظل على اقتناع لا يتغير «بأن اجمل النساء هن اللاتى يظفر المرء بهن بصعوبة » .. وقد لازمه اقتناعه الساذج هذا حتى نهاية حياته ! ..

لقد كان نابوليون فى حاجة الى أن يعرف منذ البداية أنه سيكون مقبولا من جانب المرأة ، وأنها ستكون لطيفة فى معاملتها له ، وان جميع السبل ستكون مهيأة امامه. ونحن نراه اثناء سنوات مراهقته يحوم حول المومسات باحثا بينهن عن وجه «لطيف» .. وقد قال وهو فى جزيرة سانت هيلانة : « لابد ان تكون لطيفة كى تستحوذ على اعجابى .. »

وكان خجله هذا يفقده ثقته بالنساء . ومن ناحية اخرى فهو مدين لهذا الخجل بسرعته وعنفه وقسوته، ونشأ ذلك عن « نقص دفين كامن فى جسمه » .. وهو لم

يحاول قط ان يخفى ذلك النقص ، بل لم يفاجأ به من قاموا بتشريح جثته بعد وفاته

***

وقد وصف « ستاندال » الكاتب الفرنسي الذائع الصيت ـ نابوليون فى احد مؤلفاته ، وصفا قد يكون فيه كثير من المبالغة ، ولكن فكرته الرئيسية تستحق الانتباه . يقول ستاندال : « كان الامبراطور يجلس الى منضدة صغيرة يوقع على بعض المراسيم ، وقد تدلى سيفه الى جانبه ، ثم تدخل احدى السيدات فيطلب منها ان ترقد فى السرير دون ان تسبب له أى ازعاج . وسرعان ما يوصلها بعد ذلك بنفسه الى الباب وهو يحمل الشمعدان ، ثم يعود الى قراءة مراسيمه والتوقيع عليها من جديد

« وكان اللقاء فى العادة لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، ولم يكن الامبراطور يتخلى أثناء ذلك عن سيفه ، وهو أمر كان يجرح مشاعر النساء جرحا عميقا .. »

فهل كان نابوليون يفعل ذلك كى يظهر لهن احتقاره كما يفترض ستاندال ؟ .. كلا .. ان هذا بالتأكيد ليس صحيحا ، اذ الواقع أن نابوليون ولد محاربا لا عشيقا . ومن هنا كانت « لهجته العنيفة فى الحديث » ، ووقاحة سلوكه التى يغفرها له كاتب مثل فردريك ماسون ، أكبر مدافع عن نابوليون .. انه لم يكن قد درس شئون الغرام والمغازلة ، أضف الى ذلك انه قد وجد حصادا سهلا ، فلم يكلف نفسه عناء الرقة وحسن المعاملة ! ..

وقد حدث ذات مرة اثناء احدى المعارك الحربية ، أن رآه الجراح الشهير «لارى» يعود الى خيمته وسط دوى المدافع ويصيح قائلا وقد اشتعلت عيناه : « امرأة ! امرأة ! الى بامرأة فى الحال ! »

ولنتذكر أيضا أن نابوليون كان ايطاليا ، وقد نتحدث عن ذلك كثيرا .. وكان يعرف اللغة الايطالية منذ حداثة سنه. وقد اتضح انه ينتسب الى ايطاليا اكثر مما ينتسب الى كورسيكا ، وأفكاره عن النساء تماثل تلك التى كانت لصغار النبلاء الايطاليين فى القرن الثامن عشر .. وهى أيضا نفس أفكار ملاك الاراضى الايطاليين فى القرن التاسع عشر ، فالرجل هو السيد ، والمرأة طوع أمره ، ومن ثم ينبغى أن تكون المرأة دائما تحت امرة الرجل !

ذلك هو السبب فى خشونته مع النساء ، وفى ميله القوى « لفضح الاسرار » و « التفاخر بمغامرات الغرام» على حد قول البحاثة الثاقب الفكر اميل دار . لقد كان نابوليون فى عجلة ليروى قصة نجاحه الى درجة تجعلنا نعتقد انه لم يبحث عن النجاح الا ليتحدث عنه العالم . وكان يجد لذة كبيرة فى فضح العيوب الجسمية لعشيقاته « ويا ويل المرأة التى تستسلم له ان لم تكن فى جمال فينوس ! »

وقد كانت فكرته عن الاخلاق فكرة تدفعه الى أن يحكى أسرار مغامراته الغرامية حتى لزوجته جوزيفين ، وكان يطلب رأيها ومعونتها اذا ما شعر بالحاجة الى التغيير ، وكانت زوجته تتعاون معه تعاونا كان يؤدى دائما الى نتائج مثمرة بالنسبة لكليهما ..!

ونحن نعرف رأى الكثيرات من النساء عنه، ولكننا نحب أن نعرف الشعور الذى كان يتركه فى نفس النساء اللاتى لازمنه لبضعة أسابيع أو لعدة دقائق فحسب ، مع استبعاد سلطانه كقائد عسكرى أو كرئيس دولة . ومن المستحيل أن تكون أية واحدة من هؤلاء قد وجدته وسيما من أول وهلة ، ذلك لان الاشعاع الذى كان يسبغه ذكاؤه الخارق على ملامحه لم يكن خليقا بأن يحدث تأثيرا عميقا

فى نفوس عشيقاته . ونحن لا نعـرف كيف كانت ملامحه وتقاطيع وجهه ومظهره على وجه التحديد .. بل انالبون يبدو شاسعا بين ما نعلمه عنـه الآن وعمـا كان عليه فى الحقيقة .. فالبعض يطرون شـكله ومظهره أيما اطراء ، فىحين يصفه البعضالآخر بأنه كان « كئيب الوجه» سوقى المظهر ، ذا نظرة مرعبة »

وعلى أية حال ، فلم يكن نابوليون ذلك العاشق المثالى الذى تحلم به امرأة لا تقيم وزنا للفضيلة ولم تكن قامته القصيرة (١) نفسـها تحوز اعجاب النسوة المتبرجاتاللاتى يتأثر غرورهن بمثل هذه الاعتبارات .. فضلا عن أنه لم يكنمحدثا لبقاولا راقصا ماهرا .. وقد قالتله الكونتيسة بوتوكا ذات مرة : « انك ترقص جيدا يا مولاى .. لانك نابوليون الرجل العظيم » !

ومن هنا يمكن أن نتساءل : هل كان منالممكن أنتكون لنابوليون حياة غرامية حافلة بالقصص والمغامرات ، لو لم يجعل منه القدر قائدا ثم قنصلا ، ثم امبراطورا ؟ ..

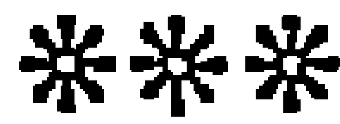
***

وقد كان نابوليون يفضل الشقراوات على السمراوات وذوات القوام الممتلىء على النحيلات .. كان ينفر أيمـا نفور من المتحذلقات والمتكلفات فىالحديث ، فهو يريد من المرأة أن تكتفى بالعمل فى حدود الاختصاص الذى يفرضه لها ، كاعداد الزهور والورود انكانت منالمجتمع الراقى، أو خدمة بيتها ان كانت من عامة الشعب . وكثيرا ماكان يستعمل نفس الكلمات التي يستعملها الجنـد فى وصف النساء ، مثل : امرأة مائعة ، أو عاهرة .. وكانت هذه الكلماتتتردد علىشفتيه سواء أكان الامر يتعلقبعشيقات قواده ، أم بالامهات اللاتى يحملنأولادهن ويطالبن بالخبز

(١) كانت قامة نابليون اقل من ١٧٠ سنتيمترا

امام المخابز. ولانه لم يكن يعرف كيف يتحدث مع النساء، تراه يسلك معهن فى صالوناته نفس السلوك الذى كان يسلكه مع جنوده أثناء نوبة من الاستعراض أو التفتيش .. فهو لم يوجه قط لاحداهن كلمة مجاملة رقيقة، وانما كان يسألهن دائما أسئلة محرجة ، أو يخاطبهن بعبارات جارحة . وبلغ من خشونته انه كان يسأل كل واحدة عن عمرها ، وكثيرا ما كان المرء يسمعه يصيح قائلا : « آه!. يا لتسريحة شعرك الكئيبة ! » .. أو : « من ذا الذى جعلك ترتدين ثوبا مثل الشوال ؟ » .. أو : « ان ثوبك هذا قذر جدا ! .. الا تغيرينه ابدا ؟.. لقد رأيته عليك عشرين مرة من قبل ! »

وذات مرة ، خاطب سيدة خجول بقوله : « أليس لك أبناء ؟ آه ..! أننى أعرف تماما أن الذنب ليس ذنبك .. ولكن فكرى فى طريقة تنجبين بها أطفالا . اننى بهذا أسدى اليك نصيحة طيبة ! »



ولا يمكن ان يفسر عدم تفهم نابوليون للاخلاق الا بنقص فى التربية ، فهو لم يعرف غير حياة الثكنات التى نشأته على عادات خاصة فى اللغة والسلوك . وكثيرا ما شوهد وهو يضع يده على صدر جوزيفين، ويستعمل عبارات لا يستعملها المجتمع المهذب . وكانت أسئلته الخارجة تجعله يتلقى ردودا قاسية فى كثير من الأحيان .. ولم تكن لديه المهارة لتغطية هذه الردود ، لانه — وهو رجل التأمل — كانت تنقصه حضور البديهة

وبعد هذه المبارزات الكلامية التى كان يخرج منها وقد انتقص من قدره ، كانت أفكاره العدائية عن المراة تصبح اقوى مما كانت . ومن هنا يمكن أن نفهم سر اضطهاده لمدام دى ستايل ، وآراءه التى كان يصرح بها فى بلاطه

وامام مجلس الدولة .. فهو يعتبر مثلا أن ماحصلت عليه المرأة من حقوق هو من قبيل الاغتصاب الذى لا يحتمل!. وقد ذكر تاليران : « أن المرأة عدوة شخصية لنابوليون » وسأل نابوليون المشرعين قائلا : « ألم تجعلوا المرأة تعهد بطاعة الرجل ؟.. ان عقد الزواج يجب أن يتضمن صيغة الوعد من المرأة بطاعة الرجل والاخلاص له . ويجب أن تعرف المرأة أنها لا تخرج من وصاية أسرتها الا لتدخل تحت وصاية زوجها .. » . بل لقد طلب أن تضاف الى العقد هذه العبارة : « ان الزوجة لا يحق لهما أن تلتقى بشخص لا يعجب به زوجها » . وكذلك قال لاحدى السيدات وهو فى جزيرة سانت هيلانة : « ان المرأة ليست الا ضلعا .. انها خادمة الزوج »

لقد وصل نابوليون الى رتبة القيادة بقسط ضئيل من التعليم .. ان عبقريته وغريزته وحدهما كانتا تقودانه فى شئون الدولة والحرب . وهو لم ينظر الى النساء الا من أجل اللذة ، وكذلك لم تنظر اليه النساء أكثر مما نظر اليهن .. بل لعلهن لم ينظرن اليه حتى من أجل اللذة !

وعلى الرغم من عبقرية نابوليون التاريخية ، فهو لم يقابل قط المرأة التى تناسبه ، ومع ذلك فان عدد مغامراته الغرامية ، يفوق عدد مغامرات دون جوان ، أو كازانوفا ، أو لويس الرابع عشر !





غرام نابليون

قبل زواجه بجوزيفين

أول غرام

ذات يوم ، وصل الى مدينة فالانس فتى فى السادسة عشرة من عمره يرتدى الزى العسكرى ، وكان من المألوف فى عام ١٧٨٥ أن يرتدى الفتية فى هذه السن زى ضباط الملك .. وهو زى سلاح المدفعية

وكان لهذا الشاب لكنة ايطالية ظاهرة ، سيحاول ان يتخلص منها فيما بعد دون جدوى . ومن ناحية أخرى كان اسمه يثير الدهشة فى نفوس السامعين .. ان هذا الضابط الصغير فى سلاح المدفعية الملكى كان قد عين فى فرقة لافير التى تعسكر فى مدينة فالانس ، واسمه الحقيقى «نابوليونى دى بونابارتى» (١) فمن اين يأتى وزير الحربية بضباط المدفعية هؤلاء لجيش صاحب الجلالة ؟ .. يبدو انه يختارهم من الخارج ، وسوف يكون هذا الشاب مثلا لاهالى جزيرة كورسيكا والتى عارض الوزير شوازوى — فيما مضى — ضمها لفرنسا .. كما كان الناس يتحدثون فيما بينهم فى هذه المدينة الصغيرة من مدن اقليم دوفينيه ..

واذا كان الوزير شوازوى قد عارض ضم جزيرة كورسيكا الى فرنسا ، فذلك لان هذه الجزيرة الجميلة لم تكن مبعث آمال كبيرة لفرنسا حينذاك . وكان نابوليون

(١) الاسم باللغة الايطالية

نفسه يرى ان هذه الجزيرة « مازالت وستظل لزمن طويل تكلف فرنسا الكثير من الاموال » . ولم يكن يستطيع ــ اثناء وجوده فى كورسيكا ــ ان يبنى لنفسه أى مستقبل. ولكن هاهو ذا يرى نفسه ــ وهو لا يزال فى سن المراهقة ــ عضوا فى فئة عسكرية تتمتع بامتيازات كبيرة . ومع ذلك ، فهو لم يقدر هذا الحظ السعيد حق قدره .. فقلبه مفعم بألم دفين بسبب حنينه الى وطنه الصغير ، وبسبب فكرته عن العذاب الذى يلاقيه مواطنوه تحت نير الاحتلال .. انه يخدم فى فرنسا ، ولكنه يطمع فى أن يعسكر فى كورسيكا الى جوار أهله . وسببت له حالته النفسية هذه تعاسة كبيرة

وهو الى ذلك لم يكن أثناء وجوده فى مدينة فالانس مشغولا بما فيه الكفاية .. فالوقت الذى يستغرقه عمله لا يسد كل فراغ أيامه الطويلة ، فما بالك بالليالى ؟ وهو يكتشف أيضا بعد الانتهاء من اليوم الدراسى انه يجهل الكثير من الاشياء ، على الرغم من نهمه الطبيعى للمعرفة. ولذا نراه يطلب من بائع الكتب مؤلفات مارك أوريل لقراءتها ، ويطلب أيضا من مجتمع فالانس ان يمنحه ذلك التوجيه الذى حرم منه فى كلية باريس وفى كلية بريين العسكرية . وعلى اية حال ، فقد لزمه ــ كى يندمج فى مجتمع فالانس ــ ان يستفيد من وساطات ذوى النفوذ .. وساعده على ذلك زملاء من امثال سوربييه ، الذى كان يعيش حينذاك عيشة الامراء

ونظر الناس حينئذ الى نابوليون وكأنه رجل غامض يثير الفضول ، فقد كان قصير القامة ، حليق اللحية ، شاحب الوجه ، نحيل الجسم ، تبدو على وجهه امارات الصرامة والاصرار .. وكانت له شفتان قاسيتان مضمومتان لفرط الانتباه ، وعينان ثاقبتان فاحصتان ، وصوت

عميق ذو رنة غريبة . اما كلامه فكان نادرا ، فاذا ما تحدث جاء حديثه جافا مختصرا ، وكان وعر الطبع صعب المعاشرة

واخذ الضابط الشاب يتردد على صالونات مدينة فالانس ، واستقبلته الكونتيسة دى تورنان ونخبة من السيدات الاخريات ، وكان يجد متعة كبيرة فى لعب القمار والمخاطرة بمبالغ ضخمة كانت تصل الى خمسة ملايين من الفرنكات (١) ، كما كان يحب الطعام الشهى ويشترى الكتب ، ويشترك فى الولائم الصاخبة وحفلات الرقص .

وفى احدى هذه الحفلات ، قابل « ايما » أول فتاة خفق لها قلبه بالحب .. ولكنه كان حبا مقيدا تعسا يكتنفه كثير من الغموض .. اذ ان نابوليون لم يتحدث عنه ، وهو الذى كان يحب ان يتحدث كثيرا فى مثل هذه الامور

شاهد الملازم الثانى ، نابوليون بونابرت ، «ايما» ذات ليلة فى أحد هذه الصالونات ، فأحبها على الفور .. بل يبدو انه فكر فى أن يتزوجها . واضطر الضابط الى ان يكتب اليها ليعبر عن مشاعره ، اذ لم يستطع أن يراها ويتحدث معها على انفراد . وطلب منها أن تقابله « بعيدا عن الاصدقاء » ، وان تحكم حكما عادلا على عواطفه نحوها . واختتم خطابه قائلا : « طاب مساؤك يا «ايما» .. وارجو ان تضعى فى اعتبارك انه لما يحزننى كثيرا ان يحمل الى ردك اخبارا سيئة »

ولم تقتنع «ايما» ، ولكن نابوليون دافع عن حبه لها ..

---

(١) اى ما يساوى خمسة آلاف جنيه .. والارقام المالية التى سترد فى هذا الكتاب محسوبة بسعر الفرنك الحالى .

فترددت واخذت تتحدث عن آلامها ومتاعبهـــا ، وعن المشاكل الاجتماعية والعائلية التى تنتظرها من جـــراء ذلك .. وطمأنها بأن العواطف الجياشة الصادقة لا يمكن ان تكون مصدرا للالم فى يوم من الايام . وكان مما كتبه اليها : « اجيبى على يا «ايما» بأن قلبك يتجاوب مع قلبى، وبأنك تهتمين بأمرى وتكافحين من أجلى .. فليحكم قلبك وسأخضع أنا لحكمه .. »

ولكن الحاحه بدأ يثير الفتاة الشابة .. فبعد ان كانت تظهر عدم اكتراثها به ، غدت تغضب وتثور فى وجهه.. وكانت هذه « كارثة كبرى » بالنسبة له ، فهو لم يكن يطمع فى شىء الا أن يعجبها .. بل لعله كان يفضل عـــدم اكتراثها على غضبها . ولكنه راح يؤكد لها اخلاصه وحبه الطاهر الذى ينبع من أعماق قلبه .. ان قلبه لا يمكن أن يخطىء ، ومهما يكن من امر فسوف يكون دائمـــا سعيدا بخدمتها !

وصمتت ايما ، وبدأ صمتها يثير فى نفسه اليأس .. فأعاد الكرة مستفسرا منها عن مشاعرها نحوه ، وسألها عما اذا كان قد أخطأ لانه احبها ؟ .. انه لا يمكن ان يتصور انها لا تهتم بسعادته وبشقائه : « هل أنت قاسية يا ايما الى هذه الدرجة ؟ .. هل وهبت قلبك لغيرى ؟ .. اننى لا أطلب منك سوى أن تحبى قليلا ذلك الذى يحبك حبـــا يفوق كل وصف ، فدعينى اقرأ ما يدور فى نفسك .. »

وفى هذه المرة ، كتبت اليه ترجوه ان يكف عن الكتابة اليها ، بل يبدو انها هددته بافشاء سره ، لان خطاباته قد عكرت عليها صفو حياتها . وحينئذ امسك الضابط الصغير بقلمه للمرة الاخيرة ، وطلب منها الا تنفذ وعيدها ، فهى « طيبة بدرجة لا يمكن معهـــا أن تقـــدم على اذلاله .. »

وطلب منها ايضا ان ترد اليه خطاباته التى تثير فى نفسها كل هذا الاشمئزاز

وهكذا انتهت قصة اول حب لنابوليون حتى قبل ان تبدأ

ويمكننا ان نتصور اليأس الذى أصابه ، فجعله يفكر فى الانتحار .. لقد عاد الى مسكنه فى مساء اليوم التاسع من مايو عام ١٧٨٦ لكى يفكر فى حياته ، ويستسلم ــ على حد قوله ــ لاحزانه العميقة ، وليرى « الى أى اتجاه تتجه احلامه ؟ .. هل تتجه نحو الموت ؟ » .. كلا ، انه لايزال فى « فجر شبابه » ويأمل أن يعيش طويلا ، فما الذى يدعوه الى تحطيم نفسه ؟ ..انه يكره « الجبناء والسفلة والمنافقين » من الناس ، ويفكر فى مواطنيه الاعزاء الذين يقضون لياليهم بين « أذرع زوجاتهم المخلصات » . ومع ذلك فهو يحس بالضيق والالم .. فالحياة ثقيلة الوطأة على نفسه .. انه لا يتذوق شيئا مما تنطوى عليه من سعادة وهناء ، ويلمس الشقاء فى كل شىء .. انه فى سن الحب ، ولكنه لا يقابل سوى الكوارث والازمات .. »



أيام المرح والشباب

لم يدم يأس نابوليون طويلا .. فهناك صالونات أخرى فى مدينة فالانس ، وآنسات كثيرات يترددن على هذه الصالونات .. حقا ان اصغرهن سنا واكثرهن شهرة يفضلن عليه الزملاء المعروفين مثل سوربييه ، الذى يمتلك عربة وجيادا .. ولكن الاخريات لا يمكن ان يرفضن اطراء ضابط شاب من ضباط المدفعية !

وسرعان ما سرت الشائعات بأن نابوليون يحلم بالزواج من الآنسة « لوبرى دى سان جرمان » وفى الوقت نفسه اخذت آنسة أخرى ــ هى « كارولين جريجوار » ــ تزعم ان الملازم الثانى يطمع فى أن يبنى معها عشا سعيدا !

ولكن هذه الادعاءات جاءت فى وقت متأخر ، ولاسباب سياسية .. فقد أصبحت الآنسة لوبرى دى سان جرمان ــ فيما بعد ــ مدام باشاسون دى مونتاليفيه : زوجة لوزير ، وكونتيسة من عهد الامبراطورية . وكان من الطبيعى ان تدعى انها قد اشعلت الحب فى قلب اشهر ابناء مدينة « اجاكسيو » .. ولكن مثل هذه الاقوال ، لم يكن لها من دافع فى الحقيقة سوى اقناع الناس بأنها تتمتع بسلطان كبير لدى الامبراطور ، ولكى تؤثر أيضا على قلب زوجها الوزير ، الذى كان من ابناء مدينة فالانس .. !

وهذا نفس ما اذاعته عن نفسها الآنسة كارولين جريجوار، وكل ما هنالك انها كانت اكثر تحفظا من زميلتها ..وهى تشبه بطلات جان جاك روسو ، الذى كان نابوليون متشبعا وقتئذ بآرائه وافكاره .. !

وكارولين هذه تمثل أيام المرح والشباب بالنسبة للضابط الصغير ، فهى التى عوضته عن قسوة الاخريات .. وكان والدها ـ السيد جريجوار دي كولومبييه ـ يملك أرضا لا بأس بها ، ولكنه لم يجد زوجا لابنته كارولين .. ومن ثم لم يكن هناك من أمل له بعد وفاة زوجته الا ان يزوج ابنته ـ التى سترثه يوما ـ من ضابط فقير قد يغريه المال !

وبالطبع لم ترفض كارولين مغازلة الضابط الكورسيكى الشاب . وفى فصل الربيع والصيف ، جمعت المواعيد بين كل منهما .. وكتب البطل عن هذه المقابلات أثناء اسره الاخير يقول : « لم يكن هناك من هو اكثر طهرا منا ، اننا كنا نرتب مواعيد اللقاء ، ولا زلت اذكر موعدا من هذه المواعيد .. وكانت كل سعادتنا تتلخص فى اننا كنا نأكل الكريز معا » . ومع ذلك ، كان نابوليون من الحرص بحيث لم يغامر بطلب يد كارولين ، ذلك انها كانت تقرب من سن والدته .. !

ومن الغريب ، ان بونابرت قد رد الى هذه الفتاة ـ وهو فى قمة المجد ـ ما كانت قد منحته اياه من مال ، وشاءت المقادير ان يرد اليها ذلك المال بفرنك نابوليون الذهبى ! .. فهى لم تنس ان تذكره بنفسها حينما اصبح فى مركز يسمح له بتوزيع العطايا ، وكانت قد تزوجت من ضابط سابق يدعى كارامبيل بريسبو . وكتب قنصل

فرنسا الاول الى مدام كارولين بريسبو يخبرها بأنه سوف يراها مرة اخرى ، وبأنه سيلحق زوجها باحدى الوظائف .. وهكذا لم يكن لـ « كارولين » ان تندم على بعض المواعيد البريئة التى مكنتها من ان تحصل لنفسها من الامبراطور على لقب باروتة ، ولزوجها على وظيفة مريحة فى ادارة الغابات .. انه الحصاد بعد أيام أكل الكريز !



الاديبة السويسرية

فى عام ١٧٨٦ ، رحل نابوليون الى مدينة ليون مع آخر مجموعة من فرقته حيث دخلت امرأة أخرى فى حياته هناك ..

ففى مدينة ليون ، قابل امرأة تكبره سنا بكثير ، ولكنها على حد قوله لا تزال قادرة على اثارة المشاعر المتأججة فى النفوس .. اما هذه المرأة فهى الاديبة «ماري آجيبيه» ، السويسرية المولد . وكان نابوليون يطمع حينذاك فى ان يكون لنفسه مركزا ممتازا فى عالم الادب .. ومن ثم فقد فتنته هذه المرأة الكريمة ..

وبدأت قصة هذا الحب حين أصيب نابوليون بالحمى ، فاعتنت به ماري آجيبيه ، وكان يسكن عندها .. واظهر لها نابوليون عرفانه بالجميل ، وتعلقت ماري من ناحيتها بمريضها الشاب الذى استعاد صحته سريعا ولكن روايتها التى لاقت نجاحا هى تلك التى كتبتها فى اغسطس عام ١٧٨٦ وهى مع عشيقها الكورسيكى الشاب « نابوليون » فى مدينة ليون !

وقد رأى كل منهما الآخر مرات عديدة ، وكانا يتبادلان الرسائل بانتظام .. وكان نابوليون يطلب منها الا تهمل الاحتفال بعيد ميلاد حبهما ، وأن تفكر فيه من بعيد .

وظلت مارى من ناحيتها مستمرة فى عطفها عليه . ونحن نجد عدة هبات مالية مقيدة باسمها على دفعـــــات فى الحسابات الخاصة بامبراطور فرنسا ، وهى هبات لا تقل بأى حال عن مليون ونصف مليون من الفرنكات(١) هذا فضلا عن معاش سنوى قدره مليون وثمانمائة فرنك !



(١) أى ما يساوى ١٥٠٠ جنيه

الوارثة الطموح

فى بداية شهر سبتمبر ١٧٨٦ م . غادر الملازم الثانى نابوليون بونابرت فرنسا متجها الى أجاكسيو فى جزيرة كورسيكا لقضاء أجازة مدتها ستة أشهر .. ويمكننا ان نتصور مدى سعادته برؤية وطنه العزيز من جديد،ولكننا نجهل ما اذا كان قد بدأ يثير الاعجاب حينئذ فى قلوب فتيات « أجاكسيو » الجميلات . ويبدو أن سببا جديا قد احتجزه فى مسقط رأسه ، انه يطلب ــ فى نهايةعطلته هذه ــ أن تمد أجازته ستة اشهر أخرى .. !

وأخيرا ــ بعد عام من الراحة ــ ركب السفينة عائدا الى فرنسا . ومع ذلك ، لم يعد الى فرقته على الفور ، وانما توجه الي باريس ، حيث تقدم الى قصر فرساى كصاحب حاجة . وأقام أثناء ذلك فى أحدفنادق العاصمة، وهو فندق شاربورج بشارع سانت أونوريه ، وكان يتردد كثيرا على المسارح التى يعشقها ، ويروح ويغدو تحت « بواكى » شارع الباليه رويال ، حيث يتسكع كل يوم عدد كبير من بائعات الهوى . وبعد عودته الى فندقه فى الليل ، كان يفتح كراسته ليدون فيها مذكراته ،ويسجل بها مشاعره وأفكاره عن الحب . وفى يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٧٨٧ ــ وكان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره ــ لم يتردد فى ان يدون فى كراسته وصفا جريئا لليلة

قضاها فى اليوم السابق ، وكانت بطلتها عاهرة صغيرة من مدينة نانت !

***

ومن باريس اتجه نابوليون مرة أخرى الى أجاكسيو حيث أقام هناك سنة أخرى ، فهل كانت وراء ذلك مغامرة غرامية لا نعرفها فى جزيرة كورسيكا ؟ .. الواقع ان أحدا لم يتحدث عن ذلك ، ولكن قد يكون هذا صحيحا ..

وحينما عاد نابوليون الى فرنسا فى يونيو عام ١٧٨٨ ، توجه على الفور الى وحدته التى كانت معسكرة فى مدينة اوكسون باقليم بورجونى ، وبذلك بدأ الجزء الثانى والاخير من حياته العملية .. وكان الجزء الاول قد استغرق مدة ستة أشهر بوصفه ملازما ثانيا ، أما ذلك الجزء الاخير فقد دام مدة خمسة عشر شهرا بوصفه ملازما أول . وامضى بضعة اشهر فى الخدمة فى عام ١٧٩١ .. وبذلك انتهت مدة تدريبه العسكرى والفنى ، وعلى الرغم من قصر هذه المدة ، الا ان عبقريته الكبيرة فى رسم الخطط العسكرية كانت واضحة

وفى مدينة اوكسون ، اقام نابوليون عند صاحب حانة يدعى دومان ، وكان يتناول طعامه مع زملائه ، وهو طعام شهى كثيرا ما تذكره بشوق أيام المنفى . وكانت اعماله العسكرية محدودة حينذاك .. ومن ثم كان يقضى وقت فراغه الكبير فى القراءة والتردد على صالونات مدينة اوكسون المتواضعة ، وفى لعب القمار ومغازلة الفتيات .

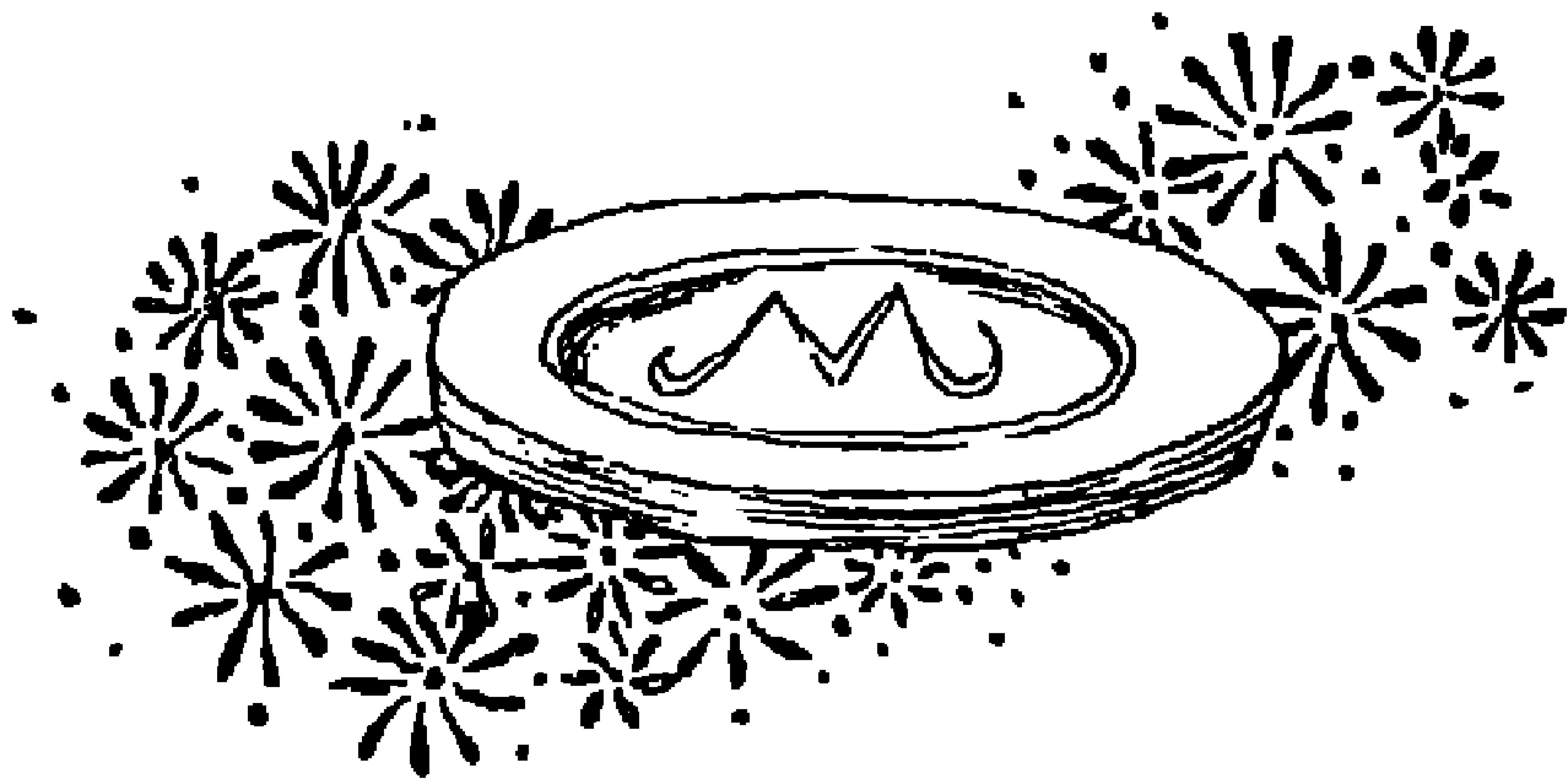
ومن بين تلك الفتيات ، كانت هناك فتاة تكبره بست سنوات تدعى ماريا مرسيريه . كانت لطيفة صغيرة الجسم ، تزوجت آخر الامر من رجل يدعى بابريه ، وظلت تحتفظ حتى وفاتها فى عام ١٨٤٢ م بخاتم من الفضة ووشاح

من الحرير ، تذكارا لحب الملازم نابوليون بونابرت لها ..

وكما فعل نابوليون فى مدينة فالانس ، نراه يحاول هنا ان يربط حياته بحياة فتاة ثرية . وقد اكتشف هـذا « الزواج المفيد » ـعلى حد قولهـ فى شخص مانسكابيليه الشابة التى اشتهرت بأنهـا اغنى الوارثات فى مدينة أوكسون ، وكانت جميلة رقيقة طويلة القامة

وغازلها نابوليون ثم تقدم لطلب يدها ، ولكن طلبـه قوبل بالرفض ، فالوارثةالطموح لم تجد فىالملازم بونابرت مايوحى بانه قد يصل الى درجة عالية فى الجيش ، ومن ثم لم يكن بالنسبة لها الزوج الجـدير بها .. اما والدها السـيد شابير ، فلم يكن يريـد لابنته زوجا لا يملك الا «الزى والسيف»

اذن فقد رفض بونابرت .. ولم يبق من هذا الحب سوى «فيشة» عاجية من فيشات القمار ، حفر عليهـا نابوليون بعناية اسم مانسكا ذات مساء . ولم تظهر مانسكا قط فى حياته حينما وصل الى قمة المجد ، والسبب هو أن نابوليون لم يكن يحب ان يرى أمام عينيـه اى أمارة تذكره بفشله !



مدام بربور

كان نابوليون يعترف بجميل النسوة اللاتى بادلنه العواطف الطيبة أيام شبابه .. وقد حدث ذلك بالنسبة لكارولين جريجوار . ومما قاله أحد أمنائه : « ان نابوليون كان لا ينسى قط من أبدوا عطفهم عليه قبل ان يصل الى قمة المجد »

وفى ابريل من عام ١٧٨٩ ، كان نابوليون موجودا فى مدينة سور ، وهى مدينة صغيرة كان الاضطراب قد عمها بسبب نذر الثورة ، فانتقل ضابطنا الشاب الى هناك مع زملائه . ولما وصل اليها ، كانت القلاقل قد انتهت فى المدينة .. ولكن الجو كان لا يزال ينذر بوقوع قلاقل أخرى .. فكان لابد ان يبقى هناك بعض الوقت ..

وتوالت الملذات هناك فى وفرة ، ما بين حفلات للرقص وحفلات للاستقبال ، واخرى للمرح والصخب . ولاحظ بونابرت ان نساء هذه المنطقة « يولين العسكريين أعظم تقدير » . ولم يكن له منافس فى الحب سوى ضابط واحد ، ومن ثم كان الباب مفتوحا أمامه على مصراعيه . وفى يوم عيد الفصح ، وجه اليه صاحب المنزل الذى ينزل فيه دعوة لحضور حفل من هذه الحفلات ، وكان الرجل محاميا ثريا . ومن الطريف ان نابوليون علق على هذه الدعوة

قائلا : « ومع ذلك فأنا أفضل ان آكل طعام بـــلادى فى مدينة اجاكسيو » . وعلى اية حال ، فقـد كان بالحفل عدد كبير من الفتيات الجميلات ليعوضنه عن « طعام » بلاده . وقد كتب لاخيه جوزيف يقول فى ذلك : « ياللفرصة المواتية ! .. ان الحفلات تقام فى كل مكان ، ويعيرنى الناس اهتماما لا تتصوره ! » . ويضيف الى ذلك : « أن النساء يبحثن عنى ويفخرن بالجلوس الى جوارى » . ولكنـه بالطبع لم يذكر اسم واحدة منهن فى كراسة يومياته أو فى خطاباته

وقصة غرام نابوليون فى مدينة سور غير مشـكوك فى صحتها ، وبطلتها سيدة شابة جميلة ، كانت زوجـــة لموظف كبير فى المدينة . ولمـا كانت هذه القصة معروفة بنتائجها لا بحوادثها ، لذا نفضل روايتها على الوجـــه الآتى :

فى عام ١٨٠٥ ، بعد أن توج نابوليون نفسه امبراطورا فى باريس ، انتقل الى مدينة ميلانو كى يتوج نفسه ملكا على ايطاليا .. ووقع حادث فى الطـريق ، فقد رفض نابوليون آن يمر بمدينة ديجون على الرغم من الحـــاح حاشيته . ودهش رجال البلاط من رفض الامبراطور ، ولكنهم سرعان ما ادركوا أنه لاشك يريد ان يتفادى رؤية الاماكن التى شهدت سوء حظه فى الغرام . وعلى العكس من ذلك ، رحب الامبراطور أن يتوقف فى مدينة سور ، حيث كانت تعيش ـ فى عزلة تامة ـ سيدة الحت فى أن يؤذن لها بالمثول بين يدى عاهل البلاد

ودون كبير الامناء اسم السيدة فى قائمة طالبى شرف المثول بين يدى جلالة الامبراطور ، وتوقفت عينا نابوليون طويلا أمام اسم هذه السيدة ، التى لم تكن غير « مـــدام بريور » !

وارتسمت على شفتى الامبراطور ابتسامة خفيفة، وقال يخاطب كبير أمنائه :

ـ يبدو أنك تعرف انه قد كانت لى بعض المغامرات حينما كنت أعسكر فى هذا الاقليم ، فاحفظ السر ودعها تدخل .. !

واغلق الباب من خلف السيدة التى كان الملازم بونابرت قد أحبها أثناء اقامته فى مدينة سور . ولم يكن نابوليون جحودا ، فقد تفضل على ابنها الصغير بمنحة تعليمية ، كما منح شقيقها وظيفة كبيرة !



نقطة ضعف !

بعد أن اقام نابوليون شهرين فى مدينة سور ، عاد الى مدينة أوكسون من جديد ، واستأنف فيها لعب القمار وقراءة الكتب .. ودامت اقامته فى أوكسون مدة ثلاثة أشهر ، ثم حصل على اجازة من الجيش ، وسافر فى شهر سبتمبر ليرى أسرته فى أجاكسيو ..

ونحن لا نعتقد انه ذهب الى هناك ليرى أسرته وعشيرته فحسب ، ذلك ان الملازم بونابرت كان ينظر نظرة عالية جادة الى واجباته العسكرية . ولو عرفنا أنه غادر مدينة اوكسون فى شهر سبتمبر عام ١٧٨٦ ، ولم يعد اليها الا فى فبراير من عام ١٧٩١ ، لرجحنا انه كانت هناك وراء هذه الاجازة الطويلة مغامرات نسائية اكثر منها سياسية

كان نابوليون حينئذ قد بلغ العشرين من عمره ، وبذلك دخل فى تلك الفترة من حياته التى سيحلو له أن يتذكرها كثيرا فيما بعد . وقد كان — وهو فى جزيرة سانت هيلانة — يذكر هذه الفترة فى كثير من الفرور ، وكان سكرتيره كولانكور — وهو من أكبر المعجبين بنابوليون والمطلعين على أسراره — يرى فى هذا الفخر بالماضى « نقطة ضعف » فى شخصية اعظم قائد عسكرى عرفه هذا العصر . وقد ذكر كولانكور فى مذكراته التى كتبها عن سيده فى

سانت هيلانة انه كان فى سن العشرين «يلاقى نجاحا كبيرا ولا سيما بين الجنس اللطيف »

وذكر كولانكور ايضا أن نابوليون كان يحب ان يتحدث معه عن سنوات شبابه أثناء عودته بالزحافة الجليدية من موسكو بعد كارثـــة عام ١٨١٢ ، وأنه كان يروى بعض تفاصيل مغامراته الغرامية ، ويـردد فى سرور ان بعض سيدات المجتمع « قد فضلنه » حينذاك على غــيره من الشبان !

وكثيرون ممن كتبوا عن نابوليون ، ينسبــون اليه أنه كان على علاقة بعدة عشيقات أثناء وجوده فى كورسيكا . . ولكننا نود أن نهمل ذلك لعدم وجود أدلة أكيدة ، ولو اننا نحب أن نضيف ان هذه القصص ليست كلها من نســج الخيال فهناك بعض المعاصرين لنابوليـــون ــ وهم أناس جديرون بالثقة ــ شهدوا بقيامه بمغامرات من هـــذا القبيل . ويقص علينا لارى ــ الضابط الجـراح الذى كان يعمل فى جيش بونابرت ، والذى يعد من الثقاة لانه كان يستقى معلوماته من والدة نابوليون ــ يقص كيف ان قائده قد « أثار ذات يوم قلق والدته البالغ بسبب احدى مغامراته الغرامية . » اما بطلة هذه المغامرة ، فهى سيدة كورسيكية هامت به حبا ، وكانت تغار عليه غيرة شديدة ، ومع ذلك ، كان نابوليون متعلقا بفتاة أخرى . . !

وبدأت المأساة حينما علمت المرأة الاولى بخيانة حبيبها ، فقررت أن تنتقم منه ابشع انتقام . . بل لقد نفـــذت بالفعل هذا القرار ودست له السم فى كأس من النبيــذ حينما جاء ليتناول العشاء عندها ، فى اليوم التالى لاكتشاف خيانته . ولم تمض بضع لحظات ، حتى كان الملازم بونابرت يتلوى من شدة الالم . وما كاد الخبر يصل الى والدته

حتى هرعت اليه على الفور وهى فى اشد حالات الانزعاج وقامت له باسعافات سريعة فى انتظار وصول الطبيب ، الذى تمكن أخيرا من انتزاع الضابط الشـــاب من براثن الموت ..

وقد انتزعت هذه المغامرة نابوليون كـــذلك من ملذات الحياة .. ولكن ليس لفترة طويلة !



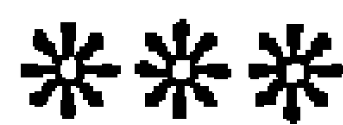
أفكار عن الحب

لما عاد نابوليون من كورسيكا ، توقف قليلا فى مدينة فالانس ، ثم توجه الى معسكره فى مدينة سان فالييه من مدن اقليم دوفينييه .. وكان فى صحبته شقيقه لويس الذى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، وقد أخذه نابوليون ليعيش معه فى المعسكر فترة من الوقت ..

وكان نابوليون يتناول قلمه ليسطر به صفحات جديدة فى كراسة يومياته ، وكان مما كتبه حينذاك : « ان نبات اللبلاب يعانق أول شجرة يقابلها فى طريقه.. تلك باختصار هى قصة الحب ! » . ترى ما هـــذه الذكرى التى كان يحملها فى نفسه عن كورسيكا العزيزة ؟ .. او ما الذى حدث له فى مدينة فالانس ؟ .. وعلى اية حال ، فقـــد تحدث مع نفسه كثيرا عن حاجته الى الحب : « ان الرجل الذى يغادر كورسيكا ليعيش فى بلاد اجنبية ـ بعيدا عن أهله ـ يكون فى حاجة الى علاقة غرامية مافى ذلك شك » .. ويقول : « حقا ان الصداقة تعوض الرجل بعض الشىء .. ولكن الانسان الذى يشعر بالغربة يسهل عليه ان يستمد الحب من عينى امرأة يهفو قلبه اليها .. » .. وهــكذا نرى ان احساسه بالغربة يلهب خياله ، ويذكى فى قلبه حرارة الحاجة الى الحب .. انه يسأل نفسه هذا السؤال : « ما الحب اذن ؟ » .. ثم يجيب عن سؤاله بقوله : « ان

الطبيعة كلها توحي بالحب .. فالحب سيد الانسان سواء اكان ذلك وسط ثلوج ايسلندة أم في لهيب خط الاستواء» .. بل ان الحب فى نظره أكثر من ذلك ، فالرجل لاشيء وهو محروم من الحب ، لانه يعي حينئذ ضعف نفسه وعجزها .. والحاجة الى الخلود تجعل من الضروري ان يلعب الحب دورا في حياة الانسان ..

ولكن الحب ــ كما يضيف بونابرت آســفا ــ ليس السعادة كلها .. « فكثيرا ما يوجه كيوبيد سهاما ماكرة تسمم أحلى انفعالات الغرام . ولكن كلا .. ! فالمرء يجد اللذة أحيانا فى الالم حتى أنه يأبى ان يتخلص منه .. ذلك لان من عادة الانسان ان يتمسك بما يملكه ولو كان باعثا على شقائه .. وهو بعد أن يتذوق نشوة الحب ، يخشى على نفسه من وحدة القلب الرهيبة ! »



وأقام بونابرت للمرة الثانية فى مدينة أوكسون فى المدة ما بين ١٢ فبراير ، ١٤ يونيو عام ١٧٩١ .. وهناك ، وجد فى انتظاره دى مازى أحسن أصدقائه ، وكان يحب فتاة تدعى اريلندا . وعلى الرغم من أن نابوليون كان يشــعر ــ بدوره ــ بالحاجة الى الحب ، الا أن فتيات أوكسون وسيداتها لم يفكرن فى منحه رضاءهن اثناء هــذه المدة القصيرة !

وغضب نابوليون لهذه العزلة التى فرضت عليه .. واخذ يسخط على الحب ويثور قائلا : « اعتقد ان الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الانسان الفردية .. نعم ، انه يسبب من الضرر أكثر مما يسبب من النفع .. وكم يكون جميلا لو تخلصنا منه فيرتاح الناس » .. ونحن نرجح ان تنكره هذا لاقواله السابقة لم يكن الا لغيرته من صديقه دى مازى ، ذلك العاشق السعيد .. ولكن نابوليــون

لا يلبث أن يعود الى كراسته ليدون فيها من جـــديد :
« انه بدون المرأة ، لاتكون هناك صحة ولا سعادة » ..
بل انه يريد ان يعلم العزاب فيقول : « ان مسراتهم ليست
هى المسرات الصحيحة » .. ويسخر من أولئك الذين
يعتقدون ان فى وسعهم ان يعيشوا بدون امرأة ، مؤثرين
اشباع لذتهم بنساء الاخرين ، قائلا : « يجب علينـا أن
نضحك من الذين يدعون ان الكمال يكمن فى العزوبيـــة
فوجود المرأة ضرورى للتطور وتكوين الجنس البشرى »



زوجة القائد العام

كان بونابرت قلما يعيش فى معسكره ، فقد كان يأخذ اجازات كثيرة .. وبعد ان حصل على رتبة مـلازم أول خلال فترة اقامة قصيرة قضاها فى مدينة فالانس ، نراه يأخذ اجازة جديدة مدتها سنة ، فيقضى شطرا منها فى كورسيكا ، والشـطر الاخر فى باريس ..

وكانت الثورة حينذاك تكبر وتتسع .. وقد هجر كثير من النبلاء مراكزهم فى الجيش ، وترتب على ذلك وجود كثير من المناصب الخالية ، مما أدى الى ان يظفر بونابرت ـ بسرعة ـ برتبـة « كابتن » .. وهاهو ذا يذهب من جديد الى كورسيكا ، فلا نراه فى فرنسا بعد ذلك الا بعد تسعة اشهر

ومن الصعب على المرء ان يتابع حياة نابوليون الغرامية خلال سنوات الثورة ، فهو لم يشترك فى الصراع الوطنى ضد الغزاة حينما كان وطنه فى خطر ، ونلاحظ انه كان حينذاك فى اجازة منتظمة على الدوام .. بل ان المعـارك المجيدة التى كانت دائرة فى فالمى وجيماب لم تحظ منه بأى جانب من الاهتمام ، والمرء يراه تابعـا لكورسيكا العزيزة اثناء الاخطار الشديدة التى كانت فرنسا تتعرض لها فى تلك الايام . واخيرا ، غادر نابوليون كورسـيكا فى

يونيو من عام ١٧٩٣ ، حينما طرده مواطنوه بعد ان هددوه بالموت . وفى هذه المرة ، لجأ الى فرنسا مصطحبا معه أسرته ، ومنحته فرنسا هو وعائلته مسكنا محترما ، وفتح له الجيش أبوابه من جديد ، وهكذا نرى الحظ يدفعه دفعات قوية .. !

وبعد ذلك بقليل ــ وبدافع من نشاط بارا وقوته الدافقة ــ بدأت العملية الكبرى التى كانت تهدف الى اعادة غزو قاعدة طولون . ونلاحظ ان بارا ــ الذى كان يجعل من نفسه منذ ذلك الحين حاميا لبونابرت ــ سوف يمنحه فيما بعد رتبة جنرال ليقود سلاح المدفعية فى حملة ايطاليا . ولكن كان على نابوليون قبل ذلك ان يلفت اليه نظر بارا ، ومن اجل ذلك كان لابد له من ان يتعرف على الجنرال كارتو ، الذى كان يقود الجيش فى حصار قاعدة طولون . ولم يكن الجنرال كارتو شيخا ــ كما يدعون ــ فقد كان فى الثانية والاربعين من عمره ، حاملا لوسام فرسان سان لويس ، ولم يجانبه التوفيق قط فى رسم الخطط العسكرية . ومن ناحية اخرى كان واقعا تحت سيطرة امراة قوية الشخصية هى زوجته ، التى كانت قد تمكنت بجمالها من قلب هذا القائد العام ، حتى أن كثيرا من الاوامر العسكرية التى كانت تخرج من القيادة العامة ، كانت تأتى بوحى من تأثير هذه السيدة ونفوذها!

وسرعان ماااكتشف بونابرت الطريق الموصل الى الجنرال كارتو ــ هذا الوسيط الهام ــ فقد ادرك على الفور انه يجب ان يظفر برضا زوجته الجميلة ، فيتسنى له ان يتميز على غيره ويرتفع الى رتبة القيادة العامة . ومن ناحية اخرى ، فان اطراء سيدة حسناء كهذه لم يكن بالشىء الثقيل على قلب الضابط الشاب .. !

كانت «كاترين اورسولا» زوجة القائد العام سيدة

باريسية فى الثـــانية والثلاثين من عمرها .. وسرعان ما أعجبت بالضابط العصبى الشاب . وقد لام الكثيرون نابوليون لعلاقته المغرضة مع بعض زوجات رؤسائه على الرغم من تظاهره بالاتزان . ولكن من العدل ان نذكران زوجة كارتو قد شغفت به حبا .. فقد زكته ضد مشيئة زوجهـــا وبذلك جعلته يضـــع قدميه على أولى درجات المجد . وانتهى الامر بالجنرال كارتو ان غادر قيـــادة الجيش المعسكر أمام قاعدة طولون ليتسلم قيادة حملة ايطاليا .. !

وبعد ذلك بعامين ، وقف الجنرال كارتو موقفا مائعا من القلاقل التى وقعت فى يوم ١٣ فوندمير (١) . وفى ايام حكومة القنصلية ، منحه بونابرت قيادة عظيمة فى هولندا ، ثم عينه مديرا لليانصيب الوطنى ، ومنحه معاشا سنويا قدره مليون وثمانمائة الف فرنك ، وهو ضعف المعاش الذى يتقاضاه عادة من يحملون رتبة «جنرال »

ولم يكن ذلك كل شىء .. فقد ذكرت كاترين، نابوليون بنفسها عدة مرات حينمـــا أصبح امبراطورا . وتذكـــر الامبراطور السيدة الجميلة التى كان يغازلها عند قاعدة طولون حين كان ضابطا صغيرا . ولم يحدث قـــط ان ردها خاليـــة الوفاض فى أية مرة ذهبت اليه .. وكان يمنحها فى كل مرة مبالغ تتراوح بين مليون ومليونين من الفرنكات ، ومنحها ذات مرة مبلغا يساوى الان ماقيمته خمسة ملايين وأربعمائة الف فرنك ..

لقد كانت هذه « المنح الصغيرة » بمثابة تذكارللماضى .. هذا عدا المعاش السنوى الدائم والمرتبات الضخمة .

---

(١) شهر من شهور الثـــورة الفرنسية

وحينما توفى الجنرال كارتو فى ربيع عام ١٨١٣ ، حصلت كاترين حينذاك على معاش يبلغ ضعف ما تحصل عليه زوجة أى قائد عام .. ذلك لأنها كانت قد شغلت حبا بنابوليون حين كان ضابطا مجهولا منذ عشرين عاما مضت !



مارجريت

فى اليوم التالى لاعادة الاستيلاء على قاعـــدة طولون حصل بونابرت على رتبة جنرال ، وعين ـ بواسطة بارا ـ قائدا لفرقة المدفعية فى حملة ايطاليا . وكان نابوليــون يطمع بعد ذلك فى التقرب من عالم السياسة ، اذ لم يكن هناك طريق اخر اكثر ضمانا للوصول الى مركز القيادة العليا . وفى ذلك الوقت ، كان بعض اعضاء حكومة المؤتمر يشرفون على حملة ايطاليا بالاشتراك مع ممثلى الشعب ، وجاء من بينهم ريكــورد ، وكذلك شقيق روبسبـــيير الشاب ..

وكان من الصعب على بونابرت أن يسير قدما فى طريق المجد اذا اكتفى بالدوران فى فلك دومربيون القائد العام لحملة ايطاليا ، الذى كان رجلا بسيطا لايعرف الدسائس ، ولا يقابل نواب الشعب الا فى القليل النــادر . وسرعان ما اتيحت الفرصة امام بونابرت للاتصال بنواب الشعب بدلا من دومربيون ، وكان نابوليون يأمل فى أن يحل محل دومربيون فى مركز القائد العام ، وكان يعرف ان أحسن الطرق لتحقيق أمنيته ـ وربما اقواها أيضا ـ هو طريق النساء . وكان هدفه أن يستأثر بثقة شقيق روبسبير ،

معتمدا فى ذلك على ريكورد .. اذن ، لم يبق عليه الآن يصل الى ريكورد هذا ..!

كان جان فرانسوا ريكورد متزوجا ، وكانت زوجته قد جاءت معـــه .. ولم يتوان بونابرت فى تصـــويب « بطارياته » عليها .. وكان ريكورد من أواسط فرنسا ، مثله فى ذلك مثل بارا . وقد ولد فى مدينة جراس عام ١٧٥٩ ، اى انه كان يكبر نابوليون بعشر سنوات .. وكان من حكومة المؤتمر ، ومن ثم فقد كان فى صف الذين طالبوا باعدام الملك لويس السادس عشر ، وكان يتمتع بحظوة كبرى لدى روبسبيير وشقيقه

كان ريكورد قـد تزوج قبل حصار قاعدة طـولون بثمانية أعوام ، من ابنة طبيب جميـلة تدعى مارجريت روسينيولي .. وكانت فى الحادية والثلاثين من عمرها حين تعرف عليها بونابرت . وكانت مارجريت تستسلم لحب شقيق روبسبيير ، لانها كانت بذلك تضمن مصير زوجها وأسرتها .. اذن فلو أن بونابرت توصل الى كسب رضا مارجريت ، فلن يرفض له شقيق روبســبيير أى طلب !

وراح نابليون يتابع مارجريت ويوليهـا اهتماما كبيرا .. فاذا سقط قفازها التقطه لها ، واذا ركبت الحصان امسك بلجامه ، واذا خرجت فى نزهة سيرا على الاقدام سار الى جوارها ممسكا قبعته بيده .. فياله من ذوق، ويالها من رعاية !.. لقد أحسن هذا الشاب الطمــوح التصرف حتى نجح آخر الامر فى ان يظفر عن طريقهـا بثقة روبسبيير وشقيقه معا .. ومنذ ذلك الحين ، نراه يشترك فى جميع الدسائس التى دبرت حتى اليوم التاسع من ترميدور !

ووقعت الكارثة فى هذا اليوم نفسه ، من «جراء قضية اختلاس » .. وبذلك قضى على آل روبسبيير وهدمت مشروعاتهم .. واحس نابوليون نفسه بقلق كبير على مصيره ، لاسيما وان الحكومة كانت قد أخذت تراقب تحركاته المريبة فى ايطاليا .. بل لقد ذهب الامر الى حد انهم نسبوا اليه انه قد اشترك مع روبسبيير الصغير فى اختلاس بعض الاموال . وباختصار ، كان نابوليون مهددا بأن يلقى القبض عليه ثم ينقل الى باريس تحت حراسة مشددة ، ليحاكم هناك أمام محكمة الثورة . أما ريكورد ، فقد قبض عليه مع أول من ألقى القبض عليهم ، ولكن بارا سيعيد اليه حريته ، وسوف نرى ريكورد يشترك فيما بعد فى المؤامرات التى دبرت ضد حكومة الادارة ، وسيلقى القبض عليه من جديد لاشتراكه فى مؤامرة بابوف ، ثم يطلق سراحه مرة اخرى ! .. وفى ايام حكومة الامبراطورية ، سوف يوضع تحت رقابة شديدة على الرغم من علاقته الوثيقة الماضية بنابوليون حين كان جنرالا ، والذى اصبح الان امبراطورا لفرنسا . وكذلك سوف تأمر حكومة لويس الثامن عشر بنفيه لانه كان قد اقترع فيما مضى فى صف الرأى المنادى باعدام لويس السادس عشر

ولكن نابوليون لم ينس مارجريت . ومن بين الهبات الكثيرة التى منحها لها ولاسرتها ، نكتفى بذكر المنحة الاخيرة التى أخذتها فى فبراير عام ١٨١٣ ، والتى بلغت ثلاثة ملايين وستمائة الف فرنك !

ولكن نابوليون لم يرسل الى باريس مقبوضا عليه كما كان متوقعا ، فقد هدأ غضب نواب الحكومة الذين كانوا يحققون فى التهم المنسوبة اليه .. اذن ، فهو لن يواجه محكمة الثورة ولا المشنقة ، وحتى لن يلقى به فى غياهب

السجن. أما ما وقع ، فلم يزد على هذا الحادث البسيط الذى جعل منه الكثيرون مأساة اسطورية : « كان نابوليون يقيم فى مدينة نيس بايطاليا منذ شهر مارس عام ١٧٩٤ . وكان يسكن هناك فى منزل الكونت لورانتى بالقرب من طريق فيلفرانش القديمة . وكانت علاقته بالكونت وزوجته الكونتيسة علاقات عائلية الى حد انه كان يدعو هذه الاخيرة بوالدته . ومع ذلك ، فلسنا ندرى هل كان يخفى من ناحية مدام لورانتى عواطف مشبوبة أم لا ..

« والذى حدث ، ان قرر نواب الشعب القاء القبض على نابوليون فى شهر أغسطس ، ولكن الكونت لورانتى تدخل لصالحه على الفور .. فراح يرجو ويتوسل ، حتى كللت وساطته بالنجاح ، واعفى نابوليون بفضله من هذا السفر الرهيب الى باريس »

واكتفى نواب الشعب بأن حكموا بتحديد اقامته فى منزل الكونت ، حيث يقيم ..

وكان عقابا « جميلا » فقد استمر بونابرت فى تناول وجبات الطعام الشهية مع أسرة الكونت ، التى كانت تتكون ــ عدا الرجل وزوجته ــ من ولد وفتاتين . وكان نابوليون يفضل اميلى ــ احدى الفتاتين ــ التى كانت تشاركه نزهاته تحت اشجار البرتقال ..

وتقدم نابوليون يطلب يد الفتاة .. فهل كان يرغب حقا فى أن تصبح «اميلى» الصغيرة زوجة له ، ام انه كان يقوم بلعبة الغرض منها صرف الانظار عن المرأة الحقيقية التى يحبها : مدام لورانتى ؟ .. ومهما يكن من أمر ، فقد قوبل طلبه بالرفض ، وبررت الكونتيسة رفضها بأن ابنتها لا تزال فى الرابعة عشرة من عمرها ..

وان ما يلفت النظر حقا ، هو ان احدا من اسرة لورانتى

لم يظهـــر فى باريس او فى قصر التـــويليرى ابان حكم بونابرت . بل ان لورانتى لم يحظ من نابوليون باية ميزة او منحة .. وقد عـــلق الكونت على ذلك بقوله : « ان حظوة العظماء لا تمنح الا لاولئك الذين يلحون فى طلبها »



حرب للتسلية

فى اغسطس من عام ١٧٩٤ ، طويت قضـــية الجنرال بونابرت .. ولكنه لم يسترد منصبه كقائد للمدفعية فى حملة ايطاليا . وتم الاتفاق على أن يخدم نابوليون ـ فى صمت وبغير لقب رسمى ـ فى هيئة أركان حرب الحملة، ومع ذلك يعد فى نظر الجميع نائبا لقائد المدفعية الجديد

وكان نابوليون يتوق لأن يتولى ادارة عمليات الجيش .. ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ .. ان نائبى الشعب ساليسيتى والبيت لم يعودا يرغبان فى التعاون معه . وفجأة ، ظهر فى باريس نائب آخر من نواب الشـــعب يدعى لويس تورو وكان ضابطا من الحكام ، ونائبا فى الجمعية التشريعية ثم فى مجلس المؤتمر ..

كان تورو قد تزوج منذ وقت قريب من فتـــاة من مدينة فرساى فى الرابعة والعشرين تدعى «لويز جوتييه» ولما كان يريد ان يهيىء لزوجته رحلة شهر عســـل جميلة على شاطىء البحـــر المتوســـط ، فقد قرر أن يســـافر الى هناك فى « مهمة رسمية » . وفى ٢١ سبتمبر عـــام ١٧٩٤ ، نزل تورو فى بلدة كيرو ترافقه زوجته الجميلة الشابة ، وسرعان ما ظهر نابوليون فى نفس هذه البلدة فى اليوم التالى !

ولم يضع الجنرال بونابرت وقتا ، ونصب شـباكه على الفور حول الوافدين الجديدين . ومن حسن حظه ان المواطنة تورو كانت لطيفة للغاية ، ولم تكـن من النوع المخلص جدا لواجباته الزوجية .. بل لقـد كانت من « السخاء » فى هذه الناحية بحيث تسـببت فى انتحار زوجها بعد ذلك بعدة سنوات . واستطاع بونابرت أن يثير فضولها بقامته القصيرة وشكله الفـريد .. وسره ذلك ايما سرور . ولم ينقض وقت طويل ، حتى كان قد امسك فى يده بزمام الامور فى القيادة العامة !

وبفضل لويز أيضا ، ارتدى لويس بونابرت ـ شقيق نابوليون ـ الملابس الفاخرة ، وهو الذى كان يظـل الى جوار اخيه بلا عمل ، فقد انفقت عليه عشيقة نابوليون وساعدته بالعتاد والسلاح حتى أنعم عليه فجأة برتبـة ملازم فى المدفعية !

وذات يوم ، اراد نابوليون ان يسلى عشيقته ، فلجأ الى طريقة غير مألوفة .. فقد جعلها تشاهد حربا صغيرة امر بشنها خصيصا من أجلها . ومن الغريب ان نابوليون هو الذى اعترف بذلك فى مذكراته التى كتبها فى سانت هيلانة ولنقرأ ما كتبه فى ذلك :

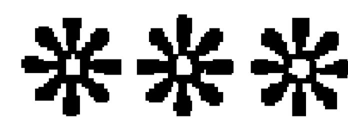
« كنت حينذاك شابا حديث السن .. كنت سعيدا وفخورا بنجاحى فى هذا الحب الصغير . ومن ثم فقـد حاولت ان أعبر عن سعادتى بكل ما أملكه من طاقـة . وانتم ولا شـك سـتدركون توا كيف يمكن ان يكون استغلال النفوذ ، وكيف يتعلق مصير الناس أحيـانا بشخص من الاشخاص ولكننى لم أكن اسـوأ من غيرى على أية حال ..

« وكنت اصحب لويز للنزهة فى المراكز العسـكرية

بضواحى جبال تاند . وذات مرة ، خطر لى ان اجعلها تتمتع بمشاهدة حرب صغيرة ، فأمرت الوحدات الامامية بأن تشن هجوما على العدو ، وكان هذا الهجوم نزوة عابرة ..

وصحيح اننا كسبنا المعركة ، ولكن كان من الممكن ان يؤدى هذا الهجوم الى نتيجة سيئة . وعلى اية حال ، فقد خسرنا فيها بعض الرجال .. »

وأضاف نابوليون بعد ذلك يقول انه كان يلوم نفسه كثيرا على نزواته هذه مع لويز ، كلما عادت ذكراها الى نفسه ..



وقد أثرت لويز مدة طويلة فى حياة بونابرت . ولما صار قائدا عاما لحملة ايطاليا فى عام ١٧٩٦ ، كان يصطحبها معه ـ هى وزوجها ـ وقد انتحر زوجها تورو فى نفس ذلك العام ..

واخيرا هجر نابوليون عشيقته ولم يرها الا بعد ذلك بعدة سنوات .. وعندما رآها كان فى قمة مجده وثرائه وسلطانه .. اما لويز ، فكانت قد أصبحت فقيرة مجهولة، ولكنها افلحت آخر الامر فى المثول بين يدى الامبراطور فى يوم من أيام عام ١٨١٠ ، وكان نابوليون يصطاد فى غابات مدينة فرساى .. وقد ساعدها فى ذلك الماريشال برنييه ، وكان بدوره من أبناء مدينة فرساى

وسألها الامبراطور قائلا :

ــ لماذا لم تذهبى الى اصدقائنا الذين كنا نعرفهم فى الجيش فى مدينة نيس ، كى تصلى الى ؟ فالكثير منهم قد اصبحوا من الشخصيات الكبيرة ، وهم على اتصال دائم بى ..

فأجابته لويز قائلة :

ـ لقد انقطعت صلتى للاسف ـ يا مولاى ـ بينى وبينهم منذ أن أصبحوا من العظماء ، واصبحت انا بائسة . .

وسر نابولبون باجابتها ، وحقق كل احلام عشيقته السابقة ، بل وأكثر من ذلك ايضا . وبعد هذا اللقاء ببضعة أيام ، وقع على مرسوم امبراطورى بمنح لويز معاشا سنويا أمبراطوريا يساوى ما قيمته اليوم مليون وثمانمائة الف من الفرنكات . ويبدو كذلك انه قد منحها فى العام التالى ـ اثر فترة قضاها فى قصر تريانون بواسطة خادمه الخاص كونستان ـ مبلغا كبيرا من المال يقدر اليوم بسبعة ملايين ونصف من الفرنكات . .

حقا ان كرمه كان يفوق الوصف مع النساء اللاتى لم ترفضن له طلبا !



الخطيبة الصغيرة

تعتبر سنة ١٧٩٥ آخر السنوات التى شاهدت نابوليون شخصا مغمورا . وفى أوائل شهر يناير من نفس هـــذه السنة ، ذهب الى قاعدة طولون لتنظيم حملة ضـــد كورسيكا . ومن هناك ، توجه الى مارسيليا حيث أقام مع شقيقة الاكبر جوزيف بونابرت . وكلن هذا الاخير قد اكتشف فى هذه المدينة فتاة وارثة قبيحة الشكل ، ولكنها كانت على أخلاق كريمة .. فقدم نفسه الى أسرتها على انه الكونت دى بونابرت من ضحايا الثورة ، ولم يصادف ثمة صعوبة فى التقرب من أسرة كلارى هذه ، وكان اهلها من التجار الذين هبط عليهم الثـــراء .. ولذلك كانوا يعشقون كل ماله علاقة بالنبلاء .. وانتهى الامر بأن تزوج من ابنتهم جولى كلارى ..

ولم يكن نابوليون قد حضر حفل زفاف شقيقه جوزيف على جولى كلارى ، ومن ثم فلم تتح له الفرصة لكى يتعرف على شقيقتها الصغرى أوجينى ديزيريه ، التى كانت تحلم بدورها بالزواج ..

أما الان .. فهاهو ذا يهبط ضيفا على شقيقه الاكبر من مارسيليا ، فيجد نفسه وجها لوجه أمام « ديزيريه » . وعلى الفور ، نشأ حب كبير بين الجنرال الشاب وبين

هذه الفتاة العاطفية الصغيرة التى كانت تتعجل الزواج

ولم تكن ديزيريه فتاة متينة الاخلاق ، ولا سيما أن رب الاسرة كان متوفيا .. أضف الى ذلك أن الاخلاق كانت قد بدأت في الانحلال فى عصر الثورة ذاك ، ولم يكن لدى هذه الفتاة أى استعداد للصبر أو لسلوك الطريق العادى الذى تسلكه بقية النساء. وكان نابوليون من ناحيته لايعرف من التجارب غير تلك التى مارسها مع النسوة المتساهلات!

ولم تكن ديزيريه فتاة رائعة الحسن والجمال ، ولكن كان فى وسع المرء أن يلمس فى شفتيها المكتنزتين نهما للحب وأن يرى فى نظراتها شوقا وحنينا الى العاطفة .. فهل سقطت جميع الحواجز بينها وبين بونابرت منذ هـــذا اللقاء الاول ؟ نعم.. والا لما عاد نابوليون الى مارسيليا مرة اخرى فى ربيع نفس هذا العام ، حيث قضى فيها فترة طويلة جديدة ..

ولقد كان نابوليون صريحا حينما ذكر ــ وهو يرقد على فراش الموت ــ أن ديزيريه لم ترفض له طلبا .. بل لقد اضاف يقول : «انها كانت تتسلل خفية الى غرفته لتراوده عن نفسها » . والواقع أنه من الصعب ان يتخيل المرء انه كان كاذبا ، فقد أكد استسلامها له فى كلمات واضحة لا تقبل الشك ، والانسان لا يكذب عادة وهو على فراش الموت ! ..

اما عن بقية قصة حبهما ، فقد اعلنت خطبتهما اثناء الفترة الثانية التى قضاها فى مارسيليا .. ولكن حــدث ان تلقى نابوليون اثر ذلك أمرا باستدعائه لتسلم قيادة جديدة فى جيش الشرق ؛ ولم يكن هناك بد من أن يسافر ــ على الفور ــ لتسلم مهام وظيفته الجديدة

وفى الثامن من مايو عام ١٧٩٥ ، غــادر نابوليون مدينة مارسيليا بعد وداع مؤثر مع خطيبته .. وقد أقسم كل منهما على أن يحب الاخر الى الابد ، وتعاهدا على أن يتبادلا الصور والخطابات . وكــررت ديزيريه تقول له وهو يستقل العربة : « حافظ جيدا على هــذا القســم الذى أقسمته لى »

ولكن هل اســتطاع ان يحافظ على قسمه هذا لمدة طويلة ؟ .. لقد كتب اليها اثناء سفره يقول :

« لقد وصلت مدينة افينيون والحزن يعصر قلبى لفكرة اننى سأظل بعيدا عنك مدة طويلة .. والشىء الوحيــد الذى يمكن أن يخفف من ضيقى وألمى ، هو ان خطيبتى الوفية الطيبة ستفكر فى كثيرا وستحتفظ نحوى بمشاعرها الجميلة ، ولولا هذا لما اصبح موقفى محتملا .. !

« اننى لن أتسلم خطاباتك قبل وصولى الى باريس ، وهذا ما يخفف عن نفسى كآبة الطريق .. فتصرفى بحيث اتلقى خطاباتك ــ على الاقل ــ منذ لحظة وصولى . ولقد منعنى فيضان نهر لادورانس من الوصول الى هنــا قبل ذلك ، وغدا اصل الى مدينة ليون .. وداعــا ياصديقتى الطيبة الحنون ، وتقبلى ذكرى حب سيكون ملكا لك مدى الحياة »

ومع ذلك ، وجــــد نابوليون بعض التســـلية اثناء الطريق !.. فقد عرج وهو فى مدينة فالانس على بيت ريفى وفى عزمه أن يشتريه .. وهناك قابل بعض صديقاته ، حيث قضى بينهن اسبوعا كاملا ، ثم واصل السير عائدا الى باريس

وفى العاصمة ، كان نابوليون يفكر فى خطيبته من وقت

لاخر ، ويبدو أنه لم يكن يفعل ذلك الا لكى يضع نهاية لموضوعها .. فقد كان يمنى النفس حينئذ بآمال عسكرية وسياسية كبرى ، وكان الانتظار يجعله عصبيا على الرغم من نصائح بارا له بأن يتذرع بالصبر ، وكان بارا قد أصبح حاميا له من جديد .. اذن فلم يعد نابوليون يتمسك بالزواج من ديزيريه ، ورويدا رويدا ، قلت المراسلات بين الخطيبين . وكانت من ناحيتها تلومه على ذلك ، خاصة وأن الاخبار كانت قد واتتها بأنه كثيرا ما شوهد وهو يتنزه فى غابة بولونيا فى صحبة احدى ملكات الجمال فى ذلك الوقت ، وهى السيدة تيريزا زوجة تاليان . وكتبت ديزيريه تقول له : « آمل ألا تنسيك نزهاتك فى غابة بولونيا مع مدام تاليان ، خطيبتك الصغيرة الطيبة اوجينى ديزيريه ! »



زواج لم يتم

كان هدف نابوليون واحدا لا يتغير : هو الزواج من امراة ثرية حتى ولو كانت فى سن والدته !.. وهو لم يكف عن محاولة تحقيق هدفه هـــذا حتى خلال الفترة مابين يونيه واكتوبر ، وهى الفترة التى اتيحت له فيها أعظم فرصة فى حياته . ان « الدوطة » الخاصة بجولى كلارى غيرت مجرى حيـــاة شقيقه جوزيف ، فجعلته يعيش فى بحبوحة من العيش بدلا من تلك الحياة البائسة التى كان قد تردى فيها .. فلماذا لا يفعل نفس الشىء ؟

كان بارا يسكن فى ذلك الوقت عند سيدة بدينة فى العقد السادس من عمرها تدعى مارجريت مونتونزيه ، وكان اصدقاؤها يطلقون عليها اسم مارجريت . وكانت مارجريت هذه مشهورة ــ فى بداية حياتها ــ فى عالم الحب والهيام ، فهى قد اسعدت نبلاء كثيرين ايام العهد الملكى البائد ، وتبعت ذات مرة رجـــلا ثريا من رجال المـــال الى جزر المارتينيك ، ثم انفصلت عنه واشـــتغلت مصممة ازياء فى مدينة سان دومنجو ، واخيرا عادت الى فرنسا ..

وفى باريس ، لمع نجمها مرة اخرى فى عالم الغرام .. ولما اصبحت سيدة ثرية حقا ، غيرت من عملها واشتغلت بالمسرح ، وزاد نفوذها فيه حتى صـــارت مديرة لعدة مسارح وفرق تمثيلية فى «روان» و «هافر» و «فرساى» ، كما صارت مديرة لجميع المسارح التابعة للبلاط . وكانت

الملكة ماري انطوانيت تستشيرها فى كل صغيرة وكبيرة من شئون المسرح .. والقى القبض على مارجريت خــلال الثورة ، ولكن حوادث اليوم التاسع من ترميدون انقذت رقبتها من المقصلة .. وكان الفضل فى انقاذها لـ «بارا» . ومنذ ذلك الحين توثقت العلاقة بينه وبينها ، فقدمت له شقة فاخرة فى شارع الباليه رويال ، وكانت تملك جزءا طيبا من هذا الشارع

وكان نابوليون يذهب الى هناك كل يوم لزيارة الرجل الذي يحميه ، ليشكو له الحظ الذى ابطأ كثيرا فى الابتسام له .. ولكن بارا كان يواسيه قائلا : « انتظر ، فسيأتى دورنا لا محالة ! » .. وذات يوم ، اثر شكوى طويلة من نابوليون ، قال له بارا :

ـ هل تريد ان يصعد نجمك بسرعة ؟ حسنا .. اننى سأدلك على الوسيلة ، انها تتلخص فى كلمة واحدة : الزواج .. اننا كنا نفعل ذلك ايام الحكم البائد .. وقد رأيت الكثيرين يفعلونه الان ايضا .. فجميع نبلائنا الذين افلسوا او ولدوا فقراء ، كانوا يتربصون بفتيات التجار ورجال المال الاثرياء .. وكانوا لا يدعون واحدة منهن تفلت .. ولو امهلتنى بعض الوقت للتفكير ، لعثرت لك على واحدة .. اننى واثق من ذلك ..

ولم يكن «بارا» يشك فى ان كلامه هذا يلاقى قبولا حسنا من نفس نابوليون لانه كان صدى لافكاره ..

وذات يوم ، بينما كان الرجلان يتحدثان معا فى شقة بارا ، دخلت السيدة مونتونزيه فى غير كلفة .. وما هى الا لحظات : حتى اخذ ثلاثتهم يتحدثون عن احداث الثورة وقالت مارجريت تحدث بارا وبونابرت :

ـ انكما ستخرجان منها سالمين .. فانتما رجلان ، بل ومن رجال الجيش بالذات . وحينما تنجوان من الموت ، سرعان ما يواتيكما المجد وتفعلان ما تشاءان .. أما نحن معشر النساء المنطويات ، فليس لنا من سند او نصير . اننا معرضات لكل صنوف الذل والهوان ، ومغلوبات على امرنا على الدوام .. وقصارى القول اننا ملك للمنتصر أيا كان ، لاننا لا نستطيع ان نحارب ..

واضافت تقول فى رقة وهى تنقـــل بصرها بين بارا وبونابرت :

ـ آه !.. لو كانت مشيئة الله الكريم قد ارادت ان اكون رجلا ! .. اننى كنت خليقة حينذاك بالا ادعكما تذهبان وحدكما الى خط النار !

فقال نابوليون يسالها فى اهتمام :

ـ هل تعيش سيدتى اذن بغير زوج ؟.. اذ يجب على الاقل ان تكونى واثقة من انك ستجدين من يدافع عنك فى الوقت المناسب .. !

وحينئذ أخبره بارا بأن محدثته هى المليونيرة مارجريت مونتونزيه ، وعبرت مارجريت مرة أخـرى عن عرفانها بالجميل ، فقالت وهى توجه حديثها الى نابوليون :

ـ اننى مدينة له بحياتى .. وانا سعيدة جـــدا لانه تفضل وقبل أن يسكن عندى فهو الذى يحمينى دائما من الصواعق !

فقال بونابرت :

ـ ومن ذا الذى لا يشعر بالسرور من حمايتـــه لك يا سيدتى ؟.. ان المواطن بارا له أصـــدقاء كثيرون ، ويسرهم جميعا ان يتطوعوا مثله لحمايتك ..

فقالت مارجريت وهى تبتسم له ابتسامة عذبة :

ـ الحق أقول لك أنه لما يسعدنى كثيرا ان يكون اصدقاء بارا اصدقائى

واقتربت من نابوليون وربتت على راسه مداعبة فى غير كلفة ، ثم انسحبت خارجة بعد أن وجهت الدعوة الى القائدين لتناول العشاء معها . .

وما ان غادرت الغرفة ، حتى راح نابوليون يستفسر من بارا فى شغف عن مقدار ثروتها بالضبط ، وبعد قليل من الوقت ، ذهب بارا ليجس نبضها من ناحية نابوليون . . فترددت فى بادىء الامر ، ولكنه ما لبث أن تغلب على ترددها . واخيرا حل موعد العشاء ، واجتمع ثلاثتهم على مائدة الطعام من جديد . .

واخذ بارا مكانه الى جوار مارجريت ، بينما جلس نابوليون قبالتها ليقوم صديقه بواجبات التعريف ، ونظر كل من نابوليون ومارجريت فى عينى الاخر . .

وبعد ان فرغ الجميع من تناول العشاء ، بدأ نابوليون ومارجريت فى الاتفاق

ويحكى بارا فى مذكراته انه سمعهما يقولان : « اننا سنفعل كذا . . وكذا . . » . وتحدث معها نابوليون عن اسرته ، وكيف ان « والدته واخواته سيقدرون جميعا سيدة ممتازة مثلها » . . انه سيأخذها معه يوما الى جزيرة كورسيكا حالما تسنح الظروف بذلك ، « فهى بلاد رائعة وجوها جميل ، ويستطيع المرء ان يثرى فيها سريعا . . وقد استطاع الكثيرون ان يضاعفوا فيها رءوس أموالهم المتواضعة فى سنوات قليلة . . » وفكر بارا فى نفسه قائلا : « انهما يبنيان فى كورسيكا قصورا على

الرمال .. » واخيرا ، انسحب فى صمت تاركا نابوليون وخطيبته على انفراد

ولكن هذا الزواج لم يتم ، اذ كان مقــدرا ان تدفع احداث شهر فوندمير بمصير نابوليون سريعا الى الامام، وان يصـــبح ـ بعد فترة وجيزة ـ قائدا عاما لجيش فرنسـا فى الداخل ، فتتفتح امامه آمال اخرى ، وينسى مارجريت .. وهل من المعقول ان يكتفى بزوجة بدينة ، فيجدنفسه مضطرا الى اهمالها او تركها هناك فى كورسيكا كيلا تظهر معه فى باريس ؟

وقد عرف المعــاصرون لنابوليون بمشروع هذا الزواج .. وذات يوم من شهر يناير عام ١٨١٢ ، كان احد الكتاب المشهورين يتفرج مع صديق له من الرسامين على معرض للصور فى شارع الباليه رويال . وتصادف ان مرتسيدة عجوز ، فدار بينهما الحديث التالى :

ـ هل تعرف هذه السيدة ؟

ـ كلا .. من هى ؟

ـ انها مارجريت مونتونزيه ..

ـ آه !.. اليست هى مديرة المسارح ؟..

ـ نعم .. انها كانت فى بادىء الامر مديرة لمسرح قصر فرساى بامر من الملكة مارى انطوانيت . ولما حققت من وراء ذلك ثروة طائلة ، أراد بارا ان يخدم قائدا معينا : فأعد مشروعا لتزويجه من هذه السيدة ..

ـ ومن كان هذا القائد ؟

فهمس الرجل فى أذن صديقه قائلا :

ـ نابوليون بونابرت !



غرام نابليون
بزوجته الأولى جوزيفين

جوزيفين

اذا كان نابوليون لم يتزوج من مارجريت مونتونزيه فى خريف عام ١٧٩٥ ، فذلك لانه قابل سيدة اخرى تصلح لان تكون زوجة له .. برغم انه لم يدخل فى حسبانه أنه سيتزوج من هذه السيدة الاخرى . ولكنها بدأت تستولى على قلبه منذ اليوم التالى لاحداث فوندمير ، ويمكننا ان نقول أن هذه المرأة كان يحتمل ان تغدو الوحيدة فى حياته .. ونحن لا تعنى بذلك انها كانت الزوجة المثالية الجديرة بهذا الرجل الفذ ، فقد كان لها فى اليوم الثالث عشر من فوندمير تاريخ آخر .. !

فمن هى اذن هذه المرأة ؟ ..

انها كانت من خليـــــط فرنسى واجنبى ، وكانت قد جربت من قبل سعادة الزواج وشقاءه حين كان نابوليون لا يزال فتى صغيرا فى كلية بريين العسكرية . وكانت تدعى «روز لاپاجورى » ثم ورثت إسم « الفيكونتيســة دى بوهارنيه » عن اول زوج لها . وفى شهر فوندمير من العام الرابع للثورة ، كانت مدام دى بوهارنيه أرملة منذ اكثر من عام ، لان زوجها الفيكونت الجنرال دى بوهارنيه

كان قد اعدم رميا بالرصاص قبل سقوط روبسبيير بأربعة أيام ..

ان هذه المرأة هى جوزيفين .. وكانت من السيدات اللاتى يترددن دائما على الصالون الاول فى فرنسا .. وهو صالون مدام تاليان ، الذى كان قد اصبح وكأنه بلاط جمهورى آخر .. ولم تكن جوزيفين صغيرة السن أو على جانب كبير من الجمال ، وكان لها ابن وبنتان كبيرتان هما أوجين وهورتانس ، وكانت تحرص على ألا تظهر معهما كثيرا كيلا ينكشف عمرها الحقيقى ، فقد كان من عادتها ـ كما يقول نابوليون نفسه ـ ان تنقص من عمرها الحقيقى اثنتى عشرة سنة ..

فمن اين كانت تعيش مدام دى بوهارنيه ؟ .. وكيف كان يتأتى لها المال الذى يتيح لها الترف الذى كانت تنعم به ؟.. حقا انها لم تكن تعيش مثل علية السيدات فى المجتمع ، ولكنها كانت تحيا حياة لامعة ، فى بذخ ظاهر يوحى بأنها كانت تملك موارد مالية ضخمة .. والواقع أن أحدا لم يكن يعرف مواردها الحقيقية سوى اولئك الذين كانوا يقرضونها المال .. لقد كانت سيدة من النوع الذى يجمع بين فخامة الحياة ، وقلق الاستدانة !

وكان بونابرت رجلا لاخبرة له بهذا النوع من المجتمع الذى كانت تظهر فيه هذه المراة ، ولذا فقد أذهله « لقب الفيكونتيسة » الذى كانت تتحلى به اغتصابا بعد وفاة زوجها ، كما ادهشته مظاهر العظمة التى كانت تمثلها .. ولم يكن يدرى ان هذا كله لا يعدو أن يكون « ذرا للرماد فى العيون » على حد قوله فيما بعد . لقد ظن ـ كما يقول فى مذكراته ـ ان « البريق ينبعث من فضة حقيقية، وان الطلاء ينم عن خشب ثمين » .. لقد نظر اليها على

انها سـيدة من المجتمع الراقى .. وها نحن أولاء نراه يحاول أن يسـعى الى مدام بوهارنيه ، التى سيلقبها بجوزيفين منذ ذلك الحين .. وكانت قد سميت عنـد تعميدها شميث مارى جوزيف روز ، نسبة الى والدها جوزيف ، ووالدتها روز ..

كانت جوزيفين بالنسـبة له سيدة « مغرية » ... لا نستطيع أن نجد كلمة أخرى نصفها بها بهذه الصفة .. وهى من ناحيتهـا كانت متخصصة فى صـيد الرجال العسكريين ، وكان « بارا » من أشهر عشاقها ، وكذلك « الجنرال هوش » .. وسيكون من اشهرهم ايضـا « الكابتن شارل هيبوليت » و « الجنرال مورا » . وكان الجنرال بونابرت ينتمى لهـذه الفئة التى تميـل اليها جوزيفين

وقد تضاربت الاقوال حول موعد بداية قصة هذا الحب .. ولكن الشىء المؤكد ، هو انهما لم يقررا الزواج الا قبل رحيـل الجنرال بونابرت الى ايطاليا بوقت وجيز . وسيحدث بين العشيقين لقاء مؤثر قبل زواجهما بخمسة عشر يوما ، أى ابان المشاورات السرية التى كانت تجريها حكومة الادارة بشـأن تعيين بونابرت قائدا عاما لجيش ايطاليا .. وان ما يلفت النظر حقا ، هو أن نابوليـون سيذكر هذا اللقاء المؤثر فى احـد خطاباته ، وذلك فى صدد الحديث عن « أخطاء » جوزيفين وماضيها الثقيل الوطأة .. ولكن كان ينبغى عليه أن يغفر لها ، فقد كان لهذه المرأة دور كبير فى تحديد مصيره ، فهى التى منحته القيادة الهامة التى كان يحلم بها ، هدية منها مع عقـد الزواج .. ولذا نراه يعود دائما الى جوزيفين الخبـيرة ليركع تحت قدميها وكأنه مذنب صغير !

وبعد . هل كانت جوزيفين جميلة ؟

لقد وصفها معاصروها بأنها الرقة والدلال والفتنة .. وكان فمها جميلا للغـــاية ، ولكن جسمها كان به بعض العيوب ، مثـــل كبر حجم القدمين ، وقصر القامة .. أما بداها فلم تكن تنقصهما الرقة والجمال . وخلافا لذلك ، كان فى وسع أى انسان يراها ان يقدر عمرها بأربعين عاما

اذن فهى اكبر سنا من بونابرت بكثير .. ولكن ها هو ذا « بارا » يحثه على الزواج منها ، فهى تنتمى الى العهد البائد والعهد الحاضر فى آن واحد ، فضلا عن أن زواجه من سيدة فرنسية « سيثبت قدميه » ، وينزع عنه الاسم الكورسيكى ، لانه سيصبح حينئذ « فرنسيا تماما »

وبالاضافة الى ذلك ، كان نابوليون يعتقد انها ثرية .. وقد قال وهو فى سانت هيــــلانة : « اننى لم اتزوج من جوزيفين الا لاننى كنت اعتقد انها على جانب عظيم من الثراء ، وكثيرا ما كانت تردد هى ذلك » . وقد اكتشف بعد ذلك بالطبع انه قد أخطأ التقدير . وعلى اية حال ، فقد كان نابوليون يعتقد انه عقد « صفقة طيبة »

والواقع ان من الصعب على المرء ان يقرر ما اذا كان نابوليون يعدها جميلة . والمرء لا يستطيع أن يستنتج من خطابات الغرام العديدة التى كتبها نابوليون الى جوزيفين انه كان مفتونا بأشياء مثل جمال وجهها وسحر عينيها أو لون شعرها ، وغير ذلك مما يفتن العشاق ، وانما يبدو فقط انه كان معجبا بجسدها ومداعباتها اللطيفة ..

والظاهر انه اكتشف مهارتها فى مسائل الهوى ومداعبات الغرام اثر ليلة حافلة استخدمت فيها جوزيفين كل خبرتها ومواهبها . ولم يكن من ناحيته يشك قط فى انها امرأة مجربة ، فقد كتب يقول لها فى اليوم التالى : « آه .. لقد

لاحظت هذه الليلة فقط انك لست امرأة عادية » . وكتب اليها بعد ذلك بمدة وجيزة : « لو انك كنت اكثر سذاجة واصغر سنا لما احببتك كل هذا الحب ! » ..

ولما تم عقد الزواج ، غادر نابوليون باريس على عجل ليتسلم مقاليد القيادة العليا فى جيش ايطاليا ، فبدأت بذلك هذه السلسلة الخالدة من خطابات الغرام الملتهبة التى بلغت العنف حد الهذيان ... والتى اسهمت فى خلق الاساطير حول قصة حبهما .. ومع ذلك فلنحن لم نطلع على كل هذه الخطابات ، اذ يلاحظ المرء هنا وهناك فجوات زمنية كبيرة تصل احيانا الى عشرين يوما ، بينما اكد نابوليون انه كان يكتب اليها ثلاث مرات او اربع مرات كل يوم ! اما جوزيفين ، فكانت تكتفى احيانا بخطاب واحد من جانبها . ومن ناحية اخرى فلنحن لانملك بين ايدينا النص الكامل الصحيح لكل هذه الخطابات المنشورة، وقد غيرت بعض سطور هذه الخطابات

***

توقف نابوليون فى مدينة شاتيون فى الثالث عشر من مارس عام ١٧٩٦ . وفى اليوم التالى ، كتب الى جوزيفين هذا الخطاب من مدينة شانسو :

« ان كل لحظة تبعدنى عنك ، تجعلنى اقل احتمالا لهذا الفراق .. فان الشيء الذى افكر فيه على الدوام هو انت . واحاول عبثا ان اتخيل ما تفعلين بالضبط .. فاذا رأيتك حزينة ، يتمزق قلبى وتزداد آلامى ، واذا رأيتك سعيدة تمرحين مع اصدقائك ، لا املك نفسى من توجيه اللوم اليك ، لانك قد نسيت بسرعة هذا الفراق المؤلم الذى دام ثلاثة أيام . واقول لنفسى انها مرحة وغير

مكترثة بى ، ومن ثم فهى لا تحس من ناحيتى بشعور عميق .. !

« وكما ترين ، فانه من الصعب ارضائى .. ولكن الامر يختلف كل الاختلاف فى حالة ماذا فكرت فى أنك قد تكونين مريضة ، او حزينة لسبب اجهله .. فحينئذ يتملكنى الغضب لاننى بعيد عنك !

« واذا سألنى احدهم : هل نمت جيدا ليلة أمس ؟ . اشعر - قبل ان اجيب عن سؤاله - بأننى فى حاجة الى خطاب منك يؤكد لى انك مرتاحة فى كل شيء .. ذلك ان المرض وغضب الناس لايؤثران فى نفسى الا اذا كانا سببين لالمك المكروه .. يصيبك !

« ياصديقتى المعبودة .. اننى لا أطلب من عبقريتى التى حفظتنى دائما وسط المخاطر والمهالك سوى أن تحيط بك فى رفق .. ولست اتمنى شيئا قدر ان اقدم لك نفسى مجردة من هذه العبقرية . آه ! لاتكونى مرحة كل المرح ياعزيزتى ، وانما حزينة بعض الشيء . كلا ! .. بل يجب ان تكون نفسك خالية تماما من الحزن ، وان يكون جسمك الجميل خاليا من المرض .. اكتبى الى يا صديقتى الحنون ، واطنبى فى رسائلك .. وتقبلى من أكثر القلوب حنانا واخلاصا « ألف قبلة وقبلة »

وبعد هذا الخطاب ، توجد فجوة زمنية مدتها ستة عشر يوما تفصل بينه وبين الخطاب التالى ، وهو الخطاب المؤرخ فى ٣٠ مارس من مدينة نيس :

« اننى لم اكف عن حبك يوما واحدا .. ولم أتناول قدحا من الشاى دون أن العن المجد والطموح اللذين يفرقان بينى وبين روحى وحياتى . وسواء كنت فى غمرة العمل ، او على راس الجيوش ، أو ممتطيا صهوة

جوادى أطوف به بين معسكرات الجند ، فان معبودتى جوزيفين وحدها هى التى تشغل كل قلبى وتستحوذ على تفكيرى . واذا حدث وابتعدت عنك بسرعة جريان نهر الراين ، فاننى لا أفعل ذلك الا لكى أعجل بلقائك من جديد . واذا استيقظت من نومى فى حلكة الليل لاواصل العمل ، فليس لى من دافع لذلك سوى أن أقدم موعد وصول صديقتى الجميلة بضعة أيام . وبرغم ذلك ، أجدك تخاطبيننى قائلة : « انتم » ، فى خطابك المؤرخ فى ١٣ مارس عام ١٧٩٦

« جوزيفين يا زوجتى المعبودة ! كم من الدول تفصل بيننا ، وكم من الوقت ينقضى قبل ان تصلك خطاباتى .. اننى لا اعرف المصير الذى ينتظرنى ، ولكن شجاعتى ستخوننى اذا ما ابتعدت عنك اكثر من ذلك . لقد كان هناك وقت أفخر فيه بشجاعتى ، وكنت اتصور أعظم الكوارث هولا دون أن اشعر بالدهشة أو يطرف لى جفن أما اليوم ، فان مجرد التفكير فى أن حبيبتى قد تصاب بأذى كفيل بأن يجمد الدم فى عروقى ، فتذبل روحى

« آه ! أيتها القاسية !.. كيف استطعت ان تكتبى هذا الخطاب البارد كالثلج ؟ ثم ، ما الذى كنت تفعلينه فى المدة ما بين الثالث عشر والسادس عشر من مارس اذا كنت لا تكتبين لزوجك ؟

« ان كلمة « انتم » هذه ، وتلك الايام الاربعة التى لم تكتبى فيها الى ، تجعلنى اندم على عدم اكتراثى القديم .. والويل لمن يكون سبب ندمى !.. انه يجب أن يشعر بنفس ما اشعر به من اعذاب وألم ..

« ان روحى حزينة وقلبى اسير ، والاوهام تبعث الخوف فى نفسى .. فأنت تحبيننى بدرجة اقل من ذى

قبلي ، ولعلك تجدين العزاء في صديق ما .. وربما تكفين عن حبي في يوم من الايام .. صـــارحيني بذلك اذن كي اعرف على الاقل كيف اتوقع الكارثة ..

« وداعا يا عذابي وسعادتي وامل حيـــاتي .. وداعا يامن أحبها واخشاها .. يامن توحين الى بأرق المشاعر واشدها عنفا . انني لا اطلب منك حبا ابديا واخلاصـا دائما ، وانما اريد الحقيقة كل الحقيقة ، والصراحة كل الصراحة . وسيكون اليوم الذي تقولين لي فيه : ان حبي لك لم يعد كما كان .. آخر يوم اشعر فيه بالحب أو آخر يوم في حياتي . واذا كان قلبي لا يستطيع ان يكف عن حبك ، فانني سأمزقه بأسناني اربا اربا

« جوزيفين !.. تذكري ما كنت أقوله لك احيانا : لقد وهبتني الطبيعة روحا قوية وعزما لا يلين ، بينما خلقت انت من الدانتيلا الرقيقة والحرير الشفاف . فهل حقا كففت عن حبي ؟.. معـذرة يا روح حيـــاتي ، فنفسي مشغولة بمشاريع كبيرة ، وقلبي ملىء بالمخاوف ..

« وداعا !.. واعلمي انك لو كنت تحبينني أقل ، فمعنى ذلك انك لم تحبيني ابدا .. وحينئذ اكون رجلا يستحق الرثاء ! »

ملاحظة : لقد تغير وجه الحرب تماما في هـذه السنة يا عزيزتي . وقد امرت بتوزيع اللحم والخبز على الجند ، والعليق على الخيول .. وسيمضي فرساني المسـلحون قدما الى الامام .. ان جنودي يمنحونني ثقة لا حد لها .. غير انك انت التي تثيرين أحزاني .. أرسل قبلة لاولادك الذين لا تتحدثين عنهم قط ، مع ان ذلك خليق بأن يطيل خطاباتنا بمقدار النصف ! وداعا يا امرأة ، وأى امرأة !! »

وفي الثالث من ابريل ، تلقى نابوليون عدة خطابات من

جوزيفين ، يبدو ان احدها كان يتجاوب مع مشاعره .. فكتب اليها على الفور هذا الخطاب الملتهب :

« لقد تسلمت جميع خطاباتك ، ولكن احدها لم يؤثر فى نفسى مثل تأثير خطابك الاخير .. ياله من اسـلوب ، ويالها من مشاعر تلك التى تتحدثين عنها !.. انها من نار، ولذا فهى تحرق قلبى المسكين !

« جوزيفين يا حبيبتى الوحيدة .. اننى افقد بهجتى وانا بعيد عنك ، وتصبح الدنيا صحراء موحشة أظل فيها وحيدا بغير متعة .. فبأى فن عرفت كيف تستحوذين على قلبى وكيانى ؟

« ها انذا أحس بأنى اكاد اختنق ..

« جوزيفين .. يامن ساقها القدر الى لتقطـع معى طريق الحياة المؤلم الشاق .. سأتوقف الان عن الكتابة فنفسى حزينة وجسمى متعب .. اننى الان فى يورموريس بالقرب من اونيليا .. وغدا يتحرك الجيشان ويحاول كل منا ان يخدع الاخر .

وسيكون النصر حليفا لمن هو اكثر دهاء واشد مكرا !

« اننى مسرور جدا من غريمى بوليو ، فهو أقوى من سلفه بكثير ، فضلا عن انه يجيد المناورة ، وأتعشم أن أهزمه هزيمة نكراء .. فكونى مطمئنة

« جوزيفين .. أحبينى كما تحبين عينيك .. كلا ،ليس هذا كافيا ، احبينى كما تحبين نفسك ، واكثر من نفسك .. احبينى اكثر مما تحبين روحك وحياتك وأفكارك .. أحبينى اكثر من كل شىء .. اننى اهذى يا صـديقتى المعبودة ! وليس هذا بالامر الغريب ، لان طبيعة الرجل العنيف تكون أحيانا طبيعة ضعيفة

« وداعــا ، وداعــا .. اننى أنام دون ان تكونى الى جوارى .. نعم ، اننى سأنام بدونك .. فدعينى أنم . لقد مضت عدة ليال وأنا اشعر بأنك بين ذراعى ! ياله من حلم جميل ! .. ولكن وا أسفاه ! فحينما استيقظ ، أجد نفسى وحدى بعيدا عنك »

وبعد ذلك بيومين ، تأثر نابوليون تأثرا كبيــرا لوفاة أحد اصدقائه فجأة ، فكتب الى زوجته يقول :

« الساعة الان الواحدة بعد منتصف الليل .. وقــد تسلمت منذ لحظة رسالة مؤلمة تحمــل الى خبر وفــاة « شوفيه » الذى كان قوميسيرا دائما فى رئاسة الجيش .. وأعتقد انك تعرفينه ، فقد كنت ترينه أحيانا عنــد بارا ..

« اننى اشعر بالحــاجة الى من يواســينى وعزائى الوحيد هو ان اكتب اليك .. فأنت وحــدك تستطيعين ان تؤثرى على حالتى النفسية ، وأنت وحدك من اكاشفها بأحزانى .. ماهو المستقبل ؟ .. وما هــو الماضى ؟ .. وماذا نحن ؟ .. اننا نمضى ونموت وسط غرائب المجهول .. فهل من الممكن ان يكون الرهبان والمنجمون والمشعوذون قد استغلوا هذا الغموض الذى نعيش فيه كى يوجهوا أفكارنا وفق أهوائهم ؟

« لقد مات شوفيه ، كان صديقى الحميم .. انه كان يؤدى للوطن خدمات جليلة ، وكانت آخر كلماته أنه خارج ليلحق بى .. ولازلت أرى شبحه يهيــــم امامى وهو يصفر كعادته .. يا للجنون ! .. أذرف الدموع من أجل الصــداقة .. ومن ذا الذى يستطيع أن يمنعنى من أن أذرف دموعا لا تصلح من الامر شيئا ؟!

« جوزيفين ياروح حياتى .. اكتبى الى مع كل بريد

.. فأنا لا أعيش الا بذلك . اننى مشغول للغاية .. فان « بوليو » يحرك جيشه ، وكل منا يقف فى مواجهة الاخر . اننى متعب بعض الشىء لأنى امتطى جوادى طيلة الوقت ..

« وداعا ، وداعا .. اننى ذاهب لأنام .. فالنوم يواسينى لانه يجعلك الى جوارى ، ويتيح لى ان أضمك بين ذراعى .. تحياتى الخاصة الى بارا وتاليان وزوجته »

***

وكانت « جوزيفين » لطيفة معه هذه المرة ، فأجابت عليه بالطريقة التى يحبها ، بل لقد أكدت له انها كتبت الخطاب بمداد من دمها .. ولكنها لم تكن مستعدة بالطبع لمعاودة الكرة ، أما هو فقد استمر فى الكتابة اليها كعادته ..

وبعد فراق دام قرابة شهرين ، أخذ نابوليون يحثها على الحضور اليه لتقاسمه حياته فى مركز القيادة العامة. وكتب اليها يقول :

« انك لم تكتبى الى منذ أيام .. فما الذى تفعلينه الآن ؟ .. اننى لا اشعر بالغيرة ، وانما بالقلق .. تعالى الى بسرعة . اما اذا تأخرت فستجديننى مريضا لا محالة فان التعب وبعدك عنى أمران لا يمكن احتمالهما على الاطلاق

« اتركى باريس واحضرى مع جونو عند عودته .. هل تفهمين ذلك ؟ وان لم يعد على الفور ، فاخبريه بألا يعود أبدا .. يا للكارثة التى تنتظرنى اذا رأيته يعود بمفرده ! ولكنك ستأتين .. أليس كذلك ؟ .. نعم ،

إنك ستكونين هنا بعد قليل .. الى جوارى ، وعلى صدرى ، وبين ذراعى ..

«خذى أجنحة وتعالى سريعا .. نعم ، سريعا .. ولكن سافرى على مهل ،فالطريق طويل وشاق .. تعالى على مهل يا صديقتى المعبودة ، وكونى على اتصال دائم بى عن طريق افكارك ..

« لقد تسلمت خطابا من هورتانس .. انها لطيفة للغاية ، وسأكتب لها حالا ، فأنا أحبها كثيرا .. وسوف أرسل اليها العطور التى تريدها

« اننى لا اعرف ما اذا كنت فى حاجة الى المال .. واذا كان الامر كذلك ، فاطلبى ما تحتاجين من الخى ، فقد أودعت عنده مائتى فرنك من الذهب . أما اذا كنت تريدين توظيف احد ، ففى وسعك أن ترسليه الى ، وسأوظفه فى الحال .. وفى وسع شاتورينو أن يأتى كذلك »

ولم تهتم « جوزيفين » بالامر .. بل لقد كانت تسخر من خطاباته المحمومة ، وتصفها بأنها لا تعدو أن تكون « هذيانا » .. وراح نابوليون يكرر توسلاته ، فكتب اليها فى ٢٩ ابريل يقول :

« جوزيفين يا حبيبتى .. ان مورا ــ الذى سوف يسلمك هذا الخطاب ــ سيشرح لك ما فعلته وما سأفعله . لقد عقدت اتفاقا لوقف اطلاق النار بيننا وبين ملك سردينيا . ولقد كتبت اليك مع جونو ان تأتى معه . ولكن مورا سيصلك قبل ذلك لأنه سيسافر عن طريق تورينو .. وهأنذا الان ارجو منك ان تأتى مع مورا عن طريق تورينو ، لانك ستوفرين بذلك خمسة عشر يوما ..

« اننى أعددت لك مسكنا فى مدينة ماندوفى ، ومسكنا

آخر فى مدينة تورتونى . ومن موندوفى ، يمكنك الذهاب الى جنوا ونيس ، أو الى اى مكان تشائين ·· ان سعادتى أن تكونى سعيدة ، ولذتى أن تشعرى باللذة . ان امـرأة غيرك لم تمنح قط مثل هذا الحب والاخلاص والحنان . واذا لم يكن الامر كذلك بالنسـبة لك ، فياللطامة الكبرى ! .. حينئذ سألعن عمى بصيرتى . ولن يفتح قلبى بعد ذلك لاى شعور بالسرور أو الحب ·· ان حيـــاتى ستصبح حينئذ حياة مادية حسية لا روح فيها ولعلنى أوفق فى لقاء الموت فى ميدان الشرف ..

« كيف تطلبين منى الا اكون حزينا ، وانت لا تكتبـين الى الا مرة واحـدة كل أربعـــة أيام ؟ .. انك لو كنت تحبيننى حقا لكتبت الى مرتين كل يوم .. ولكن يبـدو انك تفضلين اللعب مع هؤلاء الســـادة الصغار الذين يزورونك ابتداء من الساعة العاشرة صباحا ، ثم تثرثرين معهم وتستمعين الى شائعات وسخافات مائة صـعلوك وصعلوك حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليـل . ولكن البلاد التى توجد فيها أخلاق ، يذهب كل مواطن فيها الى بيته فى الساعة العاشرة مساء · والنســاء فى مثـل هذه البلاد ، يكتبن الى أزواجهن ويفكـرن فيهم ، ولا يعشن الا من أجلهم .. انك بالنســـبة الى يا جوزيفين مخلوق غامض لا أستطيع فهمه ..

« اننى أحبك كل يوم أكثر من ذى قبل .. فالبعد قد يخفف حدة العواطف الصغيرة ولكنه يلهب العـواطف الكبيرة .. اليك قبلة على شفتيك ، وأخرى على قلبك الذى لا يوجد فيه أحد سواى .. أليس كذلك ؟ ..

ملاحظة : لدى هنا خيول وعربات كثيرة ، ستكون كلها تحت تصرفك .. ولا تحضرى معك الا متاعك الشخصى

الضرورى .. اننى احتفظ لك بطاقم جميل من الفضة ، سوف ينفعك كثيرا .. وداعا يا معبودتى فالعمل ينادينى!»

ولكن جوزيفين كانت لا تريد أن تسافر الى ايطاليا مهما كان السبب .. ولما بات من الضرورى أن تختلق حجة للبقاء فى باريس ، لم تجد خيرا من ان تدعى انها حامل . وها هو ذا يكتب اليها فى مزيج من الدهشة والذهول من اجل الخبر السعيد :

« اصحيح اذن انك حامل ؟ .. لقد قال لى مورا ذلك .. ولكنه يقول ايضا ان هذا يجعلك مريضة ، ومن ثم فليس من الخير ان تقومى بمثل هـذا السـفر الطويل . ومعنى هذا اننى سأظل محروما من متعة ضمك بين ذراعى شهورا اخرى عديدة ! ٠٠ آه ! ٠٠ هل قدر على ان احرم من سعادة النظر اليك وانت حامل ؟!.. لابد أن شكلك الان لطيف للغاية !

« تكتبين الى أنك قد تغيرت كثيرا ٠٠ وقد لاحظت أنك حزينة وتكتبين بخط مرتعد ، فماذا بك ايتها الصديقة المعبودة ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ لا تمكثى فى الريف ، بل اذهبى الى المدينة وحاولى ان تسلى نفسك .. وصدقينى انه ما من شىء يعذبنى قدر معرفتى انك حزينة .. لقد كنت أعتقد اننى اغار عليك ، ولكننى أقسم لك أن هذا ليس صحيحا .. فانه ليخيل الى اننى افضل ان اقدم اليك ـ بنفسى ـ عشيقا ، اذا كان هذا يبدل حزنك فرحا وسرورا !

« كونى اذن مرحة سعيدة ، فان سـعادتى مرتبطة بسعادتك .. واذا تركت حبيبتى جوزيفين نفسها فريسة للحزن واليأس ، فانها اذن لا تحبنى ..! اننى واولادك سـنظل حولك على الدوام كى نغمرك بعنايتنا وحبنا ، وليس هناك فى الوجود ما هو اجمل من ذلك ..!

« ان الامور هنا تسير سيرا حسنا ، ولكننى قلق بدرجة لا يمكن وصفها .. فأنت مريضة وبعيدة عنى .. اعتنى بنفسك جيدا .. فأنت عندى أثمن من الدنيا كلها »

ولم يفقد نابوليون الامل فى انها ستلحق به ، فأضاف يقول :

« لست ادرى لماذا أشعر بالسرور منذ ان استيقظت هذا الصباح .. فلدى شعور دفين بأنك قد اعتزمت الحضور الى هنا .. انك ستأتين بالتأكيد عن طريق بيمونت ، لان هذا افضل بكثير .. انك ستحضرين الى ميلانو حيث الطبيعة الجميلة ، وسوف تكونين سعيدة هانئة كل الهناء .. أما انا ، فحضورك يسعدنى الى حد الجنون ..

« انك ستأتين الى هنا ، وستنجبين طفلا صغيرا جميلا يشبهك ويحبك كثيرا مثل والده .. ولكن احذرى من ان تحبيه أكثر منى ، فقد بدأت أغار منه !.. وداعا ياحبيبتى! تعالى سريعا لتسمعى موسيقى ايطاليا الجميلة .. ان ايطاليا لا تنقصها سوى رؤيتك .. انك ستجعلينها أكثر جمالا — على الاقل فى عينى — انك تعرفين ذلك .. فحينما تكون حبيبتى جوزيفين فى مكان ما ، فاننى لا ارى سواها »

واكتفت جوزيفين بأن ابلغته بأنها مريضة ، وبأن هناك ثلاثة من الاطباء حول فراشها .. فكتب اليها نابوليون خطابا عنيفا قال فيه :

« جوزيفين ! .. لقد كان يجب عليك ان تغادرى باريس فى ٢٤ مايو ، ولكنك لم تفعلى .. وحينما تكتبين الى ، فان خطاباتك القصيرة القليلة لا توحى بأى شعور عميق . يبدو ان حبك لى نزوة طارئة .. ويبدو انك قد انتهيت الان

من اختبار من سيحل مكانى فى قلبك .. اننى اتمنى لك السعادة ، ولا اقول هذا عن خبث . ان مصيبتى هى اننى لم اعرفك معرفة كافية ، ومصيبتك هى انك قد حكمت على حكمك على سائر الرجال الذين يحيطون بك .. !

« لقد كان كل شىء فيــــك يعجبنى .. حتى ذكرى أخطائك ، وذكرى هذا الشجار المؤلم الذى سبق زواجنا بخمسة عشر يوما . ولم يكن المجد يجذبنى الا لان ذلك يعجبك . وكانت صورتك دائما مرسومة فى قلبى . أما أنت ، فقد تركت صورتى ستة اشهر دون ان تطلبى منها نسخة واحدة .. واذا استمر الحــــال هكذا ، فمعنى هذا أن الحب ســـــيكون من جانب واحد ، وهو الدور الذى لا استطيع أن ألعبه بأى حال من الاحوال ..

« آه !.. أيتها القاســـــية !.. لماذا جعلتنى آمل فى شعور لم تكونى تبادليننى اياه ؟.. ولكن مثل هذا اللوم غير جديد بى ، فأنا لم اثق قط بالسعادة .. ان الموت يحوم حولى كل يوم .. فهل تستحق الحياة كل هذا الصخب والضجيج ؟!

« وداعا يا جوزيفين .. وامكثى فى باريس ، ولا تكتبى الى .. وكل ما اطلبه منـــــك ان تحترمى عزلتى على الاقل .. » !

وفى نفس اليوم الذى كتب فيه هذا الخطاب ، كتب الى بارا يقول :

« اننى فى حالة يأس بالغ ، فزوجتى لا تأتى الى هنا . ولا شك أن ثمة عشيقا يحتجزها فى باريس .. »

وكان خطأ نابوليون ، انه استعمل كلمة « عشيق » فى المفرد ، اذ الواقع انه كان هناك غير عشيق واحد .. ولكن

عاشقا بعينه كان يتفوق على العشاق الاخرين ، يدعى : « شارل هيبوليت » !

كان هيبوليت هذا رجل اعمال محنك .. وكانت جوزيفين قد اشتركت معه فى صفقات مالية وغرامية ..

وفى ١٤ يونيو ، عاد نابوليون يكتب الى زوجته طالبا الصفح !.. انه يريد ان يهرع بنفسه اليها .. فماذا يهمه من امر جيشه ومهمته الرسمية ؟.. انه يطلب منها أن تتوسط له لدى « بارا » كى يعطيه اذنا بالحضور الى باريس :

« اننى فى حاجة ـ اولا ـ الى ان تصفحى عنى بسبب هذه الخطابات غير المعقولة التي كتبتها اليك .. واذا كنت بصحة جيدة ، فستدركين ان الحب المشتعل هو الذى جعلنى اضل الطريق .. اننى فى حاجة الى ان اقتنع تماما بأنك لست فى خطر .. ضحى بكل شيء من اجل صحتك وراحتك ايتها الصديقة الطيبة .. انك رقيقة وضعيفة ، ولا يمكنك احتمال هذا السفر الشاق الطويل ..

« أتوسل اليك الا تعرضى حياتك الغالية للخطر .. آه ! اننى ارتعد يا صديقتى ولا اجرؤ على النظر الى المستقبل .. انك اذا مت سأموت بدورى ميتة اليأس والعدم ، فأنا لا اعتقد فى خلود الروح ..!

« ان مورا يحاول اقناعى بأن مرضك بسيط .. ولكنك لا تكتبين الى منذ شهر ، ولذا تجديننى فى اشد حالات القلق . واذا لم تتماثلى للشفاء سريعا ، فاحصلى على تصريح كى احضر لاراك ولو ساعة واحدة . ويمكننى ان أكون فى باريس فى خلال خمسة أيام .. اننى هنا ـ بدونك ـ لا يمكن ان اكون مواطنا نافعا . فليحب المجد من يشاء ، وليخدم الوطن من يشاء !. أما انا ، فروحى

تختنق فى هذا المنفى .. »

وفى اليوم التالى ـ الموافق ١٥ يونيو ـ أرسل اليها نابوليون رسولا خاصا أمره بألا يمكث فى باريس اكثر من أربع ساعات .. وحمل الرسول معه هذا الخطاب :

« أبعث اليك بهذا الرسول الذى لن يبقى فى باريس سوى أربع ساعات .. فاكتبى الى رسالة من عشر صفحات ، فهذا وحده يمكن أن يواسينى ..

« انك مريضة وحامل .. وأنت تحبيننى أنا الذى سببت لك الحزن بكلامى . اننى مخطىء فى حقك ، ولا أعرف كيف أكفر عن خطئى .. آه ! .. كم أنا خجول لذلك ! .. اغفرى لى يا صديقتى الطيبة .. لقد اتهمتك بأنك تريدين البقاء فى باريس بينما أنت ترقدين على فراش المرض .. ان الحب وحده هو الذى انتزع منى عقلى ، ولن أستطيع أن الم شتاته مرة أخرى .. والآن ، يكفينى ان أراك وأن أضمك الى صدرى ساعتين ثم نموت معا !..

« لقد كنت دائما سعيدا ، ولم يقاوم القدر ارادتى أبدا .. وهأنذا اليوم اصبح منكوبا فى الشخص الوحيد الذى يهمنى !..

« جوزفين يا حبيبتى .. كيف استطعت أن تظلى كل هذا الوقت دون أن تكتبى الى .. ان آخر خطاب وصلنى منك مؤرخ فى الثالث من الشهر الجارى . وما أزال احتفظ به فى جيبى على الرغم من أنه أثار أحزانى .. ترى ، هل استمعت الى بعض الأصدقاء الخبثاء الذين يريدون أن تبقى بعيدة عنى ؟.. لقد أصبحت أشك فى كل انسان ، واحقد على كل من يحيطون بك ..

« اننى لا اجرؤ على أن أطلب منك ان تشرعى فى القيام بسفر طويل الا اذا كنت فى حالة تسمح بذلك .. واذا قررت أن تأتى ، فليكن سفرك على مراحل قصيرة .. ولكن اكتبى الى تباعا كل يوم ..

« ان كل أفكارى مركزة فيك ، وأنت ترقدين هكذا على فراش المرض .. اننى بلا شهية للطعام ، ولا أشعر بحاجة الى النوم ، ولم أعد أهتم بالمجد أو الوطن أو الصداقة .. فالحياة بدونك هى العدم تماما .. اننى لا اتمسك بالشرف الا لأنك تتمسكين به ، ولا بالنصر الا لأنه يدخل عليك السرور .. والا لكنت تركت كل شىء وجئت لأرتمى تحت قدميك منذ وقت طويل ..

« وأحيانا أقول لنفسى : انك تزعج نفسك أكثر مما ينبغى .. فلا بد أنها شفيت وتستعد الآن للسفر .. بل ربما تكون قد وصلت الى مدينة ليون !. ولكن ياللخيال الذى لا طائل من ورائه !.. انك لا شك راقدة فى سريرك تتألمين .. وفى وسعى أن أتخيلك بوجهك الرقيق الشاحب، وعينيك الحالمتين اللتين زادهما المرض سحرا وجاذبية

« جوزيفين يا وحيدتى .. متى ستشفين ؟ .. انه اذا لم يكن هناك مناص من أن يصاب أحدنا بالمرض ، فانى أولى بذلك ، لأن فى وسعى أن أتحمل المرض بسهولة أكثر .. ولكن القدر القاسى شاء أن يصيبنى اصابة بالغة فى شخصك ..

« وداعا يا حبيبتى .. واليك قبلة منى على شفتيك ، وأخرى على قلبك . ومن يدرى ، فلعلك الآن قد غادرت مدينة ليون قاصدة ايطاليا ، وحينئذ سأسافر الى ميلانو كى أنتظرك هناك .. يا له من حلم رائع جميل ! »

وأخيرا ، قررت جوزيفين أن تذهب اليه ، فغادرت

باريس فى الرابع والعشرين من يونيو بعد أن أدخلها بارا فى العربة بالقوة ، وكان يركب الى جوارها عشيقها « شارل هيبوليت » الذى اخذته معها كى « يواسيها » .. وكانت حالتها أشبه بشخص يساق الى العذاب سوقا !

وتقابل بونابرت وجوزيفين فى مدينة ميلانو .. وكان بونابرت مشغولا للغاية ، فلم يكن يجد الوقت لكى ينفرد بزوجته الا أثناء استراحة بين معركتين ، أو خلال فترة من الفترات التى كان يتركها فيها شارل هيبوليت

وخلال الأسبوعين الأخيرين من شـــهر يوليو ، كاد نابوليون أن يكتشف أمر شارل هذا .. فقد كان هـذا الشاب جريئا اكثر من اللازم ،وكانت جوزيفين قد أوصت زوجها به فى حرارة .. ولما استولى عليه القلق ، كتب يقول لها من ميدان القتال :

« يؤكد لى البعض أنك تعرفين هـذا السـيد الذى أوصيتنى بأمره معرفة وثيقة ، ومنذ زمن طويل .. وان صح ذلك ، فانك تكونين وحشا ضاريا يا جوزيفين .. »

ولكن جوزيفين طمأنت زوجها ، فتلاشت ظنونه فى الحال .. واستمر العاشقان يمارسان حبهما من وراء ظهر الثائر !!! ...

أما الخطابات ، التى كتبها نابوليون الى زوجته ـ أثناء تنقلاته ـ فى الفترة ما بين عام ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، فكلها تنم عن نفس هـــذه العاطفة الحسية الملتهبة .. وكان الذين يترددون على صالون مدام بونابرت فى ايطاليا يلاحظون ـ فى وضوح ـ مدى اندفاع بونابرت فى تيار هذه العاطفة ، فقد كان القائد لا يجد أى حرج فى احتضان زوجته أمام الناس ، أو وضع يده على صدرها ..

وكانت جوزيفين تعلن للجميع أنها تتعذب فى ايطاليا عذاب الشهداء ، وتتحرق شوقا للرجوع الى باريس ، ولأصدقائها فى لوكسمبورج .. فهى لم تكن تكترث لمجد زوجها ، فى قليل أو كثير ، وانما كان كل اهتمامها موجها الى عشيقها هيبوليت ، برغم ما نالته من ثراء أغدقه عليها زوجها .. فقد حصلت على عشر نصيب القواد من الغنائم على الأقل .

وقصارى القول ، ان عاطفة بونابرت كانت اشبه بآلة موسيقية يعزف عليها وحده .. ومن المؤسف أنه كان مخدوعا بهذه الموسيقى !!

وفى ربيع عام ١٧٩٨ ، كف نابوليون عن العزف .. فقد عاد وحده الى باريس مارا بمدينة راستادت حيث كانت تقيم جوزيفين فى البيت الذى اعده لها هناك ..

ولما لم يجدها ، عاد الى باريس وظل بها شهرا ينتظر وصول زوجته التى كانت مستغرقة فى اللهو مع حبيبها هيبوليت ..

ووصلت جوزيفين آخر الأمر .. فما الذى حدث بينهما ؟

لقد انتشرت الشائعات حول الزوجين .. وكانت جوزيفين حينذاك قد بلغت الأربعين من عمرها ، بينما كان بونابرت لا يزال فى الثامنة والعشرين . وربما كان نابوليون يشك فى أمر هذه الشائعات التى كانت تدور حول زوجته .. ولكن الشىء المؤكد أن الشقاق والشجار كانا قد دبا فى حياتهما الزوجية . وقد حدث بينهما شجار عنيف ذات مرة فى منزلهما بشارع شانترين ، حين وجد نابوليون « فاتورة » بثلاثين مليونا من الفرنكات

يجب تسديدها فى الحال .. فقد كانت جوزيفين مسرفة الى أقصى حدود الاسراف ..

أما أعنف شجار بينهما فقد وقع فى شهر مارس من عام ١٧٩٨ ، فقد علم بونابرت ـ عن طريق أخيه جوزيف ـ بأن جوزيفين تذهب كل يوم لزيارة شارل هيبوليت فى منزل بضاحية سانت أونريه .. وقالت له جوزيفين خـــلال المناقشة الحادة التى دارت بينهما : « اذا كنت تريد الطلاق فلم لا تتكلم ؟ »، وأخبرته أيضا بأنه ليس فى حاجة الى استخدام كل هذه الوسائل فى التحقيق والرقابة ، وبأنها « أسوأ النساء حظا وأكثرهن شقاء » !

وكتبت تحدث عشيقها بعد ذلك عن زوجها وأخيه .. قالت :

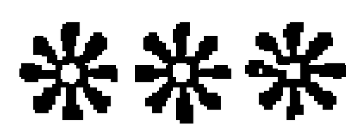
« نعم يا حبيبى شـــارل .. اننى أحقد عليهما كل الحقد . وأنت وحدك من أهبه حبى وحنانى .. ولا شك أنهما يلمسان كيف أمقتهما بسبب الحالة الرهيبة التى يضعاننى فيها منذ عدة أيام .. انهما مسروران لحرمانى من رؤيتك كثيرا كما أحب ! ..

« هيبوليت يا حبيبى الوحيد .. اننى سأقتل نفسى .. نعم ، فأنا أريد ان أنهى حياة ستكون من الآن شديدة الوطأة على كاهلى ما دمت لا أستطيع أن اكرسها كلهـــا لك ..

« وا أسفاه !.. ما الذى فعلت اذن لهذين الوحشين الضاريين ؟ ولكننى لن اكون قط ضحية لهما مهما فعلا بى .. أن آخر رمق فى حياتى سيكون لك أنت يا حبيبى . اننى سأفعل أى شىء فى الدنيا كى أقابلك اليوم .. وداعا يا شـــارل ، واليـــك أبعث ألف قبـــلة ملتهبـــة مثل حبى »

وفى الأيام التالية ، نجدها تتحدث مع شارل عن « عذابها الدائم » الذى تلاقيه — وهى الى جوار زوجها فى شارع شانترين — فتكتب الى هيبوليت قائلة :

« أنت وحدك تستطيع أن ترد الى سعادتى .. قل انك تحبنى ولا تحب سواى ، فحينئذ سأكون أسعد امرأة على وجه الأرض » !...



وفى شهر مايو ، غادر نابوليون باريس متجها الى قاعدة طولون البحرية ، ومنها ركب البحر متجها الى مصر .. ويبدو أن حلا وسطا قد تم بين الزوجين ، ذلك أن جوزيفين ذهبت لتوديعه حتى الميناء ، ثم عادت من طولون الى مدينة باومبير ، ومنها الى بيتها الصغير فى باريس ..

واقامت جوزيفين بعد ذلك مع شارل هيبوليت فى قصر ريفى صغير اكتسب شهرة تاريخية ، وهو قصر « لامالميزون » !...

وفى مصر ، علم بونابرت بتفاصيل أخرى عن علاقة زوجته بشارل هيبوليت فضرب رأسه بيده عدة مرات وصاح يقول فى غضب جنونى :

« النساء ! .. جوزيفين ! .. جوزيفين : هل تخوننى هكذا وأنا على مسيرة ٢٤٠٠ كيلومتر من فرنسا ؟! .. جوزيفين ! .. النساء ! .. الويل لهن ! اننى سأقضى على هذا الصنف من الرقيعات ! .. اما هى .. فانه الطلاق ! »

وكان أوجين ابن جوزيفين مع بونابرت فى مصر ، فكتب الى والدته بكل ما عرف من أخبار عن غضب القائد لمغامرات زوجته . وكانت جوزيفين تأمل الا

يرجع نابوليون حيا من أفريقيا . وذات مساء ، انتشرت شائعة فى قصر لوكسمبورج بأن نابوليون قتل فى مصر . وتظاهرت الزوجة بالاغماء ، فأخرج بارا كل الخدم ما عدا الطبيب دوفور . وما ان خلت الغرفة ، حتى التفتت جوزيفين تسأل « بارا » وهى تبتسم :

ـ هل أنت واثق تماما من أنهم اغتالوه هناك ؟!

فأجابها بارا قائلا :

ـ اعتقد ذلك .. ان من بعث الى بالخبر ليست له اى مصلحة فى الكذب فقالت ، وقد اشرق وجهها :

ـ آه !.. اننى أتنفس الصعداء يا صديقى !.. أن هذا الرجل لم يكن يحب الا نفسه .. انه أكثر أهل الأرض قسوة وشراسة وأنانية ، ولم يعرف قط غير مصلحته وطموحه !

واستمرت جوزيفين تتحدث عن ذلك بضع دقائق ، ثم عادت تكرر سؤالها من جديد قائلة :

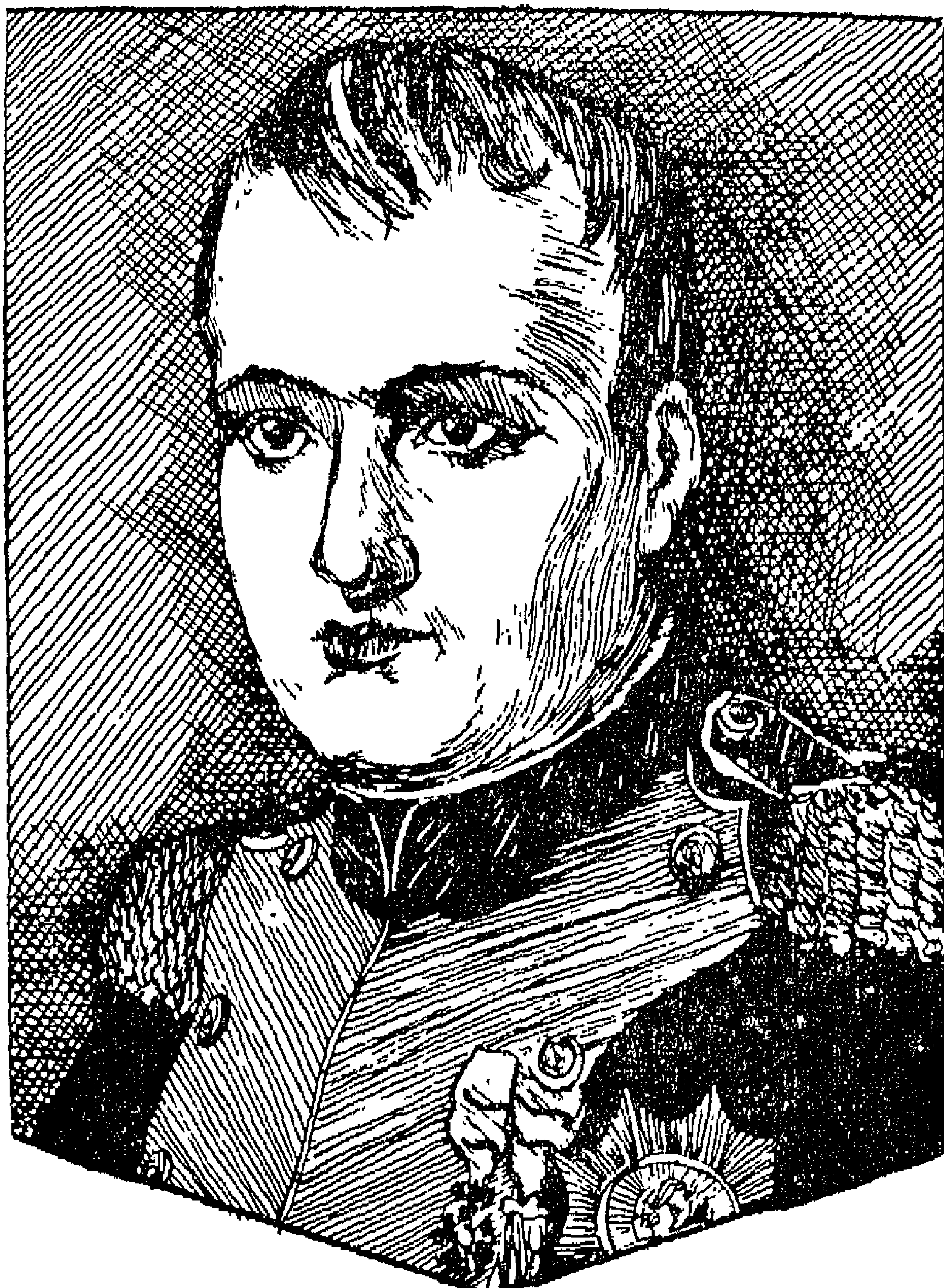
ـ آه ! .. أحقا انه مات ؟

فقال بارا :

ـ اعتقد ذلك ..

ـ حسنا !.. ها قد نقص عدد الأشرار فى العالم واحدا ! .. انك لا تستطيع أن تتصور مدى فظاعة هذا الرجل الذى لم يكن يحلم الا بالقسوة ! .. لقد كان دائما يدبر المكائد والمقالب للآخرين .. وكان لا يهدأ له بال حتى يرى الجميع يتعذبون من حوله !

ولكن بونابرت لم يكن قد مات .. لقد كان فقط يريد ان يصرف عن نفسه غضب الناس ونظرتهم اليه كزوج سخرت منه زوجته !



غرام نابليون
أثناء زواجه بجوزيفين

مغامرة فى القاهرة

اصطحب نابوليون فى حملته على مصر فرقة من علماء التاريخ والرياضة والآثار والطبيعة ، ولفيفا من الادباء والصحفيين .. وكان غرضه من ذلك أن يضفى على الحملة عظمة وبريقا غير عاديين ، لينافس بهما ركب شوازى جوفييه الذى أرسل ليكون سفيرا لفرنسا فى روسيا . وكان من بين من اصطحبهم أيضا قائد مغامر عملاق يدعى اسكندر دارجيفال ، عرفه نابوليون أثناء الدراسة فى كلية برييه العسكرية ..

كان دارجيفال هذا يعمل فيما مضى ضابطا فى حرس الملك لويس السادس عشر الخاص ، وكان الناس يلقبونه « بالرجل ذى القامة الطويلة » .. وكان قد خاض غمار بعض المغامرات فى بولندا قبل الثورة الفرنسية . وكان غرض هذا الرجل من الرحيل الى القاهرة أن ينفذ مشروعا كان يحلم به ، عبارة عن علبة ليل ، وناد خاص للتعارف ..

وأبحرت مع الحملة ايضا مجموعة من الفتيات الجميلات اللاتى كن ينتظرن الربح من ورائها ، شأنهن فى ذلك شأن دارجيفال .. وكذلك كانت هناك بعض فتيات من نوع آخر لا ينظرن الى الربح ، وانما كن يتبعن أزواجهن

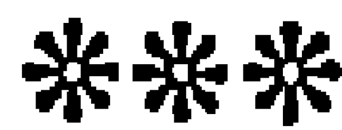
او عشاقهن ، وتنكرن من أجل ذلك فى أزياء الرجال .
ومن بين هؤلاء الأخيرات ، نجد فى القاهرة – فى عام ١٧٩٨ – فتاة رائعة الجمال من مواليد مدينة كاركاسون اتخذت لنفسها اسما مستعارا هو بيليلوت ..

كانت بيليلوت على قسط وافر من الرقة والجاذبية .. وكان الجميع يرمقونها فى اعجاب كبير بسبب عينيها الزرقاوين الواسعتين ، وحاجبيها السوداوين ، وشعرها الاشقر الطويل الذى كان يكاد يغطى كل جسمها

وكانت بيليلوت فتاة عاطفية محبة للهوى والغرام ، من ذلك النوع الذى يحبه بونابرت بصفة خاصة ، والذى كان يتصل به بفضل واحد من رجاله المخلصين ، هو الوزير سان جان دانجيلى ، أكبر رجل محنك فى هذه الأمور فى عهد الامبراطورية الأولى . وقبل حملة بونابرت على مصر ، كانت بيليلوت تعمل صانعة للقبعات بمتجر مدام فوريس فى مدينة كاركاسون ، وكان اسمها الأصلى : « مارجريت بولين » . وفى ذلك الوقت ، كان الكثيرون يطلبون يدها .. ولكنها رفضتهم جميعا ، فى انتظار فارس الأحلام . وفجأة ، ظهر أمامها هذا الفارس فى شخص جون نويل فوريس ، الضابط بفرقة فرسان الحرس ، وكان يمت بصلة القرابة لمدام فوريس ، التى كانت بيليلوت تعمل عندها . ولم يكن جون فوريس هذا شابا وسيما ، ولكن فتنها فيه زيه العسكرى الأنيق ، فلم تستطع أن تتردد فى قبوله زوجا لها ..

وعقد زواجهما على عجل ، وعرفت بيليلوت على يدى زوجها ملذات الحب ، واكتشفت فى نفسها مواهب عديدة فى هذا المضمار .. وكانا كزوجين شابين لا يفكران الا فى الاستمتاع بأكبر قدر من اللذة .. ولكن ساعة الفراق

دقت بأسرع مما كانا يتخيلان . ووقع الاختيار على الملازم الثانى جون نويل فوريس للسفر مع كتيبته فى حملة نابوليون على مصر . ولما حان موعد السفر ، انهارت اعصاب الزوجة الصغيرة ولم تقو على فراق زوجها ، فصممت على أن تصحبه الى كل مكان يذهب اليه . وفى ميناء مارسيليا ــ وبفضل تواطؤ الزملاء ــ تنكرت بيليلوت فى زى ضابط بفرقة الفرسان ، وأبحرت مع زوجها سرا على ظهر ناقلة الجنود لاأوسيت . وانضمت ناقلة الجنود هذه الى بقية قطع الاسطول التى كانت تنتظر فى قاعدة طولون ، ثم عبرت الحملة البحر .. وأخيرا ، وضعت بيليلوت قدمها على أرض مصر ..



وفى مصر بدأت الصدمة .. فقد أصيبت بيليلوت بخيبة امل كبيرة ــ مثلها فى ذلك مثل جميع الضباط والجنود الذين كان نابوليون قد وعدهم بالثراء العاجل السهل ــ اذ لم يظفروا بغنائم مثل التى ظفروا بها فى ايطاليا ، فضلا عن أن الجو فيها كان صعبا للغاية .. ولكن بيليلوت كانت لا تزال تعتبر نفسها سعيدة الحظ لأنها لم تفارق زوجها ..

ولما اكتشف امرها ، لم يكن فى الوسع القاء الزوجة الشابة فى عرض البحر أو اعادتها الى فرنسا ، ومن ثم فقد اضطروا الى قبول وجودها فى القاهرة ، وسرعان ما أصبح الجيش كله يعرف قصتها .. ومن هنا ، كانت بداية الخطر الذى هدد سعادة هذين الزوجين !..

كان عدد النساء الأوروبيات فى القاهرة قليلا جدا ، فاضطر الضباط والجنود الى قبول نساء من رقيق المماليك ، وكانوا قد خلفوا وراءهم بعد هزيمتهم أقبح

من كان لديهم من نساء فى الحريم . وما ان وقعت الابصار على بيليلوت الصغيرة الشقراء حتى طمع فيهـــا الجميع .. فقد كانت بقامتها الجميلة ، وأســـنانها اللؤلؤية ، وبشرتها النادرة ، موضع اغراء كبير بالنسبة للجميع ..

ولكن اذا كان الجميع يمنون النفس بالحصول على بيليلوت لأنفسهم ، فقد كان هناك رجل آخر يتفحصها من أجل أغراض أخرى .. ولم يكن هــذا الرجل غير اسكندر دارجيفـال مؤسس « ملهى تيفولى » بالقاهرة . وكان دارجيفال يريد لمشروعه أن يبدأ بداية طنـانة .. ولذا كان يلزمه عرض أشياء أخرى غير موائد القمـار والأطعمة الفاخرة ، كى يجذب اليه ذوى الرتب الكبيرة والمرتبات الضخمة فى الجيش . ولم تكن هــذه الاشياء الأخرى ــ بالطبع ــ غير عدد من النساء الجميلات يزين به صالوناته وحديقته الخاصة ..

واستطاع دارجيفال أخيرا ان يتصيد امرأة يونانية تدعى هيلين ، كانت فيما مضى تابعة لحريم أحـــد البكوات المماليك .. وكان مركز هذه المرأة الممتاز يتيح لهـا أن تتصيد بدورها فتيات أخريات يستمتعن بقدر معقول من الجمال ، ولكن أهم ما فعلته ، هو انها استطاعت أن تحصل لدارجيفال على وعد من زوج بيليلوت بأن تكون زوجته ضيفة شرف فى ليلة افتتاح ملهى تيفولى ، وذلك مع بقية النساء الجميلات اللاتى جمعهن دارجيفال خصيصا لهذه المناسبة

أذن فقد وافقت المواطنة اللطيفة ــ زوجة الملازم فوريس ــ على قبول هذه الدعوة على أمل أن تعود عليها بشىء من الشـــهرة والظهور .. لقد قبلتها على الفور دون تبصر

أخلاقى من جانبها .. ولـكننا نضيف ، انصـافا للحقيقة ، أنها كانت تجهل الهدف الذى كان يرمى اليه دارجيفال من وراء الاعيبه القذرة . ولم يكن هذا الهدف يخاف على ذوى الخبرة والتجربة من رجال الجيش ، فقد كان « الرجل ذو القامة الطويلة » يريد أن يكسب لنفسه اكبر قدر ممكن من عطف بونابرت ورجال قيادته العليا ، بأن يمدهم بمواطنات اباحيات .. وكان الحرمان الذى يعيش فيه هؤلاء ، يمثل بالنسبة لذلك الرجـل فرصته الذهبية الكبرى !

وكان تقديره للمسألة صحيحا .. اذ سرعان ما زاد عدد عملائه .. وربح دارجيفال مالا كثيرا على الرغم من المحاولات الكثيرة لمقاومة جشعه

وفى الليلة الأولى من ديسمبر عام ١٧٩٨ ، تألقـت بيليلوت بين نجوم ملهى تيفولى . ودفع بها دارجيفـال أمام نابوليون الذى أعجب بجمالها فأخذ يوجه اليهـا نظرات ذات مغزى . وابتعد عنها بونابرت بعد أن أسمعها بعض عبارات الاطراء ، ثم عاد اليها من جديد وبدأ يغازلها صراحة .. وأتاح لهما دارجيفال أن يتنزها معـا فى احد المرات المظلمة فى حديقة ملهى تيفولى ، ومنع الدخول الى هذا الممر باستثناء جونو ضابط أركان حرب نابليون المفضل ..

ولما عاد كل من نابوليون وبيليلوت للانضمام للحفل ، لم تعد الزوجة تحب زوجها كثيرا مثلما كانت تفعل من قبل ، واعتبرت نفسها ــ منذ هذه اللحظة ــ ملكا للقائد العام ! ..

وأراد نابوليون ان تكون بيليلوت ــ منذ ذلك الحين ــ له فحسب ، فأصدر أمره لاركان حربه برنييه بابعـاد

الزوج . وكان لا بد من أن يختفى فوريس من مصر ، فأعدوا سفينة مسلحة صغيرة تحمل « رسالة » هامة يجب تسليمها لحكومة الادارة في باريس ، وصدر الامر للملازم فوريس بالابحار على سطح هذه الباخرة ، وكانوا يقدرون انها ستقع فى أيدى الانجليز لا محالة ، فينتهى الامر بأسر قبطانها أو اغراقه فى البحر ، وهكذا لايظهر الملازم فوريس فى القاهرة بعد ذلك قط ..

وقبل فوريس القيام بهذه المهمة بشرط أن تصحبه زوجته ، فكل منهما يحب الآخر .. واذا كان هناك خطر ما ، فانهما سيواجهانه معا أو يموتان معا . وصاح برتييه محتجا بأنه لايمكن اصطحاب سيدة فى مهمة خطيرة كهذه ، فتردد فوريس ثم أعلن أنه لايريد الذهاب . وحاول أن يستدر عطف رئيس هيئة اركان الحرب ، ولكن برتييه أصر على امره بالذهاب . ان الاوامر هى الاوامر .. وبما أن فوريس جندى ، فليس عليه سوى الطاعة . ولكن متى يرحل ؟ على الفور .. ان بونابرت يريد ان تتم المهمة فى أسرع وقت ممكن ! !

ولقد كان بونابرت متلهفا لدرجة أنه وجه دعوة للعشاء الى المواطنة بيليلوت فوريس وبعض الاشخاص الاخرين فى نفس المساء الذى كان سيرحل فيه زوجها . وعلى المائدة، اقدم نابوليون على حركة مكشوفة ، اذ قلب دورقا صغيرا مملوءا بالماء على ثوب جارته ، ثم نهض واصطحبها معه الى الغرفة المجاورة لتجفيف هذا الثوب وتنظيفه ..

ولما عاد نابوليون ــ ومعه بيليلوت بعد فترة من الوقت ــ ضج الحاضرون بالضحك والتصفيق .. فقد كان وجهاهما مضرجين بالحمرة ، وكان شعر هذه الحسناء الصغيرة فى حالة « فوضى » جميلة .. لقد كان الامر من

الوضوح بحيث فهم كل واحد ماحدث .. وهنأ الحاضرون العاشقين !



وفى اليوم التالى ، أمر نابوليون بتأثيث بيت فاخـــر بالقرب من قصره لتسكن فيه « فريسته » الجميلة ... وسار قدما فى مغامرته دون أن يخطر بباله حــدوث اى عائق .. أفليس هو السيد ؟ .. اليست بيليلوت ــ التى لقبها ببولين ــ ستكون خاضــعة عــلى الاقل للحجــاب فى الحريم ؟

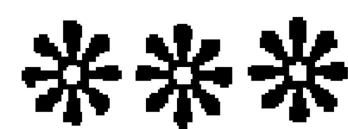
ولم تعد بولين تتنزه الا مع نابوليون فى عربته .. فبهذه الوسيلة العلنية ، لن يجرؤ أحد على اختطافها منه أو حتى ان يقف فى طريق هذه العلاقة . ومع ذلك ، كان هنــــاك شخص واحد يجرؤ على أن يفعل ذلك .. انه الزوج .. !

والذى حدث ، أن فوريس لم يمت ولم تغرق سفينته، وانما أسره الانجليز ... وكان هذا متوقعا وطبيعيا ، فقد كان الانجليز يرصدون تحركات الفرنسيين فى مصر ... انهم لم يكونوا يجهلون شيئا عن حياة رجال القيــــــادة العامة الفرنسية فى القاهرة ، وعن حياة القــائد العــــام بالذات .. ولو فرضنا أنهم كانوا يجهــــلون ذلك ، فان استجواب فوريس وخدمه كان كفيلا بأن يطلعهم على كــل شىء .. وقصارى القول انهم وجدوا إمامهم رجــلا كاد يذهب ضحية لفجور قائده .. فماذا سيفعلون به ؟.. ان من الممكن نفيه الى احدى الجزر .. ولكن فوريس فى حد ذاته لاقيمة له بالنسبة لهم .. أفليس من الافضل اذن اصابة بونابرت نفسه فى الصميم ؟.. فماذا لو أعادوا الى مصر زوج عشيقته ؟ الا يكون هذا خير حل للموقف ؟!

وهكذا اتجهت الى مصر سفينة بريطانية تحمل على ظهرها الملازم جون نويل فوريس .. وأنزل الضابط في مصر ، وحاول الفرنسيون حجزه فى الاسكندرية دون جدوى ، فقد كان يريد ان يصل الى القاهرة ـ فى أسرع وقت ممكن ـ ليرى زوجته

ولكن فوريس واجه أسوأ موقف صادفه فى حياته .. انه ثار بالطبع ، ولكن ماالفائدة ؟.. لقد ثار نابوليون أكثر منه .. فمن يخدم العلم لا يتشاجر مع قائده من أجل زوجته ! ولما كان بونابرت هو الاقوى ، فقد اضطر فوريس أن يحنى رأسه . ولم يكتف نابوليون بذلك ،وانما أمر بأن تطلق بولين من زوجها ، كى يطمئن الى أن هذا الملازم لن يأخذ منه عشيقته !

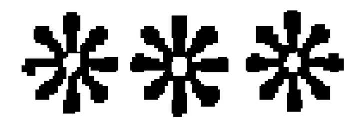
اذن فقد انتهى الامر بهزيمة فوريس .. وها هو ذا بونابرت يعود الى التنزه مع بولين تحت سمع فوريس وبصره .. وأطلق الجيش على بولين لقب « كليوباترا القائد العام » !



وعاشت بولين عيشة الامراء .. وبلغت الجرأة ببونابرت أن عين أوجين ـ ابن زوجته جوزيفين ـ فارسا مرافقا له فى ركب عشيقته ، وكان أوجين ضابطا فى الحملة . واعتبر أوجين علاقة والدته بنابوليون فى حكم المنتهية ، ولا سيما أنه كان قد سمع من بونابرت هذا التصريح العنيف : « انني أريد الطلاق من جوزيفين ..وسوف أكتب توا الى شقيقى جوزيف لاتخاذ اللازم نحو اجراء طلاق علنى » .. وكان بونابرت يعتزم الطلاق حقا لدرجة أنه وعد بولين بأن يتزوجها اذا حملت منه .. !

ولكن جهود فتى كورسيكا وفتاة بلدة كاركاسون لم

تكلل ـ للاسف ـ بالنجاح . وكثيرا ماكانت بولين تحتج قائلة : « انه ليس عيبى على أية حال » . ومنذ ذلك الحين ـ وهذا أمر بالغ الاهمية ـ بدأ يتكون فى نفس نابوليون اعتقاد بأنه عاجز عن انجاب ذرية



قطعت حملة سوريا هذه القصة الغرامية العجيبة ... ففى اليوم العاشر من فبراير عام ١٧٩٩ ، غادر نابوليون القاهرة بعد حب دام أكثر من شهرين . ولم يعد الى عشيقته الا فى الرابع عشر من شهر يونيو . وبعد غرام دام مدة شهرين آخرين ، غادر نابوليون مصر الى الابد تاركا جيشه وبولين

والواقع أنه كان معذورا فى عدم اصطحابه لبولين ، فقد كانت رحلته محفوفة بالمخاطر .. اذ كان من الممكن أن تقع سفينته الحربية فى أيدى الانجليز . فياللفضيحة التى كانت ستحدث حينذاك فيما لو أسر القائد الفرنسى العام ومعه عشيقته التى اختطفها عنوة من ضابط شاب فى الجيش الفرنسى !

واجتهد كليبر خليفة بونابرت فى تهدئة حزن بولين وغضبها .. ولما أصرت على أن تلحق بعشيقها فى فرنسا ، حقق لها رغبتها .. بل ويبدو أنه نصحها بالسفر الى هناك . وكتب كليبر الى الجنرال مينوكى يسهل مسألة ابحارها قائلا : « ان المواطنة فوريس هى التى تحمل هذا الخطاب اليكم ياسيدى الجنرال .. انها تريد العودة الى فرنسا لتلحق بالبطل الذى فقدته . وهى تتوقع من كرمكم وعطفكم أن يتاح لها السفر فى أسرع وقت ممكن ، ومع صحبة طيبة .. وهى لاشك تعرف كيف ترجوكم فى هذا أحسن منى »

ولم يرفض مينو تحقيق رغبتها .. ولكنه كان حذرا، اذ أجاب على كليبر قائلا : « لقد حضرت عندى هذه السيدة الجميلة ياسيادة القائد العزيز . ولكننى لم أرها .. وسوف أؤدى لها ــ بغير أن أراها ــ كل ماأستطيع بذله لها من خدمات ، مادام زوجها لن يتدخل فى شيء . وقد جربت منذ زمن طويل أن تدخل المرء فى مثل هذه الامور لايعود عليه بأى خير .. وكن على ثقة من أنه(١) يتحدث عنها فى فرنسا . وهذا الرجل له أعداء كثيرون ، ولابد أن أحدهم سيخطب لمدة ساعتين على الاقل فى الجمعية التشريعية بخصوص هذه المغامرة الغرامية . ومن هنا يمكن أن تدرك كل مايمكن أن يقال هناك فى مثل هذا الموضوع ! واتوقع أننا لابد أن نواجه ــ نحن المساكين ــ مأزقا شديدا ، اذا ماتدخلنا فى معركة كهذه »

ومع ذلك ، عين مينو اركان حرب نابوليون المخلص جونو ليرافق بولين فى رحلتها الى فرنسا . وفى الطريق ، احتجز الانجليز جونو ، واذنوا لبولين باستئناف الرحلة..

وفى باريس ، كانت تنتظرها صدمة قاسية .. فقد تصالح نابوليون مع زوجته لانها كانت بالنسبة له تمثل « سندا » فى هذا الوقت الذى بدأ يصل فيه الى السلطة، ومن ثم فقد رفض مقابلة بولين ..

وكانت أحداث انقلاب ١٩ نوفمبر ١٧٩٩ لاتزال قريبة العهد . وكان نابوليون حينئذ يرتب أمر « الحكومة القنصلية » ، ويجرد القنصلين الاخرين اللذين يحكمان معه من اختصاصاتهما ، ويدرب من سيحل محلهما . لقد كان منهمكا تماما فى أمور السياسة والادارة والمال ؛

---

(١) يعنى نابوليون

وأيضا فى الاشراف على الجيش الذى كان يجهزه لمعركة مارنجو المقبلة .. ولان مركزه لم يكن مضمونا ، فانه لم يشأ أن يزعزعه بالعودة الى علاقة نسائية قد تثير عليه عداء الرأى العام .. ولذا أبعد بولين عن حياته بغير رقة او شفقة !

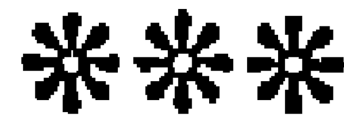
ولكنها كانت من المكر بحيث حاولت أن تنتقم منه بالذهاب الى نفس المسارح التى يتردد عليها .. ولم يدم هذا طويلا ، اذ سرعان ماصدر الامر بنفيها من باريس .. ولكنها لم تأبه لذلك ..

وبعد نفيها من باريس ، ظهر فى المدينة رجل لم يكن مرغوبا فيه على الاطلاق ، ذلك هو زوجها السابق نويل فوريس . فقد كان متمسكا بالمرأة التى اختطفها منه نابوليون .. أما من ناحيتها ، فانها لم تجرؤ بالطبع على العودة الى حياة سوف تجعلها ذكرى الخطيئة كابوسا مرهقا . ولكن فوريس صمد وقام بدعاية كبيرة حول مصيبته ، وكان يقص على كل من يصادفه كيف ألقى به بونابرت بين براثن الموت فى أيدى الانجليز . وكان الناس يتحدثون عن هذه الفضيحة فى المقاهى .. ولم تلبث الصحافة أن تناولت مغامرة القائد فى جرأة واسهاب !

وغضب القنصل بونابرت ، وأمر فوشيه وزيرالشرطة بأن يبذل كل جهد ممكن لتكميم أفواه الصحف .. إنه لايريد أن يستعيد فوريس هذه المرأة . ليس هذا فحسب ، وانما يجب القاء القبض على فوريس ، وبالفعل ألقى القبض على الزوج وحددت اقامته ووضع تحت المراقبة مرات عديدة !

وكرر بونابرت أوامره بأن تنفى بولين الى الريف كى ينساها الناس ، فبعثوا بها لتعيش فى منزل جميل بمدينة

بيل فيل ، وكان هذا من كرم عشيقها السابق . ولكنها لم تكن مدينة له على أية حال بهذا الزوج الجديد الذى تزوجت منه فى اواخر عام ١٨٠١ ، والذى كان يدعى هنرى دى رانشو !



وانقضت عشر سنوات دون أن تستطيع بولين انتتبادل كلمة واحدة مع الرجل الذى كان يعشقها فى القاهرة . وكانت تحاول أن تفاجئه أحيانا بالظهور فى بعض الحفلات التنكرية التى يحضرها ، وكانت تكتب اليه أيضا ، ولكنه كان لايرد عليها أبدا . وذات مرة ، صارحت الماريشال دوروك ـ كاتم أسرار نابوليون ـ بألوان القلق والمتاعب التى تواجهها فى حياتها . وتحدث دوروك عنها مع سيده، وحينئذ منح نابوليون عشيقته السابقة ثمانية عشر مليونا من الفرنكات ، ولكنه لم يأمر بتبليغها بكلمة أو عبارة واحدة . وابتلعت بولين الاهانة والمال ، ولكنها أصبحت منذ ذلك اليوم من ألد اعداء نابوليون بونابرت ..!

وظلت بولين ترتكب الخطيئة التى دربها عليها نابوليون واصبح لها طابور من العشاق المعروفين .. وكانت تنتقيهم جميعا من رجال الجيش . ولم تصبح بولين لامعة فى هذا المضمار فحسب ، وانما حاولت كذلك أن تحوز شهرة فى عالم الادب والرسم . وفضلت أن يناديها الناس باسمها الاصلى الذى لم تكن قد استعملته قط :مارجريت ورسمت لنفسها صورة تمثلها وهى واقفة فى حديقة صغيرة تقطف وردة صغيرة ..

ولم تكتف بولين بذلك ، وانما استقبلت فيما بعد فى صالونها الخاص كل رجال السلك السياسى فى عهد الامبراطورية وأخيرا توفيت فى عام ١٨٦٩ ، أى فى نهاية

عهد الامبراطورية الثانية

وكانت مارجريت تثور كلما ذكر الناس أمامهـا اسم نابوليون بونابرت ، وأحرقت جميع الخطابات التى كان قد ارسلها اليها أثناء اقامتها فى القاهرة



مغنية الاوبرا

كان نابوليون قد بيت النية على الطلاق من جوزيفين بعد عودته من مصر . ولما وصل الى باريس ، عاش بمفرده في بيته الجميل بشارع لافيكتوار .. فقد كان مصرا على ان يلقن الخائنة درسا لا تنساه ..

وزار بارا الجنرال بونابرت في مسكنه ، واخذ يبرهن له على أنه مخطيء في تصرفه ذاك .. اذ ليس من الحكمة ان يطلق الرجل زوجته بعد أن يصل الى مركز كبير . وأوضح له كيف أن الناس سيلومونه – ان عاجلا أو آجلا – اذا أقدم على ذلك . وليس هذا فحسب ، بل ان جوزيفين يمكن أن تؤدى له خدمات جليلة نادرة . وقصارى القول ، ان بارا الذى زوج نابوليون من جوزيفين ، هو نفسه الذى أقنعه بألا يطلقها ، وبأن يغض النظر عن اخطائها ..

وكلنا نعرف قصة غفران نابوليون لجوزيفين ، بعد أن مهد أبنها اوجين وابنتها هورتانس الجو بين الزوجين بطريقة لبقة ماهرة ، وبعد أن توسلا الى بطل كورسيكا كي يغفر لوالدتهما مغامراتها .. ولم يكن بونابرت يطلب أكثر من أن ينهى هذه المشكلة على نحو فلسفي .. ولاشك انه قد حدث بينهما نوع من الاتفاق الودى قبيل انقلاب

بروميير وكانت جوزيفين بالتأكيد هى الجانب المسيطر على الموقف فى هذا الاتفاق المشترك ، والا فكيف نفسر رعب نابوليون من أن تكتشف زوجته أمر خياناته الدائمة، وهى التى خانته قبل أن يخونها ، والتى كان ينبغى عليها ان تلوذ بالخضوع والندم لتكفر عن ذنبها ؟!

نعم .. لقد كان نابوليون يخشى أن تكتشف زوجته أمر عشيقاته ، ولذا كان يجتهد فى أن يخفى عنها مغامراته الجديدة . واثناء عودته من مصر ، قال لتابعه المملوك رستم وهو على ظهر الباخرة : « لا تخش شيئا . . اذ سرعان مانصل الى باريس ، ونجد كثيرا من المال والنساء الجميلات » . وفى جزيرة كورسيكا ــ أثناء فترة الراحة التى قضاها نابوليون هناك ــ أخذ بعض النسوة الجميلات يدللن رستم ، فقال له نابوليون على مسمع من برنييه : « ما هذا ؟ .. يبدو أنك أكثر مهارة منا ! فقد ظفرت باعجاب نساء قبلنا ، ولم نظفر نحن برضا واحدة منهن حتى الان ! »

وعندما منحت السلطة لنابوليون ، وأصبح رئيس دولة، وغدا المال وفيرا لديه ، كانت أولى مغامراته الهامة مع مغنية للاوبرا تدعى جوزبينا جراسينى . .

كان بونابرت يحب سماع الموسيقى والغناء ، وكان يدعى انه خبير فى هذا الميدان .. الامر الذى لم يكن يروق الفنانين لانهم لم يكونوا على اقتناع بذلك ، وكان من أشهرهم الموسيقار شيروبين ملحن الاوبرا الشهير فى ذلك الوقت ، الذى أثار ثائرة نابوليون لانه لم يظهر نحوه الاحترام الكافى ! .. وعلى أية حال ، فعلاقة نابليون بمغنية الاوبرا جوزبينا جراسينى لم تكن ترتبط بفن الموسيقى ..

كانت جوزبينا هى المغنية الاولى فى مسرح لاسكالا بميلانو . ولما وصل بونابرت الى عاصمة اقليم لومبارديا - قبيل معركة مارنجو الشهيرة - ذهب الى الاوبرا ليسمعها ، وأمر بأن تقدم اليه بعد الحفل . وكان ما أمر به .. فاصطحبها نابوليون الى غرفة نومه . وفى اليوم التالى ، وجد الجنرال برنييه والسكرتير بورين المغنية راقدة فى فراش بونابرت !

وصارحت المغنية نابوليون بدهشتها لانه انتظر كل هذه السنين الطويلة ثم ابدى اهتمامه بها .. وأضافت تقول له وهى تبتسم : « اننى كنت حينذاك أكثر جمالا ! » .. وكان جمالها قد بدأ فعلا فى الذبول .. !

ولكن هذا لا يهم .. فهى فى نظر نابوليون امرأة جميلة .. فطلب منها أن تنتقل الى باريس لتستقر فيها ، حتى تكون قريبة منه على الدوام

وعاد بونابرت الى باريس .. وتبعته عشيقته الجديدة الى هناك ، واصطحبت معها بعض زملائها وزميلاتها فى الغناء ، ولكن هؤلاء لم يكن مثلها ملزمات بالخضوع لرغباته . بل لقد أجاب واحد من المغنيين - يدعى مارشيزى - على بونابرت ، حينما طلب منه هذا الاخير أن يغنى له لحنا جميلا ، قائلا : « سيدى الجنرال ! .. اذا كنت تريد لحنا جميلا ، فقم بجولة صغيرة فى الحديقة، وستجد حينئذ ما تطلب ! »

وأصدر نابوليون أوامره بأن يعد لجوزبينا مسكن أنيق فى باريس ، وأن تمنح مرتبا مجزيا . وسرعان ما غمر الذهب ، وحالف النجاح ، هذه المغنية .. وأعطاها الوزراء مكان الصدارة فى صالوناتهم حينما عرفوا أنها محظية بونابرت المفضلة فى ذلك الحين .. فهل كانت

سعيدة بذلك ؟ نعم ·· لعدة اسابيع فقط ·· ثم بدأت الاحزان تجد طريقها الى قلبها .. فنابوليون هذا لايحبها حقا ·· بل انه يخدعها · فهو يأتى فجأة ليراها ، وسرعان ما يتسرب السأم الى نفسه فيغادرها ·· فهى ــ فى نظره ــ ليست سوى امرأة تشبع غرائزه ويدفع لها أجرها على هذه الزيارات المفاجئة التى تتم فى السر !

وثارت جوزبينا على ذلك الوضع ، ووجــــدت من بين المحيطين بها مواسيا ، هو عازف الكمان الشهير رود ، فأغرمت به الى حد الجنون ، وأخـــــذت تتحدث عنه الى صديقاتها بقولها : « آه ! ·· كم هو رقيق كريم النفس مثل ملاك ! »

وعرفت باريس كلها قصة حب جوزبينا لـ « رود » ، ماعدا بونابرت !

ولما اكتشف نابوليون الامر ذات يوم ، هاجم فوشـــيه وزير الشرطة ، ولامه لوما عنيفا على جهله بالامور ·· ولكن هذا صرح له بأنه كان يخفى عنه الحقيقة مراعاة لمشاعره .. واستشاط نابوليون غضبا حينما سمع هذا الرد ، ولكنه حاول أن يخفى ثورته بأن أدار ظهره لفوشيه وأخذ يصفر لحنا ايطاليا ·· !

وقرر بونابرت أن ينتقم من هذه المرأة التى جرؤت على خيانته علنا ، فأمر بأن تمنع جوزبينا من الخروج · وعين حارسا عليها ، أحد ضباط أركان حربه ·· ولكن جوزبينا اعترضت على هذه المعاملة ، فما كان من نابوليون الا أن قطع عنها معونته المالية ·· فلا مرتب ، ولا منح ، ولا معاش ·· انه سيعرف كيف يخضعها عن طريق الجوع ، ولذا سنراه يطالب أثناء مناقشة قانون نابوليون المدنى

بأن « يخضع الزوج زوجته العاصية بحرمانها من المال الذى تعيش منه »

وعلى أية حال ، فقد اهتدت جوزبينا الى الحل الوحيد الذى يحفظ لها ماء وجهها .. فبعد عدة حفلات أقامتها للحصـــــول على بعض المال ، غادرت باريس فى صحبة عشيقها الفنان ، دون أن تلين لها قناة أمام رجاء نابوليون لها بالبقاء !

وفيما بعد ، عادت جوزبينا للغناء فى أوبرا باريس ، وقابلت نابوليون حينذاك فى شقته السرية التى كان قد أعدها فى قصر التويلرى كى يستقبل فيها خلسة ، بعـــد ظهر كل يوم « النساء اللاتى يأتين فى زيارات عابرة » ..

وكانت جوزيفين تبدى غيرتها من أولئك النسوة ،وتراقب نابوليون وتتجسس عليه من مدخل هذه الشقة السرية.

والواقع أنه لم يكن هناك مبرر لقلقها ذاك ، فانهن لم يكن يشكلن أى خطر عليها . ومن ناحية أخرى فسوف تبرهن جوزبينا على أنها لم تكن تشعر بالحب أو الاعجاب نحـــو نابوليون ــ ولا حتى بأى احترام لذكرى غرامها ــ اذ منحت نفسها بعد ذلك للرجل الذى هــزم بونابرت فى معركة واترلو : دوق ويلينجتون !



مفاجأة فى الليل

فى نفس الوقت الذى وقعت فيه معركة مارنجو ، نزل فى ميناء مارسيليا ـ عائدا من مصر ـ أحد زملاء نابوليون الاعزاء منذ بداية حياته العسكرية ، هو أندوش جـــونو الشهير ..

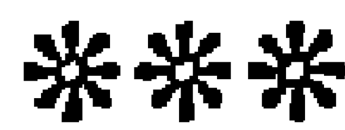
كان جونو جاويشا في قاعدة طولون البحرية عام ١٧٩٩ ثم جعل منه بونابرت جنرالا محليا لاحدى الفرق العسكرية فى عام ١٧٩٩ . وبعد عودة قنصل فرنسا الاول من ايطالياء قام بتثبيت جونو فى هذه الرتبة ونصبه حاكما عسكريا عاما على مدينة باريس ..

ولم يضع الجنرال الشاب وقتا .. وانطلق على الفور يجرى وراء النساء ويشرب الخمر ويلعب القمار ، بل كان لا يتورع عن المشاجرة مع خدم المقاهى ، كعادته أيام أن كان جاويشا فى الجيش !

وتقدم جونو يطلب يد ابنة الارملة برمون ، وكانت هذه السيدة نفسها قد رفضت فى عام ١٧٩٥ أن تتـزوج من بونابرت ، ولكن لم يعد لديها الآن أى سبب لترفض زواج ابنتها من هذا الرجل الذى يضمن لكل من الام والفتـــاة مستقبلا باهرا ..

وفى ٣٠ أكتوبر عام ١٨٠٠ ، تزوج جـــونو من لورا برمون ، وفتح الطريق أمامها لتعيش حياة شبيهة بحياة بطلات ألف ليلة وليلة . وما الغريب فى الامر ما دامت قد اصبحت زوجة لرجل كان حـــاكما عســـكريا عاما للعاصمة ، ثم سفيرا ، ثم قائدا ، ثم جنرالا .. حائزا على وسام اللجيون دونير ، ومن كبار ضـــباط الامبراطورية ، ويحمل لقب دابرانتيس ..

وكانت لورا رائعة الجمال ، وقد وصفها أحد زمـــلاء زوجها بقوله : « من المستحيل أن نتصور مخلوقة أجمل منها ، أو أكثر رقة وحيوية وجاذبية .. انها كانت ترتدى ثيابا غاية فى الاناقة ، وكانت نضرتها تنســـــجم تماما مع ما وهبته لها الطبيعة من دلال وجاذبية وقوام بديع التكوين »



وانقضى الشتاء ، وتلاه الربيع .. وربما أدركت لورا حينئذ فقط حقيقة زوجها .. وسوف نراها بعد قليل تقبل الامر الواقع ، وتكتفى بخيـــانته مرات قليلة وهو الذى يخونها مرات كثيرة ..

وفى هذا الصيف من عام ١٨٠١ ، تغيبت مدام بونابرت فى رحلة طويلة للاستشفاء فى مدينة بلومبير للميـــــاه المعدنية ، وكانت تمنى النفس بأن تجد هناك دواء لعقمها . وأثناء غيابها ، انتقل بونابرت ـ طلبا للتسلية ـ الى قصر ماليزون الصغير ، حيث أحاطبه عدد من النساء الجميلات معظمهن من حاشية جوزيفين ، وكانت لورا زوجة جونو من بين اولئك النساء ..

وكان أزواج أولئك النســـوة مشـــغولين فى باريس

بشئون الجيش والادارة · وفى بعض الاحيان ، كانوا يعطون الاذن بالذهاب الى مالميزون لرؤية زوجاتهم · وبعد الانتهاء من تناول الطعام هناك ، كان ينبغى على هؤلاء الرجال الذين تعودوا الطاعة والنظام أن يعودوا لاداء واجبهم فى العاصمة ··

وفى قصر مالميزون ، كان نابوليون يبدو فى أقصى حالات مرحه وسروره ·· كان يعدو خلف السيدات فى الحديقة أثناء اللعب على « المتوازيين » ، الذى كان يحبه كثيرا ·· وبعد تناول العشاء كان يلعب الورق ويجد متعة كبيرة فى أن يغش أوراق اللعب ·· وأخيرا يذهب كل الى فراشه ليخلد الى النوم .

وفى فجر ذات يوم ، بينما كانت لورا لا تزال نائمة فى فراشها ، سمعت وقع أقدام فى غرفتها .. ولشد ما كانت دهشتها حينما فتحت عينيها ووجدت نابوليون واقفا الى جوار سريرها !

وانتفضت لورا فى فراشها ، وقد استولى عليها الذهول، ثم أخذت تفرك عينيها وهى تفكر فيما سيكون عليه موقفها .. وحينئذ قطع بونابرت الصمت بقوله :

ـ حسنا يا مدام جونو ·· لماذا كل هذه الدهشة ·· ؟ اننى أنا بعينى ! ··

ولم تجب لورا ، واكتفت بأن تناولت ساعتها التى كانت موضوعة على المنضدة الى جوارها ، ومدت يدها الى بونابرت ··

وصاح القنصل قائلا :

ـ كيف ؟ ألا نزال فى الخامسة ؟ ·· اننى لم أكن

أعتقد ذلك .. حسنا ، هذا أفضل بكثير .. اننا سنتحدث معــا ..

وعلى الفور ، جذب مقعدا كبيرا جلس عليه بالقرب من السرير ، ثم فك أربطة « دوسيه » كان يمسك به تحت ذراعه ، وكان مكتوبا عليه : « للقنصل الاول وحده ... سرى للغاية » . وأخذ يوجه كلمة الى لورا من حين لآخر ، ثم يستأنف قراءة « الدوسيه » ..

قال نابوليون مازحا :

ــ نعم .. انني أنا بلحمي ودمي !

ثم اخذ يقلب أوراق الدوسيه في بطء وهو يتعمد أن يجعلها ترى يديه ، لانهما كانتا جميلتين للغاية .. وأضاف يقول بعد لحظة : « أعتقد أن يدى نظيفتان تماما »

وظل بونابرت ساعتين جالسا الى جوار لورا .. وعلى حذ قولها ، اكتفى وهو يغادر الغرفة بأن قرصــها في قدمها .. !

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، زارها نابوليون مرة أخرى .. وهكذا دواليك !..

وذات ليلة ، وبينما كان نابوليون يدخل غرفة لورا ، وجد زوجها جونو نائما الى جوارها !.. وصاح جونو قائلا في ذهول :

ــ يا إلهى !.. ماذا تريد أن تفعل عند زوجاتنا فى هذه الساعة ياسيدى القائد ؟!

***

ان لورا هى التى ذكرت بنفسها امر هــذه الزيارات الغريبة . وقد استنتج البعض من ذلك أنها كانت تريد أن تلمح ــ بطريق غير مباشر ــ الى انها عشيقة لنابوليون .

بينما يقرر المهتمون بتبرئة ساحة نابوليون من تهمة اختطاف زوجة أحد أصدقائه المخلصين ، ان لورا كانت تكذب . وعلى أية حال ، فاذا لم تكن هناك علاقة غرامية بين لورا ونابوليون ، فالمرء لايسعه ـ على الاقل ـ الا أن يفكر فى وجود نزوة عاطفية بينهما . ويتضح لنا ذلك من سلوك بونابرت ـ بعدئذ ـ نحو الزوجين .. فالواقع ان أحدا من المقربين اليه لم يحصل على عطايا وهبات مالية اكثر من هذين الزوجين ، اللهم الا فى القليل النادر . لقد حصل جونو وزوجته من نابوليون على قصر جميل ، ومنزل خاص ، وكثير من الحلى والمجوهرات الثمينة . هذا عدا المرتبات الباهظة ، والمنح المالية الضخمة . ولم يكن جونو يتقاضى فى عهد الامبراطورية أقل من خمسة وسبعين مليونا من الفرنكات ، راتبا سنويا رسميا ، وكانت لورا تظهر فى البلاط الامبراطورى وصالونات العاصمة وهى تضع على رأسها تاجا مرصعا قيمته مائة وخمسة وثلاثون مليونا من الفرنكات . وظلت حياة الزوجين تسير على هذا المنوال ، حتى أن جونو خلف وراءه بعد مماته ـ بعد ذلك باثنتى عشر عاما ـ ديونا تقدر بتسعمائة مليون من الفرنكات !

ويرى البعض أن المرء يجب أن يربط بين سخاء نابوليون بالنسبة لهذين الزوجين وصداقته القديمة لـ « جونو » .. وربما كان هذا صحيحا الى حد ما ، ولكنا لو تتبعنا قصة نابوليون مع لورا ، لوجدنا ان صلتهما تبدأ فى صيف عام ١٨٠١ كما رأينا .. ومما يلفت النظر ، انه فى الثامن من سبتمبر من نفس العام ، امر نابوليون بأن يمنح جونو هبة قدرها ثلاثون مليونا من الفرنكات ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لعهد حكومة القنصلية

ولايشك المؤلف فريدريك ماسون ـ وهو الذى يدافع دائما عن نابوليون ويعطف عليه كثيرا ـ فى أن ثمة علاقات خاصة وثيقة لابد كانت تربط بين لورا وبونابرت . ويقول ماسون فى ذلك : « ان الادعاءات ـ مهما بلغت قوتها ـ لايمكن بأى حال أن تكذب الادلة المادية » . والمرء يجد هذه الادلة فى أرشيفات نابوليون الخاصة ، حيث سجلت هبة الثلاثين مليون فرنك هذه فى سجل قنصل فرنسا الاول . وفضلا عن ذلك ، فان جونو الذى كان حينذاك قائد لواء فقط ، رقى بعد عام واحد الى رتبة قائد فرقة، على الرغم من أنه لم يقدم أدلة جديدة يثبت بها كفاءته فى العمل . والواقع أن مثل هذه الترقية السريعة لايبررها فى العادة غير شىء واحد ، وهو اظهار كفاءة نادرة فى ميدان القتال . . وهذا مالم يفعله جونو فى ذلك الوقت . .

اذن ، فليس هناك قط مايدعونا الى الشك فى مغامرة نابوليون مع لورا . وقد نعت نابوليون لورا ـ وهو فى منفاه بسانت هيلانه ـ بأنها « طاعون صغير » ، لانها كانت ترفع الكلفة بينه وبينها تماما ابان عهد الامبراطورية . . . والمرء لايسعه الا أن يستنتج انها لابد كانت تعتقد أن من حقها أن تفعل ذلك لوجود علاقة خاصة بينهما



لويز

بعد أن عادت جوزيفين من مدينة بلومبير للمياه المعدنية وجدت نابوليون يحبها ويهيم بها كما كان يفعـــل أيام معارك ايطاليا ، بل أكثر من ذلك . وكتبت لاحـــدى صديقاتها تقول :

« لقد وجدت زوجى العزيز يحبنى ويعاملنى معـــاملة لطيفة اكثر من أى وقت مضى ! »

ولكن لاينبغى أن يغيب عن بالنا أنها كانت تعلم جيدا أن زوجها القنصل كان يفتح هذه الخطابات ويطلع عليها .. ويبدو أن شيئا لم يعكر صفو جوزيفين فى شــــتاء عام ١٨٠١ ، وكذلك لم يحدث ثمة مايثير غضبها فى صيف عام ١٨٠٢ . ولذا فقد سافرت الى بلومبير مرة أخــرى ، وهى مطمئنة كل الاطمئنان الى تعقل القنصل ..!

غير أن جوزيفين لم تلبث أن عادت من هناك ، وقـــد سيطر عليها القلق خشية أن تنجح امرأة أخــرى فى أن تستحوذ على عطف زوجها . ومع ذلك لم تكن جوزيفين تتعذب فى ذلك الوقت مثلما كانت تتعذب فى عام ١٨٩٨ ، فقد كبرت سنها قليلا عن ذى قبل .. وان ثلاثة أعوام

أو أربعة ، خليقة بأن تلعب دورا هاما فى حياة امرأة فى مثل سنها !

وقبل عودة نابوليون من مصر - حينما انتشرت شائعة موته - كانت جوزيفين قد طلبت من هيبوليت ان يتزوجها، ولكنه رفض طلبها بأدب لا ينقصه الحسم . ولم تكن بالطبع تستطيع أن تعرض مثل هذا العرض على بارا ، فقد كان قلبه مشغولا تماما .. فضلا عن ان جمالها لم يعد كافيا لان يجعلها تستفيد من كرم جنرال آخر ، أو رجل من رجال المال الاثرياء . ومن ناحية أخرى فقد كانت مشغولة بايجاد مركز لابنها وابنتها .. وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم المصير الذى ينتظر بونابرت ، الا ان الدلائل كانت تشير الى انه سوف يتغلب ويستأثر بالسلطة ؛ فلماذا ترفض الصلح معه اذن ؟.. ثم لماذا ترفض أن تشاطره مغانم مركزه الفريد حين يثبت على قمة الدولة ؟

لقد كانت جوزيفين دائما فى حاجة قصوى الى المال .. وهى تستطيع أن تنفق كيفما تشاء اذا ظلت زوجة لبونابرت . وقد انفقت بالفعل ما تعادل قيمته الآن مليارات من الفرنكات .. ان هذه السيدة كان يلزمها ألف زوج من الجوارب ، ومئات من الفساتين ، وعشرات من المعاطف ، وأقمشة لاتحصى من الدانتيل والحرير الهندى . اما الحلى والجواهر ، فسوف تحصل منها على كل ماتطمع فيه ، هذا عدا مجوهرات التاج . وكذلك سيحصل اولادها على الثراء الوفير .. واذا حدث وانهار حكم بونابرت - وهو أمر لم يكن يراودها الشك فيه لانها كانت مع الملكية فى قرارة نفسها - فحينئذ تكون قد ضمنت مستقبلها ومستقبل هورتانس واوجين . وفى عام ١٨١٠ ،

لما اضطرت جوزيفين حينئذ الى قبول الطلاق ، لم توافق على ذلك الا بعد مناقشات طويلة مضنية حول تحديد الارقام المالية ، وحول منحها مليار فرنك فى كل عام ، فضلا عن مطالبتها بثلاثة قصور فخمة ، وبحق الاحتفاظ بمجموعة ثيابها ومجوهراتها النادرة ؛ وقد حققت لهـا جميع هذه المطالب ...

والواقع أن جوزيفين كانت تتعلق بمركزها كزوجة لنابوليون اكثر من تعلقها بنابوليون نفسه .. وكان مايهدد حياتها هو عدم انجابها ذرية منه ، ولذا كان احتمال طلاقها قائما على الدوام . ومن هنا كان ارتكازها تارةعلى فوشيه ، وتارة أخرى على تاليران ، وأيضا خوفها من علاقات زوجها النسائية التى تتعدى مجرد النزوة .وكان كل ماتخشاه أن تحمل احداهن ، خاصة وأنها كانت قد نجحت فى اقناع زوجها بأن السبب فى عدم انجابها ذرية يرجع الى عجزه لا عجزها ، بدليل أنها انجبت من قبل .. أنها لاتهتم بأولئك النسوة اللاتى يقمن علاقة مع زوجها دون أن يقطعن صلاتهن بالرجال الاخرين .. اذ فى هذه الحالة لا تستطيع الواحدة منهن أن تدعى أنها حملت من نابوليون ، بل لعلها لا تجرؤ على أن تنسب اليه ذلك أو حتى على اخباره بالامر . أما اذا حدث واستطاعت احدى النساء الذكيات أو الطموحات أن تكرس نفسها له ــ ولو لبضعة أشهر فحسب ــ ففى وسعها أن تربطه اليها لو حملت منه طفلا . وذلك ما كانت جوزيفين مصممة على أن تحول دون وقوعه بأى حال . وهناك شىء اخر .. فلو توصلت احدى النساء الى أن تجعل نابوليون يتعلق بها تعلقا جنسيا لمدة طويلة ، فقد تصبح هذه المرأة منافسة خطيرة لها وحليفا لنابوليون !

لكل ما سبق ، وضعت جوزيفين ايضا سياستهـــا الخاصة بها .. فدرجت على ان تشرف على مغـامرات زوجها بنفسها ، وان تحرص على ان تكون هذه المغامرات قصيرة الامد . وبمعنى آخر ، فانها كانت تشجع العلاقات الطارئة كي تبعد عن نفسها خطر العلاقات الاخـــرى . ومع ذلك فقد استولى القلق على نفسها حينما علمت ان احدى « المنافسات » قد انتهزت فرصة غيابها فى بلومبير وتسللت الى قصر ماليزون ، ومن هنـا كانت عـــودة جوزيفين المفاجئة من هناك .. فمن كانت هذه المنافسة التى خشيت منها جوزيفين على مركزها ومستقبلها ؟

يشرح لنا الكاتب أندريه جافوتى ـ الذى يرجع اليه الفضل فى اكتشاف هذه القصة ـ كيف أن هواة الموسيقى الرفيعة فى باريس قد أحسوا بصدمة قاسية فى اليـوم الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٠٢ . انهـم كانوا قد هيئوا أنفســهم للاســـتمتاع بالاوبرا الايطالية الجـــديدة من تأليف بايزييلو ، وعنوانها « الخيـــانة السعيدة » .. وكانت هذه الاوبرا قد لاقت نجاحا كبيرا سابقا فى مدينة ميلانو ، لانها كانت ساخرة ولاذعة للغاية . ولذا كان مجىء فرقة الاوبرا الهزلية لتقديمها فى باريس، يعد فى نظر عشاق الموسيقى حدثا فنيا فريدا . وبالطبع يمكننا أن نتصور مدى دهشتهم وخيبة أملهم ، حينمـا ذهبوا ليلة الافتتاح الى المسرح ، فوجدوا أن هذه الاوبرا قد استبدلت بواحدة اخرى ضعيفة ومعادة ، وان المغنيين والممثلين المتازين استبدلوا بدورهم ، وحل مكانهم آخرون مجهولون . وهكذا وجد الناس انفسهم ضحية خـــدعة سخيفة ، وهم الذين جاءوا يمنون النفس بالاســـتمتاع برواية جيدة . ومما زاد الطين بلة ، انهم لما استفسروا

عن سبب هذا التغيير فى البرامج ، قيل لهم ان القنصل الأول استدعى الى قصر ماليزون احسن المغنيين فى الفرقة ليمثلوا امامه أوبرا « عرس دوريه » التى كانوا قد حازوا شهرة خاصة فى أدائها . ومن أجل ذلك ، اضطروا الى تاجيل العرض الاول لاوبرا « الخيانة السعيدة » ! وعلى الرغم من انه كان عذرا قاهرا الا انه لا يمكن أن يستسيغه هذا النوع من عشاق الموسيقى المتشددين

والآن ، من ذا الذى كان يجذب أنتباه بونابرت فى فرقة الاوبرا الايطالية هذه ؟ .. لا شك انه كان يحب الموسيقى والاوبرا الايطالية ، ولكن كان لابد من سبب هام يكمن وراء كل هذا الاهتمام ! ..

كان بونابرت يشاهد المسرح الايطالى قبل ذلك بعدة اشهر ، فسمع حينئذ مغنية لم تكن ايطالية الجنسية برغم أنها كانت تغنى فى المسرح الايطالى .. وكان اسم هذه المغنية لويز جوزيفين فيليب رولاندو ، وكان اصدقاؤها الاعزاء يسمونها لويز ..

كانت لويز حينئذ فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، أى أكبر من نابوليون بنحو عامين .. ولسنا نجد لوصفها خيرا مما كتبته عنها صحيفة « اوديبا » الفرنسية ، قالت الصحيفة : « انها ليست ايطالية ، ولكن ليس هذا عيبا فى نظر الجمهور الفرنسى .. وهى تبدو من شكلها وطريقة تمثيلها وكأنها باريسية . والناس يحبون كثيرا أن يستمعوا اليها وأن يشاهدوها على خشبة المسرح .. فهى تجمع بين الدلال والحساسية المرهفة ، فضلا عن أنها تتسم بالرقة والنبل » .

اذن فهاهى ذى لويز التى لم ينسها بونابرت تصل الي قصر ماليزون فى مساء هذا اليوم من شهر يونيو عام

١٨٠٢ . وكانت قد جاءت الى هذا القصر قبل ذلك لتغنى فى أوبرا « السيدة الخادمة » لشيماروزا

ولذلك استبد الخوف بجوزيفين حين علمت ـ أثناء غيابها ـ أن لويز قد عادت من جديد الى قصر ماليزون ، ولم تكد تنقضى على زيارتها الاولى للقصر ستة أسابيع ..

ولما كانت جوزيفين امرأة قوية العزيمة ، فقد شعرت بالخطر الذى يهددها وثارت لتدخل « هذه الايطالية » ، ولا سيما انها كانت تعرف جيدا طبائع زوجها ، ومن هنا كانت عودتها السريعة المفاجئة الى باريس ..

وصبت جوزيفين جام غضبها على رأس بونابرت .. ولكنه راح يؤكد لها إنه لا يعبد أحدا سواها ، وأنه سيصارحها بكل مرة يخونها فيها ، ثم لامها لأنها قطعت هذه الرحلة المفيدة ! .. ولكنها لم تعبأ بما قال واستمرت فى ثورتها حتى تدخلت ابنتها هورتانس وحاولت تهدئتها، فأفلحت .. واظهر نابوليون عرفانه بالجميل لابنة زوجته، فمنحها منزلا خاصا من أجمل منازل العاصمة !! ..

اما لويز ، فقد ضحى بها على الفور .. وشاء القدران تكون نهاية هذه السيدة نهاية سيئة ، فبعد أن كانت قد سافرت الى بلجيكا عام ١٨٠٦ لادارة أحد المسارح بمدينة جان ، اضطرت للعودة الى باريس فى بداية عام ١٨٠٧ كى تستعيد عملها فى مسرح فيدو . وفى بداية شهر مايو من نفس العام ، شبت النار فى ثوبها بينما كانت واقفة امام المدفأة .. وانتهت حياتها والنار فيها .. ولما هرع الناس لنجدتها كانت قد فارقت الحياة !

ورطة !

كانت هناك ممثلة مسرحية تدعى « مارجريت فيمر » ، اشتهرت فى عالم المسرح باسم مدموازيل جورج ٠٠ أما بونابرت ، فكان يدللها باسم جيورجينا

وكانت مدموازيل جورج ذات قوام بــديع ٠٠ وكان وجهها جميلا جذابا ، ومع ذلك لم يكن أداؤها بارعا على المسرح ٠٠ وكل سمعتها فى هذا الميدان ترتكز على علاقتها ببونابرت ، وهذا ما أثار نحوها فضول كتاب القرن التاسع عشر من أمثال : هيجو ، ودوماس ، وغيرهما ٠٠

ولم تكتف مدموازيل جورج بانها عشيقة القنصل الاول ، وانما استطاع نخبة من اكابر اوروبا ان يفخروا بأنها كانت عشيقة لهم . والواقع ان هذه الممثلة كانت « كريمة » جدا فى هذه الناحية ، ولا سيما وأن هذا الكرم كان يعود عليها بثراء وفير ! ٠٠ وكانت تعمل على ترويج اسطورة حــول نفسها ، مؤداها أن القنصل الاول كان يمثل بالنسبة لها حبها الاول والوحيد ٠٠ وكان من بين اعشاقها المشهورين ـ قبل أن تصل الى نابوليون ـ لوســيان بونابرت ٠ وكان نابوليون يحب كثيرا ان يغيظ اشقاءه فى الامور النسائية ـ وخاصة لوسيان ـ ولم يكن يتورع عن مغازلة الفتيات اللاتى

حصل عليهن عن طريق موزا زوج شقيقته !

كانت باريس كلها تتحدث عن جمال مدموازيل جورج .. ولم تكن هذه الممثلة قد رفضت للوسيان بونابرت أى مطلب .. ولذا كان طبيعيا أن تخضع لرغبة شقيقه الحاكم !

وبدأت مغامرتها مع نابوليون بصورة عادية ، فقد أرسل اليها مبلغا كبيرا من المال قدره تسعمائة ألف فرنك .. وذلك كى يشعرها باهتمامه بها . ولما لم تكن مدموازيل جورج بالمرأة الغبية ، فقد آثرت الا ترد عليه ، وكانت تهدف من وراء ذلك الى احد امرين ، فاما ان يرسل اليها هدية جديدة ، واما أن يصدر لها أمرا بأن تأتى لتقدم له فروض الطاعة والشكر .. !

وقد صح ما توقعته .. ففى ذات ليلة ، وبعد انتهاء احدى حفلات المسرح ، أتى خادم ليصحبها معه فى عربة الى قصر سان كلو . ويمكننا أن نتصور ما حدث بعد ذلك .. فلم يكن بونابرت بالرجل الذى يضيع وقته فى « المقدمات » مهما كان الموضوع الذى يعالجه . وقد قصت هذه المرأة الجميلة ــ فيما بعد ــ كيف أنها جعلت هذا القائد الـــذى دوخ الكثيرين يحنى رأسه احتراما لطهرها وعفافها ، وكيف أنه صبر كثيرا من أجل أن تتكرم عليه يوما وتسلم اليــه نفسها . وبالطبع كان كل ذلك محض خيال ! .. انهـــا كانت قد قبلت الهدية ، فلم يكن أمامها اذن الا أن تنفذ ما طلب منها ..

***

قاد الخادم الممثلة الى غرفة نوم لها شرفة واسعة ، ثم خاطبها قائلا :

ــ اننى ذاهب لاخطار القنصل الاول يا سيدتى .

وتطلعت الممثلة حولها فى أرجاء الغرفة الفسيحة ، ووقع

بصرها على سرير ضخم منصوب فى نهايتها ·· انها هنا ستسدد دينها لبونابرت · وكانت نوافذ الغرفة وأبوابها مغطاة بستائر كبيرة من الحرير · وهنا وهناك فى كل مكان ، كانت الانوار تنبعث من نجفة كبيرة ومجموعة من الشمعدانات · وقالت الممثلة تحدث نفسها : « يا الهى !·· ان هذه الغرفة مضاءة كما لو كانت ستقام بها حفلة راقصة »

واستولى القلق على نفسها ، فخطر لها أن تجلس على اريكة الى جوار السرير ، وان تغطى وجهها بوشاح فاخر كان قد أهداه لها أحد معارفها · وما كادت تفعل ، حتى دخل بونابرت الغرفة ، واتجه اليها مباشرة ، فأخذها من يدها وأجلسها على أريكة أخرى أكبر حجما ·· ثم نزع وشاحها فى غير كلفة والقى به على الارض ··

ودار الحديث بينهما عن المبلغ الذى أرسله اليها ، وعن السبب الذى أخرها عن الحضور لتتقدم له الشكر ·وتلعثمت الفتاة الشابة ·· ! واستمر فى حديثه فسألها عن اسمها بالكامل . ولم يشأ أن يسميهامارجريت ، وقرر أن يسميها جيورجينا . وبعد ذلك لم يجد كل منهما ما يقوله للاخر .. وبعد فترة صمت طويلة قال :

ـ لماذا لا تتكلمين يا عزيزتى جيورجينا ؟

فشكت من الضوء الذى يتعبها ، وقالت :

ـ أرجو أن تأمر باطفاء الانوار ·· فهذا يريحنى كثيرا ويتيح لى أن أستمع اليك وأجيبك ··

ـ كما تريدين يا عزيزتى جيورجينا ..

ودق بونابرت الجرس للخادم ، ولما جاء أمره ـ وهو يشير الى النجفة ـ قائلا :

ـ اطفيء هذا النور ..

والتفت الى جيورجينا وأضاف قائلا :

ـ هل يكفي هذا ؟

فقالت في تردد :

ـ كلا .. أرجو أيضا أن تأمر باطفاء نصف هذه الشمعدانات .. انها اكثر مما ينبغي

فوافقها نابوليون على الرغم من أنه كان يحب أن يحتفظ بضوء قوى يتيح له أن يكشف أقل عيب في جسم عشيقته قال :

ـ حسنا جدا ..

وأمر الخادم باطفاء عدد كبير من الشمعدانات ..

والتفت يقول لها بعد أن أصبح الضوء خافتا :

ـ هل ترين الآن جيدا .. ؟

فقالت :

ـ ليس جيدا ، ولكن بما فيه الكفاية ..

ولم يكن الفجور قد قتل بعد الروح الشابة في نفس هذه الفتاة المدربة في شئون الهوى والدلال ، فعرفت كيف تستخدم خبرتها هذه مع بونابرت الذى وصل الى المجد في وقت مبكر ، فلم يتح له أن يمارس لذات الشباب بما فيه الكفاية !

وقد أتيح للمقيمين بقصر سان كلو أن يشاهدوا هذين العشيقين يلعبان معا على السجاد ، ويجرى كل منهما خلف الآخر وكأنهما تلميذان صغيران !

وغمر نابوليون عشيقته بالحلى والمال والاحجار الكريمة .. وكان كلما افترق عنها لبضعة أيام أو أسابيع يضع لها في صدرها رزمة من الاوراق المالية .. وقد وصل

مجموع هذه المبالغ الى اثنى عشر مليونا من الفرنكات !

ومع ذلك كان لا يتورع عن أن يجرح شعورها وكثيرا ما كان يقول لها :

ـ ان قدميك غير جميلتين

وكانت من ناحيتها تعرف ذلك ، وهذا هو السبب فى انها لم تنزع جوربها وهي معه ذات مرة ، فقال لهـــا فى سخرية ودون أدنى شفقة : « انك تحاولين اخفاء قدميك لانهما قبيحتان ! »

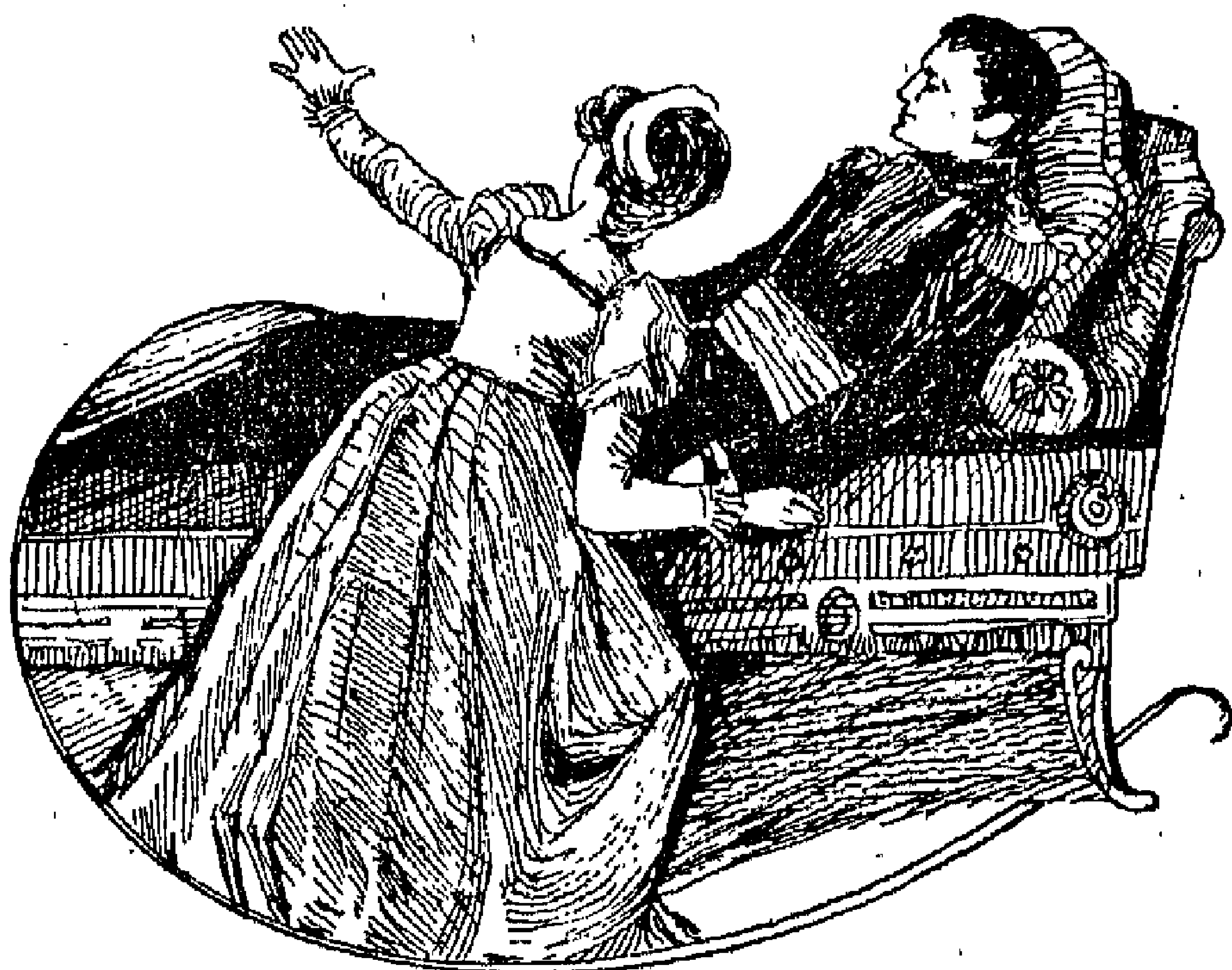
وذات ليلة وقعت مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، فقـــد أصيب نابوليون وهو بين ذراعيها بأزمة عصبية عنيفة .. وجن جنون جيورجينا حينما رأته يفقد الوعى ، فاندفعت خارج الغرفة وهى شبه عارية ، وأخذت تقرع الابـــواب وتشد حبال الاجراس حتى أيقظت جميع من فى القصر . وهرع اليها خادم نابوليون الخاص ، ومن بعده آخرون من بينهم جوزيفين زوجة بونابرت نفسها .. فيا للمنظر الذى شاهدته !

ومن الغريب أن جوزيفين وجيورجينا تعاونتا معا ـ فى جو تسوده المودة بدلا من العداء ـ فى اعادة الوعى اليه .. ولما أفاق ، فتح عينيه وتأمل عشيقته التى كانت تمسك به بين ذراعيها ، ثم ألقى نظرة على زوجته ، وحينئذ عادت اليه ذاكرته على الفور ، وثار ثورة عنيفة كادت أن تعود به الى الحالة التى كان فيهـــا منذ قليل . وارتعدت الممثلة من الخوف ، ولم يكن امامها بعد ذلك الا أن تختفى فى الحال !

وكان ذلك الى حين .. فقد دامت علاقتهما بعد ذلك مدة عامين . ولكنهما لم يكونا مخلصين تماما لبعضهما البعض .. فقد كان لنابوليون عشيقات أخريات . وكانت مدموازيل جورج تذهب اليه كلما عن له أن يطلبها ، ومن ناحية أخرى

كانت مشغولة بدورها مع سادة آخرين ٠٠ لقد كان رجال المال والدبلوماسيون يتقاسمون هذه الفتاة التى كان نابوليون يعتقد أنها ملك له وحده ، ولذا كان غضبه شديدا حينما علم أخيرا أنها لا تبخل بنفسها على أحد !

وضاعفت مدموازيل جـــورج من مغامراتها لدرجة أن فوشيه وزير الشرطة كان يقدم عنها تقريرا يوميـــا الى بونابرت ٠ ومع ذلك لم يشمئز منها نابوليون الى الدرجة التى تجعله يقطع علاقته بها تماما ٠٠ واستمر فى سخائه عليها بالمال ٠ وفى عام ١٨١٣ ، كرس لها من وقته بعض السهرات أثناء حملة المانيا ٠ وبعد عودته من جزيرة البا فى عام ١٨١٥ ، استطاعت أن تحصل منه على مبالغ مالية طائلة ٠٠ وهكذا كانت نهاية ذلك الغرام الذى انتهى بالمال كما بدأ من أجل المال !



أنطوانيت

فى الفترة ما بين اعلان الجمهورية ، فى مايو عام ١٨٠٤، والتتويج فى ديسمبر من نفس العام ، لعب عدد من النساء دورا فى حياة نابوليون .. ومن بينهن امرأة جميلة ، تدعى « ماري انطوانيت اليزابيث » ، عرفها أثناء رحلته الى الضفة اليسرى من نهر الراين ..

كانت أنطوانيت ابنة رجل مشهور هو الجنرال لو ميشودارسون ـ احد علماء الجيش الملكى القديم ـ وواحد من ابرز اعضاء مجلس الشيوخ فى عهد حكومة القنصلية ، وكانت متزوجة من ضابط يدعى اوكتاف فودريه .. وقد تم زواجهما فى ١٠ فبراير ١٧٩٠ ، وكانت انطوانيت فى السادسة عشرة من عمرها حينذاك ، بينما كان زوجها فى الخامسة والثلاثين . وفى يوليو من عام ١٧٩١ ، عين اوكتاف ضابط اركان حرب لوالد زوجته ، ولكنه مالبث ان هاجر من فرنسا فى نهاية نفس العام . وكانت انطوانيت تتردد على صالونات قصر اللوكسمبورج ايام بارا ، وايضا على صالون مدام تاليان .. ولذا كانت تعرف جوزيفين منذ ذلك الحين

وبعد انقلاب برومير ، لجأت انطوانيت الى الجنرال

كيلرمان تطلب منه ان يتوسط لها لدى القنصـــل الاول من أجل اعادة زوجها الى صفوف الجيش ، ولكن طلبهـا لم يحقق .. ومن ناحية اخرى كانت هناك نية للطلاق بين الزوجين . وكان والدها قد مات أثنـاء ذلك .. والذى لا شك فيه ان أنطوانيت قد عرفت ضيق ذات اليد فى عهد حكومة القنصلية ، بل ويقرر البعض أنها كانت تعيش فى بؤس كبير ، ومن هنا واتتها فكرة التخلص من شقائهـــا وعوزها عن طريق اغراء بونابرت بجمالها وسـحرها .. ودبر لها دوروك كاتم أسرار نابوليون ــ الذى كانت تعرفه ــ مقابلة مع سيده ، وكان عليها ان تفعل الباقى ! ..

كانت انطوانيت سيدة مثيرة بارعة الجمـــال ، وكانت تتمتع بقسط وافر من الجاذبية وخفة الروح .. فلم يكن غريبا اذن ان تنجح مقابلتها مع نابوليون . ولمـا كاشفته انطوانيت بمسألة ديونها ، امر باعطائها المال لتسـديدها على الفور .. وهكذا خرجت السيدة الشابة من ورطتها المالية !

وربما تمت مقابلتهما الثانية بعد الاولى بوقت وجـيز .. وعلى اية حال ، فقد انتهت هذه المقابلة ايضا بمناورة مماثلة كللت بالنجاح . وقبل ان تغادر جوزيفين قصـر سان كلو للذهاب الى اكسى لاشــبيل ، عين نابوليون انطوانيت ــ أو مدام فودريه ــ وصيفة من وصـــيفات القصر .. وكان نابوليون حينئذ مع جيشه فى مدينــة بولونيا

ودهشت جوزيفين من تعيين أنطوانيت ، ولم تلبث ان وقعت فريسة غيرة شـديدة من هــذه المراة التى كان المقصود من تعيينها زيادة عدد الحـريم فى القصر . ومع ذلك ، حاولت جوزيفين ان تخفى مشاعرها امام هــذه

المنافسة الجديدة ، بل وأخذت اليها بآلامها ومشاكلها

وذات يوم ، دخلت انطوانيت غرفة جوزيفين فوجدتها تبكى فى مرارة . ولشد ما كانت دهشتها حينما أشارت جوزيفين الى لوحة صغيرة تمثل امرأة ترتق قميصا الى جوار زوجها عامل الاحذية ، وقالت :

ـ آه ! يا سيدتى .. ان هذه المرأة أسعد منى بكثير ! ..

ولعل جوزيفين كانت تحاول ـ بهذه الوسيلة ـ اثارة عطف انطوانيت فتثنيها بذلك عن زوجها ..

وفى مدينة مايونسى ، استمعت أنطوانيت الى نابوليون وهو يتحدث عن السعادة والشقاء ويقول شارحا : «ليس فى هذه الدنيا سعادة او شقاء .. وكل ما هنا لك ان حياة الرجل السعيد تشبه لوحة من الفضة عليها بعض النجوم السوداء ، وحياة الرجل الشقى تشبه لوحة سوداء عليها بعض نجوم من الفضة »

وكانت أنطوانيت لا تشارك نابوليون احتقاره للشعب حين كان يقول : « ان الشعب كالماء ، فهو يأخذ شكل كل وعاء » . وكانت تقول فيما بعد :

« ان الرجال الذين أدهشوا العالم بعبقريتهم وجرأة أفكارهم يظهرون لنا ـ حين نراهم عن كثب ـ بشكل يختلف عن المظهر الذى يبدون به أمام الملايين العديدة من الناس » . ولاحظت كذلك أن نابوليون لم يكن يحب أن توجه اليه اسئلة من احد .. وعللت ذلك بأنه « كان يحب الا يفاجأ بأى موضوع قبل ان يعد له العدة » . وكتبت تقول أخيرا : « كيف تستطيع النساء أن يحببن غازيا قاسى القلب ؟ » .. ولكنها لم تكتب هذا الكلام الا بعد انتهاء علاقتها بنابوليون بوقت طويل ! ..

وهناك أسطورة حول انطوانيت مؤداها انها كانت تقدم فاتورة لنابوليون بعد كل مرة يمارس معها الغرام . واخيرا مل العشيق هذه المعاملة ، فقال لدوروك : « أنني لست من السذاجة بحيث اشترى بثمن مرتفع ما أجده رخيصا عند الاخريات .. بلغ شكرى لمدام فودريه على لطفها معى ، ولا تحدثنى عنها بعد ذلك أبدا »

وهناك رواية مؤداها أن انطوانيت طلبت منه مالا مرة اخرى ، فأرسل اليها مندوبا وجدها تعيش فى رغد من العيش وليس فى بؤس وشقاء ـ كما تدعى ـ وحينئذ غضب نابوليون وقطع علاقته بها بصفة نهائية . ولكن هذه الرواية الاخيرة تبدو غير صحيحة ، اذ من المعروف أن سخاء نابوليون كان يفوق كل حد . ومن ناحية اخرى كانت انطوانيت تعيش حينئذ فى نفس المنزل الذى كانت تسكنه فى بداية عهد حكومة القنصلية ، وهو المنزل الذى يقع فى شارع تويلرى بين باسى وحى أوتورمى . واخيرا فان هذه الروايات لا تضع فى الحسبان ان مدام فودريه كانت وصيفة فى القصر ، فلم يكن من المعقول اذن أن يتم فصلها على هذا النحو !

والذى حدث ان نابوليون وجوزيفين وحاشيتهما عادوا الى قصر سان كلو فى ١٢ نوفمبر ١٨٠٤ . ووفقا لما ذكرته احدى وصيفات القصر ، كانت جوزيفين تشعر بغيرة شديدة من مدام فودريه التى تتمتع بحظوة كبيرة لدى نابوليون . وفجأة تلقت مدام فودريه امرا بأن تقدم استقالتها ، فقدمتها على الفور .. وقد حدث ذلك فى ٢٩ نوفمبر من نفس العام ..

وسارت حياة انطوانيت بعد ذلك على نهج كله بؤس ومغامرات .. وفى عام ١٨١١ ، اضطرت إن تبيع اثاث

منزلها . وفى آخر أيام حياتها كتبت تقول :
« كنت امرأة ثرية ، تذوقت كل ملذات الدنيا ومتاعها .. ثم انتقلت من الثراء الى الفقر ، ومن الفقر الى البؤس والعوز ، ويمكنني الآن ان أقدر ما يشعر به المرء فى كل حالة من هذه الحالات .. فهل يصدقني الناس اذا قلت انني وجدت – وأنا أعاني البؤس والعوز – ملذات روحية لم أكن اعرفها من قبل ؟ »

ولاشك ان مدام فودريه كانت اكثر عشيقات نابوليون ذكاء وخفة روح ..



فيليبيتيه أخرى

كان دون جوان قصر التويلرى يلقى شباكه على كل امراة تعجبه ـ مهما كان مركزها ـ وفى الحال . وهكذا كان يتنقل من سيدة القصر الى ممثلة بسيطة ، ومن الممثلة البسيطة الى خادم متواضعة ، واحيانا الى غاسلة للثياب . . !

وكانت جوزيفين غاية فى التسامح بالنسبة لنزوات زوجها ، وخاصة حين يتعلق الامر بفتيات غير خطرات . . بل انها كانت تذهب الى أكثر من ذلك وتشجع بعض نزوات زوجها مع هذا القطاع « الثانوى » من نساء القصر !

ولبت جوزيفين طلب نابوليون بأن يكون عند مدخل جناح الامبراطورة « صالون تشغله فتيات جميلات » . واختارا من بين خادمات القصر عددا من الفتيات لقبن « سيدات استقبال » . وكان سرور نابوليون كبيرا بذلك . . وكان سرور زوجته أعظم منه . . وهكذا أصبحت جوزيفين كاتمة أسرار لغراميات زوجها . . والتقى نابوليون بكثير من الفتيات فى شقته السرية الصغيرة هذه !

ومن بين أولئك الفتيات ، كانت هناك واحدة تدعى

فيليسيتيه لونجروا ، وهي ثاني امرأة تدعى فيليسينيه في حياة نابوليون الخاصة

وهناك قصة حول فيليسيتيه تصورها على أنها كانت ضحية لـ « سادية » بونابرت .. وتزعم هذه القصة أن بونابرت أمر خادمين بتقييدها على السرير ووضع كمامة في فمهـا .. وبعد أن اختفى الخادمان ، قام نابوليون بالاعتداء عليها .. تلك هي خلاصة القصة السخيفة غير المعقولة التي كانوا يروجون لها حينئذ .. اذ الواقع أن نابوليون لم يكن محتاجا لاستعمال العنف كي يحصل على فيليسيتيه ، لأنها كانت على استعداد لأن تمنحه نفسها .. ويبدو أن نابوليون قد تعلق بها بعض الوقت

كان والد فيليسيتيه يعمل حاجبا لمكتب الامبراطورة في القصر . وكان يحصل على راتب قدره تسعون الف فرنك في الشهر ، عدا مبلغ مماثل كان يتسلمه كل عام كبدل للملابس ، وكان عمها ايضا يعمل منجدا في خدمة الامبراطور والامبراطورة ، بعد أن كان « مرمما » لقطع الاثاث في قصر لامويت في العهد البائد . وكان العم هو الذي التحق أولا بخدمة الامبراطور ، ثم لحقت به فيليسيتيه في ٢٢ اكتوبر عام ١٨٠٤ ، وأخيرا والدها في الثاني والعشرين من شهر نوفمبر التالي . وهكذا بدأت خدمة الفتاة في القصر قبل تتويج نابوليون ببضعة أسابيع .. أما علاقتها به فقد بدأت في عام ١٨٠٥ ، بعد رحلة ايطاليا التي اتفق بعدها على عدة مواعيد بينهما ، التقيا فيها دون أي مضايقة من ناحيتها

وكانت جوزيفين راضية عن هذه المغامرة الصغيرة ، فلم تأمر بطرد الفتاة .. واستمرت فيليسيتيه في تأدية مهام منصبها بمرتب قدره تسعون الف فرنك في الشهر ،

أضافت اليها جوزيفين ضعفها كراتب اضافى . وفى خريف عام ١٨٠٧ ، تزوجت فيليسيتيه وأصبحت مدام ريزنير .. وحملت الفتـــاة من زوجها على الفـور . وانتهزت جوزيفين هــذه الفرصة لتقوية حجتها بخصوص عجـز بونابرت عن انجاب ذرية . وكانت مدام هاملان ــ احدى صديقات جوزيفين ــ تقوم بحملة دعاية واسعة حول هذا الموضوع ، وتحكى عن ذلك أشياء عجيبة كانت تصل الى أذن فوشيه وزير الشرطة . وكان فوشيه يسرع بابلاغ نابوليون بخطورة هذه الشـائعات .. ولكن جوزفين كانت تدلل على صدق زعمها بأن علاقة نابوليون بالنساء فى هذه الفترة من الزمن لم تعط ثمارا ، فى حين أنهن حملن ــ على الفور ــ بمجرد زواجهن . وكان النـاس يقفون بالذات عند حالة فيليسيتيه .. !

وقد تركت فيليسيتيه القصر عند طلاق جوزيفين من بونابرت !



مؤامرة

فى خريف مايو عام ١٨٠٥ ، غادر نابليـــون باريس ليتسلم قيادة جيشه الـكبير بعد أن نشبت الحرب من جديد مع النمسا وروسيا ، وانتهت الحملة بأعظم واشهر انتصار لنابوليون فى معركة أوسترلتز

وأثناء اقامة نابوليون فى مدينة فينا ، عرض عليه مورا زوج شـقيقته أن يعرفه « بسيدة مدهشة » . قال له مورا : « أريد أن أعرفكم بسيدة رائعـة متيمة بحبكم ، وهى لا تريد أحدا سواكم .. » وبرغم أن نابوليون كان قليل الثقة بمورا ، فقد طلب اليه ان يحضر هذه السيدة

وبعد ذلك باثنتى عشرة سنة ــ أى فى عام ١٨١٧ ــ قال نابوليون عن هذه السيدة لصديقه جورجو : « انها لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية ، ولم أكن أعرف أنا كلمة واحدة من الالمانية . ولكنها أعجبتنى كثيراً لدرجة أننى قضيت معها ليـلة كاملة ، وكانت من ألطف من عرفتهن من النساء . وذات صباح أيقظتنى من النوم، ولم أرها بعد ذلك ابدا .. ولم أعرف قط من كانت هذه السيدة .. »

وأضاف نابوليون يقول : « ومع ذلك ، فقدصرح رئيس شرطة فينا فى عام ١٨٠٩ بأن هـذه السيدة كانت تدعى

جوديت .. ولكن ربما كان ذلك الاسم من نسج الخيال »

ويبدو لنا أن هـذه القصة تتعلق بالكونتيسة « ن » التى ورد ذكرها فى مذكرات كونستان ، فقد كتب كونستان يقول :

« قبل رحيل الامبراطور من قصر شـونبرون فى عام ١٨٠٩ بيومين أو ثلاثة أيام ، حاول أحدهم اغتيال نابوليون مرة أخرى بعد محاولة ستابس . وفى هـذه المرة كانت امرأة هى المكلفة باغتياله ، وهى الكونتيسة ن ..

كانت الكونتيسة « ن » فى ذلك الحين تلفت اليها جميع الانظار لجمالها الفائق ، وأيضا لعلاقتها باللورد باجيت سفير بريطانيا . ومن الصعب أن يصف المرء مدى سحر هذه السيدة ورقتها .. وكانت صالونات فينا لا تفتح لها أبوابها الا مع شيء من الكراهية ، ولكنها كانت تستعيض عن ذلك باستقبال ألمع عناصر الجيش الفرنسى فى منزلها الخاص !

وفكر أحد متعهدى الجيش فى أن يتيح للامبراطور أن يتصل بهذه السيدة .. وعرض الرجل الامر على الكونتيسه دون أن يحيط صاحب الجلالة علما بذلك . وكان اتصاله بها يتم عن طريق أحد أصدقائه ، وهو ضابط نمساوى من فرقة الفرسان كان ملحقا بالشرطة العسـكرية فى مدينة فينا .. واعتقد ضابط الفرسان هذا أنه كان يتحدث بأمر من جلالة الامبراطور ، فأخبر الكونتيسة ـ بكل سذاجة ـ أن الامبراطور سيسر أيما سرور برؤيتها فى قصر شونبرون فى مساء نفس اليوم ، وكان الضابط يتحـدث اليها فى الصباح ..

وطلبت الكونتيسة أن تعطى مهلة للتفكير فى الامر أثناء

النهار .. واضافت انها تريد أن يبرهن لها ـ بأدلة لاتقبل الشك ـ على أن الامبراطور يريدها حقا ، فأكدلها الضابط صدق قوله ، ووعد بأن يقدم لها الادلة الكافية .. واخيرا رحل بعد أن ضرب لها موعدا فى المساء

وعاد الضابط الى المتعهد واخبره بما تم ، فاعد هذا عربة لتكون جاهزة تحت تصرف الضابط فى المساء . وفى الموعد المتفق عليه توجه ضابط الفرسان الى الكونتيسة وهو يعتقد أنه سيعود بها معه ، ولكنها رجته أن يعود اليها فى اليوم التالى محتجة بأنها ليست على استعداد لتلبية طلبه ، وانها فى حاجة الى شىء من التفكير . وأبدى لها الضابط بعض الملاحظات ، ثم انصرف بعد أن أعطته كلمة شرف بأنها ستكون مستعدة فى اليوم التالى

وصرف الضابط العربة بعد أن امر سائقها بأن يعود فى اليوم التالى ، وفى نفس الموعد ..

وفى هذه المرة استقبلته الكونتيسة فى مزيج من الاهتمام والسرور .. ووجدها الضابط مستعدة فعلا للرحيل . وجعلته يثق بذلك بأن أرته ملابسها التى رتبتها كما لو كانت مقبلة على سفر طويل .. وأخيرا نظرت فى عينيه، وقالت له بغير كلفة :

ـ يمكنك الآن أن تعود لاصطحابى بعد ساعة واحدة ، وسوف تجدنى على استعداد تام للرحيل .. نعم ، اننى سأذهب لمقابلته ، ويمكنك أن تعتمد على فى ذلك . اما بالامس ، فقد كانت لدى بعض الاعمال التى يجب أن أصفيها .. انك لاشك تساوى وطنى ، وستبرهن على ذلك .. وانت تعرف بالطبع مدى الاضرار التى يلحقها هذا الرجل بوطننا .. حسنا ! اننى سأنتقم لبلادنا فى هذا المساء! .. فتعال لتأخذنى ، ولا تتخلف عن ذلك ..

واستولى الذعر على الضابط حين علم بنية المرأة ، وأسرع من فوره الى قصر شونبرون وقص على الامبراطور كل شيء ، فكافأه بسخاء .. وحثه على ألا يرى الكونتيسة بعد ذلك من أجل مصلحته الشخصية .. وأمره نابوليون بألا يذكر شيئا عن هذه المسألة

ويبدو أن تلك هى القصة التى لمح بها نابوليون الى صديقه جورجو فى مايو من عام ١٨١٧ ، حين قص عليه مغامرته مع السيدة النمساوية اللطيفة .. ولم تكن جوديت بالطبع هى بطلة هذه المغامرة



استيفانى

كان النقاد يرددون ــ بعد أفول نجم نابوليون ــ انه قلما كان يتحرج من ممارسة « حق السيادة » . وكانت احاديث جوزيفين نفسها هى مصدر هذه الشائعات .. الم تقص جوزيفين مثلا ان زوجها قد حاول الاعتداء على عفاف كاترين دى دســتفاليا الخطيبة التى كانت تنتظر شقيقه جيروم ؟ ..

وعلى الرغم من أن أحدا لم يكن يصدق جوزيفين ، فقد صدق الناس ــ وربماكان لهمالحق فى ذلك ــ ان نابوليون قد مارس حق هذه السيادة على قريبة شابة لجوزيفين تدعى « استيفانى دى بوهارنيه »

كانت استيفانى هذه فى السابعة عشرة من عمرها ، او أقل قليلا ، حينما أخذ الناس يتحدثون عنها .. ولكنها كانت حينذاك ناضجة مكتملة النمو تبدو كأنها فى الحادية والعشرين .. ولما كان نابوليون يحــاول ان يوفق بين مصالح السياسة وأطماع أسرة جوزيفين ، فقد قرر أن يزوج استيفانى دى بوهارنيه من الامير لويس أمير بادن . وكان قد اتخذ قراره هذا فى نفس الوقت الذى قرر أن يزوج فيه أوجين دى بوهارنيه ــ ابن عم استيفانى ــ من أوجستا أميرة بافاريا ..

كانت استيفانى شابة شقراء ، زرقاء العينين ، ذات وجه جميل وبشرة مخملية .. وكانت مرحة خفيفة الظل ذات صوت ساحر . ولم تكن استيفانى تأمل فى زواج يرفعها الى مصاف الاميرات .. ولكن نابوليون كان يعد لها مشروعات أخرى . وسواءاكان قد مارس معها « حق السيادة » أم لم يمارسه ، فمما لاشك فيه أنها كانت تفتنه بسحرها وخفة روحها ، وكثيرا ما كان يفكر فيها قبل معركة اوسترلتز

وبعد عودته من النمسا ، أمر باستدعائها الى القصر ، وجعلها تقيم فى شقة مجاورة لجناح جوزيفين ، وبدأ يهتم بها اهتماما كبيرا منذ ذلك الحين . وكثيرا ما كان يثيرها كى تجيب عليه بحرية وبغير كلفة .. لانها كانت على حد قوله : « ساحرة وذات حيوية دافقة » . ومن هنا بدأت جوزيفين تشعر بالقلق ، ويبدو أنها تشاجرت مع زوجها لهذا السبب

واستمر نابوليون مع ذلك يدلل استيفانى ، فقدمنحوا ثيابا تقدر قيمتها بخمسة وعشرين مليونا من الفرنكات ؛ وأهداها كميات كبيرة من الحلى والمجوهرات ، وعقدا بديعا من الماس .. ومنحها أيضا ستة ملايين من الفرنكات كمصروف شخصي ، ودوطة قيمتها ٤٥٠ مليونا من الفرنكات .. كل ذلك بمناسبة زواجها !

ولم يتوقف سخاؤه عند هذا الحد ، اذ منح والدها — الذى عينه عضوا فى مجلس الشيوخ — وظيفة شرف جعلت راتبه يصل الى خمسة عشر مليونا من الفرنكات فى العام . واضاف نابوليون الي ذلك سبعة ملايين من الفرنكات كهبات ، ثم منحه وظيفة « فارس شرف » ، يصل راتبها السنوى الى تسعة ملايين من الفرنكات .

والواقع أن مثل هذا الجمع بين وظائف عديدة مختلفة ، لم يحدث مثله من قبل ..

ولم يعبأ نابوليون « ببروتوكول » القصر ، واعطى لستيفانى حق الجلوس على أعلى مقعد الى يمين الامبراطور ، ولم يكن لها حق الجلوس الا على كرسى صغير . وهكذا كانت لها الاسبقية على جميع « صاحبات السمو » فى العائلة ، وأيضا على جميع سيدات عائلة بونابرت ! .. وبلغ كرمه الذروة حينما تبناها ، فانها ستصبح غدا زوجة لأمير بادن ، ولكن بوصفها ابنة لامبراطور فرنسا . وكانت الكارثة الكبرى حين منحها اقطاعية تحكمها ، فقد ارتكب بذلك خطأ فاحشا اذ جرد نفسه من هذه الاقطاعية الهامة التى كانت دويلة ألمانية اسمها : بريجزو . والواقع أن نابوليون لم يكن يعرف جيدا جغرافية ألمانيا ، ومن ثم فقد بعث برسول خاص الى بلاط بادن ليخبر الامير « بأن الامبراطور يمنحه كدوطة اقطاعية بريجزو » . وأضاف الرسول قائلا : « وأظن أن فى نية الامبراطور أن يضيف الى هذه الاقطاعية أورتناو » . ولم يكن نابوليون يعرف ماهى أورتناو هذه !

وكانت أورتناو دويلة صغيرة فى اقليم «صواب» .. وقبل نابوليون ان تضاف هذه الدويلة الى دوطة استيفانى دون أن يدرى ما ستسببه هذه الهدية من فرح فى بلاط بادن : فهو لم يكن يعرف قيمتها . ولو أنه كان قد احتفظ فقط ـ كما نصحوه ـ بدويلة بريجزو ، لاصبحت بفضلها منطقة فيوبريزاج حصنا رهيبا يفوق فى الاهمية مدينة كيل بكثير . ولو لم يحدث هذا التنازل من جانب نابوليون ، لما استطاع الحلفاء قط غزو منطقة بازل فى عام ١٨١٤ ، حين هبت أوروبا تثأر منه ..

وأمر نابوليون بأن تقـــام الزينات فى باريس احتفالا بزواج استيفانى . وأقيمت الحفلات الراقصة فى كل مكان .. وكانت الصغيرة استيفانى تعيش فى نشوة بسبب ذلك . ومن المعروف أنها منعت عريسها من الدخول الى غرفتها ليلة عرسها .. وقرع الامير باب الغرفة راجيا متوسلا دون جدوى ، حتى اضطر أخيرا الى قضاء ليلته على مقعـد كبير . ولم يخف نابوليون سروره حين علم بالامر ! .. وتكرر نفس الشيء فى الليالى التالية

وقررت جوزيفين أن تضع حـدا لهذه المهزلة بتحطيم اوهام الفتاة وتمكين الزوج من ممارسة حقه الشرعى ؛ فأوضحت لزوجها مدى السخرية التى يثيرها بمساندته لآمال الفتاة الخيـالية .. وأخبرته بأنه لا يستطيع أن يترك ألسنة السوء تتسلى على حسابه فى البلاط ، مدة أطول من ذلك .. فهو أمر لا يليق بكرامته أو بسـنه ، وأصرت أخيرا على أن يعمل على تحطيم عناد هذه الفتاة..

وخضع نابوليون لرأى زوجته ، وعجل برحيل حبيبته الصغيرة الى بلاد زوجها .. وكان يتصور انها حين تصبح بعيدة عنه ، فلا بد أنها ستسلم نفسها لزوجها . وأخيرا رحلت استيفانى وقد بلغ اليأس من نفسها أقصاه !

ومن الغريب أنها ظلت فترة من الزمن دون أن تستسلم لزوجها أمير بادن ، وكأنما تريد أن تحتفظ بنفسها خصيصا من أجل بونابرت . ولكن السياسة التى كانت تقضى حينئذ بالا تحدث فضيحة فى بادن اضطرتها للخضوع آخر الامر ، ولاسيما ان صدى مثل هذه الفضيحة كان خليقا بأن يكون خطيرا بالنسبة لنفوذ الحكومة الفرنسية هناك .. ولم يهدأ نابوليون الا حينما اعلنت له استيفانى انها حامل ، واستطاعت استيفانى أن تجد السعادة الى جوار زوجها

الذى كان يحبها ويعطف عليها .. ولكنها ترملت فى عام ١٨١٨ وكان شـــقاؤها عظيما بفقـدانها لجميع أولادها الذكور ..

لقد كان لدى نابوليون هوس لتزويج الناس ! .. ونادرا ما نجحت الزيجات التى تسبب فى عقدها .. وربمـا كان زواج أوجين دى بوهارنيه من أوجستا أميرة بافاريا هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة !



فتاة من برلين

احتفل بزواج استيفاني فى بداية شهر ابريل من عام ١٨٠٦ . وفى ٢٥ سبتمبر من نفس العام ، غادر نابوليون قصر سان كلو وانتقل الى مدينة مايونس فى المانيــــا . ولاحظ الجميع انه كان « منشغلا بمزاجه انشغـــالا كبيرا » .. وكان نابوليون قد اصبح رجـــلا بدينا فى السابعة والثلاثين

وفى ١٤ اكتــوبر ، انتصر قائده دافــوفى فى معركة اورستادت ، وانتصر نابوليون فى معركة يينا .. ولكـن كان يجب عليه ـ بعد هزيمة جيش بروسيا ـ إحتلال هذه البلاد وانتزاع حصونها ، ولذلك بدأ حملة عسكرية جديدة مع الروس حلفاء البروسيين

ودخل نابوليون مدينة برلين فى ٢٧ اكتوبر ، واقـــام بها حتى الخامس والعشرين من نوفمبر . ولم يحرم نفســه أثناء هذه الفترة من المواعيد الغرامية ، ويبرهن على ذلك بوضوح المبالغ المرصودة فى دفاتر حســابات مصاريفه الخاصة . وهناك أيضا مشتريات لغراميـات طارئة مع سيدات من برلين وصلت قيمتها الى خمســة عشر مليونا من الفرنكات . ومن مغامراته العــاطفية فى ذلك الحين ، مغامرة مشهورة تحدث عنها نابوليون نفسه

عدة مرات .. فقد حدث أثناء استعراض عسكرى كبير فى برلين ، ان اقتربت من نابوليون فتاة شابة وبصحبتها سيدة متقدمة فى السن الى حد ما .. قدمت الفتاة شكوى مكتوبة الى الامبراطور . ولما عاد الى قصره قال يخاطب خادمه كونستان :

ـ إقرأ هذا الطلب ، وستجد فيه عنوان السيدتين اللتين قدمتاه .. ثم اذهب اليهما لتعرف من هما وماذا تريدان ..

وقرأ كونستان الورقة ، ثم قال :

ـ ان الفتاة تطلب شرف المثول بين يدى الامبراطور لحديث خاص ..

وأمره نابوليون بالذهاب لاحضارها على الفور .. وذهب الخادم الى هناك ، فوجد المرأتين تنتظران ..

كانت الفتاة آنسة فى حوالى السادسة عشرة من عمرها ، وكانت لاتعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية أو الايطالية .. ولم يكن الخادم يعرف غير هاتين اللغتين .. ولكن السيدة العجوز ـ وهى والدة الفتاة كانت تعرف بضع كلمات فرنسية ، ولكنها كانت كافية للتفاهم ..

وذكرت السيدة للخادم انها أرملة ضابط بروسى ، وانها تأمل فى ان يستقبل الامبراطور ابنتها ، ولكنها ترغب فى أن تحضر المقابلة بينهما ..

وحاول الخادم ان يبين للمرأة ان « الحديث » يخص ابنتها وحدها ، وأن تقاليد « البروتوكول » لاتسمح بوجودها .. ولكنها أصرت على رأيها ، واخيرا لم يجد مناصا من أن يعود الى سيده ويخبره بما حدث ..

وأمره نابوليون بأن يحضرهما معا فى احـدى العربات، وجاءت الفتاة ووالدتها فى العاشرة مساء عند قاهـر بروسيا ..

واستطاع الخادم ان يحتجز الام فى احد مكاتب القصر ، واصطحب الابنة لمقابلة سيده ..

وكان انتظار الام طويلا ، فقد احتفظ نابوليون بالفتاة الصغيرة شطرا طويلا من الليل على خلاف عادته ، ويرجع ذلك الى ان الطرفين لم يكن فى وسعهما التفـاهم الا بالاشارات

وفى الصباح ، نادى نابوليون على خادمه الخاص وأمره باحضار مليون ونصف مليون من الفرنكات . وسـلم الامبراطور المال بنفسه الى الفتاة البروسية الجميلة ، التى فرحت به ايما فرح . وعادت الابنة الى امهـا .. وأوصلهما كونستان حتى مسكنهما ..

وبعد عودة كونستان ، قص عليه نابوليـون كيف ان خلوتهمع هذه الفتاة الجميلة كانت خلوة ممتعة .. وكيف أنها كانت تقول له من فرط سرورها : « يالك من شقى ! .. يالك من شقى ! »

وكانت ثمة ذيول لهذه المغـامرة القصيرة .. فقـد أصبح لهذه الفتاة عشاق آخرون من بعد بونابرت ، وكان من بينهم ضابط فرنسى جعلها تتعلق به ، واصطحبهـا معه الى باريس . وهناك ، انتهى امرها الى العمـل فى منزل يدار للدعارة .. وذات يوم ، هربت الفتـاة من المنزل ، والتقت بكونستان مصادفة فى شارع ريشـيليو فقصت عليه ما صادفته من كوارث بلغة فرنسية سليمة ، واختتمت حديثها معه قائلة :

ـ ذكره بى .. لقد وعدنى عشر مرات بأنه سوف يرانى مرة ثانية ، وأنه لن ينسانى أبدا !

ولكن الوقت كان قد فات .. فقد كانت علاقات فتاة برلين بضباط جيش نابوليون كافية لان تبعده عنها الى الابد !





غرام نابليون
بالكونتيسة البولندية

ماری فاليفسكا

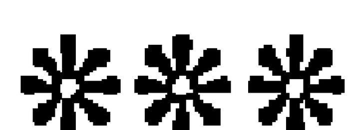
غادر نابوليون برلين الى مدينة بوزنان فى بولندا ، ثم ظهر فى وارسو لمدة يومين أو ثلاثة خلال شهر ديسمبر عام ١٨٠٦ . وفى نهاية هذا الشهر ، توجه الى مدينة بولتوسك ومنها عاد الى وارسو مرة أخرى فى أول يناير عام ١٨٠٧ ، فى الساعة الثامنة مساء ..

وكانت اقامة نابوليون فى العاصمة البولندية اقامة ساحرة بالنسبة له ، ولضباط أركان حربه على السواء ، فقد كانت حياتهم هناك ، تشبه حياتهم فى باريس ، زاخرة بحفلات الاستقبال والحفلات الراقصة والموسيقية . وكانت هناك غراميات لمعظم ضباط أركان حرب الامبراطور القاهر .. أما بالنسبة له ، فقد بدأت حينذاك علاقته الشهيرة بمدام فاليفسكا ، وهى العلاقة التى دامت بضع سنين

وقد ذاعت أساطير عديدة حول قصة غرام بونابرت بهذه السيدة الجميلة التى كانت له بمثابة الزوجة البولندية .. ومجد الرواة هذه الشابة الحسناء ، قال بعضهم كانت ضحية لزوج شيخ كريه ، وقال آخرون انها بطلة وقال قائل آخر بأنها مثل أعلى للفضيلة والحب والاخلاص

والواقع ان حقيقة امرها ليست معروفة على وجه التحديد ، فان تاريخ علاقتها الغرامية بنابوليون لم يعرف

حتى الآن ، وهو لايزال موضع بحث من المؤرخين . وهناك ثلاثة مصادر رئيسية بخصوص هذه العلاقة : اعترافات ماري فاليفسكا بطلة القصة ، وروايات الكونت بونيا توفسكي ، وأحاديث نابوليون نفسه . وتختلف هذه المصادر فيما بينها اختلافا كبيرا ، وأطولها هي اعترافات ماري فاليفسكا ، في حين كانت تصريحات نابوليون اقصرها



كانت الكونتيسة ماري فاليفسكا في الواحدة والعشرين من عمرها حينما وصل نابوليون الى وارسو ، وكانت في ذلك الوقت زوجة وأما . والكثيرون من الرواة يحاولون تجاهل هذه الحقيقة الاخيرة ..

ولدت ماري في بلدة لا كزينسكا من والد نبيل فقير كان ربا لاسرة كبيرة العدد تتكون — عدا زوجته — من اربعة أولاد وبنتين ! وتلقت ماري علومها الاولى على يدى شيخ نبيل كان أحسن حالا من والدها . ولما شبت عن الطوق ، الحقها والدها باحدى المدارس الداخلية في الاقليم ، واخيرا ذهبت لتتلقى العلم في وارسو ..

وقد نشأت ماري تتحدث اللغة الفرنسية والالمانية ، وترقص الفالس والمازوكا البولندية ، ولم تكن تحب الحياكة أو أشغال الابرة ، وانما كان كل اهتمامها موجها للقراءة والموسيقى وركوب الخيل .. والمرء لا يملك الا ان يعجب بوالدتها التي استطاعت رغم حياتها المثقلة بالديون والرهونات ان تربى أولادها هذه التربية الممتازة !

ولما عادت ماري الى منزلها — وهو قصر قديم تملكه الأسرة — في بلدة كيرنوزيا ، استقبلتها والدتها قائلة :

« لقد أصبحت ماري شابة جميلة .. فليتكرم الله ويرزقها سريعا بزوج طيب ، فسوف يخفف هذا من وطأة الحياة علينا »

وكان للاسرة جار ثري من النبلاء من ذوي النفوذ يدعى الكونت « فاليفسكي » .. كان يذهب الى الكنيسة في أيام الآحاد تحيط به حاشية كبيرة . وكثيرا ما كان يقيم حفلات للرقص والاستقبال يدعو اليها الاصدقاء والاتباع

ولم تضـــع الارملة لاكزينسكا والـــدة ماري وقتـــا ، فاصطحبت ابنتها الى الكنيسة . وهناك ، حدث ماكانت تسعى اليه ، ودعاها الكونت هي وابنتها لتمضية يوم في قصره ..

وذهبت الفتاة مع والدتها الى قصر فاليفسكي ،واخذت الام تطري جمال ابنتها وصفاتها على مسمع من الكونت ، ودفعتها الى أن تعزف له على البيانو ، وكانت تريد بذلك أن تجذب اهتمامه الى الفتاة الشابة بأي ثمن .. !

وعزفت ماري كل ما حفظته من مقطوعات .. واضافت الام بعد ان فرغت الفتاة من العزف أن ابنتها ممتازة في الرقص كذلك . واسترعت عبارة الام انتباه الكونت ، فقال فجأة وكأنه تذكر شيئا :

ـ آه ! هل توافقان اذن على الحضور الى حفلة الرقص التي سأقيمها عندي ؟

فقالت الام ـ على الفور ـ في حماس :

ـ بالطبع ياسيدي الكونت .. فمن واجب الاثرياء من السادة الاشراف أن يدعوا جيرانهم الفقراء من أمثالنا .. ان هذا يسهل على الامهات اظهار فتياتهن ..

وحدد موعد الحفل في يوم الاحد التالي

وعادت الابنة ووالدتها الى منزلهما ، ومعهما جمل

كبير من الحلوى والزهور . وقالت الام تحدث الفتاة أثناء الطريق :

ــ ان فى وسعك أن تصبحى الكونتيسة فاليفسكا !

فأجابت الفتاة قائلة :

ــ آه !.. كلا .. فليحمنى الله من ذلك يا أماه !

وتلقت الفتاة صفعة قوية على وجهها .. فما كان منها الا أن أكملت بقية الطريق الى البيت صامتة لا تنبس ببنت شفة !

وفى يوم الاحد التالى ، رافقت مارى والدتهـا الى الحفل الذى اقامه الكونت تكريما لها ..

كان الكونت فاليفسكى فى السابعة والستين من العمر، وكانت زوجته قد ماتت منذ أكثر من خمسة عشر عاما .. وفى الموعد المحدد ، وقف ينتظر مارى فى فناء القصر وهو يرتدى ملابسه الرسمية ذات الاوسمة العديدة ، ويمسك بيده باقة كبيرة من الازهار

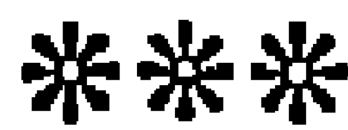
واثناء الحفل ، قدموا لهـا أحد النبـلاء الروس ، وأخبروها بأنه يتحرق شوقا لرؤيتها .. وأعجبت مارى أيما اعجاب بهذا الشاب الوسـيم على الرغم من أن البولنديين كانوا لايحبون الروس .. وتبعا للتقـاليد البولندية حينذاك ، لم يكن فى وسع مارى أن تتزوج من رجل روسى أو بروسى ، ومن ثم فقد رفضت هذا الشـاب حين تقدم يطلب يدها فى اليوم التالى ..

وكان الكونت فاليفسكى قد ذهب مع الشاب الروسى يؤازره فى طلبه ، فلما رأى رفضها له ذهب يطلب يدها لنفسه فى اليوم التالى . ووضعت الام ابنتها ــ بعـد رحيل الكونت ــ امام أمرين لا ثالث لهما : فاما الزواج من الشـاب الروسى ، واما الزواج من الكونت الشـيخ .

واختارت ماري الشيخ البولندي ..!

وعقب موافقة ماري على هذا الزواج ، وقعت فريسة حمى شديدة جعلتها بين الموت والحـــياة لمدة ثلاثة أسابيع . ولما عادت الى وعيها ، وجدت الكونت فاليفسكي واقفا الى جوار فراشها ، فأصيبت بنكسة جـــديدة تسببت فى تأخير حفل الزواج مرة أخرى . ثم انتهى كل شيء كما أرادت والدتها .. وبذلك أصبحت مـــاري لاكزينسكا الكونتيسة فاليفسكا ..

وكان الكونت فاليفسكي رجلا ممتازا ، فلم يتوان عن مصارحة زوجته بأنه لم يعد فى سن تتيح له أن يبـادل الحب فتاة شابة مثلها ، وأنه يقنع بأن تبادله الصداقة والثقة . وكان الرجل شهما كريما ،فلم يكتف بأن هيأ لزوجته مركزا مرموقا ، وانما أخذ ينفق على الوالدة واولادها ، وهكذا تحسنت حالتهم منـــذ ذلك الحين تحسنا ملموسا !



وعاشت ماري هكذا ثلاث سنوات أصبحت خلالهـــا اما .. ويدل ذلك على أن الكونت لم يكن هرما ميئوسا منه كما صورته كثير من الروايات .. كانت مـــاري قصيرة القامة ، لها فم جميل وعينان ساحرتان . وكان شعرها كستنائيا فاتحا . ولم يكن جمالها من نوع نادر المثال ، ولكنها كانت تتمتع بقسط وافر من الجـــاذبية والرقة والنعومة . وكانت ابتسامتها اللطيفة ، ونبرات صوتها الساحرة ، وعذوبة حديثها .. كل ذلك كـــان يمتزج بشيء من الاعتـــدال فى الزينة والبســـاطة فى الحركات ..

ولما بدات حملة نابوليون ضد بروسيا فى نهايةسبتمبر

عام ١٨٠٦ ، اقترح فاليفسكي على زوجته الرحيل الى وارسو لقضاء فصل الشتاء هناك . واشترى الكونت منزلا جديدا ، أثثه تأثيثا فاخرا كي يجعل من صالون الكونتيسة فاليفسكا نداً لأحسن صالونات وارسو

كانت زيارة نابوليون الاولى للعاصمة البولندية زيارة قصيرة .. ولكنه ما أن عاد اليها في أول يناير عام ١٨٠٧، حتى كان كل شيء قد أعد لاستقباله استقبال الفاتحين . ولما علمت ماري ـ السيدة الوطنية المتحمسة ـ بوصول نابوليون قاهر بروسيا عدوة بولندا اللدود ، قررت أن تخرج لاستقباله ، مثلها في ذلك مثل كل البولنديين الذين خرجوا للقائه ان طوعا أو كرها ، والذين يقيمون على طول الطريق الذي سيأتي منه الزائر العظيم .. وخرج مع هؤلاء عدد من سكان مدينة وارسو .

أمرت ماري باعداد عربة ذات أربعة خيول ، ركبت فيها سرا مع احدى بنات عمومتها ، وكان المنادون يعلنون في كل مكان أن نابوليون يقترب من مدينة بلوني ، فأصدرت أمرها للحوذي بأن يتجه بسرعة الى بلوني .. وعند أبواب المدينة ، غادرت السيدتان العربة واختلطتا بالجمهور ، وكان الزحام شديدا يكاد يخنق الانفاس !

واستولى اليأس على نفس ماري ، اذ كيف سيتسنى لها أن تراه وسط هذه الحشود الهائلة من الناس ؟ .. لقد كانت روحها تكاد تغلي من فرط الحماس ... الم يحارب نابوليون بروسيا ، وغدا سيحارب روسيا أيضا ، وكل ذلك من أجل اعادة تكوين دولة بولندا ؟ ولكن هاهو ذا يصل .. نعم ، انها عربة البطل !

وبلغ اليأس من نفسها أقصاه ، فقررت أن تفعل اى شيء .. وفي هذه اللحظة ، وقع بصرها على ضابط من

الجيش بدا لها أنه من كبار رجال حاشية نابوليون ، فأخذت تصيح فى عنف كى تلفت نظره اليها . ولمانجحت اخيرا فى اثارة اهتمام الضابط ، صاحت تقول على الفور : « آه ! خذنا من هنا ياسيدى .. اننى أريد أن اراه لحظة واحدة ! .. لحظة واحدة فقط ! »

ولم يتمالك الضابط من فرط مالمس من حماسها وحرارة لهجتها ، الا أن يمسك بها من يدها ويخرجها من وسط الزحام . ولشد ماكانت دهشتها حينما وجدته يتجه مباشرة نحو باب عربة نابوليون !

قالت مارى فى انفعال وتأثر كبيرين :

ـ مولاى ! .. انظر كم من الصعاب تحملتها من أجل رؤيتكم ..

ورفع نابوليون قبعته محييا ، ثم انحنى نحوها وتمتم ببضع كلمات لم تسمعها مارى من فرط الانفعال ، بينما استمرت فى حديثها الذى كانت قد أعدته قائلة :

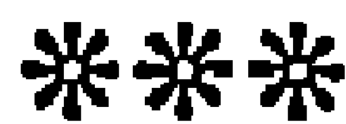
ـ مرحبا بك ألف مرة فى بلادنا !.. إن كل مانفعله لايمكن أن يعبر عن عمق المشاعر التى نكنها لشخصكم ، وأنتم تطأون أرض هذا الوطن الذى ينتظركم لينهض من كبوته ..

وكانت مارى ـ كما ذكرت فى اعترافاتها فيما بعد ـ فريسة للهذيان ، وهى تنطق بهذه الكلمات التى كانت تضطرم فى نفسها .. واضافت تقول فى هذه الاعترافات: « لست ادرى كيف استطعت أن أفعل ذلك على الرغم من خجلى الطبيعى ! »

ولم يفت نابوليون أن يعبر عن اعجابه بالسيدة الشابة الجميلة ، فقدم لها باقة من باقات الزهورالتى كانت تملأ عربته ، وقال :

ـ احتفظى بهذه الزهور عربونا على نياتى الطيبة ، وأتعشم أن أراك فى وارسو .. اننى سأطالبك بشــــكر يصدر من ثغرك الجميل !

وعاد الضابط الكبير بسرعة الى مكانه بجوار نابوليون ... واخذت العربة تبتعد رويدا رويدا ، والبطـــل لايزال يلوح بقبعته للسيدة البولندية .. أما مارى، فقد تسمرت فى مكانها ، وراحت تتابع العربة بنظـرها حتى اختفت فى آخر الطريق . واضطرت ابنة عمها أن تتدخل « لتعيدها الى نفسها » .. واخيرا حملت كنزها الثمين من الزهور وعادت الى بيتها . وكان الوقت متأخرا ، فنامت على الفور من فرط السعادة والارهاق ..



اقام نابوليون فى وارسو .. ولما لم تهرع اليه السيدة البولندية فى الموعد المحدد الذى ضربه لها ، أصدر على الفور أوامره للشرطة بالبحث عنها .. وبحثوا عنها فى كل مكان دون جدوى . وأخيرا لجأ الى كل اعيــــان العاصمة ولاسيما الكونت بونياتوفسكى الذى سيجعل منه ماريشالا فيما بعد .. وكان لذلك الكونت عشيقة فرنسية تدعى هنرييت بوجيه ، وكانوا يدعونها بمــدام فوبان . وكانت مدام فوبان هذه تعرف عائلة لاكزينسكى منذ زمن طويل ، ولاسيما مارى . وعن هذا الطريق ، عرفوا أن السيدة المجهولة هى الكونتيسة الشابة مارى فاليفسكا

ان مارى نفسها هى التى قصت علينا كل ما قلنــاه تقريبا حتى الان .. وذلك أنها حاولت حينما اهملهــا نابوليون بعد سقوطه ـ وحتى قبل أن يسقط ـ أن تدافع عن نفسها ، وأن تجمع الحجج والاعتذارات لتبرير موقفها

امام أهلها وبلدها ، لانها كانت حينذاك قـــد أدركت سقطتها . وهى تقص كيف أنها اســتسلمت آخر الامر بعد مقاومة طويلة .. وأفاضت فى ذكر التفاصيل بشىء من التزييف ، كما يحدث عادة فى مثل هذا النــوع من الدفاع عن النفس ، وهو دفاع طبيعى ومشروع على أية حال . انها تظهر نفسها وكأنما قد ضحى بها فى سبيل قومها .. وهى تبين لنا أيضا أنها كانت ضحية مدام فوبان ، المرأة الخبيرة ، وهى الصبية الساذجة التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها !.. ولكنها كانت فى الواقع تعرف جيدا من هى مدام فوبان هذه ، وتعرف انهاكانت عشيقة لبونياتوفسكى ، فضلا عن انها كانت حينذاك اما، وفى الحادية والعشرين من عمرها .. ولكن لندع كل ذلك ولنمض فى قصتنا ..

هاهو ذا الكونت بونياتوفسكى يقف امام مارى،ويحكى لها شوق نابوليون المبرح الى لقائها .. والح عليهاالكونت أن تحضر حفلا كبيرا راقصا كى يتأمل ضيوف الامبراطور أجمل زهرة فى أرض بولندا .. قال بونياتوفسكى :

ـ هيا .. هيا .. دعك من هذا التواضع ..لاتحاولى أن تخفى انتصارك الكبير ، فقد انكشف سرك ..

وقاومت مارى ، وأخبرت بونياتوفسكى بأنهــا تترك نابوليون لمن تردنه من النساء الاخريات اللاتى هن اكثر جدارة به منها ، ولكنه أجابها قائلا :

ـ ان المسألة لاتتعلق ابدا بجدارة النساء الاخريات .. انه يفضلك انت ، ولايريد أحدا سواك ..فاستخدمى اذن كل وسائل الاغراء .. اننى اتوسل اليك أن تضحى بنفسك قربانا للوطن .. هيا وسنسير جميعا من خلفك ومن يدرى ؟ لعل السماء قد أرسلتك لجمع شمل الوطن

واعادة بنائه من جديد !

وأصرت ماری على الرفض .. والح عليها اشخاص آخرون من كبار شخصيات المدينة . واخيرا تنازلت ووافقت على الذهاب الى الحفل بعد أن أصبحت المسألة وكأنها مطاب شعبى !

وارتدت ماری ثوبا ومعطفا من الحرير الابيض ، ووضعت على رأسها تاجا من الازهار .. وعاونهازوجها بنفسه فى « اعداد زينتها » ، فقد كان يخشى أن تصل متأخرة فتجد نابوليون قد غادر الحفل ..

ووصلت ماری الي المكان ، وسارت بين جموع كبيرة من الضيوف منتشرة هنا وهناك فى الصالونات . واستطاعت ان تسمع همسات الاطراء تنبعث من كل مكان . وأخذ الناس يسألونها عن سبب التأخير . واخيرا أوقفوها بين سيدتين لم تكن تعرفهما ..

وتسلل بونيافسكى الى جوارها على الفور ، وهمس فى اذنها قائلا :

ـ انه كان ينتظرك بفارغ الصبر ، وسر أيما سرور حين رآك تدخلين .. لقد جعلنا نردد له اسمك مرارا حتى حفظه عن ظهر قلب . انه تفحص زوجك مليا ، ثم هز كتفيه وقال : ياللضحية المسكينة ! والتفت الى ثم أصدر لى أمرا بأن أدعوك للرقص ..

فقالت :

ـ اننى لا ارقص ، وليست لدى اية رغبة فى الرقص

فقال بونياتوفسكى فى دهشة كبيرة :

ـ انه أمر ياسيدتى .. وليس فى وسعك ان تهربى منه !

فقالت ماری وهی تضحك :

ـ أمر ؟!.. وهل يرقص الناس أيضا طبقا للاوامر؟ كلا .. كلا .. اننى لست دمية حتى تجعلونى أدور وفق مشيئتكم ..

ـ كيف ؟.. هل تتمردين بمثل هذه السرعة ؟ ..

ـ نعم . اننى اتمرد دائما على الظلم ، وعلى الطلبات غير المعقولة

ـ ولكن ارفعى عينيك بحق السماء ! .. انظرى .. هل ترين أنه يراقبنا ؟ أتوسل اليك ..

ـ اننى لا أترك مكانى هذا مهما تكن النتائج .. هيا اذهب وقل له اننى لا أريد ان أرقص ..

ـ لاشك انك تمزحين ياسيدتى ، فأنت لا تريدين احراجى بالطبع !..

ـ انك انت الذى تسبب لى الحرج بالحاحك هذا !. ارجو أن تدعنى شفقة بى ، فالعيون كلها تتطلع الينا ..

واضطر الكونت أخيرا أن يبتعد .. وقص ماداربينه وبينها على دوروك ، الذى أخبر ـ بدوره ـ نابوليون بما حدث ..

وعقب انتهاء الرقص ، نهض نابوليون واخذ يطوف بالقاعة فى صحبة بونياتوفسكى . وكان يوجه لكل سيدة بالحفل عبارة أو كلمة لطيفة ، ولكنه كان بادى القلق والانشغال . وسأل احدى الآنسات عن عدد أولادها ، وسأل امرأة أخرى عما اذا كان زوجها يغار عليها ، واستفسر من سيدة بدينة عما اذا كانت تحب الرقص . وكان قلب مارى أثناء ذلك يدق فزعا لانه كان قد أصبح على قيد خطوات منها . وكانت نظراته التى لا تبارحها تجعلها « تنتفض من قمة رأسها الى أخمص قدميها »

ولما صار نابوليون أمامها ، غضت من بصرها ، ولكنها سمعته يقول لها :

ـ ان الابيض لايتفق مع الابيض ياسيدتى ..

ثم أضاف يقول بصوت منخفض : « ان استقبالك لى ليس هو الاستقبال الذى من حقى أن أنتظره منك ..! »

ولكنها ظلت واقفة فى مكانها جامدة كالتمثال ، فلم تجب بحرف واحد أو ترفع اليه عينيها .. وظل يتأملها مليا لحظة طويلة ثم ابتعد . وغادر نابوليون القاعة بعد وقت قليل ، وحينئذ احست « بأن هما ثقيلا قد انزاح عن كاهلها »

***

وما ان عادت مارى الى منزلها حتى قدمت لها الخادم خطابا سريا جاء فيه :

« اننى لم أر أحدا سواك .. ولم أعجب الا بك ... ولا أرغب الا فيك .. وها أنذا انتظر بفارغ الصبر ردا يهدىء من النار المستعرة فى قلبى . ن »

وثارت مارى لهذا الاسلوب الذى يعبر عن الرغبة فى صراحة وعنف ، فألقت الخطاب جانبا وظلت جامدة فى مكانها ، وقد استولت عليها دهشة كبيرة ..

وصاحت الخادم تقول :

ـ هل تعرفين ياسيدتى من هو الشخص الذى ينتظر فى الخارج ؟ انه الامير بونياتوفسكى !

فأجابتها سيدتها قائلة :

ـ هذا لا يهم .. اذهبى اليه ياجولى وقولى له الا ينتظر أى رد ..

وعادت جولى بعد لحظة ، وقد استولى عليها الذعر . . ولشد ماكانت دهشة سيدتها حين رأت الامير يتبع الخادم ، فأسرعت الى غرفتها وأوصدت على نفسها الباب بالمفتاح ، ثم صاحت من خلف الباب تقول للامير بأن قرارها هذا قرار نهائى ، وأنها ترفض الرد على الخطاب مثلما رفضت الرقص من قبل ..!

ولكن بونياتوفسكى ظل واقفا بالباب ، يرجو ويتوسل اليها نصف ساعة كاملة . ولما لم يجد فائدة ترجى من وراء ذلك ، رحل أخيرا وقد تملكه غضب شديد . وكتبت مارى تقول انها ركعت حينئذ على ركبتيها تدعو اللهأن يحميها من هذه التجربة المريرة ، واضافت قائلة : « ان نابوليون لم يكن فى نظرى سوى تمثال كبير للعبقرية والآمال الوطنية وكنت أومن به وأعبده من بعيد ، ولكننى كنت أخشاه وأهرب منه عن قرب »

ولما استيقظت مارى صباح اليوم التالى ، وجدت خطابا آخر ينتظرها ، ولكنها لم تفض الخطاب .. وكان كل مافعلته أن ضمته الى سابقه فى مظروف واحد ، وأمرت الخادم بتسليمه الى الرسول .. وذلك دون أن تكتب على الغلاف حرفا واحدا !

ونحب هنا أن نلفت نظر القارىء الى أن مدام فاليفسكا لم تخبر زوجها ووالد ابنها بأمر هذهالمناورات المفضوحة التى كانت تتعرض لها . وفى نفس اليومالذى تلقت فيه ذلك الخطاب الاخير ، عارضت زوجها معارضة شديدة ورفضت أن تظهر فى الصالون لتقابل بعض الشخصيات الهامة وكان من بينها دوروك . لقد كان من الميسور أن تعيد الهدوء الى نفسها بأن تصارح زوجها بأنها محط رغبة من نابوليون ، وتواطؤ منرجال

لا يهمم مصلحة بولندا فى قليل أو كثير ، وانما يبذلون كل جهدهم لتملق الامبراطور وارضاء نزواته ..

وطلب منها زوجها ـ الذى لم يكن يعرف شيئا عن هذه المناورات ـ أن تذهب الى حفل للعشاء سيحضره الامبراطور . ورفضت مارى وهى مستمرة فى اخفاء الحقيقة . وأخيرا ، وبعد الحاح شديد من جانبه قبلت طلبه وهى تقول : « لتكن ارادتك اذن هى النافذة ! »

وبعد قليل من الوقت ، أعادوا اليها الخطاب الثانى الذى لم تكن قد فضته . وفى هذه المرة ، فتحت الخطاب وقرأت به مايلى :

« هل أغضبتك ياسيدتى ؟... ومع ذلك ، كان لى الحق فى أن آمل فى أن يحدث العكس .. ان شغفى بك يزداد فى الوقت الذى يقل فيه اهتمامك .. انك تنتزعين الراحة من قلبى المسكين ، فامنحى هذا القلب الذى يعبدك بعض السعادة والسرور .. هل الحصول على رد منك صعب الى هذه الدرجة ؟ .. انك مدينة لى بردين ! »

وماكادت تنتهى من قراءة هذه الورقة حتى دخل عليها زوجها .. ولم تفكر فى أن تطلعه عليها مع أنها كانت تستطيع أن تفعل ذلك بكل سهولة ..

وفى اليوم التالى ، ذهبت الى الحفل .. وكان مكانها فى مواجهة نابوليون ، والى جوار دوروك الذى ظل يهتم بها طيلة فترة العشاء ..

وقال دوروك يسألها :

ـ لماذا فتر حماسك ؟.. هل هناك زوج يغار عليك ؟

ودافعت مارى عن زوجها الكونت ، وقالت ان شعورها الوطنى فحسب هو الذى جعلها ترتمى فى طريق نابوليون

فهى تريد « أن يكون لابنها وطن »
وعقب دوروك على ذلك بقوله :
ـ ان نجاح هذا الامر يتوقف عليك وحدك ياسيدتى، ولكنك تلفظين النعمة .. اطلبى أى شىء وسوف يجاب طلبك !
كان نابوليون يراقبها طيلة الوقت ، وكان يرسل اليها خفية اشارات تدل على ولهه وفقدان صبره ، فيترجم لها دوروك معنى هذه الاشارات . وفى هذه اللحظة ، وضع نابوليون يده على العروة اليسرى لسترته « واحتار دوروك فى فهم معنى هذه الاشارة » ـ كما قالت مارى فيما بعد ـ ولكنه مالبث أن صاح يقول فجأة وقد أدرك مايعنى نابوليون :
ـ آه !.. وماذا فعلت بباقة الازهار ؟
فأجابته مارى تقول :
ـ انها باقة ثمينة بالنسبة الى ، ولذا تجدنى أحافظ على كل زهرة فيها .. فهى ميراث أحتفظ به لولدى..!
فقال دوروك :
ـ آه ! .. تنازلى ياسيدتى واسمحى بأن نقدم لك أزهارا أكثر جدارة بك ..
فقالت بسرعة وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل :
ـ اننى لا أحب شيئا قدر حبى للزهور ..
فقال دوروك وهو ينظر اليها فى دهشة :
ـ حسنا .. اننا سنجنى توا أكاليل الغار من بلادك ونقدمها هدية لك ..
فقالت مارى :
ـ آه ! اذا كنت تعنى بولندا ياسيدى الماريشال ، فهى باقة الازهار التى نطمع فيها جميعا ..

وعندما غادر نابوليون المائدة ، اقترب منها وقد بدت في عينيه نظرة ملتهبة ، ثم أمسك بيدها وضغط عليها في عنف ، وقال بصوت منخفض : « كلا !.. كلا .. ان هاتين العينين الجميلتين الحنونين ، وهذا العبير الطيب الذى يشع منهما ، وهذا السحر ، وتلك الجاذبية ..كل ذلك خليق بأن يجعل منك أكثر النساء ليونة ورقة ،بدلا من أن تتمتعى بتعذيبى هكذا .. »

وانطلق نابوليون فى طريقه بعد هذه الكلمات القليلة يتبعه المدعوون .. أما هى ، فقد ذهبت مع سيدة أخرى الى حيث يقف بونياتوفسكى . وأحاط بها جمع كبير من الضيوف .. وقال لها بعضهم : « انه لم يكن ينظر الا اليك .. لقد كان هذا واضحا تماما ! »

وفجأة ، ظهر دوروك .. وقال لها فى توسل وهو يجلس الى جوارها ويضع خطابا على ركبتيها :

ـ هل تستطيعين ياسيدتى أن ترفضى طلب من لم يرفض له احد طلبا قط ؟.. ان مجده محاط بالاحزان، وعليك يتوقف تبديد هذا الحزن .. لو هيأت له بضع لحظات من السعادة ..

واخفت مارى وجهها بين يديها .. ولكن جارتها تدخلت قائلة وهى تنظر الى دوروك :

ـ ان الصمت يعنى القبول ياسيدى الماريشال ... طمئن صاحب الجلالة على أن العصفور البرى الجميل سيكون حالا رهن مشيئته

كان الجميع يتدخلون فى هذه المشكلة .. وكانت هذه السيدة الاخيرة فى خدمة أتباع الكونت بونياتوفسكى ومدام فوبان ، وأيضا صديقة حميمة ل « مارى » على الرغم من ضعف أخلاقها .. ومع ذلك صاحت الكونتيسة

الشابة قائلة :

ـ ماذا تقولين بحق السماء ؟

فقالت الجارة :

ـ أقول ماكان يجب عليك أن تقوليه بنفسك . . اننى بولندية مخلصة ، وأعتقد ـ مثل كل العقلاء المخلصين ـ أننا مهما فعلنا من أجل نابوليــون فاننا لن نوفيـــه حقه . . !

واضاف دوروك يقول وهو ينهض منصرفا :

ـ اتوسل اليك ياسيدتى . . وأتعشم أنكستكونين أكثر رضا ، بعد أن تقرئى هذه الرسالة . .

وفتحت مارى الخطاب ، فوجدت فيه مايلى :

« هناك لحظات يشعر فيها المرء بأن المجد عبء ثقيل على كاهله . . فكيف ترفضين ارضاء خاجة ماحةللقلب الذى ينوء باعتبارات عليا تشل أعنف الرغبات ؟ آه ! لو أنك تريدين . .! انك وحدك تستطيعين رفع حواجــز الكلفة التى تفصل بيننا ، وسيسهل لك صديقى دوروك كل شىء . . آه ! تعالى ! وسوف تنفذ جميع رغباتك ، وسيكون وطنك أغلى عندى حينمـــا ترحمـين قلبى المسكين »

وجعلها هـذا الخطاب الغريب تقـــول آخر الامر :

« حسنا . . افعلوا بى ماتشاءون ! »

***

وفى المساء ، فيما بين الساعة العاشرة والحـــادية عشرة ، سمعت مارى على باب بيتها طرقا متفقا عليه ، فقالت لها صديقتها :

ـ هيا . . خذى هذه القبعة ذات الشبكة ، والتفى جيدا بهذا المعطف . انهم ينتظرونك عند ناصيةالشارع،

وقد أعدوا كل شيء بحيث لايجرح احساسك الرقيق.. هيا اتبعيني اذن ..

كانت العربة تنتظر وبداخلها دوروك .. وركبت ماري وماهي الا دقائق معدودات ، حتى كانت تجلس في مقعد وثير ونابوليون يجثو عند قدميها .. ومع ذلك كانت تبكي في حرقة ..!

وقال لها نابوليون :

ـ انك تكرهينني اذن .. لاشك أنني أسبب لك الفزع .. هل تحبين شخصا أسعد حظا مني ؟ ..آه!.. هيا تكلمي ! .. تكلمي ..

فقالت :

ـ كلا ! .. ليس الامر كذلك !.. انني أخجل منك ، ومن نفسي !

وانبرى نابوليون يعطيها درسا في الاخلاق على طريقته الخاصة ، وحاول أن يقنعها .. واخيرا قال لها :

ـ ياملاكي العزيز ... هل يمكن أن تخجلي من عمل طيب ؟ انك تمنحينني السعادة !.. انها لحظة من السرور !.. هل تعتقدين أني سعيد أنا الذي يحسدني الجميع ؟.. الا يرضيك أنني هنا تحت قدميك أستجدي حبك وأتوسل الى قلبك الصغير ..؟انني واثق من انه ملك لشخص آخر ، والا لما بكيت هكذا في حرقة ..ولكن الامر لدي سواء مادمت أرى وجهك الجميل ..

وحاول أن ينتزع منها منديلها الصغير الذي كانت تخفي به عينيها ، فقالت :

ـ ارحمني يامولاي !

فقال :

ـ لقد قيل لي انك عصفور بري .. يالك من ضحية

مسكينة ! فماذا عن زوجك العجوز ؟ .. كيف توصل اليك .. ؟

وما أن سمعته مارى يعرض بزوجها ، حتى صاحت بصوت يختنق بالدموع ، ونهضت من مكانها تريدالفرار. وكتبت تصف ذلك فيما بعد : « أحسست بأن ألف خنجر حاد تطعننى فى قلبى .. فقد كانت كل جريمتى تكمن فى اسم زوجى الذى ذكرنى به .. وبدت لى هذه الجريمة واضحة بكل بشاعتها .. ! »

ومكث نابوليون ذاهلا لتصرفها ، ساكنا لا يأتى بحركة .. ولكنه صاح يسألها حينما رآها تتجه ناحية الباب :

ـ انك اذن تكرهيننى حقا ؟.. هل أثير احساسا بشعا فى نفسك الى هذه الدرجة ؟!..

فقالت وقد طفرت الدموع من عينيها :

ـ آه ! .. يا للسماء ! .. هل تستطيع أى بولندية أن تكرهك ؟ كلا ، كلا .. اننى معجبة بك وأحبك ... فأنت السند الوحيد لأعز آمالنا وأغلاها .. لقد عبرت لك عن ذلك فى مدينة بلونى ، ولم تغادر صورتك خيالى منذ ذلك الحين .. لقد صليت للسماء من أجلك ... آه ! .. لماذا أعجز عن أن أصور لك حقيقة المشاعر المتصارعة فى نفسى ؟!

وأضافت تقول وقد تضاعفت دموعها :

ـ ولكن صدى هذا الاسم الذى نطقت به يتردد هنا فى أعماق روحى كأنه الندم مجسما ..!

وأعادها نابوليون الى مكانها ، ثم قال :

ـ حسنا .. بما أنك لا تكرهيننى ، فانصتى الى .. هل استسلمت بكل ارادتك لمن تحملين اسمه ؟..

ولم تجب ماری ، فأضاف يقول :

ـ هل قبلت أن تربطى مصيرك بمصيره حبا فى الثروة أو الالقاب أو فى اى شىء آخر ؟

فاندفعت تقول فى حماس :

ـ كلا ! .. آه ! .. يا الهى العظيم ! .. اننىلم أعرف قط حب الثروة ..

ـ أجيبى عن أسئلتى .. فلابد أن يكون هناك سبب غريب كى تتزوج شابة نضرة موفورة الجمال من شيخ هرم يكاد يبلغ الثمانين .. فاذا لم تكن الثروة أوالالقاب سببا فى هذا الزواج ، فما الداعى لذلك اذن ؟

فقالت وهى تنشج بالبكاء :

ـ لقد أرادت والدتى ذلك !

ـ آه ! .. لقد فهمت ! .. وانت الآن تندمين ؟

ـ يامولاى .. ان من يجمعهما الخالق ـ عن طريق الزواج ـ لايصح أن يفرقهما انسان .. لقد قال ذلك أعظم المشرعين ..

وضحك نابوليون ، وقد أثار اهتمامه هذا الكلام .. انه سيقول لها فيما بعد حين يتذكر هذا اللقاء : « هل تعرفين انه لولا وجهك الطاهر ، والدموع الغزيرة التى كانت تنهمر على خديك ، لما صدقت كلامك .. بل ولاعتقدت أنك امرأة لعوب تحاول التغرير بى ؟ »

وسألها نابوليون عن تربيتها الاولى ، وعن حياتها فى الريف ، وعن اسمها الذى أطلق عليها عند تعميدها ..

وفى الساعة الثانية ، سمعا طرقا على الباب ..وصاح نابوليون قائلا :

ـ ماذا ؟ .. أترحلين بمثل هذه السرعة ؟.. حسنا يايمامتى الجميلة التى تستحق كل عطف .. جففى

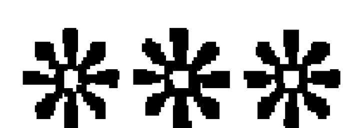
دموعك واذهبى لتستريحى ولا تخشى النسر(١) بعد ذلك . فكل قوته وهو الى جانبك تصبح حبا خالصا .. انه حب يهدف الى اجتذاب قلبك قبل كل شيء ... انك ستحبينه آخر الامر .. هل تسمعينني جيدا ؟

وعاونها على ارتداء معطفها ورافقها حتى الباب ، وهنا اوقفها لحظة اخرى .. وقال وهو يمسك بمقبض الباب:

ـ عدينى بأنك ستعودين غدا ، والا فلن أدعك تخرجين واستولى عليك عنوة .. آه ! فيم يهمنى ماسيقول الناس عنى آخر الامر ؟ .. انك بالنسبة لقلبى أثمن واعز شيء ارغب فى ان اغزوه !

ووعدته بذلك ..

وأوصلها دوروك الى منزلها حيث يقيم زوجها فاليفسكى . ووعدت دوروك بأن تتناول طعام العشاء مع نابوليون فى اليوم التالى ..



ولما استيقظت فى اليوم التالى ، تلقت من نابوليون خطابا وعلبة مغلقة . وحينما فتحت العلبة ، وجدت بداخلها عقدا من الماس وتاجا مرصعا بالجواهر ، فالقت « بهذه المجوهرات بعيدا تريد أن تحطمها » .. وفتحت الخطاب وقرأت به مايلى :

« مارى .. ياحبيبتى الحلوة .. ان أول من افكر فيه أنت .. واول من ارغب فى رؤيته أنت .. انك ستعودين ، اليس كذلك ؟ لقد أعطيتنى وعدا بذلك ،والا فسيطير النسر اليك !

---

(١) اسم الكناية الذى اشتهر به نابوليون

« انني سأراك على العشاء .. لقـد أخبرني صديقي دوروك بذلك

«فتنازلي اذن وتقبلي هذه الباقة من الزهور ، واجعليها رباطا خفيا يربط بيننا وسط هؤلاء الناس الذين يحيطون بنا .. اننا نستطيع عن طريقها أن نفهم بعضنا بعضا حينما نكون جالسين معهم . فحينما أضع يدي على قلبي ستعرفين حينئذ انني مشغول بحبك .. وسوف تردين على بأن تلمسي بيدك جواهرك هذه ..

« بادليني الحب أيتها الحبيبة اللطيفة .. وأتمنى الا تبارح يدك باقة جواهرك ابدا »

***

وتوجهت ماري الى حفل العشاء دون أن تتحـلى بهدية نابوليون .. فثار ثورة عنيفة .. وحينئذ وضعت يدها ـ بغية تهدئته ـ على المكان الذى كان من المفروض أن يشغله عقد الماس . ولما رآها تفعل ذلك هدأ غضبه بعض الشيء ، ثم لم يلبث كل شيء أن سار على ما يرام ..

وبعد الانتهاء من تناول العشاء ،كانت ماري في غرفة الامبراطور .. وتحدث معها نابوليون ـ في بادىء الامر ـ حديثا طويلا .. وكان غاضبا الى درجة انه ألقى بساعته الثمينة على الارض وحطمها بنعل حذائه . واستولى الذعر على ماري حينما سمعته يقول انه سيحطم بولندا هكذا ، وبذلك يمحو اسمها ، وتتبدد جميع آمال شعبها، اذا ما رفضت ماري ان تمنحه قلبها وان تقبل حبه !

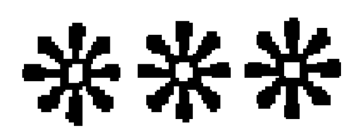
وكتبت ماري تصف هذا المنظر الاخير :

« لنسدل الستار على هذا المنظر الذى أريد أن أمحوه من ذاكرتي في مقابل دمي وحياتي .. انكم تعرفون ان هذا الرجل العجيب كان بركانا ثائرا .. لقد كانت عاطفـة

الطموح تسيطر عليه وتسيره .. وكانت عاطفة الحب عنده عنيفة جدا برغم انها كانت قصيرة الامد .. »

أما عن استسلامها لنابوليون ، فهناك روايتان حول هذا الموضوع ، الاولى تقول فيها مارى :

« ولم أعد أستطيع التراجع ، واضطررت الى مواصلة السير فى هذا الطريق الوعر الذى دفعنى اليه حماسى الزائد .. ومن ثم كانت التضحية أمرا مفروغا منه » . اما الرواية الاخرى فتقرر أن مارى قد فقدت وعيها من شدة الخوف أثناء هذا المنظر الدرامى الذى مثلهنابوليون أمامها ، فانتهز الفرصة واعتدى عليها .. وعلى اية حال، كانت النتيجة واحدة .. ولم يكن أمامها ــ على حد قولها ــ الا ان تستمر .. !



وأضافت مارى تقول فى مذكراتها :

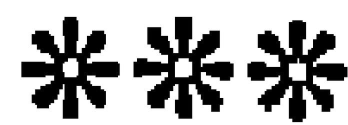
« وأصبحت زياراتى له يومية منذ ذلك الحين .. »

ولكن أصحاب الرواية الثانية يقررون أنها لم تغادر بيت نابوليون منذ هذه الليلة والراجح أن هذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة ، اذ لم يكن فى وسع نابوليون ان يطلق سراحهذهالزوجة ــ تحتسمع وابرسووبصرها ــ بعد أن انتزعها هكذا من زوجها وطفلها .. فكر طويلا.. وعلى أية حال ، كان عليه أن يحاول اصلاح ما أفسد .. ولكن وا أسفاه !.. فانه برغم الكرم العظيم الذىسيغمرها به لن يستطيع أن يمحو ذلك الخطأ الذى ارتكبه معها ، ولا العذاب الذى تردت فيه هذه السيدة البولندية الشابة

وكان الحديث يبدأ بينهما كل يوم عن بولندا ،وسرعان

ما يتحول هذا الحديث الى أشياء تافهة .. ولاحظت ماري ميل نابوليون لمعرفة « الاشياء الصغيرة » . فكان يحب مثلا ان يستمع الى شائعات الصالونات ، وان يعرف أسرار البيوت والعائلات . وكتبت فى ذلك تقول :

« لم تكن الحياة الخاصة لاى شخص خافية عليه .. وكثيرا ما أثار فى نفسى الدهشة بذكر تفاصيل كنت أجهلها تماما عن الاشخاص الذين تربطهم به علاقة . وكنت أمزح معه بسبب هذا الميل ، وأقول له ان أحدا لن يصدق قط ان أكبر رجل فى عصره يسلى نفسه بمثل هذه الاشياء التافهة ! »



وتنهى مارى اعترافها بوصف المشهد الذى حدث بينه وبينها حين صرح لها فجأة ذات يوم بأنه سيرحل .. تقول مارى :

« لقد ذهلت وانهرت تماما حين أخبرنى صاحب الجلالة بأنه راحل .. فقد قال يخاطبنى فى ذلك اليوم :

ـ اننى سأرحل غدا ياماری .. فهناك مسئوليات جسيمة تنتظرنى .. فأنا مدعو لدرء العواصف التى توشك ان تهب على بلادى .. فهل ستحرميننى من سحر وجودك الى جانبى ؟ .. ألست شيئا يذكر بالنسبة لك ؟

وانهمرت فى البكاء وكدت أصيح قائلة :

ـ انك ترحل دون ان تفعل لنا أى شيء !

ولكننى لم استطع ان اقول الا هذه الكلمات :

ـ ماذا سيصبح من امرى يا الهى العظيم ؟!

فقال محاولا أن يطمئننى :

ـ انك ستأتين الى باريس يا حبيبتى .. وسأجعل من دوروك وصيا عليك .. انه سيرعى مصالحك ، ويمكنك ان

تلجئي اليه فى جميع شئونك . وانا واثق من انه سينفذ لك كل طلباتك .. الا اذا طلبت شيئا مستحيلا !

وكررت له أننى ليس لى الا رغبة واحدة : انيرد الينا وطننا !

قلت :

ــ لن تستطيع كل كنوز العالم ان ترضينى أو أن ترفع من احترامى لنفسى ..

فقــال :

ــ كلا يا مارى .. ان الامور لن تسير هــكذا ، فأنا اعرف انك تستطيعين العيش بدونى ، وأن قلبـك ليس ملكا لى . نعم ، انك لا تحبيننى يا مارى ! اننى أعــرف ذلك لانك صريحة ولا تحبين الرياء . ومن اجــل ذلك تجدييننى مغرما بك أكثر من اية امرأة اخرى .. انك طيبة، جميلة ، لك قلب طاهر نبيل ، فهل تقدرين على حرمانى من هذه اللحظات السعيدة التى أمضيها الى جوارك كل يوم ؟ .. آه ! .. اننى لن أعرف السعادة الا عن طريقك . ومع ذلك ، يظن الناس أننى اسعد رجل على ظهر الارض!

« وحرك كلامه هذا الشفقة فى قلبى فابتسمت ابتسامة حزينة .. ثم ألقيت بنفسى بين ذراعيه ووعدته بــكل ما يريد »

وتضيف مارى فى مذكراتها :

« ورحل نابوليون ليواجه المشاكل التى هبت فى وجهه: الحصار القارى ، ومشكلة حرب اسبانيا ، والمؤامرات الانجليزية التى يجب أن يكتشفها ، والنمسا التى يجب أن تقمع .. تلك هى المشاكل الكبرى التى كانت تشغل باله حينذاك »

ونحب هنا أن نقول لمدام فاليفسكا : توقفى قليلا ! .. ذلك ان اختلاقها للاحداث يبدو هنا واضحا .. فحقيقة الامر ان نابوليون لم يكن يحارب اسبانيا أو يقمع النمسا فى عام ١٨٠٧ ، بل كان أمامه الروس الذين لم يكن قد هزمهم بعد . وهو سيفشل فى أول محاولة لهزيمتهم فى معركة أيلو ، وستتلو ذلك فترة طويلة من الانتظار يعقبها انتصاره عليهم فى معركة فريدلاند التى تبعتها معاهدة تليست . ولم يعد نابوليون الى باريس الا بعدابرام معاهدة السلام هذه ، ولم تكن عودته بسبب موقف النمساويين والاسبان كما تدعى مارى !

ولكن مارى كانت تريد اخفاء حقيقة انها لم تترك نابوليون اثناء اقامته فى وارسو طيلة شهر يناير عام ١٨٠٧ . وقد حدثت معارك ايلو فى شهر فبراير ، وهى المعارك التى أرغمته على ترك اقامته المفضلة فى العاصمة البولندية فى ٣٠ يناير عام ١٨٠٧

***

ورحلت مارى فاليفسكا فى نفس الوقت ، ولكن فى اتجاه آخر .. رحلت الى فيينا انتظارا لان يدعوها نابوليون لتكون الى جواره من جديد .. وكان السفير الفرنسى فى فيينا تحت تصرفها فى كل شىء ..

وبعد معركة أوسترو القصيرة التى لم تكن حاسمة ، ذهب نابوليون الى قصر فنكنشتاين حيث أقام حتى السادس من يوليو انتظارا لحرب جديدة مع الروس . وتلقت منه مارى الخطاب التالى المؤرخ من مدينة ايلو فى ٩ فبراير ، اى فى اليوم التالى للمعركة :

« يا صديقتى الجميلة .. انك تعرفين عن الاحداث اكثر مما استطيع أن اقول فى هذا الخطاب . لقد استغرقت

المعركة مدة يومين مكثنا خلالهما مسيطرين على ميدان القتال .. أن قلبى معك ، واذا كان الامر يتعلق بقلبى فحسب ، فانك لاشك ستصبحين مواطنة فى دولة حرة..

« هل تقاسين مثلما أقاسى بسبب فراقنا ؟ .. اننى اقاسى لدرجة أننى ارغب فى أن تعودى الى وارسو ،فأنت بعيدة منى اكثر من اللازم .. أحبينى يا عزيزتى الجميلة .. وكونى واثقة من ناحيتى .. »

***

وأطاعت مارى وعادت الى بولندا حيث اعتكفت مع والدتها فى بلدة كيرنوزيا ـ مسقط راسها ـ وكان هناك أيضا لوماردا ضابط اركان حرب نابوليون الذى كان شاهدا على عقد زواجه من جوزيفين . وكان لوماردا مكلفا بالسهر على راحة مارى .. وكان دوروك دائم التنقل بين مركز القيادة العامة وبيت مارى فى كيرنوزيا .. واخيرا لحقت مارى بنابوليون وعاشرته معاشرة الازواج فى قصر فنكنشتاين .. ولكن سرعان ما فرقت بينهما العمليات العسكرية مرة أخرى ..

وفى ٢٦ مايو عام ١٨٠٧ ، كتب اليها نابوليون يقول :

« لقد استسلم لنا حصن دانزج أيتها الصديقة الجميلة .. اننى اعرف انك ستشعرين بالسرور لهذا الخبر .واحب ان تعلمى اننى لم أنس وعدى لك .. فكونى سعيدة وهادئة لان السحب ستنقشع ، وسيرى كل منا الآخر فى القريب العاجل .. تلك هى أعز أمنية عندى . ن »

وقبل انتصاره فى معركة فريدلاند ، كان يقيم فى مدينة هايلزبرج ، فكتب اليها فى ١٢ يونيو عام ١٨٠٧ يقول :

« ياصديقتى اللطيفة .. ان الامور تسير كلها كما سبق أن تنبأت . اننا نطارد جيوش الاعداء .. وتبدى الفرقة البولندية من ضروب الحماس والشجاعة ما ليس له نظير فى التاريخ . ان لقاءنا الذى أتمناه من كل قلبى بات وشيكا .. وحينئذ يستطيع كل منا ان يعيش من أجل الآخر .. حبيبك : ن »

وبعد الانتصار ، أقام نابوليون فى مدينة تليست فى المدة من ١٩ يونيو الى ٩ يوليو . ومن تليست كتب بعدها مرة أخرى بأن يقابلها : « أننى سأرتب الامر بحيث أراك فى مكان ما .. كونى واثقة من ذلك »

ولكنه لم يرتب الامر كما ذكر ، ويبدو انه عاد الى فرنسا دون أن يراها مرة ثانية . ومن قصر سان كللوبجوار باريس ، أرسل اليها الخطاب التالى المؤرخ فى ٢٩ يوليو عام ١٨٠٧ :

« عزيزتى الجميلة مارى .. فى وسعك ، انت التى تحبين بلادك ، أن تقدرى مدى سرورى بعودتى الى فرنسا بعد أن غبت عنها عاما كاملا .. والشىء الوحيد الذى يقلل من سرورى هذا انك لست معى هنا .. ولكنك فى قلبى ..

« ان عيد ميلادنا يقع فى أعياد السيدة مريم العذراء ، وهو سبب خليق بأن يجمع بين قلبينا فى ذلك اليوم .. الى اللقاء يا صديقتى الجميلة . انك ستلحقين بى حينما تسمح الظروف بذلك ، وسيكون هذا فى وقت قريب . وأخيرا ثقى بعواطفى التى لا تهدأ .. »

ونستطيع أن نستنتج من هذا الخطاب أن مارى هى التى تمنت أن تتبعه فكتب اليها الخطاب السابق يطمئنها ،

ولكنه فى نفس الوقت لم يكن مشغوفا كل الشغف بالاجتماع بها من جديد

***

ولم يستدعها نابوليون الا فى أوائل عام ١٨٠٨ ثم اعادها الى بولندا فى بداية شهر ابريل . وكان يكتب اليها من مدينة بوردو ، واورفورت ، واسبانيا ، ويرد كذلك على رسائلها . . وكانت تذكره دائما بوعده لها . وأثناء ذلك اغدق نابوليون من كرمه على شقيقها تيودور لاكزينسكى ، فمنحه لقب كونت ورقاه فى رتب الجيش . ومن اورفورت كتب اليها يطمئنها فى ٢ اكتوبر عام ١٨٠٨ ، فقد كانت تشعر بالخوف على مستقبل وطنها ، وتفكر فيما عسى ان ينتج عن اللقاء المنتظر بين نابوليون وقيصر روسيا . وكتب اليها يقول :

« لقد قرات خطابك بأمعان ياصديقتى الجميلة ، وانا اهتم كثيرا بكل ما تقولين عن ظروف بولندا الحالية . . فكونى على ثقة من ان شيئا لم يتغير بخصوص مستقبل هذه البلاد . . ولا احد يعارض هنا فى ذلك . لا تعتذرى لانك لم تكتبى لى بما فيه الكفاية ، بل لعل من الحكمة ان تتصرفى هكذا لاننى دائم التنقل . . وفيم تهم الكلمات؟ . . ان جسدينا فقط بعيدان . وبرغم اننى أقاسى من ذلك، الا اننى واثق من أنك لا تهتمين بما هو جسدى . لقد أعطيتنى روحك ، وروحى ملك لك . . ثقى بعطفى الابدى . . ن »

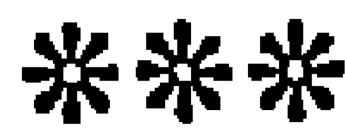
وفى نهاية هذا العام ، كان نابوليون فى اسبانيا . . ولم يعد الى فرنسا الا فى النصف الثانى من شهر يناير عام ١٨٠٩ . وكان يكتب اليها كثيرا من اسبانيا واعلن لها فى احدى رسائله الاخيرة من هناك نبأ انتصار جيشه فى معركة

سوموسييرا ، حيث ضحى الفرسان البولنـــديون الذين انضموا للحرس تضحيات تفيض بشتى ضروب البطولة :

« يا صفيرتى مارى .. انك تفكرين كثيرا ، وهذا شيء قبيح جدا .. وايضا تنصتين الى أناس يحسن بهم ان يكتفوا بالرقص فى بولندا بدلا من ان يهتموا بشئون هذا البلد . لقد ضيعت من وقتى ربع ساعة كى أشرح لك أن مايبدو فى الظاهر اجراء غير ملائم ، ستنتج عنه فيما بعد مزايا عظيمة .. أعيدى قراءة هذا الخطاب وسوف تفهمين كل شيء »

« وأخيرا أشكرك لتهنئتك اياى على انتصـــارى فى سوموسييرا .. ويمكنك ان تفخـــرى بمواطنيك الـذين سطروا صفحة مجيدة من صفحات التاريخ .. سأكون قريبا فى باريس ، واذا حدث وبقيت هنا مدة أطول، فربما تستطيعين الحضور .. كل أفكارى لك .. ن »

ويتكرر نفس الشيء ، فهو لا يرغب ان تلحق به .. وعلى العكس من ذلك بدأت هى من ناحيتها تستعد للســـفر بحماس كبير . وهاهى ذى تكتب فى مذكراتهـــا فتقول : « سأعود الى فرنسا ! .. اننى استعد للسفر بسرعـــة ، ولدى مشغوليات كثيرة ! .. » ولكنها لم تسافر ، فقد بدأت حرب رابعة بين نابوليون والنمسا ، ولن يقدر لها أن تراه الا فى فيينا



وكان الامير بونياتوفسكى ينهرها احيانا لانها لم تكن تكف عن التدخل فى سياسة بولندا . وتوترت علاقتهـــا ببونيانوفسكى .. ولا يستطيع المرء ان يغفل هذه العلاقة اذا ما أراد معرفة الحقيقة حول بدايةعلاقةمارى فاليفسكا

بنابوليون. وقد سبق أن ذكرنا أن مسئولية بوتياتوفسكي في ذلك ضئيلة للغاية ، ولكن ماري حاولت أن تحمله مسئولية جسيمة ..

واحست ماري بصدمة لعدم سفرها الى فرنسا .. فنابوليون لم يستدعها كما سبق ان وعدها ، بل انه بالاحرى أمرها بأن تظل في بلدها .. ولما شكت من ذلك ، كتب اليها من قصر شونبرون بالنمسا في ١٤ مايو عام ١٨٠٩ يقول :

« لقد وصلتك أخباري بانتظام ، فلماذا كان يجب ان اخبرك انه لا ينبغي ان تحضري ؟ .. ألم يكن ذلك كفيلا بأن يسبب لك الالم ؟ ..

« ان نداءاتك العديدة هذه طبيعية بالنسبة الى ، ومعلوماتك تفيدني كثيرا . وأعتقد أنك كنت شجاعة جدا باقدامك على الذهاب الى بونياتوفسكي في هذه الظروف .. فصحيح أن الرئيس المسئول لا ينبغي أن يسأله أحد عما يفعل . ويبدو لي أن هذا ما اراد أن يقوله لك ..

فليلتف البولنديون اذن حول علم بلادهم ، وليكفوا عن خلافاتهم ، وهكذا يظهر نصيبهم في تحرير انفسهم .. ن»

***

في ذلك الوقت ، كان النمساويون يثيرون القلاقل في وجه نابوليون بهجومهم عليه في بولندا ، فتبعت ماري الجيش البولندي الصغير الذي احتل اقليم جاليسيا بأكمله بفضل مؤازرة نابوليون . وفي مدينة كراكوف ، تلقت منه خطابا من قصر شونبرون مؤرخا في ٢٠ يونيو !

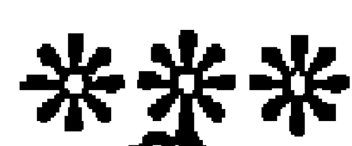
« لقد سررت — كعادتي دائما — بخطابك . ولست اوافقك تماما على تتبعك للجيش حتى كراكوف .. ولكنني لا استطيع ان الومك على ذلك ..

» ولقد تحسنت مشكلة بولندا .. ويمكنني أن افهم ما شعرت به من قلق .. ولذا فقد آثرت أن أعمل .. ألم يكن هذا خيرا من ان اكتفي بأن اغدق عليك المواســـاة ؟ ولا يجب ان تشكريني ، فأنا أحب بلادك واقدر عددا من مواطنيك حق قدرهم ..

« ان الامر يتطلب أكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لانهاء الحملة .. وحينما انتهى من ذلك ، ســـأعد الامر بحيث أكون الى جوارك أيتها الصديقة الجميلة . انني أتحرق شوقا الى رؤيتك . واذا ما حدث ذلك في قصر شونبرون فاننا سنتمتع معا بسحر حدائقه الرائعة ، وننسى هذه الايام الكئيبة .. ليكن لديك الصبر والثقة .. »

ولما تلقت ماري خطابه المؤرخ في ١٤ مايو ، كانت قد كتبت اليه برغبتها في اللحاق به .. وكانت من السذاجة بحيث اعتقدت ان استيلاءه على فيينا يعني القضاء على النمسا كلها قضاء مبرما . ومن هنا كان رده السابق الذي جاء فيه ان الامر يتطلب أكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لانهاء الحملة ..

وفي ٦ يوليو ، أحرز نابوليون نصرا أكيدا على النمسا في معركة واجرام . وحينئذ يعترض على ذهابها اليه ..



ووصلت ماري الى النمسا في نهاية شهر يوليو ، وعاشرها نابوليون معاشرة الازواج حتى شهر أكتوبر . ويعتبر هذا اللقاء من الاهمية بمكان .. ذلك أن ماري قد حملت منه بمجرد حضورها . واحضر لها نابوليون طبيبـــه الاول كوفيزار خصيصا من باريس ليشرف على صـــحتها .. وكان هذا الحمل سببا في تعقيد الموقف تعقيدا كبيرا ، فقد كان الكونت فاليفسكي زوج ماري لا يزال على قيد الحياة .

وكان لابد من أن تضع مارى فاليفسكا مولودها فى بولندا كى ينتسب الى آل فاليفسكى .. ولم يخجل نابوليون من ابداء رغبته فى نسبة الطفل الى النبيل العجوز ..

وألحت عليه مارى كى يأذن لها بأن ترافقه الى باريس .. ولكنه ظل جامد القلب متمسكا برأيه فى أن تعود الى وارسو ..

وكان غرض نابوليون واضحا من اصراره على رحيلها ، فهو فى فرنسا يستطيع ان يفعل ما يشاء ، وان يجعل من اى رغبة له قانونا مطاعا .. ولكن حينما يتعلق الامر بسيدة بولندية ، يصبح الامر اكثر صعوبة وتعقيدا لانها من جنسية مختلفة . ومن ناحية أخرى ، لو فرضنا ان نابوليون وافق على منح اسمه لهذا المولود ، فهو سيظل على الدوام ابنا غير شرعى . والشىء الذى يبعث على الدهشة حقا ، ان مارى لم تتردد فى موافقته على الرحيل

***

وعادت مارى الى بولندا ، ولكنها لم تلبث أن وصلت فجأة الى باريس حيث أقامت فى منزل بشارع هوساى فى حى نوتردام دى لوريت . وكان نابوليون يذهب لزيارتها فى هذا المنزل ، ويقدم لها الهدايا ، ويصرح بأن المولود سيدعى ألكسندر اذا كان ذكرا ، وأوجستين اذا كان انثى .. !

وفى اليوم العاشر من مارس عام ١٨١٠ ، تلقت مارى خطابا من زوجها جاء فيه :

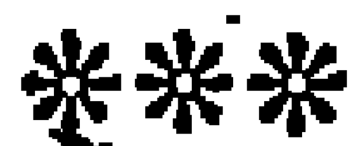
« زوجتى العزيزة .. لقد اصبح قصر فاليفس حملا ثقيلا على كاهلى ، وصحتى وسنى يمنعاننى من القيام بأى نشاط ، فأتيت الى هذا القصر مرة أخيرة كى أوقع على عقد ملكيته لابنى الاكبر .. وأنا أنصحك بأن تتفاهمى

معه بخصوص الاجراءات التى يجب اتباعها بشأن الطفل الذى تنتظرينه . وستكون هذه الاجراءات أكثر سهولة اذا ما ولد فاليفسكى الصغير هذا فى قصر فاليفس .. ذلك هو رأى ابنى الاكبر ، وهو الذى أشار أيضـا بأن أكتب اليك . اننى أفعل ذلك وأنا أعى تماما أنى أقـوم بواجبى ، وادعو الله أن يحفظك ويباركك .

أنستاز فاليفسكى »

يا لهِ من شيخ رائع نبيل ! .. ويالها من رحمة ونكران للذات !

وأعدت مارى حقائبها على الفور ، ويممت شطر بولندا .. وهناك ، وضعت مولودها الكسندر فاليفسكى فى الرابـع من مايو عام ١٨١٠

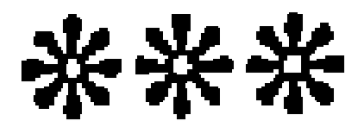


وعادت مارى الى باريس بعد ذلك بعدة أشهر حيث أقامت اولا فى شارع هوساى ، ثم منحها نابوليون بيتـا خاصا فى شارع لافيكتوار ، وهو الشارع الذى اختـاره لسكنى عشيقاته .. وعلى الرغم من انه كان قـد طلق جوزيفين فى نهاية عام ١٨٠٩ ، الا انه لم يتزوج من مارى فاليفسكا كما كانت تتوقع ، وانما تزوج من الارشيدوقة النمساوية مارى لويز .

وهكذا انتهت مارى فاليفسكا من حياته ! .. فقـد كانت الشهور تمر دون أن يفكر فى الذهاب الى رؤيتها ، وهو الذى كان فيما مضى لا يستطيع أن يعمل دون أن تكون الى جواره ليل نهار !.. وذات مرة ، ذهبت اليه لترجو منه أن يتفضل بزيارتها ، فوعدها بذلك .. ولكنه لم يذهب اليها الا بعد ثلاثة اشهر !

ولكنه لم يكن يبخل عليها بالمال .. وكان دوروك تحت

تصرفها على الدوام ، يدفع لها ثمن مشترياتها وزينتها ، ويسلمها فى بداية كل شهر ثلاثة ملايين من الفرنكات،وهو مبلغ يعادل الآن ثلاثة آلاف من الجنيهـــات .. وكان مسموحا لها بأن تدخل الى البلاط وان تتصل ببقيـــة عشيقات بونابرت



وفى عام ١٨١٢ ، حينما كان نابوليون يقوم بحملته فى الجبهة الشرقية وقد اوشك ان يهاجم الروسيا ، سبقته مارى فاليفسكا الى بولندا مؤملة ان تعيش هناك الى جواره .. وأخيرا لحقت به فى مدينة فيينا . وكان نابوليـون لا يعترض على وجود النساء فى هيئة أركان الحرب، ويوافق على أن يصحب الجنرال معه عشيقته الى جبهة القتال .. ومع ذلك ، فقد ترك مارى حينما توغل فى الجبهة الشرقية، ولم يرسل لها خطابا واحدا طيلة مدة الحملة !

وفى شهر ديسمبر ، أنبأتها السفارة الفرنسية فى وارسو بأن نابوليون قد هزم ، ووصل سرا الى العاصمة البولندية .. وأخبروها كذلك بأنه سيعرفها أين ومتى يمكن أن تراه ..

وجاء نابوليون بعد ظهر نفس اليوم الى قصر فاليفسكى بصحبة دوروك .. وقال يخاطب مارى : « لقد كان من الضرورى أن آتى لرؤيتك واطمئنك على نفسى .. ومن ناحية أخرى أريد أن أرى هذا القصر الذى ولد فيـــه ابننا »

وقضى نابوليون شطرا من الليل فى قصر فاليفسكى . وقبيل الفجر ، جاء دوروك يقرع باب غرفة القائد الذى كان ينبغى ان يواصل رحلته فى تكتم شـــديد . وودع نابوليون الكونتيسة ، بعد ان حثها على ترك بولندا التى لم

تعد فى مأمن من الجيش الروسي الزاحف . وقال لها نابوليون : « عودى الى باريس بأسرع ما يمكن »

***

وصلت مارى الى باريس فى بداية عام ١٨١٣ .. وبدأ يتردد عليها واحد من أولئك الذين كانوا يبثونها حبهم ، وهو الجنرال أورنانو ابن خالة نابوليون . وكان اورنانو قد حصل من بونابرت على رتبة كونت وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، فضلا عن راتب سنوى قدره ثلاثون مليونا من الفرنكات .. وكان قد عرف مارى منذ بداية علاقتها ببونابرت ، فأحبها بدوره وكان على استعداد لان يختطفها منه

وفي ١٥ أبريل عام ١٨١٣ غادر نابوليون باريس في صحبة اورنانو .. فقد كانت حملة المانيا على وشك أن تبدأ . وذهبت مارى فى اليوم السابق للرحيل لتوديع بونابرت فى قصر سان‌كلو ، فوجدت صالونات القصر وقاعاته مزدحمة برجال الحاشية .. وانتظرت ساعة كاملة ، ثم جاء نابوليون وعبر لها عن دهشته لرؤيتها ، لانه كان يتوقع أن تأتى فى الليلة السابقة . واخبرته بأن احدا لم يخطرها بذلك .. وحينئذ أجابها مازحا :

ــ كلا ، انك لم تحضرى أمس لانك تعتقدين فى الخرافات .. فقد كان أمس يوافق يوم ١٣

ورجته مارى أن يكون جادا ، وان يتذكر انه على وشك أن يبلغ الاربعين من عمره . وحينئذ أجابها قائلا :

ــ انني لم أشعر قط بأنني شاب كما اشعر الان .. وسوف يراني الجميع فى هذه الحملة ، وانا اهجم بقوة على الاعداء وأطعنهم بالسونكى !

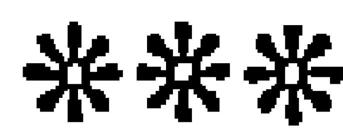
فعقبت مارى قائلة :

ـ لقد حرم الله « الانتحار » بكل انواعه .. !

وقبلها نابوليون هى وولدها الكسندر ، ثم اذن لهــا بالانصراف .. والواقع أنها لو لم تأت اليــه ، لمـا كلف نفسه عناء الذهاب لرؤيتها قبل سفره !

ولما عادت الى منزلها « صلت من أجله وكذلك من اجل أورنانو الوسيم »

وبعد فترة من الوقت ، علمت مارى بمصرع الماريشال دوروك الذى جرح جرحا مميتا فى ٢٢ مايو عام١٩١٣ .. وكان أورنانو يكتب اليها وتبادله الرسائل ..



وعاد نابوليون آخر العام ٠٠ واضطرت مارى ان تطلب مقابلته مرة أخرى .. ودخلت فى هذه المرة على الرجــل المحطم الذى كان يعيش شهوره الاخيرة فى الحكم . فقد انتزع منه الاعداء فى معركة ليبزيجـالتى استغرقت يومين ـ ما أخذه منهم فى اثنتى عشرة سنة ! .. وهم غــدا ، سيقومون بغزو فرنسا نفسها !

ووجدت مارى انوزنه قد زاد زيادة كبيرة ، الامرالذى ادهشها كثيرا حين وقع عليه بصرها لاول وهلة ..

وقبلها نابوليون ثم قال :

ـ كيف حال عزيزتى مارى ؟ .. وكيف حال صغيرى الكسندر ؟..

ولم تصدر منه بعد ذلك أية حركة او كلمــة تنم عن حب او غرام ٠٠ بل لقد أدخل الى الغرفة ابنه الذى رزق به من زوجته النمساوية ، وذلك كى يتحاشى البقاء معها على انفراد .. وطفرت الدموع من عينىالعاشقةالبولندية وكان لها العذر فى ذلك .. !

وبعد عدة أسابيع ، غادر نابوليون باريس ليبدا حملة

الدفاع عن أرض فرنسا .. وفى هذه المرة ، رحل دون أن يودع أحدهما الآخر ..

كان نابوليون حينئذ يلعب بآخر ورقة فى يده .. وكان يدرك أنه سوف يفقد عرشه اذا لم ينتصر .. ولذا فقد أسرع بترتيب شئونه الخاصة ليضمن مستقبل ابنائه ، وأمر رئيس خزانته الخاصة بأن يمنح ابنه الصغير الكسندر ايرادا سنويا قدره خمسة عشر مليونا من الفرنكات

وهزم بونابرت فى نهاية شهر مارس، وبذلك بدا احتضار الامبراطورية فى قصر فونتنبلو . وقرر مجلس الشيوخ « اسقاط » نابوليون عن العرش ، ولكنه حاول ان يستبدل ذلك «بالتنازل» عن العرش .. وقبل الاعداء هذا الحل الاخير مراعاة لخاطر امبراطور النمسا والد زوجة نابوليون الثانية ، التى كان من الواجب أن يؤمن مصيرها ..

وأرادت مارى فاليفسكا أن تودع نابوليون قبل رحيله الى جزيرة البا .. ولما ذهبت الى قصر فونتنبلو أخبروها بأن نابوليون يطلب منها أن تنتظر ..

ودام انتظارها ساعة ، ثم ساعتين .. وأخيرا رحلت مع بزوغ الفجر .. ويبدو ان نابوليون خشى أن يحدث بينهما وداع عاطفى ،ففضل الا يقابلها ..

ولما ايقظوه بعد رحيلها بساعة واحدة ، التفت لمن حوله وقال فى أسف :

ــ يا للسيدة المسكينة ! .. انها لا شك ستظن انى قد نسيتها !

كان على نابوليون أن يغادر قصر فونتنبلو فى ٢٠ ابريل، فكتبت اليه مارى خطابا فى ١٥ ابريل ، وقد أجابها فى اليوم التالى يقول :

« ان مشاعرك تؤثر فى نفسى تأثيرا عنيفا ، وهى مشاعر جديرة بروحك الجميلة وقلبك الطيب ياعزيزتى .. واذا تصادف أن ذهبت الى مدينة بيزا بعد أن تنتهى من ترتيب شئونك ، فيسرنى أن أراك هناك ، وكذا ولدك الذى لن تتغير مشاعرى نحوه أبدا ..

« أرجو أن تكونى بصحة جيدة .. لا تحزنى ، أو تشكى فى أبدا .. ن »

***

وعادت مارى الى علاقتها مع أورنانو .. ونسى هذا انه ابن خالة نابوليون ، وصرح لحبيبته بأن الرجل العسكرى يخدم بلاده ولا يخدم حكومة من الحكومات »

وتوفى الكونت فاليفسكى ، ومع ذلك لم تتزوج مارى من أورنانو على الفور لانها لم تكن قد فقدت بعد كل أمل فى رؤية نابوليون مرة ثانية . وذهبت لرؤيته بالفعل فى جزيرة البا ، وصحبت معها ابنها وواحدة من شقيقاتها ..

كان ذلك فى اليوم الاول من سبتمبر .. ولما علم نابوليون بحضورها ، انتقل من بورتوفيرايو الى لامادون حيث نصب خيمته واستقبلها هناك . وفى موعد العشاء ، أمر بتقديم الطعام ، وأخذ يقطع اللحم ويملأ الاطباق بنفسه وقد شاعت فى وجهه امارات البهجة والسعادة .. وكانت مارى حينذاك سيدة جميلة فى الثلاثين ، ممتلئة القوام بعض الشىء ..

وبعد تناول العشاء اصطحبها نابوليون هى وشقيقتها الى المسكن الذى كان قد اعده لهما ، ثم عاد الى خيمته ليخلع ملابسه .. فقد كان من عادته أن يثير الالغاز حول أشياء معروفة للجميع !.. وعلى الرغم من ذلك ، كان من

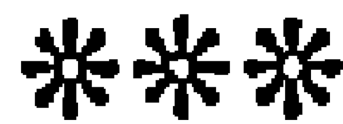
السذاجة بحيث كان جميع رفاقه يرونه وهو يخرج من خيمته كل ليـــلة مرتديا « الروب دى شامبر » ليلحق بماري ولا يغادرها الا قبيل الفجر ، الامر الذى دعا احد الخدم الى ان يقول عنه : « ان أبسط الرجال وأشـــدهم ســذاجة كانوا أكثر مهـــارة من الامبراطور فى الشئون الغرامية ! »

وغادرت مارى الجزيرة بعد عدة أيام وهى تحمل معها بعض الاموال ، وعدة أوامر من نابوليون موجهة الى رجل من رجال البنـــوك فى ايطاليـــا يدعى تورلونيا .. وكان نابوليون قد اقترض كثيرا من المال من خادمه مارشان ، وخادمه سان وينس . وقد أقرضه هذا الاخير ـــ الذى كان يتمتع بمركز مالى متين ـــ مليون فرنك تقريبا

وتوجهت مارى من جزيرة البا الى ايطاليا مباشرة كى ترتب شئونها مع مورا وتورلونيا . وقد أكد نابوليون فيما بعد ان مورا زوج شقيقته لم يبر بوعوده تجاه مارى حين تقدمت اليه لتحصل على منحتها المالية التي وهبها لها . ولكنه غير موقفه حينما علم بعودة نابوليون الى فرنسا من جزيرة البا .. فقد ارتدى مورا حينئذ زى الماريشالية وذهب ليسلم مارى صك النقود ، واعتذر لها بأن تأخير الصرف كان نتيجة اهمال بعض الوزراء . ويقال انمورا حاول ان يغازل مارى حينئذ ، كما فعل معها فى بولندا من قبل .. وعقب نابوليون على ذلك بقوله : « ان هذا العمل من جانب مورا يدل على الخسة والنذالة ، ولذا لم اطلب منه ان يشترك معى فى معركة واترلو »

وفى ١٥ سبتمبر صودرت جميع الهبـــات التى كان نابوليون قد وهبها لمارى فى مملكة نابولى ، والتى كانت تدر عليها ريعا سنويا يقدر بواحـــد وخمسين مليونا من

الفرنكات . ولكن مورا ــ وتعترف له مارى بالفضل فى ذلك ــ قد اعاد بمرسوم صادر منه بتاريخ ٣٠ نوفمبر عام ١٨١٤ جميع الهبات التى منحها نابوليون لمارى وابنهـــا فى هذه المملكة . وبعد ســـقوط مورا عن عـرش مملكة نابولى ، امتنعت حكومة نابولى عن دفع هبات نابوليون فى هذه المملكة



وفى فبـــراير عام ١٨١٥ ، طلب الجنرال اورنانو ان يصرح له باجازة فى باريس لانه على وشك الزواج من مارى .. ولكن حدث اثناء ذلك ان غادر نابوليون جـزيرة البا ونزل فى فرنسا ، وبذلك بدأت حكومة المائة يوم

واجلت مارى الزواج مرة اخرى ، وتوجهت الى قصر الايليزيه بناء على طلب نابوليون الذى بعث اليها برسول ليسألها عن اخبارها ويطلب منها أن تذهب لمقابلته فى القصر بعد قداس يوم الاحد .. واحضرت معهـــا ابنها الكسندر كى يجنبها ذلك عبء تفسير سلوكهـــا مـــع اورنانو ..

لكن نابوليون لم يعد شـــيئا .. انه كان فى باريس كالمسافر التائه الذى يهيم على وجهه وهو لا يلوى على شيء .. لقد ولى سلطانه ونفـوذه ، وفقـــد الثقـــة بنفسه ..

وصرعته معركة واترلو بصفة نهائية .. فهرعت مارى الى قصر ماليزون لتودعه الوداع الاخير ، وحاولت ان توقظه من سباته بقولها : « فرنسا يا نابوليون ! وعرشك! وابنك !! » .. ولكن نابوليون لم يعد يتأثر .. !

كان ذلك فى ٢٨ يونيو عام ١٨١٥ . وفى اليوم التالى، غادر نابوليون قصر ماليزون فى طريقه الى المنفى ..

وهناك فى سانت هيلانة ، كان اسم ماري فاليفسكا يتردد على شفتيه من حين لاخر . وذات يوم ، أكد لمن حوله أن مدام فاليفسكا أجمل بكثير من بوتون دى روز ملكة جمال الجزيرة

وفى ٧ سبتمبر عام ١٨١٦ ، وبعد عوائق كثيرة ، تزوجت مارى من اورنانو . ولما وصل الخبر الى نابوليون فى جزيرة سانت هيلانة فى ١٨ يناير عام ١٨١٧ ، صرح بأنه يوافق على هذا الزواج . وكان تعليقه الوحيد : « انهـا ثرية ، اذ لابد انها قد اقتصدت بعض المال .. فضـلا عن أننى قد أعطيت الكثير لولديها » . وقبيل وفاته بعدة أيام ، خاطب برتران قائلا : « يجب أن يكون الايراد السنوى لابن مدام فاليفسكا مائتى ألف فرنك »

حقا ان نابوليون كان قد أعطى الكثير .. ولذلك فقد اكتفى فى وصيته بأن أبدى رغبته فى أن يصبح ابنـه من مارى ، يوما من الايام ، فى خدمة فرنسا كواحد من رجال الجيش !

وتحطم زواج ماري فاليفسـكا من الجنرال اورنانو بسرعة كبيرة .. وقصة هذا الزواج تتلخص فى التواريخ الثلاثة الاتية :

فى ٧ سبتمبر عام ١٨١٦ تم عقد الزواج .. وفى ٩ يونيو عام ١٨١٧ وضعت مارى مولودا ذكرا أسـمنه رودولف أوجست .. وفى ١١ ديسـمبر عام ١٨١٧ ، توفيت مارى فاليفسكا

ويقال انها قد توفيت اثناء ولادة رودلف ، ويقال انها قضت نحبها نتيجة القلق والندم لسقطتها بين ذراعى بونابرت فى عام ١٨٠٧ .. فقد ظلت صورته على الدوام ماثلة كالشبح بينها وبين زوجها أورنانو .. شبح الندم على مالايمكن اصلاحه !



مغامرات نابليون

بعد معركة فريدلاند

بطولة فارس

كان نابوليون قد عاد الى باريس متوجا بأكاليل الغار بعد انتصاره فى معركة فريد لاند ، وأقام فى قصر فونتنبلو فى المدة ما بين ٢١ سبتمبر و ١٦ نوفمبر عام ١٨٠٧ .. وكانت شقيقته بولين تقيم معه هي وحاشيتها .. ومن بين سيدات هذه الحاشية ، كانت هناك واحدة تدعى مدام دى بارال ، اشتهرت باسم زوويه . وكان من عادة شقيقات نابوليون ، وخاصة بولين ، ان يدفعن بين ذراعيه بسيدات من حاشيتهن ، او ممن يعملن فى خدمتهن !

ولدت بولين كونستانس زوويه فى عام ١٧٨٠ . وكانت فى الثالثة والعشرين من عمرها حين تزوجت من الكونت دى بارال الذى كان فى الستين. ولما كان هذا الكونت من اقرباء جوزيفين ، فقد كان يتردد بالطبع على البلاط . وحينما تكونت حاشية بولين شقيقة نابوليون ، استطاع الكونت ان يحصل على موافقة بأن تكون زوجته وصيفة شرف فى هذه الحاشية ..

كان الجميع يعجبون بجمال زوويه الخلاب ، فقد كانت فارعة القامة بديعة التكوين ، ووصفت بأنها « اجمل نساء عصرها وأكثرهن سحرا » . وكانت مشهورة بأنها خفيفة الظل ، طيبة القلب ، وعلى جانب كبير من الصفات الجميلة .. ومن اجل ذلك ، كان الناس يرثون لحالها وينظرون اليها على أنها ضحية لزوج مقيت فى مثل سن والدها .. وكان جمالها هذا مثار اعجاب الفنانين ، مما

جعل الرسام روبير لوفيفر يرسم لها صورة رائعة تظهر فيها زوويه وهى متكئة على صخرة صغيرة وترتدى ثوبا من الحرير الاحمر الشفاف .. وكانت هذه اللوحة موضع اطراء الجميع

كانت مدام دى بارال فى السابعة والعشرين من عمرها حين أقام نابوليون فى قصر فونتنبلو فى عام ١٨٠٧ . ولما كانت - بحكم وظيفتها - تخرج مع الحاشية أثناء حفلات الصيد فقد لفت جمالها الباهر نظر نابوليون ، وتحدثت عنها بولين مع شقيقها ، فكلفها بأن تنقل اليها بعض الكلمات من حين لآخر .. وها هو ذا كونستان خادم نابوليون الخاص ، يقص قصة زوويه فى مذكراته على النحو الآتى :

« كانت بداخل قصر فونتنبلو حديقة ، لم يكن يدخلها سوى صاحب الجلالة وزوجته فحسب . وكانت هذه الحديقة محاطة بالمبانى من كل ناحية .. فالى اليسار ، كانت هناك الكنيسة الصغيرة بممراتها المظلمة ... والى اليمين ، كان يوجد البهو الكبير . أما المبنى الاوسط ، فكان يحتوى على جناح صاحب الجلالة وزوجته . وأخيرا كانت هناك الواجهة ، ذات الطراز القوطى ، التى تقوم من خلفها عدة أبنية ضخمة يسكنها الامراء والاميرات من أسرة الامبراطور . وكانت مدام دى بارال تسكن فى أحد هذه المبانى فى شقة فى الدور الارضى

« وذات مساء اضطرنى جلالته بأن اتوجه خفية الى شقة مدام دى بارال لاسلمها ورقة مكتوبة .. وأكد على جلالته بأن أتسلل الى مسكنها - فى حذر - من خلال نافذة سأجدها مفتوحة . وكان الظلام ضروريا لنجاح مهمتى هذه ، لان أقل ضوء يمكن ان ينبعث من أى مبنى مجاور ، سيكشف امرى لا محالة ..

«وتمكنت اخيرا من الدخول من النافذة .. ولكن قدمي تعثرت باحدى الدرجات العالية فوقعت على الارض محدثا ضجة كبيرة .. ولشد ما كانت دهشتي حين سمعت في هذه اللحظة صيحة عالية اعقبها صوت باب يغلق فجأة في عنف !

ونهضت في صعوبة كبيرة لشدة ما كنت اشعر به من الم في ركبتي وفي راسي . ثم تحسست طريقي في بعض جوانب هذا المسكن المظلم ، ولكنني لم اسمع شيئا . ولما خشيت ان احدث ضجة جديدة قد تتناهى الى سمع اناس لا يحب الامبراطور ان يعرفوا عن الموضوع شيئا ، فقد حزمت امرى وعدت ادراجي اليه واخبرته بكل ما حدث

« وتفحص جلالته جراحى ، ولما رأى ان حالتي ليست خطرة ، انفجر ضاحكا وهو يقول : « آه !.. آه !.. اذن فلا بد ان يعمل المرء حسابا لهذه الدرجة اللعينة من السلم .. حسنا فلننتظر حتى تفيق مدام دي بارال من ذعرها ، وستصحبني من جديد الى هناك .. !

«وبعد ساعة ، خرجنا من باب غرفة مكتب الامبراطور المطلة على الحديقة ، وسرت مع جلالته في سكون نحو النافذة التي كانت لا تزال مفتوحة . وساعدته في الدخول من النافذة كي اجنبه سقطتي ..

« ووصل صاحب الجلالة الى باب «الغرفة» .. ولما امرني بالانصراف صارحته بقلقي ، ولكنه طمأنني بانه لايمكن ان يكون هناك اى خطر ..

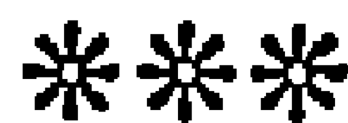
والواقع انه كان اكثر نجاحا مني ، لانه لم يعد الا مع الفجر !

وعند عودته ، وجه الى بعض المزاح ولكنه ذكر ايضا

انه كان من الممكن ان يتعثر فى هذه الدرجة لو لم اخطره بذلك ..

«وعلى الرغم من ان مدام دى بارال كانت سيدة جديرة بأن يتعلق بها جلالته تعلقا شديدا ، الا ان علاقته بها لم تكن سوى نزوة لم تدم طويلا . ويخيل الى ان المشقة التى كان يصادفها الامبراطور فى هذه الزيارات الليلية ، خففت كثيرا من حدة عواطفه الملتهبة نحوها .. ذلك أنه لم يكن مغرما بها الى الدرجة التى تجعله يتحدى كل شىء فى سبيل عشيقته الحسناء .. »

تلك رواية كونستان خادم نابليون الخاص .. وقد رأينا من قبل أن نابليون لم يكن فى حاجة الى القفز من النوافذ ليرى احدى السيدات . فقد كان تحت تصرفه منزل شقيقته ، وهو مأوى سرى مضمون ، وعدة منازل أخرى .. فضلا عن أنه كان فى وسعه أن يحتجب كيفما يشاء فى جناحه الخاص . ولذا نرجح القول بأن نابليون لم يحاول اعادة الكرة لان مدام دى بارال قد رفضته ، وليس لانه لم يكن مغرما بها على حد قول كونستان . ومن ناحية أخرى فليس هناك ما يؤيد هذه الرواية سوى مذكرات تافهة نشرها بعض الكوائين ! .. ولو أن نابليون نجح فى محاولته مع زوويه ، لكان قد تشدق كعادته بهذا النجاح ، وخاصة مع سيدة جميلة مثلها .. !



ولا يسع المرء الا أن يشك فى رواية كونستان اذا ما قارن بينها وبين كلام آخر نسب الى زوج هذه السيدة .. فقد قال الكونت دى بارال فى احدى المناسبات :

« أن زوجتى سيدة ماهرة حقا .. فعلى الرغم من اننا

لسنا أثرياء ، الا أننا نبدو كذلك بفضل عبقريتها . . ويالها من كنز ثمين هذه العبقرية ؟ »

وقد أدعى الكثيرون أن نابليون كان سخيا مع مدام دي بارال ، وأن الكونت كان لا يستفسر عن مصدر المال الذى كانت تنفقه زوجته بغير حساب .. ولكن مثل هذه الادعاءات لا تصمد أمام النظرة الفاحصة ، فقد كان الكونت رجلا غيورا بطبعه ، وكان كثيرا ما يسأل فجأة عن زوجته ليتأكد من وجودها فى البيت !

والواقع أن مدام دى بارال لم تعرف طيلة حياتهـــا ســـوى حبيب واحد تزوجت منـه بعـد أن أصبحت أرملة ، وبعـد ان عاشـت سـنين طويلة حـافلة بألوان العذاب الى جوار زوجها الشيخ العاجز .. ولسنا ننكر بالطبع ان نابوليون قد حاول أن يوقع بزوويه بين براثنه ، وتشهد على ذلك لور زوجة جونو ، التى تقول :

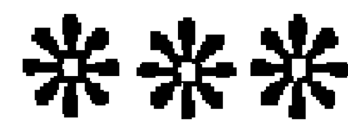
« لقد كان بونابرت يشعر برغبة عنيفة نحو مدام دى بارال التى كانت تخرج فى جميع حفلات الصيد بوصفهـا فى حاشية بولين » . . وكانت لور هذه سيدة سليطـة اللسان تحاول تجريح سمعة كل انسان ، وهو أمر لانملك معه الا أن نصدقها حين تضيف قائلة :

« ولكن الامبراطور لم يستطع أن يرغمها على الاستسلام له ، رغم تعلقه الشديد بها ! »

ولقد حاولت بولين بونابرت ان تقنع زوويه بالاستسلام لرغبة شقيقها الامبراطور . وكانت تريد بذلك أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، ولكن الامر كان يتطلب جراة كبيرة ، فقد كانت زوويه سيدة فاضلة ، لا تتردد فى ان تضحى بعملها فى البلاط لو أصرت بولين على تنفيذ خطتها . ولدينا

فى هذا الصدد تصريح كتبته بولين فى خطاب لها بعثت به الى واحد من عشاقها العديدين ، ويدعى فوربان . تقول بولين :

« ليست مدام دى بارال بالصديقة الحميمةولابالعدوة اللدود .. وكل مافى الامر انها لا تريد قط أن تخدمنا .. »



كان حبيب زوويه هذا ضابطا شابا فى فرقة الفرسان يدعى جان لويس دى لاروش ، اشتهر بأنه اجمل فرسان عصره واكثرهم أناقة . وقد وصفه احد معاصريه فقال : « لقد كان فضلا عن شبابه الغض ووسامته الفائقة شابا رائع الجسم ذا شجاعة لا مثيل لها ! »

وكان أن وقعت الاميرة بولين بونابرت فى حب جان دى لاروش بمجرد أن وقع بصرها عليه . ومنذ تلك اللحظة ، صممت بولين على ان تفوز به مهما كلفها ذلك من ثمن ؛ فعقدت مع شقيقها اتفاقا على اقتسام الحبيبين .. أىأن تسهل للامبراطور أمر الحصول على زوويه ، فى مقابل ان يدعها وشأنها مع الفارس الشاب .. !

وذات صباح ، كانت زوويه فى غرفة الاميرة ساعة استيقاظها ، فأطرت بولين على جمال وصيفتها اطراء بالغا ، ثم انهت كلامها بعد أن تبادلت معها عدة عبارات بغية كسب ألفتها :

ــ هل تعرفين ياعزيزتى ان جلالة الامبراطور معجب بك ويراك ساحرة للغاية .؟

فأجابتها زوويه قائلة :

ــ يبدو أن سيدتى تشعر اليوم بمرح كبير ، ولذلك فانني أقبل مزاحها بكل سرور ..

فقالت الاميرة فى رقة :

ـ ولكننى لا أمزح يا عزيزتى .. انه معجب بك حقا .. والمرء لا يرفض بالطبع اية رغبة للامبراطور !

فقالت زوويه بكبرياء :

ـ لقد أخذت قول سمو الاميرة على محمل المزاح البسيط ، ولكن يبدو أن سموها تهدف الى شىء آخر . اما والامر كذلك ، فليس لدى غير اجابة واحدة : اننى لست عظيمة الشأن كى أصبح امبراطورة ، ولكننى احترم نفسى لدرجة أرفض معها أن أكون عشيقة لاى امبراطور !

وغضب نابوليون بالطبع حين علم بالامر .. اما بولين : فقد نجحت اخيرا فى الحصول على موعد من الضابط الشاب . ولكن هذا لم يتردد فى مصارحة حبيبته بالامر ، فوافقت على ذهابه بعد ان جعلته يقسم على انه لن يمكث عند الاميرة سوى فترة وجيزة

وقد روى جان أن الاميرة كانت قد تركت باب حديقة قصرها مفتوحا .. فلما ذهب الى هناك ، وجدها تنتظر فى الحديقة . وما ان وقع عليه بصرها حتى أسرعت نحوه وقادته من يده فى الظلام حتى وصلا أخيرا الى مخدعها بعد أن عبرا عدة صالونات فاخرة الرياش ..

وعاد الضابط الى مسكنه بعد ان انتهى من زيارته

***

ولم تكد تمضى على هذه الزيارة عدة أيام ، حتى ثار الامبراطور ثورة عارمة ، وامر بأن تنفى مدام دى بارال الى اقليم دوفينيه حيث توجد ارضها ، وان يرسل الضابط الشاب الى البرتغال ليقاتل تحت امرة الجنرال بسيير ..

وهناك ، أبلى الفارس بلاء حسنا فى الحرب ، وابدى بسالة نادرة فى المعارك الطاحنة التى كانت دائرة مع الانجليز . ولما رأى الجنرال بسيير مقدار حماس الضابط الشجاع ، أوصاه بأن يخفف من هذا الحماس ، ولكنه لم يستجب للنصح . .

وذات يوم ، استدعاه الجنرال الى مكتبه وخاطبه قائلا :

ـ يا بنى .. استمع الى .. فان ما سأبوح لك به الآن سر يهمك ان تعرفه : ان لدى أمرا بأن أجعلك عرضة للموت فى الميدان ..

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكف الفارس عن حماسه الدافق . وبلغت قمة هذا الحماس فى احدى المواقع ، حيث كان هناك مدفعان يسببان خسائر فادحة للجيش الفرنسى .. فما كان من الضابط الا أن خرج على رأس فصيلة من الفرسان وقام بهجوم دمر فيه هذين المدفعين ..

وخرج الفارس من المعركة يجر ساقه من خلفه . .

وكاد الفارس ان يضيع تماما هذه المرة ، لولا ان حمله شقيقه على ظهره حتى مركز الاسعاف . وهناك اجريت له عملية كبيرة . وكان جان يمسك بصورة حبيبته اثناء اجراء العملية ويهذى باسمها

***

ولم تكف بولين عن محاولة استمالة الضابط اليها عن طريق شقيقه .. ولكنه ظل وفيا لحبيبته حتى تزوج منها بعد ذلك بسنوات حين توفى الكونت دى بارال فى عام ١٨٢٢

تلك هى القصة ، ويمكننا ان نستنتج منها ان نابوليون

ـو كان قد ظفر بزوويه ـ ولو مرة واحدة ـ لاغرقها كعادته في سيل من المنح والعطايا . أما لقب «بارون» الذى منحه لزوجها الكونت دى بارال فى عام ١٨٠٧ ، فالفضل فى ذلك يعود لصلة القربى التى تربط بين الكونت وبين جوزيفين ، وليس لسبب آخر ..

أما جان دى لاروش ، ذلك الضابط الشجاع ، فلم يحصل الا على لقب «فارس» ، وقد منح هذا اللقب فى عام ١٨٠٩ ، ومع ذلك لم يتسلم براءته الا فى عام ١٨١١

وقد ظل الضابط وزوجته يحملان طيلة حياتهما كراهية شديدة لنابوليون ، وكذا لشقيقته بولين التى شتتت شملهما فى غير رحمة !



عذراء مدريد

بعد عودة نابوليون من رحلته الشهيرة الى مدينة ارفورت بألمانيا ، أخذت الحوادث فى أسبانيا تتطور تطورا خطيرا ، مما اضطره الى السفر الى هناك ولم تكد تمضى على عودته الى باريس عشرة أيام

وفى ١١ نوفمبر عام ١٨٠٨ ، زحف نابوليون من بورجوس الى مدريد ، فاستسلمت فى ٤ ديسمبر عام ١٨٠٨ ، ثم اخذ يتوغل داخل البلاد بحذر شديد نظرا للمقاومة العنيفة التى أبداها الوطنيون فى وجه هذا المحتل . وكانت معركة مروعة تلك التى رأى فيها نابوليون خيرة رجاله وأحسن اصدقائه يهلكون امام عينيه ، حتى دب اليأس فى نفوس الجنود وسرى التذمر بينهم ، الى درجة أنهم كانوا يحرضون بعضهم بعضا على قتله . وكان يسمع بأذنيه عبارات كهذه صادرة من بعض الجنود : « اطلقوا عليه النار فنستريح منه ! » . ولكنه كان يلزم الصمت من فرط الغم والارهاق

واستمرت الحرب فى اعنف صورة عرفها نابوليون لمدة ست سنوات أوسبع ، خسرت فرنسا خلالها أكثر من مليون ومائتى ألف جندى ، فضلا عن ملايين عديدة من الفرنكات الذهبية

ولما عجز بونابرت عن الحاق الهزيمة بالاسبان بصورة تضع نهاية حاسمة للحرب ، عاد الى فرنسا بدعوى ان تاليران يدبر مؤامرة ضده !

فى تلك الفترة التى قضاها نابوليون فى أسبانيا ـ بين يوم استسلام مدريد ويوم توغله المنكوب الى بنافنتى ـ كانت الفرصة سانحة امامه كى يستمتع ببعض المسرات فى مدينة شامارتان . وكان ينفق المال كعادته على الفتيات دون حساب ، وظهرت فى حياته الغرامية حينذاك فتاة التقطها له من احد المسارح محافظ قصره واكثر قواديه اخلاصا : دى بوسيه البدين ..

يحكى دى بوسيه القصة فيقول :

« كانت الفتاة ممثلة تعمل على مسرح مدريد الكبير ، صغيرة لاتزيد سنها على ستة عشر ربيعا .. جميلة كأنها السحر بعينه . وكانت ذات شعر اسود فاحم ، وعينين تفيضان جاذبية وعذوبة . وقد عرف عنها انها استطاعت ـ برغم ما كانت تتعرض له بحكم مهنتها ـ ان تحتفظ بعفافها وسط هذا الجو المشحون بالخطر والاغراء . ولما شاهدها جلالة الامبراطور تمثل على المسرح ذات مساء ، أخذته الدهشة لفرط جمالها وحيويتها .. »

ويمضى دى بوسيه فى قصته قائلا :

« وكانت هذه الفتاة يتيمة الابوين تعيش مع عمتها العجوز ، وهى امرأة نحيلة سيئة الطبع .. وكانت العجوز لا تمل اطراء جمال الفتاة ومحاسنها فى كل مكان ، ذلك لانها كانت تحلم بثروة تهبط عليها من رجل ثرى ذى نفوذ يضع ابنة أخيها فى رعايته .. !

« ولما علم صاحب الجلالة بهذه الصورة المثيرة عن الفتاة ، أبدى رغبته فى رؤيتها .. فهرع دى بوسية على الفور الى عمتها . وما كادت العجوز تعلم برغبة نابوليون حتى رقص قلبها طربا للفرصة السعيدة !!

« وفى مساء نفس اليوم ، ذهبت الفتـــــاة الى قصر شامارتان وقد تزينت بطريقة ساحرة ،وكانت قداستعملت عدة أنواع من عطور قوية ، اعتقادا منها ان ذلك يدخل السرور على قلب الامبراطور . ولم تكن تعلم انه ينفر من رائحة العطر ـ بكل أنواعه ـ نفورا شديدا !

« وادخلت الفتاة على نابوليون فى غرفته ، وما ان رآها حتى تلاشي نفوره من رائحة العطر التى تفوح منها ، نظرا لسحرها وفتنتها ..

« وجلسا يتناولان طعام العشاء ، وكانت الممثلة الصغيرة فخورا وسعيدة لانها ستكون محظية لجلالة الامبراطور ! ويا للاسف .. فان حماقتها التى قادتها فى طريق الخطيئة ، جعلتها تفقد أحلامها واعز أمنياتها ! »

يقول كونستان خادم الامبراطور الخاص الذى شاهد بقية القصة :

« دق الجرس فى حجرة الامبراطور بعنف ، فهرولت مسرعا الى الغرفة ، وحينئذ لم أجد غير الفتاة الشابة . اما جلالته ، فكان واقفا فى غرفة صغيرة أخرى ملحقة بغرفة نومه ، وكان يمسك برأسه بين يديه من فرط الاعياء [1]

وصاح يقول بمجرد أن رآنى :

ـ كونستان ! .. خذ هذه الصغيرة بعيدا .. اننى على وشك أن أختنق بسبب عطورها ! .. هيا افتح جميـــع النوافذ والابواب .. ولكن خذها بعيدا قبل كل شىء ..

وكان الوقت متأخرا لطرد فتاة صغيرة مثلها دون تدبير سابق ، فضلا عما كان فى ذلك من اذلال لكرامتها .. ولكن الامر كان قاطعا لا يقبل الجدل ..

وذهبت لاخبر الصغيرة المسكينة بأمر صاحب الجلالة

.. ولم تفهم فى بادىء الامر ، مما اضطرنى لان اكرر لها القول عدة مرات :

« يا آنسة .. ان صاحب الجلالة يرغب فى ان ترحلى على الفور .. »

واخذت الفتاة تبكى وتتوسل الى كى لا اطردها فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . وعلى الرغم من أننى أخبرتها بأننى سأتخذ جميع الاحتياطات اللازمة ، وان هناك عربة أنيقة محكمة تنتظر فى الخارج لتوصلها الى البيت ، فانها لم تكف عن بكائها وتوسلاتها الا حين أطلعتها على الهدية التى كلفنى الامبراطور بتقديمها اليها .. وكانت مبلغا كبيرا من المال قدره عشرة آلاف فرنك ! »

وذهب الخادم لمصاحبة عذراء مدريد المعطرة الى بيتها .. وعند عودته الى القصر ، رأى سيده لا يزال جالسا فى غرفته الخاصة وهو يدعك صدغيه بماء الكولونيا ..

ومن الغريب ان نابوليون الذى جاب العالم محرزا النصر فى مئات المعارك ، لم يستطع فى هذه الليلة ان يصل الى سريره الا متكئا على ذراع خادمه كونستان !



الشقراء الحسناء

بعد عودة نابوليون الى باريس من أسبانيا ، بدأ على الفور فى اعداد حملة لهزيمة النمسا هزيمة ساحقة .. وكانت حملة عنيفة يعكس ما كان يتوقع ، ولكنها توجت بالنصر آخر الامر . .

وفى الفترة التى أقامها نابوليون فى فيينا عام ١٨٠٩ ، وعلى الرغم من وجود مارى فاليفسكا هناك ، ظهرت فى قائمة نابوليون الغرامية عدة نساء ، من بينهن فتاة شابة فى التاسعة عشرة من عمرها تدعى ايفاكراوس ..

ففى ذات يوم — اثناء استعراض كبير بميدان شوبنرون — لاحظ نابوليون من بين جمهور النظارة الكبير فتاة حديثة السن .. طويلة القامة بديعة التكوين ، تتميز عن سائر السيدات بملابسها السوداء التى تظهر بشرتها الناصعة البياض ، وخصلات شعرها الشقراء التى كانت تتطاير فى الهواء فتداعب وجنتيها وتزيدها جمالا وسحرا

وسرعان ما عرف نابوليون أن الفتاة الجميلة قد جاءت الى المدينة فى صحبة والدها بالتبنى كى ترى نابوليون .. وكان والدها يدعى فيليب ميهونتى ويعمل قومسييرا فى الحرب

***

وأمر نابوليون بارسال دعوة الى الفتاة لتناول العشاء

على مائدة القصر ، وهذا معناه انه سوف يستقبلها فى غرفة نومه مساء اليوم التالى .. !

وسارت المسألة سيرا حسنا لما كانت تتمتع به من سحر وجاذبية ، فضلا عن رقتها وسذاجتها ، وبلغ من تاثير الفتاة عليه أنه احتفظ بها قريبة منه طيلة مدة اقامته فى فيينا ..

وكانت ايفا كراوس تعرف اللغتين الفرنسية والايطالية معرفتها للغة بلادها الاصلية .. وكان الامبراطور يجد تسلية كبيرة فى الانصات اليها :. وقصت عليه انها كانت ابنة لموظف صغير فى مناجم اوربا .. وكانت اسرتها كبيرة العدد ، فتبناها مينوفى قوميسير الحرب هذا ؛ الذى انعم عليه نابوليون بوسام اللجيون دونير فى مقابل رضاه عن هذه المغامرة

وقبل أن يغادر نابوليون مدينة فيينا ، منح ايفا راسمالا هائلا ، ويدعى الرواة ان السبب فى ذلك هو الجنين الذى كانت تحمله منه بين أحشائها . وفيما بعد ، لحقت به ايفا فى باريس ، حيث وضعت مولودا ذكرا ..

***

وفى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، كان الناس فى فيينا يشيرون الى عضو بالبرلمان اشتهر فى ميدان العلم والقانون ، يدعو أوجين ميجرى .. يكاد يكون نسخة أخرى من نابوليون فى ملامحه . وكان من يخالطونه يؤكدون أنه ثمرة غراميات بونابرت مع ايفا ، الشقراء الحسناء



طلاق جوزيفين

طلاق جوزيفين

بعد أن انتهى نابوليون مؤقتا من حربه مع النمساويين، عاد الى فرنســـا حيث أقام فى قصر فونتنبلو .. وكان مضطرب المزاج سيىء الطبع ، فقد كان فى حاجة لتركيز كل قواه لينتصر فى معركة صعبة من نوع آخر ، الا وهى معركة طلاقه من جوزيفين !

فمنذ أن انتهت حرب النمسا بالنصر لصالح نابوليون، اصبح زواج نابوليون من جوزيفين فى حكم المقضى عليه..

ولم يتوان أعضاء أسرة بونابرت عن استغلال أية فرصة لاذكاء نار الخلاف بين الزوجين . والجأت بولين بونابرت فى ذلك الى حيلتها التقليدية ، فدفعت بين ذراعى شقيقها بعشيقة جديدة يغرم بها فترة من الوقت ، فتزداد قسوته على جوزيفين . وكانت هذه العشيقة تدعى كريســتين ماتيس ..

وفى يوم الخميس الموافق ٣٠ نوفمبر عام ١٨٠٩ قرر نابوليون أن ينفصل بالطلاق عن زوجتــه التى كانت اول عشيقة دربته على فنون الحب ..

فى ذلك اليوم ، جاء نابوليون ليتناول طعام العشـــاء مع جوزيفين ، وكانت تخفى عينيها المحمرتين من البـكاء تحت قبعة كبيرة من الجلد الابيض تحجب جزءا كبيرا من وجهها ..

ومضت عشر دقائق وهما لاينبسان ببنت شـــفة .. وفجأة ، نهض نابوليون من مقعده وخاطبها قائلا :

ـ كيف حال الطقس اليوم ؟

ولم تجب جوزيفين ، فتناول فنجان القهوة قبل ان تقدمه اليه زوجته ، ثم اشاح بيده آمرا للخدم بالانصراف ..

وبعد ذلك بلحظات ، دوت صيحات عنيفة ، وشوهد نابوليون يفتح باب الغرفة وقد بدأ كالتائه ، وقال يخاطب منفذ رغباته دى بوسيه البدين :

ـ ادخل يادى بوسيه واغلق الباب ..

كانت جوزيفين ملقاة على الارض تصيح وتشكو وتقول فى صوت يمزق نياط القلب :

ـ كلا ! اننى لن أعيش بعد ذلك ...

لقد انتهى كل شيء واصبحت جوزيفين طالقا .. وكان لا بد من كتمان الفضيحة ومنعها من الشجار والصياح

قال نابوليون مخاطبا دى بوسيه :

ـ هل تستطيع ان تحمل جوزيفين الى جناحها عن طريق السلم الداخلى المؤدى الى هناك ؟ .. ولا تنس أن تضعها تحت حراسة سيدات الحاشية .

ووضع دى بوسيه جوزيفين على اريكة ، ودق نابوليون الجرس ليستدعى سيدات حاشيتها ، ثم اسرع بالانصراف وهو يغمغم قائلا : « اننى انا الذى استحق الرثاء ! . ان مصلحة فرنسا هى التى دفعتنى الى ان اكون عنيفا مع قلبى ، فأصبح الطلاق واجبا ثقيلا لا مفر منه ! »

ولم يلبث نابوليون أن عاد الى غرفتها بعد قليل ، وبدأ فى مساومتها من جديد . وعرض عليها ان يمنحها قصرا ومليونا من الفرنكات فى العام .. ولكن جوزيفين لم ترض

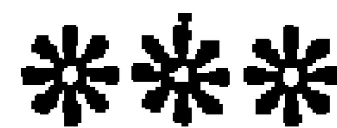
بذلك . واضاف نابوليون قصرا ثانيا الى العرض السابق، ولكنها لم تتزحزح عن موقفها . وضاعف عرضه حتى وصل الى مليار فرنك فى العام (١)، وثلاثة قصور هى قصر لاماليزون والاليزيه ونافار ، فضلا عن تسديد جميع ديونها .. وحينئذ وافقت على الطلاق

وبعد قليل ، خرج تاليران ـ الذى كان حاضرا ـ عن صمته وبروده ، وصاح قائلا :

ـ ياله من شىء مريع حقا ! ـ ايطرد الرجل زوجته هكذا ؟! انه عمل يتطلب الانتقام ، وسأنتقم لها !

ولكن تاليران كان يبغى الانتقام من اجل نفسه لا من أجلها ..

اما نابوليون ، فقد سخر من تاليران ، واسرع الى عشيقته كريستين التى سبق أن ذكرنا أن شقيقته بولين قد دفعت بها بين ذراعيه لتزيد من قسوته على جوزيفين!



والمعروف أن نابوليون قد احتجب فى قصر تريانون وقلبه مفعم بالحزن حينما غادرت جوزيفين قصر التويللورى ومعها ببغاؤها المفضل وعدد هائل من الفساتين . وقد تحدث الكثيرون عن « عظيم تضحية » نابوليون وحزنه العميق الذى كان يريد اخفاءه عن الجميع باحتجابه فى قصر تريانون . ولكن هذا الكلام فيه كثير من المبالغة .. اذ الواقع أن نابوليون كان يخفى عشيقته كريستين فى هذا القصر ، وكان يريد ان يكون معها على انفراد دون أن تزعجه تقاليد البروتوكول ! ولم تخرج من عنده الا قبل زواجه ب « مارى لويز » بيوم واحد

(١) اى ما يساوى الان مليون جنيه تقريبا

أيهن أحبها نابليون ؟

لقد اتصل نابليون ــ فى حياته ــ بنحــــو مائة امرأة وفتاة ، ولم تستغرق هذه الصلة ــ فى بعض الاحيان ــ أكثر من بضع دقائق . وقد أهملنا ذكر النسوة اللاتى لم نعرف أسماءهن لانهن مازلن مجهولات لنا ..

والآن نحب أن نتساءل : أى النساء كن أكثر وضوحا وظهورا فى حياته ؟ .. انهن بالتأكيد : خطيبته الصــغيرة أوجينى ديزيريه ، وجوزيفين ، والممثلة جورج ، ومارى فاليفسكا ، ومغنية الاوبرا جوزبينا جراسينى ، ومارى لويز زوجته الشرعية الثانية

وعلى الرغم من أن أولئك النسوة قد ارتبطت أسماؤهن بحياته ، لفترة من الزمن طويلة كانت أم قصيرة ، الا انهن لم يكن يشعرن نحوه بعاطفة صادقة عميقة ، اللهم الا ذلك الاندفاع العاطفى الذى أبدته نحــــوه خطيبته الصغيرة ديزيريه ، ولكنه كان أندفاعا ساذجا مؤقتا .. فضلا عن انهن يبدو عليهن الحزن العميق ساعة نهايته

ولقد كان نابوليون يطارحهن الغرام .. فهل كان يحبهن حبا حقيقيا ؟

من المؤكد انه قد رغب فى تملكهن ، وانه ملهن بعد فترة من الوقت طالت أم قصرت .. بل ان مارى فاليفســكا نفسها ، التى أولع بها ولعا عنيفا حتى انه كان يؤكد انه

لا يستطيع ان يعيش بدونها ساعة واحدة ، فقدت مكانتها بعد أن استسلمت له بعدة أسابيع !

والواقع أن قلب نابوليون تعلق بامرأتين فقط ، وكان تعلقه باحداهما أكثر بكثير من تعلقه بالاخرى . هاتان المرأتان هما : جوزيفين دى بوهارنيه ، ومارى لويز ..

وقد عاشر نابوليون زوجته الثانية مارى لويز وقتا أطول بكثير من اى فترة قضاها مع اى من عشيقاته . ولكن مارى لويز كانت لا تفرض شخصيتها عليه ، ومن ثم بدت فى عينيه طفلة صغيرة . والواقع انها كانت طفلة ساذجة مراهقة حين تزوجته .. وكان من ناحيته لا يستطيع أن ينظر اليها كامرأة عشيقة . وكانت بدورها تشعر بالحرج فى وجوده ، وتبعث فى البلاط وفى الشعب شعورا بالكآبة .. انها لم تستطع أن تثيره وتبهره مثلما فعلت عمتها مارى انطوانيت مع الملك لويس السادس عشر .. ذلك ان مارى انطوانيت كانت سيدة من نوع آخر . ولكن نابوليون ابتلع صدمته ، واخترع لمن يحيطون به وللاجيال التالية شخصية أضفاها على زوجته الثانية .. فهل اعتقد بدوره فيما اخترعه بنفسه ؟ ان الاجابة عن سؤال كهذا صعبة للغاية .. ولكن الشيء المؤكد ، انه كان يعاملها كطفلة ، وزوجة صغيرة ، وفتاة تحت الوصاية !

ويبقى اسم جوزيفين بعد ذلك بارزا .. وكانت اكاليل الغار تعود اليها على الدوام .. اذ لا جدال فى أن اية امرأة أخرى لم تشغل فى حياة نابوليون ـ وتحديد مصيره ـ مكانا كبيرا هاما مثل الذى شغلته جوزيفين

لقد تقابلا فى عام ١٧٩٥ ، ودام زواجهما نحو خمسة عشر عاما .. وأسهمت فى صعود نجمه وارتقائه لسلم المجد , انها منحته الحماية ، وأعطته حاشية ، وكانت

سيدة بلاطه .. وفوق كل ذلك علمته الحب وعودته على مواهبها فى شئون الغرام ، حتى انه كان لا يملك الا ان يعود اليها خاضعا من حين الى آخر ..

ان جوزيفين هى التى سحرت روح فتى كورسيكا حين كان شابا صغيرا يجهل العالم .. واستمر تأثيرها الحسى عليه مدة طويلة ، حتى انه كان يتحدث عن جسمها بألفاظ صريحة بعد انفصالهما بعشر سنوات ، وقبل احتضاره بعدة ايام ، علق طويلا على ما ضيه مع هذه المرأة ، وعلى قصة علاقتهما وزواجهما ، وهذا آخر ما قاله فى هذا الموضوع :

« هل كانت جوزيفين تعطى ؟! نعم .. ولكنها لم تكن تحرم نفسها من شيء لكى تعطى .. انها كانت تمد احدى يديها لمساعدة احد الناس ، وتمد اليه اليد الاخرى لتأخذ منه .. وكانت كاذبة ومسرفة الى أقصى حدود الكذب والاسراف . ومع ذلك ، فقد احببتها حبا حقيقيا واعجبت بها ايما اعجاب على الرغم من اننى لم أكن احترمها .. لقد كانت امرأة حقيقية بمعنى الكلمة »

لقد احتفظت جوزيفين بسلطانها على نابوليون لانها هى التى علمته ملذات الحب .. ولكنه كان يحتقرها من الناحية الاخلاقية احتقارا يكاد يكون تاما . ولم تكن جوزيفين على قدر يذكر من الثقافة أو القوة العقلية ، فقد كانت لا تحب الكتب أو الموسيقى . والمرء لا يستطيع ان يعثر على كلمة واحدة خرجت من فمها اعجابا بتحفة فنية أو تعقيبا على حدث جليل !

ولم يكن نابوليون يغفر لها ضعف اخلاقها ويتساهل معها فى كل شيء الا لانها كانت تتحول فى خلوته معها الى انثى تتجسم فيها جميع عوامل الاغراء ..

فهرس

صفحة

غرام نابوليون أثناء زواجه بجوزيفين

غرام نابوليون بالكونتيسة البولندية

مغامرات نابوليون بعد معركة فريدلاند

طلاق جوزيفين

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص٠ب ٢٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

سيـــراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons.
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

سـنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samti.
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU.
7. Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــريا : Mr. Mohamed Said Mansour.
Atlas Library Company,
26, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

يتناول هـذا الكتاب « غراميات نابوليون » Les amours de Napoleon جانبا مجهولا من حياه عبقرى نادر الذكاء ، يصوره التاريخ قاهـرا عتيدا وبطلا عسكريا مهيبا ، أحرز ـ بفضل نبوغه وعبقريته ـ فى ميادين القتال ، انتصارات باهرة. ولـكنه انتصر فى الواقع ـ فى معارك « كيوبيد » اكثر مما انتصر فى معاركه الحربية !

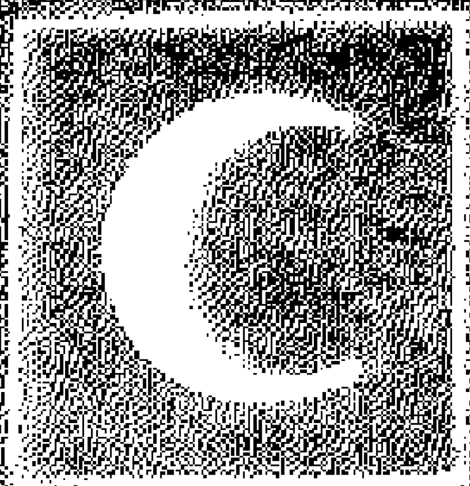
وقد استطـاع مؤلف الـكتاب بفضـل مراجعتـه لمئات الوثائق والرسائل ودراسـته لكتابات معاونيه وأقوالهم ، أن يرسم صورة واقعية طريفة لهذه المعارك الغرامية العديدة ، تكشف عن الـكثير من دخائله وتلقى ضوءا على الجوانب الخفية من حياته الخاصة وعلاقته بالمرأة ..

كتاب الهلال

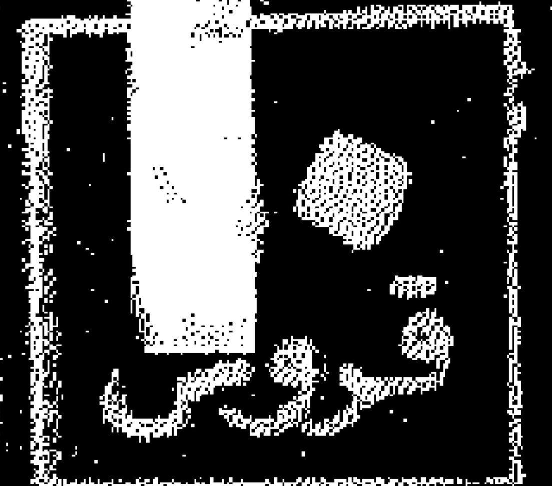
المسلمون والإسلام

للأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق
طاهر الطناحي



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصـــدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٣ – رجب ١٣٨٣ – ديسمبر ١٩٦٣

No. 153 — December 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى الســـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـــا ســـوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجـزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

المسلمون والإسلام

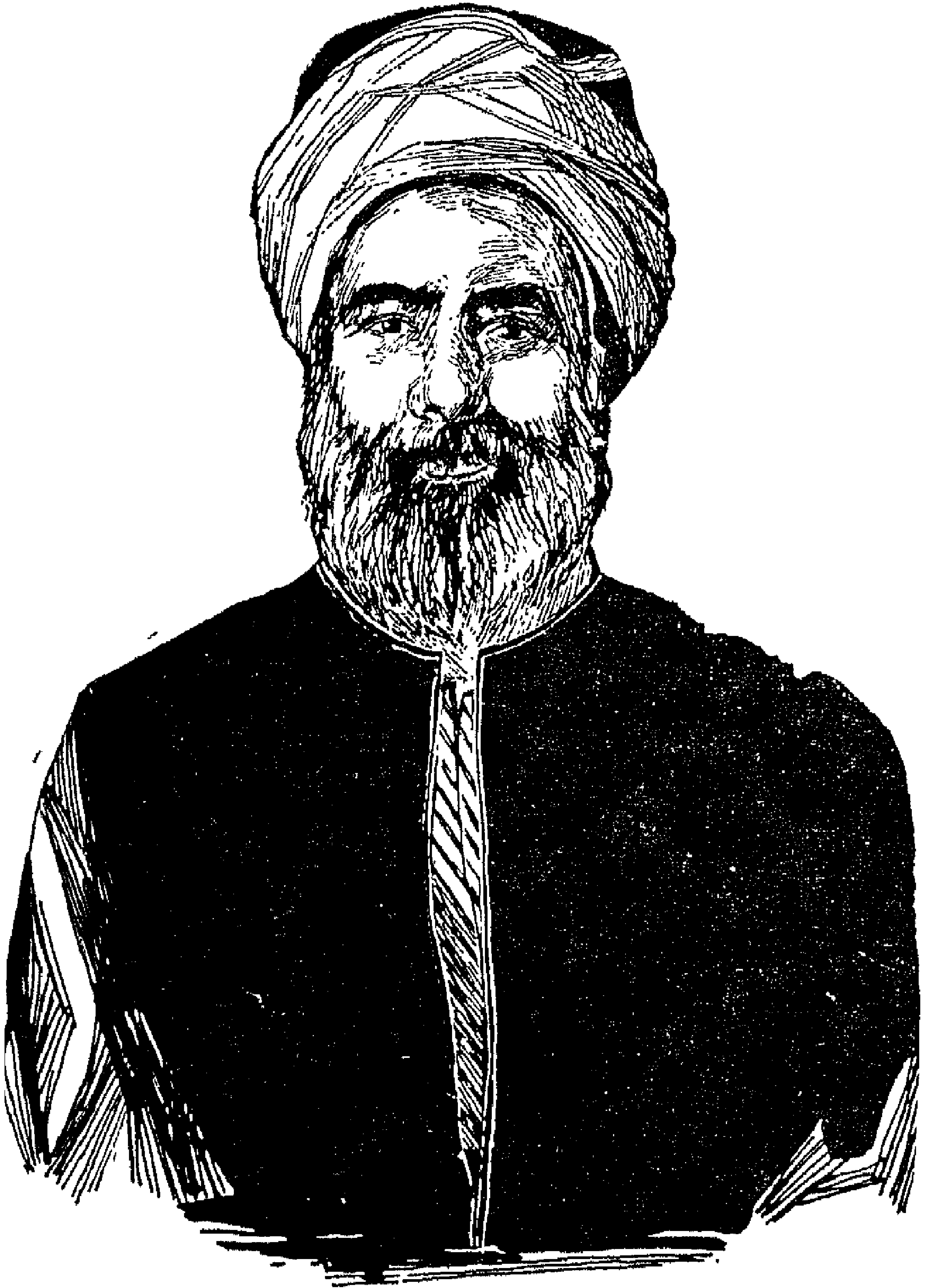
للأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق وتعليق

طاهر الطناحي

دار الهلال



الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

محمد عبده

فى حياته القلمية

بقلم : طاهر الطناحى

هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء هو كتابنا الخامس من تراث الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، الذى عنينا بأن يظهر فى ثوب جديد يلائم عصرنا الحديث . فأخذنا نعرض حياة الامام ، وآراءه ، وآثاره فى عدد من الكتب تظهر بين حين وآخر بتحقيق دقيق ، وتعليق لما يحتاج الى تعليق ، وتفسير للاحداث التى عاصرت آراءه واقواله ، وتبيين للاطوار التي صاحبت حياته الدينية والسياسية والاجتماعية ، وتعريف بالاشخاص الذين عرفوه ، وكان لهم صلة به ، وتوضيح للمؤثرات التى ابرزت هذه الآراء والافكار بصورتها الحية ، التى تمتاز بحرية الراى ، واستقلال الفكر ، وتهدف الى الاصلاح الدينى والاجتماعى والاصلاح السياسى العام

وقد أصدرنا قبل كتاب « المسلمون والاسلام » من هذا التراث المجيد أربعة كتب ، هي بترتيب الصدور :

١ ــ « دروس من القرآن الكريم » يشتمل على تفسير سورتى : « الفاتحة » و « العصر » وتفسير خمس آيات من القرآن تفسيرا وافيا جديدا يتضمن عدة مسائل

منها : مسألة الغرانيق ، ومسألة زينب بنت جحش ابنة عمة النبى (ص) وزيد بن حارثة مولاه

٢ ـ « الاسلام دين العلم والمدنية » . وهو ماسمى من قبل : « الاسلام والنصرانية » ولكننا زدنا عليه عدة فصول بقلم الامام مما يدخل في موضوعه

٣ ـ «مذكرات الامام محمد عبده » . ويضم بين دفتيه عشرة فصول ، تترجم له من ولادته الى دخوله السجن بعد فشل الثورة العرابية . وهى أول مذكرات تنشر له كاملة حتى الآن

٤ ـ « رسالة التوحيد » وقد طبعت قبل نشرنا لها بأكثر من خمسين عاما وأضيف اليها ماليس منها . ولكننا قدمناها لقرائنا فى فبراير سنة ١٩٦٣ م فى عرض علمى جديد ، وبتحقيق دقيق . وبدأناها كعادتنا فى هذه الكتب بمقدمة أوضحنا فيها السبب الذى دعا الى تأليفها والظروف التى احاطت بهذا التأليف . وقد كانت الرسالة الثانية فى التوحيد بعد « رسالة الواردات فى سر التجليات » التى الفها فى شبابه !

ولست ازعم ان ما أقدمه من تراثه ، وأجلوه من فضله ، عمل انفردت به فى بابه ، وان كنت نحوت فيه نحوا جديدا فى طريقته وأسلوبه . فان الذين سبقونى الى التأليف فى حياة الامام ، ونشر آثاره قدموا الى العربية جهودا قيمة ، وقاموا بخدمات ثقافية جليلة الى النهضة الاسلامية ونهضة الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى التى تزعمها الاستاذ محمد عبده بعد استاذه السيد جمال الدين الافغانى . ولكننى وجدت من واجبي نحو رجل عظيم من ائمة الدين وزعماء الوطنية والاصلاح أن أسهم بمجهودي فى خدمة هذه النهضة وخدمة الجيل الحاضر باعتبارى كاتبا مسلما من أمة مجيدة يفرض عليها دينها ومجدها أن

تعنى برجالها العظماء ، وما خلفوا من تراث نفيس

ولا ريب أن عظمة محمد عبده تستحق العناية والتكريم وهى عظمة خيرة واسعة الافق ، متعددة النواحى ، غنية بالمثل العليا ، متحركة لم تكن تعرف الجمود والسكون ، ولا تستكين الى الراحة والقرار ، ولم تكن تعمل فى ميدان واحد ، بل كانت قوية نشيطة منذ بزغ نورها فى شبابه ، فبث روح الحرية والاصلاح الحكومى والقومى بما كان يدبجه من مقالات وفصول فى جريدة الوقائع الرسمية ، على الرغم من انها كانت حكومية ، وبعث فى نفوس الشباب العربى الحماسة الوطنية ، والشخصية القومية ، وحب الحرية والاستقلال ، مما كان أثره واضحا فى اشتعال الثورة العرابية التى كان من كبار زعمائها وكتابها وخطبائها البارزين الذين سجنوا وحكم عليهم بالنفى من البلاد

ولم يكن هذا الحكم الذى احتمل متاعبه مدة من الزمان، بصارف له عن مبادئه فى خدمة الوطن وخدمة الاسلام والمسلمين ، والسعى فى اصلاح أحوال الاقطار الاسلامية فقد انضم بعد خروجه من مصر الى استاذه جمال الدين الافغاني ، وجاهد ما استطاع فى محاربة الاستبداد وتهذيب الاخلاق ، ومحاربة الخرافة والجمود ، وعمل لاصلاح التعليم الدينى وادخال الاساليب الحديثة فى المعاهد الدينية والمدنية

وقد نادى بحرية الفكر واحترام الراى ، والبعد عن التعصب ، ودعا الى الوحدة الاسلامية ، واعتبر الدين اهم وسيلة للاصلاح ، وكافح فى سبيل مبادئه طويلا ، حتى ظن الكثيرون بعد وفاته أنه عاش حياة طويلة لما وسعت من جهود باهرة ، واعمال ضخمة ، مع انه لم يعش أكثر من ستة وخمسين عاما بالتاريخ الميلادى ، وثمانية وخمسين عاما بالتاريخ الهجرى . صرفها منذ كان طالبا وشابا يافعا

فى خدمة الاسلام واصلاح حال المسلمين الى أن توفى فى شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م

الدور الاول : من حياته القلمية

ولقد ظهرت ملـكته الكتابية منذ فجر شبابه فكتب فصولا نفيسة وبحوثا قيمة ، قبل أن ينفى من مصر ، فى الجرائد العربية تناول فيها كثيرا من الموضوعات الدينية، والاجتماعية والفلسفية . وكان اول مقال كتبه وهو طالب فى تقريظ جريدة الاهرام ، وكانت وقتئذ اسبوعية . وقد نشر هذا التقريظ فى العدد الخامس منها الذى صدر فى ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م بهذه الديباجة :

« وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العـــلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر، وقد ادرجناها بحروفها »

وكان عمره وقتئذ سبعة وعشرين عاما . ثم تابع نشر رسائله التى بلغت خمسا فى هذه الجريدة الى العدد ٤١ فى ذى الحجة ١٢٩٤ هـ . وهى السنة التى نال فيها شهادة العالمية من الازهر الشريف . وقد كانت كل رســالة من هذه الرسائل بعد الرسالة الاولى تنشر بهذه الديباجة :

« وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العـــــلم بالازهر »

وتعتبر هذه الرسائل اولى منشآته فى صدر شبابه ، وكان يغلب عليها فى ذلك الحين الاسلوب المسجع ، والتفكير الفلسفى الذى تأثر فيه بمدرسة السيد جمال الدين الافغانى ، حتى كان فى بعض مقالاته يلخص دروس استاذه وينشرها فى « جريدة مصر » . وهى جريدة اسلامية كانت

وقتئذ لسان حال السيد جمال الدين وتلاميذه ومريديه

وهذه الجريدة وجريدة الاهرام هما اللتان نشر فيهما أولى مقالاته فى الدور الاول من شبابه ، دور طلب العلم بالازهر وتلمذته على جمال الدين

وقد كانت هذه المقالات ، وما عرف عنه من النبوغ وسعة العلم حين كان يدرس فى الازهر الشريف للطلبة طائفة من كتب الفلسفة والادب والعلوم الدينية ، من أهم مارشحه للتدريس فى المدارس العليا ، فعين مدرسا للتاريخ فى «دار العلوم» ومدرسا للغة العربية وآدابها فى مدرسة الالسن ، فى أواخر سنة ١٢٩٥هـ الموافقة سنة ١٨٧٨م . وقد تولى التدريس فى هاتين المدرستين مع الاستمرار فى التدريس فى الجامع الازهر ، وقد درس لطلبة دار العلوم « مقدمة ابن خلدون » وكان فى اثناء تدريسه لابوابها وفصولها العمرانية ، يبث أفكاره السياسية والاجتماعية فى أذهان تلاميذه ، ويدلهم على أسباب الضعف التى تصيب الامم بالسقوط ، وأسباب القوة التى تنهض بالدول وتؤدى الى الرقى والنجاح !

وقد بث فى تلامذة مدرسة الالسن حب لغتنا العربية ، وزادهم اعجابا بأدبها وبلاغتها ، ودفعهم الى العمل لاحياء تراثها المجيد . وكان لهذه الروح التى ايقظها فى نفوس الشباب ما جعلهم يؤمنون بوجوب الاصلاح ، ويشعرون بأن عليهم واجبا مقدسا باصلاح ما افسده الخديو اسماعيل والخديو توفيق من شئون مصر المالية والسياسية والادبية . وقد تخرج عليه طائفة من زعماء مصر وعلمائها وأدبائها الذين قاموا بخدمة بلادهم واصلاح أحوالها فيما عهد اليهم من مناصب واعمال ، نذكر منهم سعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، ومحمد صالح ، والشيخ على يوسف ، واحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبدالرازق ، وحفنى ناصف

الدور الثانى : فى الوقائع المصرية

وقد كانت هذه الجهود الاولى التى بذلها محمد عبده فى صدر حياته مما لفت اليه أنظار رئيس الوزارة فى ذلك الحين مصطفى رياض باشا ، وكانت جريدة الوقائع المصرية فى حاجة الى الاصلاح والتحسين بعدما انتقل تحريرها من اللغة التركية الى العربية ، فأحب أن يعين فيها كاتبا قديرا يستطيع ان ينهض بها ، ويحقق لها ما يريده من رقى ، فأشار عليه الوزير الشاعر الفارس محمود سامى البارودى بأن يعين فيها الشيخ محمد عبده ، ففى اواسط سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م) عينه محررا ثالثا بها . ثم عينه محررا اول ورئيسا لتحريرها ، فأختار لمساعدته فى التحرير الشيخ سعد زغلول (سعد زغلول باشا) . والشيخ ابراهيم الهلباوى (المحامى الشهير فيما بعد) والشيخ سيد وفا .. وهم من الذين عرفوا بجودة الكتابة وبراعة التحرير فى ذلك الزمان

وقد مكث رئيسا لتحرير هذه الجريدة يكتب فيها بحوثه السياسية والوطنية والاجتماعية حتى فشلت الثورة العرابية وقبض عليه. وسجن ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج البلاد المصرية

وقد عنى اثناء رياسته لجريدة الوقائع المصرية باصلاح تحريرها ، وتوجيه الخدمة للشعب على الرغم من انها جريدة حكومية . وكان يتناول فيها الموضوعات الكبرى سواء كانت مالية ام سياسية ام وطنية ، مما لا يجيده غيره فى الصحافة المصرية فى ذلك الحين . وحدث ان بعث رياض باشا الى قلم المطبوعات يطلب نشر مقال فى الوقائع المصرية ، عن حالة مصر المالية ، فلم يجدوا غير محمد عبده لكتابة هذا المقال ، الذى دبجه بقلمه البليغ واطلاعه

الواسع على شئون مصر المالية ، فأعجب به رئيس الوزارة

وقد أتاح له عمله فى هذه الجريدة أن يهذب الاسلوب الصحفى ويرقى الكتابة العربية ، ويضع لائحة لقلم المطبوعات أو الجريدة الرسمية كما كانت تدعى بهذين الاسمين فى ذلك الزمان . وكان من أحكام هذه اللائحة أن جميع ادارات الحكومة ومصالحها ، ومحاكمها ومجالسها فى العاصمة المصرية وغيرها من المدن والقرى ، تكتب للجريدة مخبرة لها بما أتمت ومالم تتمه من أعمال ومشروعات . وان لرئيس التحرير والمحررين الحق فى انتقاد كل ما يرون انتقاده من أعمال الحكومة والموظفين

وكان من أثر عنايته بلغة الكتابة وتحريه الاسلوب الفصيح فى الوقائع المصرية ان عنيت الصحف المصرية الاخرى بتحسين أسلوبها واختيار المحررين المجيدين . وكان من أثر انتقاد الحكومة وأسلوب موظفيها ولغتهم الركيكة أن عنيت الحكومة بانتقاء الموظفين الصالحين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين كما عنيت الحكومة بتحرى العدالة ، والحق فى اعمالها ، واصلاح ما فسد من شئونها ، وجعلها تحسب للانتقاد حسابه ، واصبح رئيس تحرير الجريدة الرسمية مهيمنا على سلوك الحكومة ينتقد الاعمال والاقوال ، ويطلع الامة على عيوبها الرسمية والاجتماعية ، ويرشد رجال الحكم وقادة الرأى الى نواحى الرقى والاصلاح

وقد ضاق وزير المعارف فى ذلك العهد بانتقاد الوقائع المصرية ، وشكا الى رياض باشا هذا الانتقاد ، فقال له رياض باشا : « ان كان ما كتبته الجريدة حقا ، فلا وجه للشكوى ، وان كان باطلا فعليك ان تبين ذلك بالبرهان . ومحمد عبده لا يتأخر عن نشره بالجريدة ، فانه لم يقصد

بما كتب الا المصلحة العامة » فسكت الوزير

وقد قال الشيخ محمد عبده فى مـــذكراته : « ومن فكاهات ذلك العهد أن مدير بنى سويف (أ.بك) بعـــد ان ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدةالرسميةومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض اخطائه أصدر أمره بمنـــع دخول الجريدة الرسمية فى مديريته

« وكتب بذلك محررا غير رسمى الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر فى يد رئيس التحرير (محمد عبده) .. لانه كان العامل وحده فى الادارة (أى هونفس مدير المطبوعات) . فنشرت تلك الفعلة فى منشور عام له ولجميع المديرين ، وادرج المنشور فى الجريدة الرسمية ، فانظر الى أثر ذلك فى أنفس العامة والخاصة . وهـــذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة وأفهمهم انها قد أقامت من نفسها مراقبا عاما عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد الى طرق التدارك لما يقع من خلل ، وهو مما يرفع الهمم الى أعمال الفكر فى معرفة الحق ، ويسوق العزائم الى طلبه »

وقد رسم الشيخ محمد عبده فى لائحة المطبـــوعات للجرائد الاخرى وما ينشر من كتب ومطبوعات ما رسمه لنفسه وجريدته من آداب وتعاليم فخدم بذلك الصحافة وخدم اللغة العربية ، وخدم وطنه واسهم فى جهـــاده القومى والسياسى

هذا هو الدور الثانى من أدوار حياته القلمية ، وهـــو دور العمل الوطنى والاصلاح الحـــكومى والاجتماعى ، وكان لمقالاته الوطنية اثرها العظيم فى الثورة العرابية ، وكان الصحفى الاول الذى قدرته الحكومة ، وقـــدره الشعب ، وكان لارائه وافكاره المكانة الاولى بين الزعماء والكتاب . ولقد كتب المحامى الانجليزى مستر برودلى

الذى دافع عنه فى أثناء المحاكمة يصف تاثير قلمه فى قرائه بما ملخصه :

« كان الشيخ محمد عبده اقوى الوطنيين المصريين موهبة . وأكثرهم تأثيرا فى قرائه وبخاصة فى الطبقة المهذبة من ابناء وطنه ، لانه كان كاتبا قديرا ، وعالما بالعربية ضليعا ، وخطيبا فصيحا يمتلك العقول والالباب . وقد ساعد فى جعل الرأى العام دافعا حقيقيا الى الترقى المصرى ، ولم يكن متعصبا ولا جامدا ، ولا مستهترا بآداب الدين . وكان من العلماء المسلمين الذين يكرهون التعصب ويؤثرون التسامح ، ويحترمون حرية الراى واستقلال الفكر

« ولا ريب عندى ان اخلاق الشيخ محمد عبده تعتبر مثلا حقا للقوة العقلية والتفكير العظيم .. » !

ذلك بعض ماكتبه هذا المحامى الانجليزى فى وصفه للشيخ محمد عبده ككاتب سياسى وزعيم وطنى وصحافى كبير فى هذا الدور الثانى من حياته القلمية التى سبقت نفيه بثلاث سنوات (١٨٧٩ — ١٨٨٢ م)

الدور الثالث : فى العروة الوثقى

بدأ الدور الثالث من حياته القلمية حين غادر مصر بعد الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م فسافر الى بيروت ، واقام فيها مدة يعلم الدين ويحاضر فى العلوم والآداب ويكتب فى الصحف السورية ، ويراسل الصحف المصرية أيضا . وبعد نحو عشرة اشهر تلقى من السيد جمال الدين الافغانى دعوة بالسفر الى باريس حيث يقيم فى ذلك الحين بعد هجرته من الهند الى أوربا . فقدكان السيد قد اخرجه الخديو توفيق سنة ١٨٧٩ م من مصر

هو وتابعه « ابو تراب » فأقام فى « حيدر آباد » وفيها كتب رسالته فى « الرد على الدهريين »

ولما قامت الثورة العرابية ألزمته الحكومةالبريطانية بالاقامة فى «كلكتا» عاصمة الهند ، حتى انتهت الثورة فسمحت له بالسفر الى اى بلد يختاره ، فاختار السفر الى أوربا وقصد مدينة لندن ، فأقام بها عدة أيام ، ثم سافر الى باريس للاقامة بها . وفى ذلك الوقت دعا اليه الشيخ محمد عبده ليقوما بعمل حيوى يعود على المسلمين بالنفع العام ، ويحقق أهداف الاسلام

غادر الشيخ محمد عبده بيروت قاصدا باريس حيث التقى بالسيد جمال الدين ، وسكن معه بالحى اللاتينى . ثم وضعا مشروع جمعية اسلامية عرفت باسم « العروة الوثقى » وكانت هذه الجمعية أشبه ما تكون بالجمعيات السرية ، فلم يكن لغير اعضائها ، وهم من زعماء الاسلام ورجاله الغيورين ان يعرف شيئا من أسرارها . وانما يمكنه أن يفهم أنها تعمل لوضع أساس الجمع بين فكرة القومية العربية والجامعة الاسلامية ، وان من أهدافها هداية الناس الى أصول الدين ، والدعوة الى الوحدة الاسلامية ، والسعى فى تأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة ، وانقاذ المسلمين من براثن الاستعمار

وكان لهذه الجمعية قانون أساسى من ثلاثين مادة . ويمين يؤديه كل عضو حين انتظامه فى العضوية وهو يتضمن أغراض الجمعية . ونص هذا اليمين ما يأتى :

« اقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لاحكمن كتاب الله تعالى فى اعمالى واخلاقى بلا تأويل ولا تضليل . ولاجيبن داعيه فيما دعا اليه ،

ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا فى نهى، ولأدعون لنصرته، ولأقومن بها ما دمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

« أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المتصرف لاحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لابذلن مافى وسعى لاحياء الاخوة الاسلامية ، ولانزلنها منزلة الابوة والبنوة الصحيحتين ولاعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد من عقودها ، ولاراعينها فى غيرهم من المسلمين ، الا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فانى أبذل جهدى فى ابطال عمله المضرّ بالدين ، وآخذ على نفسى فى محو اثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى

« أقسم بهيبة الله وجبروته الاعلى أن لا أقدم الا ماقدمه الدين ، ولا أؤخر الا ما أخره الدين . ولا اسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين ، جزئيا كان أو كليا . وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه

« وعلى عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه اعرفه. وماجهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه امكانى الوجودى

« وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الامل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه . آمين »

وفى الخامس من جمادى الاولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م صدر العدد الاول من جريدة العروة الوثقى بباريس لتكون لسان حال هذه الجمعية. وقد كتب فى رأسها : «مدير السياسة السيد جمال الدين

الافغانى » و «رئيس التحرير محمد عبده »

وعلى الرغم من النفقات الباهظة التى تلزم لاصدار جريدة عربية فى باريس فان الجمعية كانت تهديها الى ملوك الغرب وامرائهم وقادتهم وزعمائهم ، وترسلها الى كل من يطلبها مجانا

وقد صدر العدد الاول بمقال جاء فى مطلعه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لماذا صدرت الجريدة

« ربنا عليك توكلنا واليك انبنا ، واليك المصير

« هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتوكل فى نجاح العمل

« خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ، ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ، ثم التوت . أوغل الاقوياء من الامم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا البابهم حتى أذهلوهم عن انفسهم ، وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية

« ذهب قوم الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية ، وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية ، وان اتفقت آحادها ، بل زعموا انه يمكن استهلاك الجم الغفير فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس ويبطله البرهان .. »

ثم أخذ يفند هذا الرأى .. وانتقل الى بيان اخلاق الامم الضعيفة ، واستكانتها للاستبداد والطغيان ، ونعى عليها التفرقة ، وخاصة فى بلاد المسلمين ، التى أتاحت للاستعمار السيادة عليها بسبب الخلاف والتفرقة

والنزاع . واوضح كيف بلغ الاجحاف غايته ووصل العدوان نهايته فى هذه البلاد ، وكيف أصبحت الحالة سيئة فى مصر التى تعتبر عند المسلمين زعيمة الاقطار الاسلامية ، ثم تحدث عن وجوب الدعوة للعمل فى الشرق وفى بلاد العروبة والاسلام لاصلاح ما افسده الخلاف ومحاربة الاستعمار الذى يعمل على هدم القومية العربية، ومجد المسلمين والاسلام . وابان أن أعضاء جمعية العروة الوثقى اختاروا أن تكون لهم جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربى ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الاقطار القاصية ، تنبيها للعاقل ، وتذكيرا للذاهل .. !

وبعد ذلك تحدث فى الافتتاحية عن منهج « العروة الوثقى » واغراضها فقال ما ملخصه :

١ ــ تضع الجريدة نفسها فى خدمة الشرقيين عامة، فتبين لهم الواجبات التى يجب عليهم القيام بها ، والتى كان التفريط فيها سببا فى تدهورهم ، وتوضح الطرق التى يجب اتباعها لتدارك الاخطاء الماضية ، وتجنب الاضرار فى المستقبل .

٢ ــ تبحث الاسباب والعلل التى ادت الى ضعف المسلمين وفى طليعتها تفريطهم فى تعاليم الدين

٣ ــ تكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، وتزيح الوساوس التى سيطرت على عقول الكثيرين

٤ ــ تحاول أن تحيي الامل فى النفوس ، وتبين أن طريق النهوض ليست بالصعوبة التى توجب فتور الهمة وخور العزيمة

٥ ــ تهتم بالرد على التهم التى توجه الى المسلمين

والاسلام ، وعلى الشرقيين ، وستفند مفتريات الغربيين القائلين بأن المسلمين لن ينهضوا ماداموا متمسـكين بأصول دينهم

٦ ـ توالى الجريدة اطلاع الشرقيين على الاحـداث العالمية وأسرارها ليحيطوا علما بما يدبره السياسـيون الاوربيون

٧ ـ تعمل الجريدة على تقوية الروابط بـين الامم الاسلامية ، وبيان المنافع المشتركة بينها وتمكين الالفة بين افراد هذه الامم

وقد استقبلت الصحف الفرنسية الحرة « العـروة الوثقى » استقبالا حسنا ، ورحبت بصدورها ، واشارت بفضل القائمين على تحـريرها ، ومكانتهما فى العـالم الاسلامى

أما الصحف الانجليزية ، فقد حملت عليها حمـلات شعواء . وفى مقدمتها جريدة التيمس الاسـتعمارية ، واتهمتها بأنها وكر للدسائس ، وأخذ الانجليز يحاربونها فى كل مكان لهم نفوذ فيه ، ويقفون دون انتشارها فى العالم الاسلامى والبلاد الخاضعة للسيادة الانجليزية . وقد صدر الامر وقتئذ بمنع دخولها فى بلاد الهند ، واجتمع مجلس الوزراء المصرى فى جلسة خاصة بايعاز المحتلين الانجليز ، قرر فيها منع دخول جريدة العروة الوثقى فى البـلاد المصرية ، وان يدفع كل من تضبط معه غـرامة قدرها خمسة جنيهات مصرية

لم تفت هذه العقبات فى عضد السيد جمـال الدين ولا فى عضد الشيخ محمد عبده ، فظلا يصدران الجريدة ، واخذ الشيخ محمد عبده يحرر مقالاته نهارا ، ويتلقى دروسا فى اللغة الفرنسية ليلا ، ويواصل العمل فى تعزيز

شأن الجمعية ، وبث دعايتها فى العالم الاسلامى

وكان مستر ويلفرد بلنت صـديق مصر والمصريين فى ذلك الحين ومؤلف كتاب « التاريخ السرى للاحتـلال البريطانى » قد وجه دعوة خاصة للشيخ محمد عبـده لزيارة انجلترا ليبسط قضية بلاده للرأى العام ، فلبى دعوته ، وهناك التقى بكثيرمن رجال السياسة الانجليزية ، وجرت بينه وبينهم عدة أحاديث تناولت الاحتـلال البريطانى لمصر ، وكان ممن قابلهم اللورد هرتنكتون وزير الحربية الذى سأله قائلا :

ـ الا يرضى المصريون بحكم الانجليز الذين خلصوهم من ظلم الاتراك واستبداد الباشوات ؟ !

فرد عليه الاستاذ الامام بأن مصر تأبى أن تستبـدل استعبادا باستعباد ، ولا تقبل غير الحرية والكرامـة والاستقلال ، ثم بسط له القضية المصرية من عهد محمد على باشا الكبير ، وكيف أفسدت الدول الاوربية السياسة الشرقية ، وسيطرت على العالم الاسلامى

ومضت على ظهور « جريدة العروة الوثقى » بضعة اشهر صدر فيها ثمانية عشر عـددا . ثم توقفت عن الظهور فى اكتوبر ١٨٨٤م لضعف مواردها المـالية ، وقلة المساعدات ، فرأى السيد جمال الدين الافغانى ان يكف عن اصدارها ، ولمـا عاد محمد عبده من رحلته فى بلاد الانجليز كاشفه جمال الدين برأيه ، فاضطر مرغمـا أن يوافقه . وهكذا ماتت الجريدة ، وعاد الى بيروت يحاضر فى علوم الدين ، ويلقى دروسه فى المدرسة السلطانية .!

وقد كتب الشيخ محمد عبـده فى ترجمته لاسـتاذه السيد جمال الدين عن هذه الجريدة ، فقال :

« .. ولما كلفته جمعية العروة الوثقى أن ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله ، سألنى أن أقوم على تحريرها ، فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا . وقدأخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصامالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولا تنبيه منبه . وذلك لخلوص النية فى تحريرها ، وصحة المقصد فى تحبيرها . ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى اصدارها ، اذ اقفلت أبواب الهند عنها ، واشتدت الحكومة الانجليزية فى أعنات من تصل اليهم فيه . ثم بقى السيد بعد ذلك مقيمابأوربا اشهرا فىباريس ، واخرى فى لندرة الى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ هـ . وفيه سافر الى البلاد الايرانية »

واذا كانت جريدة العروة الوثقى قد انشئت لخدمة الاسلام والمسلمين ، فانها لم تكن تحارب الاديان الاخرى، او تسعى بالفرقة بين ابناء الشرق المختلفين فى الدين ، بل كانت الحرية رائدها ، والتسامح منهجها ، والوحدة مبداها . ولهذا كتب الاستاذ الشيخ محمد عبدهفىالعدد الثامن الصادر منها فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ م يزيل كل شبهةعن لهجتها الاسلامية ، وينفى عنها التعصب،ويقول:

« لا يظن احد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر احيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ، ولامما نميل اليه ، ولايبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الاجانب عليهم ،

والافساد فى بلادهم

« وقد نخص المسلمين بالخطاب لانهم العنصر الغالب فى الاقطار التى غدر بها الاجانب ، واذلوا اهلها اجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها .. »

الدور الرابع : فى الصحف السورية

عاد الشيخ محمد عبده من باريس الى بيروت بعد تعطيل جريدة « العروة الوثقى » ، فأخذ يحاضر فى الدين لطلبة العلم ومريديه ، ويعلم الناس فى داره وفى النوادى العلمية امور دينهم ويرشدهم الى خير دنياهم . ثم اختارته جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية للتدريس فى المدرسة السلطانية . وفى أثناء ذلك كان يكتب المقالات العلمية والبحوث الاسلامية والاجتماعية والسياسية فى جريدة ثمرات الفنون البيروتية . فنشرت له عدة مقالات وبحوث منها : « مصر وجريدة الجنة » . وهى رد على مقالة نشرتها « جريدة الجنة » تتضمن تقريعا وتعنيفا للمصريين لخروجهم على الخديو محمد توفيق ، وكانت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى هذا المعنى ، واتهمت المصريين بذنوب لم يقترفوها ، ورجعت بالثورة العرابية والاحتلال البريطانى الى أسباب ليست هى الاسباب الحقيقية . وقد قال فى هذا الرد عن أسباب الاحتلال :

« .. غير ان الحكومة الانكليزية على عادتها فى اختلاق العلل ، وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجوه المطامع ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناواة ، واندفعت لتسير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا ، وعدوانا . ثم نفخ بعض رجالها فى انوف ضعفة العقول

من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين ، قضاء لشهوة انجليزية . واقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان . ولو ان بصيرا نظر الى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر من يوم وردت المراكب الأنجليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ماكان قبل ذلك من عموم الامن ، ورواج الاعمال ، وانتظام المصالح ، وبين ماكان بعده .. »

ثم قال فى نهاية المقال :

« .. فقد تبين أن من حظ الانجليز ايقاع النفرة بين الخديو ورعيته ، ليتم لهم ما يريدون منهما . كما مرنوا عليه فى كل بلد دخلوه

« هذه هى الحقيقة التى ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء . فلم تكن اسباب المشاكل ما ذكره حضرة الكاتب، وانما سببها الجشع الانجليزى الذى اتفق عليه سياسو العالم .. »

ثم كتب فى هذه الجريدة مقالا عن كتب الغزوات الاسلامية واخبار الفتوح الاولى مما يباع فى الاسواق ، ويحتوى على تشويه لسيرة النبى وتاريخ الاسلام والمسلمين وقد أوضح فى هذا المقال ما ينبغى الاعتماد عليه فى هذه الكتب وما لا ينبغى

وقد كتب فى ثمرات الفنون مقالا ردا على رسالة نشرتها جريدة التيمس للسير صمويل باكر بعنوان : « السودان ومصر وانكلترا » ومقالا عن مصر والمحاكم الاهلية ، واخر عن اللغة العربية فى المحاكم الاهلية . وذكر فى الاولى انها رسالة من مصر للابهام . أما الثانية ، فقد كتبها بعد عودته الى مصر

الدور الخامس : بعد عودته الى مصر

ولما رجع الى مصر فى أوائل سنة ١٨٨٨ م بعد ان أقام فى بيروت نحو ست سنوات نشرت له الصحف المصرية كثيرا من بحوثه القيمة . وقد اشتهرت مقـــالاته التى نشرتهـــا جريدة المـــؤيد فى الـــرد على هانوتو أحـــد وزراء فرنســـا وكتابها فى الاســـلام والعقائد السامية والآرية ، كمـــا اشـــتهرت مقـــالاته فى فلسفة ابن رشـــد والرد على مجلة الجامعة والمقابلة بين الاسلام والنصرانية فى التسامح الدينى والعلم والمدنية التى جمعناها فى كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية »

ولما قام الاستاذ الامام برحلاته فى صقلية وانجلترا وبعض المدن الاوربية وشمال افريقيا كتب عدة مقالات فى مجلة «المنار» .. أما بحوثه فى اصلاح التعليم واصلاح الازهر الشريف، ورسائله الاصلاحية السياسية والدينية، فقد نشر بعضـــها فى المنار والصـــحف الاخرى ، ونشر البعض الآخر بعد وفاته فى « تاريخ الاســـتاذ الامام » للسيد محمد رشيد رضا

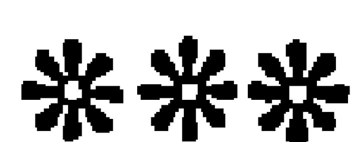
هذا عدا كتاب « رسالة التوحيد » وما وضـــعه فى تفسير القرآن ، وما كتبه عن الثورة العرابية ، وما ترجمه عن سبنسر فى التربية ، وعن الفارسية فى الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغانى ، وما شرحه من كتب الادب كنهج البلاغة للامام على بن أبى طالب ، ورسائل بديع الزمان الهمزانى ، وكتـــاب البصـــائر النصيرية فى المنطق ، وكتاب المخصص لابن ســـيده الذى حققه مع العلامة الشنقيطى ، وكتاب اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، ورسائله الادبية والاخوية لاصدقائه

وقد كتب الى صديقه الكاتب الانجليزى مستر ويلفرد

بلنت رسائل فى صيف سنة ١٩٠٤ م تضمنت آراءه الاخيرة فى النظام السياسى المقترح لمصر . وقد نشرت هذه الرسائل مترجمة الى الانكليزية فى كتاب بلنت « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » سنة ١٩٠٧م بلندن

وللاستاذ الامام آثار قلمية مخطوطة ، بعضها موجود وبعضها الاخر مفقود . ومن الموجود : « رسالة فى علم الوضع » بخط الشيخ محمد عبده وهى فى عشر صفحات و « دروس دار الافتاء » التى كان يلقيها فى دار الافتاء بالازهر ، و « رسالة فى المنطق » وهذه المخطوطات عند الدكتور عثمان أمين . ورسالة فى التربية لهربرت سبنسر ترجمها الشيخ محمد عبده عن النسخة الفرنسية وهى فى حوزة الاستاذ الاديب راشد رستم

اما المفقود من المخطوطات ، فمن ذلك « رسالة فى وحدة الوجود » . و « فلسفة التاريخ والاجتماع » . وهو يحوى محاضرات الشيخ محمد عبده فى مدرسة دار العلوم . وكتاب فى نظام التربية المصرية ، وآخر فى تاريخ اسماعيل باشا



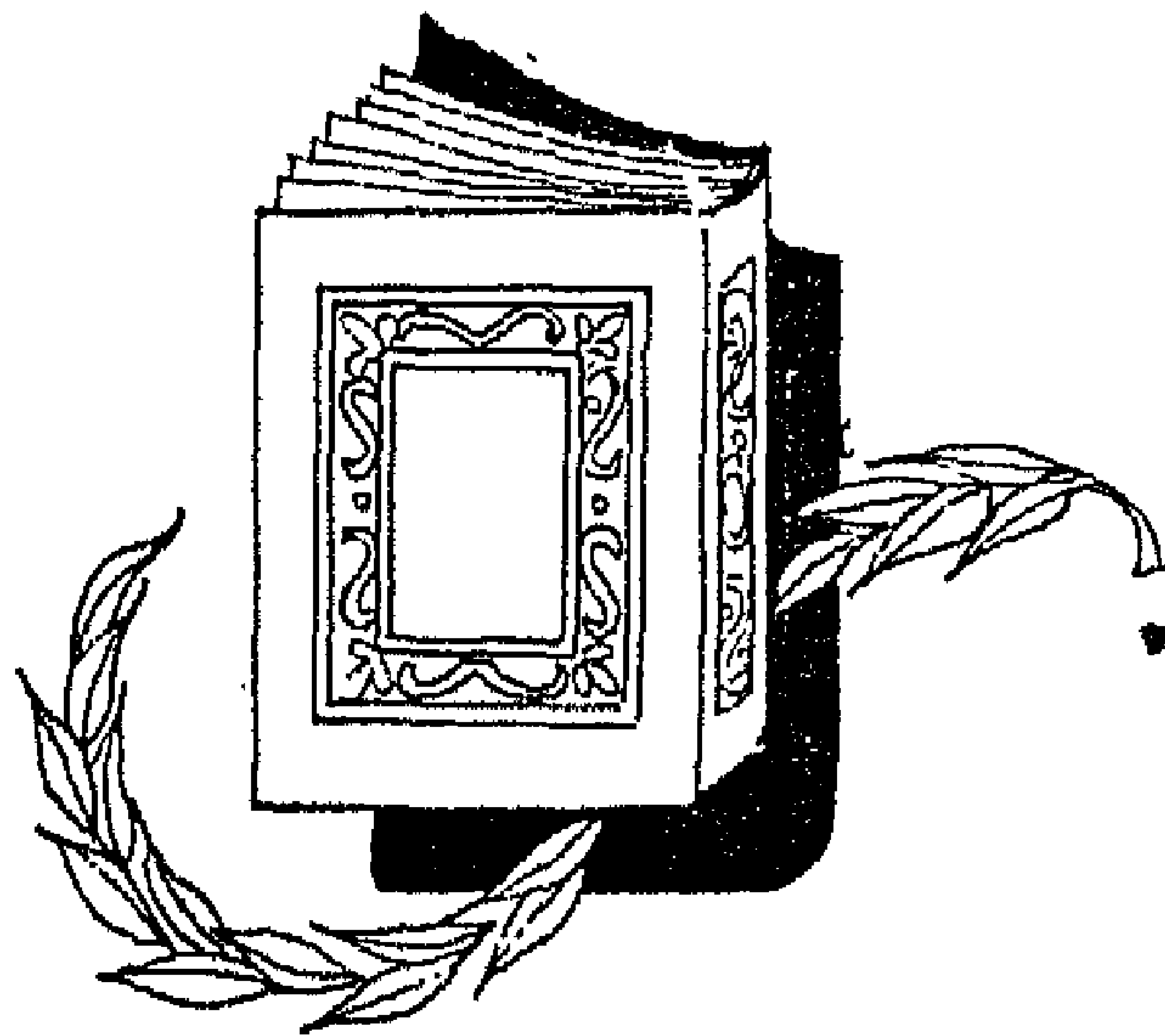
وقد راينا ان ما خلفه الاستاذ الامام من تراث قلمى ينقسم الى قسمين : قسم لمناسبات خاصة ليست قائمة الآن . وقسم كتبه من خواطره وفلسفته وآرائه فى الاسلام والمسلمين مما يصلح لكل زمان ومكان ، وما يستفيد به هذا الجيل وكل جيل ، فحرصنا على احيائه مع العناية بعرضه وتحقيقه

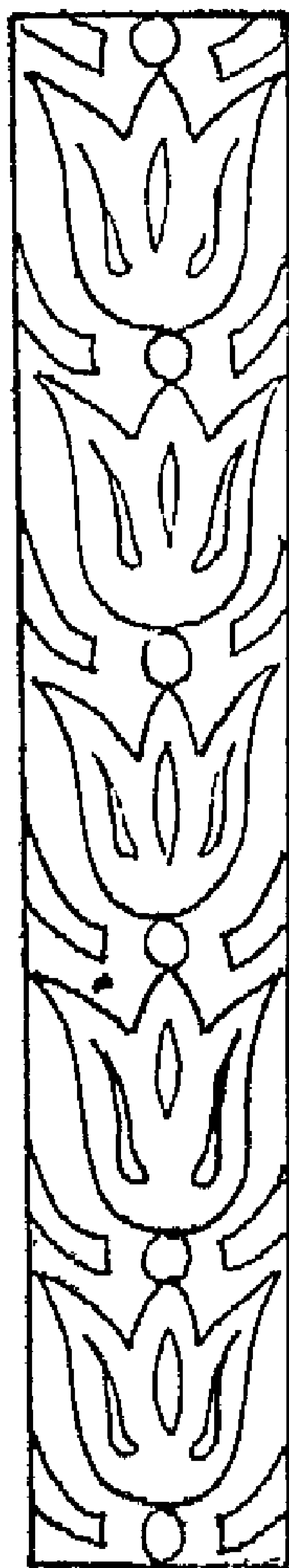
ومن ذلك هذا الكتاب « المسلمون والاسلام » الذى نقدمه اليوم . وقد اخترناه مما كتبه فى « الوقائع

المصرية » و « العروة الوثقى » و «مجلة المنـــــــار » و « ثمرات الفنون » وغيرها من الصــــــحف المصرية والسورية ، وجعلناه يشتمل على ستة فصول تناولت موضوعات مفيدة فى الاسلام وشئون المسلمين ، تهـم جميع القراء ولو كانوا من غير المسلمين ، لانها موضوعات تتناول الانسان من حيث هو انسان فى حاجـــة الى الاصلاح النفسى والدينى كما تتناول المجتمع الانسانى من اهم نواحيه ، وتعالج الشئون الاجتماعية والمسائل الكونية التى لا يقتصر التفكير فيها على دين من الاديان او مذهب من المذاهب

وسوف يرى القراء في صفحات هذا الكتاب ذخيرة ثقافية ممتعة تفتح امام الناس آفاقا من المثل العليـــا والراى الناضج ، والتفكير السليم الذى يقوم على اسس متينة ويهدف الى النهوض بالفرد والجماعة من وهـدة التخلف الى مدارج الرقى والاصلاح العام

طاهر الطناحى





دين الوحدة والسيادة والقوة





الوحدة الإسلامية

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » قرآن كريم

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغـــرب الاقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء .. اقطـــار متصلة ، وديار متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب . اخذ بصولجان الملك منها ملوك عظام ، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض الا قليلا .. ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم .. قلاعهم وحصونهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم «أراضيهم السهلة الواسعة» واخيافهم «الاراضى المنجدرة عن الجبل» رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأصناف الاشجار ، صنع ايدى المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم ، وتفاخرها بشموس الفضـــل ، وبدور العلم ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الاعلى فى العلوم والآداب.

كان فى الشرق من حكمائهم : ابن ســـينا ، والفارابى ،

والرازى ، ومن يشاكلهم ، وفى الغرب : ابن باجـه ، وابن رشد ، وابن الطفيل ،ومماثلوهم . .وما بين ذلك امصار تتزاحم فيها اقدام العلماء فى الحكمـة والطب والفـن والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقـات الملة . كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائص أعظم الملـوك فى أوربا . ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل : محمود الغزنوى (٢) وملكشاه السلجوقى (٣) ، وصلاح الدين الايوبى ، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سـليمان العثمانى .. أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم

كانت لاساطيل المسلمين ساطة لاتبارى فى البحر الابيض والاحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليـا فى تلك البحار الى زمان غير بعيد .. كان مخالفوهم يدينـون لملكوت فضاهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الاقطـار التى ورثوهـا عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن اربعمائة مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم اشجع وأسرع اقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشـد الناس

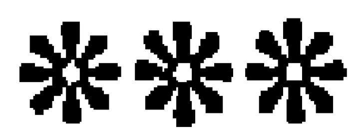
---

(١) فغفور : لقب ملوك الصين فى ذلك الزمان

(٢) محمود الغزنوى ولد سنة ٩٦٧ م ومات سـنة ١٠٣٠ م من عظماء التاريخ الاسلامى فتح غزنه التى تدعى افغانستان الان، ثم فتح الهند وأدخل فيها الدين الاسلامى

(٣) ملكشاه بن الب أرسلان ، ساطان سلجوقى تولى الملك سـنة ١٠٨٢ م الى ١٠٩٢ م زوج ابنته للخليفة المقتدى العباسى وكان هدفه اعادة المجد الى الخلافة بسـيف السلجوقيين

ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ..
جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الاخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ، ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات ، فأودع فى افكارهم جراثيم الحق وبذر فى نفوسهم الفضل ، فهم بأصول دينهم انور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعدادا لنيل الكمالات الانسانية وأقرب الى الاستقامة فى الاخلاق .. وربما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شئون العالم اجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وان بلغت من الشدة او اللين ما بلغت .. لما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه . ذلك احساس يشعر به وجدانه ولايجد عنه مسليا ، وبما ساخ « غاص ورسب » فى نفوسهم من جذور المعارف التى ارشدهم اليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الاعلى فى عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم اولى الناس بالعلم واجدرهم بالفضل



ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها اساتذة العالم ، وأخذت ممالكهم تنقص اطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم ان لايدينوا لسلطة من يخالفهم .. بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الاجنبي عنهم ، وكشفها عن ديارهم ، بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته .. هل نسوا

وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون .. هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا .. لا .. ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين ، حاكمة في ارادتهم ، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم

نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم ، وللضعف في القوة اسباب ، أعظمها تخالف طلاب الحكم فيهم لأنا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم ، فتعدد الحكام عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد ، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاغسار (١) دون الترقي في عواليها .. ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام . وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وإنشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من امراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى ، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل .. ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص

---

(١) الاغسار : أي التقصير

وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الامارة واسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، وأختاروا موالاة الاجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على ابناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل !

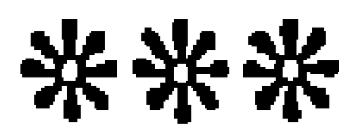
هذا الذى أباد مسلمى الاندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا اطلالها ، وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار .. هكـــذا تلاعبت أهواء السفهاء بالبلاد الاسلامية ، ودهورتها امانيهم الكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن ، قبح ما صنعوا وبئس ماكانوا يعملون

أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا التراخى فى الاعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس .. ما أشد ضررهما وما أسوأ اثرهما ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على ابوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة ، حتى يدفعوا غارة الاباعد عنهم ، ثم لهم ان يعودوا لشئونهم .. ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف ؟ .. أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبديا بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم

بماهم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أســـــفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى قلب أمير او ملك ولو على قرية لا امر فيها ولا نهى .. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب



الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية ، من اشد اركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليــات العقائد عند المسلمين لا يحتاجون فيه الى استاذ يعلم ، ولاكتاب يثبت ، ولا رسائل تنشر .. ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم ، وتفيض من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الاهواء ، ولولا وجود الغواة من الامراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، شماليهـــم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحدا

ان المسلمين لايحتاجون فى صيانة حقوقهم ، الا الى تنبه افكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع ، واتفاق آرائهـم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم النـــاشىء عن احساس بما يطرأ على الدين من الاخطار

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هـــذه الاصول الثلاثة ، هى امة كانت متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر امم اوربا وليس فى ممالكها ينـــابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضـــها من الاعمـال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والاعواز .. غير ان تنبه افكار آحادها لما به يكون الدفاع عن امتهم واتفاقهم فى النهوض به وارتباط قلوبهم ، صير لها دولة تميــد

لسطوتها روابى أوربا .. لم يكن لروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى الى حد ما عليه جيرانها .. الا ان هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الامم الاخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاها دول اوربا

فما الذى اقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، فيما هو ايسر الاشياء علينا ، ونحن اشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الذين والتألم بما يحط منه ، والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟

ما رد الافكار عن الحركة ، وما الهمم عن النهوض . الا اولئك المترفون ، يحرصون على طيب فى المطعم ، ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والحاشية ولا يراعون فى حرصهم ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والاعياد وهز الرءوس وثنى الاعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الاوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات .. هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل(١) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف اعدائهم فى بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته ، أولئك صاروا فى اعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الاسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، ولاحول ولاقوة الا بالله

ايا بقية الرجال ، ويا خلف الابطال ، ويانسل الافيال هل ولى بكم الزمان ، هل مضى وقت التدارك ، هل آن أوان اليأس .. لا .. لا ، معاذ الله ان ينقطع أمل

(١) المواثل : جمع ماثل من الرسوم ماذهب أثره

الزمان منكم ·· ان من ادرنه (١) الى بيشاور دولا اسلامية متصلة الاراضى ، متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا (٢) ، وهم ممتازون بين اجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، اليس لهم ان يتفقوا على الدفاع والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم .. ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، **فالاتفاق من أصول دينهم · هل اصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ، أليس لكل واحد ان ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله ((انما المؤمنون اخوة)) فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب**

لا ألتمس بقولى هذا ان مالك الامر فى الجميع يصبح شخصا واحدا ، فان هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين ،وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه ، الا ان هذا بعد كونه اساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الاوقات

هل آن الاتفاق ؟ .. هل ان الاتفاق ؟

الا ان الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم ، فلا تفرطوا .. ان البكاء لايحيى الميت ، ان الاسف لايرد الفائت ، ان الحزن لا يدفع المصيبة .. ان العمل مفتاح النجاح ، ان

---

(١) أدرنه بلدة فى شمال تركيا فى حدود بلغاريا . وبيشاور ، اوبيشار بلدة فى اقصى المغرب العربى

(٢) يزيد عدد المسلمين الآن فى هذه المنطقة على مائة مليون . واذا اضفنا عليه عددهم فى الهند والصين واندونيسيا وباكستان وغيرها ، فان عدد المسلمين يكون نحو خمسمائة مليون

الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، ان الوجل يقرب الاجل ، ان اليأس وضعف الهمة من اســـباب الحتف : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

الا لاتكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، احذروا ان تقعوا تحت قول الله : «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهـــم لايفقهون »

ان القرآن حى لايموت ، ومن اصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتـــاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم « وما الله بغافل عما تعملون »

ولعل حكام المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمـــال السالفين وهموا بملافاة امرهم ، قبل ان يقضى عليهـــم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم

ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن اعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى ان العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هـــذا العمل الشريف ، والله يهدى من يشاء ولله الامر من قبل ومن بعد



الوحدة والسيادة

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »

« حديث شريف »

امران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى اليهما الدين تارة أخرى ، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب .. وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ، وبهما نمو الامم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل الى وحدة تجتمع ، والكلف بسيادة لا تتضع . واذا اراد الله بشعب ان يوجد ويلقى بوانيه « يثبت ويقيم » الى اجل مسمى ، اودع فى ضئاضئه « أصوله » هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقا سويا ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ، ويشتد به بناؤها ، فلابد يوما ان تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الارض . ان التغلب فى الامم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم

ارتدت الذبول والنحول ، ثم افضت الى الموت والهلاك .. وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها ، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها .. اذا احسست من أمة ميلا الى الوحدة ، فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على مختلف الامم .. اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها ، وجدنا سنة الله فى الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب .. وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم ، الا عند لهوهم بما فى ايديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ، ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا الا بعد مارزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فاورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا .

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الامة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ اشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به

وهذا الاحساس هو مايبعث كل واحد على التفكير فى احوال أمته ، فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد ، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون اهتمامه بالتفكير فى هذا أقل من اهتمامه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لايكون نظرا عقيما حائرا بين جدران المخيلة ، دائرا على أطراف الالسنة .. بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على

استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القـدرة على نحو ما يكون فى الحصول على مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الانفس أن شأن الامة فى المكان الاول من النظر ، والدرجة الاولى من الاعتبار ، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لاوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويخترطون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للامة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه مافيه الكفاية لابنائه من بعده .. وان الدور الاول من أعمار الامم لاينقص عن خمسة قرون، ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولة ، وبدء الكمال فيما يليه .. فما ارفع همم العقلاء فى الامم المستبصرة

اذا بلغ الاحساس من مشاعر افراد الامة الى الحد الذى بيناه ، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة هم‍ما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق .. كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم ، فى سبيل الطلب . فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون ولايتهم على الامم بعد الغلب الاول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى اعداد وسائل الفوز والظفر

هذان الامران : الوفاق ، والغلب ، عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان

على من يستمسك بهما . ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة

جاء فى قول صاحب الشرع « ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه ، اذا مس أحدهما ألم تأثر له الاخر ، وجاء فى نهيه « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلاك، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن ، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد ان كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهى « انما المؤمنون اخوة » وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد على وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغى ، فقال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء الى أمر الله » وقد أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات » . وتوعد الكتاب الاقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الاليم ، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ماتولى ، ويصله جهنم وساءت مصيرا

وفى أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الامة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم « أن يد الله مع الجماعة » وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الالفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى

الشريعة الاسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية ، حتى جعل اجماع الامة واتفاقها على أمر من الامور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه . وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين ، وعد جحوده مروقا من الدين ، وانسلاخا عن الايمان ، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف (١) الفضول لفعلت » ، فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى اليه .. وهذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمفابنة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه

***

وأما السعى لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهى داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه

ومن الاوامر الشرعية أن لايدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية ، مما يضافر آيات القرآن ماجمعه العلماء فى مجلدات يطول عدها .. هذا حكم ديننا لايرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته

هل يمكن لنا ونحن على مانرى من الاختلاف والركون

---

(١) حلف الفضول ما كان بين بنى هاشم وبنى زهرة وتيم حين وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على ان يدفعوا الظلم ، ويأخذوا الحق من الظالم . وسمى حلف الفضول ، لأنهم تحالفوا على الا يدعوا عند أحد فضلا يزيد على حقه، ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لصاحبه

الى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا ؟. كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به ، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا .. هل لنـــا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب ، يوم لا ينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ، وايسر شفاعة الينـــا اقامتها وعديدنا اربعمائة مليون او يزيد ، هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضمائرنا ان نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟.

كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لو أدينا حقوقا تطـــالبنا تلك الكلمة التى تهل بهـــا السنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا

هل كان يمكن للاغراب ان يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم (١) نيران الاعداء الا واقدامنا فى صياصيهم (٢) ، وأيدينا على نواصيهم .. ان لابناء الدين الاسلامى يقينا بما جـــاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لاكاذبا وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب

---

(١) يشيم : تطلع نحوه ببصره

(٢) الصياصى : كل ما امتنع به كالحصون والقلاع

الا الصدق فى العمل ، هل يود المسلم لو يعمر الف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة هو دليل الايمان

أنرضى ونحن المؤمنون ــ وقد كانت لنا الكلمة العليا ــ أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لايذهب مذهبنا ، ولايرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا الا ولا ذمة ، بل أكبر همه ان يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منـــا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته

لا .. لا .. ان المخلصين فى ايمانهم ، الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله ، الثابت فى قوله : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » لايتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر .. المبصر بنور الله يعلم أنه لاسبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ثم لانبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ .. واخجلتـــاه لو خطر هـــذا ببالنا ، ولا أظنه يخطر ببال مســـلم على لسانه شـــاهد الاسلام

ان الميل للوحدة ، والتطلع للسيادة ، وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الاسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المســلمين قاطبـــة ، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه فى الفصل الســـابق فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صـــوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم

دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ولكن لايهتدي اليه

وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال اصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت .. وليس ذلك بعسير عليهم ، بعد ما اختص الله من بقاع الارض ببيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع . وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم ، فما هي الا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الارض ، وتضطرب لها سواكن القلوب

هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية ، فان أضفت اليه ما اذاب قلوبهم من تعديات الاجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الاغراب على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراقي ، ذهبت الى ان الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا ، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ، ويهيء لهم فوزا ونجاحا (١) بعون الله الذي ما خاب قاصده ، وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب



---

(١) لقد تحقق أمل الاستاذ الامام عن فوز كثير من البلاد الاسلامية بالحرية والسيادة والاستقلال والخلاص من نير الاستعمار ، ولكن بقيت الوحدة التي تجمع شمل هذه البلاد وتزيدها حرية وسيادة وقوة

الأمل وطلب المجد

« انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »
« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »
« قرآن كريم »

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبىء عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ، ورفعه به على سائر الاكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به .. راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد فى وجدانك ميلا قويا ، وحرصا شديدا ، يدفعك الى طلب المجد ، وعلو المنزلة ، فى قلوب أبناء جنسك .. ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها ، تجد مثل ذلك فى كليتها كما هو فى آحادها ، تبتغى رفعة المكانة فى نفوس الامم سواها

ذلك أمر فطرى جبل الله عليه طبيعه هذا النوع منفردا ومجتمعا ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقى فى الوصول اليه وعرا فى السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولاينقص ميله .. يقطع شعابا ، ويعانى صعابا ،

حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنم شاهق العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال فى مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر ، كأنما يتقلب على الرمضاء

ولو سير الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل الى غاية العامل منه ، رأى أن معظمها فى طلب الكرامة وعلو المقام .. كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئا مذكورا بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف ، هذه خلة ثابتة فى الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من ارباب المهن الى أصحاب الامر والنهى ، كل ينافس أهل طبقته فى أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من ضعته فيهم ، ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل فى طبقة أخرى ، ونافس أهلها فى الجاه ، ولا يزال يتبع سيره ما دام حيا يخطر فى بسيط الارض

ذلك لان الكمال الانسانى ليس له حد ، ولا تحده نهاية ، وليس فى استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حدا ليست بعده غاية

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان ، وماذا ملكت من اهوائه ؟ يعده ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى أنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه (١) ، أو عند مسه والخوف من سلبه .. أرأيت أن فقيرا ذا أسمال لايؤبه له ، اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بعلة تهينه ، أو قذفة تشينه ، يغلبه الغضب

---

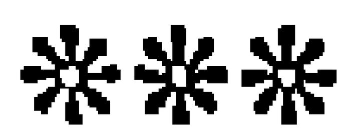
(١) هذا مصداق قول حافظ ابراهيم

سعيت الى أن كدت اشمل الدما وعدت وما أعقبت الا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر انسا ومغنما

للدفاع عن المنزلة التى هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضى به الى الموت ، وان القـــذف او الاهانة ما نقصت شيئا من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه فى مبيته

آلاف مؤلفة من الناس فى الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفســهم الى المهالك ، وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلبا للكرامة والمجد ، جل شــأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع الا أن يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالتقدم فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة ، فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعانى الانســان من التعب البدنى ، وكم يقاسى من مشاق الاســفار ، وكم يخاطر بروحه فى اقتحام الحروب والمكافحات ، وكم يتحمل فى الانقطاع عن اللذات ، مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما أتاه الله منه

ما أجل عناية الله بالانسان ، لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهى وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هى السبيل الوعر يسلكهاالحى الىمايستطيع من المجد ، وفى نهاية الاجل يفارقها قرير العين بما قارب منه اسف الفؤاد على ما قصر عنه



ماهو المجد الذى يسعى اليه الانسان بالالهام الالهى ، ويخوض الاخطار فى طلبه ، ويقارع الخطوب فى تحصيله .. هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتذعن له بالاعتلاء ، وتلقى اليه قياد الطاعة .. يكون هذا له ولكل من يدخل فى نسبته اليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر

أمته ، فتنفذ كلمته اليه وكلمة المتصلين به ، والمتحمين معه فى شئون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العـــزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الاولى ، فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بنى جلدته أجمعين

واها !. تلك حكمة بالغة .. اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجد ، نالت الامة حظها من السؤدد .. نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الاحاد منها « ذلك تقدير العزيز العليم »

ماذا يستطيع المجاهد وحده ، وماذا يكسبه من سعيه .. ان لم يكن له أعضاد من بنى قبيلته . فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيىء نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل مايعد فى العالم الانسانى فضيلة وكمالا

ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطرى والالهـــام الالهى .. وما اشد ماتحمل النفوس فى قضاء بعض الوطر مما يتصل به . وما أعظم الحامل للانفس على تجشم المصاعب لنيل ماتميل اليه من هذا الامر الرفيع . ماهذا الباعث الشريف الذى يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ، فضلا عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز .. هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب الفعـال هـــو الامل

الامل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب ، ومرشد حـاذق فى بهماء الكروب ، وعلم هاد فى مجاهيل المشكلات ، وحاكم

قاهر للعزائم اذا عراها فتور ، ومستفز للهمم ان عرض لها سكون .. ليس الامل هو الامنية والتشهى اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما : بليت لى كذا من المال ، وكذا من الفضل ، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يروم أن يبدل الله سنته فى سير الانسان عناية بنفســه الشريفة أو الخسيســة ، فيسوق اليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعبا أو يلاقى مشقة .. انما الامل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، وعرك لها فى المشاق والمتاعب ، وتوطينهـا لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها فى سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ فى مداركها ان الحياة لغو اذا لم تغذ بنيل الارب ، فيكـون بذل الروح اول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذى لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صــدمات حوادث الكون

وكما كان الميل للرفعة أمرا فطريا ، كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة .. غير ان ثبوتهافى فطرة عموم البشر كانداعيا للمزاحمات والممانعات ، فان كل واحد بما أودع فى جبلتـه يطلب الكرامة والتمكن فى قلب الاخر .. فكل طالب ومطلوب ، ولم تبلغ سعة العقل الانسانى الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملا تكون له به المنزلة العليا فى جميع النفوس غير ما يكون به للاخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم امجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم .. ولكنهم تزاحموا فى الآمال والاهواء ، ومسالكهم ضيقة ، وطرقهم ضنكة ، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشرى ، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ..

فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث فى الهمم ضعف وأصابها انحطاط ، وحصل الفساد فى هاتين الخلتين الشريفتين : الرجاء ، وطلب المجد .. كما يحصل الفساد فى سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط ، نعوذ بالله منهما ..!

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ، يحكمون على انفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير ، بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك أيا كان ، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التى يمتاز بها الانسان عن الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم ، ولا يهتمون الا بحاجات قبقبهم وذبذبهم (١) ، ثم ياليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وان تركوا العمل لانفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون كالنمال (٢) الحمالة لا تستفيد مما تحمل شيئا ، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح .. فيعالجون العمل فى الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا ينالون مما يعملون شيئا .. ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم .. هذا الذى يتجشمه الذليل فى ذلة من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضا منه فى طلب العزة لاصاب حظه منها ، بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم

---

(١) القبقب : البطن والذبذب أهداب الثوب التى تعلق للزينة . والمعنى لا يهتمون الا بالطعام والشراب والزينة

(٢) من أنواع النمل نوع وظيفته أن يحمل الطعام لغيره من النمل ولا يستفيد مما يحمل

ادنى من درجة الحيوانات العاملة ، فان السائدين يشعرون بحكم البداهة ، ان هؤلاء أسقطوا انفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها ، وكفروا بنعمة الله فى تكوينهم على الشكل الانسانى وايداعهم ما أودع فى أفراد الانسان ، فيعاملهم أولئك السادة بما لا يعاملون بهما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان فى الامم التى أدركها اليأس وسقطت فى ايدى الاجانب ..!

ونظن انه يوجد اقوام آخرون سامهم سادتهم فى الزمن السابق ، ويسومونهم الآن ما تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا

***

عجبا ، كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحي أثر الفطرة ؟.. كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟.. وكيف تقنط حتى لا يكون لهـا أمل ؟.. والامل وحب الكرامة طبيعيان فى الانسان .. بعد امعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الانسان أن جميع اعماله انما تصدر عن قدرته وارادته بالاستقلال ، وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة او تصده بالقهر.. فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع الى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسـكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الامل فيقع فى الشقاء الابدى

أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع

كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن اليها فى أعماله ، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا .. فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا فى مدافعتها ، معتمدا على ان قدرة الله اعظم منها ، وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده ان فى قدرة مدبر الكون ان يقهر الاعزاء ، ويلقى قيادهم الى الاذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصى الاقوياء .. وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ، فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الاولى والآخرة

وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وبما حكى من قول نبيه ابراهيم : « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر ، ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وقدرته الكاملة

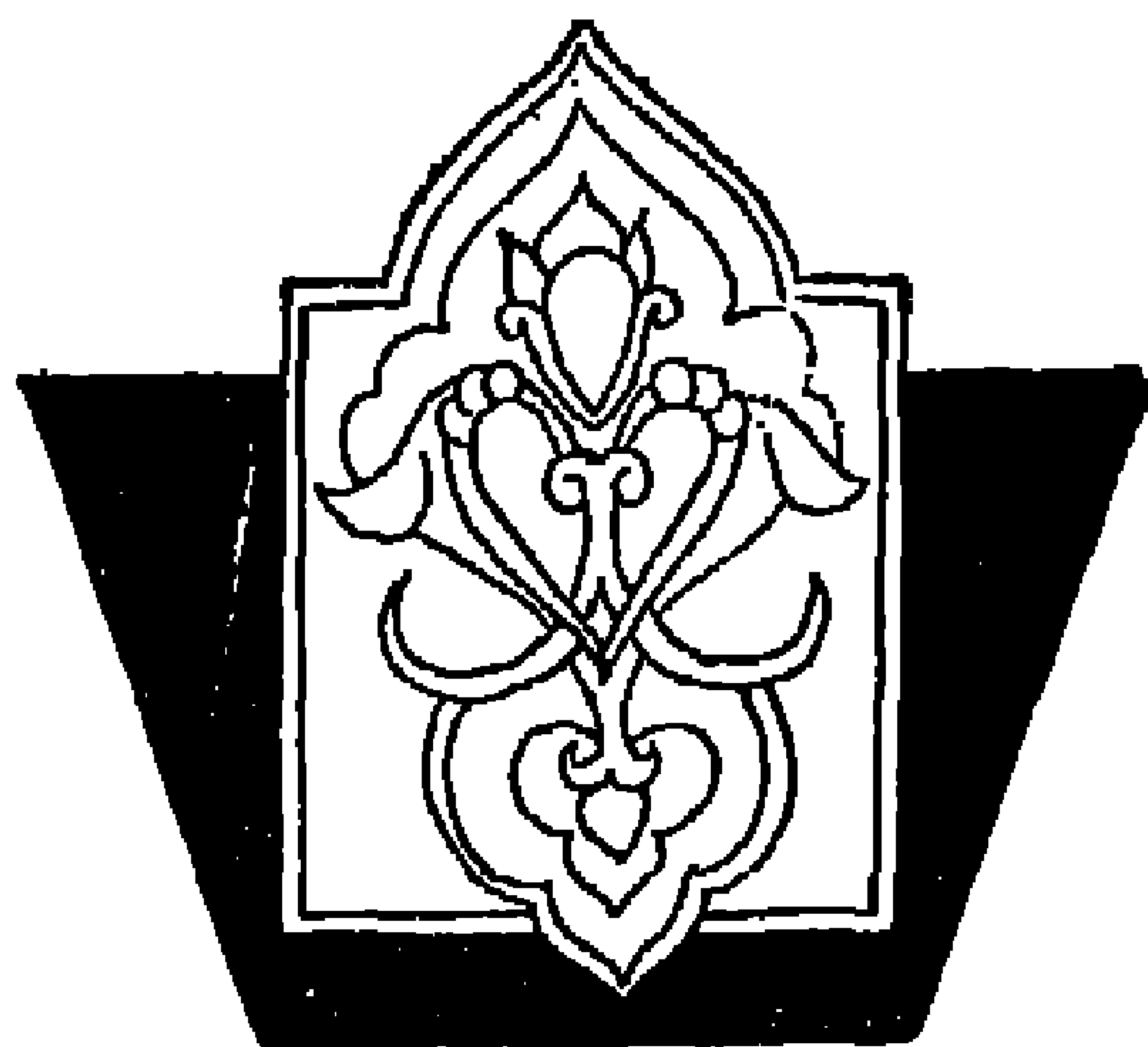
لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله ، وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقنطوا من رحمة ربهم فى اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم

ايمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضيم ، ويتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم ، وهم الى الان محفوظون مما ابتلى به كثير من الامم ، فان لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال فى ايديهم ملك عظيم على بسيط الارض ، وان من الحق أن نقول : ان أبواب رحمة الله مفتحة لديهم ، وماعليهم سوى أن يلجوها .. وأن روح الله نافحة عليهم ، ومايلزمهم سوى أن يستنشقوها .. والفرص دائما تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من اعزاز دينهم .. وذلك أيسر مايكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم

فأى موجب لليأس ، واى داع للقنوط ، وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى (فماذا بعد الحق الا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟

أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا .. ماذا يبتغون من الحياة ان كانت فى ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ ايطمئنون وهم بين اجنبى حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبى ، ومشنع دنى ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمةفى عداد الامم ، ألم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية .. كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟.. أينسون أنهم كانوا فى الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الاثار ،

ولا أضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض (١)
ان كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم ، فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون فى علومه .. لم لايسعون فى توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح مافسد من ذات بينهم ؟ لم لا يأتون على مافى الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التى لا تخلف لمن صدق فى طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟
بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر فى مواقع مختلفة من الارض ، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، الا أن أملنا فى بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بمعاضدتهم ليتمكن الجميع من نصر الله « وان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »



(١) بمثل هذه العبارات وبمثل هذا الايمان القوى كان الاستاذ الامام يهيب بالمسلمين أن ينشطوا من خمولهم وان يسعوا الى المجد

الوحدة والقوة

« أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

« قرآن كريم »

أهلك الله شعوبا ، وأباد قبائل ، ودمر بلادا .. ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ، ويأتى لكل حين بأناس آخرين .. حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سببا « ولا يظلم ربك احدا »

وليست أفعاله جزافا ، ولا يصدر عنه شىء عبثا ، أمر الله عباده بالسير فى الارض « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل ، فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الاخرة

من كان له قلب يعقل ، وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الامم ، وخاض فى تواريخ الاجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله علينا فى كتابه المنزل ، يحكم حكما لا يخالطه ريب ، بأنه ماحاق

السوء بأمة ومانزلت بها نازلة البلاء ، ومامسها الضرق شيء الا وكانت هي الظالمة لنفسها ، بما تجاوزت حـــدود الله وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره المعادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حب الاهواء والشهوات

كما أن للأغذية والادوية ، واختلاف الفصول والاهوية ، أثرا ظاهرا فى الامزجة بتقـــدير العــزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمـــل من الاعمـــال الانســـانية ، ولكل طور من أطوار البشر ، أثر فى الهيئة الاجتماعيـــة .. ولهـــذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب .. فمن خالف الاوامـــر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة

ان تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحيـــاة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر .. أما تأثير أحـوال بنى الانســـان فى هيئـــة اجتماعهم ، فيسهل سره لكل ذى ادراك ، ان لم تكن عين بصيرته عمياء

الم تر ان الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العـــامة والاتصـــال بصلة الالفة فى المنافع الكلية سببا للقـــوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد فى الآخرة ، وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعيا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيأ لوقوع المتنازعين فى مخالب المباديات من الامم .. فمن نظر فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولـــم يكن مصـــابا بمرض القلب ، وعمى

البصيرة ، أدرك سر امر الله فى قوله « واعتصموا بحبل الله جميعا » وسر نهيه فى قوله « ولاتفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أى جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم

ان الله تعالى يجعل الركون الى من لا يصلح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به ، سببا فى اختلاف الامر وفساد الحال .. فمن وثق فى عماله بمن ليس منه فى شىء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصله به رابطة صحيحة ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وان كان ملكا ضاع ملكه أو اميرا بطل أمره . والحوادث عاهدة (١) ، وأحوال المغرورين ناطقة .. فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين

لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا ، ويعد لها مآلا صالحا فى الاخرة . وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه فى شىء فاته

---

(١) عاهدة : حافظة وشاهدة

سائر الاشياء .. فلـــو توغل فى الشـــهوات ، وبالغ فى الترف ، وبطر فيما أنعم الله عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل بهمن عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيـــــا والآخرة معا ، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه ، وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته ، او يواطنه فى مدينته .

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بما لا يعجم الا على أذن صـــماء ، وتشـــهد بما لا يخفى الا على بصـــيرة كمهاء (١) .. وان فيماقص الله علينا من أحوال المترفين، لاكبر عبرة « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين، حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعـــذاب اذا هم يجـــأرون ، لا تجأروا اليوم انـــكم منا لا تنصرون ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما اوجب الله عليهـــم « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »



ما أوتى الانسان من العلم الا قليلا .. لا يمكن لانسان وحـــده ان يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا ان يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، او يكشف مكامن مضاره فيتقيها .. خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .. خلقنا محتاجين للعون ، مضطرين للصبر ، وهدانا ربنا للتعاون والتناصر

(١) مؤنث اكمه الاعمى ، من كمه اذا عمى

هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام مصالحه التامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع ، لا ريب ان مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء ، وهو اشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه .. وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشادا فقال «وشاورهم فى الامر » وقال فيما امتدح به المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ، اى بصيرة لا تهتدى الى هذا المنهج القويم : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين »

ان وازع البلاد والقائم على الحكم لو ألمح لمحة الى نفسه لرأى ان بلاده فى كل وقت معرضة لاطماع الطامعين ، وان الحرص المودع فى طباع البشر ، يحرك جيرانه كل آن للسطو على بلاده ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم .. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه فى ايالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأى ، ومن بهم قوام الدولة ، ان يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية .. فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع ، او تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ــ بأى وجه كان ، ومن اى نوع كان ــ فقد عرضوا بلادهم للهلاك ، والقوا بأنفسهم فى مهاوى الاخطار

هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم ، وهو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى : ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)) ..

أمر بإعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة .. على حسب ما يقتضيه الزمان ، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم .. هذا امـــر الاله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ((فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)) ..

اعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الاشياء في مواضعها، وتفويض مهام الحكم للقادرين على أدائهـــا ، مما يوجب صيانة الوطن ، والقوة السلطان ، ويشيد بنـــاء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ النظام من الخلل،ويشفي نفوس الامة من العلل .. هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بهـــا السموات والارض ، وثبت بها نظام كل موجود ، وهو العـــدل المأمور به على لســـــان الشارع في قوله تعالى ((ان الله يأمركم بالعـــدل والاحسان)) كما ان الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاســـتقامة في كل جـــزء من أجـــزاء العـــالم يوجب فناءه واضمحلاله ، كذلك الجور في الجمعيـــات البشرية يســـبب دمارها .. لهـــذا حثت الاوامر الالهيـــة على العدل ، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور

والحاكم أول من توجه اليه الاوامر والنواهي في هذا الباب .. العدل هو الحكمـــة التي امتـــن الله بها عـــلى عباده ، وقرنهـــا بالخير الكثير فقال : ((ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا)) .. هي مظهـــــر من اجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

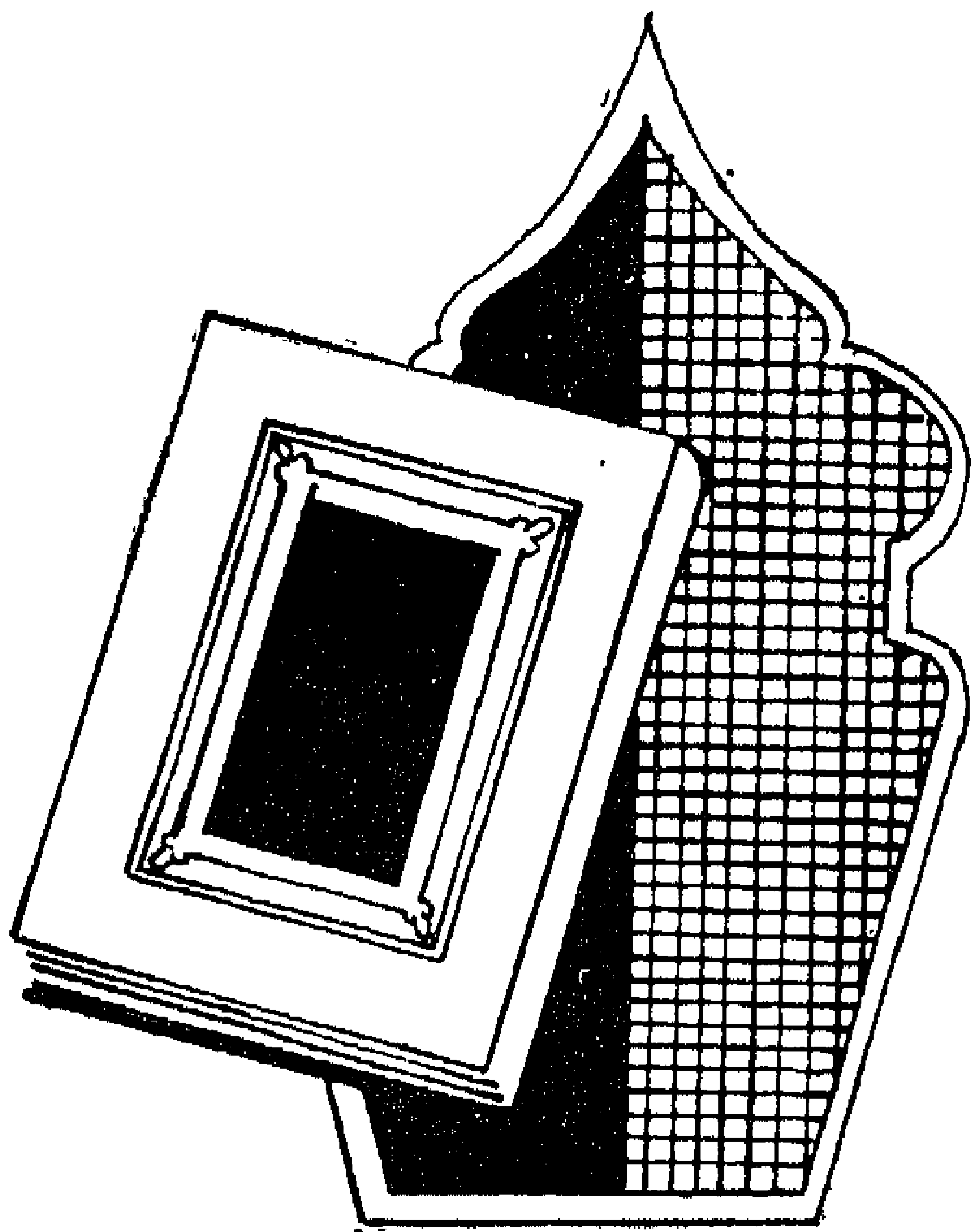
ومن سار في الارض ، وتتبع تواريخ الامـــم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما ينهدم بناء ملك ،ولا انقلب عرش مجد، الا لشقاق واختلاف ، او ثقـــة بمن لا يوثق به ، وتخال العنصر الاجنبي ، او اســـتبداد في الرأي ، واستنكاف من المشورة ، واهمال في اعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة،

او تفويض الاعمال لمن لا يحسن اداءها ، ووضع الاشياء في غير مواضعها .. فيكون جور في الحكم ، واختـــلاف في النظم ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحصل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي المت بالبلاد الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشـــدنا اليه .. وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغـيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم » فعلى العلماء الراسخين وهـم روح الامة ، وقواد الملة المحمدية ، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما انعم الله به على آبائهم ، وينبهوهم الى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجـوع الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الامم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عنـــدما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون »

على العلماء ان يزيلوا اليأس بتذكير وعـد الله ووعده الحق في قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهـــم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »

هذه وظيفة العلمـــاء الراسخين ، وما هم بقليل بين المسلمين .. ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ، ووكــل الى ذمتهم ، وهم أمنـــاء الدين وحملة الشرع ، ورافعو لواء الاسلام ، وأوصـــياء الله عــلى المؤمنين أعانهم الله على خـــير أعمـــالهم ، ونفع بهـم المؤمنين بارشادهم



الفضائل مناط الوحدة

« وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »

« قرآن كريم »

قالوا : للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى اليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله فى استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه فى التلوث برذيلة من الرذائل .. فما هى الفضائل وما هى الرذائل ؟

الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها .. فالسخيان لا يتشاحنان ولا يتنازعان فى التعامل ، فان من سجية كل منهما البذل فى الحق ، والمنع اذا إقتضاه الحق ، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية .. والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات ، فان من خلق كل منهم التجافى عن الشهوة ، وفى طبيعته الايثار بالرغائب .. وهكذا اذا استقريت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها فى متعلق الاثر الناشى عن تلك الفضيلة ،

فاذا اجتمعت الفضائل او غلبت فى شخصين مالت نفساهما الى الاتحاد والالتئام فى جميع الاعمال والمقاصد أو جلها ، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة ، وعلى هذا النحو يكون الامر فى الاشخاص الكثيرة

فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد ، تميل بكل منهما الى الاخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك بارادة واحدة ، ويطلب فى حركته غاية واحدة .. مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الاعمال ، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازر .. لكل شخص من افراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية الالهية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو فى هذا يساوى سائر أفراد الحيوان .. لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان ممتازا عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد ، والافراد فيها كأعضاء تختلف فى الوظائف والإشكال ، وانما كل يؤدى عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلى كما اودع الله فى اعضاء ابداننا وبنيتنا الشخصية

والفضائل فى المجتمع الانسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الابصار، والعين بها الابصار وتمييز الالوان والاشكال ، وليس من وظائفها البطش .. والكل حى بحياة واحدة ،

وان شئت قلت الفضائل فى عالم الانسان كالجاذبية العامة فى العالم الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب وانتظم بها سيره فى مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الاكوان وبقائها .. كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الانسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى الى الاجل المحدود ويثبت البقاء النوعى الى أن يأتى أمر الله

أى أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب والدافع ، وجميع من يدير أمورها ، ويسوسها فى شئونها ، انما هم افراد منها من هاماتها او من لهازمها (١) ، ويكون كل واحد منها قائما بحق الكل ، ولا يختار مقصدا يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى الى غاية تميل به من غاية الكل ، ولا يهمل عملا يتعلق بالامة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة ، تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة المغيرين عليها ، فهى الامة التى سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق

ان امة هذا شأنها لا يتخالف افرادها الا للتآلف ، ولا يتغايرون الا للاتحاد ، فمثلهم فى اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة ، يتفارقان فى مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط .. ومثالهم فى تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبى طرفى خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففى

---

(١) الاعلياء والاوساط، بل سائر الاطراف

جذب أحدهما لصاحبه ابعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر .. فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما فى منفعة الآخر .. اما أن مسالك الافراد من مثل هذه الامة بما منحوه من الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الامة وعظمتها ، ولايخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وانهم فى جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

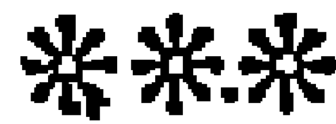
يرى كل واحد منهم ان ما تبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة ، انما يمكن اذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الامة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله .. فلا يهمل ولا يخون فى الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هيئتها العامة .. والا فقد خان نفسه ، لانه ابطل آلة من آلات عمله ، وقطع سببا من أسباب غايته .. ولا يحتقر واحدا من الآحاد ، ولا يزدرى بعمله ، ويحسب الشخص من الامة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه

عليك أن تنظر فى حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الاثر الذى بيناه : التعقل ، والتروى ، وانطلاق الفكر من قيود الاوهام ، والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة ، والوقار ، والتواضع ، وعظم الهمة ، والصبر ، والحلم ، والشجاعة ، والايثار ، والنجدة ، والسماحة ، والصدق ، والوفاء ، والامانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو ، والرفق ، والمروءة والحمية ، وحب العدالة والشفقة

الا ترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الامم

او غلبت فى افرادها لا يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام ؟

هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين ؟ أما والله لو نفخت نسمة من ارواح هذه الفضائل على ارض قوم وكانت مواتا لاحيتها ، او قفرا لانبتتها ، او جدبا لامطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لها من الوحدة سياجا لا يخرق ، وحرزا منيعا لا يهتك ، وان أولى الامم بأن تبلغ الكمال فى هذه السجايا الشريفة امة قال نبيهم : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .. الفضيلة حياة الامم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدى الى الزوال « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »



وأما الرذائل فهى كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة « قلة الحياء » والبذاء « التطاول على الاعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام » والسفه ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن ، والدناءة ، والجزع ، والحقد ، والحسد ، والكبرياء ، والعجب ، واللجاج ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة ، والكذب ، والنفاق .. فأى صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان الفت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبقى أمل فى الوفاق ، فان طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود فى التعدى على الحقوق واما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص اداء الواجب عليه لمن

يشاركه فى الجنسية ، أو الدين ، أو القبيلة ، أو العشيرة ، أو بأى نوع من انواع التعامل .. والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها ، وان شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين « كل يمنع الآخر حقه » شرهين حاقدين حاسدين متكبرين « كل لا يستحسن الا فعل نفسه » لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين ، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ، أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه ؟..

هذه الرذائل اذا فشت فى أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر (١) مذر .. واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر ، فان حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الاوصاف ، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديدا ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .. تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبى عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم .. يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا .. اذا نطق أجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس

---

(١) تفرقوا شذر مذر بفتح الشين والميم ، وكسرهما أى ذهبوا كل مذهب من شذر النظم فصله وفرقه بالخرز ، ومذر الشىء فرقه

الحكم ، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم : ليس فى الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال ان يوجد بيننا خبير

ويغلب عليهم حب الفخفخـــة والفخـــر الـكاذب ، ويتنافسون فى ســفاسف الامور ودنيـاتها ، يرتابون فى نصح الناصحين ، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين .. يسخرون بالواعظين ، وان كانوا فى طلب خيرهم من اخلص المخلصين ، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شـأنهم ، وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سـبيل .. يقيمون فى طريقه العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس اطوارهم كالبدن المصاب بالفالج الذى لا تنتظم لاعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لقصـــد معلوم ، فتشذ أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط .. فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعا ومبعثا للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب ، أول ما يبـدأ بعض صاحبه قبل الاجنبى .. بل كالمبتلى بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمربيه ومهذبه ثم يثنى بطبيبه ومن يعـالج داءه ، تكون الآحاد منهم كالامراض الاكالة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الامة قطعا وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها ويوشوشون هيئتها .. أولئك قوم يسامون فى مراعى الدنايا والخسـائس لتغـلب النـذالة على سـائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ، ويذلون لقزم الاجانب فضلا عن عليتهم

وبهذا يمكنون الذلة فى نفوسهم ، ومن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الاعداء الالداء من طبقة الى

طبقة حتى تضمحل الامة وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمة أو ملة اخرى ، سنة الله فى تبدل الدول وفناء الامم ، « وكذلك اخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد » اعاذنا الله من هذه العاقبة ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية



بقيت لنا لمحة نظر الى ما به تقتنى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأى لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ .. انى يكون لهم حظ منها ، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم !

يرشدنا رائد الحق الى ان الاعتدال فى اصول الاخلاق ، والتحلى بحلية الفضائل ، وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها ، انما يكون بالدين .. ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه ، وتثبيتها فى العقول ، ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها

أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم ، أو تهاونوا فى تأدية اعمالها ، ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة ، وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت

الى الانفس أوفاد الرذائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا

هذه علل الخراب فى كل أمة ، لقد ظهر أثرها فى أمم لا تحصى عددا من بداية كون الانسان الى الآن .. ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل فيهم ، بعد ما بدلوا وغيروا كما فى طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الاقطار الهندية المعروفين عند الاوروبيين بطائفة « باريا » « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم » .. فالدين هو السائق الى السعادة فى الدنيا كما يسوق اليها فى الآخرة

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين فى أقطار مختلفة من الارض ، وسلبهم تيجان عزهم ، وألقاها على هامات قوم آخرين .. واليوم ينازع طوائف أخرى ولا تخاله يتغلب عليهم ، فكشف هذا عن نوع من الضعف .. ولا يكون ناشئا الا عن شىء من الاهمال فى اتباع أوامر الشرع الاسلامى ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقد يكون ذلك ، وربما لا ينكر الآن أن كثيرا من عامة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد الا انهم لا ينهجون فى بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء ، وهذا مما يحدث ضعفا فى قوة الامة بقدر الميل عن جادة الاعتدال فى الفضائل والاعمال « وما اصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »

الا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الاذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح

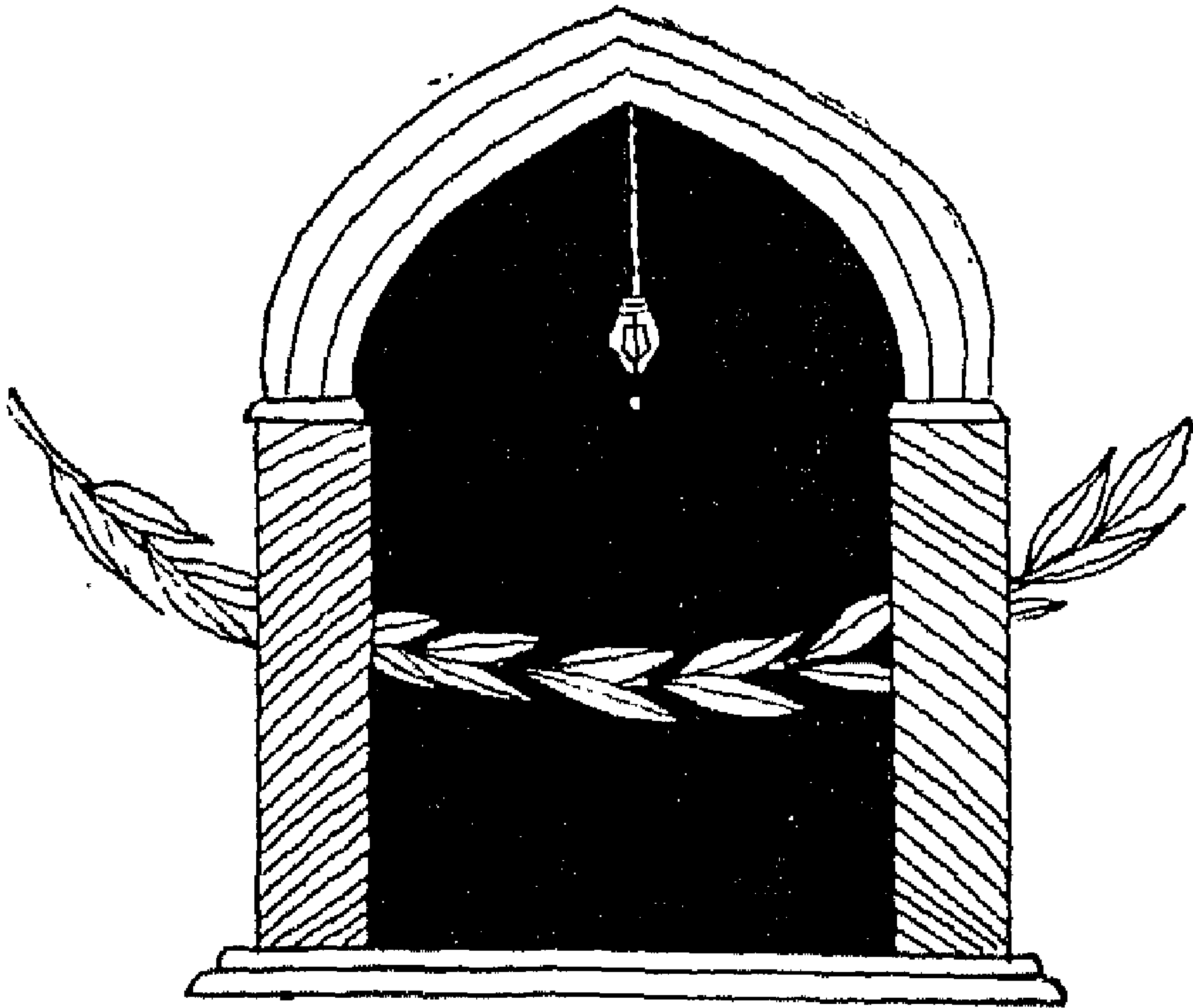
مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف فى القوة الا عرضا لا يبقى وحالا لا يدوم

انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، تجد من نفسك حكما باتا بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لاداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع ، والمحتومةعلىذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه ، وهم هم فى قوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وبالحض الالهى المفهوم من قوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »

ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ، ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة ، لرايت ان الامة الاسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على اعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع .. كلّ ذلك فى اقرب وقت ، ولن تكون الا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون

ولا ريب أن الراسخين فى العلم من أهل الدين الاسلامى يعلمون أن ما اصيب به المسلمون فى هذه الازمان الاخيرة ، انما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة .. فالرجاء فى هممهم وغيرتهم وحميتهم الدينية ان يوجهوا العناية الى

رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذى ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم أنه لا ييأس من لطف الله الا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم فى سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوى فيهم اباءة الضيم ، والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الانفة ، حتى لا تسمح نفس احدهم ان يأتى الدنية فى دينه ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين »



الدين وسيلة الإصلاح

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجـــد لسنة الله تبديلا »

« قرآن كريم »

أرأيت امة من الامم لم تكن شيئا مذكورا ، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوى الاركان شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل ... نمت فيها أفنان العزة بعد ماثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنهـــا والدانى اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمـــة وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الاداب ، وسادت أخلاقهـــا وعاداتها على ماكان من ذلك لسابقيها ومعاصريهـــــا ، واحست مشاعر سواها من الامم بأن لا سعادة الا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها ، وصارت وهى قليــــلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لهـــا بدن عامل

وبعد هذا كله ــ وهى بناؤها ، وانتشر منظـــومها ،

وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصى ، وتبدد ماكان مجتمعا ، وانحل ماكان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية ، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على ايدى الملتحمين معه بلحمة الامة ، وانه احوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده ، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخاله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا .. واخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها ، وحدثت فيهم قناعة البهم (١) ، والرضا بكل حال

ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، أو استفزه داع من قلبه الى مايكسب ملته شرفا أو يعيد اليها مجدا ، عده هوسا وهذيانا أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنية ، أو حسب انه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال واورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ، ووضع لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعى ، وأحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل مافيه خيره وصلاحه ، وقصر نظره عن ادراك ما أتى اسلافه من قبل وتجمدت قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ماكسبوا ، وقيما على ما أورثوه لاعقابهم .. ويبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش

(١) البهم بفتح الباء اسم جنس لولد البقر والمعز واحدة بهمة . والبهيمة كل ذوات أربع

الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم

نعم رأيت كثيرا من الامم لم تكن ، ثم كانت وارتفعت، ثم انحطت وقويت ، ثم ضعفت وعزت ، ثم ذلت وصحت ثم مرضت ، ولكن اليس لكل علة دواء ؟ .. بلى ..

وا أسفا ، ما أصعب الداء وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج ، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها ، وهى لم تفترق الا لان كلا عكف على شأنه .. وأستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه ، وهو أشد أعضائه اتصالا به .. ولكنه انصرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . نعم .. ربما التفت كل الى ماهو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لايدرى من أى وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها ، كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت الا بعد ما سكنت زمنا غير قصير الى معاليها ؟.. هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ، خصوصا بعد مااستدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة .. كيف يمكن تنبيه المستغرق فى نومه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ؟.. هل من صيحة تقرع قلوب الاحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناءى اطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ .. هل من وحدة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد اراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر .. أيم الله انه لشىء عسير يعيى فى علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير !!.

هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل

الداء واسبابه الاولى والعوارض التى طرات عليه .. ان كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وماعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار .. أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض، والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من اطـــوار العمر ثم لا تظهر الا فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها ..

كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص عــلة لشخص واحد سنو عمره محدودة ، وعوارض حيــاته محصورة .. فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الاجــل وافرة العدد ؟ .. لهذا يندر فى اجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليهــا ، وان كان المتشبهون بهم كثيرين

وكما ان الطبيب القاصر فى الامراض البــدنية لا يزيد علاجه المرض الاشدة لولا مساعدة الاتفاق والمصادفة ، بل ربما يفضى بالمريض الى الموت .. كذلك يكون حــال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها ، وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وانواعها، وما يكتنف ذلك من العادات ، ومايوجد فى افــرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختــلاف مواقعها من الارض ، ومكانتهــا الاولى من الرفعــــة ، ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين ، فان أخطاء طالب اصلاحها فى اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء

ظن قوم فى هذه الازمان أن أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وانها تكفل انهاض الامم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق .. كيف يصدق هذا الظن ؟.. وانا لو فرضنا ان كتاب الجرائد لايقصدون بما يكتبون الا نجاح الامم مع التنزه عن الاغراض .. فبعد ماعم الذهول ،واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون ، لا تجد لها قارئا .. ولئن وجدت القارىء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق فى التصور او ميل مع الهوى ، فلا يكون منه الا سوء التأثير .. فيشبه غذاء لايلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا .. على ان الهمة اذا كانت فى درك الهبوط ، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ؟.. ان هذا وحقك لعزيز ..

ويظن قوم آخرون أن الامة المنبثة فى أقطار واسعة من الارض ، مع تفرق أهوائها واخلادها الى مادون رتبتها بدرجات لا تحصر .. ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها ، بل لمن كان خاضعا لسيادتها مذعنا لاحكامها ... مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد فى زمن قريب .. ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة

وما ابعد ما يظنون ، فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الامة على ما تكره

ازمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلهـــا الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس — وهى كثيرة — وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغنى .. ولو كان للامة هذان لما عدت من الساقطين

فان قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبـــات ، وافقناهم على الامكان لولا مايكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعوا لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر ؟

على انا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الامةمدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الافراد والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التـدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن مايصيبه البعض منهـــا يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته .. واعجبا ، كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ، وكيف بذرت بذورها ، وكيف نبتت واستوت على سـوقها وأينعت وأثمرت ، وبأى ماء سقيت ، وبأى تربة غـــذيت ، ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليهـا طرف من ذلك فانما يكون ظاهرا من القول لانباء عــــن الحقيقية ، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجاة بعض الافراد بها ، وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها ،يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشـــاد فى افادة اخوانهم

لعلّ الاقرب أن ناقلى تلك العلوم ، وهم من أمة هذا

شأنها مع ماينعكس اليهم من الاوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التى تلقوا عنها علومهم ، يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فسادا

ماذا يكون من اولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم .. يكون منهم ماتعطيه حالهم ، يؤدون ماتعلموه كما سمعوه ، لايراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملوه على غير وضعه .. ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على مابلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير وبالعكس ، غير ناظرين الا الى صور ماتعلموه ولامفكرين فى استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على مابها اضعافا ، وما هذا الا لكونهم ليسوا اربابها وانما هم لها نقلة وحملة

فهؤلاء الصادقون ، الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية ، يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض وينتهى به الى التلف ، فتكون منزلتهم من الامة منزلة الالةالمحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط ، فهؤلاء المغرورون يفشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا الا خيرا ان كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبوابا ، ويباعدون مابين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان

المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

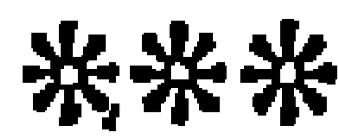
شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والفنون والاداب ، وكل مايسمونه تمدنا .. وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لانفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟.. هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟... هل استنقذوا انفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟.. هل نجوا بها من ورطات مايلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟.. هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟.. هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟.. هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الافكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم ؟.. هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية التى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة ، وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها ، خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الامم

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة يتراءى لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ؛ ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ، ووقفوا عند هذا الحد .. ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا

اوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقهـا على اجود مايكون منها فى الممالك الاجنبية ، وعدوهامن مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهات .. فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينـة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العـلوم الجـديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لان مصانعهم لم تتحول الى الطراز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لاتتيح لهم جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لانف الامة ، يشوه وجههـا ويحط بشأنها .. وما كان هذا الا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها ..

علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهـابط الوساوس ومخازن الدسائس .. بل يكونون بما أفعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكـن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحتقـرون امرهم ويستهينون بجميع أعمالهم ـ وان جلت ـ وان بقى فى بعض رجال الامة بقية من الشمم أو نزوع الى معالى الهمم ، أنصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى اثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير اولئـك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وارباب الغـارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم .. ذلك بأنهم لا يعلمون فضـلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

اقول ، ولا أخشى لوما ، لو كان فى البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الابدين .. فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك ، والركون الى قوة مقلديهم ، واستقبال فنونهم ، فيبالغوا فى تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لاية أمة ، ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ، ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم .. ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم .. كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى اعقابهم



فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الاثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة — لسوء استعمالها — رأينا مارأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد .. أى جهورى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟.. اى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الافكار الخامدة ؟. أى نفخة تبعث هذه الارواح فى أجسادها وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟.. الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى .. الرءوس مطرقة الى ما تحت القدم ، ليس للابصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ، ولا للاسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللاهواء تحكم ولا للوساوس سلطان

ماذا يصنع المشفقون على الامة والزمن قصير ؟ ..

ماذا يحاولون والاخطار محدقة بهم ؟.. بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم ؟.. لا أطيل عليك بحثا ، ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان ... ولكنى ألفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . ارسل فكرك الى نشأة الامة التى خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة .. وتبين أسباب نهوضها الاول حتى تتبين مواضع الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم ما بين افرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رءوس الامم وتسوسهم - وهى فى مقامها - بدقيق حكمتها ، انما هو دين قويم الاصول ، محكم القواعد ، شامل لانواع الحكم ، باعث على الالفة ، داع الى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من ادران الخسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية

فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، انما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا ، وحدوث بدع ليست منها فى شىء .. اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين ، وعما اتى لاجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له .. حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ ، فتكون هذه البدع حجابا بين الامة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها

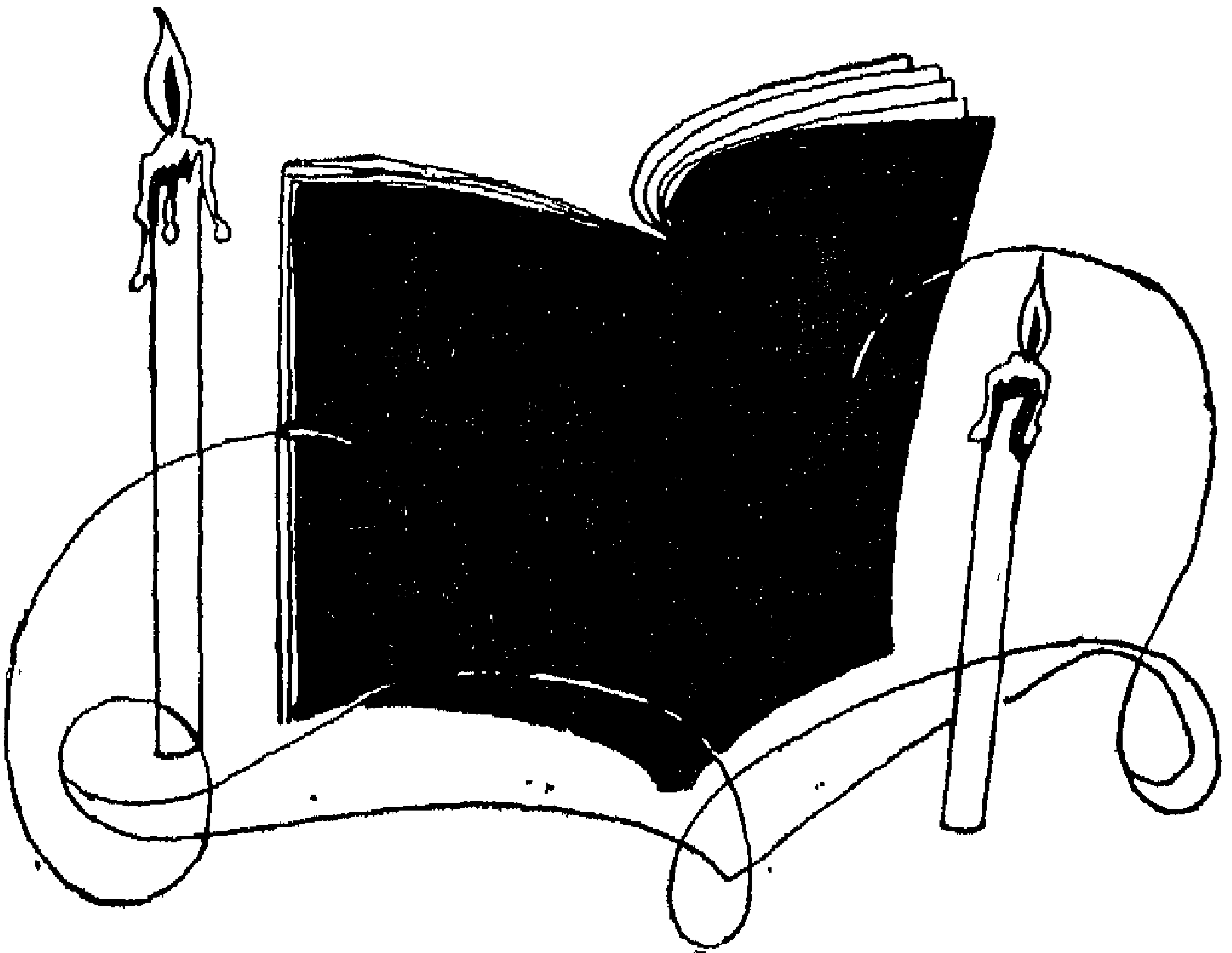
فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها الى قواعد دينها . والاخذ بأحكامه على ماكان فى بدايته ، وارشاد العــامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الارواح لشرف الآمة .. ولان جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته .. فلا يحتاج القائم باحياء الامة الاالى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الارواح لاقرب وقت، فاذا قاموا لشئونهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب اعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى

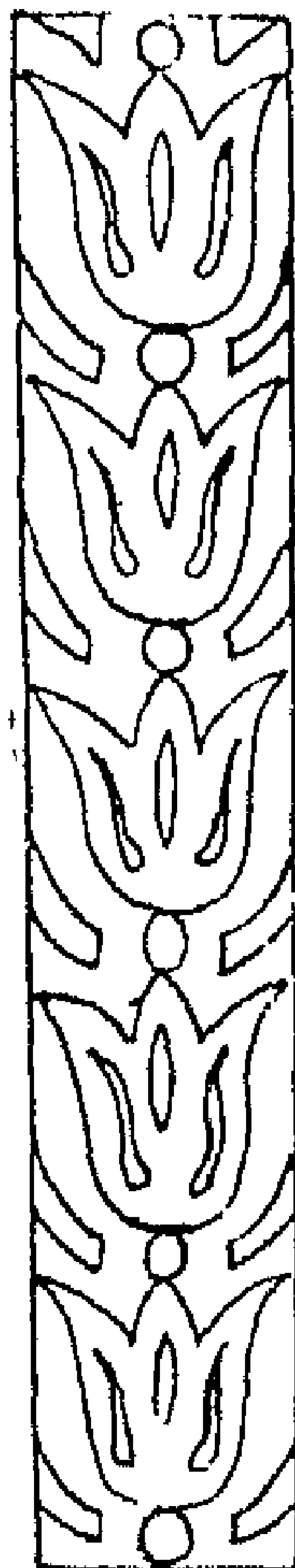
ومن طلب اصلاح أمة شأنها ماذكرنا ، بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعــل النهاية بداية ، وانعكست التربية .. وخالف فيها نظام الوجود ،فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحسا ، ولا يكســبها الا تعسا

هل تعجب ايها القارىء من قولى ان الاصــول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للامم قــوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذةالحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعــارف ، وتنتهى بها الى اقصى غاية فى المدنية .. ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد

هل نسيت تاريخ الامة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدناياوالمنكرات ... حتى اذا جاءها الدين ، فوحدها ، وقواها ،وهذبها، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدلوالانصاف

.. وبعد ان كانت عقول ابنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها ، نبهتها شريعتها وآيات دينهـــا الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ، ونقلوا الى ديارهم طب أبقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وحكمة أفلاطـون وارسطو .. وما كانوا قبل الدين فى شىء من هــذا . وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتهـــا ومدنيتها فى التمسك بأصول الدين





الزواج وتعدد الزوجات في الاسلام





حاجة الإنسان إلى الزواج

لما كان من لوازم حفظ النوع الانسانى المعرض للفناء والزوال ، التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه وتعالى فى طبيعة الانسان قوة شهوية ، تدعوه الى الاقتران، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير ان الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة ذاكرة ، يستحضر بها ما شهده فى الماضى ، فيطلبه ان كان لذيذا استحصالا لمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدفع عنه — ما استطاع — كل من حاول مشاركته فيه . ثم ان هذا التمييز العقلى ، دعاه لان يطلب من الازدواج ما هو أبهى فى المنظر ، وأنعم فى الملمس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لاحد — بمقتضى الحرص الذى نسميه غيرة — أن يشاركه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه حتى القتل والجرح

وهذا بخلاف باقى الحيوانات ، فانها وان كان ذكرها يغار على أنثاها — وقت طلبه لها — لكنها لحيظات وتنقضى ، فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة .. والانسان لفكره ليس كذلك ، بل يلازم الحرص فى جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم أن تلك القوة وهذه الخواص منتشرة بين جميع الافراد البشرية ، فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال ، وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار (١) به ، ويدافع الغير عنه لما قدمناه من الاسباب . وزد على ذلك ان الانسان فى حاجة الى التعاون بالضرورة ، وهو فى فطرته لا ينظر الى التعاون مع جميع أفراد الانسان .. فلابد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلا يترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ويكفل سلامة نتيجتها والا اختل عقد نظام المجتمع الانسانى ، وفسدت أركان سيادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء وذلك من وجوه :

الاول ـ ان الانثى اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال، وأبيح لكل أنثى أن تقترن بكل زوج ـ فى اى وقت ـ لاشتعلت نار

---

(١) كان الرجل فى كثير من القبائل فى الزمن القديم يخطف المرأة لحيازتها ، خصوصا اذا كان عدد النساء قليلا ، ثم قلت حوادث خطف النساء عندما أعدت القبائل لها عدتها فى الدفاع .. فقد كان المتعرض لها يجد صعوبات جمة تثنى عزمه . او يقع أسيرا اذا حاول خطف فتاة من الفتيات ، فيلاقى صنوف التعذيب . وقد زادت هذه القلة حينما أخذ الرجال يشترون النساء بالدراهم ، أو يحظون بزواجهن مقابل القيام بعمل يعمله الرجل لها أو لوالدها على سبيل الاجر . كما فعل النبى موسى حينما تزوج بنت النبى شعيب مقابل أن يعمل عنده ثمانى سنوات أو عشرا كما جاء فى القران على لسان النبى شعيب مخاطبا موسى : « قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين »

ثم صار الرجل يدفع لوالدها ، وأهلها ثمنا لها بدلا من خطفها كأنما اشتراها له فلا ينازعه فيها منازع . وهذا هو الاصل فى الصداق ، وهو المهر ، والمهر فى اللغة العوض

الغيرة فى أفئدة كل البشر ، وسارع كل الى مدافعة من يروم الاشتراك معه ، ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات .

الثانى ـ أن المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ، ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصا فى أزمنة الحمل ، وعقب الولادة وسنى الرضاع .. وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها ، لا يسعى فى القيام بحاجاتها والمدافعة عن حقوقها ، فتضيع وتضيع ذريتها !

الثالث ـ وهو الاهم من هذا ، أن الرجل لا يخاطر بنفسه فى تحمل الاتعاب واقتحام الشدائد، طلبا للحصول على وسائل المعيشة ، الا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه فى أمور معيشتهم ونوال مآربهم ، يؤدى اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم انه اذا وهنت قواه ـ بعد عنايته بتربيتهم ـ اذا كبروا يعوضون عليه اتعابه السالفة ، وتسوءهم مصيبته ، ويفرحون بثروته وسعادته .. بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليه كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته ، فان ادخار العيش الذى هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والابناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العافى .. فهو يجتهد للايجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الانساب وجهلت الاصول .. بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعى فى تربية ولد ، فيستأصل الموت أفراد النوع فى أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان فى حياته ، بل صيانة وجوده فى هذه الدار ، موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب بها حدودا يقف كل

شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة ، فيمتنع التعدى ثم يظهر منه التعلق الخصوصى بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها .. فيسعى كل لخير من اختص به ، حيث أن سعيه لكل البشر غير ممكن ..بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشرى

وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الامر ، وان اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الامم ، لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والامصار .. ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج ، وتيقن فراغها من الحمل وخلوها من جميع الموانع التى تخل بهذا الاختصاص ، وطلب العقد عليها والاجابة منها أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الامر ، ليحجم الناس عن الرغبة فيها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها ويدرأ عنها أى مكروه ، وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ، ونهت عن ارتكاب أى أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلى الذى لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه .. كالقيام بالواجبات والحاجات لكل واحد من أفرادها ، وحسن الاقتصاد فى المعيشة ، وان ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخاصة ، وبعبارة أظهر ليس هناك مصلحة له الا اذا كانت تجلب لعائلته وافر الرزق والتقدم ، وتنقلها من درك الشقاء الى درجات السعادة والهناء .. !

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الانسان لم تكن مقصودة لذاتها ، بل هى وسيلة لحياة زوجية هانئة ، وسبب لتكوين عائلة يأنس فيها الزوجان ويسعدان بتلك الرابطة المقدسة التى تنمو بها الامة ، ويحفظ بها النوع الانسانى ، وترتبط فيها العائلات بأقوى الروابط

الانسانية ، التى لولاها لاختل نظام المجتمع الانسانى

ولما كان التعاون على المصالح المعاشية ، والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج ، لم يبح بالاجماع أن يقترن الرجل بأخته أو عمته أو ابنته لانه يضيق تلك الفوائد ويقلل من الثمرات ، فضلا عن كونه فى نظر الاطباء قد يوجب العقم وضعف النسل

فلذلك اوجبت الشريعة ان يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة ، بل لابد أن يقع الاقتران من بيئتين ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه ، فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل ، وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة ، وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والحقد .. اما العائلة الواحدة فيكفى فى ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ما اتت به الشرائع ، ونطق به علماء الدين، وأوضحه العقلاء فى حكمة الزواج والاقتران ، بقطع النظر عن كونه بواحدة أو بأكثر .. اقتصرنا عليه الآن ، وسنشفعه ببيان ما جاءت به شريعتنا من اباحة الزواج بأربع من النسوة ، وجواز مفارقتهن بالطلاق .. مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرة زوجاتهم ، وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن ، وعدم العدل بينهن بدلا من المحبة وجمع الكلمة كما اوجبته الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم

تعدد الزوجات

أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ، ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهن .. والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة . قال تعالى : « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » فان الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها ، أختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة .. اذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة

والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات — ولو بشيء زهيد — كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى ، امتعضت تلك الاخرى وكرهت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لا حق لها ، وتستبدل بالاتحاد النفرة وبالمحبة البغض

وقد كان النبي (ص) وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم ، والخلفاء الراشدون ، والعلماء ، والصالحون من كل قرن الى هذا العهد ، يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن ، فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والصالحون من أمته لا يأتون حجرة احدى الزوجات في نوبة الاخرى الا باذنها .. !

وقد كان النبى (ص) يطاف به وهو فى حالة المرض (١) على بيوت زوجاته ، محمولا على الاكتاف ، حفظا للعدل .. ولم يرض بالاقامة فى بيت احداهن خاصة ، فلما كان عند احدى نسائه سأل فى أى بيت أكون غدا ، فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذن له فى المقام عندها مدة المرض ، فقال : « هل رضيتن » فقلن : «نعم» فلم يقم فى بيت عائشة حتى علم برضاهن

وهذا الواجب الذى حافظ عليه النبى (ص) هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه ، فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به النبى (ص) « ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم . لا تكلفوهم مالا يطيقون .. الله الله فى النساء فانهن عندكم عوان ـ اى ضعيفات ـ لا يملكن لانفسهن شيئا . اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقال : « من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى ـ وفى رواية ولم يعدل بينهما ـ جاء يوم القيامة واحد شقيه مائل . وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبى بقوله .. اللهم هذا (أى العدل فى البيات والعطاء) جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا املك .. (يعنى الميل القلبى) وكان يقرع (٢) بينهن اذا اراد سفرا

---

(١) هذا الاذن كان فى مرض موته حين اشتد المرض عليه ، وقد كان اليوم يوم ميمونة بنت الحارث .. انما كاد يجلس النبى عندها حتى ثقل مرضه ، فدعا زوجاته ان يحضرن اليه ، فلما رأينه على غير ما يعهدنه فزعن الى البكاء واستبد بهن الاسى ، فاستأذنهن ان يمرض فى بيت عائشة لقربه من المسجد

(٢) نوضح هنا بايجاز لماذا تزوج النبى « ص » أكثر من أربع زوجات وهو مايطعن فيه خصوم الاسلام . فقد تزوج النبى « ص »

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة فى القسمة فى البيتوتة باجماع الائمة ، وفيها وفى العطاء اعنى النفقة عند غالبهم ، حتى قالوا يجب على ولى المجنون أن يطوف على نسائه ، وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند احدى زوجاته فى نوبة الاخرى الا لضرورة مبيحة وقد يجوز له ان يسلم عليها من خارج الباب ، والسؤال عن حالها بدون دخول.

وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة ، فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بحجرتها ولا يذهب الى ضرتها الا لمانع برد او نحوه ..

وقال علماء الحنفية أن ظاهر آية «فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » أن العدل فرض فى البيتوتة وفى الملبس والمأكل والصحبة ، لا فى المجامعة ، لا فرق فى ذلك بين فحل وعنين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الازواج كسائر الحقوق الواجبة شرعا ، اذ لا تفاوت بينها

وقالوا اذ لم يعدل ورفع الى القاضى وجب نهيه وزجره، فان عاد عزر بالضرب لا بالحبس ، وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلى من الزواج وهو التعاون فى المعيشة



خديجة بنت خويلد ، وهو فى سن الخامسة والعشرين وهى فى الاربعين وبقيت زوجته الوحيدة حتى ماتت وهو فى الخمسين من عمره ، وقد وفى لها ولم يتزوج حتى ألحت عليه سيدة مسلمة أن يتزوج . فخطب عائشة من صديقه ابى بكر الصديق وهى فى التاسعة من عمرها . ولم يبن بها الا بعد ماتجاوزت حد الصبا . وهذا ينفى مايقوله الطاعنون انه كان رجلا تسيطر عليه الشهوة !

أما سائر زوجاته فقد كان معظمهن أرامل ، ولم يبن بواحدة منهن لجمالها وانما لصلة الرحم والضن بهن عن المذلة ، او لصيانة مكانتهن العائلية والاجتماعية من الهوان ، أو للمحافظة على عقيدة الاسلام فى قلوب بعضهن ممن يفقدن أزواجهن وخاف عليهن الردة عن الاسلام اذا رجعن الى اهلهن الذين لم يكونوا من المسلمين

وحسن السلوك فيها ..

أفبعد الوعيد الشرعى وذاك الالزام الدقيق الحتمى الذى لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذوقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف .. فانا نرى أنه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج فى حق الاخرى ، صرفت جهدها ما استطاعت فى تنميقها واتقانها ، وتحلف بالله أنها لصادقة فيما افترت « وما هى إلا من الكاذبات » فيعتقد الرجل انها اخلصت له النصح لفرط ميله اليها ، ويوسع الاخريات ضربا مبرحا ، وسبا فظيعا ، ويسومهن طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقى اليه من الوشاية — اذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ فى أفئدة هؤلاء النسوة ، وتسعى كل واحدة منهن فى الانتقام من الزوج والمرأة الواشية أو يكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل . وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل فى ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده ، فانهن دائما تتوقعن منه الطلاق ، اما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأياما كان ، فكلاهما لا يهدأ له بال ، ولا يروق له عيش .!

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد فى أفئدتهن ، تزرع كل واحدة فى ضمير ولدها ما يجعله من ألد الاعداء لاخوته أولاد النسوة الاخريات .. فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع ، وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم ، وتعدد له وجوه الامتياز .. فكل ذلك وما شابهه ان ألقى

الى الولد حال الطفولة يفعل فى نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله ، فيبقى نفورا من اخيه عدوا له ، لانصيرا وظهيرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الاخ

وان تطاول واحد من ولد احداهن على ولد الاخرى ، وان لم يعقل ما لفظ لكونه صغيرا ، انتصب ســـــوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الاخرى بما فى وسعها من الفاظ الفحش ومستهجنات السب ، وان كن من المخدرات فى بيوت المعتبرين ، كما هو مشاهد فى كثير من الجهات خصوصا الريفية .. واذا دخل الزوج عليهن فى هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحســـن القول ولين الجانب اذ لا يسمعن له أمرا ، ولا يرهبهن منه الوعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الاسباب أو غيرها ، التى أفضت الى ســـقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأى احمق الطبع ، فتقوده تلك الاسباب الى فض هـــــذه المشاجرات بطلاقهن جميعا ، او طلاق من هى عنده اقل منزلة فى الحب ــ ولو كانت ام أكثر أولاده ــ فتخرج من المنزل سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عديدا، فتأوى بهم الى منزل أبيها ان كان ، ثم لايمضى عليها بضعة اشهر عنده الا تراه قد سئمها فلا تجد بدا من رد الاولاد الى أبيهم وان علمت أن زوجته الحالية تعاملهم بأسوأ مما عوملوا به من عشيرة أبيها

ولا تسل عن أم الاولاد اذا طلقت وليس لها من تأوى اليه ، فان شرح ما تعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع ، يئنون من الجـــوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال ان ذلك غير واقع ، فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالانفاق على مطلقته واولاده منها حتى تحسن تربيتهم ، وعلى من يقوم مقامها فى الحضانة ان خرجت من عدتها وتزوجت .. فان الزوج وان كلفته الشريعة بذلك لكن لا يذعن لاحكامها فى مثل هذا الامر الذى يكلفه نفقات كبيرة الا مكرها مجبرا

والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عندالحاكم الشرعى، اما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه ، وتترك بنيها لا يملكون شيئا مدة اسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج ، وربما آبت اليهم حاملة صكابالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير أن تقبض ما يسد الرمق أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصرا على عدم الوفاء بما وعد ليقينه بأن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية ، أو حياء من شكاية الزوج ، فان كثيرا من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها غينا فظيعا .. فهى تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلبا لما تقيم به أودها هى وبنوها ، على الشكاية التى توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المقصودة

وغير خفى ان قيام المرأة الايم بهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التى اقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر فى اخلاقها فسادا وفى طباعها قبحا مما يذهب بكمالها ويؤدى الى تحقيرها عند الراغبين فى الزواج . ولربما أدت بها هذه الامور الى أن تبقى أيما مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل ، وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون فى الغالب الا اقل منزلة واصغر قدرا من بعلها السابق أو كهلا قلت رغبة النساء فيه ويمكث زمنا طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من

عائلة زوجها السالف فانها تبغض اى شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء أن فعل ذلك ، كأنمطلقها يريد أن تبقى ايما الى الممات رغبة فى نكالها واساءنها ان طلقها كارها لها

واما اذا كان طلاقها ناشئا عن حماقة الرجل لاكثاره من الحلف به ـ عند أدنى الاسباب وأضعف المقتضيات ـ كما هو كثير الوقوع الآن ، اشتد حنقه وغيرته عليها .. وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها.

وكأنى بمن يقولون ان هذهالمعاملةوتلك المعاشرةلاتصدر الا من سفلة الناس وادنيائهم .. واما ذوو المقامات وأهل اليسار ، فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك .. اذ أنهمينفقون مالا كثيرا على مطلقاتهم واولادهم منها ، وعلى نسائهم العديدات فى بيوتهم .. فلا ضير عليهم والاكثار من الزواج الى الحد الجائز ، والطلاق اذا أرادوا .. بل هو الاجمل والاليق بهم ، اتباعا لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا وتناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة » واما ما يقع من سفلة الناس ، فلا يصح أن يتخذ قاعدة للنهى عما كان عليه عمل النبى والسلف الصالح من الامة وخصوصا وآية « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » لم تنسخ بالاجماع ، فاذن يلزم العمل بمدلولها مادام القرآن

نقول فى الجواب عن هذا :

كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الاغنياءوذوى اليسار يطردون نساءهم معاولادهن ، فتربى اولادهمعند أقوام غير عشيرتهم ، لا يعتنون بهم ولا يلتفتون اليهم .. وكثيرا ما رأينا الآباء يطردون أبناءهم ـ وهم كبار ـ مرضاة لنسائهم الجديدات ، ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع

حتى انه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانيــة الا بقصد الاضرار بالاولى ، وهذا شائع كثير

وعلى فرض التسليم بأن ذوى اليسار قائمون بمـــا يلزم من النفقات ، لا يمكننا الا أن نقول ــ كما هـــو الواقع ــ ان انفاقهم على النسوة وتوفية الحقوق الزوجية من القسمة فى المبيت ليس على نسبة عادلة ، كما هـــو الواجب شرعا على الرجل لزوجاته .. فهذه النفقة تستوى مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية فاذن لا تمايز بينهم وبين الفقراء فى أن كلا قد ارتكب ما حرمته الشرائع ونهت عنه نهيا شديدا ، خصوصا وان اضرار اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثـر منها عنـد الفقراء كما هو الغالب

فان المراة قد تبقى فى بيت الغنى سنة أو سـنتين أو ثلاثا ــ بل خمسا ــ لايقربها الزوج خشية أن تغضب عليه من يميل اليها ميلا شديدا .. وهى مع ذلك لاتستطيع أن تطلب منه ان يطلقها لخوفها على نفسها من بأســـه ، فتضطر الى فعل ما لا يليق

وبقية المفاسد التى ذكرناها ، من تربية الابناء على عداوة اخوتهم بل أبيهم أيضا موجودة عند الاغنياء واكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة فى انكار هذا الامر بعد مشاهدة آثاره فى غالب الجهات والنواحى ، وتطاير شره فى أكثـر البقاع من بلادنا وغيرها

تلك هى معاملة أغلب الناس عندنا من أغنياء وفقراء فى حالة التزوج بعدة نساء وكأنهم لم يفهموا حكمـــة الله فى مشروعية التعدد ، بل اتخذوه ، طريقا لصرف الشـــهوة واستحصال اللذة لاغير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه .. وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل ، فالواجب عليهم

اما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » ثم ان هذه الآية: « فأنكحوا ماطاب لكم من النساء » مقيدة بآية فان خفتم .. واما ان يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل ، وحفظ الالفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الفوائل التى تؤدى بهن الى الاعمال الضارة ولا يحملونهن على الاضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتضي شرعى شأن الرجال الذين يخافون الله ، ويوقرون شريعة

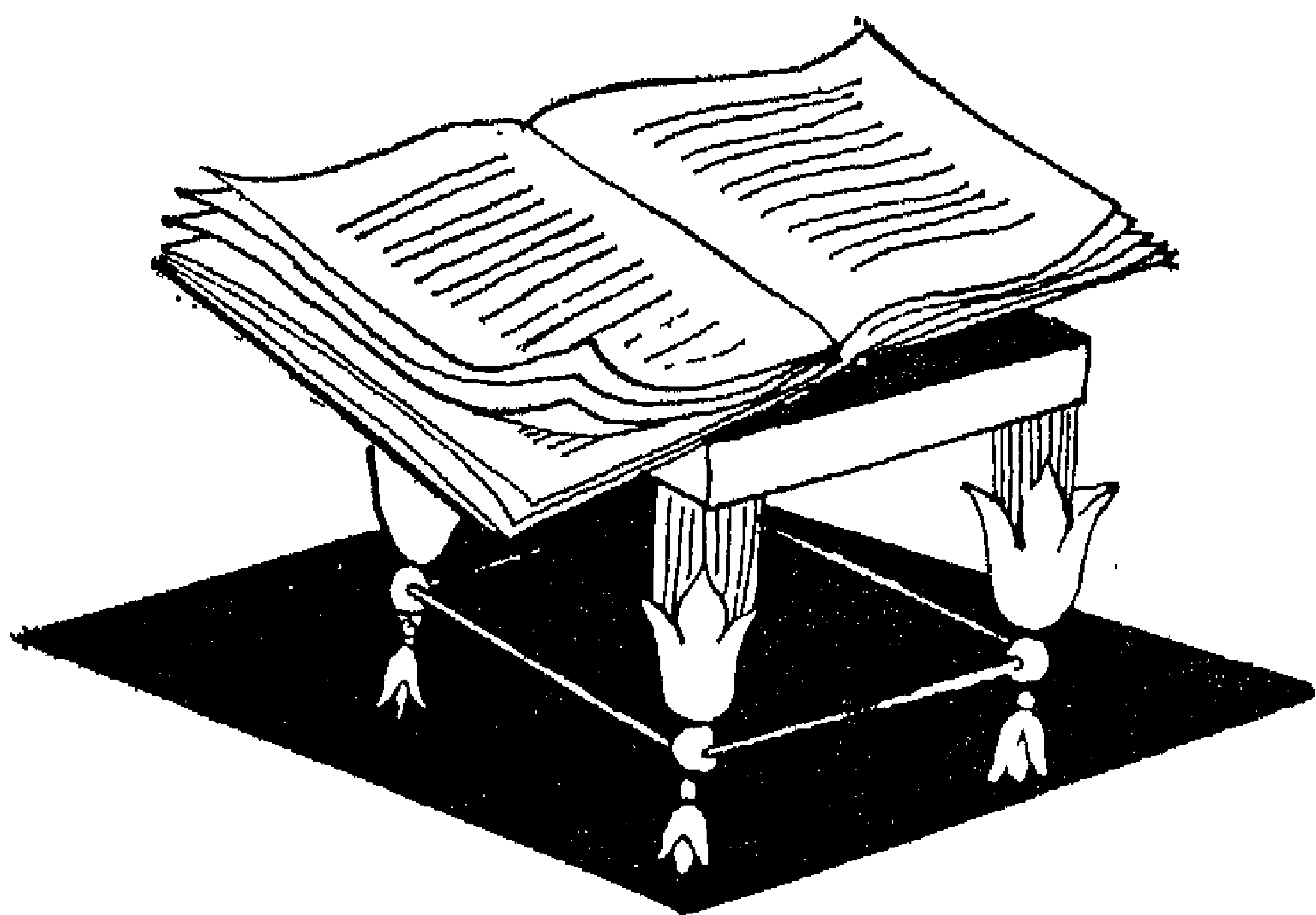
(*) بعد هذه الاسباب التى أوردها فى هذا الفصل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده نقول :

ان تعدد الزوجات ليس خاصا بشريعة الاسلام وحدها ، بل أنه كان موجودا قبل ظهور الاسلام ، وهو موجود حتى الان فى جميع قارات العالم . وعدد المعددين للزوجات يفوق كثيرا عدد الموحدين لهن . فهو موجود عند الفويجيين فى أميركا واستراليا ، وفى كالدونيا الجديدة ، وزيلانده الجديدة ، و منتشر بين الهنود الحمر فى أميركا شمالا وجنوبا ، وفى كثير من البلاد الافريقية واسيا وفى جاوه وسومطره ومدغشقر . والرجال فى كثير من هذه البلاد ، وخاصة فى افريقيا يتزوجون اكثر من أربعة .. ولاحد لعدد الزوجات عندهم . وهم يتزوجون من اثنتى عشرة زوجة الى ثلثمائة ، ويفاخرون بكثرة الزوجات ، لانه يدل على قوة الرجل ، وعلى غناه وثروته . وقد يعدد الرجال الزوجات ليساعدنهم فى أعمالهم الزراعية ، أو التجارية أو الصناعية

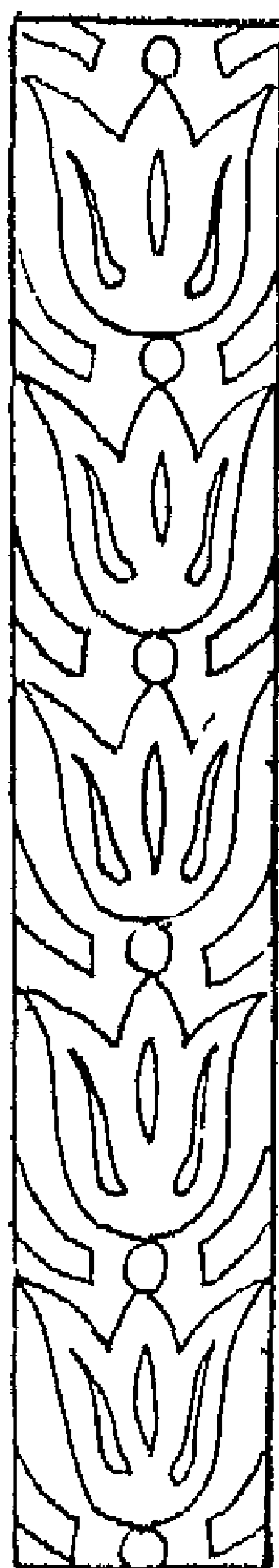
ويعتبر قبائل الكوش فى أميركا الشمالية كما قال الرحالة الانجليزى شوتر — ان تعدد الزوجات هو عادة حسنة .ويقول الرحالة الانجليزى لفنجستون ان نساء قبائل الماكولولوس فى افريقيا حينما علمن أن الانجليز لا يعددون الزوجات صحن قائلات انهن لا يفهمن كيف ان الانجليزيات يرضين بذلك ..!

وتعتقد قبائل الشيبوى ان العدد للزوجات محبوب ومحترم عند الروح الاكبر ، وهو معبودهم . وقد كان المصريون القدماء يعددون الزوجات ويرون ذلك موافقا للاخلاق الفاضلة ، والتعاليم الالهية ، ويقولون ان الله يبارك فى رجال لهم أزواج عدة ، وسرار كثيرة ..!

العدل ، ويحافظون على حرمات النســـــاء وحقـــوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة بالمعروف.. فهؤلاء الافاضل الاتقياء لا لوم عليهم فى الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعا ، وهم وان كانوا عددا قليلا فى كل بلد واقليم ، لكن اعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهـم الثناء العميم والشكر الجزيل ، وتقربهم من الله العـادل العزيز



ثلاث
رسائل







القضاء والقدر

مضت سنة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمـال البدنية ، فما يكون فى الاعمـال من صلاح أو فساد ، فانما مرجعه فساد العقيـدة ، وصلاحها ... ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس .. ورب أصل من أصول الخير ، وقاعدة من قواعـد الكمـال ، اذا عرضت على الانفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنـده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بهـا عند الاعتقاد شىء مما تصادفه ، وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسـدة مبنية على الخطأ فى الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ عنها أعمـال غير صالحة .. وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ، ولا كيف يصرفه اعتقـاده .. والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصـل وتلك القاعدة ..

ومن مثل هـذا الانحراف فى الفهم ، وقع التحـريف

والتبديل فى بعض أصول الاديان غالبـا .. بل هو علة البـدع فى كل دين على الاغلب . وكثيرا ما كان هـذا الانحراف ومايتبعله من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الاديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة ، استنادا الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة

عقيدة دينية

من ذلك عقيدة القضاء والقـدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الاســلامية الحقة .. كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعمـوا أنهـا ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقـوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطوارا ، ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر فقالوا : ان المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوة الحربية والسياسية على سائر الامم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض .. وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وعما ينفعهم ، وقنعوا بحيـاة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة .. ولكن متى أمكن لأحدهم ان يضر أخـاه لا يقصر فى الحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد اخرى .. رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنـوا الى الســكون فى بيوتهم ، يسرحون فى مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم

الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى أدائها

أعمارهم ولا يؤدون منها شيئا .. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيرا .. نفقاتهم واسعة ، ولكن لايدخل فى حسابها شىء يعود على دينهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية .. فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة ، كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدى عليه جاره ، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفا قاتلا ، فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددا ولا عدة

شملهم الخوف، وعمهم الجبن والخور.. يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس .. قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة ، وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم ، معرؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون .. واذا أصاب قوما من اخوانهم مصيبة ، أو عدت عليهم عادية ، لا يسعون فى تخفيف مصابهم .. ولا ينهضون لمناصرتهم، وليست لهم جمعيات دينية كبيرة ، لا جهرية ولا سرية، يكون من مقاصدها احياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلط الغرباء

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار، **وزعموا أن لا منشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر ، واسناد جميع همومهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزا ، ولن يعيدوا مجدا ، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعديا ، ولاينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ، ويفسد طباعهم ، حتى يؤدى بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله)**

يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الاجانب

ليست جبرية

واعتقد اولئك الافرنج انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبر فى جميع أفعاله ، وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل .. ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لاخيار لهم فى قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة .. فلاريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق ، ولست اخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأه الوهم ، وبطل الزاعم . وافتروا على الله والمسلمين كذبا .. لايوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة .. بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ... وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزاء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية ، والنواهى الربانية ، الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعى ،

به تتم الحكمة والعدل
نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ، ذهبت الى ان الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لايشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين ان يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة
وقد انقرض ارباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم اثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه أولئك الواهمون (١)
الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة .. وسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقاربه فى الزمان ، وانه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ماهو حاضر لديه ، ولايعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان انما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بمايعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات .. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره ابله ، فضلا عن عاقل .. وان مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة ، انما هو بيد مدبر الكون الاعظم الذى ابدع الاشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له ، خصوصا فى العالم الانسانى

(١) فى صفحة ٨٢ من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده التى نشرتها سلسلة « كتاب الهلال » فى فبراير سنة ١٩٦٣ فصل بعنوان : « أفعال الله وافعال العباد »

ولو فرضنا ان جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود الصانع للعالم ، فليس فى امكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير العوامل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية .. فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه ؟

هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن العلماء وان بعضا من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان فى اثباته، ولسنا فى حاجة الى الاستشهاد بآرائهم

ان للتاريخ علما فوق الرواية، عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، وماينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والاخلاق والافكار، بل فى خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلها فائدة ، بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والاذعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات ، ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان

مزايا هذه العقيدة

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر : يتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التى تفزع لها قلوب الاسود،

وتنشق منها مرائر النرمور . هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح ، والتخلى عن نضرة الحياة .. كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

الذى يعتقد بأن الاجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء .. كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته ، أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الاوامر الالهية ، وأصول المجتمعات البشرية

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم »

اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين — مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم تعودهم على الأجواء المختلفة ، وطبائع الاقطار المتنوعة — أرغموا الملوك ، واذلوا القياصرة والاكاسرة ، فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة .. ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلادا ، ودكوا اطوادا ، ورفعوا فوق الارض

ارضا ثانية من القسطل (١)، وطبقة أخرى من النقع(٢)، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رءوس النابذين لسلطانهم ، وارجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريصة ،وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب .. وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعلاء كلمتهم ، لايخشون فقرا ولايخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم، ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم .. كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة .. وكان نساؤهم واولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الاولاد مهابة .. هذا الإعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد فلذات الاكباد .. حتى كانوا ينصرون بالرعب ،

(١) القسطل الغبار الساطع فى الحرب
(٢) الماء المستنقع أى المتجمع

يقذف به فى قلوب أعدائهم فيهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل ان تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

بكائى على السالفين ، ونحبى على السابقين .. اين انتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة ؟.. اين انتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ .. اين انتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة ؟ .. اين انتم يا خير امة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟

أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ؟.. الا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم .. انحرفوا عن سنتكم : وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الاكباد حزنا .. اضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم ، الا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال ، الى سواء السبيل ؟ « انا لله وانا اليه راجعون »

عقيدة العظماء

اقول وربما لا أخشى واهما ينازعنى فيما اقول ، انه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى الى اليوم ، ما وجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت فى أوسط الطبقات، ثم رقى بهمته الى أعلى الدرجات ، فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى

العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، الا كان معتقداً بالقضاء والقدر

سبحان الله .. الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة .. فما الذى يهون عليه المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا ، الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه الى ان القدر كائن ولا أثر لهول المظاهر

أثبتت لنا حوادث التاريخ ان كورش الفارسى «كيخسرو» وهو أول فاتح يعرف فى تاريخ الاقدمين ، ما تسنى له الظفر فى فتوحاته الواسعة ، الا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر .. فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة .. وان اسكندر الاكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة ، وجنكيزخان التترى — صاحب الفتوحات المشهورة — كان من ارباب هذا الاعتقاد .. بل كان نابوليون بونابرت الفرنسى من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة ، فيتهيأ له الظفر ، وينال بغيته من النصر

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن — وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته أيا كانت — نعم ، اننا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر ، وربما كان هذا سببا فى رزيئتهم ببعض المصائب التى أخذتهم بها الحوادث فى العصور الاخيرة

ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكروا العامة بسنن السلف

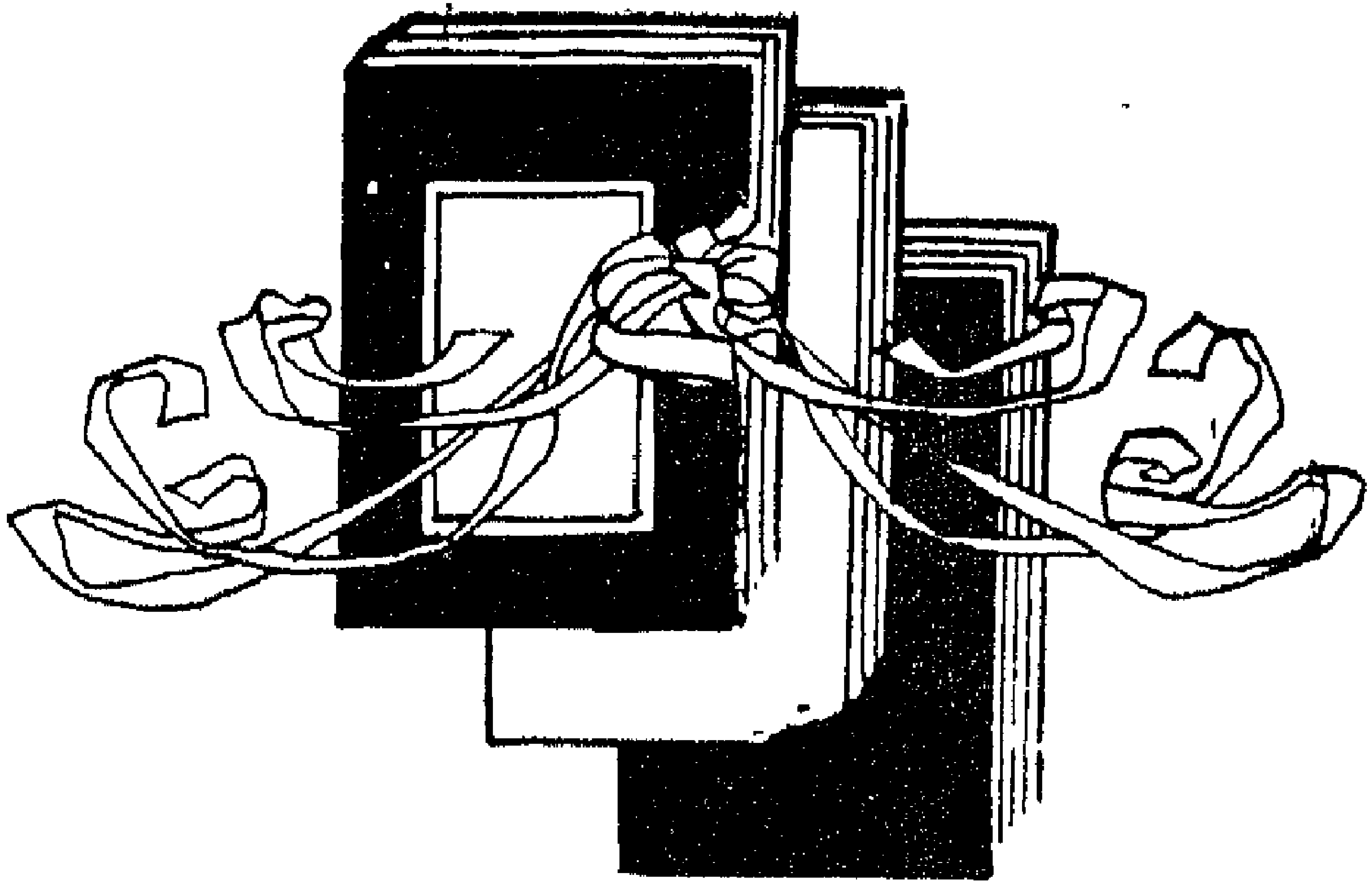
الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته ائمتنا رضي الله عنهم - كالشيخ الغزالي وأمثاله - من أن التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا في العمل، لا في البطالة والكسل .. وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، ونتبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم .. ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف.

وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة - التي تجمع كلمتهم، وترد اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الاول - الا دعوة خير من علمائهم .. وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم

اما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر، فليس منشأه هذه العقيدة « ولا غيرها من العقائد الاسلامية » ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه، بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار .. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب، وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب، وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم .. وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات، بحكم الطبيعة.. وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، واسند الامر فيهم الى غير أهله، وولي على امورهم من لايحسن سياستها.. فكان حكامهم وامراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت

انظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى لا تتجاوز لذته الذاتية .. وأخذ كل منهم بناصية الاخر ،يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب ، لا لعلة صحيحة ولا داع قوى .. وجعلوا هذا ثمرة الحياة ، فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط ، وأدى الى ما صاروا اليه

ولكنى أقول — وحق ما أقول — ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح فى أذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم .. وكل ما عرض عليهم من الامراض النفسية والاعتلال العقلى ، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ، ويعود الأمر كما بدأ ، وأن ينشطوا من عقالهم ، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر فى انقاذ بلادهم، وارهاب الأمم الطامعة فيهم ، وايقافها عند حدها .. وما ذلك ببعيد



فتوحات الإسلام
وأحاديث القصاصين

سألني سائل عن الرأى فيما يوجد بأيدى الناس من كتب الغزوات الاسلامية والأخبار الفتوح الاولى ، وعما حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، والى كبار اصحابه رضى الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شيء منها ، ثم خص فى السؤال كتاب الشيخ الواقدى الموضوع فى فتوح الشام ، وذكر لى أن بعضا من معربدة هذه الايام المعتدين ، على مقام التصنيف ، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم ، ومثابة يرجعون اليها فى روايتهم ، ليتخذوا منه حجة على مايروجونه من تشويه سيرة المسلمين الاولين ، وليسلكوا منه سبيلا الى اذاعة المثالب ، ونشر المعايب وأن بعضا آخرمن ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من الانفس ماذخر الاولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز فى خزائن الكتب السياسية ، وحقيق ان ينقل من اللغة العربية الى غيرها من اللغات ، فاجبت السائل بجواب أحببت لو ينشر ، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر

لم يرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك مما جلب

الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بنى عليه الدين ، وقد فشت الكذب فاشية على الدين المحمدى فى قرونه الاولى ، حتى عرف ذلك فى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، حتى خطب فى الناس قائلا :

« أيها الناس قد كثرت على الكذابة ، الا من يكذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » أو كما قال (١)

الا ان عموم البلوى بالاكاذيب حق على الناس بلاؤه فى دولة الامويين ، فكثر الناقلون ، وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث الا لمن يثقون بحفظه ، خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم ، حتى سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنه : لم لا تحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الامام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال : ما رأيت أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث (٢) ثم اتسع شر الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتد بامتداد الزمان ، الى ان نهض ائمة الدين من المحدثين ، والعلماء العاملين ، ووضعوا للحديث اصولا ، وشرطوا فى صحة الرواية شروطا ، وبينوا درجات الرواة واوصافهم ، ومن يوثق به ومن لايوثق به منهم ، وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الاسناد ، واتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث ، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحق من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من

---

(٢) لا أذكر اننى رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر أنه مروى بالمعنى بقوله أو كما قال

(١) روى مسلم هذه العبارة فى مقدمة صحيحه عن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ وبلفظ الصالحين بدل أهل الخير ولم يذكر ابن عباس وأوله بأن الكذب يجرى على لسانهم ولا يتعمدون الكذب يعنى يروون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم نقدهم

غيرها ، وثبت علم ذلك عند كل ذى المام بالديانة الاسلامية

وقد روى عن الامام مالك رضى الله عنه انه كان قد كتب كتابه الموطأ حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم سمع حديث « قد كثرت على الكذابه فطابقوا بين كلامى والقرآن ، فان وافقه والا فاطرحوه » عاد الى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الاربعة عشر الفا اكثر من الف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم مالحقه ، من التعب والعناء فى تصنيف صحيحه ، واطلع على ما ادخله الدخلاء فى الدين وليس منه فى شىء لم يخف على اهل النظر فى التاريخ ان الدين الاسلامى غشى ابصار العالم بلامع القوة ، وعلا رءوس الامم بسلطان السطوة وفاض فى الناس فيضان السيول المنحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولى الالباب عليه آيات بينات . فكان الداخلون فى الدين على هذه الاقسام : قوم اعتقدوا به اذعانا لحجته واستضاءة بنوره ، واولئك الصادقون . وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه ، واتسموا بسمته ، اما لرغبة فى مغانمه ، أو لرغبة من سطوات اهله ، او لتعزز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الأسلام على ظواهر احوالهم الا انه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على اديانهم فى بواطنهم ، ويضارعون المسلمين فى ظواهرهم . وقد قال الله فى قوم من أشباههم (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) فمن هؤلاء من كان يبالغ فى الرياء ، حتى يظن الناس انه من الاتقياء ، فاذا أحس من قوم ثقة بقوله أخذ يروى لهم احاديث دينه القديم ، مسندا لها الى النبى صلى الله عليه وسلم أو بعض اصحابه ؛

ولهذا ترى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل الى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، الا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الاحاديث التى لو رسخت معانيها فى العقول أفسدت الاخـــلاق ، وحملت على التهاون بالاعمال الشرعية ، وفترت الهمـم عن الانتصار للحق ، كالاحاديث الدالة على انقضاء عمر الاسلام (والعياذ بالله) أو المطمعة فى عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا .. كل ذلك يضعه الواضعون قصدا لافساد المسلمين ، وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم ، ويضعف حولهم

ومن الكاذبين قوم ظنوا ان التزيد فى الاخبار والآكثار من القول يرفع من شأن الدين ، فهذروا بما شـــاءوا ، يبتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم الا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : مارأيت أهل الخبر فى شيء أكذب منهم فى الحديث . ويريد بأهل الخبر أولئك الذين يطيلون سبالهم ، ويوسعون سربالهم ، ويطأطئون رءوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون الى المساجد بأسباحهم ، وهم لأبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بهاقى الحركة سبحهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : منقادون لحملة الحق ، لا بصيرة لهم فى أحنائه ، ينقدح الشــــك فى قلوبهم لاول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومقاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، يسيئون ويحســـــون أنهم يحسنون » فهؤلاء قد يخيـــل لهم الظلم عدلا ، والغدر فضلا ، فيرون أن نسبة مايظنون الى اصحاب النبى مما يزيد فى فضلهم ، ويعلى فى النفــوس

منزلتهم ، فيصح فيهم ما قيل : عدو عاقل خير من محب جاهل . ومن هؤلاء وضاع كتب المغازى والفتوح وما شاكلها

اما الشيخ الواقدى فكان من علماء الدولة العباسية ؛ ولاه المأمون القضاء فى عسكر المهدى ، وكان تولى القضاء فى شرقى بغداد . قال ابن خلكان : « وضعفوه فى الحديث وتكلموا فيه » أى عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نعى الامام الرملى من علماء الشافعية : على انه لايؤخذ بروايته فى المغازى (١) فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود فى أيدى الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على انى لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه ، لم اكن مخطئا

وذلك لأن الواقدى كان من اهل المائة الثانية بعد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هارون الرشيد ، ويواصله ويكاتبه ، وصاحب هذه المنزلة فى القرون اذ نطق فى العربية فانما ينطق بلغتها ، وقد كانت اللغة لتلك الاجيال على المعهود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ وبداوة التعبير . والناظر فى كتاب الواقدى ينكشف له بأول النظر ان عبارته من صناعات المتأخرين فى اساليبها ، وما نقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وابى عبيدة وغيرهم رضى الله عنهم لاينطبق على مذاهبهم فى النطق ، بل كلها دقق المطالع فى أحناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين فى الديار المصرية من ابناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولايرى

---

(١) اقل ما قيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعى وأحمد وروى البيهقى عن الشافعى انه قال كتب الواقدى كلها كذب ، ووثقه آخرون ولا خلاف فى كونه من اعلم علماء الملة . كما فى تهذيب التهذيب

عليه لهجة المـــدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدنى المنبت عراقى المقام ، ولولا خوف التطويل لاتيت بكثـير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينهـا وبين منـاهج أبناء القرون الأولى فى التعبير ، على ان ذلك لايحتاج الى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية

فهذا الكتاب لايصح الثقة به ، لأنه مكذوب النسبة على الواقدي وهو الأظهر ، واما لضعف الواقدى نفســه فى رواية المغازى كما صرح به العلماء ، فلا تقوم به حجـة للمتحذلقين ، ولايصلح ذاخرا للسياسيين ، ومثل هــذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الانبياء المنسوب لابى منصور الثعالبى ، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة الى الشيخ السيوطى ، وقصص روايات تنسب الى كعب الأحبـار أو الاصمعى ، وما شاكلهما ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة اليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ، ولاثقة بما يندرج فيه . والعمدة فى النقل التاريخى كتب الحديث كصـحيحى البخارى ومسلم وغيرهما من الصـحاح ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودى وابن خلدون وأبى الفدا وأمثالهم . وعلى أى حال فلا يستغنى مطـالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه



الوهم حجاب الحقيقة

((اللهم اكشف عن بصـــائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هى كى لانضل ونشقى))

الا قاتل الله الوهم .. الوهم طورا يكون مرآة المزعجات، ومجلى المفزعات .. وطورا يكون ممثلا للمسرات، حاكيا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة .. لكن له سـلطانا على الارادة وحكما على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيدا ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا .. الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعـدوم موجودا .. الواهم فى كون غير موجود ، وعالم غير مشهود، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه

الوهم روح خبيث يلابس الروح الانســانية وهى فى ظلام الجهل .. اذا خفيت الحقـائق تحكمت الاوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقـود الواهمين الى بيـداء الضلالة ، فيخبطون فى مجاهيل ، لا يهتدون الى سـبيل، ولا يستقيمون على طريق

كان الانجليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العـدد مسـتعدة للفتوحات .. وذلك فى زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفريق الكلمة ، واختـلاف الاهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعاداتهم .. فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحرا أو كرامة ، فانتهز الانجليز تلك الفرصة واندفعوا الى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب ارجائه ، وما دهموا سكانه الا ببعض غرائب الصناعة الاوربية التى أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانجليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبـوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما فى أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم .. فسـلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أمـلاكهم ، فاسـتغنت الأمـة الانجليزية بما سلبت ، وأثرت بمـا نهبت ، وترفهت بما ملكت، وحكمت أقطارا واسعة ، وأنحاء شاسعة، وقواها منقسمة على تلك الاقطار ، متوزعة فيها ، فلا ترى فى كل امارة من اماراتها الشرقية الا نزر من العدد والعدة، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة ، لا تسـتطيع ذودا ولا دفاعا ، وان أخف حركة فى تلك الانحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها والقضاء عليها

وقد ظهر هذا الامر على الامة الانجليزية ، فهى دائمـا فى رجفة على أملاكها ، فى خوف من تمزقها وضياعها . تتوجس من كل حادثة فى العالم ، وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجـود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغـرب تسبب حدوثها زلزلة فى قوى الانجليز المتوزعة فى الانحاء الضعيفة فى جميع الارجاء

سلاح الوهم

ومع هذا كله نرى ذلك خفيا على الشرقيين ، محجوبا عنهم بحجاب الوهم .. يمثل الوهم لكل شرقى أن الانجليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم ، فمثل الشرقيين مع الانجليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه ، فاقدة الحياة عديمة الحراك ، فليتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا ، فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول الى غايته ، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه .. بل لا نخطىء ان قلنا ان هذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فالأوربيون كانوا ينظرون الى انجلترا فى أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها فى جزائر بريطانيا ، وكانت حكومة انجلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية ، يحس الانجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما فى ستره .. ولا ستار أكثف من الوهم ، ولهذا نراهم فى كل حادثة يضجون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول انظار الناظرين ، وتغشى بصائر المستبصرين .. فتحول دون استطلاع الحقيقة ، والا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانجليز

ذهب الانجليز الى الهند فى قوى مجتمعة ، وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال فى ميدان الاراضى الهندية الواسعة .. فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من

غفلة الهنود لذاك العهد او طيب قلوبهم .. فمالت النفوس الى الانجليز اغترارا ، وتغلبوا على تلك البلاد ، واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا .. وما ابقوا لغيرهم من الدول الا مضائق من الارض لا تذكر ، واول ما استمالوا به القلوب المسالمة قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة فرنسا ، وهولندا ، والبرتغال .. فانها تريد التسلط على ممالككم ، اما نحن الانجليز فلا نريد الا تحريركم واستقلالكم . ان للانجليز الآن فى الهند والهند الصينية وبورما سلطة على ملايين النفوس ، كلها كارهة لتلك السلطة الانجليزية ، تطلب التخلص منها — وتفضل أية سلطة سواها — ظالمة كانت أو عادلة — كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الانجليز ، ولا تصل الى ماوصل اليه الانجليز فى الكبرياء والجبروت

ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب اولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد ارجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لايوجد بينهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة الا خمسون (١) الف جندى انجليزى ، مع انه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ، ما لو جمعت قواها لبلغت اكثر من ثلاثمائة الف جندى .. هذا فضلا عمن يستطيعون حمل السلاح من اهالى البلاد التى دخلت تحت سيطرة الحكومة الانجليزية وزال استقلالها

فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس ،

---

(١) هذه القوة كانت موجودة أثناء كتابة هذا المقال .. وقد أصبحت هذه البلاد مستقلة استقلالا كاملا ولا صلة لهابانجلترا الا بتلك المعاهدة التى جعلتها ضمن دول الكومنولث

حتى اذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها .. ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، لو لمح اولئك المساكين انفسهم لمحة اعتبار ، وادركوا ما اتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا الى ضعف الانجليز فى الحالة الحاضرة لراوا موئل الخلاص بين ايديهم ، وملجأ النجاة تحت ارجلهم .. وعلموا ان استقلالهم لانفسهم وبلادهم ، لا يحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولايدعو الى بذل أموال وفيرة ، ولا سفك دماء غزيرة

وهم الدول

يوجد فى الدول الاوربية من يهاب دولة الانجليز اعتبارا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ، ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الاطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ، ويظن ان لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا او تقرب منها . ولم يلتفت الى ان جسم الانجليز قد مد فى الطول والعرض الى حد لو حصلت فيه ادنى هزة لتقطعت اوصاله وتفرقت قواهم فى بسيط الارض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه ، يترقبون فى كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين ولو التفتت تلك الدولة التى تهاب انجلترا الى حقيقة الامر ، لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها الى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور الى حد لا يحتاج الى دقة الفكر لولا حجاب الوهم .. قاتل الله الوهم .. !!

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانجليز كما ينظرون

الى دولة الروس ، مع ملاحظة ان دولة انجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونا من النفوس .. فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا انظارهم الى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها ان تسوق من الجنود الى ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها فى قوة دولة انجلترا .. فانما هى فى الحقيقة قوة لاعدائها عليها ، وهى فى ارتقاب الفرص لخلع طاعتها فمتى ارتبكت دولة انجلترا بالحرب مع دولة اخرى ، رأيت مائتين وخمسين مليونا تقاتل عساكر الانجليز ، خصوصا خمسين مليونا من المسلمين فى حكومة انجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذا يلجأون اليه ، وهم اول قوم حربيين فى البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون ان دولة انجلترا انما تستميل المسلمين فى الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها ، اما والله لو علم العثمانيون مالهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء ، لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز وحيفهم فى اعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان فى مثل المسألة المصرية التى هى فى الحقيقة اهم مسألة عثمانية او اسلامية

الوهم واحتلال مصر

ان سكان مصر كانوا أيام عرابى على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه الى عرابى ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثانى فى ريبة من امره ، ولا عزيمة مع الريب ، والقسم الاول مخلد الى الفشل ، فدخل الانجليز بلا

حرب حقيقية .. وانما بنوع من الترهيب ، وقليـــل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس ، صادف قلوبا مستعدة فأخذ منها مقاما ، فانحلت الرابطـة وتفرق النـــاس عن «عرابى» (١) بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحـــد منهم ان الانجليز يبتغون من البلاد شيئا سوى انهم يؤيدون توفيق باشا وينقـــذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون فى الامر بحســـن ظنهم فى حكومة الانجليز مع ما جاءتهم من الحجة القـوية القائمة على أن صـــاحب السيادة الشرعية فى رضـا عن تصرفها .. بهذا فاز الانجليز واستقرت اقـدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافى لظهور غدرهم ، وســوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالى المصريين من يميل اليهم، بل لايوجد الا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود أن يعمـل عمـلا لهلاكهم ، ولكن الوهم يجسم الخوف ويكبح العزيمـة .. ان اهالى مصر ، كأنهم ذهلوا عن الاســباب التى مـكنت الانجليز من بلادهم ، كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة فى مدافعة الانجليز ، ثم تغلبت عليهم القــوة الانجليزية وقهرتهم جميعا .. كأن المصريين نسوا ما كان بينهم ، وان الانجليز ما دخلوا بلادهم الا بمعونتهم

هذا هو الوهم العجيب .. ان الذين كانوا ســـببا فى تغلب العساكر الانجليزية وحلولها فى وادى النيل ، وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الان أن هـــؤلاء الجنود قادرون على قهر الاهالى عموما ، واخضاعهـــم لحكومة بريطانيا . وبهذاالظن الباطل يستسلمون لاعدائهم كرها ويجارونهم فى أهوائهم نفاقا .. الا ينظـر المصريون نظرة تأمل الى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث الى مصر والســودان

(١) احمد عرابى زعيم الثورة العربية عام ١٨٨١ و ١٨٨٢

أزيد من عشرين الف جندى ..ألا يعلمون أنه اذا اشتغل الجند الانجليز بالسودان ، وحصلت حركة خفيفة فى الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لاهلها .. الا قاتل الله الوهم !

صوت عال وشبح بال

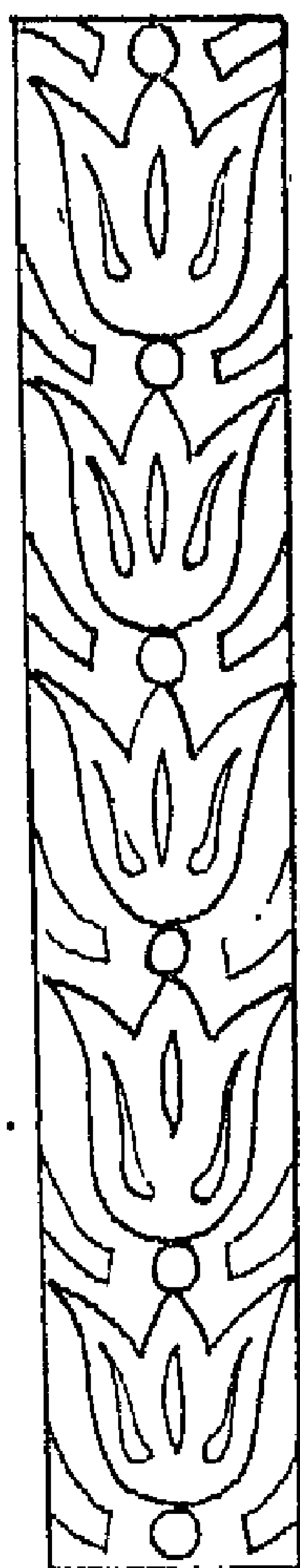
ان للانجليز قوة حربية بحرية لا تنكر ، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذى ظهر أثره فى سواكن .. لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر اكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل فى استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابل الى أبد الابدين . .اذاكانالاهالى فى داخل البلاد يناوئونهم ، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس فى الامر شيء سوى الوهم .. هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانجليز .. ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء .. صوت عال وشبح بال . قامت الدولة على معارضتهم لعلمها ان الانجليز صاروا للامم كالدودة الوحيدة ، على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية ، لكن بقى أن يزول هذا الوهم من الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ، ويستقلوا بأمورهم ، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيدا اجنبيا بسيد آخر

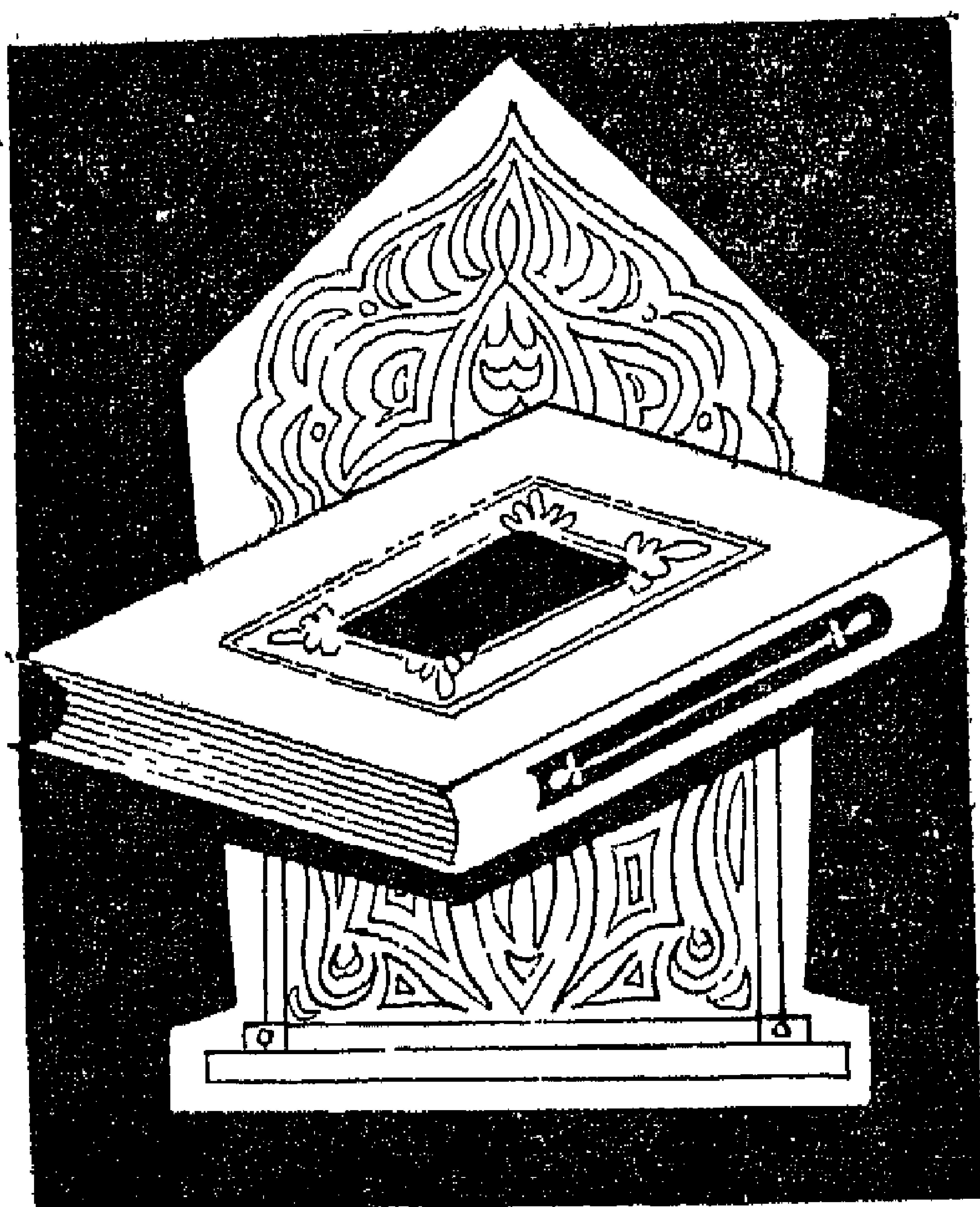
اللهم ارفع حجب الاوهام ، وهيىء لنا الرشد فى امورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا الى خير نهاية (١)

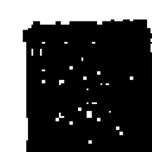
---

(١) لقد صح رأى الاستاذ الامام فى هذا الوهم العجيب الذى كان يسيطر على الافراد والجماعات وعلى بعض الدول ، وتكشفت حقيقة الانجليز ، واستقلت كثير من الامم ، وأصبحت لها ارادة قوية ،وعزيمة صادقة وسيادة حقة بعد ما زال عنها حجاب الوهم الذى سيطر عليها حقبة من الزمان

مبادئ في الأخلاق والاجتماع







التعصب

« اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »

« قرآن كريم »

لفظ شغل عقول الناس خصوصا فى بلاد الشرق ، تلوكه الألسن وترمى به الافواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة (١) للمتكلمين ، يلجأ اليه العيى (٢) فى تهتهته ، (٣) والذملقانى (٤) فى تفهيقه (٥) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير ، فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحها أو حشوها أو خاتمها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعا لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل

والمتسربلون بسرابيل الافرنج ، الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط ، لايميزون بين حق وباطل . . هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ،

---

(١) التكأة : مايتوكأ عليه (٢) العيى : من العى وهو العجز عن الكلام (٣) التهتهة : ضرب من اللكنة (٤) الذملقانى : السريع الكلام (٥) التفهيق : التوسع والتنطع

فتراهم فى بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحي ويبرمون السبال ، واذا رموا به شخصا للحط من شأنه اردفوه للتوضيح بلفظ افرنجي « فناتيك » (١) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا ، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، واذا رأوه عبسوا وبسروا(٢) وشمخوا بأنوفهم كبرا وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور .. ماذا سبق الى أفهامهم من هذا اللفظ ، وما تصل بعقولهم من معناه ، حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ، ومصدرا لكل نقيصة ، رهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

ماهو التعصب ؟

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية (٣) ، نسبة الى العصبة ، وهى قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء .. فالتعصب وصف للنفس الانسانية ، تصدر عنا نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لاحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الامم .. وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، أو ينشئها بتقدير الله خلقا واحدا ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر ، تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة ، وقبيل

---

(١) معناها : متعصب

(٢) عبس قطب وجهه وبسر قطب وجهه في تجهم بتشديد الجيم

(٣) وتسمى هذه المصادر عند علماء الصرف والنحو « المصادر الصناعية »

وقبيل ، ومباهاة كل من الامتين المتقابلتين بما يتوفر لها من اسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقـــام ونفاذ الكلمة .. والتنافس بين الامم كالتنافس بين الاشخاص ، أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ماتسعه الطاقة

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الامة وصورتها ، وسائر أرواح الافراد حواسه ومشاعره .. فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبى عنه ، انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العـامة ، وباعث النعرة الجنسية . هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر ، او يؤول بها الى سوء عاقبة .. وان استقامةالطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها .. يكون كل منهم بمنزلةعضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود .. وانما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه

وكلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامـــة بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ، ورثت (١) الاطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة الى الانحلال ، كمـــا يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء .. بعد هذا يمـوت الروح الكلى ، وتبطل هيئة الامة وان بقيت آحادها ، فما هى الا كالاجزاء المتناثرة ، اما ان تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، واما ان تبقى فى قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الاخرى

(سنة الله فى خلقه) .. اذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم

---

(١) أى بليت الاطناب

الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، واعقب الغفلة تقطع فى الروابط .. وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب فى نشأة ثانية

الاعتدال فى التعصب

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف ، له حد اعتدال وطرفا افراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذى بينا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنا لرزاياه .. والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الاجنبى عنه كما ينظر الى الهمل .. لا يعترف له بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة ، ويذهب بهاء الامة ، بل يتقوض مجدها .. فان العدل قوام المجتمع الانسانى ،وبه حياة الامم .. وكل قوة لا تخضع للعدل مصيرها الى الزوال ، وهذا الحد من الافراط فى التعصب هو المقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله « ليس منا من دعا الى عصبية » !

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد ،توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا .. والمتنطعون من مقلدى الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل ، فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ،

وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العـــزيز العليم وجــود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر .. وعن كل منهمـــا صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب

فتعصب المشتركين فى الدين ، المتوافقين فى أصـــول العقائد ، بعضهم البعض .. اذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور فى المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة .. بل هـــو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحكمت صعدت بذوى المكنـــة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصا ان كانوا من قبيـــل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الاهـــواء الجنســية حتى أشرف بها على الزوال كما فى أهل الديانة الاسلامية

ولا يؤخذ علينا فى القول بأنه من أقدس الروابط ، فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ؛ ويصل مابينهم فى المقاصد والعزائم والاعمـــال .. كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشـــائر ، بل الاجناس المتخالفة فى المنابت واللغات والعـــادات ، بل المتباعدة فى الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييـــد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم

هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الدينى ، وشهد عليه التاريخ بعد ما ارشد اليه العقل الصحيح

تفشغ (١) جماعة من متزندقة هذه الاوقات فى بيـــان مفاسد التعصب الدينى ، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع مايلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير الى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم .. ومن رأى أولئك المتفثفين(٢) ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحـلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد .. وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الاســـلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون .. ان الدين أول معلم ، وأرشـــد أستاذ ، وأهدى قائد للأنفس الى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب ، وابصر مروض بطبع الارواح على الاداب الحسنة ، والخلائق الكريمة .. ويقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمـــة ، خصوصا دين الاسلام فهو الذى رفع أمة كانت من أعـرق الامم فى القسوة والخشونة .. وسما بهـا الى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة ، وهى الامة العربية

التغالى فى التعصب

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغـالى والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى ، فيفضى الى ظلم وجور ، ربما يؤدى الى قيام أهل الدين لابادة مخالعيهـم

---

(١) تفشغ فى كلامه : خلط وثرثر

(٢) المغالين المتفلسفين

ومحق وجودهم .. وكما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة ، لا للفتح ولا للدعوة الى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بالحرب الصليبية.. وكما فعل الاسبانيون بمسلمى الاندلس .. وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية الدعوة للدين المسيحى ، أن صـاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فىالقدس واحرقهم ، الا ان هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتـد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل

أما أهل الدين الاسلامى ، فمنهـم طوائف شطت فى تعصبها فى الاجيال الماضية .. الا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم فى دينهم .. وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ماتجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على مانقول ،وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم الى الان حافظـة لعقائدها وعوائدها منذ ان تسلطوا عليها ، وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممـالك وامتـداد الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم .. الا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم : (ان من رضى بذمتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله فى قوله :(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شـهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين) اللهم الا مالا تخلو عنـه الطبائع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعـوا أحدا من

مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة .. ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك فى شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ماكان . . وفى الظن أن الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الالزام بدينهم، والاجبار على قبوله ، مع شدة بأسهم فى بدايات دولهم ، وتغلغلهم فى افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة فى الملك والسلطة ، وانما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فان قبلت والا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم، مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامى

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين ، أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ماكانوا يطاون أرضـا الا ويلزمون أهلها بتغيير أديانهم ، واعتناق دين أولئك المتسلطين ـ وهو الدين المسيحى ـ كما فعلوا فى مصر وسـورية ، بل فى البلاد الافرنجية نفسها

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان ، وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتـذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله ان يعد الاعتدال من التعصـب الدينى نقيصة ؟ . . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الا بما يكون به التعصب الدينى أقدس وأطهر وأعم فائدة ؟ . . لانخال عاقلا يرتاب فى صحة ما قررناه ، فما لاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟

أى جانب من جوانب المنطق يستندون اليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، والاعتقاد بأنه فضيلة

من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى يستندون اليها فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل ، وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها

الافرنج والرابطة الاسلامية

نعم ان الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما فى الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تكون الا بالعصبية الاعتقادية .. ولاولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا .. فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون من المسلمين لايعرفون لهم جنسية الا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين — جهدا وتقليدا — فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالون فى تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة .. فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيىء لنفسه مسكنا سواه ، فاضطر للاقامة بالعراء معرضا للعوامل الجوية وما تصول به على حياته

هذا أسلوب من السياسة الاوربية اجادت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد الاسلامية ، ولم تعدم صيدا من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم .. وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ،

ولكنا نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين ـ مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى ايمانهم ـ يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ، ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة .. ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها الى أيدى الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضا والسماء سماء

والله ما عجبنا من هؤلاء بأشد من العجب لاحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يبذلون اقصى الجهد لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة .. الافرنج اشد الناس فى هذا النوع من التعصب ، وأحرصهم على القيام بدواعيه .. ومن القواعد الاساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين ، والقائمين بنشره ، ومساعدتهم على نجاح أعمالهم .. واذا عدت عادية ـ مما لا يخلو عنه المجتمع البشرى ـ على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحا وعويلا ، تتلاقى أمواجه فى جو بلاد المدنية الغربية ،وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ،فاجمعوا الامر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية . وتراهم على اختلافهم فى الاجناس وتباغضهم ، وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات ، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء .. يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاركهم فى الدين ، وان كان فى اقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية

أما لو فاض طوفان الفتن ، وطم وجه الارض ، وغمر البسيطة دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب .. فلا ينهض فيهم عرق ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه .. وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطرة البشرية من الشفقة الانسانية والرحمة الطبيعية .. كأنما يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهمل الرعية ، وليس من نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون أنهم حماته وأنصاره

وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لايعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم .. وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه .. امل ان شأن الافرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب !!..

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلادستون ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب (١) بل لا ترى روحه الا نسخة من روحه

نداء الى المسلمين

فيا أيتها الامة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت .. هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل .. ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ،واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها

---

(١) هو داعية الحرب الصليبية ويسمى بطرس الناسك « ١٠٥٠ ـ ١١١٥ م » وهو فرنسى ومعنى بطرس « الصخرة »

العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام رابطة النسب حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها .. ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه .. ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، وتأدية الحقوق لاربابها ، وحسن المعاملة ، واحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة .. فان مصالحكم لا تقوم الا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم الا بمصالحكم . وعليكم الا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب .. ولا تجعلوا عصبيتكم مقصورة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الامم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية ، اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » !



الشجاعة وعلو الهمة

العالم الانسانى كتاب المعتبر ، وسفر المستبصر .. وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ، ولنا فى كل ما خطه القلم الالهى عبرة

أول مايفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب فى أطوارها المختلفة ، وأدوارها المتبدلة .. فترى امما علت وسمت وحلقت فى جو المعالى وجازت فى الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر الا فى الروايات والاحاديث ، ومنها أجيال كانت فى أطواء الفناء ، ثم اكتست حلية الوجود ، واتخذت من المجتمع الانسانى مكان الهامة من الجسد ، ثم انطوت واخنت عليها أم قشعم (١) .. ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالامر والنهى من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الاطوار كما تعرض عليه التماثيل ، ينبسط لبعضها اذا أعجبه ،

---

(١) يراد بها هنا الموت وقد يراد بها الداهية ، والحرب فى غير هذا الموضع . والقشعم فى الاصل المسن من الرجال والنساء والنسور ، ويطلق على الاسد وجمعه قشاعم وقشاعيم

وينقبض لآخر اذا أنكره .. وهو فى غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها ، فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الاشقياء

النافذون الى الحقيقة

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة ، فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التى تتبعها أحوال الامم فى صعـــودها وهبوطها ، ويعلم أن ماسيق من الخير لامة انما كان بأيدى آحاد من اماثلها جدوا وجاهدوا وفازوا بتأصيل الجـد لشعوبهم وبنى جنسهم .. بما بذلوا من نفائسهم وانفسهم .. ويرى لاولئك الاعلام ذكرا يرفع ، ومكانة من القلوب تحمد ، وتمييزا عند الخلف بالكرامة .. وهم لايخالفون الناس فى جسومهم ودمائهم ، وانما تقدموهم بهممهم .وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمـار الثناء وتخليد الذكر .. فاذا أخذ مأخذهم ، واستقام على طريقهم ، فلا يكاد يخطو بضع خطوات ومبدأ المسير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه فى أياد مقطعة ، ورءوس مجذوذة، وأشلاء مبددة ، وشعور منثورة ، وصـــدور مدقوقة ، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء ، من طلاب الحق والناهجين فى مناهجه ، ولا محيص عن سلوكها .. وتبدو له غابات وادغال يرجع اليه منهـــا صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ، ولابد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالى موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها ، والموت الشريف أقصـــاها وأعلاها .. فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقبيه ، ويرتد الى أسوأ أحواله ويرتع فى مراتع أمثاله

ان من أحياه الله الحياة الانسانية ، كلما هاجمتـــه

المصاعب لا يزداد الا حرصا على قهرها ، كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام الا حدة فى الجدال ، واصرار على اقناع المخاصم .. وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر ، وهو يعانى فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان فى ابراز مزايا الانسان

ان صاعد الجبل ربما يجد شيئا من التعب ويخشى أن تفترسه الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القمة ، ويعتصم بمكانه من الرفعة ، وتقصر عنه يد المتناول .. أما من اخلد الى السفح فحظه من الحياة خوف لا ينقطع ، واشفاق لا يزول ، كل لحظة تهدده بالسقوط فى صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل . مات من الناس كثير فى طلب العلا ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن ألفوا الخمول ، ورضوا بالحياة الحيوانية .. هذه أحاديث الحق ، ونفثات الروح الزكية ، تبعث من ايده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد ، فاما وصل واما مات كما يموت الكرام

لم تنل امة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بنى البشر ، سواء فى العلوم والمعارف ، والاداب والفضائل ، او القوانين والنواميس العادلة ، او العسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلكوا تلك المسالك الوعرة .. فبلغوا بأممهم أقصى ما بلغت بهم هممهم ، مع الاعتماد على العناية الازلية فى جميع سيرهم

ماذا يريد الفانون فى خدمة الامم أو النوع الانسانى ، والمنفقون لحياتهم فى اعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الامة أو الملة أو يشاركهم فى النوع ..

أليس قد جعل الله لكل شيء سببا ، أليس من سنة الله في عباده ألا تتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته ، وبعد اليقين او راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟

فان كان الاجل يذهب فى مساواة الآلام الروحية ، والعمر ينفد فى مناهدة (١) الاوصاب البدنية ، فماذا يقصدون من اعمالهم ، وان كان يوجد فى ابناء جلدتهم ، وسوى ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، وممانعتهم فى مقاصدهم ، وصدهم عن السعى فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة . . فما الذى يبتغون من جدهم وكدهم ؟ . لا لذة تجتنى ، ولا ألم يتقى . . فما الباعث القوى الذى غلب الاهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

حب المحمدة

نعم أودع الله فى الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع ، وهو :
(حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق)

أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من اى وجه حقا كان أو باطلا ، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الاخيار ، مع تبطن سرائر الاسرار ، فان هذا من أسوأ الخلال ، وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة هى الغذاء الروحانى ، والمقوم النفسانى . . وكلما قرب الشخص من الكمال الانسانى تهاون بالشهوات أو ازدرى باللذائذ الحسية ، وقوى فيه الميل

---

(١) مناهدة : ناهده أى ناهضه ورافعه ، والمعنى مدافعة المتاعب

الى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال

تأمل ، ان الفاضل يرى له فى هذا العالم أجلين أقصرهما الاجل المحدود من يوم ولادته الى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عندما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانسانى ، وغاية هذا الاجل عندما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ

فللروح الفاضلة وجودان : وجود فى بدنها الخاص ، ووجود فى جميع الابدان ، وهو مايكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل .. ولا ريب أن هذا الاجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذاك الاجل القصير ، وذاك الوجود الكز (١) وحقيق بالانسان ان يبيع ما هو أدنى بالذى هو خير

يطول بى الكلام فاقصر ، ان الله الذى وهب كل نوع ما به كماله ، وضع فى جبلة البشر ميلا الى الحمد ، والهمهم تأدية حقه لمستحقه ، ألم تر انطلاق الالسن فى كل أمة بالثناء على كل من كان سببا لها فى مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال فى فضيلة ، أو تقدم فى علم أو صنعة ، ويرسمونه فى الالواح ، ويسجلون مديحه فى بطون التواريخ ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكرا حميدا يتناقله الابناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا وينقرض العالم

تقدير العاملين

اذا جحدت الامة حق العامل لها ، أو قصرت فى

---

(١) الكز : اليابس والمنقبض ، والمراد هنا مالا خير فيه

استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقل السعى فى المصالح العامة ، وانقبضت الايدى عن تعاطيها ، فهبطت شئون الامة ، فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفا ، ولم تنكر منكرا ، سلبت آحادها الميل الى المعالى والكمالات ، وكان هذا اشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين .. ظلم الظالم لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت ، اذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشترى هذه المكافأة بتخليصها وانقاذها . . واما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو اشبه علة بالهرم ، لا عقبى له الا الموت والفناء

كيف لا يكون المديح الحق نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى اليها الاعلون من بنى الانسان ، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) ، وكيف لا يكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الاعمال الصالحات ، كما سوغ لنبيه ذلك فى قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »

قلب طرفك فى تواريخ الامم أقصاها وأدناها ، تجد برهانا قاطعا على أن الامة متى بخست قيم الاعمال العالية ، وازدرى فيها شأن الفضيلة ، فقدت مابه قوامها ، وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس ، ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون .. فئة ترى الشرف فى تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الالبسة وأنواعها ، والتحلى بحلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالاحجار الكريمة ، كالماس والياقوت والزمرد ونحوها

وفئة تتخيل الشرف فى الالقاب والرتب ، كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالاول من الصنف الفلانى ، والثانى من الدرجة الفلانية ، حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرا ، ويرفع بناء ، ويزخرف بيتا ، ويقيم له حراسا من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك انه نال مجدا ابديا وفخارا سرمديا ، وصح لحاله ان يعنون بعنوان الشرف

وتجد الاخر يذهب فى الكسب أشنع مما يذهب الاول

ليكتسى برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلى ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها ، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه .. ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره ، بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبا من تلك الالقاب ، أو يحصل بها وساما أو يستفيد وشاحا .. وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وان افضت الى خراب بلاده ، أو تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده انه بلغ الذروة من معنى الشرف

أوهام لا حقائق

نحن نرى هذه الاوهام قائمة مقام الحقائق فى اذهان كثير من الناس ، ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب فى وهمهم .. ماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره ، وولدانه وحوره ، لايحس من أنه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التى هى أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئا من الكمال ، وأن جميع ما حصله أجنبى عنه ، وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء فى تحصيله .. الا يرى أن كثيرا ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم .. فان لم تكن على جانب من الكمال الانسانى ، انخرطت فى سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم فى القلوب منزلة ولا فى النفوس مكانة

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلا بنفسه ، ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال .. ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ، والا يجد من

سره عند المفاخرة أنه يجول مع الفانيات وربات الخدور ، في ميدان واحد

ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته ، على حال تجل ، أو كمال يبجل .. أليس يشعر أنه لو سلب الوسام ، أو نزع عنه الوشاح ، يعود الى منزلته من الاحتقار ، فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به .. ألا تكون هذه الكرامة عارضا سريع الزوال ، بل رسما ظاهرا لا يمس بواطن القلوب ؟!

حقائق لا أوهام

نعم لهذه الالقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر ، اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلا عليه أو مشيرا اليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشرى ، وكان الوسام أو اللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما احترم

انظر وتدبر ولا تخطىء فما أنت من الصواب ببعيد .. أن عثمان الغازى الذى لقبه أعداؤه « بأسد بلاونة » نال رتبة ومنح لقبا ، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته ، وجاهد في اعلاء كلمة دينه ، بما شهد له الاعداء والاصدقاء ، وأن بعض الامراء في ديار اسلامية لقبوا بألقاب شريفة من دولة كدولة الانجليز جزاء لهم على ماتقدموا أمام جيوش اعدائهم ، لافتتاح بلادهم ، حتى مكنوا الانجليز من ديارهم ، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في ايجاد الوسائل لخروجهم منها .. اين موقع

النيشان من صدر عثمان باشا الفازى من موقعه على صدور أولئك المخدوعين ، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذى جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه

ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم .. الا يعلمون ان الثياب المعلمة بالدم ، الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهج ، هى التى حفظت للابسها ذكرا حسنا لا ينقطع ، وأثرا مجيدا لا يمحى .. ان الذين ضرجوا بدمائهم فى طلب المجد للهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الاصوات ، واجمعت على فضلهم خواطر القلوب . الم يصل اليهم ان الذين قضوا نحبهم فى غيابات الجب ، وانتهت حياتهم فى ظلمات السجن ، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود هم الذين ذكرهم الى شرف الشمس الاعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الاسماء . أظن أن الذين كانوا فى الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم فى حياتهم شأن ، الا ما هو محصور فى دوائر بيوتهم . ولا يختلف عنهم اولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج .. ذهبوا وذهبت معهم اكسيتهم ، فارتدوا من حيث اتوا لا يعلم متى جاءوا الى الدنيا ، ومتى انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحدا يذكر بين بنى البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ، نعم يقولون علم وعمل ، واعطى وبذل ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ، واباد وابقى ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التى لها اثر ثابت .. فاذا ذكر الاسكندر الاكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر اولا ..

اى ابله يطلب سيرة نابوليون الاول فى آثار قصر كان يسكنه ، او فى خرق ثياب كان يلبسها ؟ .. وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا ؟ .. أو كان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصى

خدع قوم بالاحلام ، وغرتهم الاوهام ، ففرطوا فى شئون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التى لا مسمى لها .. وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم انهم رقوا ملكانة من الشرف

فلو انهم اصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر افئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا انهم فى اخس المنازل وابعد المزاجر ، وادركوا خطأهم فى معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب فى طلبه .. ولو احسوا بما رزئت به اوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذراريهم ، لطرحوا الوشاحات ، ونبذوا الوسامات ، ولبسوا اثواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقى

الشرف والشريف

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر .. وليس لذى شاكلة انسانية ان يرتاب فى فهمها ، الا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة

الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالانظار ، ويوجه اليه الخواطر والافكار ، وجمال يروق حسنه فى البصائر والابصار ، ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن فى امته او بنى ملته ، أو فى النوع الانسانى عامة

كانقاذ من تهلكة ، او كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، او تذكير بمجد سبق او انهاض من عشـــرة ، او ايقاظ من غفلة ، او ارشاد لخير يعم ، او تحذير من شر يغم ، او تهذيب اخلاق ، ، او تثقيف عقول ، او جمع كلمة وتجديد رابطة ، أو اعادة قوة وانتشال من ضعف ، أو ايقاد حمية

من اتى عملا من الاعمال له اثر من هذه الآثار فهـــو الشريف ، وان كان يسكن الخصـــاص والاكواخ ، ويلبس الاسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب الفقر ، ويتوسد نشز الارض ، ويضرب فى كل واد ، ويتردد بـين الربى والوهاد .. هذا له حلية من عمله ، وزينـــة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدى اليـه ضالة الالباب ، وتائهة الافئدة .. تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصـل عنه .. له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولايكاد يستر حتى يبصر .. اليه يصـــعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يرفعه الى اعلى عليين ، حياة طيبة فى القلوب وعزة مشرقة فى جبهة الزمان « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

نعم قد ينبعث عليه من ارباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق فى أنظارهم أزهار أعماله ، ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما الفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التى عدوهـــا شرفا ، وحسبوها مجدا ، وقد بينـــاها كما كشفتهـا

الشرائع وآراء العقلاء .. انما مثلهم مثل الجعل(١) ينفر من رائحة الورد ، ويألف روائح القذر

لا يبعد ان يسخر بالعامل الفاضل اناس لاخلاق لهم ، او يقصده بالاضرار من لا ذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزأون ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان فى هذا العمى .. بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية ان يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها ، ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة ، وحافظ الثمرة ، وان كان دونهم فى تلك الزخارف التى لاقيمة لها فى نظر العاقل .. ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندما على الخطيئة ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم

هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حيا ، فاذا غابت شمسه عن افق هذا العالم لم تحجب اشعة ضيائه التى فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات

نعم يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم فى الافئدة ، شاهد على الالسنة ، حى يرزق عند ربه ، ونعمة الحياة حياته ، ولمثل هذا فليعمل العاملون



(١) الجعل بضم الجيم وفتح العين نوع من الخنافس ، وقد يطلق على الرجل الاسود الذميم أو اللجوج

الجبن

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة، قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم »

« قرآن كريم »

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض افراد الانسان من أعمال تحير الالباب ، وتدهش الافكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول ، فيعدونها معجزات ، وان لم تكن فى أزمنة النبوات .. ويحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من تحدى الرسالات . وقد ينسبها الغفل الى حـــركات الافلاك ، وأرواح الكواكب ، وموافقة الطوالع .. ومن القاصرين من يظنها من أحكام المصادفات ، وقذفات الاتفاق، عجزا عن ادراك الاسباب ، وفهم الصواب . وأما من آتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل ، وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهرا لعجائب الامور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية .. وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثـــواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

علة العلل

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح ، رأى فى تشابه القوى الانسانية ، وتماثل الفطرة البشرية ، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك .. وأرشده الفكر السليم الى أن فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ، ومنحه مايكون به مصدرا لفضائل الاعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها الا للنظر الدقيق . هنا وقفة الحـــيرة .. استعداد فطرى للكمال فى خلقه الانسان ، ميل كلى فى كل فرد لان ينفرد بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى ، لا يخيب طالبا ، ولا يرد سائلا ، اذا صدق القاصد فى قصده ، وأخلص السالك فى جده .. فما العلة فى اخلاد الجمهور الاعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازل ، وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزى ، خصوصا ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثوابا على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقابا على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الاكبر ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح؟ .. ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟ .. اذا ردت المسببات الى اسبابها ، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها ، وجدنا لهذا علة هى أم العلل ، ومنشـــأ يقرن به كل خلل ، هو « الجبن »

أضرار الجبن

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها .. هو الذى قطع روابط الامم فحل نظامها .. هـــو الذى أوهن

عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ٠٠ هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ٠٠ يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ٠٠ يوطن النفس على تلقى الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ، ويوطىء الظهور الجاشية لاحمال من المصاعب ، اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدام

الجبن يلبس النفس عارا عند كل روح زكية وهمة عالية ٠٠

من يهن يسهل الهوان عليه
مالجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة ، ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الا عين تبصر الاعداء ، ولا ترى الاحباء ٠٠ ونفس لا يصعد الا بالصعداء ، واحساس لا يلم به الا ألم اللأواء ٠ هذه حياته : أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء ٠ وهو يظن انه أدرك البغية ، وحصل المنيه (١)

ماهو الجبن ؟

ما هو الجبن ؟ ٠٠ انخذال فى النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها ، وهو مرض من الامراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية ٠٠ وله أسباب كثيرة ، لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت

الموت مآل كل حى ، ومصير كل ذى روح ٠٠ ليس للموت وقت يعرف ، ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين

---

(١) المنية : بضم الياء المطلوب ، والمنية بضم الميم الامنية والامل

النشأة وارذل العمر ينتظر فى كل لحظــة ولا يعامه الا مقدر الآجال جل شأنه « .وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم ، والذهول عمـــا أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لاجله ·· نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله ألله واقيا للحياة ــ وهو الشـــجاعة والاقدام ــ سببا فى الفناء ، يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفا ، ويتوهم أن فى كل خطوة خطرا ، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف انما هى أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين ·· غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتال به نفوس الناس ، وتلتهم به الامم والشعوب ·· هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء الاوهو مبدأه ، ولا فساد الا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه ·· ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ، ومنكس الاعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة

ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ، أليس هو الجبن ؟

ماذا يبسط أيدى الادنياء لدنيئة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل اعليك ان تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان .. الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة انسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجرا حسنا ومقاما كريما

واجب المسلمين

ينبغى أن يكون ابناء الملة الاسلامية ـ بمتقضى أصول دينهم ـ أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة « الجبن » فانها اشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وانهم لا يبتغون الا رضاه

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب » ..

الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال والارواح فى اعلاء كلمته أوسمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهى بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الايدى ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى اعلاء كلمة الحق، والعدل الالهى .. بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده ، **لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن فى قلب واحد .. كيف يمكن هذا**

وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام ، وان عماده الاخـــلاص لله والتخلي عن جميع ما ســـواه لاستحصال رضاه

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه ٠٠ المؤمن من لا ينتظر بنفسه الى احدى الحسنيين ، اما أن يعيش سيدا عزيزا ، واما أن يموت مترب سعيدا ، وتصعد روحه الى أعلى عليين ،ويلتحق بالاكرمين والملائكة المقربين

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه ، وهو ليس من الايمان فى شيء ٠٠ كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الايمان ، لهذا نؤمل من ورثة الانبياء «العلماء» أن يصدعوا بالحق ، ويذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته ، والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك

وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة « الامــر بالمعروف والنهى عن المنكر » زمنا قليلا ، ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى أنفس المؤمنين ، رأينا لذلك أثرا فى هـــذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر

فالمؤمنون بما ورثوا عن أســـلافهم ، وبما تمكن فى أفئدتهم ، من آثار العقائد لا يحتاجون الا لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير ، فينهضوا نهضة الاســود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا ، وينالوا عند الله مقاما محمودا

الانتقاد

((ما وعظك مثل لائم ، وما قومك مثل مقاوم))

حكمة مأثورة

الانتقاد نفثة من الروح الالهى فى صدور البشر ، تظهر فى مناطقهم ســـوقا للناقص الى الكمال ، وتنبيها بدفع الكامل من موقفه الى طلب الغاية مما يليق به

الانتقاد صائح من اللائمة تتنفس عنه القلوب ، وتنفتق به الالسنة ، لتقريع الناقصين فى اهمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم :

جعل الله للحياة قواما   وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلى سلطان وجوده العقل ، فان صح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم أمره . ان الله لم يهمل العقل من ناصرين عــزيزين حاذقين : أحدهما له ، والثانى له وعليه :

أما الاول ، فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للامثل

وأما الثانى ، فما ألزمه الخالق من الانقبـــاض عن الدون ، والنفور عن منازل الهوان

فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعود ، الا أدناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم .. وكل منزلة بعد الادنى دنو من الكمال ، غير أن ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية .. فليس يصل منتجع الكمال الى مقام الا ويرمى بطرفه الى أبعد منه ، ومساقط العجز ، كثيرة الالام ، تستوكرها أفاعى الهموم ،وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل .. كلما التفت اليه راعه هول منظرها ، فتحفز عنها الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفرف السعادة الاعلى . ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر خداعة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدرى أن بها هلكتها ،وفيها منيتها .. فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور ، ويغبى عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع فى يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له صائده .. فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، واعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيبا لا يهمل ، وكائنا لا ينام ، يزعج الواقف ، ويمسك الواجف .. ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : أن ماتطلب أمامك .. ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، الا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الخدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك، والا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ..

ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو « الانتقاد »

ينبث فى الفؤاد ، ثم يتجلى فى البيان ، على اللسان ، فيفقه العاملون ، ولا يهمله العاملون « فطرة الله التى فطر الناس عليها »

ألوان من الناقدين

أودع فى كل ناطق بصرا بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها .. ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان ابصار بعدد الناظرين اليه ، العارفين بما عليه عمله .. كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساما : فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة .. ومن هذا القسم المفرطون فى الوفاء من الاصدقاء .. ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيون يروون المساوىء ، ويسكتون عن الحسنات .. وفيهم الحساد ، وأهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نبله ، ويلزمون النقص ويله .. وهؤلاء فى أعلى المنازل ، وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله

ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويهرفون بما لا يعلمون ، وهم فى أخس المنازل ، وليس فى الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له أو عليه . وماجعل الله بشرا يسلم ويحرم من بعضها ، فكأنها التى قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهى الاعلى ينادى الكاملين أن يستزيدوا ، والناقصين أن يستجيدوا

هل لجاحد ان يصغر قدر الحسيب على أى وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل ان ينكر حكمة الله فى ايجاده ؟ او لواهم أن يذهب الى أنه ليس من نظام الفطرة ؟ ٠٠ وانى أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وأنت غربى مثلا ، ان ملك الصين غدر بأحد أوليائه ، أو استصفى أموال رعيته ، أو كلفهم مالا يطيقون احتماله ، أو اهمل فى مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها اعداؤها أو جبن عن حادث الم به وكان يستطيع دفعه .. الا ترى من قلبك امتعاضا عليه ، ومن نفسك ازدراء بعمله ، وفى لسانك لهجة بلومه ، وهو منك على بعد المشرقين ؟!.. ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته حقوق بلاده وحفظه لذمامه ، وجدت اليه من فؤادك ميلا ، ومن رأيك لعمله استحسانا ، ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت احتكمت معك الى مذاهب ميلك عندما تنظر فى تاريخ من سبقك فان بدا لك التظاهر فضلا فى سيرة ، أو خزية فى جريرة ، ألست تجد من نفسك انبساطا الى الفضائل ، وانقباضا عن المخازى ، ثم انطلاقا الى نشر ما وجدت ، ثم رأيت عضدا منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فأنت تنصره ، وتغيظا على الاخر كأنما يدعوك لعونه فأنت تخذله

لا جرم أن النقد حافز طبيعى يوقظ السابقين واللاحقين ، وكل نقد حشوه لوم حتى ما كان منه مقصورا على بث المحمدة والاقرار بالفضيلة ، فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير ، وازعاج للمحمود ، وزجر له عن ملابسة الاعياء .. فكأنى وصاحب الثناء يقول : الا أيها القاعدون انهضوا ٠٠ ويا أيها المبرزون أركضوا ٠ واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، فى السنة الخلق ، لا يصم عن اندائها الا أصم ، ولايغفى عن أنذارها الا غبى

على ذلك قام النظام الانسانى ، فلولا الانتقاد ما شب عالم عن نشأته ، ولا امتد ملك عن منبته .. أترى لو اغفل العلماء نقد الآراء واهملوا البحث فى وجوه المزاعم أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم المحق من المبطل ؟ .. أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر فى قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقارع النقد ، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، او تعظم قوة ؟ .. كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلا ، والنظام خللا .. تلك سنة الله فى الاولين ، وهى كذلك فى الاخرين

جزى الله الاعداء كل خير !

فالمغبوط فى حالة من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين .. ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، فيما يملك الحازمون ، أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبههم اذا غفلوا ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا . وكما توجد نفائس الارشـاد عند الاولياء ، توجد عند الاعداء .. بل هى عند هؤلاء أجود ، فانهم يرفعون للمعايب اعلاما بينة حتى لا تعود فيها شبهة نظر . وأحجى بالعقل ألا يمج من الانتقاد شيئا حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ووجوم ذوى السخيمة — على مخالفتها الحقيقة — فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة الحصون تقام فى الثغور زمن السلم ، حذرا مما عساه يطرقها عن عدوان المغيرين عليها

وأقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول « قيل فيّ

ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا » فهي وان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتا كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقا .. فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره ، فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس .. هذا وقد كفر قوم بنعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثا « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم في صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم أستارا ، وخيل لهم الجهل أن ضممهم عنه ، يقيهم منه ، وأن قبوعهم في أهب الغفلة (٢) يدرأ عنهم سهام اللوائم ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا .. فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده .. ومن ثم تجدهم في عمى عن شئونهم وتخبط في اعمالهم ، قد لزموا خطة من الهوان لو أبصر عقلهم بعض اطرافها لماتوا جزعا من هول ما فيها .. كل ذلك وسيوف الالسن وأسنة الاقلام لا تألو في تقريعهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من أعماق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لانفسكم لو كنتم تعلمون .. وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا بل لا يشعرون ..

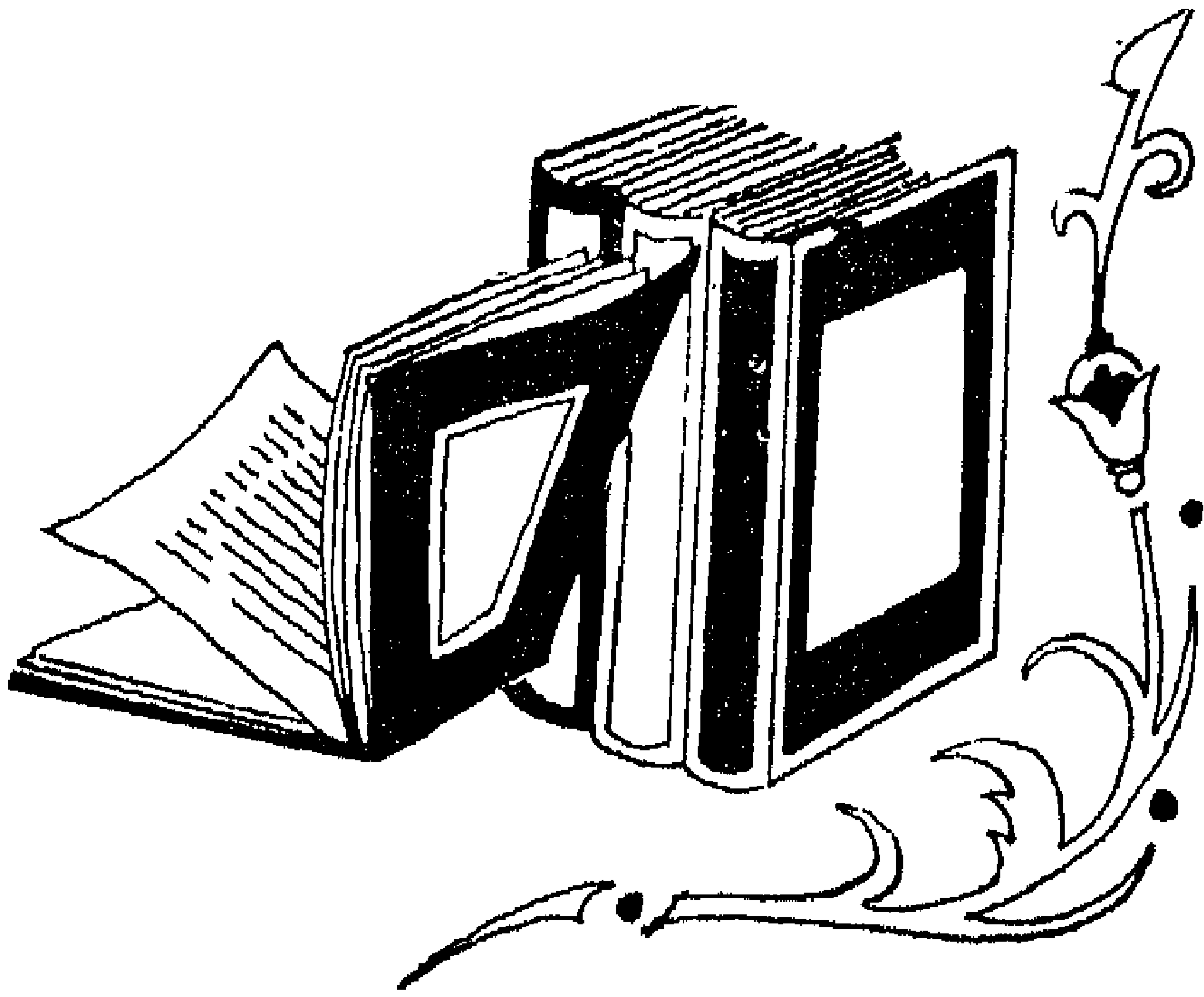
أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ،

---

(١) الصماليخ : جمع صملاخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

(٢) الاهب : بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذى لم يدبغ

فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم أموات الارواح ، مضطربو الاشباح ولاتنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم الله فى حياة اخرى يخضعون فيها للاحكام الكونية ، ويعملون على السنن الالهية .. فلينتظروا أنا معهم من المنتظرين



من هو خائن الوطن؟

نقلت الجرائد الانجليزية نبأ ورد الى جريدة الستندارد من مدينـــــة دونقلا ، ثم كررت ذكره وثبتت مفـــاده أياما متواليـــات ، ومحصله (١) : ان الالسن تلهج فى مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانجليزية بقدوم جيش محمد أحمد (٢) ، والحديث مستفيض فى جميع المعسكرات بانه زاحف اليهم بجيشين ، أحدهما يأتى من الصحراء ، والآخر على شطوط النيل ، وانهم لابد أن يلاقوا منه صـــدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها .. وقد اســـتولى بذلك الاضراب والتشويش على أفكار عساكر مدير دونقـــلا خوفا وفزعا . ولكن لما ايقنوا به واطمأنوا اليـــه من ان السلطان راض عن اعمال محمد احمد ، بل صـــدرت منه التنبيهات الى جميع المؤمنين فى تلك الاطـــراف

---

(١) هذا البحث من مقالات الامام وبحوثه فى جريدة «العروة الوثقى» التى اسسها مع السيد جمال الدين الافغانى فى باريس فى أوائل سنة ١٨٨٣ للدفاع عن الاسلام والمسلمين وبلاد المسلمين

(٢) هو الزعيم الدينى السودانى محمد أحمد المهدى من قبيلة الدناقلة ولد سنة ١٨٤٨ . وقد ظهـــر بدعوته سنة ١٨٨١ وانتشرت فى أرجاء السودان وانتصر على غوردن باشا وفتح الخرطوم ١٨٨٢ وتوفى فى ٢١ يونية ١٨٨٥ بحمى التيفوس وعمره ٣٧ عاما

بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وان يعتبروا الانجليز فى منزلة العدو الالد ويقاوموهم مقاومة الآيسين

كنا نعلم ان جميع المسلمين وسائر الوطنيين يرون من فروض دينهم السعى فى مكافحة سير الانجليز ، واقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقه والامكان ، قياما بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون فى هذا العمل الشريف الى امر سلطانى .. فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر من اقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته ، وتبيح الموت دونه بل توجبه فى مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذى عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقى من الارواح الشريرة الخبيثة التى تتجلى فى اشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصورى بنور الابصار ، وهى منابع الشر ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال . تلك ارواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الاخلاق ويذلون النفوس . المدافعة عن الوطن أمر طبيعى وفرض مماشى يساعد فى دعوة الطبيعة اليه الميل الى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم فى ادائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها فى مزايا التواريخ عندما يمر النظر اليها على تماثيل الخائنين الذين تجاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من الامن الابدى مسربلة بالخزى والعار السرمدى ... هكذا يعرف الشىء بضده

لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس ـ وكل ثمن تباع به

البلاد فهو بخس ـ بل خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما تستقر فى تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى اى وجه انقلب .. القادر على فكر يبديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن .. من لم يستطع عملا وأمكنه ان يرشد العامل وتهاون فى النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم الى الغد ، وتوانى فى تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة . وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الانبياء والمرسلين وممقوت فى نظر العالم أجمعين . ما اعظم جريمة الخيانة ... يأتى الزمان بطوله على كل شىء ، فيمحو اثره ويطمس وسمه الا وصمة الخيانة فلا تطويها الدهور ولا يخفيها تطاول العصور .. محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح اسماء الخائنين

لوث على وجه الزمان ودرن فى صفحة الامكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت الى ابد الابدين .. لايحيط القلم بوصف الخائن وما يبتغيه من الشنائع ، ولكن النفوس مهما تدانت فى الادراك تشعر بعظم جرمه

***

كنا على يقين ولا نزال عليه ... ان الذات الشاهانية (١) وهى الاب الاكبر لعموم المسلمين وهى الكافلة للشريعة المحافظة للدين هى أجدر الناس بالالتفات الى حركة الاعداء فى البلاد الاسلامية ، وهى لا تألو جهدا فى تعويق

---

(١) يعنى شاهنشاه الامبراطورية العثمانية الخليفة السلطان عبد الحميد الثانى فى ذلك الحين

سيرهم واحباط اعمالهم .. ولا يمكن ان يطمئن للسلطان قلب وهو يرى ان أمة عظيمة من أخلص الامم فى الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وأنه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الانجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية والمصرية بلغت كبرياء الانجليز الى حد لا يحتمل ، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور ، وتفيض بالغيظ القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر والجلد ..

فيا أيها المصريون ، هذه دياركم وأموالكم واعراضكم وعقائد دينكم واخلاقكم وشريعتكم ، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا ، زحف العدو اليكم تحت راية المحبة ، ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة ، من عسكرية ومالية وادارة وقضاء . ولم يبق لكم شيئا الا الحرمان من خدمة اوطانكم ، وأنتم أحق بها .. وطالما دافعتم عنها فى الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين . ماذا ترجون من مطاوعته ، وماذا تؤملون فى ارخاء العنان له ، وماذا تهابون فى معارضته والاخذ على يده .. أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رايتم انه افسد شئونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخير ، وافقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فاغلق أبواب الكسب فى وجوهكم ، وقصد الى التدخل فيما يختص بأمور دينكم ، — كالاوقاف — وعمد الى خرق سياجكم وازالة

قوتكم بطرد جنودكم ، وهذه أوائل اعماله ، فكيف يكون نهايتها .. فماذا تخشون منه ؟

هل تخشون ان تنقص اموالكم ، وثمرات كسبكم أذا أديتم حقوق وطنكم ، وحاربتم عدوكم ؟ . ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر .. انتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات ، وان زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خسارا وأوسعكم خرابا ودمارا ، ان رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وان شئتم فانظروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم فى تواريخ من سبقكم

هل تخشون اذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطر على حياتكم ؟ لعل هذا الوهم بخيال طائفة منكم يعرض لكم . ولكن فلتعلموا أن عدوكم فى هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة ... الدول متألبة عليه ، يترقب منها فى كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه ، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية .. انه مسرع فى سيره ، منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قرارا مكينا ، ومقرا أمينا ، ولا يخفى عليكم أن المسرع فى جريه يكبه على وجهه عثرة فى مدرة(١)، فلو ظهرت منكم فى هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة ، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضا عن سيره فيكم ، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماءه سراب ، وسحابه جهام (٢) ، وسيفه كهام ، واوقفتم سيره واستعليتم

---

(١) المدرة الحصاة الصغيرة

(٢) الجهام : السحاب الخفيف الذى لا ماء فيه والكهام السيف غير القاطع

بقوتكم على ضعفه ، واقمتم للدول حجة قوية فى كبحه ورد جماحه ، والزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة ، ونزع قوة العمل من يد استبداده ، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أورباكافة. اما لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره ، ويقوى على امره ، ويدوخ السودان ، ويحيط بجيوشه أعالى البلاد المصرية « لا أناله الله ذلك » صعب بعد هذا تعريفه بقدره وايقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول فى معارضته ، فان أقوم حجة للدول عليه هى عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل فى مصر ؛ فلو تمكن عدوكم بسكوتكم من اظهار قدرته واقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم ، واصبحت دماؤكم واموالكم وجميع شئون حياتكم فى قبضة جوره . . !

فى امكانكم الآن ان تضروا بعدوكم وليس فى امكانه أن يضر بكم . فاذا مضى زمن انعكست القضية واصبحتم فى عجز عن مقاومته ، واصبح فى وسعه اذلالكم

أن كنتم تخافون الموت أو الاذلال ، فهل هما الآن على بعد منكم ؟ أليس يؤخذ منكم الابرياء بالشبهة الباطلة ، ويهانون ويذلون ، وكثير منهم يقتلون

ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى ابدانكم ، ويفعل باخوانكم فى ديار غير دياركم ، ثم لا يبقى على احد منكم .. فأنتم أصحاب امركم ، وهذا قصده اليكم .. وفى امكانكم ان تستعينوا الله فى التحصن من خطر آجل ، بدون ضرر عاجل .. فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فأنتم ساقطون ، فيما منه تخافون

ياقوم يؤثر فى كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب

حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لابيه وأمه .. تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالاباء ، لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة الدنيا عمن سواكم . الستم تتشابهون فى الخلقة مع أعدائكم ، الستم تمتازون عنهم بالايمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ، الستم تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ، الستم تدعون انكم أشرف عنصرا وأكرم جوهرا ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم .. ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ، انهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون

لأى شىء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له ولاى سبب لا تقدمون بشىء من شهامتكم فى حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا لشىء عجاب ، هل نذكركم بقول شاعركم (١) :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم

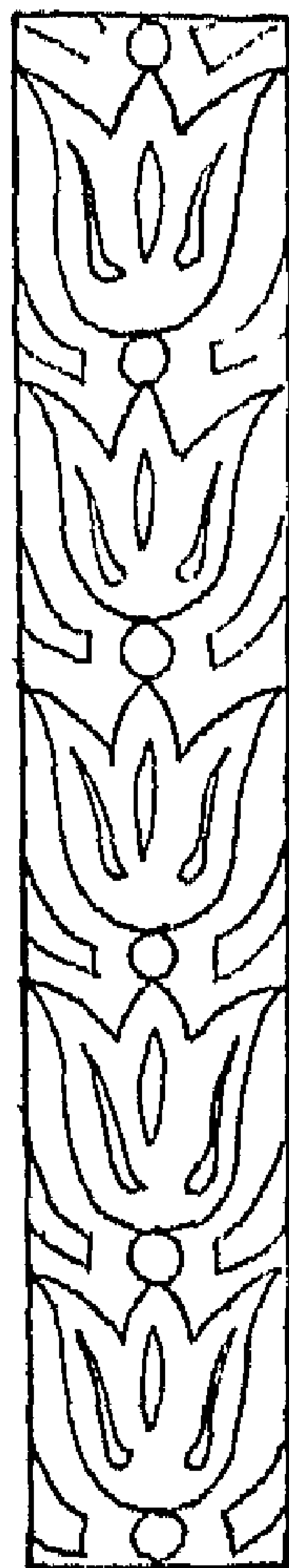
ليس هذا مقام التذكير ، وليس مكان المباراة فى المجد والمسابقة الى معالى الامور .. انما الكلام الان فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضرورات المعيشة ، فان لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر الذى رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدركم أواخره ... استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة

لا يزال دينكم يترقب منكم حمية وغيرة لدفع الغائلة عنه

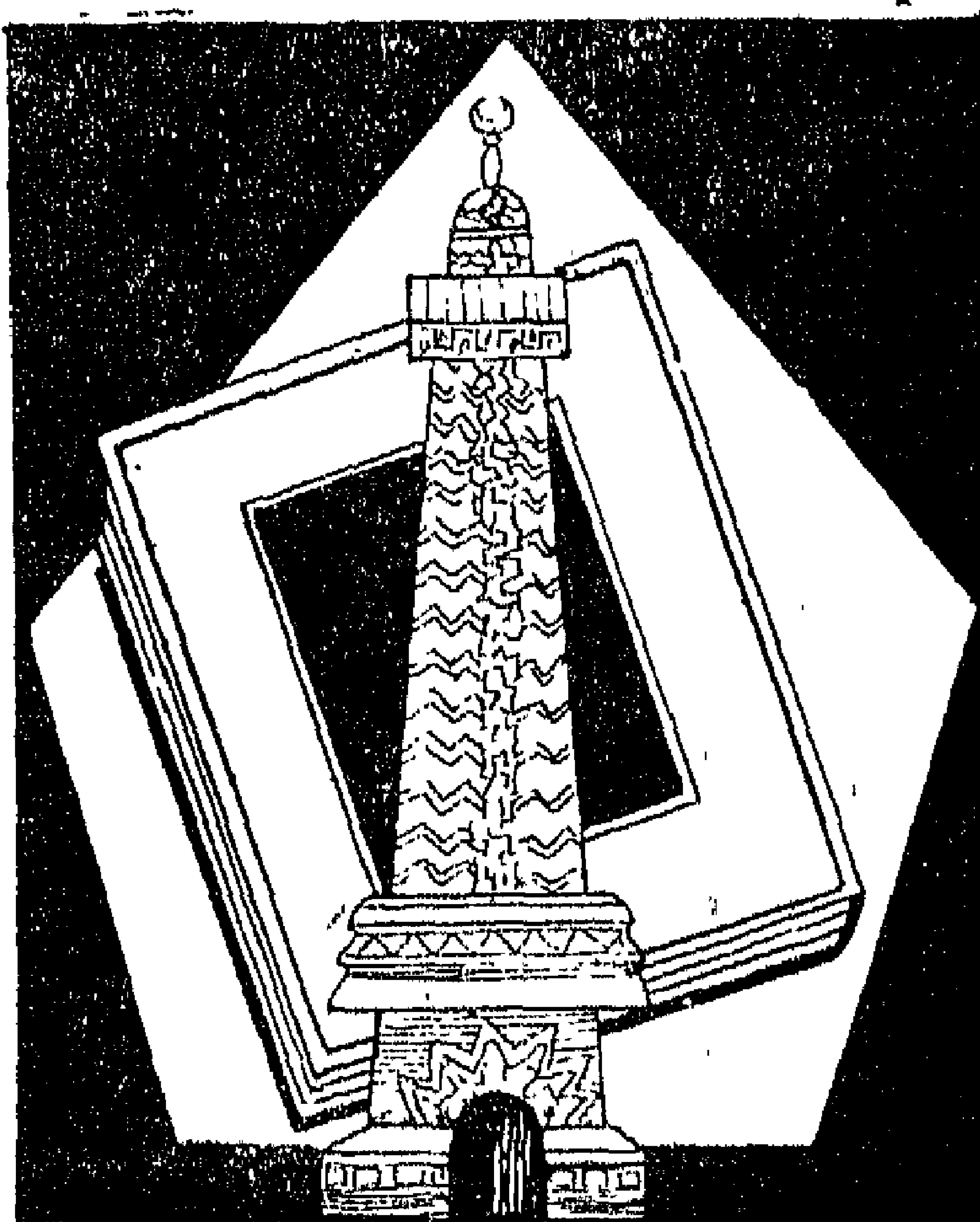
---

(١) هو ابو الطيب المتنبى والبيت من قصيدة هجابها ابراهيم بن كيغلغ سنة ٣٣٠ هـ وهو على مدينة طرابلس بلبنان . وكان رجلا جاهلا عرض للمتنبى فى طريقه الى دمشق فلم يلحقه ، فنظم هذه القصيدة . وهى من عيون قصائده لما احتوته من الحكم والمواعظ

الإسلام لماذا انتشر بسرعة؟







سرعة انتشار الإسلام

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة ، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك .. لكن ما يدهش عقل الناظر فى أحوال البشر أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من ادناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى (١) وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

١ ــ دعوته الى الحق

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقى من اعداء أنفسهم اشد ما يلقى حق من باطل : أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء ، واقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من عقبات لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة .. غير أن تلك الدماء كانت

---

(١) يقصد بالمحيط الغربى المحيط الاطلسى ، تخوم الصين

عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس اهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين .. « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وماجاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته .. فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الاباطيل ، والرشد فى ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزه وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره . ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزأوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر .. فغزاهم بنفسه ، وبعث اليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الائمة من صحابته ، طلبا للامن ، وابلاغا للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبتها وعددها

فظفروا منها بما هو معلوم ، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها ، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم واموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

٢ ـ مساعدة المغلوبين

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاية الى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر .. وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة . ولم يقنع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل على نشره ، ويقفون مبعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين .. بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا

٣ ـ العدالة الاجتماعية

رفع الاسلام ما ثقل من الاتوات ، ورد الاموال المسلوبة الى اربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد الا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدى قاض شرعى ، باقرار من المسلم الجديد

انه أسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا (١) ..

ووصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية . وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة . ولذلك امر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (٢)

٤ ـ الحرية فى العمل والدين

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى اعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا

اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من امر المسلمين فى معاملتهم لمن اظلوهم بسيوفهم .. لم يفعلوا شيئا سوى انهم حملوا الى اولئك الاقوام كتاب الله وشريعته والقوا بذلك بين ايديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل اداؤه على من ضربت عليه .. فما الذى اقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام ، واقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى

---

(١) لقد كان هذا فى الدولة العثمانية والاقطار الخاضعة لسيادتها كمصر . وهذا لا تحتمه الشريعة الاسلامية

(٢) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه : « ان محمد (ص) بعث هاديا ولم يبعث جابيا » ، ويا له من جواب ممن اتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . هامش « م.د.ر »

دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم ؟ . .

٥ ـ تغلبه على رذائل الاخلاق

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة .. حقق لقراء الكتب الالهية السابقة ان ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء اقوامها من بعدها ؛ فلم يجد اهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

٦ ـ رفعته للنفوس البشرية

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفاورحمة ، وخيرا ونعمة ، لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عملا تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ، ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى

حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزت شــــهوة او غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة، وكملت الاوبة

تبدت لهم بساطة الدين عندما قرأوا القرآن الكريم ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه ، فتراموا اليه خفافا من ثقل ماكانوا عليه

٧ ـ الغاؤه الامتيازات

كانت الامم تطلب عقلا فى دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها .. فما الذى يحجم بها عن المسارعه الى طلبتها ، والمبادرة الى رغيبتها ؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتيـــاز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها الا يقام وزن لشئون الادنين متى حالت دونها شهوات الاعلين .. فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويســـوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطــــر كبير .. وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا ، فلما عقد العزيمة على اخذه مع دفع اضعاف قيمته ، رفعت الشكوى الى الخليفة فورد امره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ماكان منه (١) .. عدل يسمح ليهودى ان يخاصم مثل عـــلى

(١) كان فاتح مصر عمرو بن العاص يبنى مسجده المشهور بالقـاهرة ، وكان لسيدة قبطية منزل صـــغير بجوار البناء ، فأراد شراءه ليوسع جانبا من المســـجد ، فأبت فأراد الاستيلاء عليه كرها ، فشــكته الى عمر بن الخطاب ، فبعث اليه يلومه ويأمره بالكف عنها

ابن ابى طالب أمام القاضى وهو من تعلم من هو ، ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما

٨ ـ المحبة روح الاسلام

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا اعداءه ، ورد اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره واولياءه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام ، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد ان يحرجهم الجار .. فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما الفته من اللين والمياسره ، وعلى الرغم من غفلة المسلمين عن الاسلام ، وخذلانهم له ، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصا فى الصين وفى افريقيا .. ولم يخل زمن من ظهور جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ، ولا داعى امامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه

ومن هذا تعلم ان سرعة انتشار الدين الاسلامى ، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ، ويسر احكامه ، وعدالة شريعته . وبالجملة لان فطرة البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو امس بمصالحها ، واقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة .. ودين هذا شأنه

يجد الى القلوب منفذا ، والى العقول سـبيلا ، وبدون حاجة الى دعاة ينفقون الامـــوال الكثيرة ، والاوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لجذب النفوس اليه

هـذا كان حال الاسـلام فى بساطته الاولى ، وطهارته التى انشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض اطراف الارض الى اليوم



لم ينتشر بالسيف

قال من لم يفهم ما قدمناه او لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلـــوب العالم بهـــذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضـــــون القرآن عـــلى المغلوب .. فان لم يقبله ، فصل السيف بينه وبين حياته ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! ..

ان ما قدمناه من معـاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته ، وان وقع اختلاف فى تفصيله .. وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن انفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الفتح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يـكن من المسلمين مع غيرهم الا انهم جاوروهم واجاروهـم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، وكانت الحـــاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا (١) ، فقد عمل فى الرقاب

---

(١) طالما عمل الافرنج على نشر النصرانية بالاكراه ، وقهر القـوة العسكرية ، قبل الاسلام وبعده ، كما تدل على ذلك مذابح التاريخ فى أوربا وبلاد الشرق

للاكراه على الدين والالزام به .. مهددا كل امة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوة اسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجيء الأسلام سبعة اجيال او يزيد .. فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الافئدة ،وفصاحة تتدفق عن الالسنة ، واموال تخلب ألباب المستضعفين ، ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى امر هذا الدين : سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية .. ابعد بلاد الله عن المدنية ـ فاض حتى شملها فجمع شملها ، فأحياها حياة شعبية دينية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخراهل السماء فى رفعتها ، وتعلو اهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديرهعلى لينه ماكان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق .. لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم الى ان يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعا الى ارض جدبة ليحيى ميتتها ، وينفع غلتها ، وينمى الخصب فيها ، افينقص من قدره ان اتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟ ..

سطع الاسلام على الديار التى بلغها اهله ، فلم يكن بين اهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله

ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنـــا وانحرفوا عن طريق الدين ازمانا ، فوقف وقفة القائد خذله الانصار ، وكاد يتزحزح الى ما وراءه .. لكن الله بالغ امره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، وكانوا وثنيين .. جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث اعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا .. وحملوه الى أقوامهم ، فعمهم منه ما عم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

تاثير الحضارة الاسلامية

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة (١) .. لم يبق ملك من ملوكه ، ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها .. واستمرت المنازعات والحروب بين الغربيين والشرقيين اكثر من مائتى (٢) سنة ، توافرت فيها للغربيين من الغيرة والحماية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند واعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فانتصر الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها

ولم جاءوا وبما رجعوا ؟ .. ظفر رؤساء الدين فى

---

(١) راجع رد الاستاذ الامام فى مقالين على مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية » الذى نشرته دار الهلال . ففيه بيان واف وردود مفصلة عن كثير من التهم التى وجهها اعداء الاسلام اليه

(٢) يشير الامام هنا الى الحروب الصليبية التى اثارتها أوربا منذ ثمانية قرون ، وهزمت فى كثير من معاركها وكان النصر فى النهاية للعرب والاسلام

الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لانفسهم الحـــق فى الاستيلاء عليه من البـــلاد الاسلامية .. جاء من الملوك والامراء ، وذوى الثروة ، وعلية الناس ، جم غفير ، وجاء من دونهم من الطبقات ما قـدروه بالملايين . استقر المقام بكثير من هؤلاء فى ارض المســـلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها .. تنظر فى احوال المجاورين ، وتلتقط من افكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت ان المبالغات التى اطاشت الاحلام ، وجسمت الآلام ، لـم تصب مستقـر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلما وشرعا مع كمال فى يقين ، وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الاداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من حروبها ، هذا الى ماكسبه (١) الرحالة من اطراف الممالك الى بلاد الاندلس .. بمخالطة حكمائها وادبائها .. ثم عــادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلــم تتزايد بين الغربيين .. ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين ، والاخذ عــلى ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهــم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى بساطته ، وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليل ، بل ذهب بعض طوائف الاصـــلاح فى العقائد (٢) الى ما يتفق مع

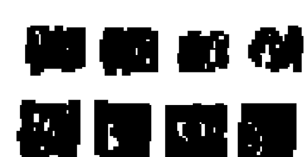
(١) يشير الى ما استفادته شعوب اوربا من الحضـــارة الاســـلامية وما نقلته من علوم العرب وفنونهم وفلســـفتهم مما لا يزال يدرس فى جامعات أوربا

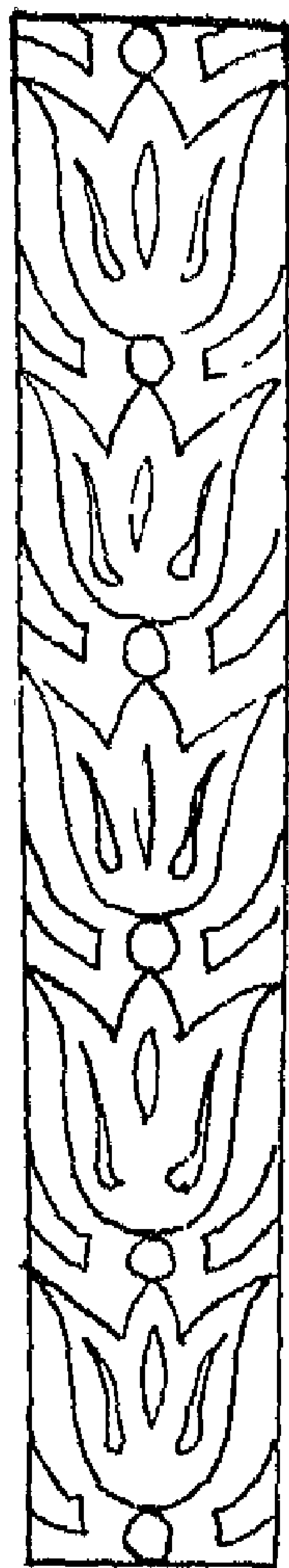
(٢) هم طائفة الموحدين واكثرهم من الانجليز والامريكان

عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير

ثم اخذت امم اوربا تنطلق من اسرها ، وتصلح من شئونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت اصول المدنية الحاضرة ، التى تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من اهل الازمان الغابرة

هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا .. ظن الرؤساء ان فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم .. فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه فى شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من اهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم ، والى الله عاقبة الامور





آراء الإمام في : العرب والمسلمين والإسلام





رأيه في العرب

كان الاستاذ الامام يرى أن العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم (١) ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الاعظم للاصلاح الاكمل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من سيرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء فتفرقوا وتعادوا واستحوذ عليهم الجهل .. فيجب ان يبدأوا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة ، ويستعدوا لسنوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بحال من الاحوال أن يخرجوا الان على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لي واقعة حال في هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر

قال : علمت أن مستشرقا بريطانيا أحب العرب ، وساح في بلادهم ، واختبر حالهم .. فظهر له ان اخلاقهم

---

(١) ما نرويه في هذا الفصل عن مريده وتلميذه السيد / محمد رشيد رضا ، اقتبسناه من الجزء الاول من كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » مع التلخيص

فى بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم ، فتوجهت رغبته الى السعى لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية ، وأراد جمع المال الذى يمهد السبيل ويهيىء الوسائل لذلك ..

واستشارنى فى هذا الامر فقلت له : ان العرب أهل لذلك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه .. وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم .. فاذا شعروا بذلك، أو رأوا بوادره قاتلوهم .. حتى اذا وهنت قوة الفريقين ، وثبت دول أوربا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما .. وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام ، فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته » . فقنع الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعى ..

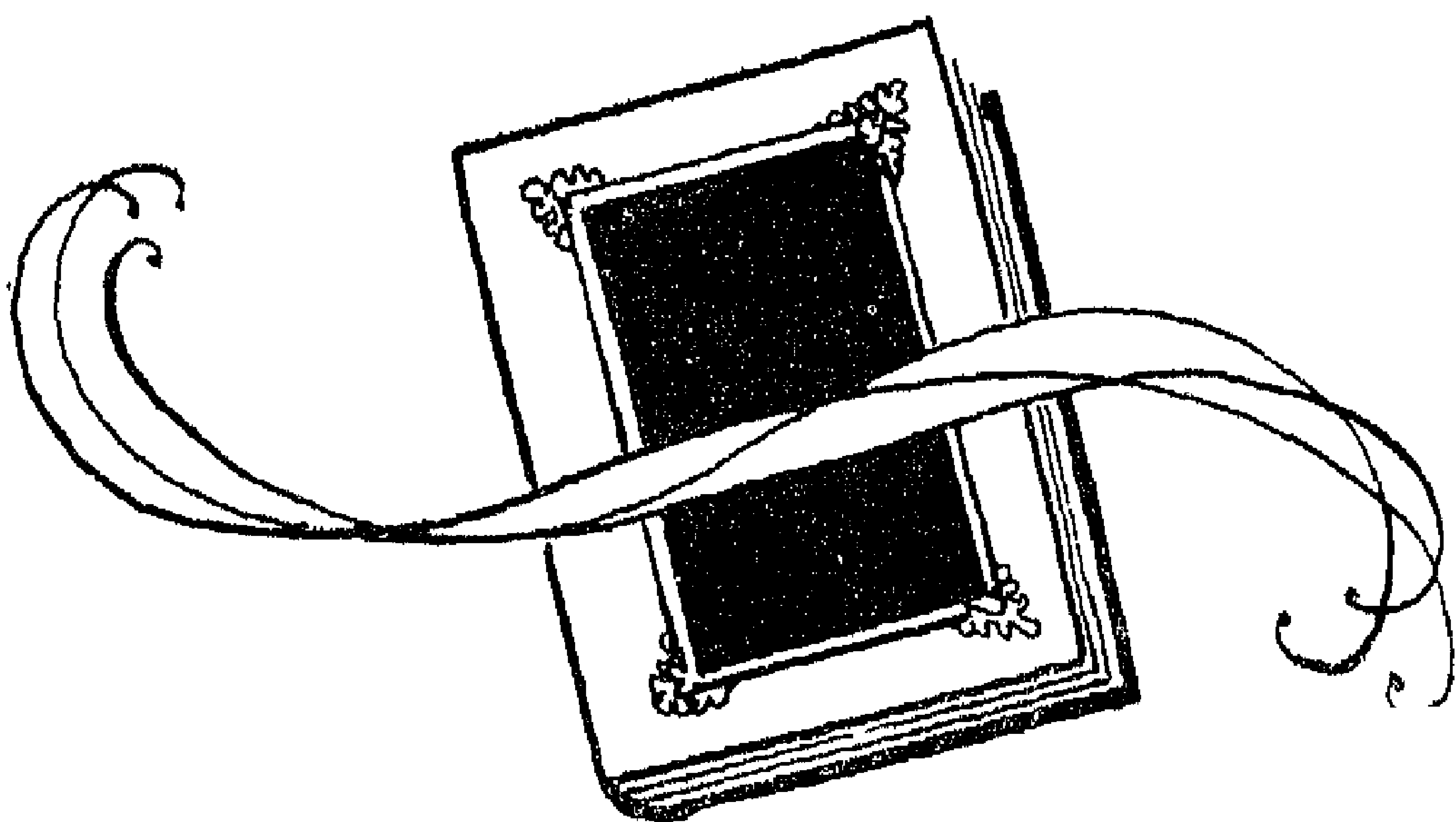
قال السيد رشيد رضا : « لم يذكر لى اسم هذا الرجل . ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت ، وحادثته وحادثت زوجته علمت أنه هو الذى كان فكر فى ذلك وعزم عليه .. ثم التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا فى الآستانة بعد الدستور(١) ، وتكلمت معه فى المسألة العربية .. رأيت رأيه قريبا من رأى الاستاذ الامام من ناحية مسالمة الدولة .. وقال : نحن العرب أقوى من الترك استعدادا لتحصيل العلوم والفنون ، ولكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن اكثر عددا من الترك فى الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس فى جميع بلادنا ، ولكن الترك متفقون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية فى ايديهم .. فمعاداتنا لهم خطر علينا ، فيجب ان

(١) الدستور العثمانى الذى صدر سنة ١٩٠٨ ، اما محمود شوكت باشا فهو أحد القواد العرب فى الدولة العثمانية

نقوى أنفسنا بالدولة فى ظل الدستور ، فنكثر من ادخال أولادنا فى المدارس وفى الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك أن تكون أغلبية المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة فى أيدينا

ولكن الاتحاديين جعلوا الدستور صوريا ، وتوسلوا بقبضهم على زمام السلطة الى تقوية العصبية التركية الطورانية ، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية ، وقتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدى ، وعزموا على قتل كل زعيم عربى ، فقضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ، ولم يبق للترك الا الاناضول وبعض الروملى منها

واما رأى الاستاذ الامام وهو الذى جرينا على الدعوة اليه ، فهو أن يعنى العرب بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ، مع انتظار الفرص للاستقلال مع اتقاء خطر الاجانب وصيانة الاسلام والمسلمين



رأيه فى الشعب المصرى

وقد كان يرى أن أطفال المصريين أذكى من أطفال سائر الشعوب ، وأن شبانهم من انشط الشبان وامضاهم عزما وهمة واقــداما ، ولكن المصرى يدب فيه الهرم المعنوى منذ استكمال الخامسة والعشرين ، فيخلد الى الراحة والتمتع باللذات ، وتقعد به همته عن الجهاد والكدح فى سبيل المصلحة العامة

وقال مرة ــ وهو فى اشـــد الغضب والامتعاض من حادثة المحاكم الشرعية ــ عندما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين فى المحكمة الشرعية العليا : والله لو أن فى مصر مائة رجل لما استطاع الانجليز أن يقيموا فيها ، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا اذا أقاموا

ان فى مصر مئات أو آلاف من الرجال يفهمون كل شيء، ولا ينقصــهم العلم بمــا يجب للبــلاد ، ولكنهم فاقدون الارادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما الصفتان اللتان لا ينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل ..

أرأيت هذا الرجل ــ مصطفى باشا فهمى (١) ــ الذى

(١) كان من اعلام مصر وكــان رئيسا للوزارة ، ووزيرا عدة مرات فى عهد كل من الخديو توفيق وعباس الثانى

يصفه الوطنيون بالخيانة للبلاد ؟ انه ذكى نبيه ويحب خير البلاد ومصلحتها ، ولكنه ضعيف الارادة بل فاقدها .. ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة سلطة الاحتلال به ان ينفع البلاد نفعا عظيما ، ويدفع عنها أذى كثيرا ، ولكنه لا يدرى هذا

ان الشعب المصرى لا يفنى ولا يندمج فى غيره من الشعوب التى تغلبه على حكومته ، وقد يندمج الشعب المتغلب عليه فيه .. ذلك بأن ذل الغلب وفقد الاستقلال لا يضعف حيويته ويقلل نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش فى كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية

والحكومات أعراض تزول ، وهو لا يزول .. ولكننى صرت فى ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار الى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاشربة الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يعطل الجهاز التناسلى أو يضعفه .. فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك باصلاح خطابة المساجد وبث الوعاظ والمرشدين فيها ، فان الشعب المصرى نفسه معرض لخطر الانحلال والزوال

وقد روى السيد رشيد رضا أن أحمد فتحى باشا زغلول (١) كان يتحدث معه مرة فى ضعف رجال الحكومة المصرية ، وفتور هممهم حتى فى أعمالهم الرسمية ، فذكر أفرادا من رؤسائهم قال انهم تعلموا أحسن التعليم ، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم ما يحمد من الهمة والشجاعة الادبية فى شبابهم ، وتجدهم الآن كالتماثيل فى

(١) كان وكيلا لوزارة الحقانية(العدل) ومن خيرة العلماء .. وكان من تلامذة الاستاذ الامام

دواوينهم ، لولا أنهم يحركون أيديهم لتوقيع بعض الاوراق او لطرد الذباب

فقال السيد رشيد رضا : « ما كان يقول أستاذنا فى ذلك » — وذكرت له كلمته — فاذا هو قد سمعها منه اذ قال : « أو كلما كان يقول الاستاذ شيئا كنا نفهم كل مراده منه ؟.. كلا اننا كنا نفهم مدلول الفاظه اللغوية ، وأما فحواها وتأويلها فى الخارج فربما لا نفهمه الا بعد التجارب عدة سنين »

التربية والتعليم

أما رأيه فى التعليم والتربية فخلاصته (١) أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الأمة الذى بطل ونحل منذ قرون كثيرة ، بحيث تكون الأمة عزيزة متحدة متعاونة متكافلة يصدق عليها تمثيل النبى «صلعم» للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبالجسد الواحد اذا تألم عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر

هذه هى التربية ، وهذا هو التعليم ، اللذان كان محمد عبده يجاهد فى سبيلهما ، ويدعو الى مسالمة الحكام المستبدين والمتغلبين لأجل التمكن منهما ، ويعلم أن استقلال الامة الصحيح لا يكون ، أو لا يتم ويثبت الا بهما . وكان يقول : « يا ويح الرجل الذى ليس له أمة » وكان يمدح القبط لتضامنهم ووحدتهم والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم ، ومعرفة قيمة رجالهم ، وقد كانوا يلجأون فى جميع أمورهم ومشكلاتهم الى « بطرس باشا غالى » من الاسكندرية الى حلفا والسودان

---

(١) يراجع رأيه بالتفصيل فى خطبه باحتفالات مدارس الجمعية الخيرية (ص ٧٣٠ — ٧٥٢) من الجزء الاول من « تاريخ الاستاذ الامام » وفى لائحة نظام التربية والتعليم بالجزء الثانى (ص ٥٣٣)

رأيه فى الوطنية والدين

كان يرى أن الوطنية التى هى عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفى الاديان على كل ما فيه عمرانه واصلاح حكومته ، لا يعارض الدين الاسلامى فى شىء ، كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه فى كتاب « الاسلام والنصرانية » (١) وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسى الى وجوب اتحاد اهل كل قطر شرقى للتعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية .. وكان حزبه مؤلفا من اذكياء الملل المختلفة ، وكان مع هذا يدعو المسلمين الى الاصلاح الاسلامى الخاص بهم فى فهم العلم والدين ، وشد أواصر الاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم .. ولم نر أحدا من الناس الذين تكلموا فى شئونه والذين كتبوا عنه فى مدة حياته ، ولا بعد مماته ، اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الاسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطنى فى كل وطن ـ وشرقى عام فى دعوة الشرق

(١) نشر هذا الكتاب بعد تحقيقه والزيادة فيه باسم « الاسلام دين العلم والمدنية .. » وهو من مطبوعات « دار الهلال »

كله وارشاده الى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب ـ واتحاد اسلامى فى الاصلاح الدينى ونبذ الشقاق فيه

وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته فى مصر وفى سورية .. قد كان من التآلف بين جميع الطوائف فى بيروت على عهده ما لم يعهد له نظير كما تقدم ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل فى مقاومة الاقباط أو دعوة المسلمين الى ذلك ، وانما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه فى ترقية مصالحهم الملية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية

وقد كان يعلم ان بطرس باشا غالى هو الذى وضع فى وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيدا لالغائها وادماج عملها فى عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرنى بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرنى بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا فى بطرس باشا ، واتهموه بمحاباة القبط فى الوظائف وغيرها اذ كان وكيل وزارة الحقانية

وكان الاستاذ الامام فى ذلك الوقت سنة «١٣٠٥ هـ» فى بيروت ، فلما رأى هذا الشقاق الوطنى فى الجرائد المصرية كتب فى تلافيه مقالة فى جريدة ثمرات الفنون عنوانها « مصر والمحاكم الاهلية » وكتب الى بعض مريديه بمصر « سعد زغول » ان يسعى الى نشرها فى بعض الجرائد الاسلامية فنشرها

رأيه فى اللغة والتأليف

كان الاستاذ الامام يرى ان اللغة العربية فى حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وادابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو مافعله الفرنسيون وغيرهم من شعوب العلم فى أوربا من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية ، وتاريخ تطور اللغة ، وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لى ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيين فيه الا باشتغال جدى مدة خمسين سنة

واما كتبنا العربية ، فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتاخرين ، ويقول مع ذلك أن فن التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم ، واننا فى اشد الحاجة الى حذوهم فيه

واذا أردنا ان نكتب فى تاريخ علم الكلام مثلا ، فلا يوجد فى تواريخنا مادة تفى بالغرض .. يذكرون أن واصل بن عطاء اول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصرى ، لكن ما سبب

ذلك ؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذى حدا بالشيخ أبى الحسن الاشعرى للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ .. ومتى دخلت الفلسفة فى كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء فى ادخال الفلسفة على العقول مع العقائد فى وقت واحد ؟

كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا ، ويمكننا ان نعرف كثيرا من شئون الاسلام وتاريخه من الكتب الافرنجية فان فيها مالا نجده فى كتبنا

وقال فى وقت آخر ان العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر ، الا اذا كان متقنا للغة (١) من لغات العلم الاوربية تمكنه من الاطلاع على كتب أهلها فى الاسلام وأهله ، من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

رايه فى الصوفية

قال الاستاذ الامام انه لم يوجد فى آمة من الامم من يضاهى الصوفية فى علم الاخلاق وتربية النفوس ، وسبب ما الم بهذه الطائفة تحامل الفقهاء عليها ، وأخذ الامراء بقول الفقهاء فيها .. فأولئك يكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى انه قتل فى هذه البلد «القاهرة» فى يوم واحد خمسمائة صوفى .. وهذا هو سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم أن ظهروا ، ولجوئهم الى الاختفاء ، وكلامهم فى الطريقة ، وما يعمدون اليه فى التعبير بالرمز والاشارة ، ثم قام الناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم

(١) لقد تحقق ما كان يهدف اليه الاستاذ الامام ووجد من العلماء والمفكرين فى السنين الاخيرة من خدم الاسلام أجل الخدمات بمؤلفاتهم القيمة كالاستاذ عباس العقاد والدكتور محمد حسين هيكل ومحمد فريد وجدى واحمد امين وغيرهم

مما كانوا مضطرين الى الظهور به ، وهـــو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من امورهم الصحيحة الا قليلا .. وهكذا كان البكد عن التصوف رويدا رويـــدا حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضا تاما الا مالا نعلم

قال : الفقهاء لبعدهم عن التصوف « الذى هو الدين » جهلـــوا سياسة وقتهم وحاله ، والجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية .. واذا عرفوا ان الحكم كذا ، لايعرفون كيف يجعلون الامـــراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ؟ ولهـــذا ضـــاع الدين والسياسة

احتقرهم الامراء والسلاطين فى انفسهم واستخدموهم لاغراضـــهم التى تؤيد ســـلطتهم ونفـــوذهم ، وحملوهم على الفتـــوى بمـــا يؤيد رغبـــاتهم ــ ولا يوافـــق الشرع ــ فدققـــوا النظر واستنبطوا لهم ما يطالبـــون ، وافتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم فى كتب الفقه على انها احكام شرعية « اى ان هذا هو حكم الله فى هذه المسألة » !

وقد قال له السيد رشيد رضا : ان للصوفية كلاما غير معقول وما هو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره للشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذى انفتح به الباب لتأويلات الباطنية ، الذين يشبه كلامهم فى كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ، ولكون أهل الســـنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية

فقال الشيخ محمد عبده : نعم صدر عنهم كلام ما كان ينبغى أن يظهر ولا أن يكتب « ومنه ما يوهم الحلول » ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وانا لا انكر

ان لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا « بل ربما حصل لي شيء من ذلك وقتا ما » لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ، ولا أن يكتبه ويدونه علما .. ان هذا الذوق يحصل للانسان فى حالة غير طبيعية ، وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغى أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية

وكل ما انا فيه من نعمة فى دينى أحمد الله تعالى فسببها التصوف الصحيح الخالى من البدع والخرافات المرغب فى العلوم (١)

وقد فصل الاستاذ هذه المسألة ـ التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء ـ فى تفسير : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » وقد حقق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، وافتتان الناس بهم بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أندادا لله يطلبون منهم ما لا يطلب الا من الله تعالى (٢)

---

(١) يراجع الفصل الثالث فى تربية الامام الروحية والصوفية من كتاب تاريخ الاستاذ الامام صفحة ١٠٦ للشيخ رشيد رضا .

(٢) يرجع الى هذا التفصيل فى الجزء الثانى من تفسير المنار

رأيه في المسلمين

لا أرى حاجة الى ذكر رأيه في المسلمين واعراضهم عن الاسلام وبعدهم عنه واعراضهم عن هدايته ، وما ابتلاهم الله به من سلب الملك ، وإلبسهم من سرابيل الذل ، جزاء لهم ، لعلهم يرجعون .. فان ما كتبه في ذلك « في رسالة التوحيد » مختصرا ، وفي كتاب « الاسلام والنصرانية (١) » مبسوطا بعض البسط ، يكفي لتوضيح هذا الرأى .. وقد كان له في مجالسه الخاصة من التصريحات في ذلك مالا نظير له فيما كتبه وما كان يقوله في درس تفسير القرآن

وقد صرح مرارا بان انتقام الله تعالى من المسلمين لاعراضهم عن كتابه ، وعن هدى رسوله اتباعا لاهوائهم وشهواتهم،وما فتنهم به ساداتهم وأمراؤهم ، مما يبلغ حده، بدليل أن هذه النقم لا تزال تتجدد وتتعدد . وكان يقول : « أن المسلمين مصابون بالعقم لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على

---

(١) هذا الكتاب نشرته دارالهلال باسم « الاسلام دين العلم والمدنية » بعد اضافة فصول اليه بقلم الامام

خلاف ما نرى عليه الامم الحية » وكان يذكر رجالا كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة فى مصر وسورية : كالشيخ محمد المهدى العباسى ، والشيخ على الليثى فى مصر ، والامير عبد القادر الجزائرى ، والسيد محمود حمزة مفتى الشام وغيرهم ، لا يوجد احد مثلهم ولا من يقرب منهم : وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا فى المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم ، ولكنه ذكر الامثال من غيرهم ايضا

على انه قال أخيرا ما يدل على رجائه فى نهضة المسلمين ، وقد عبر عنه أولا بمثل يفيد الشك اذ قال : « اننى أرى فى هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراء ، فلا أدرى اهى من بقايا الحياة الاولى أم هى بدء حياة جديدة »

وأما رجاؤه فى مستقبل الاسلام فى الجملة ـ دون شعوبه الحاضرة ـ فكان رجاء كاملا لانه متصل برجائه فى الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقض قط .. وانما كان شكه فى اول شعب يحيى الاسلام ، هل هو من المنتمين اليه ، أم من الذين سيهتدون به ؟



رأيه فى الاسلام

كان يجزم بأن الاسلام ـ اسلام القرآن والرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم فى سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) ـ هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وأن أمم الحضارة فى الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم الى طلب المخرج منها فلا يجدونه الا فى الاسلام .. اسلام القرآن والسنة ، لا اسلام المتكلمين والفقهاء .. وقد صرح بهذا فى مواضع كثيرة

رأيه فى المذاهب الاربعة

كان رأية فى المذاهب وائمتها نفس مايدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هى طرق الاستدلال التى سار عليها أولئك العلماء المستقلون فى فهم الكتاب والسنة وقواعدهما ، واستنباط الاحكام من النصوص بمقتضى معانى اللغة العربية الفصحى فى مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد

وكان يجل جميع الائمة المجتهدين ، ويرشد طلاب العلم الى اتباعهم فى اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقادا

وتخلقا وأدبا وعملا واستدلالا ، كما صرح بذلك فى خطبته عند ختام درس المنطق (١) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب الا هذا .. وأما جعل كلام الامام المجتهد دينا يتعبد به ، فهو ينافى دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل اهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم ، ويحلون لهم ويحرمون عليهم فى قوله : « واتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله »

وكان يرى ان امور الدين قسمان : احكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها ، وهى كلها منصوصة فى كتاب الله تعالى ومبينة بالتفصيل فى سنة رسوله ، وتناقلها المسلمون بالعمل .. فهى قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين ، فيأتى فيها تقليد المقلدين

والثانى احكام غير ثابتة بنص قطعى ولا اجماع فهى محل الاجتهاد ، والتحقيق انها لا تكون فى فرض احكام عامة فى العبادات ولا فى المحرمات الدينية بل فيما يشتبه على المكلف من جزئياتها او طرق العمل بها وفى احكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتأليف وافتاء ، وبالقضاء بين الناس ، ان يبحثوا عن ادلتها ، مهتدين بسيرة الائمة ومذاهبهم فيها ، ويعملوا بما ظهر لهم رجحانه منها

وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشتبه عليهم منها الى من يثقون بعلمه وتقواه ، فيسألونه عن حكم الله

---

(١) ترى هذا التصريح فى صفحة ٧٦٢ من الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام

فيها ان كان فيها نص عنهما ؛ او عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها

وهــذا معنى قول علماء السلف وائمتهم : العامى لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه » والمدار فى اساس هذا الموضوع على اصــــل الامام مالك فى « ان مـــدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ، ومدار احكام المعاملات فى غير المنصوص على القواعد واعتبـــار المصالح العامة »

وكان الاستاذ الشيخ محمد عبـــده مالكى المذهب فى نشاته الاولى ، تفقه بمذهب مالك ، ثم قرأ فقه الحنفية فى الازهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية ، واصــل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحـــرمات الدينية لاتثبت الا بنصوص الكتاب والسنة القطعية .. بل نقل الشافعى فى « كتاب الام » عن ابى يوسف ان مشـــايخه وسائر علماء السلف ، لا يقولون فى شىء انه حرام الا ما كان بينا فى كتاب الله تعالى بلا تفسير . ونقل شـــيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا يوجبون ولا يحرمون شيئا الا بنص قطعى ، وان الاحكام العامة للأمة لاتثبت الا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه فى الفقه والفقهاء

ضيع المسلمون دينهم ، واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحـــاسن والفضـــائل ، ولم يبق عندهم شىء .. هذه الصلاة التى يصلونها لا ينظر الله اليها ولايقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القرود ، والفاظ لا يعقلون لها معنى ، لا يخطر ببال احد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمـــده ،

ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة ـ وربما غيرهم ايضا ـ قالوا ان الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها اداء الفرض ، ويسقط الطلب ، ماهذا الكلام ؟ انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة فى القرآن تبطله .. قالوا النية فى الصلاة ان يقصد الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالغ بعضهم فقال : لابد من تصور جميع اعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات » بهذا .. انما قصد الفعل عند مباشرته طبيعى ، فاننى اذا قمت امشى لا اقصد بمشى القعود ، وحاشا لله أن تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والعبادات ، ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة

ان اليهود لم يحرفوا التوراة أكثر مما حرفوا .. المراد بالنية فى الحديث قصد المرء وغرضه من فعله ، وهو اما وجه الله وابتغاء مرضاته ـ وهو النية الصحيحة ـ واما غرض آخر كالرياء

ان صلاة المستر براون الانجليزى عندى خير من صلاتهم ، وهو رجل انجليزى رأى ترجمة القرآن فأسلم (١) وهو يحملها ويقرأ فيها دائما عند الفراغ ، ويصلى بحسب مايفهم من القرآن ، ويستقبل القبلة كلما حرره

---

(١) كان مستر براون ضابطا بحريا ولما رأى الكلام عن البحر وظلماته وأمواجه واهوالها فى ترجمة القرآن سأل احد الهنود من المسلمين هل ركب محمد البحر وسافر فيه ؟ قال : لا ان مافى القرآن عن البحر لا يمكن أن يكون عن خبير مخبر من الناس . فكان هذا سبب عنايته بقراءة الترجمة واهتدائه للاسلام

بحسب معرفته بعلم الفلك ، ويركع ويسجد ، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا يعلم الاوقات وعدد الركعات .. قال لى : اننى اصلى عند الفراغ بحرارة وخشوع

وسألنى عن صلاته فقلت له : أنا أصلى ، فصل معى. وعلمته كيفية الصلاة فى زمن قصير بالعمل ، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها ، وقال لى مرة انه يعجب لكون المسلمين والمؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الامم ويكونون خير الناس

وقد سألنى : من اكثر الناس جناية على القرآن ؟ فقلت : ذووه وأصحابه ، فسر بجوابى هذا كثيرا . أوتى كل هذا الاعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع ان الترجمة الانجليزية له بعيدة عن الصواب فى مواضع كثيرة

ثم قال : وقد جعلوا « اى الفقهاء » كتبهم هذه على علاتها اساس الدين ، ولم يخجلوا

من قولهم : ان العمل يجب بما فيها وان عارض الكتاب والسنة ، فانصرفت الاذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت انظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الخلاف فى الآراء والركاكة

ثم قال : اذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزيلعى نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه ، ومادمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم الا منها فلا نزداد الا جهلا . هذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هى التى ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الأمة) وحالة الحكم امام الفقه قال :

ان العامى الذى يحتاج الى الكسب والعمل لا متسع

عنده لصرف سنين طويلة فى تعلم احكام الطهارة وسائر العبادات فى الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة ، وأى حاجة الى هذه الابحاث الطويلة ، والتدقيقات فى مسائل المياه والطهارة والصلاة ، قال صلى الله عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى اصلى » .. وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه فى ورقات قليلة .. وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

من اين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصلح الوضوء به ؟ وهل فيه زيادة عن الماء الا شيء من الطيب الذى هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا احسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض أيضا ، وكان الشيخ الانبابى يقول بنجاسته لان فيه « سبيرتو » وهل يوجد شيء مطهر « كالسبيرتو » ؟ .. والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف (١) فانه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف .. كذلك محلول السليمانى من احسن المنقيات والمطهرات « الطبية » وشربه قاتل.

ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها فى هذه الكتب ، فهل نوقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ .. هذا لا يستطاع ، ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الاحكام الشرعية ولجأوا الى غيرها

ان اهل بخارى جوزوا الربا للضرورة .. والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على اغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص ، فاضطر الناس الى « الاستدانة

---

(١) ظاهر هذا ان الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ، ولكننى لما أفتيت فى المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك وأقره (هامش رشيد رضا).

من الاجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسئولون عنـــد الله تعالى عن هذا ، وعن كل ما عليه الناس من مخـــالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم ان يعرفوا حـــالة العصر والزمـــان ، ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها ـ اى كأحكام الضرورات ـ لا انهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء

« يقرأون الاصول ولا يخطر ببال احد منهم ان يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله ، أو يبحث عن دليله .. بل لم يخجلوا ان يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظـر فى الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذى تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول « وكلهم من رسول الله ملتمس »

« كان ينبغى أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغى ان يكون عليه العمل ، واذا كان بعض المسائل رجح لاسباب خاصـــة بمكان او زمان ينبغى لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ، لا انهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع فى كل زمان ومكان » !!



فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن على نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحـرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

البـرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

سيراليون : Messers Allie Mustapha & Sons
P O Box 410
Freetown Sierra Leone

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samail
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S. E. 26
ENGLAND

نيجيريا : Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

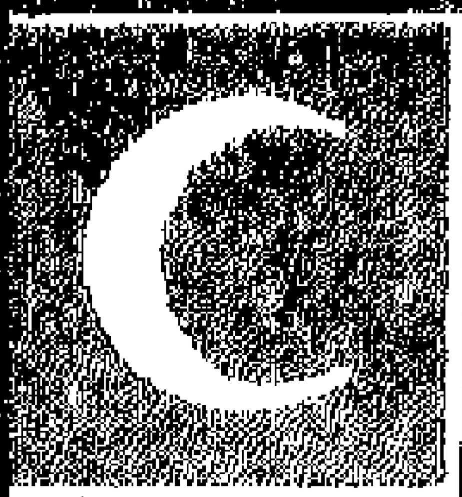
صادفت الكتب الاربعة التى سبق أن نشرت فى سلسلة ((كتاب الهلال)) .. من تراث الامام الشيخ محمدعبده رواجا وتقديرا من القراء حفزنا على مواصلة نشر هذا التراث الذى حرص رئيس التحرير على تحقيقه والتعليق عليه والتقديم له ببحوث ضافية تمهد لاستيعاب موضوع الكتاب وتوضح منهج الاستاذ الامام فى تناوله ، وتكشف عن نواح ما يزال يجهلها الكثيرون ..

ويضم هذا الكتاب نخبة من الموضوعات الحيوية التى تدور حول الاسلام وشئون المسلمين ، وان كانت تهم غير المسلمين .. فهى تتناول شئون المجتمع الانسانى وتعالج مسائل عامة لا يقتصر التفكير فيها على دين من الاديان او مذهب من المذاهب ..

كتاب الهلال

إلى القرآن الكريم

بقلم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٤ ـ شعبان ١٣٨٣ ـ يناير ١٩٦٤

No. 154 — January 1964

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إلى القرآن الكريم

للأستاذ الأكبر

محمود شلتوت

شيخ الأزهر الشريف

دار الهلال



الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت

مقاصد القرآن

القرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من اهم ما يجب على القادة والمرشدين ..

وقد رأينا أن نقدم هذه الطريقة التى ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التى يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، فتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة . وسنبدأ ان شاء الله من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ، ونشير الى أساليبه التى اتخذها سبيلا للدعوة اليها

ونرجو ان يكون هذا بمثابة منار يهدى الى معرفة ماهو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه

وان نظرة فى القرآن الكريم فى مثال لقوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا » لترينا ان مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الاخلاق ، وناحية الاحكام

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الايمان به في جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به فى جانب اليوم الآخر من البعث والجزاء

والاخلاق : تهذب النفس وتزكيها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الانسان ، وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التي يجب ان يكون عليها عباده

اما الاحكام : فهى ما بينه الله في كتابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان ، وتشمل : أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين ، والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية ، او احكام الاسرة . وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمداينة ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية . وتشمل : أحكام الجنايات ،

والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافســـاد فى الارض ، والزنا ، والقــذف ، وما الى ذلك ممـــا يدخل فى دائرة العقوبات : وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ، ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحكام الدولية العامة

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين أنها الكتاب والسـنة ، واجتهـاد أولى الرأى ، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحياة

كما عرض لأساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من اخص اوصاف المؤمنين

أساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن الكريم .. أما الاساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى :

اولا : الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء ، لتعـرف أسرار الله فى كونه ، وابداعه فى خلقــه ، وبذلك تمتلىء القلوب ايمـانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع ، لا عن تقليد وابتداع . وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الاجسام وأسرار الكائنات فى الارض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كى ينتفع بها فى حياته ، ويستخدمها فى التعمير والانشاء

ثانيا : قصص الاولين ، أفرادا وأمما ، الصالحين منهم

والمفسدين ، وقد أورد القـــرآن في ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله في معاملة عباده ، وهذا هو مقصـــد القرآن من ذكر قصص الماضين .. فلم يذكره على أنه تاريخ يحدد الزمان والمكان والاشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الاسباب والنتائج ، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والاعاجيب التي يسمر بها الناس في النوادي والمجتمعات

ثالثا : ايقاظ الشـــعور الباطني في الانســـان فيندفع الانسان بوحي هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصـــل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، وواضع الاســـباب والمسببات ، رب الارض والسموات ، مدبر الامر ومصرفه ، وتلك هي الفطرة التي ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها »

رابعا : أما الاســـلوب الرابع الذي اتخـذه القرآن في الدعوة الى مقاصده ، فهو : أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الـــدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم الســـلطان والتمكين في الارض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الاعداء

وثانيهما : للترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذي لاينقطع ، الصـــافي الذي لا يشـــوبه كدر . والترهيب من الكفـــر والافساد في الارض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهين

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه في الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل اياته ، أو نسمعها ، ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد فى هذا ما يقرب لنا الامر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ؛ فنعمل به فى خاصة انفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والاخرة :

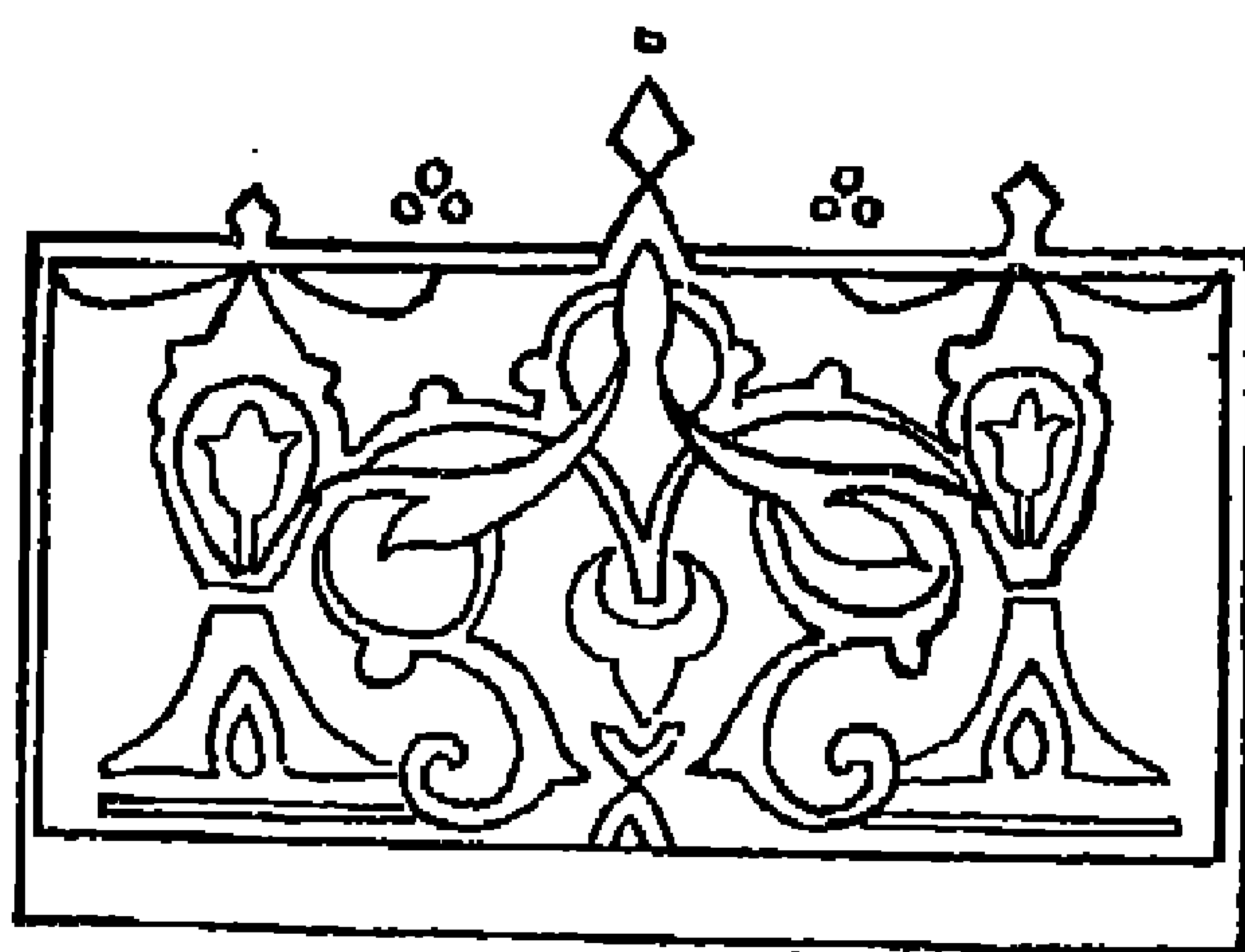
« والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة انا لا نضيع اجر المصلحين »

محمود شلتوت

الفصل الأول

الفاتحة

وسورة البقرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ❁
الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ❁ مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ❁ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ❁
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ❁
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ ❁ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ❁

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدئت باثبات الحمد لله (١) .

(*) وقد أجملت الفاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث . وبيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه ، ومع الناس : فالجملتان « الحمد لله رب العالمين » ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل أثرها الى عباده . والجملة الثالثة : «مالك يوم الدين» تثبت النشأة الآخرة التى يقع فيها الجزاء على الاعمال . والجملتان « اياك نعبد ، واياك نستعين » تقرران مبدأ عبادة الله وحده ومبدأ عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة

وجملة « اهدنا الصراط المستقيم » ، توجه الانسان الى طلب الأحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه

(١) وهى : الفاتحة . الانعام . الكهف ـ سبأ ـ فاطر

* فى تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم ـ راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم ـ الجزء الاول

وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين أنعمت عليهم » ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاث : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون »

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة فى المبدأ والمعاد ، وبها كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح ، وبه كمال الانسان من الجانب العملى ، وأشارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق علما وعملا ، والى تاريخ البشرية الفاسقة فى التنكب عن العلم والعمل ، وهذا اجمال لكل ما فصل فى القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وأم الكتاب



سورة البقرة

الربع الأول

* سورة البقرة هى اطول سورة فى القرآن ، وأول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد فى النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التى أعد لها فى هذه الحياة

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وأنه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والعصبية الغاشمة ، فآمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله « ومما رزقناهم ينفقون » وعرفوا ان رسالته فى جميع الازمان واحدة ، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ،

* يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا . وكل جزء يحتوى على أرباع والربع هنا من أول سورة البقرة الى نهاية الاية ٢٥

وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ».

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الضالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجى منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هى شر ما ابتلى به الحق وأهله فى هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ، ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم فى الربع الأول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته فى ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب .. ومثل من أخذته السماء بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا فى شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شىء قدير

وأخيرا يوجه الخطاب إلى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والايمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفى سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الأرض ومنافعها ، والسماء ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن

يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم — ان لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار التى وقودها الناس والحجارة

وهنا يأتى الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، جمعت لذائذ المادة والروح ، وهم فيها خالدون

الربع الثانى

ضرب الأمثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب .. فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة .. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والاولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما . بعوضة فما فوقها »

أما الناس فهم أمام هذه الامثال فريقان : فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه ، ويكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم .. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ! . ويتخذ

(*) من الاية ٢٦ الى نهاية الاية ٤٣ من سورة البقرة

ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شـان الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيـد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالتـه المتتابعة ، والافساد فى الارض ـ يسجـل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسـوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى أنفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليـه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم »

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النـوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسـار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو ـ على ما يعلمون ـ ذوشهوة وغضب ، بهما يفسد فى الارض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الانسان ـ بما ركب فيه ـ على معـرفة خصائص الاشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا أنهم لا يستطيعون الخلافة فى الارض التى اختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا

لامره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ،بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما ـ لحكمته البالغة ـ بالنهى عن الاكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى أبى ان يسجد وقف لآدم بالمرصاد ، ومازال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ،وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطريق سعادتهم وشقائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

حاجة الانسان الى الوحى

وعبرتنا من هذه القصة ، أن الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الارض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له أن عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ؛ وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا

المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده، وتنفيرا مما يشقيه ، فيجب علينا أن نتعــرف أنفسنـا بغرائزها ، وأن نحصنها بهــداية الله من كيــد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ،ونحصل على اسعاده

الربع الثالث

دعوة الرسول

* سورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجــوار ممن أوتوا الكتاب من قبل ، وقد كان من المرتقب ان يلبى هــذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عنــدهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبل مجيئهالنصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب ، وحملهــم الحسد والبغي على الاعراض والتكذيب والانكار ، فتحدثت السورة عنهم فى أربع وثمــانين آية ، بدأها الله وختمها بندائهم ونسبتهم الى ابيهم ، يستحثهم على الايمــان ، ويذكرهم بنعمته عليهم : « يابنى اسرائيــل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهــدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

(*) من الاية ٤٤ الى نهاية الاية٥٩ من سورة البقرة

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

ثم بدأ يبكت الرؤساء ـ الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس احكامه ـ على انهم يتركون انفسهم للشهوات والاهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر ، ويرشدهم الى الطريق الذى يقودهم الى الخير فى أنفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون »

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولاهم ينصرون »

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية اسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للانسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كان بفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ماجاوزوا البحر ونجا جميعهم ، واتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ماغشيهم ، واضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، انجاهم وأهلك عدوهم

ويذكرهم بعفوه عنهم حينما عبدوا العجل فى غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل . ويذكرهم بعلاجهم

من أثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمـــردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثنـــاكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الارض المقدسة ، وقالوا : « ان فيها قوما جبارين » ، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء ، تائهين أربعين سنة ، تأديبــا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ، وشـــدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : «كلوا من طيبات مارزقناكم »

ويذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه ، وبعد أن رأوا نعمة الله عليهم فيه : يذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الارض المقدسة ، والتمتع بخــــيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ، والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم : يستمرئون العصيان ، وينغمسون فى الطغيان ،فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا يفســـقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمـــع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى

الربع الرابع

نزق وطغيان

* والحديث فيه لا يزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبــا : أقاموا

(*) من الاية ٦٠ الى نهاية الاية ٧٤ من سورة البقرة

فى صحراء التيه وانقطع عنهم المـــاء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، فتتفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، ويأخذ الله عليهم العهد بأن لايفسدوا فى الارض

يذكرهم الله بهذه النعمة ، ويذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزق وطغيان فهـــم يعلمون انهم فى صحراء لاماء فيها ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون، ولكنه العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب ، ويطلب به الادني بدل الاعلى ، « اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير ؟ » ، ومع هذا فلكم ما سألتم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصرا ، تنبت لكم أرضهـــــا ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لانبيائه . ولكنهم يصرون على طريقتهـم ، ويقتلون النبيـــين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمات، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوءوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

ايمان وعمل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى ان أساس النجـــاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما ، دون الاخـذ باحكامه وارشاداته ، وانما هو فى صدق الايمـــان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسـله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لاتحفظ عند الله بالاحساب ، ولا بالانساب ، وانما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون

وتذكرهم بآية من آيات الله ، كان جديرا بهم ان يعتبروا بها ، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم فى العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله واحسانه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه فى اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملأ قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفى أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا فى التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لايعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الامر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتيل بجزء منها ،

فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون »

الربع الخامس

عناد ونفاق

* وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه يطمعون فى أنهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى أنهم اهل دين سماوى ، أصوله هى اصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم ، ولم يعملوا على تطهير انفسهم مما كان عليه الاسلاف ، وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها ، المرة بعد الاخرى ، وفى هذا وجه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس مايطمعون . واخذ يلفت الانظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيرون على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد ، واذا خلا بعضهم

(*) من الاية ٧٥ الى نهاية الاية ٩١ من سورة البقرة

الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ».

ومنهم فريق لايعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الاحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »

هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم ؟

أكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التى كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تلبيتها ، شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر وفى كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن ابناء الله واحباؤه » «ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » : مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه ، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل انزل عليكم فيه وحيا ، وأخذتم به عليه عهدا « أم تقولون على الله مالا تعلمون » ؟

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وانما هى ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم فى المبدأ والحكم سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها

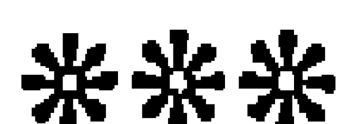
خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهـــم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقـدوا الحق ، وان يفعلوا الخير : « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق الا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم : « واذ اخـــذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزى فى الحيــاة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشــد العــذاب وما الله بغافل عما تعملون »

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم ، وانه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين ارســلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الامـــر ان الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعـدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضعوا عليها الغلاف والقفل: « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنـــون » ، وهاهم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهـم ، وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه ، « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا

أنفسهم بالشهوات والاهواء ، وكفروا بالله ورســـوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده « فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين »



وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ، ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن الذى يطلب منهم الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنــون بما أنزل عليهم ، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم اياه ؟! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ انهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينمــا أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم ؟! « قل بئســمــا يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »

الربع السادس

مزاعم باطلة

* والحــديث فيه لا يزال فى شــأن بنى اسرائيــل المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم

(*) من الاية : ٩٢ الى نهــايةالاية ١٠٥ من سورة البقرة

التى كانوا يسممون بها جو الدعوة ، ويلبسون بهـا على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه انهم لا يؤمنـون بما سـواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وأنه مصدق لمـا انزل عليهم ، فكيف يزعمون أنهم يؤمنون بما انزل عليهم ؟! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقـوله : « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »

ثم يرد عليهم مزاعم اخـرى باطلة كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنـوه ابدا بمـا قدمت أيديهم » ، « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمـر ألف سـنة » خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا أن التعمير فى الدنيا مهما طال أمده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكل اجل كتاب، « والله بصير بما يعملون »

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وان جبـريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول . نزله باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل بـه جبريل لم يكن مخالفا لمـا عندهم ، بل كان مصدقا له ،

وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عـداوة لمن نزله ، وتكذيب منهم لمـا عنـدهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو أن ما نزل به جبريل او غيره من الملائكة على محمد ، او على غيره من الانبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخـذ إحدا منهم عدوا فقد عادى الله ، ومن عادى الله ، عاداه الله : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنـين، من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »

الاسلام دين الفطرة

ثم أخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزله عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسـد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شىء ، وكأنهم لا يعلمون

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، واخـذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالاوهام والاكاذيب ، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان ، وعمـا أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت

كانوا يخترعون ان ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة . وان الملكين عندهما أشد انواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الاحاديث شيوع ، فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ، واتخذوها ديدنهم فى الحياة، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة.

وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين ، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ، انما كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا بمفسدين فى الارض ، ولا بمدلسين على الناس ، وانما كانا ناصحين امينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » ، ولكن المفسدين انكروا على سليمان النبوة والملك الالهى ، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين فى معرفة خصائص الاشياء وأسرار النفوس ، وزعموا أن ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا ، واخذوا ينفثون به فى الروابط البشرية لتحل ، والصلات الانسانية لتتقطع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ، بين الوالد وولده ، بين الاخ وأخيه، بين الصديق وصديقه ، وبالتالى بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله ، « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به انفسهم لو كانوا يعلمون »

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل انفسنا بالاوهام والخيالات

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التى كان يستغلها المعاندون فى الاستهزاء بالرسول ،

وتأمرهم بالسمع والطاعة وتتوعد المستهزئين بالعــذاب الاليم . ثم ترشد الآيات الى أن عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

الربع السابع

المعجزة شأن من شئون الله

(*) والحديث فيه أيضا لا يزال فى بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم فى التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، أنه لم يأت بمعجزة تدل على أنه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى؛ كان العرب مثلهم فى هــذا الشــأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونهـــا ويطلبون مثلها ، أو التى أنساهم أياها فلا يذكرونها ، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة، أو مثلها على الاقل فى الدلالة على صدقه « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »

فالمعجزات شأن من شئوننا ، نختار منها ما نعلم أنه أوفق للمصلحة ، واقدر على الاقناع وأنسب للعصر . ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسلافهم لموسى ، وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، وأشار الى ان هــذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفى هذا تحــذير لضــعاف

(*) من الآية ١٠٦ الى نهــاية الآية ١٢٣ من ســورة البقرة

الايمان من المؤمنين ان يسمعوا لكلامهم ، أو يسيروا فى طريقهم وقد ارشدهم الى أن هؤلاء المشككين يودون أن ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثر بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم أن تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره » ، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله »

ثم يعود فيذكر بغرور هؤلاء المكذبين ، وزعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر ان اساس الاجر عند الله هو اسلام الوجه لله ، والاحسان الى عباد الله : « بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ، ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون »

مسلك مخرب

ثم اخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون انهم يؤمنون به ، وأنهم ارباب الدين الخالد . وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم أن يختلفوا فى مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه ، فلله المشرق والمغرب ، يعبد فى كل مكان : « فأينما تولوا فثم وجه

الله ان الله واسع عليم » . ولم تقف بهم هـذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الاقـدس ، فزعموا أن لله ولدا ، وطلبوا ان يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والارض ، وبأن كل من فيهما قانت له وخاشع ، وانه خالقهما ومدبرهما ، وانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون . واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل منه وينسب اليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والابوة : « لم يلد ولم يولد » . ويرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم : بأنه طلب التعنت والاعـراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون »

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من أعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات أتباعه فى شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعدما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير »

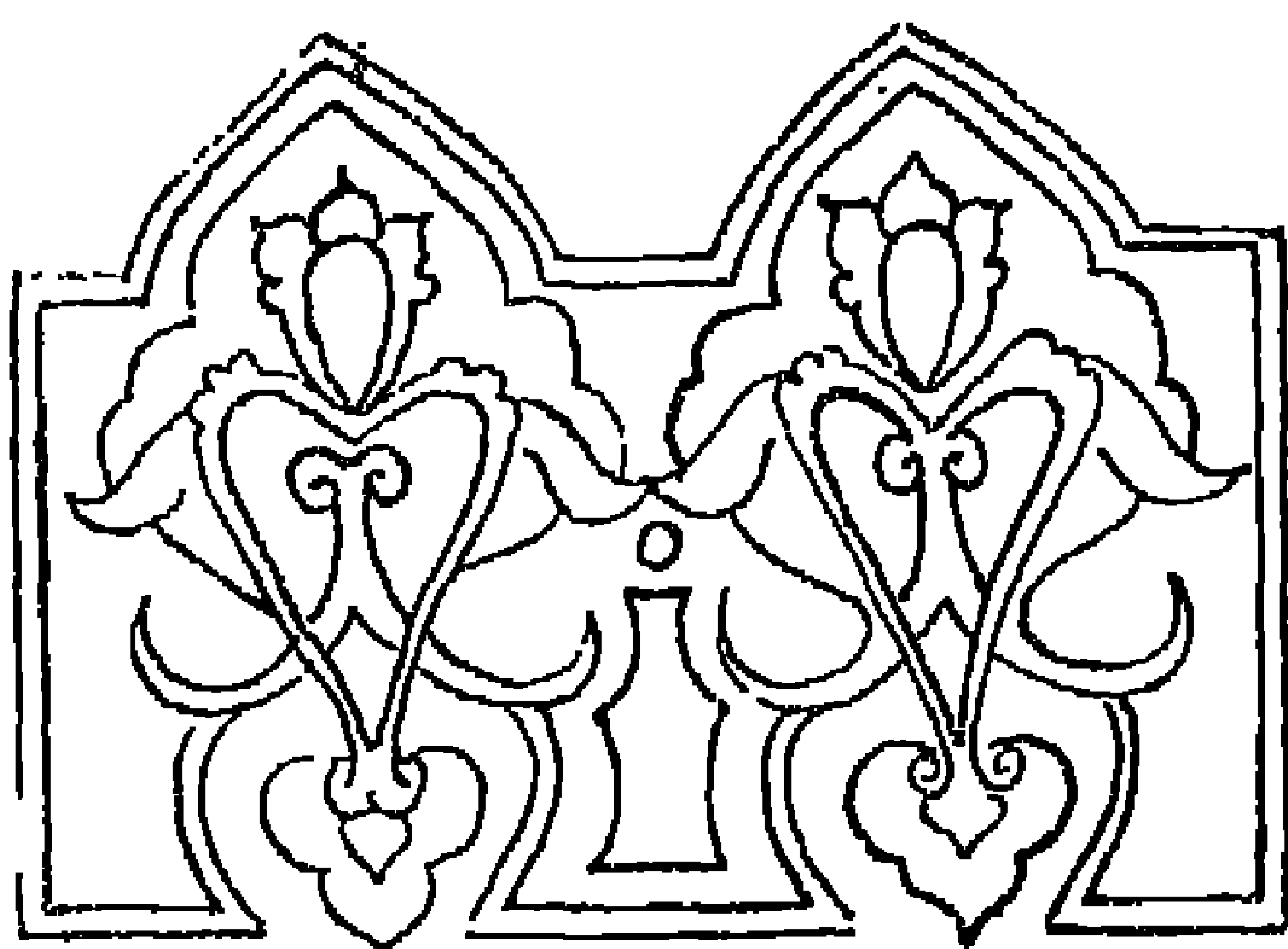
هذا شأن الكثرة الساحقة من هؤلاء الذين كنت يامحمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قـد بيناه ، ومع هـذا ففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق

تلاونه ، ويتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئـك هم الذين يصـح أن تعلق بهم رجاء الايمـان ، وتطمع فى تلبيتهم دعونك : « الذين آتينـاهم الكتـاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » ، أما الاكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقـلدين الجـاهلين ، فأولئك هم الخـاسرون ، الذين لا ينبغى أن تكترث بهم ، ولا أن تطمع فى ايمانهم

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسـبتهم لاسرائيل ، نبى الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه ، وفضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هـداية الله الجحود والانكار . وفى سبيل هذا تنذرهم كما انذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضـلتكم على العـالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون »

الفصل الثاني

سورة آل عمران
وسورة النساء



سورة آل عمران

الربع التاسع

اصيب المسلمون فى غزوة احد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الامر شيء ماقتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتــــالا لاتبعناكم » ، « لو اطاعونا ما قتلوا »

جزاء الشهداء

(*) وقد ارشد الله فى هذا الربع الى حملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم فى سبيل الله ، انهـــم ليسوا ــ كما يظن هـــؤلاء ــ أمواتا توارت اجسامهم ، وطويت صفحتهم ، وذهبوا الى حيث لايذكرون ، بل لقد أرتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرق عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم

(*) من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

من الفضل الالهى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وفرحين بما رأوا من المكانة التى أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترثين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضالين المكذبين، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . ومازادتهم الفتن والاراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالاراجيف والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين »

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى اصيبوا بها وهى : ان الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من ارباب القلوب الفاسدة ، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ، وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصادق ، والخبيث بالطيب ، فيجرى الله أحداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم »

عاقبة البخلاء

وكان مما ارشدوا اليه ان هؤلاء الـــذين يقبضـــون عن الانفاق فى سبيل الله ، ويبخلون بمـــا آتاهم الله من فضله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »ويكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لا يستطيعون التخلص من تبعـــاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والارض ، والذى أنعم عليهم به من فضله ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الاعداء بقصـــد الحط من مكانة الرســـالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام : «ان الله فقير ونحن اغنياء» « ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » . وتتوعدهم بالعذاب الاليم ، وتأمر الرســول بأن يرد عليهم بقوله : « قد جاءكم رســل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » ؟

تسليـة

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم اممهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات ، وكان جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القوم المكذبين الخزى والدمار . وتلك سنتنا مع الاولياء والاعداء ، وستنقضى هذه الدنيـــا وتذهب كل النفــوس الى بارئهـــا وتوفى كل نفس ماعملت ، ويرى المؤمنون الصادقون ما أعد لهم من نعيـــم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »

اعداد واستعداد

* بعد ان ارشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى اصابتهم فى أحد ، لفت أنظارهم الى ان ما اصابهم فى تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم ، وأكد لهم انهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الاموال والانفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعـــارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا . فلا يظنوا أن الامر يقف عند حد هذه الغزوات الاولى ، فمرحلة الجهاد طويلة ، وتضحيات النصر كثيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكـم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور »

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهـم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبـوا فى جنب الله ، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعوتهم فى التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرســـول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم »

(*) من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران

الامر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشـــاد المؤمنين الى مايجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة ، والى ماسينزل بخصومهم من عاقبـــة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله ، تأخذ فى تقرير ربوبية الله ، وأنه صاحب الامر والملك والتدبير فى السموات والارض : لا شأن لاحد فيهما سواه . فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الكافرين : « ولله ملك السموات والارض والله على كل شىء قدير »

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات فى فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الاهواءوالشهوات ،وتحكم التقاليد الباطلة : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب »

ثم تصف أولى الالباب بصفتين ، هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيـــان فى هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم ، وفى جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والارض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولايدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك، وعنايتك . ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه

على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته ، وما للظالمين من أنصار » . ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لاتخلف الميعاد »

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر، عرف منهم الصدق فى الايمان والذكر والتفكير والتنزيه ، « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه

ثم يذكر بعض أسباب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة . ويخص اهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء فى سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، واقرب مايوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب »

تسلية وتوصية

ثم اخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاعتزاز بتقلب الذين كفروا فى البلاد ، ويؤكد لهم أنه متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فمأواهم جنات تجرى من تحتها الأنهار

ثم يرشد احقاقا للحق الى أن من أهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما أنزل اليكم وما أنزل اليهم ، خاشعين لله ، لايؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقى . ويبين ان هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم وفى هذا اطماع لغيرهم من أهل الكتاب فى أن يعدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخاشعين لله ، المحافظين على حدوده

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »



سورة النساء

الربع الأول

(*) سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورةالبقرة، وهى سورة مليئة بالاحكام التى ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والاحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيدالكائدين، واغارة المحاربين . وسميت بسورة النساء لكثرة ماورد فيها من الاحكام التى تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » فى مقابلة « سورة النساء الصغرى » التى عرفت فى القرآن بسورة « الطلاق »

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها الله بنداء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم فى سبيل ذلك الامر بنعمة الخلق والايجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها »وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل

(*) من أول سورة النساء الى نهاية الاية ١١

واحد : أبوة واحدة ، امومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هى رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الامر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الارحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب ، والقبائل ، والأسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت احكام اليتيم الذى فقد أباه . والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال ؛ ففى اليتامى أمرت بحفظ اموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على اكلها عن طريق المبادلة « ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب » ، أو عن طريق الخلط « ولا تأكلوا أموالهم الى اموالكم » . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن . وأرشدت الى ان لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع

وذكرتهم فى هذه الحالة ايضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعددات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى الا تعدلوا »

تشريع المهور

وبهذه المناسبة امرت باعطاء الزوجات مهورهن التى اطلق عليها « نحلة » اى فهى ليست اجرا ، ولا ثمنا ، وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة

حفظ اموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتيه ، وكل من لا يحسن التصرف ، حذرت دفع الاموال اليهم احتفاظا بها لهم ، وابقاء عليها للامة ، فهى فى الواقع مال الجميع . واشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من ارباحها لامن اصولها ، كما امرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الاموال . وامرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » اى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الاموال اليهم وهو وقت الرشد ،بعد ان يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه امواله ، ومن بلغ ولم يرشد لاتسلم اليه امواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص بالحجر على السفيه ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم اباحت الآية للاوصياء ان يأخذوا من اموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء : «ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الاحكام بتهديد الاوصياء فى ابنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع ابناء غيرهم ما يحبون ان يفعل الغير مع ابنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الاخروى

الذى صورته الآيات باقوى مايقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ؛ « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

الارث فى الاسلام

وقد كان اهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الاطفال ؛ ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم

اولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا »

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والازواج والزوجات ، ثم ارشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من الفقراء والمساكين والاقارب الذين لا يرثون ، « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا »

وهذه الآية مستند قوى لمن اراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه . اما المبادىء التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين .. »

الربع الثانى

تفصيل الميراث

* بين الله فى هذا الربع ، وفى آخر آية من السورة ، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالابوة، وبالامومة ، وبالزوجية ، وبالاخوة وأهمل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عند الجاهلية . وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... » ، « ولكم نصف ماترك أزواجكم .. »، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة .. » وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الابناء: « للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له أخوة فلأمه السدس » . وميراث الزوج : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » . ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى فى تبادل التعاون والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية

(*) من الآية ١٢ الى نهايه الآية ٢٣ من سورة النساء

ميراث الاخوة

اما ميراث الاخوة فيتبع جهة الاخوة ، فميراث اخوة الامومة ذكر بقوله : « وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امراة ، وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث »

وميراث الاخوة الاشقاء ، او لاب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة : « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ؛ فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وأن كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين »

وجدير بالمؤمنين اذا قرءوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : «يوصيكم الله فى أولادكم» ، وقوله : « وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين »

جدير بهم ان يتدبروا تشديد الله فى المحافظة على احكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس محل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ؛ فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير أحكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق ، او ايذاء وارث . ومنه يعلم

بطلان التصرفات التي تجيء على أساس من حرمان بعض الورثة ، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصوري ، أو بالوقف الذي أراح الله الناس منه : « من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم »

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففي فاحشة النساء « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا » . وفي فاحشة الرجال « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما »

تعزير يؤدب به النساء او الرجال في فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى الاقلاع والرجوع الى الله . اما من يفعلها ويرجيء التوبة الى ان يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فتوبته مرفوضة قطعا ، وهي كتوبة الذين يموتون وهم كفار . أما توبة الذين يفعلون السيئات عن الف واطمئنان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن »

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع ليأخذ مالها . وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك ان يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم الانسانى العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، ويقول :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »

الربع الثالث

المحرمات من النساء

* والكلام فيه ، لا يزال فى الاسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الاسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه

(*) من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء

القرآن : « انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، وحرم التزوج بالام وان علت ، والبنت وان نزلت ، والاخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الاخ ، وبنات الاخت . وحرم بسبب طارىء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة . واقتصرت الآية على الامهات والاخوات ، وجاء فى السنة الصحيحة « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلائل الابناء الذين هم من الاصلاب ، وحرم تحريما مؤقتا الجمع بين الاختين ، ومن فى معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات ، واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أزواجهن الكفار ، وتبين صدق ايمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن »

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هذه المحرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من احصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة ، كما أوجبت بذل المهور . وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع فى الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وان تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التى يكون منها النسل ، ويتربى فيها

النهى عن أكل الاموال بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من

هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حماة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثاني في حياة الاسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ؛ والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا في حل الاموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، واجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله أثره السيىء في سلامة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء في هذا المقام قوله تعالى: « ولا تقتلوا انفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على اخيه في ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » . ولما كان معظم أسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد المكثر ، وتمنى أن يكون ما في يد غيره في يده ، نهى الله عن ذلك ، وبين ان لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته في الكسب والعمل ، ولايتطلع الى شيء غيره : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله »

اما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم اصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض لا في كسبه ، ولا في ميراثه : «ولكلٍ جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم »

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الاعمال والانصباء ، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات أن الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة ، فكلف الرجل ، بماله من قوة ، بالجهاد والاعمال الشاقة، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا أكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »

معنى قوامة الرجال

ثم ارشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتأديب، كالتي بين الرجل وأبنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة اثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الاهل والاقارب الذين يهمهم شأن الزوجين، ويعز عليهم ان تتدهور الاسرة ، ويتشرد الاطفال ، ويقدر نية المحكمين ، واخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ؛ ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

الربع الرابع

الاحسان فى كل شيء

* والكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالاحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والاسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى ان سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى اسرته واقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله ، وهى أصل الخير كله ، والاحسان فيها افراده بالعبادة والتقديس، دون ان يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الالوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لانهما عماد الاسرة، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الاقارب والجيران والاصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الامة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة فى السراء والضراء ، فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة

ثم تشير الآيات الى أن التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر ولا يرى

---

* الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء

لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عبـــاده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلات ، وتحدث بينهم الضغائن والاحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » • وصنف يتعاظم على النـــاس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شعـــور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » • ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذى اغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ». ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى اعـــراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع أنهم لو أخلصوا لما فاتهم شيء مما يحبون ، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضـــاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل أمة رسولها ؟ • « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا »

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا ، ذلكم العلاج هو «الصلاة الخاشعة»

عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر : « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، ثم تلفت الانظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن « وان كنتم جنبا فاطهروا » ، وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالةطائفة يعلم المؤمنون من امرها مايعلمون ، من الاعراض عما آتاها الله من احكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لانفسها من عناوين التزكية كأبناء الله واحبائه ، وما يوهمون به انهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه ، وفى أثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى : « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت »

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الاخذ باحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن مسلمون لله ، ان يتدبروا هذا التهديد الالهى ، وأن يعلموا ان هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه واحكامه ، وحرف كلمه عن مواضعه

ثم عليهم أن يستمعوا الى وعيد الله لمن حاد عن طريقه « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ». ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا »

الربع الخامس

الامانة والعدل

* والكلام فيه لا يزال فى التشريع الداخلى الذى يحفظ على الامة استقرارها وهدوءها . وقد أرشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتهما ، والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الامانات الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والامانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان ، وكلف حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، أو الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، وأداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، وأداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، وأداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه ، أو لمن بيده التنفيذ ، وأداء الامانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهذبة التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، وتنقية التعاليم الدينية من

(*) الآيات ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء

البدع والخرافات والاساطير التى تفسد على الناس دينهم وتصورهم ، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ، وحفر الترع ، وانشاء المصانع ، كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو أمانة فى عنقه

أما العدل فى الاحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشدت الآيات الى أن سبيل الامانة والعدل انما هواطاعةالله المشرع ، والرسول المبين ، وأولى الامر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الامة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

ثم تلفت الآيات انظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، وتظهر ايمانها بشخصية الامة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الامة وقانونها ، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعا لشياطينهم ، وسيرا مع أهوائهم : « واذا قيل لهم تعالوا الى ماانزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »

وهذه نابتة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم أمركم : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »

الا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على البر والتقوى ، وخضعوا لاحكام الله ، واتخذوها حكما فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من الامتثال لما يلقى عليهم من احكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا . واذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » ، ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة ، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه ، وتعدهم برفع مكانتهم الى مستوى الذين انعم الله عليهم من عباده الاخيار « النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا »

الاستعداد للأمن الخارجى بعد الداخلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الامة من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء عليها ، المغتصب لها ، وتأمر بتطهير الامة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها

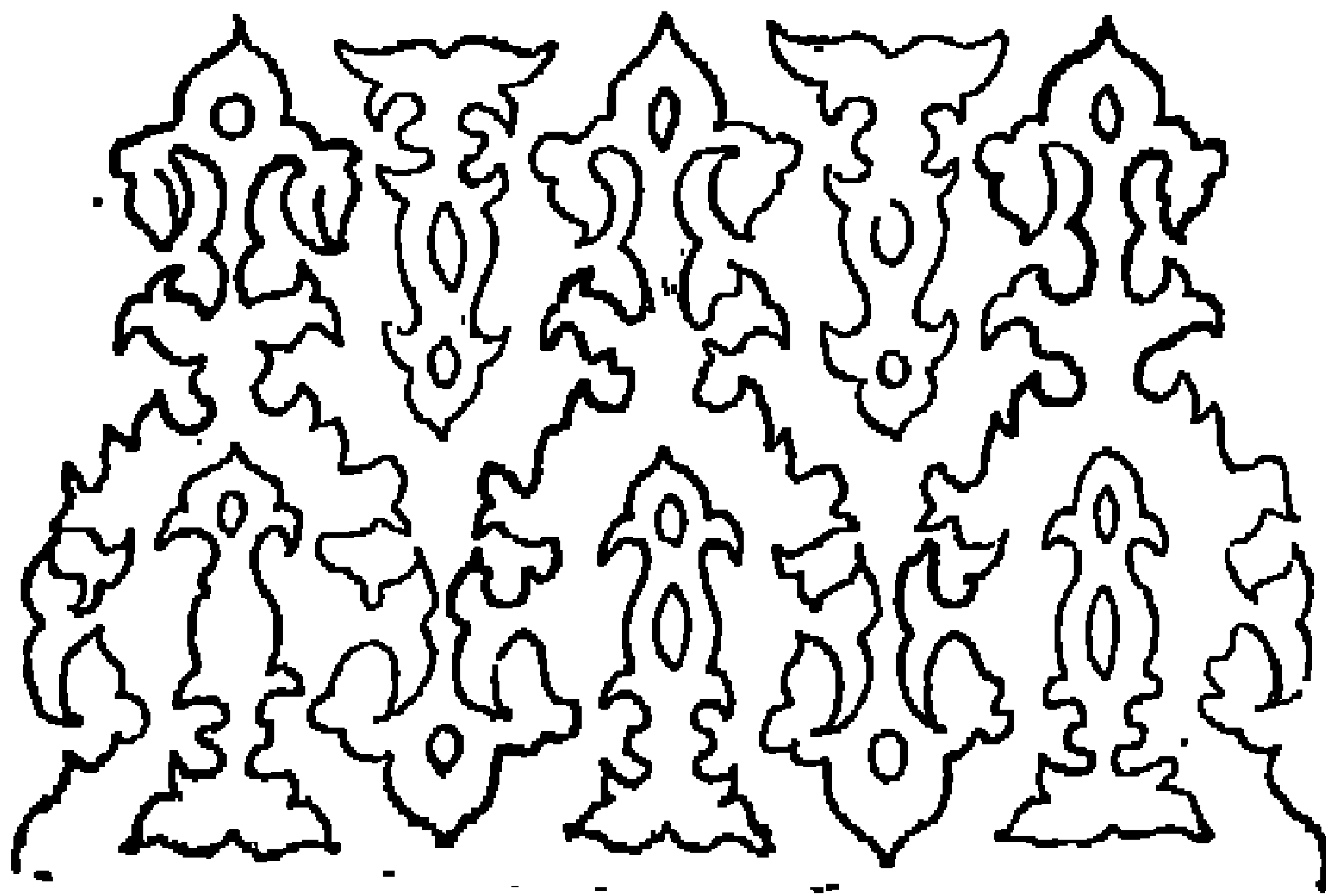
ثم تعرض الآيات فى سبح طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله ، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين . « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن

منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله
على اذ لم اكن معهم شهيدا ، ولئن اصابكم فضل من الله
ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتنى كنت معهم
فافوز فوزا عظيما »



الفصل الثالث

سورة الأنعام
وسورة الأعراف



سورة الأنعام

الربع السادس

تعامى المعاندين عن الحجج

قال تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون »

* هذا هو الربع السادس من سورة الانعام ، وسورة الانعام ، هى سورة الحجاج العقلى بين الحق والباطل ، وقد سلكت فى حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين فى كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا – تبريرا لعنادهم واعراضهم – حجة ليؤمنوا بها، ويقسموا أنهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وانما هم بذلك لا تنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ، وأنه مهما سيق

* الايات من ١١١ الى نهاية الاية ١٢٦ من سورة الانعام

اليهم من حجج ، وهيىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون الا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن ، فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، وأقبلوا على النظر البرىء فيما يدعون اليه « ولكن اكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان

وان واجب أهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم • ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون »

واجب الدعاة

وليعلم اهل الحق أن سنة الله جرت مع كل نبى وكل داع ، أن ينبت لهم أعداء يقفون امام دعوتهم ويعملون جهدهم فى صرف الناس عنها ، وما على هؤلاء الدعاة الا أن يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم وأتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله، وتكون العاقبة للصابرين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن » • ولقد كان فى قدرة الله أن يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما فعلوه »

واذن فيجب على دعاة الحق أن يتركوهم وان يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى انزل اليكم الكتاب

مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين »

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم: « وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله » ، « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعمتوهم — فى عقيدة أو عمل — انكم لمشركون »

أعداء الحق

وقد جرت سنة الله ايضا أن يجعل أعداء الحق فى كل أمة « أكابر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وأنهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات ، وفى الكيد لارباب الحق ، ولكنهم فى سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدى هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون »

بهذا مضت سنة الله فى الاولين ، وتمضى به فىالآخرين، وبه يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ، الذينيكيدون للحق ويصرفون الناس عن الحق « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . أما من يطهر قلبه من دواعى الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ، ويستقبل الحق بقلب نقى فانه يدخل فى رحمة الله ، وينعم بفضله وهدايته :

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »

الربع السابع

مهتد وضال

* يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا فى أدلة الحق ، فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم ، ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا فى كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون »

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التى يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لاغراء المتبوعين . ويتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين ، والتى تقطع عليهم فيها اعذارهم ، ويذكرون برسل الله وآياته ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هى التى غرتهم ، وصرفتهم عن الايمان بالرسل ، وعن النظر فى الآيات : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض » ، « يا معشر الجن والانس . ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا »

* الآيات ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام

شبيه الشيء منجذب اليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » . وفيما بين هـذا التصوير الآخذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن علاقة الاتباع بالمتبوعين فى الدنيا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه ، تختص احداهما بالضلال والاضلال ، وهى ان النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم واهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون »

الجزاء بعد الانذار

وتختص السنة الأخرى بشأن الله فى الحساب والجزاء ، وهى أنه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الامم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم ، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون »

سر التكليف والاختبار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التي يعامل الله بها عباده ـ في الضلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء ـ لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغني الذي يحتاج اليه كل من سواه ، وانما هي من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسيء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شاء سبحانه لاذهب العصاة المارقين ، واتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولا يعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختبار ، واظهارا لفضل العقل الذي فضل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما أحكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، إخذت الآيات تبكت الضالين في عقائدهم على بعض تصرفاتهم التي كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، وأعراضهم عن شرائعه وأحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم في الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن في طبائع الاشياء ما يسمح به أو يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ، وبعد هذا يأخذون مما جعلوه لله ويضيفونه لما جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الانعام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون ، حرموا ظهور بعض الانعام ، ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها ، وأكلوا ما ذبحوه باسم الأصنام والشركاء ، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه ،

وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات

وعبرتنا فى ذلك : ان التشريعات والتصرفات التى لا تؤسس على الايمان بالله وشرائعه لابد ان تكون عاقبة اهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ماحرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون ، وتظهر به اسرار الله فى خلقه ، وليقرءوا جميعا قوله تعالى :

«قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين »

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

* وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر ادلة التوحيد الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده ، والتى يسدون بها حاجاتهم ، ويمتعون بلذائذها أنفسهم ، يذكر من ذلك الزروع ، ويذكر الانعام ، ويلفتهم الى ما فى الزروع والاشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم ، وبثمارها فى طعامهم ، والى ما فى الانعام من ثروة حيوانية، لهم فيها دفء ومنافع ومنها ياكلون : « وهو الذى أنشأ

* الآيات ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام

جنات معروشات وغير معروشات » « ومن الانعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الانعام ، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما انعم الله به عليكم ، واحله لكم ، وان التفريق بين ما احل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه « قل آالذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه ارحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا »

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء اذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الانعام ، وانما الذى حرم أن يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الاصناف الاربعة ، وقد جاء ذلك الحصر فىسورتنا بقوله « قل لا اجد فيما اوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة او دما مسفوحا او لحم خنزير ، فانه رجس ، او فسقا اهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة اخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به » . وسورة الانعام ، وسورة النحل مكيتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم

الخنزير وما اهل لغير الله به » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : « احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من اواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام فى هذه الاربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين ، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم ، وفى عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم فى هذه الاربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ . وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ . ويجيب الله عن هذه الشبهة بان تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل » ، « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك ، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » يريدون أن الله رضيه وامر به ، او انهم كانوا مجبورين عليه بقهره الذى لا يستطيعون التخلص منه ، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون ، ويجادل بها المبطلون ، والله يجيب عنها بأن امثالهم السابقين كذبوا الرسل فاشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ، فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكترث باعتذارهم : فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم

حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم او بما يثبت قهرهم على ما هم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان انتم الا تخرصون » . واذ لا علم عنـــــدكم فلا تتبعوا اهواءكم واتبعوا ما انزل الله اليكـــم : « قل فلله الحجة البالغة »

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد واوعد ، وترككم كما خلقكم ، مختـــارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احســـانه ، وللمسيء اساءته ، ولو شـــــاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان ، او قهركم على العصـــيان فلا تقدرون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النـــوع الذى أعده للخير والشر ، وهداه النجدين.

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون »

الربع التاسع

(*) عرضت سورة الانعام لكثير من ادلة التوحيـــد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشـــبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليهـــا وعلى الدعاة ، وبينت فى

* الآيات من ١٥١ الى آخـــر سورة الانعام

سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية ؛ وفىمعارضة الباطل للحق حتى اوفت فى ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » ... الآيات . فركزت الدعوة فى امهات الفضائل ، واسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« الا تشركوا به شيئا » ، فله وحده العبادة ، وبه وحده الإستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتحريم

وفى جانب العمل :

« وبالوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفى احضانهما تربى ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقرير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى ؛ وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، او تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله ، واعتداء على خلافة ارادها الله . نعم . اهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على اخت لها بريئة فقتلتها ، او على نظام الله العام فحاربته وافسدته ، او على جماعة المسلمين فناصبتها العداء

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اشده ، واوفوا الكيل والميزان بالقسط» . فالاموال صنو النفس ، وعنصر الحياة . والاعتداء عليها اعتداء

على الحياة ، وقد خص بالذكر « الأكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس في المعاملات التى لابد الناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. »

وفى جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله اوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لامة عرفت بنقض العهود .

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الامم ، ومورد التهلكة

وصايا الهيه

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وانزل بها كل كتاب . فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاء بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى احسن » ، « وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لامانة الله «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون »

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع احدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريرا يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلىء قلبه ببرهانه المادي والتاريخي : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم » ؛ « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » ، « قل أغير الله ابغى ربا وهو رب كل شيء »

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الاثر فى قوة الداعى ، وفى تبديد شبه المعارضين مايركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق

اما الخاتمة الثانية والاخيرة فهى ارشاد الانسان إلى مكانته التى اعدها الله له فى هذه الحياة ، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الارض ، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب عليه أجياله ، ويقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه قد فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة ، ومن يسيء فيكون له من الله شديد العقاب : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم »

سورة الأعراف

الربع الأول

مهمة التنزيل المكى

(*) سورة الاعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الأنبياء، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى : تقرير التوحيد . ربوبية ، وألوهية ، وتشريعا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة . وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الالهية .

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وأرشدت الى الغاية التى لأجلها انزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعى ان يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة ويقوم بالمهمة التى ألقيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة

* أنظر أول الإعراف الى نهاية الاية ٣٠

الضمير ، والا يضعوا أمامهم العقبات التي تحرج الصدور، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الاصول فى آية واحدة ، تحمل الامر بناحية الايجاب ؛ وتحمل النهي من ناحية السلب ، فطلبت اتباع ما انزل من عقائد وأخلاق واعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم فى الشفاعة والمغفرة: « اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء »

ثم سلكت سبيل الانذار : فانذرت بما أصاب الامم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعتت عن أمر ربها : « وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم أن يسألوا عما أنزل اليهم ، ويوم ان يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان او يخف : « فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الانظار الى نعمة تمكين الناس فى الارض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى ، يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة والباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش »

ولفتت الانظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء فى الارض وعمارة الكون، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد ان قالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى واستكبر، وتعالى وتعاظم وقال « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة ، والذى يجب عليه ـ ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله فى خلقه ـ أن يتخذه عدوا ، يتحسس نواياه ، ويتعرف وسوسته ويكافحه بكل ما أوتى من قوة . يعرف أنه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من اثر عداوته لآدم ابى البشر : كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فأبتلاهما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعا فى شر المخالفة ، فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما الشيطان » ، « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا فى المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان، وقالا : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وهكذا يجب أن يربط أولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا ـ كما عرف ـ كيد الشيطان ، ويطهروا أنفسهم ـ كما طهر ـ من وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله فى الارض ، وابتلاهم بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ، ويكيد ، ويفرق ، ويغرى ، ونظم حياته

على قوى الافساد ، فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم يرحمون «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون »

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات اربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة

الربع الثانى

الانسان بين الخير والشر

* قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصل الى سعادته والى رضاه ، وله جانب شر ، به يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله . وأولاد آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم فى المخالفة والعصيان ، وأبليس الذى نشأ على عداوتهم يغريهم ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول ان يكشف لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لابيهم من عورات وسوءات

لهذا وجه الله الى ابناء آدم ، بعد ان بين لهم عداوة ابليس لابيهم ، اربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يابنى

* الآيات ٣١ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة الاعراف

آدم » يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم الى أن هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصاب والديهم ، انما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان ، واغفالهما هداية الله

امتن عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يسترون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، ولفت أنظارهم الى أن تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو أساس الرضا ، وأساس الشكر « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير »

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل ، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان : « يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » . وفى سبيل هذا يرشدهم الى أن عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون لهم ان مايفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وأمره «واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجىء النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وأنه من الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد وما يماثلها من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليها الاكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو المتنطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات

من الرزق ، ويرشدهم الى أن الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش » التى تأباها الانسانية ، و«البغى» فى الارض . و « الشرك » الذى لاتقوم له حجة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ، وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله واحكامه . وترشدهم الى أن لكل امة أجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لاتحظى بالنعيم بعد هذا الاجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرماته ، واصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يابنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

حرمان ابدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على انفسهم بالكفر والتكذيب ، وأن اربابهم ـ الـــذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله ـ قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الابدى ، ويوصد فى وجوههم ابواب الرحمة ، ويصف تقلبهم فى طبقات الجحيم المستعرة ، « كلما دخلت امة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنـــا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون »

« لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط »

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين »

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين : صفاء للنفوس من الغل والحقد ، وحمدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا نهتدى لولا ان هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون »

الربع الثالث

محادثة بين فرق ثلاث

* يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين ، وتجرى فى هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ؛ أهل الهدى والايمان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار ، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة ، وفى هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الاعراف «ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار» . «وعلى الأعراف

* الآيات ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الاعراف

رجال يعرفون كلا بسيماهم » . «ونادى اصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار اصحاب الجنة »

مشهد اخروى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل تبين تلك الآيات ماسيكون فيه من شماتة اهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار «ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا ان يقولوا « نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، ومشيرا الى ان ظلمهم للحق ولانفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين أن بين الجنة والنار حجابا ، وان على الاعراف رجالا ، يعرفون كلا من اهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم « ان سلام عليكم » وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم . ويبين لهم ما كانوا فيه من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة » ؟ . ثم يلتفتون الى اهل الايمان ويقولون : «ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا انتم تحزنون »

ويستقر اهل الكفر والضلال فى الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء اهل الجنة : « ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله اعذارهم بأنهم كانوا فى حل يوم أن جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ،

او نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون »

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الاعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا فى معنى الاعراف وفى رجاله • والذى يجب علينا ان نؤمن به ان هناك حجابا بين الجنة والنار ، قد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا ، والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد ان هناك مايمنع وصول أهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم • وان هذا الحجاب لايمنع من وصول الاصوات عن طريق المناداة ، ولعل مانشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الاصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ماتصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخييلا ولا تمثيلا

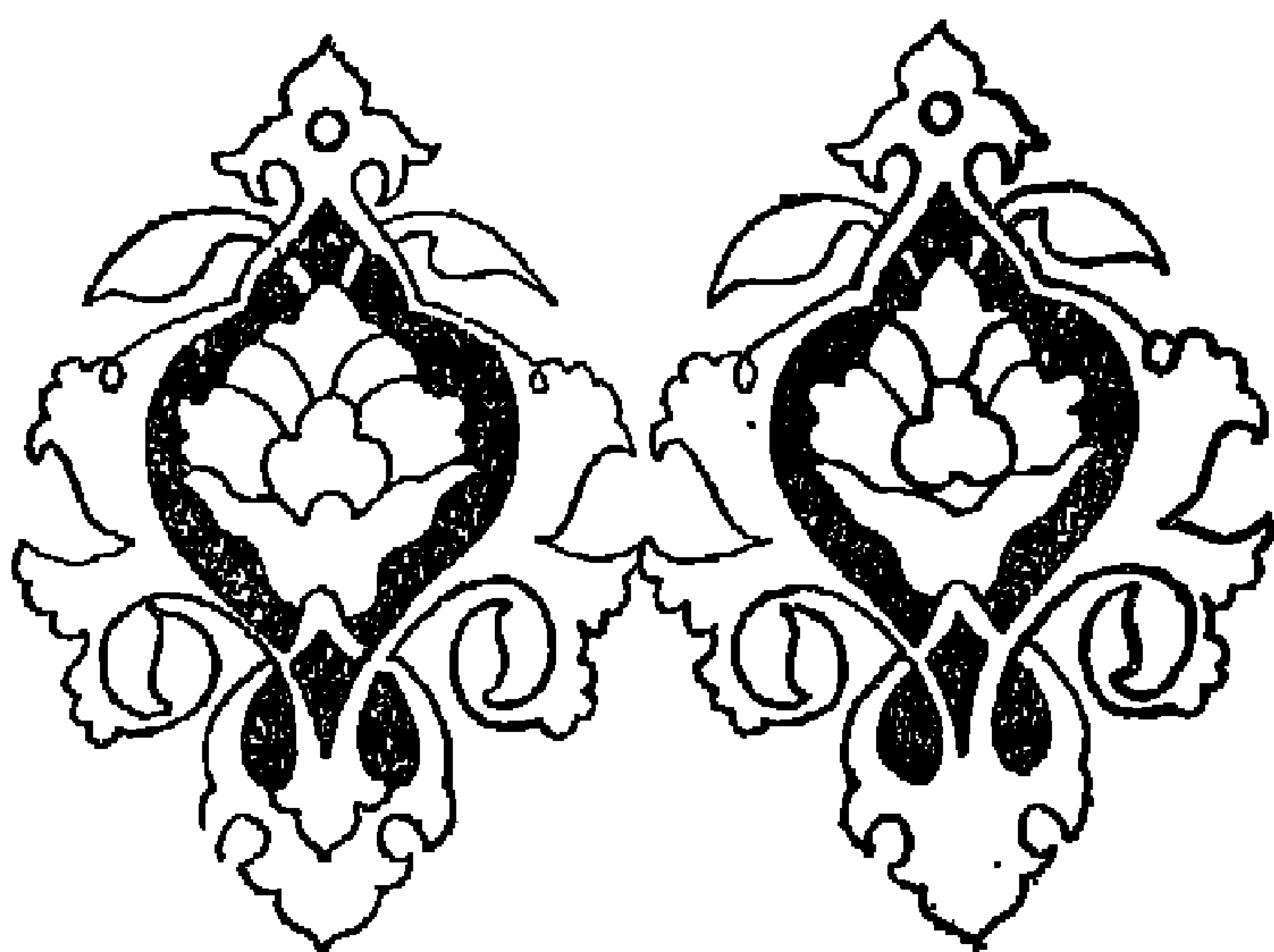
أما الاعراف ، فأظهر مانراه فى معناها ، الاماكن العالية الممتازة ، يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ماجعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الامم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ، « واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون »

عظات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض الادلة الكونيةوتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعاوخيفة ،وتحذر الافساد في الارض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التىتنفعل بهذه الادلة فتؤمن وتصدق وترد الامر كله الى مصدره ، خالق السموات والارض ، والذى له الخلق والامر . ومثلا آخر ـ يقابله ـ للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن انحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نبـــاته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الايات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة فى أولها من أحوال الامم المكذبة ، فتذكر جملة من الامم التى كذبت رسلها وعتت عن امر ربها ، وتبدأ بالرسول الاول الاب الثانى للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « اعبدوا الله مالكم من اله غيره » ، وأن الذين ناصبوه العداء وأخذ يسالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وأن نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين

الفصل الرابع

سورة يونس
سورة هود



سورة يونس

الربع الثالث

* عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التى كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ، وحول القرآن . ووصفت فى كل ذلك ما شاءت ان تصف وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة ، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دار السلام ، والامن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التى لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم فى دار الخزى من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون

---

* الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس

يوم الحشر الذى ينكرونه ويهزءون بذكراه ، ذلكم المشهد الذى يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب أمالهم فيهم ، وتتقطع ما بينهم من صلات ، ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم ايانا تعبدون » ، « ان كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفى هذا الموقف يتكشف الغطاء ، وتزول الاهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ، ليس لها شفيع من دونه : « وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون »

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والاماتة وتسجل عليهم الجواب المتين الذى لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال »

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيما وراء الخلق المادى ، من انواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية ،وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق ان يتبع ، أم من لا يهدى الا أن يهدى »

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون انه من عند الله ، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل

عليه ، من تقرير الحقائق ، واقامة الادلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية . والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلة ، والاحكام التى ترشد الى السعادة، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الاولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله »

ثم اخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبليغ وبلغاء

ثم تكشف لهم عن حقيقة امرهم ، وهى أنهم قوم مجترئون على مالم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم ايمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وانما هو ناشىء من صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وانه لا ذنب لاحد سوى انفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشىء منها ، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة

من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الابدى بما فرطوا فى جنب الله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله .وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون »

الربع الرابع

انذار وامهال

* من سنة الله مع المكذبين ان ينذرهم ، ثم لا يأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة انفسهم ، فاذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما اسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون انهم فى الانكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟! . وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به !

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أن العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لامحالة ، وأنهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه . ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من أن صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو

* تقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس

الله الذى له ملك السموات والارض ، والذى له الاحياء والاماتة ، والذى اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس ، وأنها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الاوهام والخرافات ، وارشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الانسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها . ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير مما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين

ثم تبكتهم فى اثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله فى التحليل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله « قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » . أيظنون أن الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟. « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون »

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل مايكون من شأن الانسان ، وبكل ماأودع فى كونه الذى خلقه « ومايعزب من ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء، ولاأصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . وانه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ماتوعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ماوعد به المؤمنين : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم فى الدنيا مايضىء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاه ، ولهم فى الحياة الآخرة ما يضىء وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء

خرافة الشركاء

واذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن في صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذى له ملك السموات والارض ومن فيهن ، وليعلموا أن مايعبد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن أنفسهم شيئا ، « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء ، فضلوا « وان هم الا يخرصون » . ان الله الذى جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذى له مافى السموات ومافى الارض ، ويقولون فى شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون »

الربع الخامس

* تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية ، ودفعت كثيراً من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول

---

* الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس

التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الاثناء بما أصاب الامم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

تسلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات « واتل عليهم نبأ نوح » تفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث فى قصة نوح على مادعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه ابو طالب ، وفقد النصير فى البيت ، بموت زوجه خديجة ، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له ، فأخذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا فى ذلك على الله وحده ، وأرشدته الى أن طول الامد على نوح ، وشدة اعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ، وطلب اليهم أن يجمعوا له كل مايستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا فى أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون امهال أو تردد ، وسوف يرون انه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبأ لهم بجمع ، وكيف يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا ، وانما يطلب بدعوته تنفيذ أمر

ربه ، الذى وكل أمره اليه ، واعتمد فى السراء والضراء عليه : « ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بايات الله فعلى الله توكلت »

فهذا يامحمد ، موقف اخيك نوح ، تمسك به وان طال عليك الامد ، واشتدت شكيمة الاعداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن ارباب الدعوات الصالحة بايمانهم وتوكلهم على الله ، وسينظر الله اليهم ، وينزل باعدائهم ماجرت سننه على انزاله باعداء الحق فى كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين »

اما قصة موسى واخيه ، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة ، وردتها الى أمرين : التمسك بالموروثات الفاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى وأخيه « وتكون لكما الكبرياء فى الارض » وأخذوا بهذا ينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « ان هذا لسحر مبين »

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة أن المعارضين على حق فى المعارضة والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر

له على البقاء أمام الحق ، وسرعان ماتتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا فى ميدان التحدى « ويحق الله الحــق بكلماته ولو كره المجرمون »

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل النـــاس على الايمان ، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده، يرد به الناس عن تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عــن الايمان ، ولا يقوم عليه الا أرباب النفوس القوية ، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنــا برحمتك من القوم الكافرين »

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشـــد من ازرهم ، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهـــم ، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسموا أرواحهم ويشرق عليها نور الحق

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فـرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم »

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغـيرة عــلى الحق ، فتخترق حجب السماء ، ويسمع موسى من ربه: « قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان ســبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده

النظر فى العواقب

لو تمثل للسارق وقت سرقته قطع يـــده أو للزانى وقت زناه ، حرمانه من الرأفة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا قتلهم أو نفيهم من الارض ، لمـا أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض . ولا مفسد على الافساد . وتلك طبيعـة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخذهم العذاب ، وينزل بهم النكال ، وهكذا قص الله علينا المرحلة الاخـيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييد الحق ونصرته ، وازهـاق الباطل والقضاء على عناصره

ايمان بعـد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقـومه ، بقصد الفتك بهم « بغيا وعدوا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمـة التوحيد « آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » . ولكن هيهات بعد أن كاذ للحق ، وكان فى سعة من الامر ، والرسول يدعوه ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه ، مغتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء ان يقبل منـه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفـران « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية ، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله فى

* الآيات من ٩٠ الى آخر سورة يونس

المفسدين : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هي الخاتمة السيئة التي زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته

تاسيس الايمان

اما الجملة الاولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك في القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان ، لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم ، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟ . ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاء ، ولو اراد الله ذلك لآمن من في الارض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء ، وتلك سنته التي ربط فيها بين الاسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس ان تؤمن

الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

واذن الله ، سنته ونظامه فى ايمـــان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهروالجاء ، واذا كان الشأن مبنيا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن أعرض عن النظر والتدبر فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له فى سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رســلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين »

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل مايوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفى هذا السياق ، تقــرر الآيات الاصول الاولى للدعوة فتذكر تطهير القلب منعبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف . ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لاينفع ولا يضر ، والعــاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وان يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب من سواه ، فهو صاحب الامر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لاحد من عبــاده حق التصرف فى خلقــه : « وان يمســـك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وأن يردك بخير فلا راد لفضله »

هو هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك فمن اهتدى به فقد أنقـــذ نفســه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الاهواء فقد

دس نفسه وعرضها للخزى والنكال

أما انت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك ، « واتبع ما يوحى اليك واصـــبر حتى يحكم الله وهو خـــير الحاكمين »



سورة هود

الربع الأول

* هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصول الدين ، واقامة الادلة عليها ، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر للسورة يرى انها .. أولا : قررت عناصر الدعوة الألهية — وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث — عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختتم بها الربع الاول منها : « مثل

* الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود

الفريقين كالاعمى والاصم .. »

ثم اخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وانذارا للمكذبين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية السورة : « ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون »

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود . وقدبدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل . وبالتفصيل فليس فيه خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة . تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث ، وأن الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة ، وأن مهمة الرسول، هى الانذار والتبشير : « الا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير »

وفى أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من

سعادتي الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور لنا حالة المعرضين فى محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم فى ثيابهم على صدورهم مع وضوح الادلة فى أنفسهم وفى الآفاق : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » . « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام »

ثم ترشد الى ان اعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعماء ، ولو انهم عصموا انفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم ، لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح مالا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات فى تسليته ، وبيان أن فى القرآن الغناء لمن يريد أن يؤمن ، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهى التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم اياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها . وانما هى الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى انزلها بعلمه ، وسيرون ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتا على حقية الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه واتجه اليها ، والى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله الى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به الا الذين

حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم انباء الاولين : « فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الاوصاف وترشد الى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم تختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : «أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون» . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون »

الربع الثانى

* هذا هو الفصل الثانى من سورة هود ، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على أنها بأصولها وادلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، هى دعوة الالوهية الوحيدة ، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة الى مرحلتها الاخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ، وهى مرحلة محمد عليه السلام . وأن محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما انه لم يكن بدعا فى المقابلة بالتكذيب من قومه ، وانما شانه فى الدعوة وفى اعراض قومه عنه ، شأن اخوانه السابقين مع أممهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه فى العاقبة شأنهم وشأن اقوامهم : « فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من

* الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود

المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين »

وفى هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه ، وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعونه . وفى كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق فى كل زمان ومكان أن يملأوا بها قلوبهم ، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالاب الثانى للبشر ، وهو نوح عليه السلام ، فذكرت أنه دعا قومه الى توحيد الله ، وأنه أنذرهم الشقاء الابدى اذا هم أعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الاصنام من دون الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وذكرت أن القوم طعنوا فى رسالته، فقالوا : انه بشر مثلهم ، أى والبشر لا يصلح فى نظرهم أن يكون رسولا ، وقالوا :انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا « الفقراء » ولو كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء « الطبقة العليا » ، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا أنفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقراء ، يجمعهم واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف من قوم نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقات ، التى تقلب بها المجتمع البشرى ــ ولايزال ــ على كتل من الجمر، محرقة للفضائل ، مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى ، ويخلص نفسه من هذه

العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفولة التى لا رشد فيه ؟

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة الايمان بها ، ليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ، وانما يدعوهم اليها طلبا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شىء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق ؟ ، والا فكيف ينقمون منه أن أجاب الفقراء دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر ، ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ، والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه أن يطردهم : « وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم » ؟

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها ان يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو ان يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر ، ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته ، ولم يجعل الناس امامه فى التبليغ الا كما جعلهم فى الخلق ، سواسية لا طبقات ، ولا اسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين »

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ، ويدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الوغل فى العناد ، يلقى بنفسه فى اليم أو فى النار ، حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدرى أنه يسجل على نفسه نهاية الخزى فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين »

وتأتى المرحلة الاخيرة فيعلم الله فيها نوحا أنه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ، واتخذ وسيلة لنجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » ، فيمتثل نوح الامر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم أن عاقبتهم فى موقف السخرية والعذاب ، هى عاقبتهم فى موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزى العذاب ، كما أصابهم خزى الحجة والبرهان . وان من العذاب مايرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين فى سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلا يشفى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لاهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم أليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم »

بنوة الايمان هى الحقة

* صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع اتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفجر الماء حتى طغى ، وأخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : « يابنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » . فأبى الولد، وعزف عن دعوة ابيه ،واعتقد انه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الابوة الطبيعية ، فطلب من الله انجاز وعده فى اهله معتقدا أن ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « أن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين » . فيرد الله عليه بأن البنوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله مالم تشد أزرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤكد ويفصل ما جاء فى رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك،انه عمل غير صالح» ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين» فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

---

* الايات من ٢٥ الى نهاية الاية ٤٠ من سورة هود

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص في القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت في الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير في عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل : بأن الطوفان لم يكن عاما ، وأن التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الاب الثاني للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية في ارسال الرسل الى أقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الارض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه في السفينة ، وأن رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس في قومه ، لا بحكم أنه مرسل لهم ولغيرهم ، وأن نوحا هو الاب الثاني للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وأن الطوفان كان عاما للمعمور من الارض اذ ذاك

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول

رأى الامام الاكبر

والذي نراه ان المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحي لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الاوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ماتدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل ف «نوح» أرسل لقومه فقط ، أما انه كان في المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو أنه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شيء ليس له تأثير في هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الارض ،

ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »

هذا . وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالته على أن القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين »

قصة هود

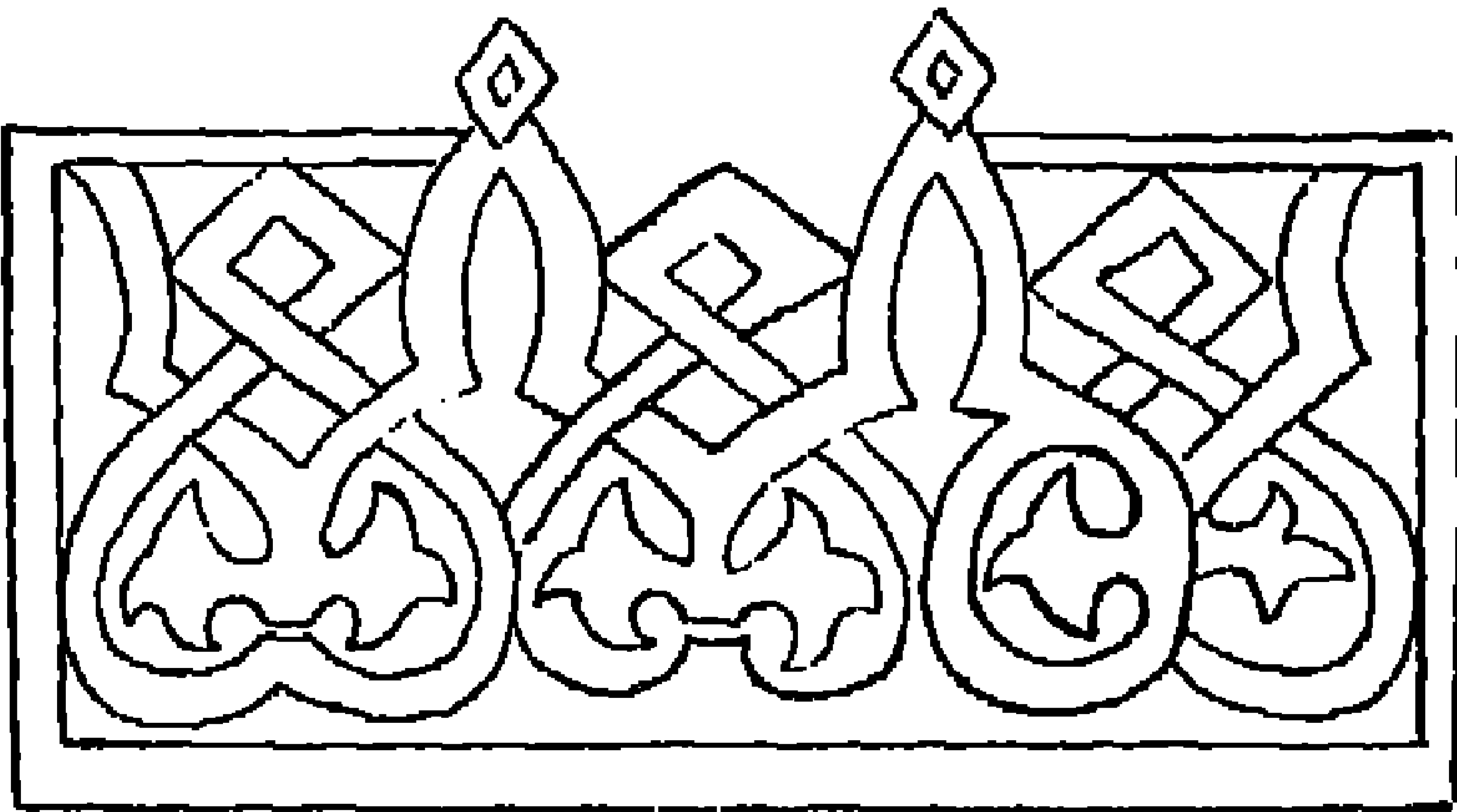
ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصةهودعليه السلام ،فتذكر دعوته ايضا الى قومه ، وأنه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان آلهتهم انزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى مايستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها »

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود »

الفصل الخامس

سورة الكهف
وسورة مريم



سورة الكهف

تقديم

* سورة الكهف هى السورة الثالثة من سور خمس فى القرآن الكريم ، بدئت ب « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والانعام ، وبعدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم ألفه الناس فى تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الارض من زينة ونعم مادية انما كان طريقا لاختبار الناس ايشكرون أم يكفرون ؟ . وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو اسمى منه وارفع : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »

قصص وأمثلة للعظة والعبرة

وفى سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة فى تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ،

* تقدمة عامة لسورة الكهف

وهي قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وقصة موسى مع العبد الصالح ، وهى قصة التواضع الذى لا يعــرف فى سبيل العلم والتكمل بالمعرفة التكبر ولا الغرور : « هـل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ؟ . وقصة العدل واغاثة الضعيف ، وهى قصة ذى القــرنين الذى اتصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين

وكما استخدمت السورة فى سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بها ان الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغنى المكاثر بماله والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنــا لاحدهما جنتين .. » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثـل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » . ومثــل ابليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس » . وهنا حذرت الآيات أبناء آدم أن يتخذوه وأعوانه أولياء من دون الله وبينت لهم انه وذريته أعداء لهم من أول النشأة، يدفعونهم الى الشر ويكيدون لهم عن طـــريق الاغواء ، ويصرفونهم عن ارباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال النــاس عن الحق ليس لهم فى شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق ونظم ، وهو لم يعتمــد عليهم فى فعل أو يشركهم فى رأى ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطــان التوجيه ؟ ، وكيف تروج عند الناس وسوستهم .. ؟ «ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . فتخلوا عنهم كما سيتخلى

منهم شركاؤهم ويسلمونهم الى النار « ولم يجدوا عنها مصرفا » . ثم تشير الآيات الى أن اعراضهم عن الحق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل وانما هو الطغيان الذى يمنع صاحبه من الايمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليدحض به الحق ويحول بينه وبين التفكير فى العاقبة فلا يتذكر الا اذا استمر به العذاب أو فاجأته سنة الاولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيراها المنكرون من بعد

ثم تذكر الايات أنه لولا رحمة الله بعباده وأنه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولكنه جعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه مصرفا عن العذاب « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »

وجوب التواضع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه فى المعارف الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفى هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وانه لاينبغى أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم ، وتزكية النفس بعلمهم ، فهذا موسى نبى الله وكليمه ، لا يكاد يعلم بالعبد الصالح وبماعنده من علم حتى يجمع امره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا ابرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل ، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى

لك أمرا » . فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هـو التزم الشرط : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا »

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول مافوجيء به موسى أن العبد خرقها ، وكان لخرقهاهول في نفس موسى أنساه الالتزام السـابق ، فأنكر عليـه ، ثم عاد يعتـذر بالنسيان

وكان الحادث الثانى أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الانكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العـلاقة ان عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفـذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال « هذا فراق بينى وبينـك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا »

الربع الأخير

سر الاحداث التى أنكرها موسى

وفى هذا الربع يفى العبد الصـالح لموسى بمـا التزم ، فيكشـف له عن سر الاحداث التى فعلها وانكرها عليـه موسى ، وهى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، والاحسـان لقوم لايعرفون قيمة الاحسان . وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتـل النفس ، ولا تحمل المشقة لقوم لا يطعمون المحتاج . ويدور البيان على ان وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا

* الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف

يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من اهلها ، فرأى العبد الصالح ان يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لابويه ، فاحتفاظا بسعادتهما ، وابقاء على ايمانهما قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما »

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان احد طرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن أين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه

وأما الجدار فليس الشأن فيه لاهل القرية ، وانما هو لايتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب « أخف الضررين » التى تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير »

ولقد عرف موسى من هذه الرحلة أن وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه انوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المادية ، والمنغصات البشرية ،

ويصفوا لله في الدعوة الى الله

نبأ ذى القرنين

ثم تقص الايات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدى الظالمين ،كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم ، فبخس احسان المحسن لا يقل فى ضرر الجماعة عن محاباة المسيء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين

أما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه: « قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال : « مامكنى فيه ربى خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولايلقوا

بكل أمرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسدون اليهم سبيلا : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا »

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب ، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب ضرر المفسدين ، وواجب الامة مع هؤلاء المخلصين ان يبذلوا فى معونتهم ما استطاعوا بقوة واخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتأليب الاعداء عليها ، فهى دعوى يجب أخذ الحيطة منها . وواجب الامة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه ، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجمل للقوم رسالته : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا»

سورة مريم

الربع الأول

كهيعص

* سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجائية . وقد لوحظ أن هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتنويه بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة

ولعلها لهذا بدئت كلها ببدء غير مألوف .. وهو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البدء الغريب قرعا للاسماع واعدادا لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبى الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدةمريم وولدها عيسى ، وأرشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن

---

* الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦

زكريا واجابة دعائه ، اثر لرحمة الله به ، ولاريب أن الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة ابيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الاب ، واستمرار لأثره ، الذى يتحقق به نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال اقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ــ كما تحدثت عنها سورة آل عمران ــ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الراس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، واكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب أنى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » . فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها حصول الحمل،ويتعجل بها السرور الواقعى . «رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءته هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة

وعبرتنا من قصة زكريا أن اقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، واخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع ، وقصة مريم أدخل فى الغرابة من قصة زكريا ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل. وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف: « فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة ما تجيب به قومها . وهى لنفسها أعرف ، ولا تملك من أمر الناس شيئا، فتلبيها الرحمة الالهية : « فاما ترين من البشر احدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما » . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ؛ ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا »

وبذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من

قبل . وهكذا اجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الارض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الاهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة ، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا ادا : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ..

الربع الثانى

قصــــة ابراهيم

* وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصـــة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة . فتحـــدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس الى حجــه ، وتحدث عن رحلته ، وأسلوبه فى الدعوة والحجاج ،وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين أنه اثر دعوته، وأن رسالته من رسالته ، ومن ذلك كله اتخـــذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابيين

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : « كان فتى الفتيان ، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ،وولده للقربان ، وماله للضيفان ، وأهله للوديان واقرا كل ذلك فى القرآن »

بهذا ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر فى الكتــاب

---

* الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم

ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابى ولا مشرك الا وهو يقدس ابراهيم، وما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا أو نفلا ، الا ويدعو الله فى صلاته أن يصلى ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقومه ؛ فيخففوا من حدتهم ، وأن يذكره لنفسه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه

أسلوب ابراهيم فى الدعوة

وتخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والادب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل الناد والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل والفساد : « يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم فى دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار والتهديد . « لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا » فيقابل إبراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى الا أكون بدعاء ربى شقيا » . وهكذا تقف البنوة البارة من الابوة القاسية ، ومن قبل وقفت هكذا الابوة الرحيمة مع البنوة العاقة ، دعا نوح ربه لنجاة ولده ، فعاتبه ربه وبين له أنه ليس من أهله ، ولكن للابوة مكانتها ، فلم ينكر الله

على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظـــا باحترام البنوة للابوة وان كانت مشركة ضالة . «ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم أباه وقومه ، ويلقى بنفسه فى أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير فى طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيــا »

رســـل كرام

ثم تقفى الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفـــاء النفس واخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : «وقربناه نجيا» ثم تذكر اسماعيل ، وما كان عليه من الصـــدق مع نفســـه ، ومع ربه ومع اسرته التى هى درعه فى دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقيـــــة والرفعة عند الله

وبعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصتـــه ، وتشد بذكراهم أزر الرسول فى دعوته ، تعود فتجمعهم فى اطار من الشرف الالهى ، وتنسبهم جميعا الى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الانسانى العــام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحى الالهى

ثم تشير الى الرباط النسبى الخاص بذرية نوح ومن كان معه فى السفينة ، والخاص بذرية ابراهيم واسرائيل، ثم تذكر امتيازهم الدينى ومكانتهم الربانية « أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا،

اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »

وبازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت فى وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الاهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة الا لمن عاد اليه رشده فأدرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا »

الربع الثالث

من وصف الجنة

* قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وانما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحى دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وأن كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها

* الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم

الانتقال من مالك سابق الى آخر لا حق ، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود ، وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا »

ونظرا الى أن اهم اهداف البيـــان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل اعباء التكاليف ، كان من سنته المفاجاة فى أثنــاء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشـــاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجىء وهو فى أحكام الطلاق والاسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين »

وفى سورة طه اذ يفاجىء ــ وهو فى حديث يتصـــل بالناس جميعا ــ بقوله فى شأن خاص بتلهف الرسول على تلقى الوحى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » . ومن ذلك قوله فى سورتنا على السنة ملائكة الوحى فى شأن نزولهم على النبى صلى الله عليه وسلم وتطمينه على السير فيه الى النهاية : «وما نتنزل الا بامر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا »

البعث حق

ثم تنتقـــل الآيات وترد على حجج المكذبين فى انــكار البعث : «ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لايذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا» . ثم

تفرض الآيات وقوع البعث وأنه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »

غرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم ، وزعمهم انهم متفوقون بها عن هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر اموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما واحسن نديا ، وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن أثاثا ورئيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم فى الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبة امرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شيء ، وسيجمعون فى ساحة العدل ، يوم لاينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا »

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين فى كل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، ويصوروهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم . وعن ذلك الطريق يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهؤلاء وأمثالهم أن هؤلاء الائمة المنتحلين سيتبرءون منهم ويكفرون بعبادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى

جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد، والهوى المتبع لكثير من الطوائف ، فاتخذوه عقيدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخر الجبال هدا »

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

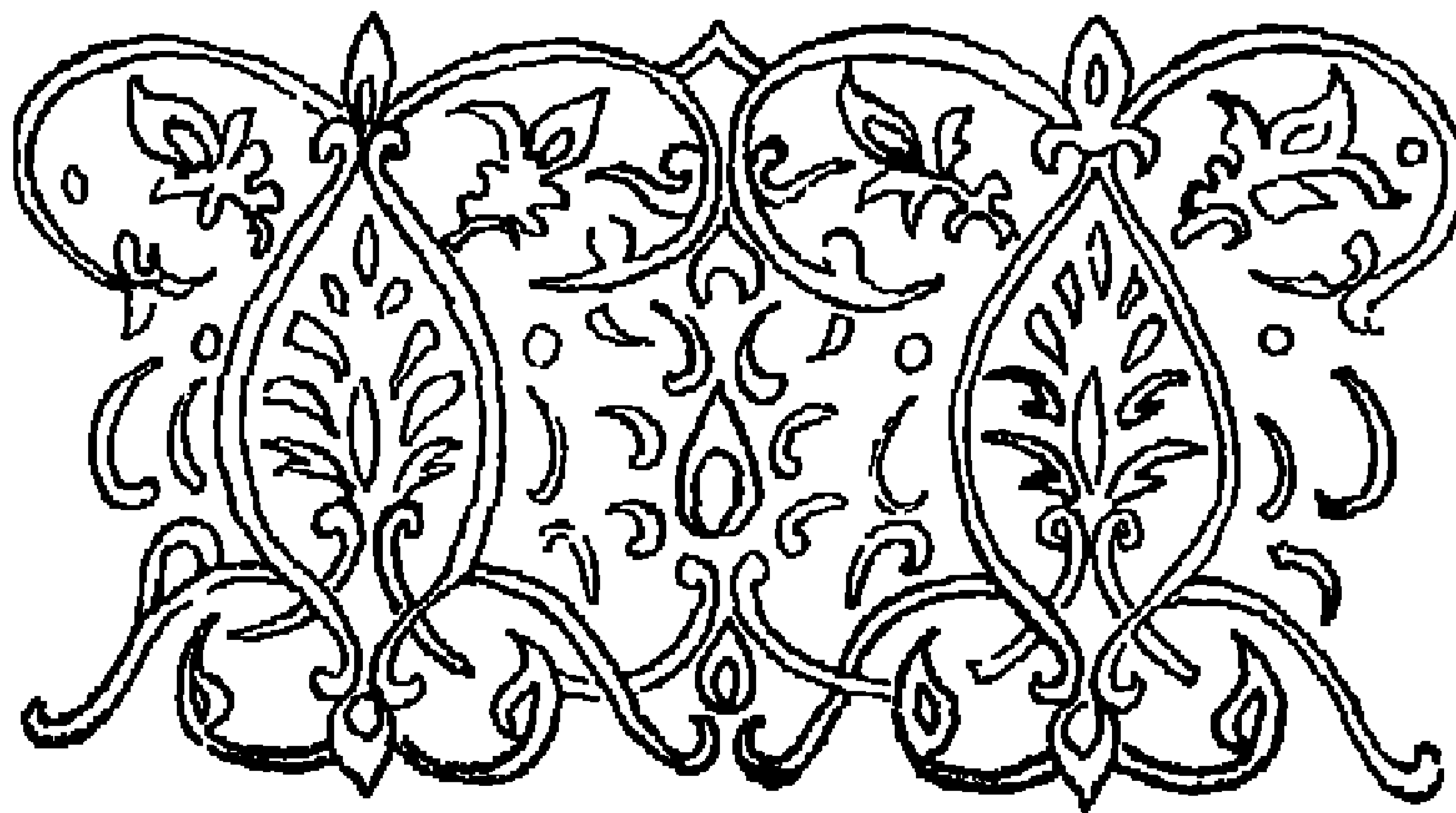
صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيها ارتباط قلوبهم ، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضي عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزا »



الفصل السادس

سورة طه
وسورة النمل



سورة طه

الربع الأول

* وسورة طه من السور المكية الاولى ، وقد نزلت لشد ازر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد والعناد ، ولارشاده الى ان مهمته هى فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهذا التذكير من طهرت نفسه واشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الاهواء وزخارف هذه الحياة ، وانه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم واعراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى »

وبعد ان ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئنه على نجاح دعوته ، من جهة انها دعوة القوى القادر الذى خلق الارض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ؛ ونفذ تدبيره الى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها

ثم تجمل له اوصاف الجلال والجمال فى كلمة التبليغ

---

* الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه

التى امر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى »

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية ، نبأ اخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد ممـا قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصة الصبر على مكايد القوم ، ونتيجته فى موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات فى آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله ان يتحلى بهـا فى دعوته وهى الصـبر ، وعالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن يعصم نفسه منها وهى الحزن وعدم الثبات

ثم تختتم باجمال المبادىء التى تملأ قلبه بالصـبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون، وبتنزيه الله وتذكره الاعتمـاد عليه . وتحذره أن يمـد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على اداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق ربك خير وابقى » « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السورة بالاسلحة التي يبدد بها خواطر الضيق والحرج، تغرس فى نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصـوا فسـتعلمون من اصحاب الصراط السوى ومن اهتدى »

معنى الشقاء هنا

تلك سـورة طـه ، ومن هـذا العـرض الوجيـز

يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله : « لتشقى» ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يا رجل ، او فعلا يأمره بأن يطأ الارض بقدميه ، ليس شيء من ذلك كما تريد ان تفسره الروايات، وليس من السهل — والرسول يعرف دين الله ويسره — أن يقبل شيء من هذا . كما أنه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل ؟ ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس فى السورة شيء يتصل بقيامه فى عبادته على قدميه او على احداهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه

و « طه » هى كأخواتها ، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السور التى عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خوطب النبى بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلا على ان الكلمة نداء له او امر له بمعناها : « المص كتاب أنزل اليك » « الر كتاب أنزلناه اليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول فى كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة ، واجملتها في التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت امره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت ان موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه

ان يقوى قلبه وان يسهل له امره وان يمنحه لسانا بينا ، وان يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى فى دعوته، وان الله اجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ . «اذهب انت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبلُ ، وامر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد اثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه ، فتلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جوف البحار « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضانته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »

الربع الثانى

* وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الاخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى ، وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان ، ومن اى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله ، وتلطف بالغ فى توجيه الانذار

---

* الآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه

اسئلة واجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صاحب الوحى ، ومصدر الانذار ، وسألهما عن القرون الاولى وما تم فى شأنها ، اختبارا لعلمهما ، وكأنه ظن أن الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحى والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التى تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » اعطى كل شيء الوضع والشكل الذى به تتحقق فائدته ، ثم اودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثانى ان شئون القرون الاولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ؛ فنحن بشر لانعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء اعلمنا بها وان شاء امسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى »

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها ، وأن يتعرف حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » تبصرهم بالرب وترشدهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه

اشياء لايفيد السؤال عنها

إما السؤال عن القرون الاولى فما فائدته ، وقد عميت

الابصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شأن اولى النهى والعقول الا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقةالشيطان وعلى اى شكل هو؟ وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟ وكيف يوسوس له ؟ . وعن الجنة : ما مادتها؟ ما سعتها ؟ ماأرضها، ماسماؤها؟ وما الى ذلك مما يترك به الانسان الجاد النافع الى مالا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى ان يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء ان تهزه تلك الاطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى »

لجاج وحجاج

وامام روعة الادلة التى يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا ان ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوت الذى يهرف بما لا يكون : « أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، واين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على ان يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الاعلى ؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله، ويتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة ، ويبذل فرعون اقصى جهده فى جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم فى انفسهم قولا بليغا ، قياما بواجب الارشاد والتبليغ : « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب

وقد خاب من افترى» ويتركهم موسى بعد نصحهم يتنازعون ويتشاورون ، واخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين ان يتقدم او يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » فيوجس موسى فى نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى ان العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك انت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا تخترق الحقيقة قلوب اهل العلم وتضيء لهم الحق فى دعوة موسى فلا يملكون سوى ان يخروا سجدا : « آمنا برب هرون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعدهم بلجلجة الباطل : « آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره ، ولا يعبئون بتهديده ، شأن العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم ان يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى ادركوها بعلمهم .. الفرق بين ماصنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق . اما العلم الذى لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين

الذين ينكرون الحق ، فجدير به ان يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق ، فيوحى الله الى موسى ، انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله اولياءه بما يرد كيد الاعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقى فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم واضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة تودى بأمتها الى مكان سحيق

قتل الانسان ما أكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذى كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى انجاهم واعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، علهم يخففون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله فى العفو والمغفرة مهما تضخمت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيبا للعباد فى الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »

ســـورة النـمل

الربع الأخير

* هذا هو الربع الاخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التى عالجت أصول الدين من التوحيـد والرسالة والبعث ، وهى احدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووضعت فى المصحف متتالية : وهى سـورة الشـعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصـص واشـتركت ثلاثتها فى المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله فى معاملة المكذبين الاولين ، وعن طريق لفت الانظار الى آثار القـدرة البـاهرة التى لا يعجـزها شيء فى الارض ولا فى السـماء ، وعن طريق التحدث عن الاحوال والمشـاهد الهولية التى يصـيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجـزاء . وهو حديث اليها أو تصير اليها يوم البعث والجزاء

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجـانب البعث الى انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا « أئذا كنا ترابا وآباؤنا ائنا لمخرجون . لقد وعدنا هـذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » وحتى قالوا : « متى

* تقدمة الآيات ٨٢ الى آخـر سورة النمل

هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة اسلافهم الذين كذبوا بالبعث « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » . وارشدت الرسول عليه السلام أن ينذرهم بمشارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين . وان ارجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وانه سيقضى بينهم بحكمه فلا يضيق صدرك يامحمد باعراضهم . «وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم» . ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الأكبر الذى أعد لهم فى الآخرة

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه، وان دابة لها من غرابة الشأن ما لها ستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذى انكروه . وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة واسرفوا حتى قيل : انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم امه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى اخبر به القرآن ؛ ثم تركنا ما وراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانما هو انذار ووعيد وتهديد

فلنقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيما استأثر الله بعلمه « هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الأهوال

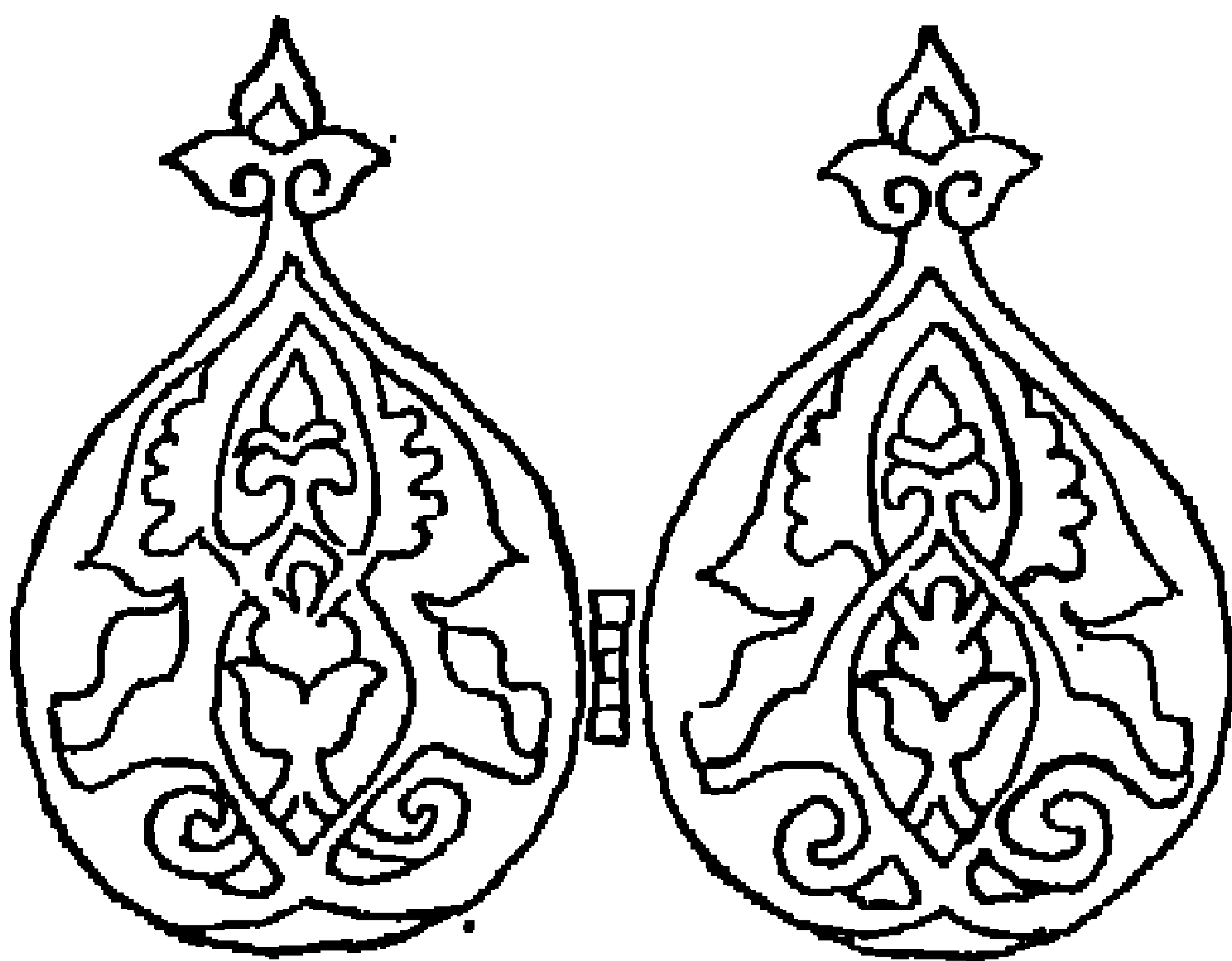
والمشاهد التى يراها الظالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على اولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال اكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ام ماذا كنتم تعملون » « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : «صاغرين» « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء » . وهنا ايضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، اهى ثنتان ، أم ثلاث ، أم اربع ، وعن اثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف

وواضح ان فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقضى على هذه الحياة ، ويخرجها عن نظامها ، ويسلم اهلها الى حياة اخرى ذات نعيم دائم او عذاب أليم

ثم ارشدت الآيات الى ان المكلفين أمام شرع الله ودينه ، اما محسن فله خير من حسنته ، وأما مسىء فعاقبته الخزى والنكال « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه ، غير ضائق صدره بكفرهم ، وان هدايتهم لا تنفع احدا سواهم ، وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وان يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم ما كانوا به يستهزئون : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون »

الفصل السابع

سورة القصص
وسورة العنكبوت
وسورة غافر



سورة القصص

الربع الأول

* سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت فى المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق فى منهجها وهدفها كما اتفقت فى جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت، ولعل ما ذكرته سورة القصص فى قصة موسى وفرعون يتضح فى كثير منه أنه تتميم أو بيان لما اجمل فيها فى السورتين قبلها

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هى السورة الوحيدة التى انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو فى مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه فى تسمية السورة «القصص» وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات

* الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص

متصلة من غرائب الاحداث ، تتجلى فيها — أولا وقبل كل شيء — رهبة الطغـاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم ، والقضاء على سلطانهم الذى يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو فى الارض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا ، وتلك عادة الطغيان فى كل زمان ومكان : لايدع الرعية تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها على ازالة سلطانه والقضـاء على غطرسته وقد كان من اثر تلك الرهبـة ان أوحى الى فرعـون من بعض شياطينه أن وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ، ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفذ الامر فيهم كى يطمئن على عرشه وسلطانه ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية ، فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطغيانه عليـه ، ولا يزال رب موسى يرعى موسى حتى يعـده لما يريد من زعزعـة الجبروت واذابة الطغيـان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء والقـواد المصلحين والأنبياء المرسلين : « ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نسـاءهم انه كان من المفسدين ، ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمـة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » وهكذا سـنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ، رأيناها فى فرعون وموسى ورأيناها فى محمـد وأصحابه ، ورأيناها فى كثير من الازمنة وكثير من الامكنة.

وحياتنا الحاضرة اكبر شاهد وأوضح مثال ، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه وطغى وبغى وأخذ بالناس عن طريق الهدى والرشاد

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد أمه عليه ، فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « واوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون واهله فينشرح لمنظره صدر زوجه وتوصى بالمحافظة عليه « قرة عين لى ولك لا تقتلوه ؛ عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا »

من عجائب الاقدار

ومن عجائب الاقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون ، واغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا أن الله يعد للظالم قذيفة من صنع يده ، وأنه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى . فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاظم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا اكبر عبرة لمن اراد أن يذكر أو أراد شكورا

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فرده اليها واحتضنته وهو والدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئة بالأشواك والأقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الأخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجأ عند الشدائد ، ويستنصرونه فى كربهم فينصرهم ،

حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين »

ويتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امرأتين معهما أنعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهم ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احداهما ، « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والامانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران « ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل »

الربع الثانى

* وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم فى رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التى عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والامانة ، وكانت سكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة

* الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص

الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين

تكاليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا او هاديا بشريا . فيرى النور الذى لا يلحقه ظلام، ويسمع الهداية التى لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى انا الله رب العالمين » ، ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء « فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين » يتلقى موسى امر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف ان يقتلوه ، ويطلب من ربه ان يشد ازره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه « سنشد عضدك باخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون »

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشتد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى »

سنة الله مع اعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع اعداء الله ، يجعلهم فى الدنيا أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكـــذا سنته مع أوليائه دعاة الحق ، يجعلهم كمـا وعـد أئمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتـاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للنـاس وهـدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصـلاة والسلام وفى كل طور منهـــا ابلغ العظات والعبر لقـوم يذكرون ، ثم قصها محمد على اهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدهـا الله فى كتابه لتكون العظة أتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منها الضـــالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع اسلافهم

انباء اوحى بها الله

يقص الله على محمد قصـــــة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى انه يبلغ عن نفسـه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما فى اهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سقى الانعام ولانباه فى الزواج ، ونباه فى الاجلين . تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة ، ولكنها احداث وقعت وتطاول عليهـــا الزمن حتى نسى الناس

رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فارسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص عليهم انباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك ابطلنا حجتهم وقطعنا اعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضي عليهم بالايمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته فى النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا اوتى مثل ما اوتى موسى » . فهل آمنوا بما اتى به موسى ؟ او لم يكفروا به من قبل الم يقولوا عن موسى واخيه : «سحران او ساحران تظاهرا ، انا بكل كافرون » فهؤلاء من اولئك

ومسلك اهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت اقوالهم . انكر اسلافهم دعوة موسى واخيه . وانكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية ان يأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما ؟ اما ان يكذبوا دون ان يقدموا حجة او يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين»

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لاهل مكة اســــاليب الدعوة ، والوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر فى آثار قدرته ولفتهم لتــدبر سنتـــه ، وكشف لهـــم عما أعد من عـــذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول فى ذلك كله بعضه ببعض ، ووافاهم بحججه وامثـــاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعد عبرة . ومع هذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصـــــيل القول ، وتصريف الآيات ما انار لهم السبيل ، واوضح امامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك فى حقية دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه الســابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون حقيتها وانها تلتقى مع دعوة اخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كما آمنــوا بما انزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحـــق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة ، كما تعرض لأوصافهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صــبرهم

* الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص

فى مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير فى طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . فتلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم انت ومن آمن معك عليها ، ولايحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله فى انفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من اقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد ان كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد ان كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، ووهم باطل : فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه ان يحفظهم وان يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم إنصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكاره سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين »

ثم ترشدهم الآيات الى ان ماهم فيه من جاه ومال

وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شـــيئا من قضاء الله : « وما اوتيتم من شيء فمتاع الحيـــاة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون » . ثم تضع الآياتأمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم فى أيالصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبسون دعوة الحق وبه يؤمنون ، وصــورة الذين يرفضـــــونها وبه يكفرون . « افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيــه كمن متعناه متاع الحياة الدنيـــا ثم هو يوم القيـــامة من المحضرين »

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبينشركائهم من محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيهم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين اغوينا ، اغويناهم كما غوينـــــا » اى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم ان يغووا باختيارهم كما غوينا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » « ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسـلين ، فعميت عليهـــم الانباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون »

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون ان ينزل الوحى على رجل فقير يتيم من بينهم وقالوا « لولا نزل هــذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكما لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشــيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصــلاحيتهم لما يريد : « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة »

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليـــل والنهـــــار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتــراف بأن لا قدرة لاحد سواه فى ذلك التنظيم اذ هو جعل الليل او النهار سرمدا : « من اله غير الله يأتيـــكم بضـــياء ؟. من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟» فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا انفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ما كانوا يفترون

الربع الرابع

علاج لنزعات الشر

* يعتز الناس فى دنياهم بما لهم من جـــــاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطــر ، تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات، فينكرون الحق ، ويتزعمون عصابات الشر والفســـاد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة فى الانســـان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، والى ان الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذا هو استمر عـــلى طغيانه وبطره ، وانه لا ينبغى لعاقل ان يغتر ببســـمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمل الصالح

---

* الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص

قارون وامواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفى سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا امر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . انعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، او حمل مفاتحه ، ونسى حق الله فى ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا أنه من سعيه وكده ، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتى ، واعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ امره وسلطانه

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان احوالها فى تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انما هى فى ان يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم ، وخرج بطرا فى زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا أن ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منها مالا يدرك غيرهم ، اخذوا يؤنبونهم على هذا التمنى ، ويؤكدون لهم أن وراء هذه المظاهر الفاتنة الفانية ما هو اسمى منها ، وهو معرفة حق الله فى نعمه وان للبغى من العواقب ما يجدر بالعاقل ان يقدره ، وان يدخله فى حسابه ، وقد صدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هى الا دوره فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طى صحائف الماضى : « فخسفنا به وبداره الارض فما كان

له من فئة ينصرونه من دون الله ومامن المنتصرين واصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون »

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون، وفى كيفية خسف الارض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة « زينة » بالنسبة لما عهد فى مظاهر ارباب الجـاه والمال ، وماتدل عليه كلمة « فخسفنا به وبداره الارض»، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبنى قول الامام الرازى فى هذ المقام : «والذى عندى فى امثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة ، وانها فى اكثر الامر متعارضة مضطربة ، فالاولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب »

وارجو ان ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا وعلى الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لا ريب فيه

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وافساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه وتكبره ، وكلها سنن مطردة فى معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى اساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »

تربية

· شأنان لابد من تربية النفوس عليهمـــــا حتى تحظى بالسعادةعند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الارض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمـال احـــكامه وشرائعه ، واهمال سننه ونظمه ، وقد نبه القرآن كثيرا على اوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهـــم عز الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتــكون التقوى فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البــــلاد والعباد

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خــاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى اعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان احكامه ، والتى لاينالها احد سواه : « ان الذى فرض عليـــــك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق اتباع محمد بالقــرآن يكون لهم من ذلك المعـــاد وتلك المـــنزلة . ثم يلفت نظره الى ان انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به لم يكن ليتوقعه فى نفسه ، وانما هو من رحمة ربه به ، ومن رحمته بعباده ، فتمســـــك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين . « ولا تدع مع الله الها آخـــــر ، لا اله الا هو ، كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون »



سورة العنكبوت

الربع الأول

الناس امام الدعوات الجديدة

* من شان كل دعوة جديدة ، دينية كانت ام سياسية ، ان تجد لها فى الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل نشرها وتركيزها واقناع الناس بها ، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده فى ظاهره وباطنه فى مكافحتها والقضاء عليها . فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل باهلها طمعا او رهبا دون ان يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون مادام فى صفوفهم ، ومادام فى امن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية ، واذا ترك هذا الصنف ، فى تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول هدم فى جماعة

* الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت

المؤمنين ، وكان اشد فتكا بهم وبدعوتهم من اعدائهم البارزين

لهذا إقتضت حكمة الحكيم ان يكون له فى كل دعوة اصلاحية من انواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الانظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وانواع البذل فى سبيل الله : « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله »

الابتلاء سنة فى الاولين والآخرين

وفى هذا الشان نزلت سورة العنكبوت ، وارشدت الى ان الابتلاء سنة فى الاولين ، وماضية فى الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

عناية الله بالمؤمنين

وفى شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولابد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى القاهر ، الذى لا مفر منه : « ام حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون »

وتشد الآيات أزرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم

يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم ، أو لتحصيل كمال ينقصه ، وانما يمتحنهم بالشدائد تقويه لايمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لاجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون »

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، فى عاطفة ايمانه ، عاطفةأبوة تدعوه الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه او الاخلال بواجبه ، وفى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للابوة حقها الذى لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الابوة فى الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما »

من أوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين ، فتذكر انهم يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا ، ولا يقدرون على دفعه . وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم . وتذكر أيضا أنهم لا يظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر ربك ليقولن انا كنا معكم »

وقد كان من صور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا ان عناصر الفساد

تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد • والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، انهم لكاذبون »

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشد بالاسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته ، وانما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فأنجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله

ولا يفوت الآيات ان تقرع اسماع المكيين اثناء هذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لا يملكون لهم رزقا ، وتأمرهم بالنظر فيما خلق الله ، وبالسير فى الارض ليعلموا آثار قدرته ، وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الاولى والآخرة ، وأنه على كل شيء قدير : « وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير »

الربع الثانى

عاقبة صبر ابراهيم

* وفيه بيان عاقبة الصبر الذى اعتصم به ابراهيم في

* الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

الدعوة الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايذاء ، قد كان منها أنه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله ، وهو ابن اخيه لوط ، ومنها أن الله أعزه بالهجرة التي مكنت له فى القيام بدعوته، ومنها أن الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلأت جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين »

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والاذى ، وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : «رب انصرنى على القوم المفسدين» فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون »

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم

لهود وصالح ، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الارض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الارض ، وبغيهم على عباد الله

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق ، على حروف المعاقبة التى حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من عذاب الله « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الارض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

عظة الحاضر

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة ، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الاشجار وتنزل بشاهقات العمائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الارواح من الاشباح ، وعن البراكين تتفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الارض تتفكك اوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات ، وقد فار تنورها ، وأتت على كل شىء من الحضارات . كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جديرا بهم اذا كانوا أرباب دين وايمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، واقامة العدل ، والكف عن المظالم

اوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة

الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به ، وهو الاوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، فى اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التى تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فكذلك ولاية الاوثان لهؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل - الذى لا يقدر - وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره ، وبين من يتخذ المحيط بكل شىء ، القادر على كل شىء وليا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم مايدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم » ، « خلق الله السموات والارض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين »

ثم تتجه الآيات الى اهل الايمان الحق فى شخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى فى هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده ، وقصصه وأخلاقه ، وأحكامه ودلائله

ثم توصى على وجه خاص بالصلاة واقامتها ، فهى المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما اوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون »

سورة غافر

الربع الثالث

* هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان فى مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : «غافر الذنب وقابل التوب» . ولهذا البدء سميت بسورة غافر . وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لانها انفردت - وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام - بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها ان تستل من قلوبهم محاربة الحق ، والاستكبار عن قبوله. حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى ، وأنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان ، وضرب لهم فى ذلك الامثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهدى والرشاد ، وانكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن

* الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر

يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتـاع الفانى : « ياقوم انما هذهالحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هىدار القرار »

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم ــ بعد أنتبين له الحق ودعاهم الى النجاة ــ أن يدعـوه الى ترك ذلك الحق ، وان يدخل فى باطلهـم : « ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقـوله : « تدعوننى لأكفر بالله واشرك به ما ليس لى به علم ، وانا ادعوكم الى العزيز الغفار »

واخيرا ، وبعد أن يبذل فىنصحهم أقصىالجهد البشرى، اعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه :

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته أن حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »

العبرة من القصة

وعبرتنا منهذه القصة امران : احدهما أن الحق ،مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان الباطل ، لابد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحي بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعـوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر ، وفى كل زمان

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به ان يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن ان لا فائدة من دعوته اياهم اعتزلهم ومـا يعبـدون من

باطل ، وعنـدئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شـديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء ، واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون »

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصـور للمبطلين موقف اتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كمـا تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعـد ان قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال »

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله في سبيل الدعوة اليه ، وتؤكد لهم أن معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وانما هى اثر لكبر ملأ قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار » . «ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان اتاهم ان فى صدورهم الاكبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير »

ثم تلفت الآيات الى آثار قـدرة الله فى الكون ، فتذكر نعمته على العباد بالليل الذى فيه يسكنون ، وبالنهار الذى فيـه ينتشرون ، وبالأرض التى عليها يقـرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماء التى بمائها ينتفعون ، وبنجومهـا يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق: « ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين»

الربع الرابع

* هذا هو الربع الرابع والاخير من سورة غافر، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة ، تدعو الى افراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق فى الربوبية والعبادة فى نفسه ، وفى عمله ، وفى دعوته : « قل انى نهيت أن اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وامرت أن أسلم لرب العالمين »

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الأنظار الى جملة من الادلة النفسية التى يدركها الانسان فى كيفية خلقه وفى الاطوار التى مرت به : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون »

شأنه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاها، ودرج بالانسان فيها « هو الذى يحيى ويميت » والى انه صاحب الأمر النافذ الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء « فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » وهذا

---

* الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر

شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم ، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الانسان ، وهو شأنه فى الحال ، وشأنه فى المآل ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . «وكن فيكون» شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . واذا كان شأنه « كن فيكون » فالى اى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه ، والذى ارسل به رسله ، وانزل به كتبه؟ ان حجج الحق قد طوقتهم ، واخذت عليهم جميع المسالك، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الاغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلكم الذى انتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين »

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر أن وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب ام أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون »

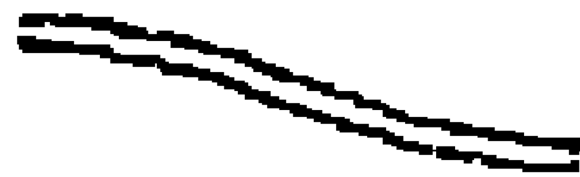
ثم تلفت الانظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : اوذوا فى سبيل الله وصبروا: « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون »

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بألبانها ونسلها . وفيما هيأ لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون »

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين انكروا

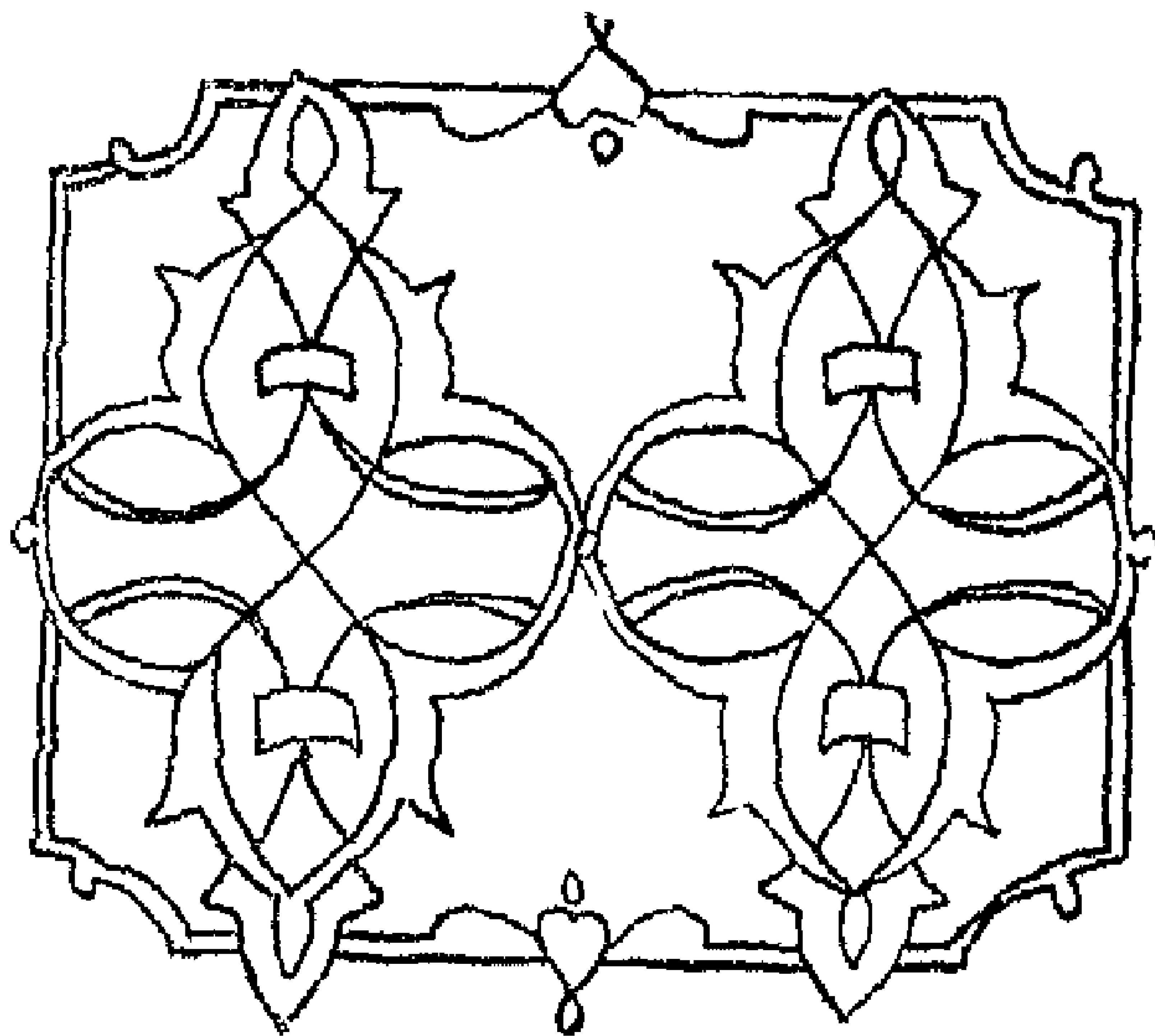
الحق ، وكانوا اكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون : « فلما راوا باسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون »

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ، وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور ، فليحذر هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ، ومخترعات فى استعباد خلق الله واستعمار اوطانهم ، فليحذروا غضبة الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجد لسنته تبديلا



الفصل الثامن

سورة فصلت
وسورة الشورى



سورة فُصِّلتْ

الربع الأول

* سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هى السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى « حا ميم » وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت فى المصحف كما نزلت ، وهى كلها تؤكد ان القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » « تنزيلٌ من الرحمن الرحيم » — « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا أن القرآن ليس — كما يزعم المبطلون — من سحر الكهان ، ولا من أساطير الأولين ، ولا من مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه فى

* الايات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت

الانفس والآفاق الدالة على قدرته النـــافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما انذرت ورغبت . انذرت بالعذاب الذى حل بالامم التى كذبت رسلها ، وبالعـذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحيـــاة الطيبـة فى الدنيــا ، وبالنعيم الدائم فى الآخـرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية المكذبين ، وصورت اعراضهم ، وجنايتهم على استعدادهم لسماع الحق والحكمة ، تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهـدئة لنفســه ، ونفوس اصحابه المجاهدين

عنـاد

وها هى ذى ســورة فصلت ، قد وضحت كثـيرا من مواقفهم امام الحق الذى يدعوهم اليــه ، وكان من ابرز ما فصلته تصوير أعراضهم عنه ، وشــدة نفـورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » . يصفون انفسهم بأن قلوبهم فى اغطية محكمة فلا ينفذ اليها شعاع من الدعوة ، وبان آذانهم فيها وقر وثقل ، فهى لاتحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى ـ محمد عليه السلام ـ حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الرأى . والمعنى فى ذلك كله انهم طمسوا استعدادهم ، وطمسوا على انفسهم سبل الحق . وتصوير اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » . وان اختلف القصـــد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بانهم بأهوائهم اعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون . والقصد فى آية الاكنة ، أنهم يحقرون شان الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما يستحق

ان تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، او ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل

أوامر من الله لنبيه

امام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه ان يقرر لهم أولا مهمته ، وانه ليس الا بشرا يوحى اليه ، فيبشرهم ان آمنوا ، وينذرهم ان اعرضوا ، وليس عليه شيء من تبعة أعراضهم وتكذيبهم « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين »

وتأمره ثانيا : ان يقرر لهم ان اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر التكوين واطواره فى الارض وما أودع فيها من جبال واقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : «قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين» . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد أفلحوا وسعدوا ، وان هم اعرضوا : « فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »

وتأخذ الآيات فى بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار فى الارض ، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم ولا استكبارهم ، بل اخذهم الله بالعذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »

وتأمره ثالثا : ــ بعد هذه المثلات الخالية ــ أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم ــ التى استخدموها فى الشر والفساد ــ أن تشهد

عليهم بما أفسدوا ، فتقر لهم الجوارح أن الله ، الذى انطق كل شيء بوحدانيته ، قد انطقها بجرائمهم ، وانهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »

وهكذا تكون نهايتهم ، أجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا فى ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ « فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وان يستعتبوا فما هم من المعتبين »

الربع الثانى

اخوان السوء

* صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة . وبين مصيرهم يوم القيامة ومايلحقهم من الخزى والخسران وفى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السيء لم يكن أثرا لطبعهم على الضلال ، ولا اكراها لهم من الله عليه ، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء ، الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الأهواء والشهوات ؛ وعبرتنا فى ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء ان ارادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء ، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سلطان على قلوبهم

وكما صور الربع الاول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم : « قلوبنا فى أكنة » ، صور هذا الربع

* الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت

طريقتهم فى محاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم اسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه ألسنتكم ، اشيعوا السخط عليه ، انشروا عنه الأباطيل . وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان ، يغمرونه بالاراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج اينما حلوا ، واينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الاسفلين »

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم أنهم — بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة ، واستقامتهم على حدودها — فى حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويطرد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لا يوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها

من نزعات الشيطان التى يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم »

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض دلائل الوحدانية فى علوى العالم وسفليه ، وأن كل ما فى الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى أن العدول عن مقتضى هذه الادلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الالحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير »

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الامر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الامم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والاهواء ، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين

لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »

ثم تختتم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذة بالاعمال صالحها وسيئها ، وأن نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد »

الربع الأخير

* ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ، وتصف الحشر أخرى ، وتتحدث عن العذاب ثالثة ، وعن أحوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم ، ومما جاء فى ذلك من سورتنا : « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » ، « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » ، « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ »

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة وعن عذاب الآخرة تارة بالانكار والتعجب من الاخبار به ويقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « ومن يحيى العظام وهى رميم » ، وتارة بما

* الآيات من ٤٧ الى آخر السورة

يفيد أنهم شاكون متحيرون : « ما ندرى ما الساعة ، أن نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » ، وكثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء، وكان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ، وكان ـ فى سؤالهم عن الوقت ـ يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه ، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع : « اليه يرد علم الساعة » ، والعبارة واضحة فى أن علم الساعة لا يعلمه أحد سواه . وقد ضمت الآية اليه بعض الاحداث الكونية التى تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه : « وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك المعنى فى كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » « قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى »

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحكمة فى اخفاء الآجال، هى الحكمة فى اخفاء الاحداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها لخارت قواه ، وانسد امامه باب الامل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار فى حالة تشبه القهر والالجاء . وبعد ان أوضحت لهم الآيات شأن الساعة ، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم ينادون : أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرءون منهم ، ويسجلون على أنفسهم أن احدا منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل

عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا مالهم من محيص » ، وهذا نوع من الحيرة والتردد ، يلازمهم فى الآخرة ، كما كان يلازمهم فى الدنيا .

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات أن الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه فى الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء الى ربه فى وقت الشدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام والانعام ، واليأس والقنوط عند التقتير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته والاعراض عنه صلفا وكبرا ، وفى تلك الاحوال النفسية ، التى تحللها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى » . . « واذا انعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصم بالايمان بالله « فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق » ، « ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور »

اما العلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . وفى قوله : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين »

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير

وهو على الاقل يحتمل ان يكون من عند الله ــ ليس فى نظر العقلاء الا ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ »

وبأن الادلة على حقيلة القرآن ، وأنه من عند الله ، لاتغف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه ، وسنن الله فيه ، فى الآفاق والأنفس : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شىء وهم فى مرية من لقائه ، انه بكل شىء محيط



سورة الشورى

الربع الأول

* هذه هى السورة الثالثة من السور السبع، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهى تشارك زميلاتها فى الهدف والمنهاج ، فهى تؤكد أن القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، والذى خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، «وهو العلى العظيم» وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله ، لينذر الأقوام الذين فسدت فطرهم، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولى الذى لا ولى سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » .

وارشدت السورة مع هذا كله الى أن وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة ، اخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لاخوانه السابقين ، فليس الوحى شأنا خاصا به ، ولا هو بدعا من الرسل : « كذلك يوحى اليك والى الذين من قبل الله العزيز الحكيم » . « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »

---

* الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى

الوحى روح

ثم تصف الوحي بأنه روح يحيي القلوب الميتة ، ويهدى الى صراط مستقيم ، وانه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة فى أن القرآن ليس من عنده وانما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم »

ثم تقرر السورة أن الوحي من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التي ظهرت آثارها فى الخلق والرزق : « فاطر السموات والأرض » ، « له مقاليد السموات والأرض »

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضلّ فيها الناس بغيا وعدوانا، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هي أن الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذى أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرق فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حقدا وحسدا، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها ، أو فرقوها، وزعموا ان الاديان تتعدد بتعدد الرسل ، وأن لكل دين اصولا واتباعا، واخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون، والدين منهم برىء ، والله من ورائهم محيط، فدين الله واحد، وانكاره من أحد الانبياء انكارا له من جميعهم

وقد عرض القرآن كثيرا فى مكينه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت

فى سورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه »

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه السلام ، واضع اللبنة الاخيرة من هذا البناء الالهى المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية فى القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على أيمان ، ويزيد المعاندين المفرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجرة ، وعدته فى الدعوة ، وعدته فى الوصول الى الغاية : « فلذلك فادع ، واستقم كما امرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما انزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير »

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق ، الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها — بعد أن اخذت الى القلوب الحية سبيلها — معارضة ضائعة فاشلة : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد »

فالحق متى اخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب

ولا نضال ، وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الافئدة دون اكراه أو الجاء

ثم اخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله اولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفرة اذا هم أقبلوا عليه ، وخلعوا انفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما انزل الله : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » .

الربع الثانى

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

* جاء فى الربع السابق ، أن الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وأن للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون فى بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد فى جل الازمان ان لم يكن فى كلها

وفى هذا الربع تكشف الآيات عن شأن فى الانسان، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان

* الآيات من ٢٧ الى آخر السورة

المطلق ، والعذاب الاليم ، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن ـ فيما يجر الى الطغيان ـ عند حد القصد والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق الكمال الذى لا يؤدى الى الطغيان

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين ، فى الاعم الاغلب ، أقل من غيرهم فى متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم ، واستولت الدنيا على نفوسهم : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين »

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر انه لو بسط الرزق لهم، كما بسط لغيرهم ، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المستقيم ، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذى يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم ، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء لغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السموات والارض وسخرها للانسان ، وبث فيهما من كل دابة، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا ، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين . وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل جعل همه الايمان

بربه ، والتــوكل عليه ، وتطهــير باطنه وظاهره من الاثم والفواحش ، وانقياده النفسي لمولاه ، واداء حقه بالصلاة الخاشعة ، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق »

أجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله ، وهى كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى ، والذى يجــدر التنبيه اليه أن الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . وأشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وامرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون »

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة «الشورى» . وكان فى هذا وذاك أبلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القــرآن ، وحسبها انها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة ، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان .

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانســـانية الفاضــلة ، وهــو الاســتبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب أهل الرأى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى ــ حين يضعها هذا الوضع ــ هذه الصــورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغي والاحتكار ، ويتخذونها ستارا

للطغيان ، وسلب الحقوق ؛ وانما يريدها حقيقة نقيةبريئة مما يكدر صفوها ، ويفقد خيرها

وبعد ان يعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ؛ وفى هذه السورة السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » وتبرز للنبى صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تفرز له مهمته ، وانه ليس عليه شىء من تبعة كفر الكافرين ، واعراض المعرضين : « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » .

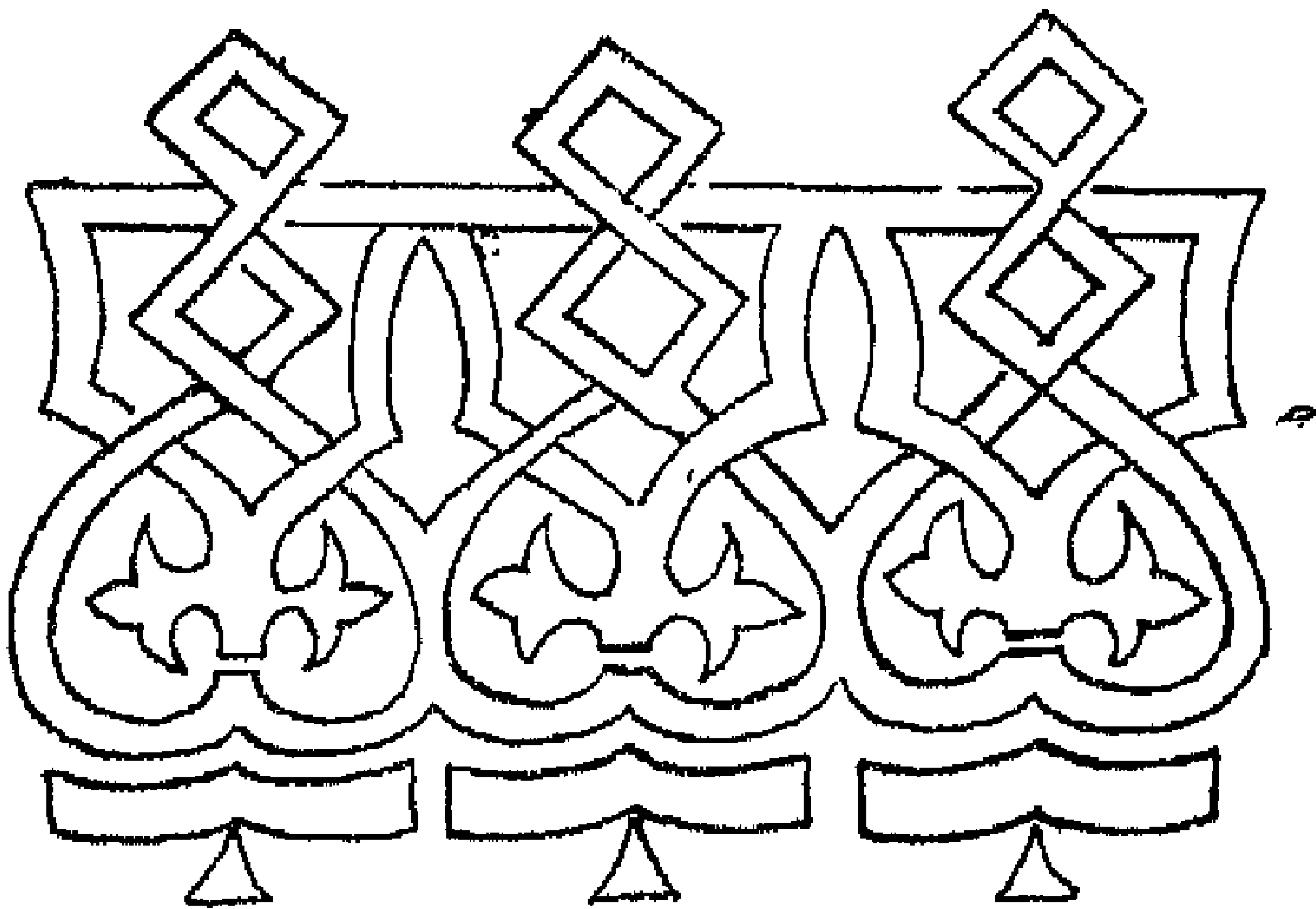
ثم تؤكد له اخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم : « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور »



الفصل التاسع

سور

الملك - والقلم
والحاقة - والمعارج



سورة المُلك

سورة الملك هى اول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكى الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لاصولها الثلاثة : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ؛ وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذى خلقه وابدعه واودع فيه من الاسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وانزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فى الوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن اسراره ومنافعه

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما فى كتاب الكون من آيات وعجائب ومستودعات هى للانسان مسخرات

وبهذين الكتابين، الصامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هيىء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون ؛ والى كماله الروحى عن طريق ما أرشد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك

وقد انزل — فى لفت الانظار الى الكتاب المتلو ، وتقريرانه الفاصل بين الحق والباطل — سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » • وأنزل — فى لفت الانظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية — سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت أن الموت والحياة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحياة ، المقدرين لرهبة الموت ، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . وذكرت فى العالم العلوى ، أنه خالق سبع سموات هى مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام

والاتقان ، لا يرى فيها شيء من الخلل مهمـــا تكرر النظر اليها . وتردد البحث فيها ، كيف وهي خاضعة لناموس الهي ثابت . لاتسذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء وانضمه ومسكه .

نظام محكم

ثم ارشــدت الى ما فى هــذا النظام المحكم من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العــام ، فهى زينة بمصابيحها . تتمتع النفس بجمالها ، وهي منار يهتدي به الانسان فى ظلمات البر والبحر ، وهى قذائف حق يرمي بها هؤلاء الشياطين ، الذين يعملون جهدهم على أخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجــــوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذاب السعير »

ثم تصف السورة هــذه النار التى أعدت للمفســدين بجملة أوصاف ، تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدها عليهم ، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعترافهم انفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ، واقرأ فى ذلك : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور .. » الى آخر الايات . فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته فى العالم السفلي تهيئة الأرض للسير والزراعة ، والتقلب فى جميع أرجائها ، ثم تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الأرضية بالخسف والزلازل ، وبارسال الرياح التي تقذفهم بالاحجار ، فتكدر عليهم صفو الحياة

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيمـا يرون من الطير ،

وهو يحلق فى الجو باسطا اجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمته ، « مايمسكهن الا الرحمن » . ثم ينكر عليهم ، ان يخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، أن لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أم من هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه ؟ » ثم يحاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ »

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر والافئدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستهزئون به كلما ذكر لهم ، ويقولون : « متى هذا الوعد أن كنتم صادقين ؟ » ، وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل أنما العلم عند الله ، وانما أنا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لاعلم لى به ، وليس علمه من مهمتى ، وأنه واقع بكم لا محالة سترونه بأعينكم : « فلما رأوه زلفة « قريبا » سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » .

واخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه ، فهو صاحب المنع والعطاء : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم « مادة حياتكم » غورا « غائرا » فمن يأتيكم بماء معين ؟ »

سورة القلم

ضلال

* كلما كان الناس غرقى في الشهوات والاهواء، مسلمين انفسهم للاوهام والاباطيل كانت دعوة الحق في نظرهم هي دعوة الباطل ؛ ودعوة الخير هي دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان اول ما قوبل به النبي صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الاصنام : « انك لمجنون » والجنون عند ارباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشئوا عليه وورثوه من الاهواء والخرافات

وقد نزلت سورة القلم في فجر الوحي ، تكشف الغطاء عن أعينهم ، وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الانظار الى ان الذي اجتباه ربه وكرمه وحباه بنعمة الحق والذكاء والفطنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ،ثم بعظم الاجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذي به يشهدون وله يعرفون ، محال ان يكون على ما يصفون

ثم لم تشأ ان ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها

---

* سورة القلم

ارسالا ، بل ابرزتها فى اطار من القســـم بأساس دعوته وهو العلم القاضى على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم ادواته من القلم والكتابة وبذلك رجعت به الى اول ما اوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الاكـــرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمأنت الرســول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم ايضا بأعينهم اى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع فى ضــلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمه ربك بمجنون »

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى فى آخرها أن اتهامهم اياه بالجنون لم يكن الا اثرا من آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة التى ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التى تخيلوها ، وقد سيق هذا المعنى فى اسلوب يصــور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفــروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » . ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على أن حقيته غاية فى الوضوح والظهور ، وانه راسخ فى النفوس والفطر، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ : « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع اولهـــا فى رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحـذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والســـلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرته من اطـــاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتأباهـــا طبيعته

النقية الظاهرة : « فلا تطع المكـــذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنيم » . ثم تنبه الآيات الى ان سبب كفرهم هو طغيـــانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها فى عزتهم ، ثم تؤكد سوء عاقبتهم . وان الله سيشهر بهم ، ويفضـــح امرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو ســلطان الحق ، وادالة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم »

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الاموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفى سبيل ذلك تذكر لهم قصة اصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحـــق الفقراء فيها ، قالوا نحن به احـــق واولى ، واتفقـوا على جنيها فى وقت مبكر غير الوقت الذى كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون »

وبعد ان بيتوا النية على ذلك ، وذهبـــوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ، ثم تبين لهم الامر ، وانها هى هى ولكن قد طاف عليهـــا طائف من ربك وهم نائمون ، فوقعوا فى اللوم وادركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا ان يغفر لهم ، وان يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنا راغبون » . ثم تذيل القصة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين ، وفى كل ارباب النعم هى سنته فى اصحاب الجنة ، ان تداركوا خطأهم غفـــر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جـــزاؤهم فى الدنيا : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم ان لانفسهم مكانة عند الله اعظم من مكانة الفقـــراء الذين يهرعـون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة فى تبكيتهم على هـــذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند ، فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ، ولم يأخذوا به عند الله صكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه انصـــار يحفظونهم من امره ، يوم يشتد الكرب ، ويكشف عن ساق « ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى الســـجود وهـم سالمون » . ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى ، وتطلب منه ان يفوض امرهم اليه سبحانة ، وترشده الى ان الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان امـلاء واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحـــذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيمـــا وقع فيه إخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى كله تقول السورة : « افنجعل المسـلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » . « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمـون » : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم »

عظة

اما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحـــاقدين على الحق واهله ، ان يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق ، احتفاظا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهـم التى كرمهم الله بها

وجدير بأرباب الاموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها وقد انعم الله بها عليهم ـ ان يتأملوا قصة اصحاب الجنة فيخشوا غيرة الله على عباده الفقراء

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير والصلاح ، الا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيىء الذى يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط المحبة والاخاء ، عليهم ان ينشئوا أبناءهم على خلال الخير والفضيلة . وجدير بهم أن يتذرعوا فى كل ذلك بالصبر والالتجاء الى الله حتى يسعدوا انفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة ، ويركزوا الحق الذى رضيه الله لعباده وبينه فى كتبه ، وكلف رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية



سورة الحاقة

* وجهت سورة الملك انظار القـــوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهى تهمة الجنون ، وحذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الامثال فى عاقبة الاغترار بالاموال والبنين ، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء

ثم تجىء سورة الحاقة فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها واهوالها مبهوتا متسائلا ، بل بلغت مبلغـــا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ماهى ؟ وما أدراك ماهى ؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطىء بحر متلاطم الامواج ، لا يـدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

معنى الحـــاقة

وكلمة « الحاقة » ككلمات القارعة والواقعة ، والطامة ،

* سورة الحاقة

والصاخة ، أعلام بالغلبة على القيامة ، ولكل منها دلالةعلى معنى من معانيها ؛ وأثر من آثارها . فهى حاقة فى ذاتها ، وهى حاقة لانبائها ، وهى بمقدماتها واحداثها تقرع القلوب وتصك الاسماع ؛ وهى التى بعد هذا كله كان انكار الامم السابقة لها سببا فى فسادهم وطغيانهم ؛ وفى التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبىء بما أصابهم من الهلاك والدمار ؛ فهذه ثمود ؛ وتلك عاد ؛ وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ؛ وهذه «المؤتفكات» القرى التى ائتفكت وانقلبت على اهلها بفعلتهم الشنعاء : قرى قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها ، فاندفعوا فى طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ؛ وجعلهم اثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ؛ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية »

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ؛ مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب ــ وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان ــ أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعو العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية »

انـذار

وبعد ان فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت ؛ وقدمت للقوم النذر التاريخية التى اصابت المكذبين بها ؛ أخذت تصور احداثها ، من مقدماتها الى نهايتها ، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى

يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القادرين الاقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمـــانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم . اما كيف تقف الملائكة على الارجاء ، او كيف يحمل العــرش ، أو من هؤلاء الثمانية ؟ او ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته ، وانما هو روعة القضاء الالهى ، والمحكمة القاهرة

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضـــاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة ، وعلى آخر بالادانة ، وان الاولين يسلمون صـــك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرأوا كتابيه ، انى ظننت أنى ملاق حســابيه » . وأن الآخرين يسلمون صك الادانة ــ على العكس ــ بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتـابيه ، ولم أدر ما حسابية ، يا ليتها كانت القاضية ما اغنى عنى مالية ، هلك عنى سلطانيه » . وبعد ان يصدر الحكم يجىء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنـــة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم فى الأيام الخالية »

جزاء المكذب

اما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلســـــلة ذرعها سبعون ذراعـــا

فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هـذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين ان يكون اهمال امره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله

وبعد ان يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله ـ الذى ليس فى حاجة الى القسم ـ بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين

ثم تعبر السورة عن موقف الالوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقضينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعنا من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه ـ وقد افترى علينا ـ هو موقفنا منكم وقد كذبتموه فى رسالته .

اثر القرآن فى النفوس

ثم تختتم السورة ببيان اثر القرآن فى النفوس ، وانه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الاخرى التى افسدت استعدادها بالشهوات والاهواء : «وانه لتذكرة للمتقين » . «وانه لحسرة على الكافرين» . ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ، وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين ، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى احاطه بعنايته ، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه : « وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم »

سورة المعارج

* كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ماطوقهم القرآن — على نحو ما رأينا فى السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الاخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية ، ولقد وصل بهم الامر فى ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب ، والى حد ان قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد ان حققت سورة الحاقة انباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون ، بدل ان يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب ، وتؤكد لهم ان العذاب واقع بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى ان طول الامد ، الذى لم يظهر فيه

* سورة المعارج

شيء منه : انما هو طول نسبي في أنظارهم فقط . اما في واقعه : وفي تدبير الله ، فهو يوم واحد ، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة : هي مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلك التدبير الذي اقتضت حكمة الله ان يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد في يوم كان مقداره في ايامكم خمسين الف سنة . وما هي الا ان تمضي مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتي مرحلة الحساب وتحديد المسئوليات ، واذن فلا تكترث يا محمد بموقفهم منك واصبر صبرا جميلا

العروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، وما علينا الا ان نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر امد الدنيا في نظام الله ، وليس علينا ان نكلف انفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه

ويلتقي هذا التصوير مع مثله في آية اخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »

وفي آية ثالثة « يدبر الامر من السماء الى الارض ثم تعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون »

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذي يسألونه يعقب ذلك اليوم الذي يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق : وهو البقية من يوم النشأة الاولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت انا والساعة كهاتين ، واشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد

الكثرة والمبالغة فى وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله واياه ، وقد افصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

من علامات القيامة

ثم اخذت السورة تذكر علامات القيامة فى السماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفى الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف المنفوش » : وفى الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرىء بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم تترقى فى وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه وأحبهم عنده ، ثم تقطع عليه امل الفداء ، وتصور لحوق العذاب به يطمع النار فيه : « انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من ادبر وتولى وجمع فأوعى » .

ثم تشير الآيات الى الانسان فى انكار الحق ومحبته الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا »

ثم تذكر أن علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفى التصديق بيوم الدين ، وفى الخوف من عذاب الله ، وفى حفظ الاعراض والامانات، وفى الشهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها : « فى جنات مكرمون » . ولو أن هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا ان يطهروا قلوبهم واخذوا يسخرون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لانفسهم استحقاق الجنة ،

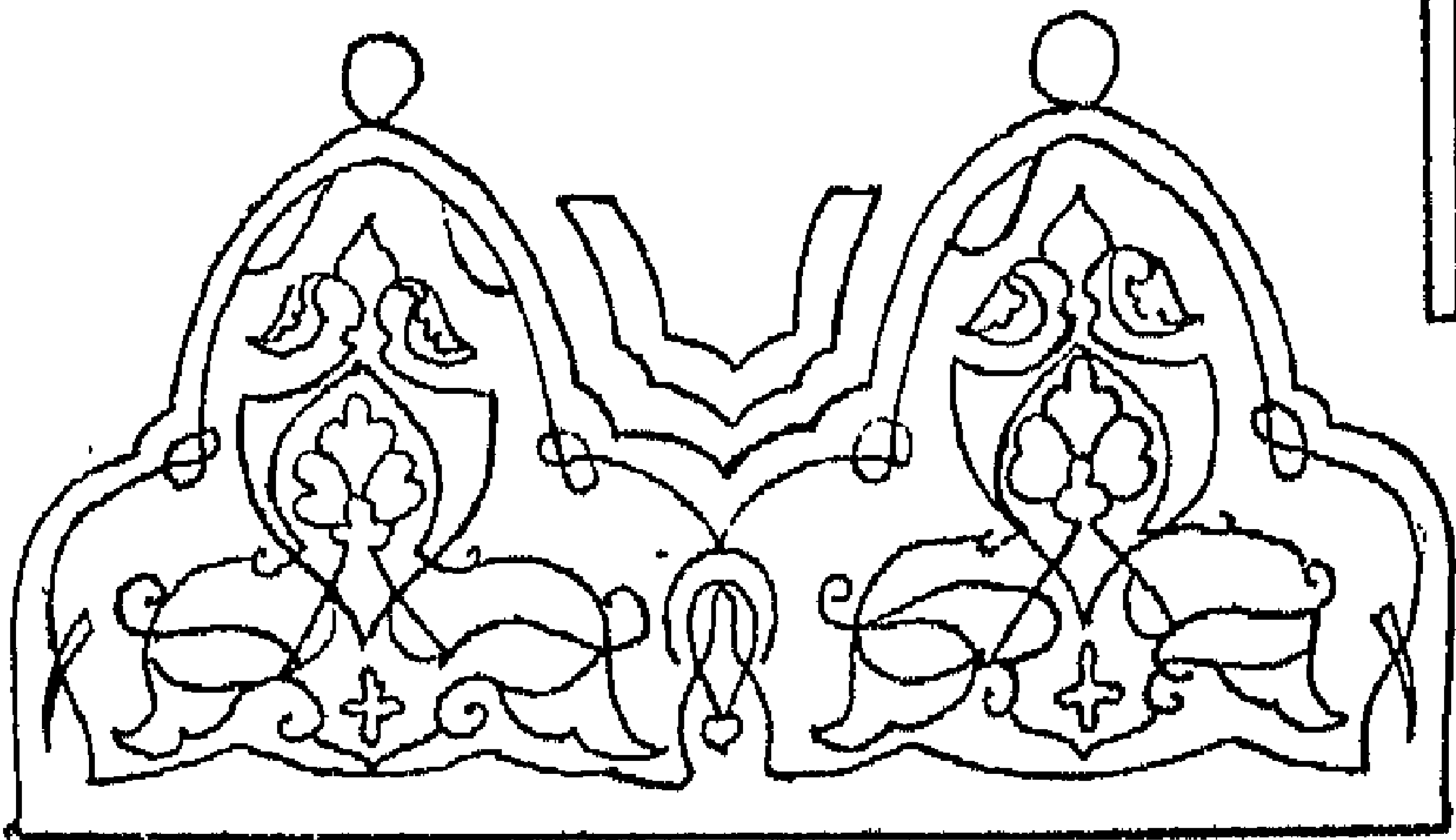
بل احقيتهم بها : « ايطمع كل امرىء منهم ان يدخل جنة نعيم كلا »

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبى الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى اصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »



الفصل العاشر

سور
نوح - والجن - والمزمل
والمدثر - والقيامة



سورة نوح

* قوبل النبى صلى الله عليه وسلم منذ ان دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الامم الخالية جزاء الانكار والتكذيب

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ؛ تثبيتا له على دعوته ، وتسلية له فيمايصيبه، وتهديدا لقومه ـ ان استمروا على العناد والاستهزاء ـ بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهى رابطة البنوة ، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التى أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى انقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا فى الارض ، والى هذا

---

* سورة نوح

تشير آية الحاقة : « لما طغى الماء حملناكم فى الجارية »

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولها

أولها : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على أصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الاصنام .

تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الاخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الاسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده ، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الامم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون »

فوائد الدعوة

ثانيها : بيان فوائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم »

ناحية الاجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى أجل مسمى »

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

سبل الدعوة

ثالثها : ان نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة : اسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا »

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحي والمادى ثم دعاهم بلفت الانظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم اطوارا . الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله انبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا »

لفت انظارهم بعد ان هز عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق انفسهم والاطوار التى مرت بهم ، ونبه الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون ان الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف اخيرا من ان الشمس مركز النظام الشمسى ، وان الكواكب تختفى بها ، وان القمر له مركز فيها ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا »

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ، وتلك البراهين الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتد انكارهم لها ، وقد صور نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى انفسهم ، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى ارسله بهذه الدعوة ، واشار الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالاموال والاولاد : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا »

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الماكرون : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »

وهنا ابرز اسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، وهى اسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير ، أو اسماء لقوم صالحين اطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دون الله ، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الانبياء والاولياء بما يقدس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التى اغرقت القوم :

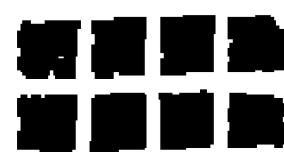
« واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم اشارت الآيات الى حكمة الله فى أخذ الجبارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جراثيم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنين « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا »

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك ، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم



سورة الجن

* فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانسان، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وانهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

الجن والانس

وذكرت الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنهم ، كما خاطبت الانسان وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » « ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم

---

* سورة الجن

من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى اجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شـــاء الله »

تكليف ومسئولية

وهكذا نجـد القرآن قـد أشرك الانس مع الجـن فى المسئولية والمؤاخذة والمصير ، ووضعهما فى اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وشرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسـل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هـذا ؟ قالوا : شهدنا على انفســنا ، وغرتهم الحيـاة الدنيـا ، وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين »

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شك ، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورســالاته شـك ، وليس فى مســئولياتهم ومؤاخـذتهم بالتقصـير شـك ، وليس فى اسـتعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء . وان محـاولة تأويل شىء منه تحـريف للكلم عن مواضعه ، وسـلخ للالفـاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المـــولعين بانكار ما لا يدركه الحس

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هـذا الاسـتماع كان له اثره البالغ فى نفوسهم ، صحح عقائدهم فى الله ، وطهر نفوسهم من الاوهام والخرافات المتعلقة بهم ، وكملهم بالمعارف

الصحيحة ، واندفعوا به الى انذار قومهم فأرشدوهم الى الحق فى العقيدة ، والى الحق فى الرسالة ، والى الحق فى علاقتهم بالانس ، والى الحق فى معرفتهم الغيب ، أجمل كل ذلك فى قوله تعالى من سورة الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلمـــا حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منــذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لمـا بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين »

وهذه سورة الجن تفصــل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادىء الخير والفضيلة التى ادركوها من القــرآن ، وتصحح على لسانهم الاخطاء التى كانوا عليهــا وأدركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا أحــدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا »

ولنصغ اليهم وهم يضــيفون فســاد عقــائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس أن للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسهم أن لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من اذاهم ، وقد درج الناس على هــذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العــلاج

و « التحويطة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وأيدوهم بحكايات وروايات موضوعة، ـ وقد يشاركونهم في الاستغلال والدجل ـ حتى افسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم فى العقيدة الفاسدة . عقيدة ان الجن يعلمون الغيب ، وان اناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب . ثم يعلنون أن الغيب لله وحده ؛ وأن القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه أحد سواه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب » . « وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا »

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ؛ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا »

توجيهات

ثم تختم السورة ـ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ـ بحملة توجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وأنه لن يجد من دونه ملجأ يلتجىء اليه ، وانه

مبلغ لرسالة ربه فقط ، وانه لا يدرى متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله ، وان الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم واحصى كل شىء عددا »

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والاهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن — كما انتفع به الجن — وهم من جلدة الرسول ، تجمعه وإياهم بيئة واحدة ، ورحمة واحدة ، ونشأة واحدة ، وفى الحق أن فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم امرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الابصار



سورتا المزمل والمدثر

* ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم اقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما اقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما احدثه القرآن من عظيم الاثر فى نفوس الجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة فى ذاتها ، وفى آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو اليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وان الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم فى ظل الراحة والسكون ، ولا فى ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

اولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها أشعة الانوار الالهية فتضىء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من امامها العقبات

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها المهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمل والمدثر » ترشدان الى ما يجب

---

* سورتا المزمل والمدثر

من هذين الامرين لينجح الداعى فى دعوته ، ويقوم بمهمته . والكلمتان معناهما : « المتلفف بالثياب » وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه المتصلة بمفاجأة الوحي له ، او بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها ، وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقى من تعليم

يا ايها المزمل

وقد تضمن النداء الاول : « يا ايها المزمل » نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بهما الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الاوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « يا ايها المزمل ، قم الليل الا قليلا . . الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا »

يأيها المدثر

ثم يجيء النداء الثانى : « يأيها المدثر » فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه . يطرد

عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة . « قم فأنذر » ثم يجمع له اطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته اشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جراثيم الفسوق والعصيان . « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره او عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الاخلاق الذميمة » « والرجز فاهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب . واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد أو صلاح منشوه العقل أو النفس او الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحى العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الاخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الاولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل « ولربك فاصبر »

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، فى شد ازره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعد لهم عند الله من العاقبة السيئة والعذاب الاليم فتقول الاولى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما ، يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا

مهيلا » .. الى أن تقــول : « فكيف تتقــون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبــا » وتقول الثانيـــة : « فاذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيـــدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمـــع أن ازيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا »

وصـــف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القلوب ، وتختم الاولى « المزمل » بارشاد المؤمنين دعاة الحق ، والمؤمنين بالحق ، الى ما يحفظ لهم عــز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم أجرا » . وتختم الثانيـــة بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمســـاكين : « قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نــكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين .. » الىأن تقول « كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقـوى وأهل المغفرة »

أما بعد ، فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شاء ان يصل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمتسورةالمزمل، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتدرع بالصبر والاخلاص ، وليسر بنفسه وأمته فى ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، العليم بطيات النفـــوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصير

سورة القيامة

عقيدة البعث

*كانت عقيدة البعث من أبعد ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وكثيرا ماكانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها ، وتمنع التصديق بها « ائذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم فى ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيداته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها واسماء مقدماتها واهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة فى ناحية من نواحيها

ثمرة الايمان بالجزاء

والواقع أن الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس فى النفس

* سورة القيامة

الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجيء بعد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، فى وقتها الذى يعلمه الله ، أمر بين لا يحتاج الى قسم : « لا اقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة »

واذا كان من سنة الله فى القرآن أنه لا يقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره من مخلوقاته، ودلت العبارة على أن القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها — كان فى ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، واقواها أثرا ، وأظهرها وجودا ، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لا تترك صاحبها عند درجة يلام عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهى على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات العلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة ، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنون والاوهام التى زينت له الانكار والجحود « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه؟ » .

ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جذوره : «بلى قادرين على ان نسوى بنانه » . قادرين على جمع عظامه ، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ، وهو تسوية البنان والاطراف .

ثم تبرز السورة شأنا آخر ــ كان له اثره فى انـكار البعث والقيامة ــ غير ظن العجز عن الاعادة : تفلبت على الانسان شهوته ، واندفع بهـا فى لذته فنسى البعث بل وانكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيمـا يشتهى : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » . فلم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سـلطان التكاليف والمؤاخذة ، ولقد ابعد فى ذلك حتى سـأل سؤال المستهزئين : « يسأل أيان يوم القيامة » وهنـا تصف له الآيات ما سينزل به من الاهوال التى تحيط به ، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه : « فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ : اين المفر ؟ كلا لاوزر ، الى ربك يومئذ المستقر » .

وهنا تقدم له صحف اعماله ونياته فينبأ بما قدم واخر ، بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الامر فى ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الاعمـال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه »

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة »

وهنا تعرض السورة أن الناس فى هذا الموقف ابرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ

باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » . ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الاول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الاعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن — وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع — أن يتركه سدى وهملا كالعجماوات دون حساب ولا جزاء : رسم له شرائعه ، ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وانشأه عاملا قويا مفكرا من مويهة قذرة ، ثم احاطه بعناية بما ينعم به في حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلابد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، الم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

آمنت بالله العظيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــدة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣
البحـــرين :	السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص.ب ٢١
البـرازيل .	Sr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Marco, 994, Caixa Postal 7406, Sao. Paulo, BRAZIL
سـيراليون :	Messers Allie Mustapha & Sons P.O. Box 410 Freetown Sierra Leone
سـنغافورة :	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samait Almaktab Attijari Assharat, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجـــلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU 7, Bishopsthorpe Road London S.E. 26 ENGLAND
نيجـــيريا :	Mr. Mohamed Said Mansour Atlas Library Company, 25, Nnamdi Azikiwe Street LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

كتب المغفور له الاستاذ الجليل محمود شلتوت شيخ الازهر السابق مؤلفات وبحوث عديدة تناولت الكثير من نواحي الاسلام وشئون المسلمين • وأصدر تفسيرا للقرآن الكريم يعد مرجعا عصريا من أهم التفسيرات التي صدرت في السنوات الاخيرة

وهذا الكتاب ـ الذي اشرف فضيلته على مراجعته قبيل وفاته بأيام ـ ليس تفسيرا لكلمات ولا لآيات ، وانما هو سعي بين يدي القرآن نفسه يلفت النظر الى ما فيه من دعوة الحق وموقف الانسان من هذه الدعوة •• انه يهدف الى حمل المسلمين الى أن يتجهوا مباشرة الى القرآن ويقفوا أمامه في اجلال يستلهمونه الهداية في مشاكل الحياة •• ومن هنا كان عنوانه « الى •• القرآن الكريم »

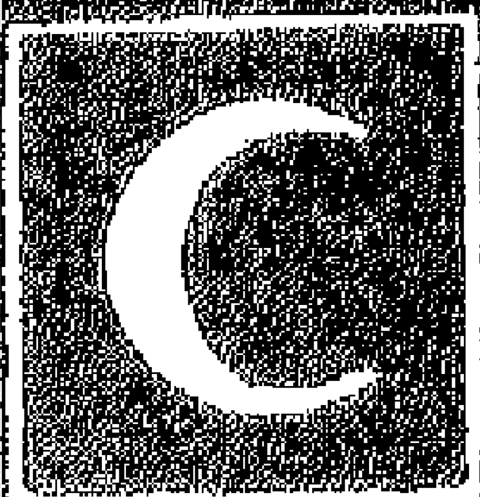
كتاب الهلال

الغذاء السحري

تأليف ه . ج . ويلز



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٥ ـ رمضان ١٣٨٣ ـ فبراير ١٩٦٤

No. 155 — February 1964

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغذاء السحري

للكاتب الإنجليزي

هـ . ج . ويلز

دار الهلال



الكاتب الانجليزى هـ . ج . ويلز

اكتشاف مفاجئ

كان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر حين ظهرت فئة من الرجال الذين تقدمت بهم السن ، أطلق عليهم الناس لفظ « العلماء » وقد كانوا جديرين حقا بهذه التسمية ، برغم انهم فى قرارة انفسهم كانوا يمقتون ان يسموا بها ، فلم يفكروا فى أن يضفوا هذه الصفة على أشخاصهم فى مجلتهم الخاصة التى أنشئوها لتعبر عن آرائهم وابحاثهم .. بينما كانت لهم عند الناس مكانة مرموقة حتى لقد راحت الصحف تشيد بنشاطهم العلمى وابحاثهم الدقيقة ، فكانت الصحف تخلع عليهم من القاب التمجيد والتبجيل مالا حصر له

وكان من أبرز هؤلاء العلماء استاذان هما «بنزنجتون» و « ردوود » .. لمع نجمهما وأرتفع شأنهما قبل ان تكلل جهودهما وابحاثهما بذلك الكشف الفريد الذى توصلا الى معرفته

كان « بنزنجتون » رئيسا لجمعية الابحاث الكيميائية بالاضافة الى تمتعه بزمالة الجمعية العلمية الملكية . اما

الاستاذ « ردوود » فكان يشغل منصبا علميا رفيعا ، فقد كان استاذا لعلم وظائف الاعضاء باحدى كليات جامعة لندن ، وكانت له وجهة نظر خاصة في اجراء ابحاثه بتشريح الحيوانات وهى حية ، انكرها عليه الرأى العام فراح الناس يندون به ويرمونه بأقذع السباب .. بيد ان بوادر المواهب كانت قد ظهرت لدى الرجلين منذ فجر شبابهما .. !

وشأن العلماء الذين يكرسون حياتهم للبحث سعيا وراء المعرفة دون أن يهتموا بمظهرهم أو ملبسهم ، كان هكذا « بنزنجتون » و « ردوود » .. وأولهما كان قصير القامة تزين رأسه شعيرات قلائل حتى ليكاد يكون اصلعا ، يستعين على الرؤية بمنظار من طراز عتيق ، وينتعل حذاء ذا خروق ليتسلل منه الهواء الى اصابع قدميه المريضة ، وكان الثانى بسيط المظهر جدا . وقد عكفا على العزلة الى ما قبل توفيقهما الى الكشف عن الغذاء السحرى ، بمنأى عن الناس ، ينفقان الوقت فى ابحاثهما

ولمع نجم « بنزنجتون » بأبحاثه الرائعة فى العناصر السامة ، وذاع صيت « ردوود » لسبب غير معلوم بالذات .. ولا عجب فى ذلك ، فان ذيوع الصيت يولد ويتكون وينمو على مر الايام والسنين . ولعل صيته ذاع لذلك الكتاب الذى وضعه والذى حفل بكثير من الشئون الخاصة بحركات النبض ولابتكاره عديدا من المصطلحات العلمية

وكان ظهورهما امام الناس لماما ، فقد كان«بنزنجتون» يرى ، او بالاحرى يرى وجهه وهو يدلى ببحث او يلقى بضع فقرات يزعم انها محاضرة ، ويظن ان الناس ينصتون له ويستمعون اليه . واذكر اننى فيما مضى ذهبت الى

مقر الجمعية العلمية ، وكان فى مدينة دوفر ، فى حانة بها، ودخلت المكان ، وسرت وراء سيدتين تبدو عليهما سيماء الوقار والاحترام وبأيديهما اشياء ملفوفة ، حتى وصلت الى حجرة « ردوود » المعتمة ، وصك اذنى صوت لعله كان صوت الاستاذ وقد اختلط بأزيز فانوسه السحرى، وصوت آخر تبينته بعد ان غمر الضوء الغرفة ، فاذا به صوت من جاءوا لمشاهدة الفانوس السحرى وهم يأكلون فى الظلام ما أتوا به معهم من طعام

وكان « ردوود » يتحدث ، ثم اطفئت الانوار فراح يقرع الشاشة بعصا ، فظهرت الصور من جديد .. وكان طوال الوقت متوتر الاعصاب ، ويبدو ان أمرا أخطر من ذلك واهم كان يستحوذ على افكاره .. كذلك كان هدف « بنزنجتون » من محاضراته ان يعرف الناس ما يعرفه

وفيما عدا دائرة العلم ، كان الرجلان عاديين كسائر الناس لا يفضلانهم معرفة بأمور الحياة ، وهو شأن كافة العلماء فى انحاء الدنيا .. فشعور العلماء بخطورة شأنهم يخلق فيهم الاحساس بالكراهية لامثالهم من العلماء ، اما حياتهم العادية فانها واضحة لاغموض فيها ، تتسم بالكثير من التصرفات الخرقاء

وطبيعة اعمال العلماء وابحاثهم تتطلب منهم ان يعيشوا فى نطاق محدود متفرغين لتلك الابحاث فى عزلة ، عزوفين عن امور الدنيا منصرفين عن اهلها .. ولايمكن ان ننكر بحال انهم دعائم الحضارة الانسانية بما اقاموه من علوم أرسوا قواعدها ، أنارت العالم وهيأت له مستقبلا مطردا فى الارتقاء والازدهار

وانى لاعتقد أن اللمحة المبهمة التى تدفع من تجول بخاطره الى ان يكرس حياته منذ بكورتها ، ليست الا

الهاما او وحيا يضىء له الطريق .. فيستبين ما هو بسبيله وما ينتظره من كشوف علمية تفىء على الدنيا بالخير وعليه بالعظمة والمجد

وقد وفق العالمان « بنزنجتون » و « ردوود » الى معرفة الغذاء السحرى ، وأدركا ما كان له من اهمية وأثر فى الحياة ؛ وما يتوقعانه من تطور فى المستقبل بسببه .. وقد اطلق عليه « بنزنجتون » هذه التسمية ، وهو فى حالة ذهول عندما فوجىء باكتشافه . وبعد ان مرت الوهلة الاولى بدأ الرجل يستعيد حواسه ، ورباطة جأشه ، ويدرك من العلاقات والآثار والنتائج ما اخفته عنه المفاجأة .. وعندئذ اشرقت اساريره وقال لصاحبه وهو يكاد يشرق بالضحك :

ـ أتعلم يا صاحبى ان هذا الاكتشاف الجديد ليس مجرد خطوة بريئة جبارة فى طريق المعرفة ؟

ـ ماذا تعنى ؟ ..

ـ اعنى يا صاحبى ان هذا الابتكار من الممكن بسهولة ان يتحول الى سلعة لها اخطر النتائج ، وتلاقى اعظم الاقبال ، وتطلب فى الاسواق بأعلى الاسعار !

ـ ولكنه وحده لا يكفى طعاما كما تعلم ..

ـ لست اجهل هذا ، ولكنه بلا شك يصلح عنصرا جوهريا فى تركيبات غذائية متباينة العناصر .. وليس امامنا الا ان نجعل طعمه مستساغا ومقبولا .. فان وفقنا لهذا كان نجاحنا عظيما .. !

الفصل الأول :

تجارب .. !



تجارب ..!

خطر لـ « بنزنجتون » أن يجرب عنصر ذلك الغذاء فى الضفادع الصغيرة ، فقد جرى العلماء عــلى جعل هــذه الحيوانات مزرعة لتجارب ابحاثهم ، واتفق مع «ردوود» على أن يقوم بنفسه بتلك الابحاث فى معمله المكتظ بهـــذه الضفادع

وابدت «جين» ـ ابنة عم «بنزنجتون» ـ تقززها من أن يجرى تجاربه تلك فى بيتها ، ورفضت أن يأتى اليه بحشد من تلك الضفادع وان كانت قد سـمحت له بأن يجرى ابحاثه فى احــدى حجرات بيتها على بعض المواد الكيميائية التى لاينجم عنها خطر ما مستعينا بما يحتاجه من الادوات التى تلزمه ، فقد كان يبهجها ان يذيع صيته وأن يتألق نجمه فى الاوساط العلميــة ، لأن ذلك على أى حال خير مما لا جدوى من ورائه كالنزق وادمان الشراب

ولم يفلح فى اقناعه لها بما يتوقعه لتجاربه من شـأن وفوائد ، ولم يسـتطع صرفها عن معارضتها وتقززها من رؤية الضفادع ـ وهى تتعذب من تلك التجارب ، أو تصدر عنها روائح منفرة كريهة عند موتها ـ متعللة بأن ذلك له أسوأ الاثر من الناحية الصحية . وذكرت له ان اصراره على المضى فى تلك الابحاث عندها ـ سعيا وراء المعرفة ـ لا يبرر السماح بوجود الضفادع فى بيتها ، وانه اذا كان يسعى وراء ذيوع صيته وتخليد اسمه ، فانه بجانب ذلك

قد يفقد صحته لوجوده مع تلك الحيوانات . وعندما ذكر لها أن الكلمة الاخيرة له وأن له ان يفعل ما يشــــاء ، جابهته بقولها انها تفضل ان تترك البيت لتــرعى اطفالا آدميين فى مدرسة على ان تضطر الى العنـاية بحيوانات قذرة ، وطلبت اليه أن يعدل عن ذلك مؤكدة له انهـا لن ترضخ لمـا يريده . وعندئذ إذعن لمشيئتها ولكنه قسا عليها فى القول ، واذ آلمها ذلك عاد فطلب عفوها

واخيرا فكر فى البحث عن مــكان آخر ليجرى فيـه تجاربه ، ولاح له ان ينشىء مزرعة لهذا الغرض ، وخطر له ان يستبدل الضفادع بالدجاج ، لأن الدجاج نوع من الطيور لا يتقزز منه المرء . وقال لنفســه انه لو كان قد فكر فى هذا الامر من قبل أوفر على نفسه عناء مشاحنته مع ابنة عمه

ووافقه « ردوود » على تلك الفكرة واستصوبها ، لأنه هو شخصيا يجرى تجاربه على العجول لكبر حجمهـــا وسهولة رؤية آثار التجارب وتبين اخطائها . وقد شغلت تجاربه هذه جل وقته ، ولذلك عهد الى « بنزنجتــون » بالبحث عن المزرعة الملائمة ودفع جميـع نفقاتها الى ان يحصل على معونة مالية

واعلن « بنزنجتون » فى المجلة العلمية عن حاجته الى مزرعة فسيحة للدجاج ليستأجرها ، وعن زوجين ليشرفا على تربية الدجاج . ووجد ضالته الاولى فى ضاحية من ضواحى « كنت » ، فى بقعة تحيط بها وتظللها أشــجار الصنوبر الضخمة ذات المنظر الرهيب فى الليل ، فى بيت يبعد بحوالى ميلين عن الضاحية ، وكان ذلك البيت قديما بليت نوافذه وبه بئر مهجورة

وراقت تلك المزرعة لـ « بنزنجتـــون » ، فأخذ يرتب

شئونه فيها ، ثم عاد الى لندن وأعد مقـــدارا من عنصر الغذاء السحرى ليبدأ به تجاربه . ووجد ضالته الثانية فى شخصين مسنين شديدى القذارة ، فتعـاقد معهما ، وكانا قد ابديا بعد اطلاعهما على الاعلان عن رغبتهمـــا فى العمل . ولم يتنبه « بنزنجتون » لقذارتهمـــا المفرطة لانشغال افكاره فى دائرة ابحاثه . وكان اسماهما مســتر ومسز « اسكنر » والسيدة ضئيلة الجسم ذات شــعر ابيض علته القذاره ، عصبته حتى لا يتدلى ، ولهــا انف دقيق هو كل ما بقى لها من علامات الشباب ، وقد تغضن وجهها وسقطت اسنانها الا واحدة تتعثرفىالكلام بسببها، وترتدى جلبابا رثا لا يمكن تمييز لونه . وقد استقبلت « بنزنجتون » فى حجرتها وراحت تحدثه فى حــذر وهى ترمقه ، وقالت له ان مستر « اسكنر » يستكمل زينته لكى يستقبله ، كما ذكرت ان لها خبرة عظيمة بتـــربية الدجاج اذ أنها مارستهذا العمل سنين كثيرة ، وانهكان لهما مزرعة ولكنهما افلسا وضاقت بهما سبل العيش . وأخيرا حضر مستر « اسكنر » فاذا هو شيخ ضخم الوجه وفى عينيه حول ، يرتدى سترة ليس بها ازرار . وقال مستر « اسكنر » بعد أننظر الى « بنزنجتون » فى تهيب ووجل :

ـ أغلب الظن انك لا تهدف الى الكسب من المزرعة .. وان كان هذا لا يعنينى .. والارجح انها بقصد اجــراء التجارب

وابدى مستر « اسكنر » استعداده ورغبته فىتوجههما للعمل بالمزرعة من فورهما لخلوهما من العمل

وبعد اسبوع كانا فى المزرعة ، حيث وجدا هناك نجارا كلفه « بنزنجتون » بانشاء الحظائر والاخنــان اللازمة .

فقال مستر « اسكنر » للنجار :

لم يسبق لى رؤية هذا السيد من قبل .. بيد انه يبدو لى انه على جانب كبير من البلاهة .. !

فأجابه النجار :

ـ اظنه ابله الى حد ما .. !

ـ أليس اختياره تربية الدجاج دليلا على ذلك ؟

ـ انه يشبه الدجاجة بهذا المنظار الذى يضعه فوق عينيه !

ولمعت عينا مستر « اسكنر » فى خبث وهو يتطلع بعينيه الى القرية البعيدة ، ثم اقترب من النجار وقال فى همس :

ـ ألا يدهشك ان تعلم انه يعتزم ان «يقيس » الدجاج كل يوم واحدة واحدة ليعرف مبلغ نموها .. اسمعت بمثل هذا من قبل ؟

واستغرق مستر « اسكنر » فى الضحك ، وقد وضع يده على فمه وأخذ يهز كتفيه فتهتز جميع أعضاء جسمه . وجال بذهنه ان النجار لم يفهم كلامه ، فعاد يهمس فى اذنه قائلا : يقيس .. يقيس ، فقال النجار :

ـ تبا له من رجل . انه اشد سوءا من حاكمنا القديم

النتائج الاولى

مامن شك فى ان الابحاث والتجارب من الاعمال المضنية التى تحتاج الى همة ومثابرة وصبر . وكانت النتائج الاولى التى حصل عليها « بنزنجتون » ضئيلة بطيئة ، حتى لقد كاد يصيبه اليأس فى آماله ، وتبين له من تجاربه أن العناصر ا ، ب ، جـ لم تؤت الثمرة المرجوة منها . وقد لاقى هو

و « اسكنر » وزوجته الكثير من العناء بسبب الجرذان المنتشرة فى المزرعة ، وكثيرا ماهدد « اسكنر » بالطرد لاهماله ، بل كان يطرده فعلا فكان هذا يستعطفه

ولاحت أولى بشائر النجاح حين كتب « أسكنر » لـ « بنزنجتون » يقول :

« واخيرا أفرخ الدجاج ثانيا .. ولعله يسرك أن تعلم ان النتاج فى هذه المرة مفرط فى النماء بشكل ملحوظ على خلاف النتاج السابق ، وذلك بفضل حسن ارشادكم .. وانه وان كان النتاج الاول الذى اختطفته القطط بضا يبهج النظر بجمال شكله ، الا ان النتاج الجديد ينمو حشيثا طويل السيقان .. ينقر الارض بقوة لاتتناسب مع سنه الصغيرة ، ويقبل على الطعام فى نهم حتى لاراني مضطرا الى القول باننا بحاجة الى مزيد من الطعام لمواجهة هذا الاقبال .. وانه لنتاج جدير بأن يعرض فى أحد المعارض اذا استمر نموه على هذا النحو .. ويسرنى ان اخبرك ان عينى لاتكف عن مراقبة هذه الصغار خشية أن تفتك بها القطط .. وارجو ان تخبرنى عما اذا كنت استمر فى اطعامها بذلك الغذاء الذى خلطته وأعددته بنفسك والذى كاد ينفد .. وانى اخشى ان اقوم بخلط طعام اخر خشية ان اقع فى خطأ مثلما حدث فى الحلوى .

« تشاركنى زوجتى فى ازجاء امانينا الطيبة ، ولانبتغى سوى أن تشملونا بعطفكم . »

المطيع لاوامركم
« الفرد نيوتن أسكنر »

وكان « اسكنر » يقصد من تنويهه عن الحلوى الى اللبن الذى تناوله هو وزوجته الذى كان مخلوطا بالعنصر ب والذى كاد يودى بحياته وحياة زوجته ..

وطار « بنزنجتون » فرحا عندما قرأ الرسالة ، واعاد قراءتها اكثر من مرة ، وأيقن من تحقيق آماله وأحلامه ، وبادر الى السفر فى صبيحة اليوم التالى الى المزرعة حاملا معه مقدارا وفيرا من الغذاء السحرى . وكان الجو ربيعا صافيا ، فراى « بنزنجتون » أن يسير على قدميه من المحطة الى المزرعة غير مبال بآلام قدميه . واخذ الهواء يداعب اوراق الاشجار ، كما راحت الاغصان والازهار تتمايل ، يشجيه تغريد العصافير ، ورأى بعض الغزلان الصغيرة تنشد الماء فى البركة القائمة فى طرف البستان

وايقظ جمال هذه المناظر مشاعر «بنزنجتون» فأهاجت ذكرى مباهج شبابه ، وجسمت له ماينتظره من وراء تحقيق آماله ، فشعر بأنه يعيش فى أسعد يوم من ايام حياته

وبلغ المزرعة وراقب النتاج فى الحظيرة المشمسة ،ورآه يلتهم الطعام الذى أعده وخلطه بنفسه ، ولاحظ أن حجمه يعادل حجم الدجاج الكبير رغم صغر سنه ، وأن امام ذلك النتاج مزيدا من اطراد النمو اذ ان بعض الزغب كان لايزال بأجسام ذلك النتاج ، فأيقن من نجاح تجاربه واستشعر السعادة المقبلة

ودخل « بنزنجتون » حظيرة الدجاج فنفرته فى ثقوب حذائه ، فأسرع بالخروج وأخذ يرقبها من خلف الاسوار وخيل اليه انه لم ير دجاجا مثل هذا من قبل . وقال له مستر « اسكنر » :

ـ لا اتصور كيف يكون هذا الدجاج عندما يكتمل نموه ياسيدى !

فأجابه « بنزنجتون » قائلا :

ـ ستكون الدجاجة بلاشك فى حجم الحصان !

ــ انك تبالغ ياسيدى

ــ بل سيكفى الجناح الواحد لاطعام اسرة بأكملهــا ، يقسم الى أجزاء كما يقطع الجـــزار شريحة كبيرة من اللحم !

ــ اننى أشك فى اطراد هذا النمو ياسيدى

ــ هل تظن ذلك ؟

ــ بل أعتقد ياسيدى ... فهذا النمو الى حين

وصمت « أسكنر » قليلا ، ثم قال :

ــ بيد اننا نبذل جهودا مضنية انا وزوجتى فى العناية بالدجاج

وتفقد « بنزنجتون » أرجاء المزرعة ، شأنه فى كل مرة يحضر فيها اليها ، وبدا له أنه حظى بنجاح لم يكن يتوقعه بعد سنة واحدة من تجاربه ، وأخذ يسير فى المزرعة جيئة وذهابا ، ثم قال :

ــ رغم ان الفرخ منها لايتجاوز عشرة أيام فان حجمه يبلغ خمسة أو ستة امثال حجم الفرخ العادى

وفى هذه اللحظة همس « اسكنر » لزوجته فى خبث :

ــ لقد آن الاوان لان اتمرد .. ان السيد جد مغتبط بالنتاج .. ويظن أنه من فعل غذائه السحرى !

قال « اسكنر » ذلك وهو يكتم ضحكة كادت تنطلق من فمه

وكان «بنزنجتون» سعيدا حقا ، حتى لقد الهاه ذلك عن ملاحظة اهمال « اسكنر » وزوجته ، والتزم اللطف فى معاملته

وعلل « اسكنر » تحطم بعض الاسوار بأنه نتيجــة محاولة من ثعلب أو كلب ، كما عللت زوجته عدم نظــافة

المحضن بضيق الوقت وكثرة العمل . وحين لمحت عينا « بنزنجتون » جحور الجرذان فى الطابق العلوى ، طلب اليه « اسكنر » شراء مصيدة . ولاحظ « بنزنجتون » كذلك عدم نظافة حجرة خلط الطعام وعدم ترتيبهاووجود اطباق مكسورة وصناديق مكدسة وتفاحا فاسدا بها ، وجلود أرانب معلقة على حوائطها ، فقال له « اسكنر » انه خبير بشئون الفراء

وتضايق « بنزنجتون » من هذه الفوضى ، ولكنه آثر عدم توبيخ « اسكنر » وزوجته على اهمالهما ، واكتفى بأن لفت نظرهما حين رأى اناء مليئا بالعنصر يتقلب فيه صرصور ، منبها بضرورة تغطية هذا العنصر بغطاء حتى لايتأثر ويتلف من الرطوبة والهواء . ثم قال فجأة :

ــ سنذبح واحدا من هذا النتاج يا « اسكنر » مساء اليوم ، وسأحمله معى الى لندن لتزداد معرفتنا . . وليكون برهانا ساطعا على ما للغذاء السحرى من أثر فعال . .

وصمت « بنزنجتون » قليلا ، ثم استطرد يقول :

ــ انك ولاشك لاتعطى الدجاج الصغير شيئا من اللحم ؟

فأجابه « اسكنر » على الفور :

ــ كلا . . كلا ياسيدى . . ان خبرتنا بتربية الدجاج لاحد لها . . لا يمكن ان نفعل شيئا كهذا

فعاد « بنزنجتون » يقول :

ــ هذا جميل يا « اسكنر » . . مامن شك فى أنكم لاتلقون الى الدجاج بفضلات طعامكم ونفايته . . لقد رأيت عظاما ملقاة فى أحد اركان الحظيرة . .

بيد أنه تبين حين اقترب منها انها عظام قطة انتزع لحمها

***

ذهلت « جين ـ ابنة عم « بنزنجتون » ـ حين وقع نظرها على الفرخ الذى جاء به ، فهتفت :

ـ لا أصدق ان هذا فرخ !

ثم أردفت فى غضب :

ـ اترانى لا أعرف الفرخ او أميزه .. هذا حيوان آخر هائل .. ولعلك معى فى أنه ليس فرخا !

واراد « ردوود » ان يعلق على الامر قائلا :

ـ علينا ان نستعرض الشواهد لنرى ..

فقاطعته « جين » قائلة :

ـ احكم بعينيك وعقلك ..

فعاد « ردوود » يقول :

ـ ولكنه الامر الواقع يا آنستى ..

فقاطعته « جين » ثانيا بقولها :

ـ هكذا انتم ايها الرجال .. كلكم سواء ..!

فقال « ردوود » :

انى لا أنكر ان هذا أمر خارق .. ولكن الفرخ خرج بلاشك من بيضة دجاجة .. وانه فى رأيى فرخ من نوع خاص ..

ـ أتعنى انه فرخ حقا !؟

ـ أرجح انه ذلك ..

ـ هذا هراء .. انى أعجب وأضيق بأمرك يا مستر « ردوود »

ثم اشاحت عنه بوجهها ، ونهضت من فورها وغادرت الحجرة

وصفقت بابها بشدة . وقال « ردوود » لـ «بنزنجتون» بعد قليل :

ـ ان رؤيتى لهذا الفرخ ستريحنى من كثير من المتاعب

ثم جلس دون أن يدعوه « بنزنجتون » الى الجلوس ، وصارح « بنزنجتون » بأنه أقدم على فعله بلا روية أو تبصر ؛ فقد خلط قليلا من ذلك الغذاء بطعام احد الاطفال منذ أسبوع .. فاعترض « بنزنجتون » على ذلك ، ولكن « ردوود » فهم مغزى اعتراضه ، واستدرك قائلا :

ـ ليس ذلك خافيا عنى .. ولكن الله لطف .. كان وزن الطفل لا يزداد .. فقلق والده « ونكلز » ـ وهو أحد تلاميذى ـ ولم يكن يسمح لى بدخول حجرة الطفل، فتسللت خلسة الى الحجرة منتهزا انشغال المربيةبافطارها واخذت زجاجة اللبن ..

فقال « بنزنجتون » :

ـ سينمو الطفل بلاشك ..

ـ هذا ماحدث فعلا فقد زاد وزنه بصورة ملحوظة .. ويذكر « ونكلز » انه يجد مشقة فى تربيته

ـ تماما كما يقول « اسكنر » ..

وعاد « ردوود » يقول بعد أن القى نظرة أخرى على الفرخ :

ـ ان مايعترضنى هو كيفية التسلل الى الحجرة ،فانهم يرتابون فى وجودى بها بمفردى .. ولا اعرف كيفالسبيل الى اعطاء الطفل جرعة اخرى .. فهو لاينقطع عنالصراخ منذ يومين .. ولعل الطعام العادى لايشبع جوعه .. انه الان بحاجة الى جرعة ثانية ..

ـ يمكنك ان تصارح « ونكلز » بذلك ..

ـ تبا له !

ـ اذن بوسعك ان تلجأ الى الحيلة .. بأن تعطى«ونكلز» قدرا من المساحيق وتخبره انه غذاء صـــحى وطيب للطفل

ولاح على « ردوود » انه اقتنع بهذه الفكرة ، وانهيعتزم تنفيذها

وعاد « بنزنجتون » الى التحدث عن دجاجه ، ذاكرا ان الامر سيكون حدثا عظيما يذاع بين الناس ، وفجأة التفت الى « ردوود » وقال :

ـ لا شك أن هذا سيكون شأن الطفل الصغير ..

ـ هذا مايشغل بالى حقا .. وانى لافكر فى أمر هـذا الغذاء السحرى

ـ انى أتوقع للطفل ضخامة خارقة

ـ اذن فسأعمل على الاقلال من كميـــة الجـرعات تدريجا ..

ـ انك أقدمت على تجربة على جانب كبير منالخطورة .. ولكنها على كل حال تجربة لابد من اجرائها على طفل ما

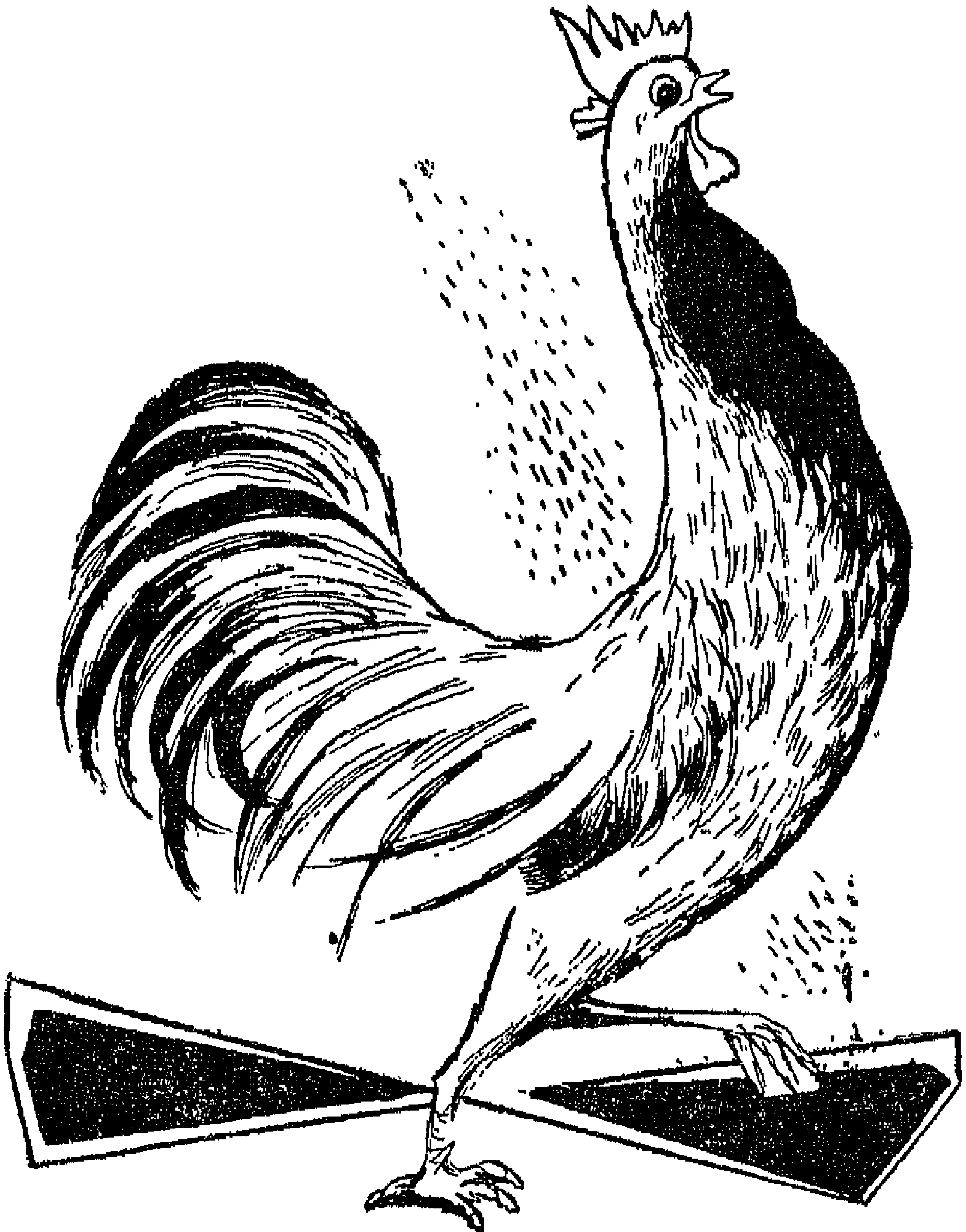
ـ أعتقد ذلك ..

ـ اصارحك يا « ردوود » أنى ما كنت اتوقع لتجاربى هذا النجاح المنقطع النظير .. ولا هذه النتائج الباهرة .. ولهذا أرانى أطيل التفكير الان فيما عساه انتتمخض عنه هذه التجارب ..

لم يكن « بنزنجتون » فى الحقيقة يدرك حتى هذهاللحظة آثار بحوثه وتجاربه

الفصل الثانى :

عمالقة من الزنابير والدجاج !



عمالقة من الزنابير والدجاج

توهم « بنزنجتون » أنه أصيب بزكام حاد ، فحال ذلك دون تردده على المزرعة لبضعة اسابيع : واضطر «ردوود» ان يتوجه اليها فى زيارة خاطفة ، عاد منها والقلق باد عليه . وانقضت ستة أسابيع كانت الافراخ اثناءها لاتتوقف عن النمو ، الى ان حدثت مشكلة الزنابير التى قتل أول واحد منها قبل أن يفر الدجاج هربا من فتك الزنابير بها

وتناقلت الصحف تلك الانباء ، على أنه لا يمكن الجزم بأن ذلك الامر قد وصل الى علم « بنزنجتون » ، وعما اذا كان قد ادرك الصلة بينه وبين الفوضى والاهمال اللذين عما مزرعته

بيد ان تفصيل الامـــر أنه بينما كان « اسكنر » يقدم العنصر «د» من الغذاء السحرى للدجاج فى اهماله المعهود فيه ، راح عدد من الزنابير ينقل بعض هذا الطعام الى صغاره التى أفادت منها . وليس بخاف ان الزنابير أسرع من الدجاج وغير الدجاج نمــوا . وترجع حظوة الزنابير بذلك الغذاء السحرى الى اهمال « اسكنر » وزوجته ، فصارت تلك الزنابير لهذا السبب من طلائع المخلوقات التى ذاع أمرها وعظم شأنها عند التحدث عن عمالقة المخلوقات

وحدث أول صراع بين أحد تلك الزنابير وبين حارس فى مزرعة يدعى « جودفرى » ، حين كان يخوض أحد

المستنقعات حاملا بندقيته ، وابصر حيوانا هائلا مقبلا نحوه لم يتبين حقيقته فى أول الامر وان راح طنينه يصم اذنى الرجل ، واستولى عليه الهلع ، وادرك انه ليس طائرا عاديا فأطلق عليه بندقيته دفاعا عن نفسه ، ولكن ارتياعه جعله لا يصيب الهدف ، فهبط الحيوان الى الارض محنقا دون ان يتوقف عن طنينه المزمجر ، وقد عرف الرجل انه طنين الزنابير . وعاد الحيوان الى الطيران ، فتبين « جودفرى » تقاطيع جسمه كما تبين حجمه الهائل وهو مقبل لمهاجمته ، فأطلق عليه طلقة ثانية ثم القى بندقيته وجرى الحيوان يتبعه ، فانحنى ليتفاداه . وأخيرا رآه يسقط وهو يتلوى من الالم ويلدغ الارض بابرته ، فقضى عليه بطلقتين .. ثم اقترب منه فوجده هائل الحجم تبلغ المسافة بين طرفى جناحيه ثلاثين بوصة ، وطول ابرته ثلاث بوصات ، وقدر طول الحيوان بعشرين بوصة

ورأى رجل آخر كان يركب دراجته احد هذه الزنابير الضخمة ، يغلب على الظن ان صوت الدراجة أزعجه فأرسل طنينه المزعج الذى ارتاع له الرجل فهبط عن دراجته وجلا ، ثم عاود السير مرتعدا

وحدث ان اختفت تلك الزنابير ثلاثة ايام بسبب برودة الطقس ، وحين أشرقت الشمس واعتدل الجو ظهرت تلك الزنابير افواجا وتسببت فى عديد من الحوادث ، منها ان صاحب متجر كان يضع امامه وعاء به سكر فهبط عليه احد هذه الزنابير ، واراد الرجل ان يقتله بمجرف ولكن الحيوان لدغ قدم الرجل رغم انتعاله نافذا بابرته خلال حذائه .. ومع ذلك استمر يضرب الزنبور حتى مات ولكن الرجل قضى أيضا بعد قليل

وحط أحد الزنابير فوق مبنى شامخ ، وانقض على

حمامة وادعة كانت هناك ، اختطفها ولاذ باحدى الشرفات ليلتهمها ، وبعد ذلك دلف الى قاعة المبنى وارسل طنينه المزعج فبث الرعب فى نفوس من بالقاعة ، ثم خرج ثانيا ..

وكذلك قابل سرب من هذه الزنابير بعض شبان كانوا فى رحلة ، فاستولت الزنابير على ماكان معهم من حلوى .. كما فتك بعضها بكلب صغير امام صاحبته

وامتلأت أعمدة الصحف بأنباء الزنابير . وحين غادر « ردوود » الكلية عقب اجتماع صاحب بشأن العجول وأثمانها ، ابتاع صحيفة ما أن تصفحها حتى شحب وجهه ونسى كل ماكان يشغل فكره وهرول الى منزل «بنزنجتون»

***

كان الشخص الذى وجده « ردوود » فى منزل « بنزنجتون » هو ذلك الرجل العجيب « اسكنر » الذى راح يضايقه بثرثرته ويقول له :

ـ لم يعد فى استطاعتنا ياسيدى أن نستمر فى العمل بالمزرعة .. كنا نأمل فى تحسين الحال واصلاح الامور .. ولكنها كانت تتغير من سىء الى أسوأ .. ولم تكفنا الزنابير وأذاها فاذا بالنمل الذى لا يقل ضخامة عن الزنابير يهاجمنا .. حتى أن زوجتى كان يغمى عليها كلما ابصرت ذلك النمل .. أضف الى هذا ياسيدى ذلك القراص اللاذع الذى راح ينمو هو الاخر بشكل مرعب .. وحتى النبات الزاحف الذى يتسلل خلال النوافذ بأشواكه وطوله يقارب طول الانسان .. ان السبب فى كل ذلك يا سيدى هو هذا الغذاء الذى حيثما سقط قليل منه على الارض نما كل كائن ـ حيوانا ام نباتا ـ نموا هائلا .. حتى لم يعد فى استطاعتنا ان نبقى هناك يوما بعد الآن ، فنحن مهددون

بالزنابير والنمل والنباتات الزاحفة .. ليتك يا سيدى تتصور ما نحن فيه من ارتياع .. ليتك ترى هذه المخلوقات المروعة ..

وتوقف «اسكنر» قليلا ، وأخذ يحدق فى « ردوود » ثم استطرد يقول :

ـ ولا يعلم سوى الله ما يئول اليه الحال حين يصل هذا الغذاء الى الجرذان ... حينئذ تكون الطامة الكبرى .. لقد مرت بنا ايام عصيبة بعد ان رأينا النمل وقد صار فى حجم سرطان البحر .. والنبات الذى يزحف علينا فى وحشية وطنين الزنابير الكبيرة .. فما ان اجتمعت كل هذه المصائب حتى ادركت السر فى كل ذلك .. فأردت أن انجو بنفسى .. فحضرت من فورى ... ولا أكون مبالغا اذا قلت أن القلق يكاد يقتلنى حتى وانا هنا .. ولا أعلم مصير زوجتى ، فان النباتات هناك كأنها أفاع لا يسعك الا ان تهرب منها .. والنمل والزنابير يزداد نموها ويطرد ، وليس لدى زوجتى دواء اذا حدث ان اصابها شىء ..

وما أن انتهى من ثرثرته تلك حتى بادره « بنزنجتون» بسؤاله :

ـ ولكن ما ذنب الدجاج ؟ .. كيف سمحت لك نفسك ان تتركه ؟

ـ لقد وضعت لها الطعام حتى أمس .. اما اليوم فلم استطع اطعامها ، اذ روعنى صوت الزنابير التى كانت تحلق فوقنا افواجا .. فاضطررت الى ان احضر لمقابلة سيدى لاوضح له الامر .. وطلبت الى زوجتى أن تبقى وأن تغلق على نفسها النوافذ الى أن أعود ..

فقال « ردوود » :
ـ لو لم تكن مهملا فى هندامك بهذا الشكل .. لـ ..
فقاطعه « أسكنر » قائلا :
ـ ليس هذا مجال الحديث عن الهندام .. ان قلقى على زوجتى يكاد يقتلنى ، ويعطل قدرتى على الجدل والنقاش .. اننى أفكر الان فى الجرذان .. لعلها لم تهاجم زوجتى فى لحظتنا هذه ..
فسأله « ردوود » :
ـ أريد معلوماتك عن الدجاج ؟
ـ الاضطراب يشل تفكيرى من هول مارأيناه .. ان الدجاج ينمو بصورة خارقة للمألوف .. وكذلك النمل والزنابير وحتى النبات الزاحف ..
فقال « ردوود » لـ « بنزنجتون » :
ـ لقد أدلى بما فيه الكفاية .. فماذا نحن صانعون ؟
وقبل أن يجيب « بنزنجتون » قال « اسكنر » :
ـ قبل ذلك أريد ان أعرف مصيرى ومصير زوجتى !
فأجابه « ردوود » قائلا :
ـ عليك أن تسرع الي زوجتك .. فليس من الحكمة ان تتركها وحيدة بالليل !
فعاد « اسكنر » الى الثرثرة ، ولكن « ردوود » حسم الامر بقوله :
ـ ستأوى الزنابير الى أوكارها فى الليل وسيرحل النمل عن طريقك ..
ـ والجرذان ... مارأيك فيها ؟
ـ ليس هناك جرذان

لم تبق مسز « اسكنر » فى مكانها طول الوقت ، ومن ثم كان فى وسع « اسكنر » الا يقلق . وما أن وافت الساعة الحادية عشرة حتى اخذ النبات الزاحف يمتد فوق الجدار ويتسلل من النافذة فيزداد الظلام فى الحجرة ، حتى أيقنت مسز « اسكنر » باستحالةالبقاء فيها ، واستشعرت غياب زوجها ، فأخذت تطل من خلال اغصان النبات الذى كسا النافذة ، وفتحت باب الحجرة وراحت تنصت ، ثم ارتدت ثيابها وتفقدت جوانب حجرة النوم ، حتى اسفل السرير ، وبعد ذلك اغلقت الباب من الداخل وأعدت نفسها لمغادرةالمزرعة . وكانت بضعة من الاغصان التى قطعها زوجها ليتمكن من اغلاق النافذة لاتزال ملقاة على الارض ، فحزمت ملابسها فى ملاءة كبيرة ، ووضعت بها كل مااعتقدت أنها بحاجة اليه ، حتى سترة زوجها المصنوعة من المخمل القطنىالتى يعتز بها ويرتديها وقت الراحة ، لم تنسها .. وكذلك أخذت اناء مغلقا به طعام مملح ، وليس عليها فى كلذلك تثريب ، ولكن العجب كل العجب أنها اخذت معهما صندوقين مملوءين بالعنصر . مما كان « بنزنجتون » قد احضرها معه فى آخر مرة جاء فيها الى المزرعة . ولما كانت مسز « اسكنر » سيدة طيبة وجدة فى الوقت نفسه ، فقد كان قلبها يقطر الما وحسرة لذلك الغذاء الجيد الذى يذهب هباء فى اطعام حفنة من الدجاج التافه

وانتهت مسز « اسكنر » من حزم أمتعتها فارتدت قبعتها وتناولت مظلتها وأكملت زينتها ، وأنصتت فترة من الوقت عند الباب والنافذة ، ثم انطلقت خارجة الى

الخلاء المملوء بالمخاطر حاملة الحزمة بكلتا يديهاومتأبطة مظلتها . وكانت على جانب كبير من العزيمة بحيثآثرت الفرار من ذلك المكان ، برغم الاخطار التى تحف بهـــا فى الخارج ، اذ كانت قد ملت البقاء وحيدة فى عزلتهـا تلك وقالت لنفسها : « ليأت مستر (اسكنر) اذا راق له ذلك »

ويممت شطر القرية التى تقيم فيها ابنتها المتزوجة، بعد أن خرجت من الباب الامامى لتعذر الخـروج من الباب الخلفى بسبب ماتراكم عليه من النبات الذى نمـا بعد أن وقع منها بعض الغذاء السحرى عند جذوره .ثم أغلقت الباب الذى خرجت منه وانطلقت فى الطريق ، ولم تنس أن تودع المكان بنظرة أخيرة

ورات على سفح التل وراء أشجار الصنوبر الممتـدة بقعة سوداء ، وكان هذا المكان وكر عمالقـة الزنابير ، فراحت تحدق النظر متفحصة ، وكان الوقت صـباحا توقفت فيه حركة الزنابير ، فران السكون على المـكان ، ولم يصادفها ذلك النمل الكبير . وان كانت قد لمحت شيئا يتحرك فى حقل الكرنب ، وخيل اليها انه قط برى يحاول اصطياد بعض العصافير

ثم تقدمت بضع خطوات وبلغت حظيرة الدجاج فعجبت لضخامته ، وكان كله من الاناث بعد أن اقتتل الديـكان وماتا . وأخذتها الشفقة حين رات ذبول الدجاج بسبب الحرمان من الغذاء والماء منذ أربع وعشرين ساعة ،مع نهمه الى الطعام .. وراحت تفكر ، وغلبتها الرحمة ، فألقت حزمتها ومظلتها على الارض ويممت شطر بئر أتت منه ببعض الماء أفرغته فى اناء الدجاج ، فتجمـع حوله ، وعندئذ غادرت الحظيرة بعد أن أغلقت بابهـا ،

ثم حملت حزمتها ومظلتها ، واخترقت طريقا لا تلتقى فيه بالزنابير ، ويممت صوب ابنتها

وانهكها التعب من صعود التل ، فأخذت تتوقف عن السير بين الحين والحين لتنال قسطا من الراحة ولتستعيد قواها . ورأت عندما اقتربت من قمة التل بعض الزنابير تنطلق بعيدا عنها ، فاطمأنت وعاودها النشاط

وتقدمت فى السير وقطعت فيه شوطا طويلا الى ان بلغت طريقا تظلله الاشجار اطمأنت الى السير فيه واستشعرت أمنا وسلاما ، ثم وصلت الى تلال يكسوها الكلأ . فجلست مستظلة بشجرة فيها لتنال بعض الراحة . ثم عاودت المسير منحدرة من فوق التلال فى نشاط وعزيمة لا تعرف الكلل ، حاملة حزمتها ومظلتها فى ذلك اليوم القائظ لا تلوى على شىء . وكم من مرة كادت مظلتها تفلت من يدها بسبب اشتداد الريح ، فكانت تشدد عليها قبضتها كما تشددها على حزمتها . وكانت تحدث نفسها بما تزمع أن تقوله لزوجها

وأخيرا لاح لها برج ، فعرفت أنها أضحت قريبة من بيت ابنتها فى تلك القرية النائية البعيدة عن صخب العالم وضوضائه ، غير مكترثة فى قليل أو كثير بما تحمله معها من ذلك الغذاء السحرى الذى اهتمت بأخذه لاحفادها

معركة الدجاج

وصل الدجاج الى قرية هكليبراو ، حوالى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، فكان مقدمه موضع دهشة بالغة لدى أهل الضاحية ، خاصة أن أحدا منهم لم يكن

مارا بالطريق فى ذلك الوقت ليعلن عن مجىء الدجاج .. وانما أعلن عن ذلك فى صورة مفزعة طفل يدعى «أسكايمر زديل» ، أمسكت به دجاجة من ذلك الدجاج الضخم فلجأ الى الصراخ ، ورأته مس «درجان» العاملة فى مكتب البريد بين منقارى الدجاجة ، تجرى به فى سرعة شديدة ومن خلفها دجاجتان أخريان تتبعانها

ورغم أن «بنزنجتون» كان يربى دجاجه فى تكتم ، وقد حرص الا يذيع أمره بين الناس ، فان أخبارا تناهت الى القرية عن ذلك الدجاج الضخم الذى يتعهد تربيته «اسكنر» .. لذلك لم تكن رؤية الفتاة للدجاج مفاجأة، اذ قالت :

ـ ذلك ماكنت أتوقع حدوثه !..

ويبدو أن الآنسة تصرفت بحكمة حين امسكت حزمة الخطابات بيدها وهرولت الى الشارع ، فى الوقت الذى كان فيه والد الطفل يندفع أيضا فى الشارع وقد أمسك وعاء به ماء ، وهو شاحب الوجه يرتعد وجلا .. وكأنما سرى الخبر فى القرية مسرى الكهرباء ، فراح كل فرد يتدافع الى النوافذ والابواب

كذلك يبدو أن الآنسة أزعجت الدجاجات باقتفائها لها، فتوقفت هذه عن الجرى فى تردد ، واحداها لا تزال ممسكة بالطفل ، ثم يممت صوب فناء أمامها . وفى تلك اللحظة انقضت الدجاجة الثانية على الطفل واختطفته من الاولى بمنقارها القوى ، ثم قفزت قفزة شديدة فوق جدار وهبطت وفى فمها الطفل فى حديقة قسيس القرية، فاغتاظت الدجاجة الاولى واندفعت وراءها وهى تصيح، فى الوقت الذى اصابها فيه والد الطفل بضربة شديدة بوعاء الماء الذى يحمله .. ثم تجاوزت الآنسة كوخا فى

طريقها ووصلت الى حقل الطبيب ، أما الدجاجات الاخرى فقد راحت تجرى وراء الدجاجة التى اختطفت الطفل

وخرج القسيس على أصوات الجلبة والصياح وقال: « ارحمنا يارب » ثم أخذ يلوح بعصاه مهددا الدجاجات ويأمرها بالوقوف ؛ ولعله ظن أنها ستلبى نداءه . ولما يئس من محاولاته ، قذف الدجاجات بعصاه فتحطم برج الدار الذى كانت تزهو به زوجته ، وذعرت الدجاجة لصوت الزجاج المهشم فتخلت عن الطفل وألقت به فى بقعة بها ماء ضحل ، انتشل منه سالما الا من تمزيق ثيابه . ثم وثبت الدجاجة الى حظيرة مجاورة سقفها ضعيف هوى تحت وطأة ثقل الدجاجة . وذعر لذلك رجل مشلول ، ومن عجب أن هذا الحادث كان له أبلغ الاثر فى مجرى حياة هذا الرجل ، فقد فك الحادث عقال شلله .. فراح يجرى فى حديقته ويدلف من باب الدار ثم يغلقه دون الاستعانة بعصاه أو بزوجته !

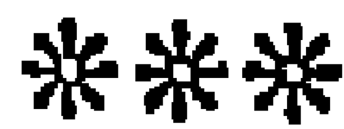
وتجمع حشد من الناس ، وراح يطارد الدجاجات التى اندفعت الى حديقة القسيس ، ثم الى حقل الطبيب حيث التقت بواحدة كانت قد عجزت عن اجتياز السور

وسكنت الدجاجات برهة من الوقت ، وراحت تنبش الارض بأرجلها كأنما تبحث لنفسها عن مهرب . . واخذت احداها تنقر خلية نحل ، ثم لاذت بالحقول وهى ترسل نقنقة حادة ، وتنتفض من لدغات النحل الى أن عثرت على بعض الطعام فى مزرعة راحت تنقره وتلتهمه الى أن طردت من المزرعة

وعم القرية اضطراب شديد لحلول الدجاج بها، فكان الناس يتصايحون ويجرون ويقذفون بكل ما تصل

ايديهم اليه .. وتجمعوا مسلحين بالطوب والعصى والاوانى وبكافة مايصلح للقتال لمطاردة ذلك الدجاج الضخم .. واستطاعوا أن يجلوا الدجاجات عن «أرشت» حيث كانت هناك حفلة تسلى حاضروها بمطاردة الدجاج الى أن وصل الى فندق بتشنز فأطلق أهلها الرصاص عليه .. ولكن الرصاص كان من الصغر بحيث لم يؤثر فى الدجاج الضخم الذى سار متجمعا فى مبدأ الامر ، ثم أخذ يتفرق بعد ذلك . واخذت دجاجة تنقنق مضطربة ، وتسابق قطارا سريعا كان يمرق وتشد كالسهم ، حتى دهش لها كل من رآها !

وتمكن صاحب ملعب للحيوانات من خداع دجاجتين عند حوالى منتصف الساعة السادسة ، اذ أغراهما بوضع الطعام فى قفص أسرعا اليه فأمسك بهما ..



كان الليل قد أقبل عندما هبط « اسكنر » من القطار الذى وصل متأخرا عن موعده ، وسأل ناظر المحطة :

ــ ماذا وراءك من انباء ؟

فقال له ناظر المحطة فى حنق :

ــ اية انباء ؟ ..

ــ أعنى الزنابير وما اليها ؟ ..

فأجابه ناظر المحطة فى تجهم وخشونة :

ــ لم يتسع وقتنا للتفكير فى الزنابير .. فيكفى ماسببته لنا دجاجاتكم المنكودة ..!

وسرد على مسامعه ما كان من امر الدجاج ، فعاد « اسكنر » يسأله :

ــ ألديك انباء عن مسز « اسكنر » .. ؟

فأجابه الناظر وكأنه لا يريد أن يفضى بـــكل مافى جعبته :

ـ ليس هناك مايخشى منه عليها ..!

فقال « اسكنر » وهو يفكر فيمن يتحمل مســئولية الافراط فى تغذية الدجاج الى ان آل الى ما آل اليه :

ـ لا بأس . سأقوم انا ببحث المسألة

وقابله شخص وسأله :

ـ هل تبحث عن دجاجة ؟!

فتجاهل « اسكنر » سؤال الرجل ، وسألهبدوره :

ـ هل تعلم شيئا عن مستر « اسكنر » ؟

فقابل الرجل سؤال « اسكنر » بالتجاهل أيضـــا ، وراح يتحدث عن شغفه بالدجاج ..

وكانت العتمة قد اشتدت عندما بلغ « اسكنر »حانة القرية ودلف من بابها ، ثم قال لمن فيها :

ـ ماذا تعرفون عن مسألة الدجاج ؟

فأجابه احدهم :

ـ لقد عرفنا تفاصيل كل ماحدث وبلغنا ماكان منأمر فرارها واذاها ..

وطلب « اسكنر » بعض الشراب ، كما طلب انيرش على وجهه شيء من الماء .. وراح كل واحد منالموجودين يقص عليه قصة من انبـــاء الدجاج ، واخـــيرا صـــاح « اسكنر » :

ـ ليس هذا ما أعنيه .. ماذا تعرفون عن مســـــز « اسكنر »

فأجابه واحد منهم :

ـ الا هذا .. فلم تخطر على بالنا لا أنت ولاهى ..!
وعاد الاول يسأله :
ـ اذن فأنت لم تتوجه الى الدار فى يومك ؟
وقال له الثانى عبارة لم يتمها :
ـ اذا كانت قد أصابتها نقرة من احدى الدجاجات..

وخطرت للقوم فكرة هى أن يصحبوا « اسكنر » لانه حيال اضطرابه لايدرك مجريات الامور ، ليتعرفوا ماذا كانت زوجته بخير أم أصابها سوء ..ولكن « اسكنر » كان فى شغل عنهم وهو يجرع كأسه وينظر الى لاشىء . وفجأة سألهم عما اذا كانت الزنابير قد أصابت أحدا بأذى ، فأجابه الاول بأنهم شغلوا بأمر الدجاج ، فقال « اسكنر » :

ـ لعلها رحلت ..
ـ هل تقصد الدجاج ؟!
ـ بل أعنى الزنابير ..

وتحدث «اسكنر» فى لغو وثرثرة عن القطط والكلاب ومااِلى ذلك ، ولاحت الكآبة على وجوه الموجودين ،وقال الاول :

ـ اتعنى قططا وكلابا فى حجم الدجاجات ..انالقطط فى هذه الحالة تكون نمورا !

وبعد قليل كان « اسكنر » يسير فى الطريق بمفرده ..

ومنذ تلك اللحظة كان هذا الرجل موضوع احاديث الناس فى مجالسهم .. وقد قيل أنه كان يصعد فوق التلال ويوغل فيها ويذوب فى ظلام الليل .. واخيرا اختفى المسكين ولم يسمع أحد عنه شيئا حتى الآن ،

ولم يعرف أحد ماذا حدث له ، كما لم يره أحد بعد ذلك قط !

وصعد اثنان ممن كانوا بالحانة — هما اللذان كان يتحدث اليهما ومعهما ابن احدهما — الى التل حيث صعد « اسكنر » وغاب ابد الدهر ، وأخذ ثلاثتهم يتدارسون أمر الرجل ، ولم تبد لأعينهم بارقة ضوء فى المزرعة ، واخيرا قال الابن :

— لو ان خطرا تهدد الرجل ، أو شرا أصابه ، لعاد لتوه ..

وامن ابوه على قوله ورأيه ، واخيرا عادوا الى دورهم وآووا الى مضاجعهم وهم يفكرون ...

وحدث ان سمع أحد الرعاة صراخا ظنه صادرا عن ثعلب ، واتضح أن حملا اغتيل ووجدت بقاياه فى الطريق ..

أما اللغز الذى حير الناس ، فكان اختفاء « اسكنر » اختفاء تاما . وقد عثر على عظام بعد بضعة اسابيع فى المزرعة التى احترقت ، قد تكون عظاما آدمية ، ولكن لا يمكن الجزم بأنها عظام « اسكنر » ، كما عثر على عين زجاجية ظن انها احدى عينيه التى كان ينظر بها الى الدنيا فى كآبة وعدم مبالاة !

وكذلك عثر بين آثار المزرعة على بعض الازرار ، بعضها مشوه وبعضها احتفظ بشكله .. كما عثر على حلقات للازرار واغطية لها ، قيل انها تخص « اسكنر » وانها دليل على ان الرجل قد قضى . وقد تكون العين الزجاجية عينه ، وان كانت زوجته لا تعرف ذلك . ولكنى اقرر أن لون عين الرجل تبدل من السمرة الى الزرقة . أما العظام فانها أبعث على الشك من غيرها ،

فكثيرا ماتتشابه العظام . وانى لاتساءل : أين حـــذاء « اسكنر » ؟ وهل باستطاعة الجرذان ان تلتهمه مـــع جسمه ، وهى التى لم تســـتطع أن تلتهـــم حمـــلا بأكمله ؟!

واجمع من يعرفونه على أنهم لايصدقون أن حيـــوانا ما يستطيع التهامه بعد افتراسه .. وقد حدثنى شخص يعرفه ، فذكر أن « اسكنر » يتميز بتراكم الاقذارعليه، كما انه لايمكن أن يموت غرقا ، وقال انه لا يقصـــد الاساءة بهذا الى الرجل وانما يقول الحق الذى يعرفه.. كذلك قال انه ماكان يقبل أن يحيك له « اســـكنر » ثيابه ، ولو اضطره ذلك أن يبقى حبيســـا فى داره لعريه

ولعل فى كل ذلك مايقطع بأن « اسكنر » لم يمت ، وانه وان كان لم يعد الى المزرعة ، فالارجـــح انه راح يجوب الحقول وانه ذهب الى عالم مجهول ، ســـواء فى دنيانا هذه او فى غيرها ، ولكنه على أى حال آثر البقاء فى عالمه المجهول ذاك حتى يومنا هذا !

حدث خطير

كان احد الاطباء عائدا بعربته ليلا عبر الطريق الزراعى ـ وقد مضى على اختفاء « اسكنر » يومان ـ بعد جهـــد بذله فى اسعاف مريض كان مشرفا على الهلاك ، وسكون الليل شامل .. واضطر الطبيب أن يسوق عربته بنفسه لمرض سائقه ، وارخى العنان لحصانه ، لمعرفة الحصان معالم الطريق ، ثم استســلم الطبيب للاغفـــاء ، واذ به يصحو من غفوته مذعورا ويصيح :

ـ ماذا اسمع ؟ ! ..

ثم قال لنفسه انه واهم : وان ما تناهى الى سمعه لا يعدو أن يكون عواء ثعلب أو صراخ ارنب يفترس .. بيد انه سمع الصوت مرة أخرى ، فعاد يصيح :

ـ ماذا هناك ؟ ! . .

ومرة ثانية عزا الامر الى الاوهام ، فحث حصانه على السير ، ولم يسمع شيئا بعد ذلك .. ولكن تراءى لعينيه ان شبحا له راس ضخم أطل عليه خلال أسوار المزارع ، ودقق النظر فلم ير شيئا .. فظن آخر الامر أن كابوسا طاف به : فلو كان فى الامر شيء لاجفل الحصان : ورغم كل هذا فقد ظل الطبيب مرهف الحس

واخيرا سمع فى وضوح وقع أقدام ، ولم يستطع النظر الى الخلف لالتواء الطريق وخطورته .. ونظر الى جانبه على ضوء مصباح العربة الخافت ، فرأى ظهر حيوان هائل يقفز فوق السور . وكان الحيوان من الضخامة بحيث ذكر الطبيب بقصص الخرافات واعمال السحرة .. وخشية أن يفلت زمامه من الخوف قبض على العنان بشدة . وبدت له على اشعة القمر الواهنة بيوت القرية وهو يقترب منها ، فشعر بشيء من الطمأنينة ، وحث حصانه على مضاعفة السرعة .. وفجأة هاجمته الجرذان حين مر بباب السور ، وتصدى له فأر ضخم لم تقع عينا الطبيب على مثيل له من قبل ، ويختلف شكلا عن كل ما سبق ان رآه .. فضرب جواده بالسوط ضربة شديدة أيقظ دويها الناس كما ايقظتهم استغاثة الطبيب . ثم تطورت الامور بعد ذلك تباعا ..

ويقال ان الطبيب أهوى بضربة على الفأر ، وان الحيوان نظر اليه نظرة استهانة .. فأردف الطبيب ضربته بثانية ، وثالثة ، دون أن يخطر بباله أن فأرا آخر يقترب منه ،

وارخى العنان لجواده فرأى فأرا ثالثـــا يجد فى اثره . وضاعف الحصان من سرعته ، بيد أنه كبا ـ لحســـن الحظ ـ بعد أن كان قد وصل الى القرية وقطع فيهاشوطا كبيرا . ولم يتمكن أحد من تعليل كبوة الحصان ، وهل حدث ذلك بسبب عضة فأر فى ساقه .. كذلك لم يتنبه الطبيب الى أن فأرا قضم كتفه ، فأحـــدث به جـرحين كبيرين .. وأن بعض لحمه قد انتزع عند الجرحين ، الا حين وجد نفسه طريح الفراش فى بيت بناء القرية !

ويروى ايضا ان قدم الطبيب التوت حين قفز من العربة مدفوعا بغريزة حب البقاء ، وأن الحصان وقف على قائمتيه الخلفيتين حين امسك فأر برقبته ، ثم وقع الحصـــان فانقلبت العربة وتحطم مصباحها واشتعل زيته فأضـــاء المكان ، وبانت معالم المعركة . وكان هذا الضوء هو الذى جذب أنظار البناء الذى سمع الجلبة واستغاثة الطبيب ، ثم استبان احداث المعركة ، والفأر الذى غرز أسنانه فى رقبة الحصان . وافعمت أحداث المعركة قلب البنـــاء بالرعب ، خاصة حين لمح عينين ترقبانه بجوار جـــدار المقبرة ، قفز صاحبهما على الجدار بعـــد ذلك .. ثم لاذ الطبيب ببيت البناء ، وراح يطرق الباب والدموع تنهمر من عينيه .. وسمح له البناء بالدخول بعد أن تعرف عليه، وبادره الطبيب قائلا فى هلع :

ـ اقفل ..

ثم تهالك على مقعد ليسترد أنفاسه ، قبل أن يتحامل على نفسه ويصعد الدرج ، وراح يكرر عبارة واحـــدة قائلا :

ـ لا اعرف ما هى ! ...

وحاول البناء ان يحمل الطبيب على تنـــاول شراب

ينعشه فأبى ، وابدى الطبيب توجسه من البقاء بمفرده فى هذا الضوء المتراقص الواهن .. فصعد به البناء الى الطابق الاعلى

وراى الجرذان وهى تحيط بجثة الحصان الذى مات ، ثم تجرها الى المقبرة ، وتنهش لحم الحصان وتلتهمه فى نهم دون أن يعترضها أحد !

***

توجه « ردوود » الى « بنزنجتون » صباح اليوم التالى ، ومعه ثلاث نسخ من طبعات ثانية لصحف المساء ، فوجده غارقا فى التفكير فى قصة ما فما أن رآه «بنزنجتون» حتى بادره بسؤاله :

ـ ماذا وراءك من جديد ؟

ـ اقرا .. لقد لسعت الزنابير رجلين ..

ـ هذا ذنبهما على كل حال .. بيد اننى أرجو أن يصرح لنا باستخدام الدخان لابادة هذه الزنابير

ـ نعم ، انه ذنبهما حقا ..

ـ الديك أنباء عن شراء المزرعة ؟

ـ ان السمسار ثرثار شأنه شأن جميع السماسرة .. فهو يكرر القول بأن هناك مشترين آخرين .. وعندما انهيت اليه أن الموضوع حيوى بالنسبة لنا ، عجب لماذا لا نزيد أجره مائتى جنيه .. واصارحك القول اننى أفضل ان يمتلىء العالم بالزنابير على ان اذعن لمطامع شخص وضيع كهذا .. فانى ..

فقاطعه « بنزنجتون » قائلا :

ـ أكاد افقد الامل فى ان أحد الزنابير ..

وقاطعه « ردوود » بدوره قائلا :

ــ ان هذا السمسار ليس أكثر ادراكا للمنفعة العامة من الزنابير .. !

وراح يكيل السباب والتهم للسماسرة ، فنعت هذه الفئة بأحط الصفات .. وأوضح الفارق بين السمسار وبين الطبيب أو الجندي الذى يجعل الواحد منهم الشرف رائده . ثم يمم شطر النافذة وراح يتطلع الى المارة

والقى « بنزنجتون » القصة التى بيده جانبا ، وشبك يديه ، وقال :

ــ اخبرنى بصراحة .. هل يلغط الناس بنا ؟

ــ الى حد ما .. على غير ماكنت أتوقع ..

ــ وهل يشددون علينا النكير ؟!

ــ كلا .. بيد انهم يعترضون على وجهة نظرى فيما أرى أن يعمل .. ولقد نشرت فى التيمز ايضاحا وافيا للموضوع ، وعلقت عليه الجريدة بمقال طويل تستبين منه وجهة نظر الجريدة فى الا جدوى فى تهوين حدة الامر .. واهابت بضرورة عمل شىء والا ساءت العواقب

ــ يخيل الى أن « اسكنر » كان محقا فيما ذكره عن الجرذان ..

ــ لا أرى ذلك ..

واقترب « ردوود » من « بنزنجتون » ، وقال بصوت خفيض وهو يشير الى باب مقفل :

ــ ماذا تقول ابنة عمك ؟

ــ جين .. لا علم لها بشىء من هذا على الاطلاق .. بل انها خالية الذهن عن وجود صلة بيننا وبين ذلك الامر .. انها ترفض قراءة الصحف ، ولا تصدق مسألة الزنانير الضخمة ، وتقول ان ذلك هراء

ـ يسعدنى أن اسمع هذا ..

ـ وما راى مسز « ردوود » ؟ ..

ـ لا شيء .. انها مشغولة بطفلها .. فهو مستمرفى..

ـ انمو ؟! ..

ـ نعم .. ان وزنه الآن يقرب من ستين رطلا رغم أن عمره لا يتجاوز ستة اشهر .. انه امر يبعث على القلق حقا .. !

ـ ولماذا ؟ .. اليس ذلك دليلا على الصحة الجيدة والبنية القوية ؟

ـ بل على قوة الشكيمة المفرطة .. ستهجرنا المربية لانه يركلها بعنف .. ان نموه مطرد ، وبسبب ذلك تصنع له ملابس اخرى من وقت لآخر .. وبسبب ضخامته كسرت احدى عجلات عربته ، فحمل الى البيت فى عربة اللبن ، وتجمهر حوله الناس مندهشين مذهولين . وخصصنا له سريرا كبيرا لنومه لان مهده لم يعد يتسع له ، وأمه منزعجة بعد أن كانت مزهوة فى مبدأ الامر .. وتنسب ذلك الى اختلال الصحة !

ـ الم تعالج المسألة بالاقلال من الجرعات تدريجا ؟!

ـ لقد فعلت ، فكانت النتيجة أن الطفل لا يجأر بالصراخ ، ويزمجر كالحيوان المتوحش .. وتلك حال لا تطاق .. !

وتنحنح « بنزنجتون » فى يأس ، ثم استطرد « ردوود » يقول :

ـ ياله من طعام .. اغلب الظن أن الناس حين يعلمون بأمر الطفل ستقفز الى أذهانهم مسألة الدجاج وغير الدجاج ، ويقحمون زوجتى فى الامر ..

ـ انها معضلة يستعصى حلها .. اننا نعمل سعياوراء نتائج نظرية ، ولكننا نكتشف عوامل كامنة جـــديدة لم يسبقنا اليها احد .. ليس لنا ولا لفـــيرنا ان يقف فى وجهها .. الواقع أن الزمام قد أفلت من يدنا لاننا نصنع الطعام ..

ـ وهم يجرون عليه التجارب ..

ـ لن أبالى بالضجة القائمة فى « كنت » ..

ـ الا اذا لجئوا الى القانون لعرقلتنا وتعكير صفونا..

ـ ان حالة طفلك الآن هى التى تثير اهتمامنا ..

فحدق فيه « ردوود » وقال :

ـ انك اكثر منى صلاحية للنظر فى أمره .. فهو ليس ابنك .. اشر على بما أفعله

ـ لا تقطع عنه الغذاء ..

ـ سيستمر نموه ويزداد ..

ـ فليكن .. سيكون ذلك نسبيـــا كما فى الدجاج والزنابير !

ـ وبعدئذ ؟ ..

ـ فى ذلك متعة وطرافة ..

ـ الا تفكر فى امر ملابسه ؟ !

ـ عندما يكتمل نموه سيصبح « جلفر واحدا فى دنيا الاقزام » .. ان ما أعنيه يا «ردوود » بالذات هو أن مخ الفتى سيتضاعف حجمه بعدد المرات التى يتضاعف بها جسمه بالنسبة لنا

وكان « ردوود » يرسل النظر خلال النافذة ، فرأى اعلانا عريضا على عربة فى الطريق ، فسأله «بنزنجتون » عما يرى ، ولكن « ردوود » أطلق صرخة حادة وقال وهو

يهم بهبوط الدرج ، و « بنزنجتون » فى ذهول :

ــ سأشترى صحيفة ..

ــ لماذا ؟ ..

ــ لم اتبين بالضبط .. جرذان .. !

ــ جرذان جبارة .. اذن كان «اسكنر» محقا فيما قال .. لعلها فتكت به والتهمته !

ثم اندفعا معا يهبطان الدرج مسرعين ، وهما يسمعان بائعى الصحف يصيحون وهم يجرون :

« حدث جلل خطير فى كنت .. جرذان جبارة تأكل طبيبا وتفتك بجواده وتلتهمه .. اليكم التفصيل .. »

وحين وصلا الى الباب وجدا المهندس الشهير «كوسار» وامسك « ردوود » الصحيفة وراح يقرأ الانباء .. بينما شب «بنزنجتون» على أطراف أصابعه يطل على الصحيفة من خلف زميله ، وكان المهندس ضخم الجسم .. قسمات وجهه ليست متناسقة ، قوى الصوت حتى ليسمع شهيقه وزفيره من داخل صدره ، يتكلم فى نبرات الغاضب .. ونقد الحوذى اجره ، واخذ يصعد السلم الخارجى لاهثا ممسكا بصحيفة فى الوقت الذى سأل فيه « بنزنجتون » زميله فى لهفة :

ــ و «اسكنر » ؟ ..

ــ لم تنوه عنه الصحيفة .. لاشك أن الجرذان فتكت به والتهمته هو وزوجته .. انها مأساة تتمزق لها نياط القلوب .. هاهو ذا المهندس « كوسار » ! ..

فقال « كوسار » وهو يطوح بالصحيفة فى وجهيهما :

ــ هكذا ثمرة طعامكما ! .. لم لا تعالجان الامر .. وتوقفان هذا الشر ؟ .. ومع ذلك ترغبان فى شراء

المزرعة .. خير لكما أن تشعلا فيها النار . لقـد كنت على يقين من مغبة فعلكما .. اشتريا عددا من الاسـلحة والذخيرة التى تصلح لقتل الجرذان الجبارة ، ولن تعدما وسيلة الحصول على تصاريح الشراء من مكتب البريد ، واذهبا بالسلاح الى أرشت .. أين تليفونك يا «بنزنجتون» لأسـتدعى عـددا من اصـدقائى الاقوياء ؟ .. وأنت يا «ردوود» أتبحث عن قبعتك ؟ .. يا للسخف .. انك بحاجة الى السلاح يا صاح .. طبعا معك ما يكفى من النقود ..

وقاده « بنزنجتون » صاغرا الى التليفون ، فتحدث فيه « كوسار » ثم قال موضحا خطته :

ـ أما الزنابير فيمكن ابادتها بمركب من الكبريت وملح البارود .. ونحن بحاجة الى مقدار من الجبس .. الست كيميائيا ؟ .. ان الامر لا يحتاج الا الى العثور على كميات هائلة من الكبريت معبأة فى أكياس حتى لا نجد مشـقة فى نقلها .. لنستخدم دخان المركب فى ابادة الزنابير فى أعشاشها .. أما الجبس فلكى نسد به الاعشاش ، على أن تنقل هذه المواد الى هناك

ووافق « بنزنجتـون » على كل ذلك ، ورتب ما يلزم للحصول على المال من المصرف .. وران الصمت عـلى الجماعة لحظة ، قال بعدها « كوسار » :

ـ اننا اذا تهاونا ، فان « كنت » ستصبح اثرا بعـد عين .. والآن سأترككما واذهب

ثم نادى على عربة فتقدم اليه سائقها ، وهبـط « بنزنجتون » السـلم عارى الراس ، وهم بالركوب ثم قال :

ـ يجمل بى أن أخبر ابنة عمى «جين» ..

ولكن « كوسار » دفعه قائلا :

ــ يمكنك أن تقول لها ما تريد بعد ان تعود .. يالكما من رجلين فذين ، ولكن تنقصكما ملكة الابتكار .. انني اعرف ابنة عمك «جين» تمام المعرفة .. تعسالهاولامثالها ممن رزىء البلد بهن .. انهن جاهلات بما يجب عليهن ان يفعلن رغم تلقينهن اياه

ونظر « كوسار » الى ساعته ، ووجد أن لديه متسعا من الوقت يمكنه فيه أن يتناول غذاءه قبل أن يتوجـــه لشراء الجبس وارساله الى تشيرنج كروس

واخيرا تحرك القطار فى الساعة السادســـة ، وكان « كوسار » قد وصل الى المحطة قبل موعد قيام القطار بوقت كاف ، ووجد « بنزنجتون » قد اشتبك فى جـدال صاخب مع سائق العربة ومع اثنين من رجـال الشرطة خارج المحطة ، كما وجد « ردوود » فى مخزن البضائع يعالج هو الآخر كيفية شحن الاسلحة ، وموظفو شركة النقل يعاملونه فى تراخ ، فقال « كوسار » :

ــ سحقا لهؤلاء الموظفين .. انهم يستحقون ان يموتوا رميا بالرصاص ، وان يستبدل بهم غـيرهم أنشـــــط منهم واذكى ..

وانتهت المنازعات ، وراح ناظر المحطة يصدر تعليماته الى الموظفين .. واستطاع «كوسار» أن يستقل القطار مع صاحبه بعد ان شحنوا معـداتهم . ولم يدرك ناظر المحطة انه حاد عن اتباع النظم المعمول بها ، وتحسس ذراعه التى كان « كوسار » يقبض عليها مقطبا ، وسـأل الناظر احد الحمالين :

ــ ترى من كان هذا الرجل ؟

ـ انه أحد الاشراف .. ركب ومن معه فى الدرجة الاولى ..

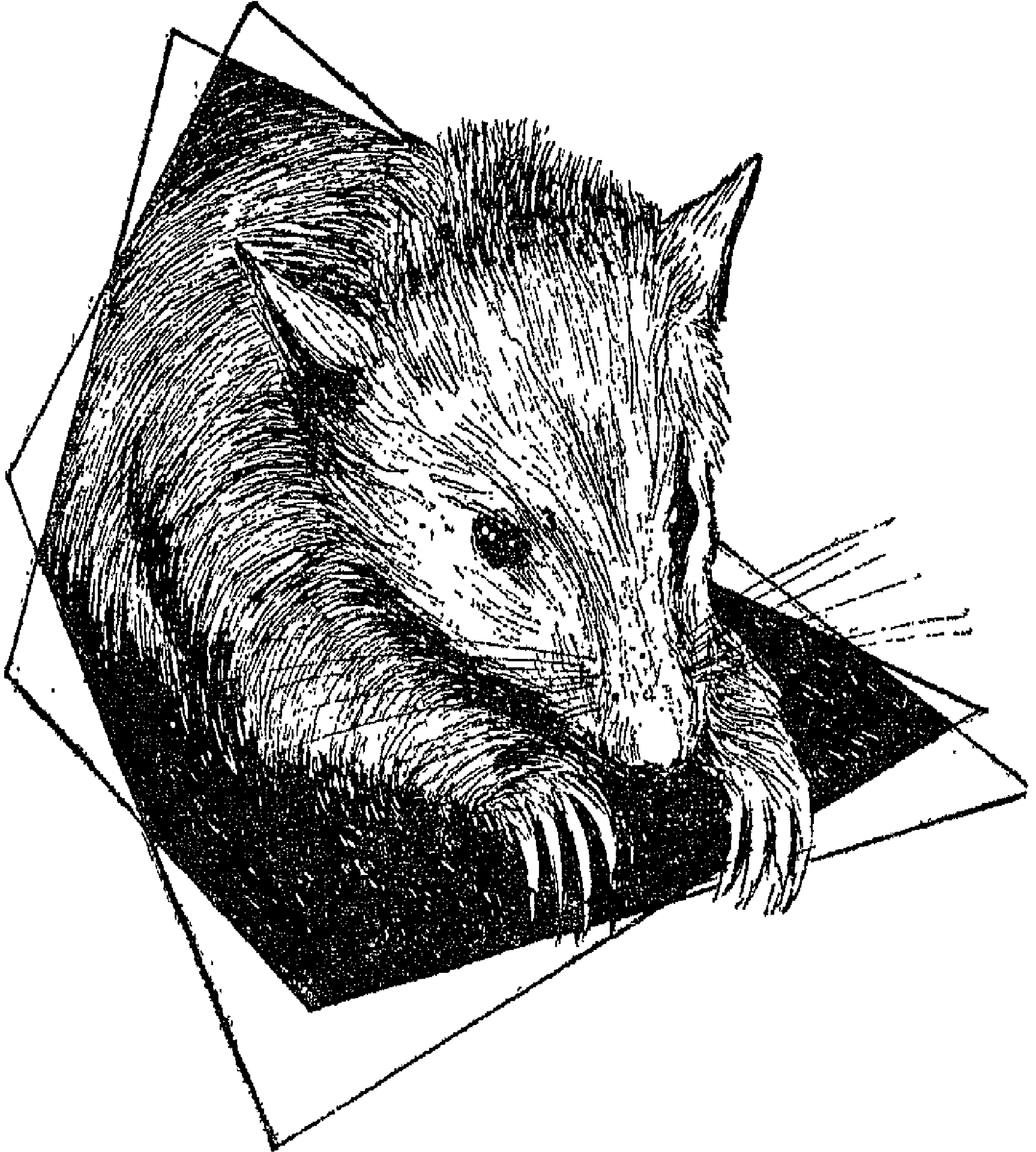
ـ لقد أرضيناه على كل حال .. اذ ركب ومن معه وما معه

وسار الناظر على مهل ، ولاذ بعزلته شأن كبار الموظفين ليكون بمنأى عن صخب المسافرين وثرثرة الناس .. وكان مزهوا بنشاطه الذى أبداه فى خدمة ذلك الشريف ، فخورا بما أظهره من كفاءة ، رغم تلك القبضة القوية التى آلم بها ذراعه ، وتمنى لو أن من ينحون عليه باللائمة قد شاهدوا نشاطه هذا

* * * *
* * * *

الفصل الثالث :

الجرذان الجبارة !



الجرذان الجبارة

ما أن وافت الساعة الخامسة مســــاء ، حتى كان « كوسار » قد قام بارسال كافة المعــدات من أرشت الى هكليبراو ، التى عزم على أن يقضي بها على الزنابير والجرذان الجبارة . وقد تزود بمختلف المواد والادوات من زيت ووقود وكبريت وبنادق كبيرة وصغيرة مزودة برصاصها ومطارق ومجـارف وحبال .. ولم ينس أن يأخذ مئونة تكفيه هو، ورفاقه ثلاثة أيام مكونة من طعام مجفف بارد وبضع زجاجات من الويسكى والبيرة والمياه الغازية ، نقلها جميعها فى عربتين ماعــدا البنادق التى أخذها معه « ردوود » والرجال الاقوياء الذين احضرهم « كوسار »

وكان « كوسار » هادئا ، وهو يعد كل ذلك ، بالرغم من الذعر الذى عم ارشت لظهور الجرذان الجبارة ، وقد أجزل العطاء لسائقى العربات لضخامة حمولتها..ووجد « كوسار » جميع الحوانيت مغلقة والطرقات مقفرة ، ونادرا ما رأى شخصا يسير ، واذا طرق أحد الابواب أطل عليه شخص من النافذة دون أن يفتح الباب .. ويظهر أنه كان قد رسم خطة الاستعانة بأهل القرية فى انهـاء مهمته .. واذ ذاك استقل مع « بنزنجتون » عربةتقلهما الى « هكليبراو » لحقت بالعربات الاخرى فى الطريق ..

واستغرق « بنزنجتون » فى التفكير فيما فعله ، هــو

وزميله ، ولم يألفه الناس .. وكان يتطلع بين الحـين والحين الى رفيقه « كوسار » ، واخيرا قال فى نفسه :

ـ لم لا نقدم على عمل كل ما هو طبيعى ليكون السفر ايسر واعظم امتاعا .. أى عمل يحبه الانسان ، ولا يرى انه خطأ ؟! ..

ثم عاد وغرق فى دوامة من التفكير الفامض عن الارادة وحقيقتها .. ففى رايه أن النظم القائمة يكتنفها التعقيد، وان الحياة حافلة بالسخافات والاسفاف ، وان فى وسع الناس أن يمتعوا انفسهم بما يروق لهم ويرونه مفيدا ، ولكن قوة لا يعترفون بها تحول دون ذلك .. ان ابنـة عمه «جين» مثل بارز فى هذه الناحية ، ولها شـأن دقيق فى الامر من العسير ادراكه .. لماذا نتناول الطعام، ولماذا ننام ونعيش بلا زواج ، ونطرق بعض الاماكن وننأى عن البعض الآخر .. كل ذلك من أجل «جين» واحتراما لها .. تلك التى أصبحت فى نظره رمزا لامر غامض !

ورأى « بنزنجتون » طريقا ممهدا معبدا ، فقفزت الى ذهنه ذكرى ذلك اليوم المشرق الصافى القريب العهد به الذى سعى فيه على قدميه من «أرشت» ليرى دجاجه الكبير ..

ياسخرية القدر ! ..

ونبهه « كوسار » من سبحات أفكاره ، وكان الطريق مكسوا بالعشب ، والجو قائظا وقت الظهيرة وقد سكنت الريح ، والمارة قليلون ، والفزلان تمرح وراء الاسوار .. ولمح « كوسار » اثنين من الزنابير الضخمة على مقربة من «هكليبراو» كما رأى زنبورا ثالثا يزحف على الارض امام حانوت بدال القرية ويحاول الدخول ، وكان من السهل رؤية البدال داخل الحانوت وهو يرقب الزنبور فى هلع

وفزع ممسكا ببندقية كبيرة . وعندما بلغت أولى العربات حانة جولى توقفت عن المسير ، وابلغ سائقها «ردوود» أنه قد وصل الى المكان المتفق عليه .. وحذا حـــذوه سائقا العربتين الاخريين ، ورفض الجميع أن يتقــدموا أكثر من ذلك ، وأصروا على رأيهم .. ثم قال احدهم :

ـ اننا نخشى على الخيل من أذى الجرذان الضخمة..!

وكان « كوسار » قد وصل اليهم فأمر بتفريغ شحنة العربة الصغيرة ، فأسرع أحد رجاله ـ وهو مهنــــدس ناصع البياض دميم الهيئة ـ الى تنفيذ الامر ، ثم طلب « كوسار » بندقية أشار نحـــوها ، وقال يخـــاطب السائقين :

ـ اننا لا نريد معونتكم .. لكم أن تفعلوا أو تقـــولوا ما تشـــاءون ، ولكننا نتشبث بهذه الخيل فهى لازمة لنـــا .. !

وأخذ السائقون يجادلونه ، بيد أنه استطرد قائلا :

ـ واذا عارضتم ، أو لجأتم الى العنف ، فسأصيب أقدامكم بهذه البندقية ، وسنتتابع الخيل سيرها ..

ثم استدار الى اثنين من رجاله الاقوياء المفتـــولى العضلات وصاح فيهما :

ـ عليك بهذه العربة يا « فلاك » .. وتول يا « يابون » تلك ..

فجن جنون سائقى العربتين ، وراحا يصرخان فى وجه « ردوود » فقال لهما :

ـ لقد أديتما رسالتكما بالنسبة لصاحبى المركبتين.. فعليكما أن تنتظرا هنا حتى نعود . ولا لوم عليكما فى ذلك. اننا نحمل سلاحا كما ترون ، فلا تلجئونا الى استخدامه

حيالكما .. ان العمل الذى ينتظرنا جد خطـــير ، واذا اصاب الخيل شر فأعدكما بأنى ســأعوض اصحابهــا عنها فاطمئنا ..

واكد « كوسار » هذا الوعد .. وسارت القافلة بين راكب ومترجل ، وكانت فريدة فى شــكلها .. واصلت سيرها واعتلت قمة التل واشرفت على المزرعة ، ولمحت الجماعة نفرا من الناس قريبا من المزرعة ، يحمل احدهم بندقية ، من بينهم ذلك الرجل الذى كان يتحدث الى « اسكنر » فى الحانة قبيل اختفائه واسمه « فلشر » : ورجل آخر كان يرقب المزرعة بمنظار مكبر ، والتفتوا جميعا الى القافلة فسألهم « كوسار » :

ـ ما وراءكم من أنباء ؟

فأجابه « فلشر » الاب :

ـ الزنابير لا تتوقف عن التحليق غدوا ورواحا دون ان تحمل شيئا

وقال صاحب المنظار :

ـ كانت اشجار الصنوبر « تتمتع » بالحرية عنــد الصباح .. فاذا بالنبات الزاحف يتسلقها ويمســك بتلابيبها .. وفى وسعك ان تراقب ذلك النبــات فترة يسيرة لتلاحظ سرعة نموه ..

وقال « اسكلمر زديل » :

ـ لعلكم ذاهبون الى هناك ..

فقال له « كوسار » :

ـ اتريد ان تصحبنا ؟ .. سيقتضينا العمل طـوال الليل ..

فتردد « اسكلمر زديل » قليلا ، ولكنه عقد العزم على عدم الذهاب .. وعاد « كوسار » يسأل :

ـ هل رأيتم جرذانا ضخمة ؟
ـ نعم رأينا واحدا منها يطارد الارانب ليصيدها ..

وتركهم « كوسار » وتابع سيره ليلحق برفاقه .. وحين وقعت عينا « بنزنجتون » على المزرعة أدرك على الفور مفعول طعامه السحرى ، ونظر الى البيت فخيل اليه انه أصغر مما كان ، كما راى ازدياد نمو النبات حتى لقد غطى الكلأ سقف البناء القائم عليه .. كما لاحظ التفاف النبات حول مدخنة البيت العالية وتجاوزها الى أعلى ، وكذلك وجد النبات قد التف حول أسلاك الحظائر

وقارن الجماعة انفسهم بكل ما يرونه فخيل اليهم انهم فريق من الاقزام ، ثم رأوا الزنابير تحلق فوقهم وتدلف الى أعشاشها أو تخرج منها ، وأجساما سوداء تحوم فى الجو ، يطارد واحد منها ـ فى سرعة هائلة ـ طيرا ويحاول الانقضاض عليه ، وطنينها يصم الآذان

ودنا أحد الزنابير من الجماعة وراح يحوم فوقها وينظر اليها بعينيه المرعبتين ، فأطلق عليه « كوسار » رصاصة لم تصبه ، ولاذ الزنبور بالفرار . وحط بعض الزنابير على عظام ملقاة لعلها عظام حمل كانت قد فتكت به الجرذان .. وجمحت الخيل عندما اقتربت من هذه المخلوقات الهائلة الخارقة ، فاضطر أفراد الجماعة الى ان يسوقوها فى رفق وهم ممسكون بها

وعندما وصلت القافلة الى البيت ، لم ير احد من أفرادها جرذانا .. وقد ران السكون على المكان ، اذا استثنينا طنين الزنابير فى أعشاشها يشتد ويخفت . ودخل الرجال ومعهم الخيل الى الفناء ، ووجد باب البيت مفتوحا ومتآكلا .. فدلف منه أحدهم دون أن يشعر زملاؤه بغيابه فى مبدأ الامر ، لانشغالهم بنقل براميل

الزيت ، الى أن نبههم الى ذلك صوت طلقة من بندقية، ثم طلقتان .. ويبدو أن الطلقة الاولى أصابت صندوق الكبريت ، اذ شوهد غبار أصفر يرتفع فى الجو ويختلط بالهواء

واطلق « ردوود » بندقيته على حيوان قفز بالقرب منه ، ورأى ذيله الطويل تكسوه القشور .. واطلق عليه رصاصة اخرى ، ورأى بعد ذلك « بنزنجتون » ينطرح على الارض فى الوقت الذى اختفى فيه الحيوان وراء البيت .

وتأهب الرجال واستعدوا ببنادقهم ، ومرت بهم دقائق رهيبة استهانوا فيها بأرواحهم .. وتتابعت طلقات الرصاص مدوية ، ونسى « ردوود » فى غمرة المعركة أمر زميله وصديقه « بنزنجتون » ، وراح يطارد الجرذان .. واصطدمت قدماه فى أثناء اندفاعه ببعض الاحجار التى أطاح بها الرصاص ، ثم وجد نفسه يفترش الثرى ، وهاله ان يرى يديه وشفتيه تكسوها الدماء ، وقد ران على المكان سكون شامل .. وفجأة تناهى الى سمعه صوت من داخل البيت ، فصاح مذعورا :

ــ من هناك ؟ ..

فقال صاحب الصوت :

ــ اينادينى أحد ؟

ثم أردف صاحب الصوت يقول :

ــ هل اصبتموه ايها الرجال الشجعان ؟ ..

واستيقظ ضمير « ردوود » حيال زميله «بنزنجتون» فقال :

ــ ترى هل أصاب « بنزنجتون » شر ؟! ..

ويبدو أن الرجل الذى دخل البيت لم يتبين ما قاله « ردوود » ، فقال :

ــ اننى لا أرجع باللائمة على أحد اذا كان قد أصابنى شر

واعتقد «ردوود » أنه أصاب « بنزنجتون » برصاصة فنسى أمر جروحه ونهض من فوره .. فرأى زميله « بنزنجتون » جالسا يتحسس كتفه ويدلكها ، وقال « بنزنجتون » :

ــ سددت له الطلقة .. لقد هاجمنى فسقطت على الارض ولكنى أصبته بطلقة ثانية .. وكتفى تؤلمنى من شدة الطلقة ..

وأتى فى هذه اللحظة واحد من الرفاق وقال :

ــ لقد أصبته فى صدره وفى جنبه ..

وجاء « كوسار » من خلال النباتات الزاحفة ، وسأل عن العربات . ودهش « ردوود » حين تبين أن أحدا من الجماعة لم يصب بسوء ، وعرف أن المركبتين قد انتقلتا الى مكان آخر ، وان النبات النامى تسبب فى عرقلة سيرهما فتوقفت الجياد عن السير . ورأى الرجال برميل الكبريت وقد علاه غبار كثيف أصفر ..وأوضح«كوسار» كيف أصاب جرذا كان قد هم بالهجوم عليه والفتك به .. وذهب بعض الرجال لفك عقال عجلات المركبتين من النبات الذى تشابك بها ، فرأوا هناك جرذا صريعا

ولما هدأ جأش الجماعة ، يمم « ردوود » شطر الجرذ الصريع فرأى كيف تشوه ... كما رأى أسنانه الرهيبة بارزة من فكه ، كما وجد مخلبيه يشبهان اليدين النحيلتين ، ثم قال :

ـ أغلب الظن انهما كانا جرذين .. هرب احدهما رغم اصابته

وفى هذه اللحظة ، مال فرع من النبات الزاحف على عنقه ليتعلق به ويلتف حوله ، فبادر الى الابتعاد عنه ، وحمل الهواء الى الآذان طنين الزنابير فى أعشاشها

***

ازدادت يقظة « كوسار » ورفاقه ، وتضاعف ارهاف حسهم وتوتر أعصابهم ، بسبب محاولة نوع من النبات الزاحف الالتفاف حول رقبة « ردوود » .. ونقلوا ادواتهم الى البيت الذى كانت الجرذان قد عبثت به بعد أن فرت منه زوجة (اسكنر) ونجت بنفسها . وذهب بعضهم بالجوادين الى « هكليبراو » . ثم أتوا بالجرذ الصريع الى البيت،ووقع نظرهم فى أثناء سيرهم على ديدان ضخمة فى احدى الحفر ما لبثت أن اخذت تتفرق عند سماع وقع أقدام بجوارها ، ولكن «كوسار» راح يسحقها بقدميه وبكعب بندقيته ففتك ببعضها ، كما أعمل اثنان من رفاقه معاولهم فى تقطيع النبات الزاحف عند البالوعة. وفى الوقت الذى كان فيه «كوسار» يهيىء البيت لقضاء الليل به ، يمم « بنزنجتون » و « ردوود » ومهندس كهربائى صوب الحظيرة فى حذر شديد بحثا عن مواطن الجرذان

حرص الرجال على تجنب نبات القراص خشيةالاصابة باشواكه السامة ، ووقع نظرهم على فجوة كبيرة هى مدخل وكر للجرذان تنبعث منه رائحة كريهة ، وفكر الرجال فى كيفية الدخول الى امثال هذه الاوكار واستخدام ضوء خاص لهذا الغرض ، ثم ساروا فرأوا عن قرب اوكار الزنابير

وأخذت الشمس تميل نحو الغروب ، فراحت الزنابير تأوى الى أوكارها ، وأشعة الشمس الصفراء تنعكس على أجنحتها فترسم على الارض ظلالها .. وأخذ الرجال يرقبونها عن بعد ، وهى تزحف على الارض ثم تختفى ، فتدارسوا أمرها . وفكر «بنزنجتون» فيما تحتاج اليه مهمتهم من ضوء ، فلفت نظره المهندس الكهربائى الى أن الليلة مقمرة

وعاد الرجال لينقلوا الى « كوسار » نبأ ما شاهدوه ، وليتشاوروا فيما ينبغى أن يفعلوه .. فأشار عليهم بضرورة نقل مقدار كبير من الكبريت وملح البارود الى الغابة بعد الغروب ، وتم لهم ذلك ، وسكن طنين الزنابير .. ولم يسمع فى الغابة سوى وقع أقدام الرجال وترديد أنفاسهم اللاهثة وهم ينزلون أحمالهم الى الارض ، وقد قام الرجال جميعا بهذا العمل ما عدا «بنزنجتون» الذى تخلف فى الدار ، ووقف فى احدى الحجرات حاملا بندقيته ، وراح ينظر الى جثة الفأر الصريع . وتناوب بعض الرجال مراقبة أوكار الجرذان ، وكانت أكمام نبات القراص حين يكتمل نضجه تنفجر فترسل أصواتا كأصوات انطلاق المسدسات وتنثر حباتها وكأنها رصاص

وجلس « بنزنجتون » على مقعد بجوار النافذة ووضع بندقيته على قاعدتها ، وراح يتأمل بمنظاره الجرذ الصريع على ضوء الشفق ، ويتلفت فيما حوله مفكرا .. ونقل اليه الهواء رائحة الزيت الذى كان يسيل من ثقب فى احدى القوارير ، ممتزجة برائحة النبات ، وفى نفس الوقت كانت تزكمه رائحة مخلفات «اسكنر» من خمر وجبن وتفاح فاسد ، فتذكره بذلك المسكين وبزوجته . وتأمل الحجرة المعتمة فشاهد سترة على مشجب ، وبعض حاجيات «اسكنر» وقطعة صابون يبست لطول العهد بها ، فذكرته

بمظهر القذارة المفرط الذى تميز به «اسكنر»

وقفزت الى ذهن «بنزنجتون» فكرة لم تخطر بباله من قبل، وهى أن ذلك الجرذ الصريع فتك بـ «اسكنر» والتهمه .. فهل فكر فى نفس الوقت فى اكتشافه ذلك الفناء السحرى الذى بدا له انه كشف لا خطر منه .. أليس هو شخصيا يتهدده الخطر وهو قابع بمفرده فى هذا البيت الرهيب مرضوض الكتف ، لا يدرى شيئا مما قد تصيبه به المقادير ؟!..

لقد ادرك فى لحظته تلك كيف تطور العالم.. فقد غادر ابنة عمه «جين» دون أن يقول لها كلمة واحدة .. ترى ماذا يخالجها من ناحيته ؟!..

وعجز عن تخيل موقفها منه .. ولف كيانه احساس غريب بأنه لن يعود الى «جين» أو يراها بعد ذلك أبد الدهر ، وشعر بأنه أتى أمرا جللا وأنه ذهب شططا ... فماذا عساه يحيط به من وحوش جبارة مختبئة ، على كثب منه ، تحدق به وتتهدده أخطار جسام .. ولفه سكون رهيب وفزع هائل لعدم سماع أصوات رفاقه . وبدت له الحظيرة وفناء الدار كأنها تزخر بالاشباح فى ذلك الظلام المطبق.

واخيرا سمع من يناديه : بانج .. بانج .. ثم تناهت الى أذنيه صرخة مدوية أعقبها سكون شامل . وعاد الصوت يناديه .. وكان صوت « ردوود » وبرفقته «كوسار» ، و «ردوود» يقول له :

ـ لقد قتل «كوسار» جرذا آخر يا «بنزنجتون» ..

***

ولما نال التعب من الجماعة جلس افرادها لينالوا قسطا من الراحة ، وتناولوا بعض الشرب . واقبل الليل ،

وذهب اثنان منهم الى سفح التل لمراقبة الجرذان ، واخذ الباقون يتدارسون فيما ينبغى عمله ليلا . واضاء القمر، فخرج من كانوا بالبيت وعلى رأسهم « كوسار » ويمموا شطر أعشاش الزنابير ، ولم يجـدوا كبير عناء فى أبادتها وان كانوا قد تعرضوا لبعض الاخطار . وغمروا الاعشاش بالكبريت وملح البارود وسدوا ثقوبها بالجبس ، واشعلوا فيها النار ثم ابتعدوا ما عدا «كوسار» الذى بقى فى مكانه. وسمعوا طنين الزنابير ضعيفا مختنقا ، وان كان قد علا برهــة من الوقت ولكنــه خفت أخــيرا ثم تلاشى وخيم السكون

وقال « بنزنجتون » فى صوت خفيض :

ـ لقد نجحنا فى مهمتنا ..

ورأى الجماعة «كوسار» وهو يتجه نحو افواه الاعشاش المشتعلة ، وسمع الرجـال طلقة تنبعث من جهة الدار ، ثم أخرى ، فأدركوا أنها بسبب الجرذان .. وأعقب ذلك سكون .. ولكن فجأة تتابعت فى آذانهم صرخات عاليــة وطلقات متوالية ، وسمع هرج عند أوكار الجرذان ... وقد صاحب الصراخ عويل ، فأسرع الرجال الى بنادقهم ، ثم انطلقت طلقتان أخريان ، واخــذ « بنزنجتون » يطارد بعض الجرذان ببندقيته ، بينما حلق بأفكاره نحو ابنــة عمه «جين» .. وتمنى لو أنها رأته وهو يخــوض هــذه المعركة الرهيبة !

والتقت الجمــاعة بالرجل الذى هرب من الجرذان ، فاستفسره «كوسار» عما حدث ، فاخبره الرجل أن قطيعا من الجرذان برز دفعة واحدة من داخل أوكارها .. وان «فلاك» وقع على الارض

فى هــذه اللحظة انضم « بنزنجتون » الى الجمــاعة ،

وساورهم جميعا الخوف على «فلاك» واشفقوا لمصيره. وطلبوا الى الرجل أن يدلهم على مكانه ، وساروا جميعا والرجل يشرح لهم فى أثناء السير تفاصيل ماحدث من ان الجرذان برزت من أوكارها وانها راحت تقفز، ولكنها ذعرت من اطلاق الرصاص فهاجمتهما . وساله «كوسار» عن عدد الجرذان التى هاجمتهما ، فأخبره انها كانت ستة جرذان .. ثم ساله احدهم :

ــ ولكن ما مصير «فلاك» .. هل قتل ؟

ــ هجم عليه أحد الجرذان ..

ــ وهل أطلقت الرصاص على الجرذ الذى هجم على «فلاك» ؟

ــ وهل كنت استطيع ذلك ؟ ! ..

ونظر « كوسار » الى الرجال ثم سأل :

ــ هل كانت البنادق محشوة بالرصاص ؟

فأجاب الرجل قائلا :

ــ بلا شك .. اننى واثق من ذلك ..

وعاد احدهم يسأل :

ــ و «فلاك» ...؟

وسأله رجل آخر فى قلق :

ــ هل يفهم من ذلك أن «فلاك» ...؟

ولكن «كوسار» نهرهم جميعا قائلا :

ــ ليس هذا مجال الكلام

ثم سار على راس الجماعة وهو ينادى بأعلى صوته على «فلاك» .. ويمموا شطر أوكار الجـرذان خلف بعضهم مسددين بنادقهم متأهبين لاطلاقها ، غير مبالين باختراق منابت الاعشاب الضخمة ، الزاحفـة منها والقراص ، بحثا عن «فلاك» ، وعثروا فى طريقهم على الجرذ الثانى

الذى قتـل ، كما عثروا على بنـدقية زميلهم الذى نجـا بنفسه ووافاهم ، فهتف «كوسار» بأعلى صوته :

ــ «فلاك» .. «فلاك» ..

فقـال الرجل الذى كان يرافق «فلاك» ، الذى انضم الى الجماعة :

ــ كان يجرى بجانب نبات القراص . ثم سقط بالقرب من هذا المكان

فسأله «كوسار» محنقا :

ــ أى مكان ؟.. أين وقع ؟..

فقادهم الرجل فى وجل الى المكان الذى أشـار اليه ، وقال :

ــ يغلب على ظنى أنه وقع فى هذا المكان ..

ــ ولكن لا أثر له .. فأين هو ؟.. وأين بندقيته ؟..

ثم أردف «كوسار» محنقا :

ــ الا تبا لهذا العمل .. ها نحن نجنى ثمرته !..

ثم تقدم نحو أوكار الجرذان ، وأخذ يرقبها ، وقال :

ــ ترى هل سحبته الجرذان الى داخل أوكارها ؟!!

وأخذ كل واحـد منهم يبـدى رايه ، فكانوا يتكلمون جميعا فى وقت واحد ، و «بنزنجتون» ينقل بصره بينهم فى قلق وحيرة ، وبدا الوجوم على وجوه الرجال وهم يرفعون رءوسهم متطلعين الى القمـر أو يخفضـونها ناظرين الى الارض من تحتهم ، وقد زاغت نظراتهم

وخطرت لـ «كوسار» فكرة طارئة جديدة ، فطلب بعض المصابيح . فسأله «ردوود» :

ــ لعلك تعتزم اقتحام الاوكار ؟!

ــ هذا ما سأفعله بالضبط ..

وألح «كوسار» فى سرعة موافاته بالمصـابيح ، فأخـذ

«بنزنجتون» يعدو مهرولا لتلبية طلبه .. بيد أنه التفت اثناء عدوه الى الوراء ، فلمح شيئا انخلع له قلبه فصرخ، وفى لحظة خاطفة انشقت الارض عند النبات الزاحف عن ثلاثة من الجرذان الضخمة ، أخذت تتقدم نحو «كوسار» دون أن يشعر هذا بها فى مبدأ الامر .. بيد أنه حين رآها شد من عزيمته ، ولكنه آثر الا يلجأ الى اطلاق الرصاص ، ولمحه « بنزنجتون » عن بعد وهو يسدد ضرباته الى رأس احد الجرذان بكعب بندقيته ، ثم لمح الجرذ يقفز من شدة الالم ثم يهوى

واختفى «كوسار» بعد ذلك بين الاعشـــاب ، ثم ظهر وهو يهدد جرذا آخـــر بكعب بندقيته . وتناهت صرخة مكتومة الى أذنى «بنزنجتون» .. وابصر بعد ذلك جرذين يلوذان بالفرار ، و «كوسار» يسابقهما الى وكرهما ... يظهر حينا وهو اشد ما يكون قوة ومضاء عزيمة ويختفى حينا آخر ، والجرذان تقفز وتجرى !

وعاد « بنزنجتون » الى «كوسار» .. ولكن الجرذان كانت قد اختفت .. فرأى «كوسار» هادئا ، وقال لـــه هذا :

ـ انك لعمـــرى أنشط من رفاقك .. هـــل أحضرت المصابيح ؟.. لقد عادت الجرذان الى أوكارها بعـــد أن صرعت واحدا منها .. هذا الذى تراه ..

وعقدت الدهشة لسان «بنزنجتون» فلم ينطق بكلمة

وأخيرا ظهر الرفاق ومعهم المصابيح تفصح عنهم بضوئها، فكانوا أشبه بشعلة متحركة وسط بهيم الليل ، وتناهت الى الاسماع أصوات تنادى :

ـ « فلاك » .. « فلاك » ..

ثم صوت آخر يقول :

ـ لقد احكم على نفســه الابواب ..!

الفصل الرابع :

معركة فى المزرعة !



معركة فى المزرعة

بدا «كوسار» غريبا فى كل تصرفاته واطواره ، فقد رؤى يحشو أذنيه بقطعتين كبيرتين من القطن مما عجب له « بنزنجتون» .. وكذلك ملأ بندقيته بمقدار من البارود، وهذه كلها أمور لم تكن لتخطر على بال احد . بيد أن الذى حير العقول فعلا اختفاء حذاء « كوسار » الضخم فى وكر الجرذان الذى دلف إليه « كوسار » زاحفا على يديه وقدميه ، مستصحبا معه بندقيتين ربطهما الى نفسه ، ويرافقه واحد من رجاله مشهود له بالكفاءة والاقدام ، دلف هو الآخر الى الوكر منحنيا خلف « كوسار » ليبدد عتمة الوكر بالمصباح الذى يحمله : وقد ملأ أذنيه بالقطن ايضا

هكذا أحكم «كوسار» رسم الخطة ، فقد قصد أن يحمى بالقطن أذنيه من صدى الطلقات داخل الوكر . وهو بهذه الخطة واثق انه لا يخطىء الهدف فى اصابة الجرذان فى أوكارها الاسطوانية الشكل ، والتى ليس لها منفذ سوى الباب الذى دلف منه مع زميله ، ولاحظ «بنزنجتون» أن مرافق «كوسار» لم ينس أن يأخذ معه حبلا ليجر به الجرذان اذا اقتضى الامر ذلك . ووجد «بنزنجتون» نفسه يمسك بقبعة «كوسار» دون أن يشعر فقال فى نفسه انها على كل حال قد تكون تذكارا عزيزا لصاحبها

ورابط بعض الرجال أمام الوكرين الآخرين مستعينين

على تبديد الظلمة بمصباح ، وقد ركع اثنان منهما كل امام فتحة وكر مستعدا لاطلاق الرصاص اذا لمح الجرذان تخرج

وانقضت ساعة كأنها دهر ، ودوت أول طلقة أطلقهـا «كوسار» داخل الوكر .. فخيل الى الجماعة أن بركانا قد انفجر ، تلتها طلقات اخرى زادت من ارهاف حس الرجال. ثم تمكنوا من قتل اثنين من الجرذان التى حاولت أن تفر هـاربة . وصاح رفيق «كوسار» بأن شيئا ما يسحب الحبل الذى معه ، كما صاح «بنزنجتون» بأن فأرا قتل وأن من فتك به يريد حبلا ، ولاحظ حركة سحب الحبل الى الداخل فخيل اليه انه ثعبان . وأخيرا سكنت حركة الحبل ، وخيم على المكان سكون شامل . وخرج مرافق «كوسار» من فتحة الوكر على مهل ، كما خـرج فى أثره « كوسار » وقد انعكس عليه ضوء المصباح . ثم عاد الى داخل الوكر ثانيا فقتل الجرذ الذى كان فى نهايته ، وبعد ذلك خـرج وراح يتفقـد الحظائر ليتأكد من خلوها من الجرذان ، ثم قال :

ـ لقد طهـرنا المكان منها .. هل ترى يا «بنزنجتون» كيف ابتلت ثيـابى بالماء وكيف انى أتصبب عرقا .. لن يسعفنى لعمرى سوى قدح كبير من الخمـر أتقى به شر البرد .. ولكنى لم اعمل حساب ذلك

وافرط « بنزنجتون » فى الشراب فى ليلتـه بعد تلك الاحداث

وتراءى له انه كتبت عليه حياة حافلة بالاخـطار والمغامرات اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة .. وأخيرا وقد هدأت أعصابه قليلا واستعاد رباطة جأشه ، مال على رفيقه المهندس الابيض الوجه الزرى الهيئة وقال له فى همس :

ـ لن تقدر لى العودة الى بيتى ..!

ـ حقا ؟!...

ـ لا تخف يا صاح ..

ولاحظ المهندس أن «بنزنجتون» نطق بالجواب الاخير، وهو مكتئب منقبض الصدر

وأرهق الجماعة جمع الجرذان التى صرعوها والتىبلغ عددها سبعة ، وسط الهشيم الذى أعدوه ليكون وقودا .. وكان «بنزنجتون» أشدهم ارهاقا فقد اخذ العرق يتصبب منه بغزارة .. وتناول الجميع العشاء فى البيت وهم يتطلعون الى الجرذان الميتة ، واخيرا قال لهم «كوسار» :

ـ ما من شك فى أن علينا ان نقضى على كل اثر فى هذا المكان ...

فراحوا يحطمون أخشاب الدار ، ويضعون مقدارا منها فى الامكنة التي نمت فيها النباتات ، كما وضعوا مقدارا آخر فوق الجرذان الميتة وصبوا عليها زيتا ليحرقوها

وكان « بنزنجتون » دائبا على العمل فى نشاط طول الوقت ، وقد استشعر لذة فى بذل تلك الجهود ، وان كان «كوسار» أكثر الجميع نشاطا ، فلم يتخلف عن رفاقه فى حمل الاخشاب من مكان الى آخر .. وبعد أن تم لهم ذلك قبيل انبلاج الصبح ، أخذوا يثقبون براميل الزيت ، وقال « كوسار » :

ـ أشعلوا النار فى كل شيء .. حتى الارض . اجعلوها جرداء ..

ولمح « بنزنجتون » ما أصاب « كوسار » من هزال نتيجة ارهاقه . وحدث أن نبه بعضهم «بنزنجتون» الى الابتعاد عن المكان الذى كان يقف فيه

واندلعت النيران عند الفجر ، وسمع الجماعة ازيزها وهى تأتى على كل شىء ، وتمتد من مكان الى آخر ... واخذوا على عجل بنادقهم من حجرة « اسكنر » ، وجروا ومعهم «كوسار» .. ثم راحــوا يرقبون المزرعــة وهى تحترق ، يرتفع لهيبها ويتدافع دخانها الذى لبد الجو. ورأى اهل « هكليبراو » النار المندلعة فى ضراوة ، فهبوا من فراشهم يستطلعون الامر .. وسار «كوسار» يتبعه رفاقه الذين اشعلوا هذا الاتون حول القرية فى حذر بالغ حاملين بنادقهم

وتزاحمت الافكار فى راس «بنزنجتون» .. وذهبت به كل مذهب ، وهو يرى بعينيه ما يحدث فى المزرعة التى انشأها . ورغم ذلك فقد شعر بالتقدير والاكبار لـ «كوسار» واعجب بهمته التى لا تجارى ؛ وكان فخورا بحمله قبعته، يرى فى ذلك شرفا عظيما له ، وان كان «كوسار» لايدانيه علما

وفجاة لفت « بنزنجتون » قشعريرة شديدة ارتجفت لهاكل اوصاله ، واستشعر حنينا دافقا لان يكون فى لحظته تلك مستلقيا فوق سريرد فى منزله بشارع سلون ، ولم يخفف تفكيره فى ابنة عمه « جين » من حــدة حالته .. .. وشعر كانه مخدر ، فقــد ثقلت بعد ذلك اطرافه ؛ وتساءل فيما بينه وبين نفسه :

ـ هل يمكن أن يقــدم لى انسان قدحا من القهوة فى هذا المكان ؟ ! ..

ان الليلة التى قضاها « بنزنجتون » حافلة بالاحداث ، لم تمر به ليلة مثلها فى السنوات الثلاثين التى انقضت من عمره ..

وفى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الرفاق الشـــجعان

يقضون على كل حيوان وكل نبات نما فى المزرعة بسبب الغذاء السحرى ، كانت هنـاك عجوز فى قرية نشيزنج آيبرت ، على مسافة تسعة أميال من المزرعة ، تعالج فتح صندوق صغير على ضوء شمعة هزيل ، كان بداخله ذلك الغذاء السحرى ، وهى تبذل مجهـودا فوق طاقتها كى تفتحه فى غير ملل أو كلل ، وبكاء طفل يتناهى الى سمعها من الحجرة المجاورة

وقالت مسز « اسكنر » :

ـ رحماك ربى لهذا القلب الواهن ..

ثم راحت تعالج فتح الصندوق الصغير بفمها الذى لم يبق به سوى سنة واحدة ، وهى تستميت كى تفتحه

واخيرا تغلبت على الصندوق ، وتمكنت من فتحه .. فبرز منه ذلك الغذاء السـحرى ، لينشر فى الدنيا أثره العجيب من النماء الخارق ..

جمعية محاربة الغذاء السحرى

لم تسفر تلك الحملة التى قام بهـا « كوسـار » و « بنزنجتون » و « ردوود » ورفاقهم على المزرعة عن النتيجة المرجوة لهـا ، فلم يمنع ما قاموا به من أعمال ، النبات والضفادع والاعشاب من اطراد النمو ، ولم تقو النار على القضاء على تلك القوة الجبـارة الكامنة .. بيد أننا سنضرب صفحا عن كل ذلك ، ونتجه الى أثر واحد خلفته هذه الحملة وذلك الغذاء السـحرى ، أثر يتعلق بـ « بنزنجتون »

لقد وجد « بنزنجتون » الشهرة وذيوع الصيت ينتظرانه حين عاد الى لندن ، فقد عرف القاصى والدانى بأمره ، ونظر اليه الناس بعين غير التى كانوا ينظرون اليه بها من قبل . وصار موضوع أحاديث الناس ومقـالات

الصـــحف .. ولم تكن ابنة عمه « جين » أقل من غيرها معرفة بالامر ، وكان المتوقع أن يكون لقاؤهما فريدا فى بابه رهبة وتوجسا .. ولكنه لم يكن من الغرابة بالصورة التى جالت بذهن « بنزنجتون » ، فقد عادت تلك السيدة الطيبة وراجعت نفسها فى نظرتها الى حقائق الامور .. وفكرت من غير شك فى اعتبار ذلك الغذاء الجـــديد من الاشياء الطبيعية .. بيد أنها وقفت منه موقفا وســطا ؛ لا محبذة ولا معارضة ! ..

وكان لاحتجاب « بنزنجتون » عنها ــ وكانت تعد ذلك هربا ــ اثر شديد فى حالتها النفسية والعصبية . وضاق « بنزنجتون » ذرعا بالحاحها فى معالجته من برد توهمت انه مصاب به ، وبمبالغتها فى نصحه بالتزام الراحة مع انه ليس متعبا بل طلق التعب منذ أمد بعيد ، وباجباره على ارتداء ملابس صوفية يضيق بها !

وظل « بنزنجتون » ــ فى أعقاب تلك الاحداث ــ يتابع باهتمام التطورات التى تمخض عنها الغذاء السحرى ، الذى أحدث انقلابا شاملا فى تاريخ البشرية ...

والقى المجتمع والراى العام تبعة اكتشاف ذلك الغذاء وانتشاره على عاتق « بنزنجتون » وحده ، دون أن يشرك « ردوود » معه ، وانتهت صلة « كوسار » بهذا الامر فى نظر المجتمع . وذاع صيت « بنزنجتون » وتلقفه مراسلو الصحف والمصورون يلتمسون أحاديثه وصوره لينشروها فى الصـــحف والمجلات . وتواترت عليـــه انبـــاء « غذاء الاجسام » ــ على حد قول بعضهم ــ وأثره

وتعرض « بنزنجتون » فى بعض الاحيـــان لـــكثير من الوان السخرية ، راح الناس يتندرون بها ، بلغت حــد الطعن فى «بنزنجتون» والافتراء عليه .. ووصلته ذات

يوم قصاصة من جريدة ، بها مقال ساخر عنه عنـوانه «كارثة مروعة» .. كما حضرت الى بيته بعض السيدات الحسناوات ، غير عابئات بابنـة عمـه ، وطلبن اليه أن يمهر لهن بتوقيعه على سبيل التذكار ، كما اخذ الناس الذين لا يعرفهم يكتبون عنه المقالات المطولة ... حتى لقد كره الشهرة بسبب هذه الضجة ...

بيد أن الناس لم يحملوا له فى نفوسهم كراهية ، اذا استثنينا نفرا قليلا ، ولعلهم ظنوا أن الغذاء السحرى لن يظهر مرة أخرى ، أو غاب عنهم ان من سيتناولونه من الاطفال ستكبر عقولهم مع أجسامهم

وراح الناس يتندرون بتضخم الاموال بعد معالجتها بالغذاء السحرى ، وبالزنابير التى فرت ـ رغم موتها ـ من الفيران ، وبصور الدجاجتين الحيتين اللتين لم تبيضا بعد موت صاحبتيهما ، كما أخذوا يصورون مشـاهير الرجال وكبار الساسة فى أحجـام ضخمة لتناولهم ذلك الغذاء السحرى

ولم يمكن تحويل أفكار الناس عن هـذا الموضـوع الا بعد عناء كبير ، وبلغ من انشغال أفكار الناس به أنهم كانوا يصدقون كل عجيب أو قريب من الخيال

وقال « بنزنجتون » لـ « كوسار » ذات مرة :

ـ لعلهم فى الجهالة يتخبطون ... ولا يدركون ...

ـ أجل يا عزيزى ...

ـ ولكن ما موقفنا نحن .. انى لاتساءل .. كلمـا تصورت كيف سيكون طفل « ردوود » وأطفالك الثلاثة وقد يبلغ طول الواحد منهم اربعين قدما أو يزيد .. هل من المعقول أن نستمر فى اطعامهم ذلك الغذاء السحرى ؟

وعلت الدهشة أسارير « كوسار » وتوترت أعصابه ، وصاح بصوت جهير :

ـ ماذا تقول ؟ .. أتتساءل ؟ ... لماذا وجودك اذن اذا لم تستمر ؟ .. التقضى الوقت متسكعا فى الطرقات ؟. هـذه فرصتك للحصول على نتائج باهرة وخطيرة .. فهل تريد أن تفلتها ؟!...

ثم أردف فى حنق :

ـ انك تحملنى على أن اتهمك بالمكر الخبيث ! ...

وعكف « بنزنجتون » على معمـله منـذ ذلك الحين بدافع لا يدرى كنهه ، ولا يعلم ان كان يسعى للوصول الى نتائج معينة أم لا .. لقد عاد الى أبحاثه فى رتابة وهدوء ، وأدرك مبلغ العظمة فى كشفه ، واسـتطاع ان يكون مالكا لبضعة أفدنة من الارض الجرداء ، وجال بخاطره انها احدى ثمرات أبحاثه الكيميائية ، ولا يمكن أن ينكر أحد انه بلغ ذروة الشهرة

ومع ذلك لم يتخل عن ابحاثه العلمية ، وكانت تمر به فترات يبرم فيها بما هو بسبيله ، لولا أن « كوسار » كان له بالمرصاد ، كالسوط فوق ظهره ، يدفعه ويستحثه على متابعة البحث .. وكان يتراءى له وهو غارق فى لجج معمله يخلط ويزن ويجرب ، وميض مبهم لمستقبل غامض فى طيات الغيب ، وينفذ ببصيرته الى آفـــاق المستقبل من خلال أبحاثه ، فيرى ما سيتمخض عنـه ذلك المسـتقبل نتيجة لابحـاثه عن كائنـات مفرطة فى الضخامة والفخامة والعظمة كأنها الاثر الخالد على مر الدهور .. وفى لحظة تختفى هذه الصور من مخيلتـه ودائرة افكاره كأنها فقاعات تلاشت

وبينما كانت عجلة الزمن تسير ب « بنزنجتـــون » فى طريق الشهرة ، برزت فى محيط حياته شخصية نابغــة حتى لقد ظن أنها هى التى ترسم مستقبل اكتشافه ... فى شخص الدكتور « ونكلز » .. الشاب اللبق ذو الحجة القوية . وهو من سبق أن ذكرنا أن « ردوود » عهـد اليه بمهمة تزويد ابنه بذلك الغذاء . ولعل مركبـات الغذاء وعناصره لفتت نظـر الطبيب قبل قيـام تلك الضـجة ، ثم أثارت اهتمـامه بالاكـثر حين علم بأمر الزنابير

خلق « ونكلز » للمجد ، فقد أهلته أخلاقه ونظـام عمله وتكوينه لذلك .. فقد كان قوى البنيـة ثاقب النظر مفتول العضلات رزينا ، نشيطا ، أنيقا فى ملبسه . وقد اولى هذا الطبيب اهتمامه بأمر هذا الغذاء وب «بنزنجتون» و « ردوود » ، حتى خيل الى « بنزنجتون » أن هـذا الطبيب هو صاحب الفضل الاول فى ذلك الكشف

وذات مرة أشار « بنزنجتون » الى ما قد يتمخض عنه انتشار الغذاء من أخطار ، فقال له « ونكلز » :

ــ انها حوادث تافهة لا أهمية لها .. وما يهمنا انما هو جوهر الكشف ، تتضاعف قيمته بشىء من الاتقـان والعناية .. وعندئذ يسفر عن نتائج باهـرة ، فيجب أن نواصل السعى حتى نصل الى غايتنا

وكان لا يمر يوم تقريبـا دون أن يزور « ونـكلز » « بنزنجتون » فى داره ، ومعه عدد من الصحف ، ثم يأخذ فى الادلاء بما لديه من معـلومات ، وبعـد ذلك يتدارسان « عملهما » ويتحدثان فيما يتناقله الناس عن ذلك الكشف ، وعن استخدامه فى بعض المدارس ، كمـا أشار فى بعض أحاديثه وهو يوضح لمستمعيه فوائد الطعام

وخلوه من الخطر على الرغم من الضجة التى أثيرت حوله ، ولكن احدهم ، ويدعى « كترهام » هاجم الكشف والقائمين عليه ، وراح يسخر منه ومن نتائجه التى سيكون منها بلوغ الطفل ستا وثلاثين قدما طولا

فقال « بنزنجتون » :

ــ ولكنها الحقيقة اذا اطعموا ذلك الغذاء باستمرار وبطريقة منتظمة ...

فقال « ونكلز » :

ــ ولكن وجهة نظر « كترهام » هى شكه فى أن يسعدهم ذلك ، وفى أن يجعلهم اكثر صلاحية واحتراما للقوانين والسلطات القائمة ، وان هذا الغذاء سيكلف آباء الاطفال فوق طاقتهم .. لقد تساءل « كترهام » عما قد يترتب على ذلك .. فهو يرى فى التلميح أو التنويه اقتراحا يبنى عليه ما شاء من الخطوات والتكاليف ، وهو يهول الامور ويعقدها .. هأنت ذا ترى مقالهالطويل فى هذه الصحيفة ، انه رجل غريب الاطوار .. يعتور تفكيره جمود وقصور ، فهو يرى أن لكل أب مطلق الحرية فى ألا يزيد حجم الابن عن حجم أبيه .. ولا يكتفى « كترهام » بذلك ، بل ينتقل بثرثرته الى مقاعد الدراسة ومكاتبها وقماطرها ونفقات تغييرها بأكبر منها مما يتكلف نفقات باهظة ... ومن رأيه أن النتيجة التى نحصل عليها هى تنشئة جماعة من المردة الاشقياء .. ويختم «كترهام » مقاله بالتعليق على الاقتراح ــ الذى كان فى الحقيقة مجرد تنويه عابر أساء هو فهمه ــ قائلا بأن ذلك لا يحسم الامر ، وأن الغذاء فى نظره وفى رأيه شر يتهدد المجتمع ، وأن خطره يستشرى لانتشاره بشكل فظيع ، وأن الانسان اذا تناوله مرة فلا بد له من

الاستمرار فى تناوله والا تسمم جسمه وهلك ! ..

وعندما نطق « ونكلز » بالجملة الاخيرة ، قاطعه « بنزنجتون » قائلا :

ـ ان هذا صحيح ...

وأكمل « ونكلز » حديثه قائلا :

ـ ويقترح « كترهام » تكوين جمعية علمية للمحافظة على نسب المركبات ، وضمان عدم ضررها بالصحة العامة .. وان هذا الاقتراح لاقى قبولا عند الناس ..

فقال « بنزنجتون » :

ـ وماذا يريدون ؟ ..

ـ مما لا شك فيه انهم سيؤلفون جمعية ويلغطون بالكلام ويطالبون بتحريم صنع الغذاء أو على الاقل اخفاء أمره عن الناس .. وقد نشرت أنا مقالا يتناول ردا على آراء « كترهام » وصفتها بالمبالغة .. ولكن ذلك لم يكف لوقف التيار .. فقد انشأت جمعية الاعتدال فرعا خاصا بالاعتدال فى النماء .. اننى أعجب من موقف الناس من الغذاء هذا الموقف دون أن تكون هنالك أسانيد تبرر ذلك ...

وغمغم « بنزنجتون » قليلا ، ثم قال :

ـ كنت أتوقع كل هذا اللغط بعد الضجة التى قامت .. انه ليبدو لى أن الامر جد خطير ! ..

واخذ « ونكلز » يتمشى فى الحجرة ، وتوقف وتردد قليلا ثم غادر الدار ..

واستشف « بنزنجتون » من كلام « ونكلز » أن ثمة سرا رهيبا يريد البوح به والافصاح عنه ، وقد نوه عن هذا السر بصورة غامضة فى زيارة تالية

الفصل الخامس :

الطفل المارد !



الطفل المارد

كان « ردوود » عند « بنزنجتون » حينما حضر «ونكلز»فى زيارته التالية ، فقال لهما وهو يفرك يديه :

ـ هل من جديد ؟ . . ماذا تفعلان ؟

ـ اننا بصدد اعداد بيان تفصيلى . .

ـ ألتبعثوا به الى الجمعية العلمية ؟

ـ اجل . . .

ونمت أسارير « ونكلز » عن أن لديه سرا عظيم الاهمية . . وسار نحو المدفأة ثم قال :

ـ هذا بيت القصيد . . . هل تعلمان ان الامر يقتضيكما . . .

ـ ماذا يقتضينا ؟

ـ هل يتحتم عليكما ان تعلنا . . ؟

فأجابه « ردوود » قائلا :

ـ أتظننا نعيش فى العصر الحجرى ؟!

ـ كلا بالطبع . . انى أعرف ذلك حق المعرفة . . .

ـ ما من شك فى أن هذه هى الطريقة الايجابية المثلى . . وهذا رأى « كوسار » . . ولا يخفى عليك انه رجل أريب . . .

ـ أرجو ان يوضع فى الاعتبار انه كشف تنجم عنه

عواقب خطيرة ومتاعب لا يستهان بها اذا لم تراع الدقة فى استعماله .. كما يكرر ذلك « كترهام » على الدوام ..

ولاذ « ردوود » بالصمت ، ولم يعلق على كلام « ونكلز » ، وكان واضحا للزميلين أن « ونكلز » كان صادق الرغبة فى مشاركتهما فى عمل ذلك الغذاء السحرى ، وأن يراجع التقارير التى تكتب عنه ، وبالجملة يسهم اسهاما فعالا فى الامر .. فكان لا ينى عن اطراء هذا العمل العظيم ، وانه يتوقع له نتائج باهرة اذا اتخذت كافة الاحتياطات .. وأخيرا صارحهم برغبته فى معرفة طريقة تحضيره ، فقال له « ردوود » :

ـ هذا ما كنت أفكر فيه ..

فالتمعت عينا « ونكلز » وقال :

ـ وبعد ؟ ...

ـ لا شك انه من الاشياء المحفوفة بالاخطار لان من السهل مجانبة الحكمة فى استعماله ...

ـ ولكننى ابعد ما أكون عن ذلك ! ...

ـ بل انك لست معصوما من سوء التصرف ...

وظل « ونكلز » يفكر يومين فيما قاله « ردوود » ، عاد اليه بعدهما وطلب منه أن يعفيه من مهمة الاشراف على اطعام ابنه بمادة يجهل تفاصيل تركيبها ودقائقه ، وانه بقيامه بهذا العمل يعرض نفسه لتحمل مسئولية جسيمة وخطيرة .. وذهل « ردوود » مما قاله « ونكلز » ، بينما قال هذا محاولا تغيير مجرى الحديث :

ـ أعتقد انكما تعلمان أن دائرة « جمعية تحريم الغذاء السحرى » قد اتسعت رقعتها .. حتى ليقال ان عدد

اعضائها نيف على عدة آلاف ..

وسكت « ونكلز » قليلا ، ثم أردف يقول :

ـ على أن الحقيقة التى لا يمكن مداراتها أن الرأى العام له اعتباره ، وأن للناخبين شأنا لا يستهان به .. وقد أصبح ظاهرا للعيان أن ما انتما بسبيله سيتمخض ولا شك عن نتائج خطيرة واضطرابات .. الامر الذى تنفر منه الطبيعة البشرية .. وان كان يبدو لى أن الناس ينظرون بعين الشك ، بل لا يصدقون ما يذكره « كترهام » عن أولئك الذين سيبلغ طول الواحد منهم أربعين قدما .. فيتعذر عليهم دخول الكنائس والمنازل والمنتديات والمعاهد والمدارس . الا انهم يعتقدون أنه ستحدث تطورات فى المستقبل ، وأن ذلك المستقبل سيتمخض عن كشف خارق لا يخطر على بال ..

ـ كل كشف يعتبر غريبا فى بابه .. والا فلماذا ندعوه كشفا ؟! ..

ـ ان القلق يزداد لدى الناس على أى حال .. « كترهام » دائب على ان يعلن للناس ما سوف يحدث اذا تداول الغذاء السحرى بينهم دون أن يعمل القائمون على تحضيره حسابا لذلك .. ولم تجدتصريحاتى ومقالاتى للقضاء على هذه المخاوف

ثم نهض « ونكلز » واقفا ، متوتر الاعصاب ، ولاح أنه يريد استئناف الحديث عن أسرار تركيب الغذاء السحرى .. بيد أنه بعد شىء من التفكير عدل عن ذلك وغادرهما

وعقدت الدهشة لسانى الزميلين ، وراحا يتحدثان بأعينهما ـ وهما ينظران الى بعضهما البعض ـ وبعد فترة صمت قال «ردوود » فى رزانة :

ـ سأقوم ـ اذا تعقدت الامور ـ بمهمة اطعام ابنى بهذا الفداء بنفسى

***

يبدو أن القاعدة التى سرت عليها سنة الطبيعةمن حب الامهات لابنائهن وتعلقهن بهم تعلقا لا نظير له ، ولا يعدله حب فى الوجود ، أو تعلق أبا كان الباعث له ، قد طرأ عليها ما اعتورها وبدلها .. فها نحن نرى هذه الظـاهرة فى علاقة مسز « ردوود » بابنها، فرغمحبها له وتعلقها بهـحتى بلغ الطفل الشهر السادس من عمره ـ فقد برمت به وحطمت ذات يوم عربته ثم اضطرت الى نقله الى البيت فى عربة اللبن وهو ثائر صاخب . وبلغ وزن الطفل فى ذلك الحين ستين رطلا كاملة وارتفعت قامته حتى بلغت خمسين بوصة ، وصار فى مقدوره ان يحمل بيـديه شيئا فى مثل وزنه ثقلا ، وكانت الخـادمة تنـوء بحمله فيتعاون معها الطباخ على ذلك . ولم يمض وقت طويل حتى كشف المستور وعرف ما كان خافيا من الامور ، حين عاد « ردوود » ذات يوم الى البيت .. فما أن رأته زوجته حتى قالت له وهى تبكى :

ـ لقد تضاعف حجمه أضعافا .. واضحى مخلوقا مخيفا خارقا للمألوف .. !

ـ ما هذا الهراء الذى تقولينه .. الا ترين حيويتـه البادية ، وقامته المنتصبة .. لم تنجب امرأة غيركمثله ! .. أليس ذلك جديرا بالاعجاب ؟ .. هل يضيرك هذا ؟

ـ الا ترى حجمه الضخم ؟!..

ـ اى ضرر فى ذلك ؟.. اليس ابننـا رائعا بالنسـبة للاطفال الصغيرة الوضيعة التى من حولنا .. اليس هو أكثر منهم جمالا واعظم بهاء وروعة ؟ ! ..

ــ ان جماله يفوق الحد المعقول .. !

وطمأنها « ردوود » مؤكدا لها انه نمو موقوت فى بداية عمر الطفل .. وان كان فى قرارة نفسه يعلم يقينا ان النمو مطرد ومستمر ، وهذا ما حدث فعلا .. فقد بلغ طول الطفل أثنتى عشرة قدما الا قليلا بعد ستة شهور أخرى ، كما زاد وزنه زيادة هائلة اذ بلغ مائة وعشرين رطلا ، وصار فى حجم التماثيل التى نراها فى الكنائس . وراح الناس يتندرون بشدة بأسه وهو يعبث بشعر الزائرين او يمسك بتلابيبهم . وجعل له كرسى خاص يتناسب مع حجمه ليحمل فيه من حجرته واليها .. وجىء له بمربية مفتولة العضلات ، قوية البنية ،لتتمكن من كبح جماحه والتمكن من زمامه ، فكانت تحمله على ركوب عربة كبيرة عملت له خصيصا حين يراد الخروج به الى النزهة

وكان « ردوود » ثاقب النظر ، أريبا جمع بين العلم والخبرة العملية ..

وعندما تنجاب الدهشة عن كل من تقع عينه على ضخامة الطفل المفرطة ، لا يلبث ان يلمح فيه الذكاء والجمال . وقد أقر بذلك ورد ده كل من رأى الطفل عن كثب اثناء نزهاته اليومية .. والظاهرة التى بدت واضحة اكثر من غيرها هى ان الطفل كان لا يجنح الى البكاء ، ولا يبرم أو يضيق اذا لم يسله او يداعبه أحد ، وكان يتلهى بلعبة ضخمة تصدر أصواتا مجلجلة .. وكان يحيى المارة وهم سائرون ورجال الشرطة الذين يمر بهم ، ويخاطبهم بلهجته الطفلية فى دماثة وسذاجة ..

ولاحظت أمه اطراد نمائه دون توقف ، وقد لفت نظرها الى ذلك حين جىء له بعربة جديدة ، فشملها

الحزن والاسى ، وابدت عدم رغبتها فى الدخول الى غرفته بعد ذلك .. بل صرحت بأنها كانت تتمنى لو انها ماتت قبل ان تراه ، او لو انه مات حين ولد ، وبرمت بالدنيا وبالناس ، وودت لو أن جميعهم قد ماتوا .. ولو انها لم تتزوج وتنجب ، بل تمنت لو أن احدا على الاطلاق لم يتزوج !

وكان لكل ذلك أسوأ الاثر فى حالتها النفسية ، فلاذت بحجرتها ولزمتها ثلاثة أيام لا تبرحها قط ، ولا تتزود من الطعام الا بالقدر الذى يقيم أودها .. ولما توجه اليها زوجها « ردوود » ليهدىء من جأشها ، اندفعت فى فورة جامحة وراحت تلطم الوسائد وتشد شعرهاوقد انخرطت فى بكاء مرير .. فقال لها «ردوود» :

ـ لم كل هذا الذى تفعلين ؟ .. هل ترين فى ذلك اذى لحق به ؟ .. على العكس يا عزيزتى ، من الافضل له ان يكبر .. هل يرضيك ان تريه قزما بالنسبة لغيره من الاطفال ؟!..

ـ بل أريد ألا يختلف عنهم ، فلا يكون اكبر منهم او اصغر .. كنت اتمنى ان يكون معتدلا ظريفا مثل « جيورجينا » .. تلك الطفلة الجميلة ، وان اتمكن من تربيته بنفسى بالطرق المعهودة .. ولكن اواه « وخنقها البكاء » هأنت ذا تراه ينتعل أحذية الرجال ، ومع ذلك تضيق بقدميه المرعبتين .. ويحتاج لعربة ضخمة لتنقلاته ..

وعادت تبكى من جديد ، وهى تقول :

ـ كلا .. كلا .. ليس فى مقدورى ان أحبه مطلقا .. لا استطيع ان اتصور أو ان اكون امه .. وقد كانت تلك امنيتى ! ..

وبعد عناء شديد استطاعوا أن يحملوها على الدخول الى غرفة طفلها «ادوردمنسن» حيث راته ماردا ضخما، وقد جلس يتأرجح على كرسى هزاز كبير زود بدعائم لتجعله اكثر احتمالا لثقل الطفل .. ثم راته يبتسم ويغمغم قائلا « جو .. وو .. » ، وفى هذه اللحظة استيقظت فى نفسها عاطفة الامومة ، فأقبلت على الطفل وضمته الى صدرها وهى تبكى ، وقالت :

ـ لعمرى ماذا فعلوا بك يا بنى ؟ .. ستظل تنمو .. ولكنى سابذل ما فى طاقتى لانشئك تنشئة طيبة .. وليفعل والدك ما يريد ..

وغادر « ردوود » حجرة الطفل وقد زايله معظم قلقه ، وهدأ اضطرابه ..

لجنة خاصة

انقضت بعد ذلك بضعة أيام ، وتصفح « ردوود » احدى الجرائد ، فقرأ فيها أن رئيس الوزراء بصدد اصدار قرار بتكوين لجنة خاصة لبحث موضوع الغذاء السحرى ، فقال « ونكاز » :

ـ لعمرى انها فكرة رائعة موفقة .. ولاشك عندى فى أنها ستضع حدا لهذه الضجة القائمة ، وتهدىء من فورة النفوس الثائرة ، وتلجم لسان « كترهام » .. بيد أنه ليس من أجل ذلك جئت يا « ردوود » .. وانما..

فقاطعه « بنزنجتون » قائلا :

ـ لشد ما أكره فكرة تلك اللجنة العلمية !..

ـ هدىء من روعك ياعزيزى .. اننى على ثقة من أن الموضوع سيسوى على أطيب وجه .. ولا اكتم عنك

انى ربما اكون أحد اعضـــاء تلك اللجنة التى تتوجس منها ...

فاخذ « ردوود » يغمغم وقد سرح بنظره الى نار المدفأة ، واستطرد « ونكلز » يقول :

ـ وفى هذه الحالة ستهيأ لى الفرصـــة ، ويـــكون باستطاعتى ان اعيد الامر الى نصابه ، وان أقيم لهـــم الدليل الذى لا يتسرب اليه شك بأن فى الامكان التصرف بحكمة فى امر ذلك الغذاء .. وان المأساة التى حدثت لن تتكرر الا اذا طرات ظروف لا تخطر على بال ، خارجة عن الارادة .. واعتقد ان فى ذلك مايقنعهم ، فانهم بحاجة الى توكيد من انسان مسئول .. وبديهى أننى ســأكون اقدر واقوى حجة على اقناعهم اذا عرفت .. على اننى اقول ذلك عرضا عن غير قصد .. بيد أن هناك مشــكلة تشغل بالى وتحيرنى أحب أن أسمع مشورتكما فيها .. وانا واثق أن باستطاعتكما معاونتى على حلها ..

ولاح السرور على أسارير « ردوود » وهو ينظــر الى « ونكلز » فى انتباه ، واستطرد هذا يقول :

ـ ولكن الامر على جانب كبير من الاهمية .. وهو سرى للغاية ..

فهتف « ردوود » نافد الصبر قائلا :

ـ الق بما عندك ولاتخف ..!

ـ لقد كلفت منذ وقت قريب بأمر طفل يمت بصلة وثيقة الى احدى الشخصيات البارزة ...

قال « ونكلز » ذلك ثم ســعل ، وادرك « ردوود » ارتباكه من تردده ، فقال له :

ـ جال بذهنى انك تعارض فى اســتعمال هـــذا الغذاء ...

ـ كان هذا رأيا عارضا .. وانتهى ..

ـ وهل مازلت عند موقفك من .. ؟

ـ اننى على أتم استعداد لمتابعة مباشرة طفلك ..

ـ ليس يخفى على أن حرمانه من الغذاء سيورده مورد التهلكة ..

ـ وأنا أربأ بنفسى من أن أكون السبب .. ولو اعطيت كنوز الدنيا

وعندئذ قال « ردوود » :

ـ اذن فسنزودك بما تحتاج اليه من هذا الغذاء ..

ـ وهل تسمحان ..؟

ـ اسمع يا « ونكلز » .. ارجو الا تثيرك صراحتى أو تغضبك .. أن تركيب الغذاء ليس مكتوبا أو مفصلا على ورق ... فدعك من ذلك ، سأعد لك الغذاء بنفسى ..

فحدق « ونكلز » فى « ردوود » لحظة ، ثم قال :

ـ امرك ياعزيزي .. سيان لدى هذا أو ذاك ... وليس ذلك عندى بذى بال

***

ونحن فى غنى عن القول بأنه ليس من الميسور أن ينظر الناس الى الغذاء السحرى نظرتهم الى الشىء العادى أو المألوف ، ذلك لان النماء المفرط ظاهرة خارقة للناموس الذى جرت عليه الطبيعة البشرية . ومن العسير استنتاج قواعد محددة ، أو قوانين معينة ، أو معايير دقيقة ، للاثر الذى ينتج عن هذا الغذاء .. بيد ان نطاق تأثيره يتلخص فى تقبل الجهاز الهضمى له ، فى شكل من الاشكال ، يضفى قوة على جسم الشخص ، فيضاعف

النمو الطبيعى الى ستة أضعاف أو يزيد .. بيـد انه لايتخطى ذلك مهما بلغت كمية الغذاء ، وزيادة الـكمية عن المقدار الضرورى تؤدى الى عواقب وخيمة منهـا اضطراب التغذية ، والسرطان ، وتحويل بعض أعضـاء الجسم الى عظام . وبناء على ذلك فان من الضرورى عند بدء النمو ، تقديم الطعام بانتظام وبلا انقطاع ، فى جرعات قليلة ولكن كافية ..

وجدير بالذكر أنه اذا توقف اطعـام الطفـل بذلك الغذاء بعد بدء نموه ، فانه ينجم عن ذلك أن الطفـل يصاب بحالة قلق غامض ، وعدم استقرار ، ومسحة من الكآبة .. وتمر به فترة تبدو فيها شراهته ، وعنـدما يشعر بالجوع يأخذ فى الصراخ ، ثم يصاب بفقر فى الدم؛ وتقضى عليه العلة فيموت ..

كل هذا يحدث فى فترة النمو .. أما عند بلوغ سـن المراهقة ، فان اللهفة على الغذاء تقل ، وكذلك الرغبـة فيه ، وتنعدم الحاجة الى الغذاء عند اكتمال النمو ، اذ يكون الشخص قد بلغ نقطة الاكتمال ..

وماهى الا فترة من الزمن حتى أصبح « ادورد منسن ردوود » ، أول طفل غذى بالغذاء السحرى ، طليعـة هذا الجيل الفريد ، يحبو بضخامته فى أرجاء حجرته ، يحطم الاثاث ويقرص كلبيه ، ويعض مربيته بأسـنانه ، ويجأر بالصراخ والصخب مناديا مربيته وامه واباه .. هذا الذى فعل به مافعل ...

واضطروا لاعداد بناء خاص به ، وأدوات خاصة تتحمل ضخامته المفرطة ...

ثورة فى الاحيـــاء

كان فى استمساك « ردوود » وحرصه على اخفــاء سر تركيب الغذاء السحرى وعناصره عن « ونكلز » اكبر حافز لهذا الاخير على هواية الكيمياء التحليلية واجراء الابحاث ، بيد أنه لم يكن على مستوى كبير من الـكفاية والمثابرة .. فكان يجرى تجاربه بفتور وفى معمل صغير غير مكتمل الادوات ، أنشأه بحديقة أحد البيوت ، ولم يلبث ان توقف عن مواصلة العمل توقفا تاما

وحدث أن كسرت بالوعة معمله فتسربت الميـــاه من ثقوبها ، وكان الفصل ربيعــا ، الى البركة المجـــاورة للحديقة التى بها معمله ، والتى نبت فيها بعض الغاب .. فدبت حياة عجيبة فى كل ما فى البركة من نبات وما فيها من كائنات حية ، اذ كانت بها ضفادع صغيرة وقواقــع وديدان وخنافس مائية كانت فى طريقها الى الانبثاق من البويضات تحت جذور الغاب

وكان أول ما ظهر فيه تأثير حبات الغذاء السحرى هو الضفادع والقواقع .. فقد اقبلت عليه الضفادع فى نهم ، ونمت احداها وابتلعت ضفدعة صغيرة ، فهاجمتها خنفسة مائية بأشواكها الحادة .. فنفــــذ الى جوف الخنفسة بعض دم الضفدعة المشبع بالغذاء السحرى

وتغذت بعض النباتات الناميــة والاعشــــاب التى بالمستنقع بما حمله اليها المـــاء الذى غسلت به أرض المعمل من الغذاء السحرى ، فابتدأ التنازع على الحيــاة يظهر بوضوح على كل مافى البركة . وكشف عن هــذه الظاهرة أستاذ فى العلوم يدعى « كرنجتون » كان يعنى بدراسة نباتات المياه العذبة ، جاء الى هذا المكان ليأخذ

فى انابيب بعض تلك النباتات ليجرى عليها أبحــــاثه . وكان فى سيره يتوكأ على عصا ، فلفت نظر فتى كان يقلم اشجار سور حديقة الدكتور « ونكلز » ، فأخذ الفتى يرقب الرجل فى اهتمام

ورأى الفتى الاستاذ « كرنجتون » وهو يتكىء وينحنى على حافة البركة ، ولكنه لم يدرك سبب الدهشة التى ظهرت على أسارير الرجل حين رأى ما طرأ من تغير على عقد النبات وخيوطه ، ودفع الرجل ذراعه الى قاع البركة ليأتى ببعض النبات ، فانطلق كائن عجيب غرس أنيابه فى ذراع « كرنجتون » .. وبجسمه عقد كالعقرب ، فذعر الرجل من منظره البشع وخارت قواه من شدة الالم الذى خلفته اللدغة فى ذراعه ، فانكفأ على وجهــه فى البــركة وصرخ . ورآه الفتى وهو يختفى وسمع صراخه ولمح صراعه ، ثم رآه ينتصب قائما عارى الرأس وقد لفه ذعر شديد والماء يقطر من جسمه

ولم يكن الفتى قد سمع صراخ رجل قبل ذلك ، ورآه يحاول جاهدا ان يزيح عن وجهه شيئا علق به وقدأخذت قطرات الدم تتساقط منه .. ولما لم يستطع ان يتخلص من ذلك الشىء الغريب الذى أمسك بتلابيب وجهه ، قفز كالمجنون وجرى بضع خطوات ثم وقع على الارض وهو يتقلب

وهبط الفتى الدرج وهرول الى حيث وقع الرجل وقد اخذ معه مقص الحديقة ، ثم فكر فى العودة من حيث أتى خشية أن يكون الرجل مجنونا ، ولكن وجود المقص معه شد من عزيمته . ولما رآه « كرنجتون » هدأ روعه قليلا ، وان ظل فى حالة يرثى لها ، اذ كان يقف ثم يقع ثم يقف ثانيا ثم يقع ، وقال للفتى :

ـ اننى ـ كما ترى ـ عاجز عن نزعها عن وجهى !

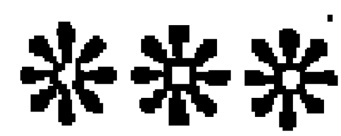
وروع الفتى لرؤيته الديدان الضخمة العالقة بوجه الرجل وبذراعه وفخذه ، تضرب بجسمها فيه بعنف وقد غاصت أفواهها فى لحمه وراحت تمتص دمه ، وتمزق لحمه وهو يحاول نزع الديدان ، وسال الدم على وجهه وثيابه ، فصاح الفتى :

ـ عليك أن تمسك بها وسأقوم أنا بتقطيع أجسادها بهذا المقص الذى أحمله

وراح الفتى بعزيمة الشباب يفصل رءوس الحيوانات عن أجسامها ، والرجل لا يتوقف عن الصراخ ؛ وبلغ من ضراوة تلك الحيوانات أن رءوسها كانت ، حتى بعد أن فصلت عن أجسامها ، تلدغ فى لحم الرجل وتمتص دمه ، والدم ينساب منها عليه ، وقد أصيب «كرنجتون» ببعض الجروح من المقص

وراح «كرنجتون» يكرر قوله « لم أستطع أن أنتزعها » وظل فترة من الوقت يترنح ، والدم يسيل من جروحه غزيرا ، فكان يتحسس الجروح ويضغط عليها فى ذهول وكأنه لا يصدق ما حدث . وأخيرا تهالك « كرنجتون » وانكفأ على وجهه أمام الفتى ، ورأى أعضاء الحيوانات التى فصلت لا تزال تنبض بالحياة وتقفز أمام عينيه !

وعاد الفتى الى الحديقة يستنجد بمن فى البيت ، وقص ما حدث على سائق عربة البستانى ، ثم عاد ومعه السائق الى حيث يوجد « كرنجتون » فوجداه خائر القوى ذاهلا ، ومع ذلك فقد حذرهما مما فى البركة من أخطار



وهكذا أفلت الزمام للمرة الثانية فى أمر ذلك الغذاء

السحرى ، وغدت « كستن » مرتعا خصبا له ، ينتشر فيها .. ولم يقتصر الامر فى هذه المرة على الزنابير والجرذان والنمل ، بل ظهرت عناكب مائية وديدان ذباب فارس ، لم تلبث أن نمت وضاقت بها سماء « كنت » ، وكذلك احتشدت البركة بالنباتات الكثة اللزجة التى زحفت الى حديقة « ونكلز » وكادت تتسلق داره .. وحال جفاف البركة دون نمو أنواع أخرى من النباتات

واتضح فيما بعد أن هناك أكثر من مرتع خصب واحد لهذا الغذاء السحرى ، فقد ظهر تأثيره فى « ايلنج » التى انتشر فيها الذباب والعناكب ، وكذلك فى « سنبيورى » حيث نمت كلاب البحر الضارية التى راحت تقفز من البحر وتفترس الاغنام ، كما ظهر فى « بلومزبرى » نوع من الصراصير الضخمة المرعبة

وهكذا اتسعت الرقعة التى انتشر فيها تأثير الغـذاء السحرى ، وقد كان المظنون ان الامر وقف عند «هكليبراو» وتعددت انواع الكائنات التى راحت تنمو بصورة خارفة مفزعة .. وكان فى كل مكان نوع من الكائنات والنباتات يختلف عما فى الآخر

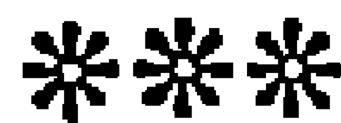
وكان الدكتور « ونكلز » يتردد على هذه الامكنة ليعود مرضى له فيها ، بيد أنه كان حريصا على تهـدئة خواطر الناس تجاه هـذا الامر الذى روعهم وأثار ثائرتهم .. فكانوا يلعنون ذلك الغذاء ، ويلعنون معه « بنزنجتون » اذ وقر فى اذهانهم انه سبب هذا البلاء

ومن ذلك الحين ، أخذ الخطر يتهدد حياة «بنزنجتون» فقد أرادت الجماهير الثائرة أن تفتك به لتجعل منه عبرة لأمثاله ، وكانت مجرد اشارة من واحد منهم كافية للقضاء عليه .. بيد أنه لم يشعر بهذا الخطر الا حين تناهى الى

سمعه صخب الناس وصياحهم أمام بيته ، فأطل من النافذة ورأى الجمع الحاشد الذى راح يتدافع ويقاوم رجال الشرطة ، فأدرك عندئذ انه المقصود بكل هذا .. ولم ينج منهم الا بجهد شديد ، وترك الغوغاء يتلفون داره وما فيها

وخرج هذا العالم الفذ متنكرا فى ثياب نسائية ، يتعثر فى السير – وقد تقمص شخصية امرأة – وراح يصب اللعنات على « بنزنجتون » بلهجتهن ، وقد بذل جهدا فى تصنعها واتقانها ، كأنه أحد أفراد الشعب الذى جاء ليفتك بالعالم ، واخترق فى سيره ممرات البيت المجاور ثم اشترك مع الحشد الثائر

وبعد أن نجا « بنزنجتون » بحياته ، توقف نشاطه العلمى وانقطعت صلته بأمر الغذاء السحرى الذى تطور وانتشر ، والذى كان هو مكتشفه ..



وعلى هذه الصورة احتجب العالم العبقرى «بنزنجتون» مكتشف الغذاء السحرى الذى هز أركان الدنيا ، عن مسرح الاحداث ، وطوى أمره ، فلم يسمع به ولم يره أحد .. بيد أن واجب الوفاء يقتضينا أن ننوه بما حدث له فى أواخر أيامه – حين ظهر فى تنبردج ويلز – التى ظهر فيها بعد اختفائه الذى لم يطل ، وقد تبين له أن فورة غضب الناس انما هى حالة جامحة عارضة موقوتة ، فحفزه ذلك على الظهور ، تشد من أزره ابنة عمه «جين» .. وجعل كل همه أن يزيح عن نفسه أثر الصدمة العصبية التى أصابته ، مبتعدا عن أى نشاط ، لا يلقى بالا الى الضجة القائمة حول المراتع الخصبة التى تفشى فيها أثر الغذاء السحرى ، ولا بالاطفال الذين يطعمون به

وأقام « بنزنجتون » فى فندق الاستشفاء المـائى عند مونت جلورى ، حيث توجد حمامات لعلاج أنواع شتى من الامراض . وبذل نشـاطه وقواه للسير قدما بهـذا النمط من العلاج .. ومات «بنزنجتون » قبل أن يبلغ به الذروة التى كان يرجوها

واعتاد فى تلك الحقبة من حياته أن يركب احـدى العربات او يسير على قدميه اذا لم تكن آلامها شديدة ، ميمما شطر عين الماء حيث يقضى ساعة او بعض السـاعة ينهل من مائها المعدنى ، وابنة عمه « جين » ترمقه بنظراتها الحانية

هل هو وباء ؟

شأن كل امر من الامور ابتدأ الغذاء السحرى شيئـا بسيطا حين اكتشفه « بنزنجتون » .. ولكنه اخذ يكبـر ويعظم شأنه وتتشعب آثاره . ونحن اذ نتناول موضوع انتشاره ، فكأنما نتتبع امرا ليس ثابتا على حال ولايقف عند حد .. ففى مدى لايتجاوز ربع قـــرن على بدء اكتشاف الغذاء السحرى وتجربته فى مزرعة «هكليبراو»، انتشر انتشارا لا يتصـــوره عقل ، وملأت انباؤه اعمدة الصحف .. ولم تقتصر على انجلترا بل انتقلت عبر البحار حتى بلغت امريكا واليابان واستراليا ، وبعد ذلك تناولتها صحف العالم كله بالتحليل والتعليق .. وكان موضـوع الغذاء السحرى يقابل بكثير من الاعتراض والمقـــاومة بسبب ضخامة آثاره وغرابتها ، بيد انه رغـم كل ذلك فقد زاد انتشاره بالرغم من العراقيل والقـــوانين التى وضـــعت للحيلولة بينه وبين التداول ، وبالرغـم من استمساك الناس بما درجوا عليه

وفى خلال هذه الحقبة من الزمن ، كان الاطفال الذين

يطعمونه ينمون نموا خارقا مطردا .. وقد لفتت هـذه الظاهرة أنظار الناس وانتباههم ، وسرعان ما كان جميع الاطفال يكبرون وينمون ، فقد استعصت الحيلولة دون تسرب الغذاء وانتشاره ، كأنه مارد جبار لا تقف في وجهه قوة من القوى مهما عظمت . والسر في ذلك ان الدقيق الذي يحتوى على مقدار من هذا الغذاء يتحـول مع حرارة الجو الى مسحوق اشبه بالغبـار البالغ الدقة بحيث لايمكن الحيلولة بينه وبين الانتشار في الهـواء ، فتتنفسه الحشـرات وتنمو .. ويتسرب الماء المشرب به من البالوعات ، فتشربه الجرذان وما اليها من حشرات فتنمو . ولاحظ سكان احدى القرى نمو النمـل بها — على غير المألوف — فعمدوا الى ابادة ذلك النمل بعد ان عض ثلاثة رجال ماتوا بسبب العضة ، مما بث الذعر في النفوس

وكانت هذه حال كل مكان يظهر فيه أثر ذلك الغـذاء .. ذعر يعقبه صراع وكفاح حين ينمو نبات أو حيـوان على خلاف المألوف نموا مروعـا . وكان الذباب الذى ينمو بهذا الغذاء من القوة بحيث يسـتطيع الفتك بأى شيء ، فكان الناس يتتبعون الكثير من الانبـاء عن انتشار ذلك الغذاء في اماكن لم يسمعوا بها ولا يتصـورون كيف وصل اليهـا ، ويقرءون ألوان الكفـاح بالسـلاح وغير السلاح الذى يعقب ذلك الانتشار ، حتى صـار هـذا الكفاح أمرا مألوفا لدى الناس ، تفننوا وبرعوا فيه .. وذاع صيت « كترهام » لما اظهرته مواهبـه من ابداع في الخطابة وقوة الاقناع وذلاقة اللسان

وكان الاطفال الذين يطعمون هذا الغذاء ينمون شـأن كل كائن حى يسير على سنة النمـاء ، وقد تطـورت

شئون الحياة واعدت الدنيا نفسها لاســــتقبال هؤلاء الاطفال ، بقوتهم الهائلة وارتفاع قاماتهم ، ونمو ادراكهم .. فكانوا افضل من غيرهم فى كثير من الشئون ، وارتفعوا بأنفسهم بما يتناسب ومستقبلهم الذى تعده لهم المقادير ، ولم يلبثوا أن صاروا مألوفين بين الناس رغم ضخامتهم وارتفاع هاماتهم . وتناقل الناس اقاصيص اعمالهـــم الجبارة ، وابدوا اعجابهم ، وان كانـــوا فى الحقيقة لم يعجبوا لها . وراحت الصحف تكتب الكثير عن ابنـــاء « كوسار » الثـــلاثة ، الجبـــابرة المدهشـــين الذين باستطاعتهم حمل المدافع الكبيرة وقضبان الحديد الثقيلة الى مسافات طويلة .. ويبلغ طول القفــزة الواحـــدة للواحد منهم مائتى قدم بل اكثر . وقيل انهـــم حفروا بئرا لم يسبق ان حفر فى مثل عمقها احد على مر الزمن ، ويزعم ناقل الخبر انهم كانوا يبحثون عن كنز دفـــين فى اعماق الارض منذ بدء الخليقة

ونشرت المجلات ان بمقدور هؤلاء الاطفال ان يزحزحوا الجبال عن اماكنها ، وان يشقوا الارض ، ويقيموا جسورا فوق البحار المترامية .. بيد ان بعض الناس يقـــول ان ذلك ضرب من الوهم والخيال . ولكن الحقيقـــة ان كل ماكان يقال او ينشر كان بمثابة النذر الاولى لما سيتمخض عنه ذلك الغذاء السحرى ، وان كانت الافعال التى تبدر منهم من قبيل عبث الاطفال واظهار القوة فى غير مـــاداع او نفع .. فهم لم يخرجوا عن أنهم أطفال وان كانوا من سلالة جديدة ، وكان واضحا ان ارادتهم الجبـــارة لابد ان تتجه بعد اكتمال نموها الى غاية معينة

***

اشتهر قسيس تشيزنج آيبريت بالجمـــود وعـــــدم

التجديد ، وكان هادئا محبا للجد متشـبثا بكل ما هو قديم . وكان الناس يجهلون رأيه فى الكرات النبـاتية الهائلة المنتفخة ، حين عثر عليها منتشرة على طـريق القرية وعلى التل القريب منها ، وهو طريق القس فى ذهابه الى الكنيسـة وعودته منهـا يوميـا .. وراح القسيس يتفرس فى كل واحدة من هذه الكرات القريبة التى زاد عددها على الثلاثين ، ويقلبها بعصاه . وأراد ان يعرف طول محيط الكرة بذراعيه فانفجرت فوق صـدره وبين ذراعيه المفتولتين القويتين !

ولم يدر الرجل ما اذا كانت الكرات البيضاء موجودة بالطـريق التى سلكتها المرأة العجوز فى اليـوم السابق ، او تنبه الى آخر كرة منها تفتحت عـلى مقربة من كوخ « كادلز » ، لانه لم يكلف نفسه عناء تسجيل ملاحظـاته ومشاهداته ، فقد كانت ملاحظاته تنحصر فى اشـياء معينة ، لا يلقى بالا الى كل ماعداها

كذلك لم يتنبه الرجـل الى ان هناك ارتبـاطا بين الظاهرة التى رآها وبين نمو طفل « كادلز » نمـوا عجيبا ظل يستمر بضعة اسابيع ، منـذ توجه « كادلز » الى والدة زوجته حيث استمع الى « اسـكنر » وهو يروى اروع القصص عن براعته فى تربية الدجاج

وسأل القسيس مسز « اسكنر » عند حضورها ، وهو يحدق بمنظاره دهشا فى صحيفة :

ـ ما هذا الذى أرى ؟ .. أزنابير ضخمة ؟ .. لعمرى ماذا بعد ذلك .. انها ولاشك اسـاليب الامريكيين فى كتاباتهم .. الم يكن اولى ان يقال عنب ضخم او تفـاح هائل ؟! ..

ثم أردف يقول ، وهو يتناول رشفة من القهوة :

ـ هذا هراء لا يصدقه عقل .. انه كذب وافتراء ! ..

بيد ان اليوم التالى حمل من الانباء اكثر مما جاء به سابقه ، وبدأ الامر يتضح وان لم يتضح دفعة واحدة .. اذ راح يسخر من القصة البعيدة كل البعد عن التصديق .. أزنابير تقتل كلبا ؟! وفجأة قفز الى ذهنه ما لاحظه من نمو النبات بجوار الكرات نموا غير طبيعى ، ولكنه لم يربط بين ماجاء بالصحيفة وبين نمو النبات ، وقال فى نفسه :

ـ لو أن ماذكرته الصحيفة حقيقى لكنا قد سمعنا به .. فان المسافة بيننا وبين هوتستيبل ، لا تزيد على عشرين ميلا ..

ووقعت عينه بعد ذلك على كرة ضخمة اخرى كأنها بيضة هائلة لطائر الرخ ، بين النبات الكثيف النامى ، فأدرك الحقيقة لتوه ..

وفى ذلك الصباح تخلف الرجل عن اداء واجباته الدينية ، وعرج على كوخ « كادلز » سالكا طريقا آخر ، حتى اذا بلغه قال لمن فيه :

ـ اريد ان ارى الطفل ..

ثم اردف قائلا :

ـ هل هو وباء ؟ ..

وافتر ثغر الطبيب عن ابتسامة هادئة رقيقة ، وفرك يديه ثم قال :

ـ ليس باستطاعتى أن أقطع برأى فى هذا الامر .. !

وارتسم الخوف ولاح فى عينى القس اللتين اتسعتا ، وقال :

ـ ستنتقل عدواه الينا .. اذا كان معديا ! ..

ثم اردف يقول بعد ان خطا خطوة فى الطريق :

ــ لقد أتيت من هناك توا .. اليس الافضل لى ان .. سأسرع الى دارى لاغتسل واطهر ثيابى بالبخار .. !

وأخذ الطبيب يرقبه برهة وهو يبتعد ، ثم يستدير متجها نحو داره ..

بيد انه تذكر فى أثناء عودته ان اصابة حدثت منذ شهر بالقرية ، ولكنها لم تتسبب فى عدوى احد . وبعد شىء من التردد عقد العزم على التجمل بالشجاعة ومجابهة الامور مجابهة الرجال ..

وكان حقا مصيبا فى رأيه ، فلو أنه أطعم ذلك الغذاء بكميات هائلة ، لما ادركه نمو او تضخم ، فقد ولت فترة النمو لديه الى غير رجعة ..

طفل لا ينام

كان من رأى القس أن الطفل الكبير قبيح الشكل ، وأصر على أنه دميم منذ ولادته . وحال تضارب الآراء بين القس وبين وصف الطفل وصفا صحيحا .. ومن عجب أنه كانت تؤخذ للطفل صور شمسية كثيرة فى أماكن مختلفة ، فكانت على خلاف ما يراه القس ، فقد ظهر الطفل فى الصور التى أخذت له فى الايام الاولى من حياته جميل الطلعة ، بساما ، يكاد يحجب شعره الغزير جبينه . وكان « كادلز » يتعمد أن يظهر الى جانب ابنه فى الصور ليظهر الفارق بين ضآلة جسمه وضخامة ابنه

وتغيرت تقاطيع الطفل وملامحه حين أتم العام الاول من عمره ، فصارت دقيقة ، وخلت من سمات البهاء والجمال .. واخذ ينمو ويتضخم كما قال جده التعس ، ثم تهدل جسمه وتبدل لونه ، وأضحى فى نظر الناس ضئيلا رغم

ضخامته . ولفت أنظارهم بعينيه وملامح وجهه الدقيقة، وازداد شعر الطفل غزارة وتلبدا بعد أن قص لأول مرة . وقرر الطبيب أن الطفل يسير فى مرحـلة اضمحلال .. ترى هل كان ذلك لأنه ــ اى الطفل ــ كان يعيش فى عزلة عن لداته ؟ ! ..

وبدت عينا الطفل مستديرتين ، واسترسل شعره ، وصار انفه أفطس ، فيما بين الثالثة والسادسة من عمره، كما تنطق بذلك صوره فى تلك الفترة من حياته .. وكانت شفتاه تفتران عن بسمة متميزة ، تظهره فى صورة فذة بين أقرانه من جبابرة الاطفال الذين سبقوه . وكان يرتدى فى فصل الصيف ثيابا فضفاضة يحبكها بشريط رفيع ؛ ويضع على رأسه سلة كبيرة من سلال العمال ، ولا ينتعل بحذاء قط بل يسير عارى القدمين . واخذت له صورة ظهر فيها وهو مغرق فى الضحك ، ويحمل بطيخة كبيرة بيده ..

ومما رواه القس أن الطفل كان مصدر أزعاج للقرية منذ بداية عمره ، فقد كان فضوليا كثير التطلع ، يحب أن يكون على سجيته وهواه ، يأتنس به الناس .. نهما يلح فى طلب المزيد من الطعام ، وهذا ما كان يعاب عليه

وقال الطبيب ان شهيته كانت فظيعة الى حد لا يتصوره عقل ، وان لم يؤثر ذلك فى كرم السيدة « وندرشوت » على الطفل واغداقها الطعام عليه . وقد حاول ذات مرة سرقة الطعام رغم كفاية ما كان يناله منه ، وكان يلتهم كل ما يصل الى يده أو يتمكن من سرقته ، حتى أنه كان يمد يده الهائلة فوق سور الحديقة ويخطف الخبز من العربات، ويسرق الجبن من مصنع للجبن رغم ارتفاعه . ولاحظ الفلاحون من آثار قدميه الضخمتين أنه كان يجوس فى

حقولهم ، يقتلع النبات ويأخذ الثمار ثم يسوى فى مكر مواضعها . واذا رأى أن أحدا لا يراه كان يلتقط التفاح من الاغصان المرتفعة ويلتهمه !

وهكذا تعددت ألوان الازعاج فى تصرفاته ، فكان القس يقول عنه :

— انه طفل لا ينام ولا يخلد الى الراحة اطلاقا ! ..

وتعذر الذهاب به الى المدرسة ، كما لم يستطع دخول الكنيسة لأن بابها لا يتسع لضخامته . وفكروا فى تعليمه، وتحايلوا على ذلك بأن جعلوه يجلس خارج حجرة الدرس بجوار نافذتها المفتوحة ، ولكن هذه الطريقة أفسدت النظام .. فقد تلهى التلاميذ عن الدرس بالنظر اليه ، والضحك من منظره وكلامه ، اذ كان صوته أجش غريبا ..

واتفق القس مع أم الطفل على تلقينه مبادىء الاخلاق وبعض الدروس العلمية الاولية ، وأفهماه انه لم ينل هذه القوة الجبارة لكى يبطش بالناس .. وأنها نقمة حلت به ، عليه أن يتقبلها فى صبر وجلد . وقد أزجيا اليه الكثير من النصائح بأن يعى ما يلقى على مسامعه ، وأن يكون مطيعا فيما يطلب منه ، وأن يتجنب تهشيم أو اتلاف أى شىء ، ولفت نظره ألا يصطدم بشىء أو يطأ بقدمه شيئا ، أو يقفز قفزة قد تسبب تلفا جسيما .. كما لقن من أسس مبادىء الاخلاق أن يحترم الغير ، وأن يحبهم ، ولا يقصر فى تقديم الشكر لهم على ما يمنحونه له من ثياب وما يغدقون عليه من طعام . وتقبل الطفل هذه الدروس والنصائح ، وعمل بها لأنه كان — جريا على سنة الطبيعة — فى سن قبول التعليم ، وان جعلت منه الصدفة والغذاء السحرى ماردا ضخما ! ..

وكان القس اذا خرج فى صبيحة الايام المشمسة لا يطيق

رؤية ذلك الآدمى العجيب اذا قابله فى الطريق ، فقدكان يذهله طول قامته الذى بلغ ثمانى عشرة قدما وكأنه جن خرافى خارج على الطبيعة .. بينما يسير الطفل فىالطريق على مهل ينظر عن يمين وعن يسار بحثا عما يأكله وعما يلعب به ، وهما بغيتا كل طفل . وعندما تقع عين الطفل على القسيس يحييــه برفع يده الى رأســه فى احترام وتبجيل ..

وكان القس ضيق الافق ، فكان يتخيل مدى مايحدثه هذا الطفل الضخم المفتول العضلات من أذى اذا أصابه مس مفاجىء من جنون ، أو لاح للطفل أن يطرح جانبا مظاهر الاحترام للغير . بيد أن القس حين كانت تساوره أمثال هذه الخواطر ، كان يطردها من ذهنه فى شـجاعة ليثبت مقدرته على التغلب على المخاوف .. ولهذا كان يخاطب الطفل فى خشونة وبصوت مرتفع ونبرات رنانة قوية شأن جهابذة الخطباء المتحدثين !

ودرج الصبى على طاعة أولى الامرومعلميه والقساوسة وأن يكون رائده احترام الغير والخضوع لآرائهم والعمل بنصائحهم

ولفت نظر الصبى أن الجياد كانت تجفل منهكما تجفل من الجمـال ، لأنها لم تتعود رؤية مخلوق ضخم مثله ، فمنع من السير فى الطريق العـام ، كما نبه عليه بعدم الاقتراب من قصر السيدة « وندرشوت » لأنها أبصرته ذات يوم يطل برأسه من فوقسورحديقة القصرويبتسم، فحنقت أشد الحنق .. بيد أن الصبى لم يذعن لما أمر به من عدم السير فى الطريق العام ، فقد كان يطيب له السير فيه ، فراح يسير خلسة فى غفلة من عيونالرقباء ، وأخيرا

اقتصر على سفوح التلال وساحات الكلأ يسير فيها كيف يشاء ..

ولما رأت السيدة « وندرشوت » فراهته وشيطنته قالت :

ـ يجب الا يترك على هواه .. بل يجب أن يجبر على اداء أعمال متواصله ..

فقال القس :

ـ أصبت يا سيدتي فان هذا أمثل وسائل التربيةالتى تؤتى ثمرا طيبا ..

فقالت السيدة « وندرشوت » :

ـ وهذا ما أعنيه وما أشير به دائما .. فالبطالةمفسدة .. والشيطان حليف العاطل .. وهذا شائع بين طبقة العمال .. اننا نبث هذه الروح في خدمنا .. ولكن ترى اى عمل يمكن ان نسنده الى هذا الصبى ؟! ..

واصطدم التفكير ببعض الصعوبات ، وتشعب..وأخيرا رؤى أن يوكل الى الصبى نقل الرسائل على ظهر جواد بدلا من الرجل الذى كان يقوم بهذا العمل ، وكلف علاوة على ذلك بنقل بعض الامتعة والحقائب فى كيس كبير أعد لهذا الغرض

وبدا أن الصبى مقبل على العمل ، والواقع أنه كان يرى فيه ضربا من التسلية .. ثم كلفته وكيلة أعمال السيدة « وندرشوت » حين رأته يرفع بيديه القويتين صخرة هائلة فى الحديقة ، أن يقطع الطباشير من محجر قريب من هكليبراو . وعندئذ ظن الجميع أنهم وفقوا فى اسناد انسب الاعمال للصبى ..

وراح الصبى يعمل فى المحجر فى حماســـة الاطفال

واندفاعهم فى مبدأ الامر ، ثم صار يعمل بصـــورة رتيبة بحكم العادة ، فكان يقطع الطباشير وينقله على عربات ثم يعود بها فارغة وهكذا ، وأخيرا رأى نفسه يعمل بالمحجر بمفرده

وكان أثناء العمل يرتدى قميصا من الخيش ، وسروالا قديما من الجلد ، وحذاءين بهما حديد .. وكان أحيانا حاسر الرأس وأحيانا أخرى يغطى راسه بسلة كبيرة ، وكان يشاهد وهو يغدو ويروح فى عزيمة وثابة . وكان القس يراه ـ أثناء عودته ـ وقد جلس يلتهم طعامه الذى يؤتى له به يوميا ، دون أن يفكر فى الدنيا ومافيها . وكان طعامه يتكون من مقدار كبير من الحب غير المقشور ينقل اليه فى عربة ، ويلتهمه بعـــد حرقه فى قمين من قمائن الجير ، وفى بعض الاحيان كان يخلطه بالسكر . وكثيرا ما رؤى يلعق قطعة ملح كبيرة ، وايضا وهو يزدرد كمية هائلة من البلح بنواه .. واذا عطش قصد الى المجـــرى الصغير القريب وأخذ يعب من مائه

وطريقة الشرب هذه هى التى كانت عاملا اساسيا فى انتشار الغذاء السحرى فى هذه البقعة ، حيث انتقل فى مبدأ الامر من الماء الى الغاب المترامى على شاطىء النهر، ثم الى الضفادع والاسماك على اختلاف أنواعها ، ثم الى النبات النامى فى الـــوادى . ولم ينقض عام حتى نمت ديدان الحقل المجاور لحانوت الحداد ، فتضخمت هى والخنافس التى اجبرت السيدة « وندرشـــوت » على الفرار من قصرها

***

بعد فترة من الوقت تغير تأثير الغذاء فى الطفل ، فقـــد

حاد عن التعاليم التى لقنها له القس ، والتى كان يرمى من ورائها الى ان يجعل منه مزارعا مثاليا بشكل يتناسب مع ضخامته .. وازداد الفضول لدى الطفل ، فصار يكثر من الاسئلة وينقب فيما حوله بحثا عن أشياء ، ويفكر .. وحين تخطى مرحلة الصبا ، وأصبح على عتبة المراهقة ، أخذ يصارح الناس بأن تفكيره يختلف عن تفكيرهم .. وأن القس لم يكن مصيبا فى توجيهه اياه ذلك التوجيه . وشعر القس بهذه الظاهرة المؤسفة فقلق لها

وشمل تفكير الطفل كل ما يحيط به من شتى شئون الحياة ، وكان يرى بطبيعة الحال وبنظرته الثاقبة الملمة ، الكثير من نواحى الحياة البشرية على الرغم من كثرة مالم تهيأ له فرصة مشاهدته . وأدرك على مر الايام ، شيئا فشيئا ، انه بشر كغيره من الناس ، لا يختلف عنهم الا بضخامته ودماثته . ونما ادراكه فاستبان الوان الحياة التى حيل بينه وبينها بسبب ضخامة جسمه ، اذ كان متعذرا عليه الالتحاق بمدرسة والاختلاط بأقرانه من التلاميذ ، ولم يكن باستطاعته الذهاب الى الكنيسة لأداء الشعائر الدينية التى كان الناس يؤدونها وهم فى ابهى حللهم على انغام الموسيقى ذات التأثير العميق ، وحرم من ارتياد الفندق الذى كانت تقام فيه حفلات غنائية حافلة بألوان المرح ، وحرم من مشاهدة مباريات الكرة كغيره من تلك الحشود التى كانت تشاهدها وتتحمس لها ولنتائجها !

كانت كل هذه الخواطر والمناظر تجتذبه وتستهويه ، ولم يشذ الفتى عن ناموس الطبيعة اذ شعر وهو يسرع حثيثا الى مرحلة المراهقة بأحاسيس غريبة .. فبدأ يفكر

باهتمام فى العشق والعاشقين ، وفى شئونهم وشجونهم ولواعجهم ، مما فرضه ناموس الحياة والطبيعة على الانسان

وحدث ، وكان اليوم أحد ــ يوم العطلة الاسبوعية ــ والمساء هادىء والسماء صافية وقد بدأت تتلألأ فيها النجوم ، ان وقف عاشقان فى شارع الغرام ، وهو شارع ضيق يعلوه سور ضخم لا يقل ارتفاعه عن اثنى عشر قدما وراحايتبادلان القبلات بمنجاة من أعين الرقباء .. فقد كانا يعلمان ان ما من احد يستطيع رؤيتهما أو تعكير صفوهما الا اذا كان مقبلا فى الشارع ، وفى مقدورهمافى هذه الحالة ان يرياه .. ولذا أيقنا أن السور خير حافظ لهما من الاعين المتطفلة

وعلى حين غرة ، شعرا بأنهما يرتفعان عن ارض الشارع ، وان كلا منهما يبتعد عن الآخر .. واصطبغ وجهاهما بحمرة الخجل ، وعقد الذهول والدهشة لسانيهما فى موقفهما الحرج ، فلم ينطق أحدهما بكلمة ، وقد رايا ان الذى رفعهما هو « كادلز » الضخم الذى راح يرمقهما بعينين مضطربتين ، ثم قال لهما :

ــ لماذا يحلو لكما ان تفعلا ذلك ؟

وظل العاشقان برهة على اضطرابهما ، ثم تشجع الفتى وأخذ يكيل السباب واللعنات لـ «كادلز» ويتوعده، ثم اهاب به ان يعيدهما الى مكانهما والا فالويل له كل الويل .. وراجع « كادلز » نفسه ، وأدرك ان الخلق الكريم افضل ما ينبغى ان يتحلى به ويتبعه ، فأذعن على الفور واجاب الفتى الى طلبه ، وأعادهما الى مكانهما على ارض الشارع فى دماثة ولطف ، وجعلهما متقاربين

ليستأنفا عناقهما وقبلاتهما ومناجاتهما .. وظل يرقبهما لحظة ، ثم أختفى عن ناظريهما

ويذكر الفتى انه شعر بعد الذى حدث بخزى وخجل، وان نظراته لم تلتق بنظرات فتاته بعد ان ضبطهما « كادلز » فى موقفهما الغرامى ذاك حيث كانا يتبادلان القبلات ، وقال :

ـ العجيب فى الامر ان صاحبتى راحت تنحى على باللائمة ، وثارت فى وجهى ، ولم توجه الى كلمة واحدة أثناء عودتها . .

ونشطت افكار « كادلز » فى هذه السن ، وراح يلقى الاسئلة على الناس وعلى امه ، أسئلة استغلق عليه فهم كنهها . .

وكان يقضى بعض وقته فى الفناء القائم خلف الدار ، يرقب الدجاج وصغاره ، وهو يقبل نحوه ليلتقط ما علق بثيابه من نثار الطباشير الندى والطحلب .. ثم تقبل قطة امه التى لا تخاف منه ، وتتمطى أمامه ، وتسير هنا وهناك ، وتقفز على السور ، ثم تمشى على ساق «كادلز» وترتفع فوق جسمه الى ان تصل الى كتفيه ، وتهبط ثم تعتلى كتفه مرة اخرى .. وبعد ذلك تداعبه بغرس اظافرها فى وجهه ، ولكنه لا يفكر فى ان يؤذيها لانه يدرك مدى بطش يده الثقيلة بهذا الحيوان الصغير الضعيف، فضلا عن انه كان يحب هذه المداعبات من جانب القطة ، وأحيانا كان يسأل أمه قائلا :

ـ اذا كان العمل أمرا ينفع الانسان .. فلماذا يتخلف عنه كثير من الناس ؟ .. ولماذا لايعملون جميعهم ؟

فتجيبه امه قائلة :

ـ ان العمل أجدى لامثالنا نحن يابنى ..

وبعد تفكير قصير يعود فيسألها :

ـ لماذا ؟ ..

وحين لا يقتنع بما تجيبه به يعود فيسألها :

ـ ولكن يا أماه .. لماذا يعمل الانسان .. اقطع انا الطباشير وتغسلين أنت الملابس .. بينما نرى السيدة «وندرشوت» تستمتع بركوب عربتها الفاخرة ، وبالسفر الى الخارج حيث الجمال .. وهو ما نحن منه محرومون ؟! ..

ـ انها تفعل ذلك لانها من عليه القوم ..

ويغرق الفتى فى التفكير ، ولا يجد ما يقوله سوى :

ـ آ .. ه ! ..

فتقول له أمه :

ـ من أين يحصل الفقراء امثالنا على الطعام اذا لم يكن هناك أشراف وسادة نقوم بخدمتهم ؟

وكان حريا بالفتى ان يغرق فى تفكير اعمق لهذا الذى سمع ، فعاد يسألها :

ـ واذا افترضنا يا أماه عدم وجود سادة وأثرياء .. هل نملك نحن وأمثالنا تلك الثروات .. واذا صارت ملك يميننا ..

وراح الفتى يحدق فى أمه وهو يقول :

ـ ما علينا .. لا أريد ان اثقل عليك او اضايقك .. ثم يستأنف التفكير ..

***

ومرت سنوات ، وقضت السيدة «وندرشوت» نحبها

فقيرة معدمة ، بسبب الغاب الكبير الذى نما فى حديقتها لانهـا لم تكن تعنى بأصـول فن الفـلاحة ، فكل ما كان يهمها هو أن تنمو النباتات وفق هواها .. بيد ان الحال التى نمت عليها كافة الاشياء فى أخـريات أيامها كانت غريبة ومفاجئة ، فبلبلت افكار السيدة . ثم انها شعرت بالكراهية للفتى الضخم « كادلز » وأخذت تضيق بكثرة تردده على القصر ، حتى لقد جال بخاطرها انه يتطلـع اليها دائما من فوق السور لشر يضـمره . وكان ابغض شىء الى نفسها ان تراه اكثر علوا من قصرهـا ، فكانت ترى فى ذلك خروجـا على ما ينبغى ان يكون .. الا ما اتعس تلك السيدة وما اشـقاها بأفكارها .. كان المأمول أن تعمر طويلا ، ولكن الخنافس الضخمة دأبت على مضايقتها سنة بأكملها ، فقلبت حياتها رأسـا على عقب .. حين برزت لها من خلال العشب فى حجم الجرذان الضخمة الجبارة ..

وحلت الطامة الكبرى حين ظهر لها ذلك النمل الضخم الذى راح يأتى على كل ما يقابله .. فلما وجدت السيدة ان الطمأنينة ولت وحل القلق والفزع محلها ، وأن السلام والهدوء اللذين كانت تنعم بهما وفى ظلهما فى قصرها قد أدبرا ، عقدت العزم على الرحيل الى مونت كارلو ، ونفذت عزمها ورحلت

وتتناقل الاحاديث انها قضت ردحا من الزمن فى رغد وهناء فى مقرها الجديد ، ثم وافتها منيتها فى احد الفنادق بخاتمة يرثى لها .. وهى بعيدة عن وطنهـا .. وعلى صورة لا تتفق مع مكانتها ، تلك التى نبتت من سـلالة عظيمة الشأن .. فتموت كما يموت المشردون فى بقـاع الدنيا .. !

ثم مات القس ودفن فى مقبرة تشـــيزنبج آيبريت الى جوار شجرة السرو الضخمة ، واقيم على قبره شاهد . بيد انه سرعان ما اختفى القبر والشـــاهد عن العيون ، فقد نمت حوله الحشائش الضخمة التى استعصى عـــلى المناجل قطعها واستئصالها ، والتى لم تصلح لتكون طعاما للاغنام ، فأخذت تزحف من الوادى على القرية

وهكذا كان الغذاء السحرى ينتشر ويسرى فى كل مكان



الفصل السادس :

السجين الطليق !



السجين الطليق

ومع عجلة الزمن كان العالم يتطور ، واستمر تطوره تدريجا مدة عشرين عاما ، فلم يلحظ النـاس أو يذهلهم ذلك التبدل المدهش لانه لم يكن فجائيا بل تدريجا كمـا ذكرنا .. بيد انه تبين لشخص واحد فى مدى هذه السنين العشرين أثر الغذاء السحرى ، إستبان له فجأة فأذهله وكاد يذهب بلبه !

كان هذا الشخص قد وقع تحت طائلة القانون ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة .. بيد إن القانون أجاز العفو عنه بعد أن قضى عشرين عاما فى السجن . وكان قد دخله وهو فى مقتبل العمر ، اذ كانت سنه وقتئذ ثلاثة وعشرين عاما . وخرج الى الحياة والحرية وعالم الكدح صباح يوم اشرقت شمسه ، فخلعوا عنه ثياب السـجن وألبسوه ثيابا كان قد نسيها ولم يتعودها ، وكان قد بدأ يهـذب شعره ويصففه بعد أن تركه ينمو . ثم وقف هذا الشخص على عتبة الحياة من جديد بجسم جديد وخلق جـديد وعقل جديد ، وراح يتلفت زائغ البصر خافق القلب والروح كأنه لا يصدق أنه عاد الى الحرية . ولم يكن ليستطيع ادراك ما حدث فى العالم من تطور خارق . وذهب ليرى أخا له كان قد خلفه غلاما حين دخل السجن ، فوجده قد اكتملت رجولته ، كما وجد انه شق طريقه فى الحياة قدما ، وبدت له عينا أخيه غريبتين تختلفان عما كانتا عليه من قبل . وأخذ الاخوان طريقهما الى «دوفر» ، لا يتحدثان

الا لماما ، ولكن خواطر كثيرة كانت تخالج نفسيهما

وقضى الاخوان ســـاعة ، او بعض ساعة ، فى احد المشارب يتذاكران الماضي ويتساءلان ويتجاذبان اطـراف الحديث فى كل شأن وأمر ·· ثم حان موعد العودة فركبا القطار عائدين الى لندن ..

بيد أن الذى يهم الآن انما هو ما وجده ذلك الشخص من جـــديد فى الدنيا بعد ان عاد اليها وما طرأ عليها من تطور وتبدل

ومرق القطار فى نفق ثم برز من الناحية الاخرى الى شبكة للسكك الحديدية معتمة ذات سقوف ، فأضـيئت انوار القطار الذى اخترق بعد ذلك اجمة تشابك فيهـا النبات الذى زحف اليهـا من احدى الحـدائق المجاورة ثم نما نموا هائلا . ورأى الاخوان فى هـذه البقعة كثيرا من عربات النقل تنوء تحت ثقل ما تحمله من كتل خشبية ضخمة .. وفى ذلك المكان ســمع السجين الذى اطلق سراحه لاول مرة انباء الغذاء السحرى

وراح الاخوان يعللان ويفسران مشاهداتهما ، واثقـل السجين الطليق على اخيه بأسئلة متوالية غريبة .. ولم يكن الاخ يتوقع منه ذلك ، ولذا كانت اجاباته مشــوبة بالغموض ، لا يفهم منها سامعها شيئا ، وسأله السـجين الطليق سؤالا حيره ، فأجاب بعد تفكير عميق :

ـ انه الغذاء السحرى .. الم يبلغك نبـأه ؟ .. الم يتحدث اليك احد عنه ؟ .. نعم يا أخى الغذاء السحرى .. وهو المحور الذى تدور حوله رحى الانتخابات الآن .. انه كشف علمى لعناصر غذائية ..

وتبـــادر الى ذهن الاخ ان عقل اخيه قد تبلد لطول

المدة التى قضاها بالسجن ، فاضحى عاجزا عن معرفة أو ادراك الغذاء السحرى ..

وتواترت بينهما الاسئلة والاجوبة .. وفى خلال ذلك كانا ينظران الى النوافذ ، وكان اهتمام السجين الطليق بما رأى اهتماما محدودا فى مبدأ الامر ، ذلك لان افكاره كانت تنحصر فيما سيقوله له هذا ، وكيف سيرى ذاك وبما سيحدثهم هو به ، ولم يفكر فى امر الغذاء السحرى الا تفكيرا عابرا .. وتشعب الحديث بينهما وتناول شتى النواحى ، الا أن موضوع الغذاء السحرى حظى بأوفر قسط من حديثهما

واجتذب نظر الاخوين ذلك المجرى المائى الكبير عند تنبردج ، حيث تكون مستنقع واسع الرقعة نما فيه نبات ضخم من نوع جديد ، ورأيا بعد ذلك الريف الهزيل ..

وأخيرا لاحت لهما لندن وقد خيم فوقها الضباب ،حيث تنوعت الوسائل التى اريد بها القضاء على آثار النمو الهائل والضخامة المروعة

وكان الغذاء السحرى قد اخذ ينتشر بصورة مفزعة فى احياء كثيرة من لندن ، وبخاصة فى البقعة التى يقوم فيها منزل « كوسار » وإطفاله .. وكانت الحياة تسير رتيبة مألوفة ، ولكن الرجل الذى خرج الى الحياة والحرية راى للمرة الاولى الآثار العجيبة لذلك الغذاء السحرى ، وما اقتضته من استعدادات هائلة لمقاومة النمو الخارق للكائنات والنبات ، ورأى أماكن محترقة حالكة السواد ، ومراكز للمقاومة ألف الناس رؤيتها

رأى الاخوان عديدا من المآسى كالتى سبق ان حدثت فى المزرعة .. وقد لاحت بوادر القوة فى مبدأ الامر فى الاشياء العابرة الصغيرة ، عن كثب من الناس وبين

طيرانيهم ، ثم فى الخرائب المقفرة فى صور شتى وظواهر مختلفة .. فمن أفنية تنبعث منهـــا روائح كريهة الى اعشاب هائلة الضخامة كانت تستـــخدم وقـــودا للآلات الثقيـــلة . ومن الاســـتعدادات ، أنشئت الطرق وعبدت لمرور العـــربات والســـيارات ، وأقيمت ابراج زودت بصفارات منذرة لتحذير الناس من الحشرات الضـــخمة الجبارة بمجرد ظهورها ، ووضعت أبواق فى ابراج الكنائس لنفس الفرض ، واقيمت أكشاك كثـــيرة فى أماكن مختلفة وطليت باللون الاحمر ، ضمت فرقا وحاميات مسلحة .. وتدرب الناس على اصابة الاهداف لمقـــاومة الجـــرذان الضـــخمة ، لان تلك الجرذان ظهرت عدة مرات فى لنـــدن بعد ان ظهرت فى المزرعة

وحدث ان اشترى شـــقيق السجين الطليق ــ وكان ذلك بطريق الصدفة ــ نسخة من احـــدى الصحف ، فأخذها أخوه من يده وكان قد قضى ســـنوات السجن الطويلة لم يقرأ فيها صحيفة ، فبدت له مختلفة عن سابق العهد بها ، كما وجدها تحفل بكثير من الصور الغريبة ، وبدت له كأنها كتبت بلغة لايعرفها .. وفى هذه اللحظـــة جذبه أخوه من يده وأشار الى النافذة ، وقال :

ــ هؤلاء هم ابناء « كوسار » ..

وحين وقعت عينا السجين الطليق على الاولاد صـــاح مذهولا :

ــ رباه !...

ثم سقطت الصحيفة من يده لذهوله ، وانسته الدهشة امرها ، ومن خلال الاشجار راى فى وضوح ساقين هائلتين متباعدتين ، ويدا ضخمة تقبض على كرة كبيرة ، وشخصا ماردا يبلغ ارتفـــاع قامته أربعين قدما أو يزيد وبريقه

يتألق فى ضوء الشمس بالحلة التى يرتديها ، المصنوعة من نسيج من الخيوط المعدنية البيضاء وقد تمنطق بحزام عريض من الصلب . ورأى السجين الطليق عن كثب من هذا المارد ماردا آخر يتحفز لتلقى الكرة من الاول

وكان «كوسار» قدأقام لابنائه بيتا كبيرا يتسع لضخامتهم، فى حفرة الطباشير ، ثم سورها بسور ضخم .. وأقام خلف البيت مظلة هائلة معتمة ، كان المرء يلمح فيها أضواء وهاجة ،وتتناهى الى الاسماع منها أصوات المطارق الكبيرة

ولاحت من عينى السجين الطليق نظرة الى الكرة التى بيد المارد فرآها من خشب ثقيل ، تلتف حولها سيور من الحديد ، ثم أبصر المارد وهو يقذفها فى خفة فتطير فى الهواء كأنها ريشة خفيفة

وراح الاخوان يحملقان فى دهشة بالغة ووجل ،وتراءت لهما الكرة وكأنها فيل مكور هائل . وقال السجين الطليق لاخيه حين حجبت قاذف الكرة عن عينيه احدى الاشجار:

ــ لقد أمسك بها !

مرق القطار أمام هذه الرؤى كلها فى لحظات خاطفة ، ثم خلفها وراءه مارا بالاشجار الى نفق «تشيرلهرست »

وعاد السجين الطليق يقول لاخيه وقد لفهما ظلام مطبق :

ــ يا الهى ... ان هذا المارد اكثر ارتفاعا من اى بيت ! ..

فأجابه أخوه وهو يحرك رأسه حركة ذات مغزى :

ــ هؤلاء هم ابناء « كوسار » .. انهم مصدر لكثير من القلق والمتاعب

حركات مريبة

شب الغلمان عن الطوق ، وكبروا حتى أضحوا رجالا أو على ابواب الرجولة ، واشتدت عليهم وطأة الحال التى اصبحوا عليها ، والتى كانت تزداد شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، اذ راحت اجسامهم تتضخم وعقولهم تنمو

وازداد انتشار الغذاء السحرى على نطاق واسع وراحت الاحداث المروعة تترى فى اثر بعضها فعمت المتاعب وتعددت المشاكل ، وقد كان الغذاء فى البداية محصورا فى نطاق ضيق محدود ، فلكان الناس يدهشون اذا سمعوا به او رأوا أثرا من آثاره ، ولكنه اصبح الان فى متناول كل فرد ، واخذ يتهدد الكيان الاجتماعى بانقلاب شامل .. بل لقد حدث ذلك فعلا ، اذ تمخض عن احداث بالغة الخطورة ، فبسببه تأثر الانتاج وتغير ... وبسببه ابعد افواج من الناس عن اعمالهم ، ولم يقتصر الغذاء السحرى على الوطن الذى اكتشف فيه ، بل تعداه الى الدول الاخرى فأحدث انقلابا فى التجارة العالمية .. فلا غرو اذن اذا اعتبره الناس شيئا بغيضا

وذات يوم جلس ابناء « كوسار » يفكرون فيما يتلهون به من اعمال تافهة ، ويتجاذبون أطراف الحديث فى شتى الموضوعات والامور .. وقد تخطوا مرحلة الشباب وارتقوا درج الرجولة .. وأدبر النهار وكانوا قد قضوه فى حفر احد الخنادق التى كلفهم « كوسار » بحفرها ، ومالت الشمس الى الغروب ، فراحوا يلتمسون بعض الراحة فى حديقة بيتهم الكبير يتأملون السكون ، وهم ينتظرون الطعام الذى يعده لهم الخدم الصغار العاديون

وانه لمنظر فريد أن ترى ابناء « كوسار » وقد بلغ طول

كل منهم أربعين قدما ، حين تمددوا على أرض يغطيها كلأ أعواده فى طول أعواد الغاب الكبيرة ، ثم نهض أحدهم من رقدته وراح ينظف حـذاءه من الطين الذى علق به بقطعة ضخمة من الحديد ، بينما استند الثانى على مرفقه ، واخذ الثالث يعبث بجذع شجرة من أشـجار الصنوبر فتشيع رائحة الخشب فى الهـواء .. وكانوا يرتدون قمصانا مصنوعة من الحبال ، وأردية منسوجة من أسلاك من معدن الالومنيوم ، أما أحذيتهم فكانت من الخشـب المقوى بالحديد ، ويحبكون ثيابهم بأزرار من الصلب المجدول ، ومنه أيضا كانت مناطقهم

ومن الطبيعى أن يكون البيت الذى بنى خصيصا لهم ضخما متين البناء ، وبديهى أنه كان مكونا من طابق واحد ، جزء منه محفور فى صخور الطباشير والجزء الآخر شيد من كتل ضخمة من الحجر الصلد .. وكان ارتفـاع واجهته يزيد على مائة قدم ، وعن كثب منـه المكان الذى يعملون فيه وقد زخر بالمداخن والعجلات ورافعات الاثقال والمظلات العالية . وبالبيت نافذة يمكن منها رؤية ماسورة يتساقط منها حديد مصهور فى اناء كبير . وحول المكان كله قامت أسوار شامخة من التراب والحديد ، تمتد على مرمى النظر من أقاصى التلال الى بطن الوادى ، وهو فى جملته مستعمرة هائلة كأنها مدينة شاسعة مما يتسـع لسكنى آلاف من الناس العاديين

وقال احدهم :

ـ ترى ماذا دهى صاحبنا « ردوود » ؟

فقال الاخ الاكبر :

ـ ماذا عساه أن يكون دهاه ؟ !

فتشاغل الاول بانتزاع غصن من شــــجرة الصنوبر وقال :

ـ كان يبدو كالحالم .. وخيل الى أنه سرح بأفكاره فلم يع ما كنت أقول .. وسمعته يتحدث عن الحب !

وعندئذ ضرب الاخ الاصغر نعل حذائه الحــــديدى بمنطقته وقال :

ـ أؤكد أن صديقنا « ردوود » حالم فى دنيا أخرى ..

وساد الصمت بين الجميع ، ثم قطعــه الاخ الاكبــر قائــلا :

ـ لعمرى لقد ضقت ذرعا بحالنا ، وبما نحن فيه من تلك القيود التى يفرضونها علينا والتى تزداد حدة يوما بعد يوم .. وانه ليخيل الى أنهم لن يجعلونا نخطو خطوة الا وفق مشيئتهم !

ثم أزاح بعض أغصان الصنوبر ، واعتدل وقال :

ـ على ان هذه القيود لا تذكر الى جانب ما سـيكون اذا ولى « كتبر هام » زمام الامور ..

فقال الاخ الاصغر بلهفة ، وهو يضرب الارض بمنطقته :

ـ ماذا تقول ؟ ! ..

فأحنى الاخ الاكبر رأســـه الى الارض ، وتطلع الى قدميه ، وقال :

ـ ولا اشك فى أنه سيلقى القبض علينا ..

وكان الاخ الاوسط قد فرغ من تقطيع الاغصان ، فأخذ يجول بنظره حول الاسوار العالية ثم قال :

ـ اذن فقد ولى عهد الشباب كما قال الاب «ردوود» منذ عهد بعيد .. واننا بسبيل عهد الرجولة ..

فقال الاخ الاكبر :

ــ تماما .. ولكن هل تعلمان حقا ما يعنيه ذلك .. متى حان يوم الشقاء ؟ ..

ثم سرح بنظره الى الاسوار العاليــة ، ولكن نظره لم يكن مصوبا اليها بالذات ، بل كان ينفذ خلالها الى ماوراء التلال ــ من فوقها ــ الى جموع الناس . وكانت الافكار التى تجول بذهنه تجول بذهنى أخويه ، فارتسم أمام انظارهم أولئك الناس الصفار العاديون وهم يسعون لقتالهم فى اندفاع وفى غير هوادة كالبحر الغاضب ..

وقال الاخ الاصفر :

ــ انهم صفار عاديون .. ولكن عددهم لا يحصى . وفضلا عن ذلك فان أذرعهم مفتولة ، ويحملون اسلحة ولا يغيبن عن بالكما اننا لم نتمرس على القتــال ، اذا استثنينا ما فتكنا به من الحشرات وما قتلناه مصادفة من الكائنات الاخرى الخبيثة ..

فقال الاخ الاكبر :

ــ كل هذا معلوم .. ولكنكما تعرفان حق المعرفة من نحن .. واننا اذا تعقــدت الامور فاننا واثقــون من مقدرتنا .. مدركون ما يتحتم علينا عمله لصد العدوان ..

قال ذلك ثم طوى سكينه بعنف ، السكين الذى يزيد طول نصله عن قامة الرجل ، ثم نهض متكئا على جــذع شجرة اتخذ منه عصا ، وتطلع الى بيتهم الــكبير .. وانعكست اشعة الشمس الحمراء على ردائه المعدنى وعلى الازرار التى حول عنقه ، ثم على ذراعيه المكتسيين بنسيج معدنى لامع ، فاصطبغ كل ذلك باللون الاحمر القانى .. وخيل الى أخيه ان الدم يقطر من جسمه فجأة

ولمح هذا المارد الجبار شبحا صغيرا قاتم اللون على ضوء أشعة الشمس الغاربة فى ناحية من السور المشرف على التل ، وكان الشبح يتحرك حركات مريبة ، مما أهاب بالمارد ان يدرك أن السرعة أوجب وأجدى من أى شىء ، ولوح بعصاه الضخمة الى الشبح الاسود ردا على حركاته . ثم صرخ صرخة مدوية رددت جنبات الوادى اصداءها ، وقال لاخويه بسرعة :

ـ هناك أمر ما ..

ثم اتجه نحو ابيه فى خطى واسعة يبلغ طول الواحدة منها عشرين قدما ، ليساعده ..

شبح فى التل

فى الوقت الذى كان فيه أبناء « كوسار » المردة يتحدثون الى بعضهم البعض ، وقد لمح أحدهم شبحا عند سفح التل .. كان هذا الشبح شابا صغيرا عاديا يجتاز التل ويتحدث الى صديق معه ، وينهى اليه بما يستشعره من مقت وكراهية نحو ابناء « كوسار » .. وقد سمعا تلك الصرخة المدوية التى اطلقها أحد الاخوة المردة ، وكانا يأتيان عملا انسانيا نبيلا اذ أنقذوا ثلاثة افراخ من العصافير ـ كانت فى عشها ـ من نملتين كبيرتين دهمتا الافراخ لتفتكا بها . ولمح الشاب البقعة التى اتخذ منها أبناء « كوسار » مقاما ومكانا لاعمالهم ، فقال :

ـ ايتشدقون بالتخلف ؟ .. منذا يستنكف أن يكون متخلفا فى الظروف الحاضرة فى ايامنا هذه ؟ .. انظر الى هذا المكان وقد كان من قبل هادئا مزدهرا ، فاذا به وقد شوه وقلب راسا على عقب .. وانظر الى هذه المظلات

العالية ، والى تلك الآلة البشعة وعجلتها الضخمة ، والى الاسوار الكبيرة .. ثم انظر الى هؤلاء الجبابرة الذين جلسوا يفكرون ولا شك فى ضروب الشر .. انظر كيف تحولت البساتين الخضراء الى ارض قاحلة جرداء ..

فحدق فيه صديقه ثم قال :

ـ لعلك استمعت الى ما قاله « كترهام » ..

ـ بل رايت بعينى .. كنت افكر فى السلام والنظام والطمأنينة التى كانت تسود العالم ، فاذا بها الان أثر بعد عين ... لقد سلط علينا الشيطان سلاحامن أسلحته الخبيثة فى صورة الغذاء السحرى ، وهو بهذا يسعى الى دمار العالم .. نظرة الى أحقاب الزمن ، قبل أن نولد وبعد أن ولدتنا أمهاتنا .. ثم الان وقد شببنا ، كيف كان الوادى يتيه عجبا بأعواد القمح وهى تتمايل فيه بسنابلها الذهبية .. وهنا وهناك تنتشر الازاهير الزاهية الالوان .. وبيوت المزارعين جاثمة فى وداعة ينعم أهلها بهناء العيش .. ويصل اليها رنين أجراس الكنائس من ابراجها ، فيذكر أصحابها بعظمة الخالق وبديع صنعه .. فاذا بها تتحول الى مرتع للاعشاب الضخمة والحشرات المخيفة تنمو وتتكاثر وتشكل خطرا يتهددنا فى كل وقت .. ما قولك فى ذلك ؟

ثم أشار ببنانه فتطلع صديقه الى حيث أشار،واردف يقول :

ـ انظر الى آثار أقدامهم .. لقد غاضت قدم أحدهم فى الارض فأحدثت حفرة عميقة يتعثر فيها جواد وراكبه كأنها شرك للايقاع بالآمن اذا لم يتنبه اليها .. لقد تغيرت معالم المكان ، فقد اقتلعت الاشجار واتلفت الطرق وحل الدمار .. انظر الى الحضارة كيف تتقوض وتنهار ،والى

الجمال كيف يمسخ ويشوه ، والى النظام وقد انقلب الى فوضى .. كل ذلك بسبب هؤلاء الجبابرة ، فهم يأتون على كل شيء .. ومع ذلك تتشدق بأسلوبك التهكمى ، وتأخذ علينا ما تسميه بالتخلف ؟ ! ..

ـ خبرنى يا صديقى .. ماذا فى مقدوركم ان تفعلوه ؟

فقال الشاب المثقف :

ـ سنقضى على جذور الشر قبل أن تستشرى ويستفحل امرها .. !

ـ ولـكن .. !

فقاطعه الشاب المثقف بصوت عال :

ـ ليس هذا بالامر المستحيل .. اننا بحاجة الى ثلاثة اشياء ، يد قوية باطشة ، وعقل مفكر كبير ، وعزيمة ماضية لا تعرف الكلل .. لقد عمدنا حتى الآن الى التراخى ، نعالج الامور بحلول مبتورة .. وكان الفداء السحرى اثناء ذلك يزداد انتشارا ، بيد أننا حتى فى هذا الوقت ..

وتوقف عن الكلام برهة ، ثم قال :

ـ ان غالبية الشعب تؤازرنا ، وقد تضاعف عدد مؤيدينا عن ذى قبل .. والقانون لا يقف فى وجهنا ، وكذلك الدستور والرأى العام وتعاليم الدين وتقاليد الانسانية .. كلها تتفق وصراعنا ضد هذا الفداء .. فلماذا نتهاون ونتباطأ ؟ ولماذا نخدع أنفسنا ؟ .. اننا نمقته ، فلماذا نترك له الحبل على الغارب .. هل تنتظر منا أن نرضخ ونستضعف ونقف مكتوفى الايدى ، ونكتفى بالشكوى التى لا تجدى فتيلا ؟ ! ..

وسكت مرة أخرى ، وتطلع الى بعيد ، ثم استطرد يقول :

ـ انظر الى تلك الاجمة البعيدة حيث يوجد القراص.. لقد هجر سكانها بيوتهم القائمة فيها بعد أن كانوا ينعمون برغد العيش وهناءته فى دعة واطمئنان ..

ثم تحول واشار الى حيث أبناء « كوســـار » وهم يتشاكون ما ينوءون تحت وطأته من ظلم ، وقال :

ـ وهناك .. انظر الى هؤلاء .. اننى أعــرف أباهم ذلك الآدمى وما هو بآدمى ـ صاحب الصوت المجلجل ـ لقد ركبه الشيطان مدى ثلاثين عاما فظل ينشر فى العالم شروره .. انه لا يستحق رحمة ولا شفقة ، وهو مهندس ولكنه يضرب بكل المعايير الانسانية عرض الحائط ، ولا يقيم وزنا لكل ما هو مقدس وعزيز ، ويستهين بتقاليدنا العريقة التى هى اساس عظمتنـــا .. انه لايستنكف عن اقتراف أى عمل وضيع اذا أوحى اليه خياله المريض أن من ورائه نفعا له .. فهل مع كل هذا تريد أن نتهاون ونتراخى ، وأن نلجأ الى الطرق السلمية ونتبعها .. انها آمال مضيعة تلك التى تشير بها ، فمثلك مثل الهرة تريد أن نهادن وان تتحالف مع أسد .. انهم يسعون الى الدمار ونحن نبتغى العمران .. فاما هذا واما ذاك ، وليس هناك حل وسط ..

ـ ولكن ما الذى بوسعك أن تفعل ؟

ـ الكثير يا صاحبى .. بل أكثر من الكثير .. علينــا ان نقضى على هذا الفذاء اللعين قضاء مبرما لا هــوادة فيه .. ان عدد الجبابرة لا يزال ضئيلا ، وهم أيضــا متفرقون ، ولم يبلغوا نهاية اكتمالهم ، وليست لهم جبهة قوية يخشى من بطشها .. فعلينا أن نضيق عليهم الخناق ، ونشل نشاطهم بالاغلال ، ونكتم انفاسهم ونطهر العــالم منهم .. فهو لا يتسع لهم ولنا . علينا أن نعدم الفــذاء

ونعاقب من يصنعونه ونسجنهم .. ولنحل بين «كوسار» وبين صنعه .. ان الامر لا يعدو أن يكون قضاء على جيل ، نستريح منه بعد ذلك .. فاذا كتب لنا التوفيق أعدنا كل شيء الى سابق حاله ، وهدمنا بيوتهم الشامخة ، ومهدنا الارض التى أفسدتها أقدامهم الثقيلة .. فنستريح بعد ذلك من صفارات التحذير المزعجة ومن المدافع الضخمة .. ونوجه جهودنا من جديد نحو السلام والنظام ونسير قدما بمدنيتنا العريقة التى هيئت لها النفوس ..

ـ ذلك جهد جد مرهق ! ..

ـ ولكنه يبذل لغاية نبيلة عظيمة .. واذا تخاذلنا ، أليس واضحا أن عدد الجبابرة يتضاعف ، وان الغذاء السحرى اللعين يزداد انتشارا .. وسينمو النبات فى حقولنا وحدائقنا وتنمو الحشرات فى الآجام والمزارع والجرذان فى مجارى البيوت حتى يشتد خطرها ويصل عددها الى حد لا تكون لنا فيه حيلة .. هل تدرك أن باستطاعة السمك حين ينمو ويتضخم أن يغرق سفننا فى البحار .. كما يتسلق النبات بيوتنا ويخنقنا ، وبذا نصبح نحن الى جانبها كائنات ضئيلة تطؤها أقدام الجبابرة وتفتك بها الجرذان الضخمة .. وفى ذلك القضاء على الانسانية .. ماذا يفيد العالم بعد ذلك ؟ ! وماذا تجدى شكوانا اذا لم نفعل شيئا حاسما ؟ ! ..

ورفع الشاب يده الى أعلى ثم قال :

ـ فليفعلوا ما يفعلون .. وسأفعل انا ما أراه واجبا .. اننى من انصار التخلف ، ولكنه تخلف جرىء لا يخشى شيئا أو بطشا .. فاذا لم تكن ممن يريدون هذا الغذاء فأنت اذن متخلف .. لقد ضيعنا وقتا طويلا فى علاج الامر بالجدل واللسان والحلول المتراخية .. انك على

هذا المذهب ، اما انا فلا .. سأعلن الحرب ضروسا على ذلك الفداء .. حربا لا هوادة فيها .. بكل مافى طاقتى من قوة وجهد وعزيمة ..

وهنا قطب صديقه جبينه محنقـــا ، فالتفت اليـــه وقال :

ــ والآن .. ماذا أنت فاعل ؟

فقال صاحبه :

ــ أرى فى ذلك عملا مرهقا ومعقدا ..

فانتفض الشاب المثقف ، واضطربت اطرافه ، وقال فى حنق :

ــ أهذه عزيمتك ؟ .. تترك الامور وشأنها .. تسير كما تسير .. ان الطريقين واضحان .. طريق الحكمــة والحزم ، وطريق الضلال والتخاذل . وأوساط الحلول وانصافها ليس لها فى هذا الشأن مجــال . وليس من ورائها فائدة ترجى .. فاما أن نتناول ذلك الفـــداء السحرى ونصبح مردة جبابرة .. واما آن نقضى عليهو نفنيه .. ولا شيء غير هذين .. !



الفصل السابع :

الأميرة الجبارة !



الأميرة الجبارة

حدث أثناء الحملة التى قام بها « كتزهام » لمناهضة الاطفال الجبابرة ـ وكان ذلك قبيل الانتخابات التى كان المفروض أن يتولى بعدها زمام الحكم فى وقت اضطربت فيه الاحوال والامور ـ حدث أن حضرت أميرة جبارة من بلدها الى انجلترا لاسباب قيل انها جد خطيرة . ومما هو جدير بالذكر ، التنويه عن المكانة التى ارتفع اليها «ونكلز» بسبب تغذية هذه الاميرة فبزغ نجمه وتألق ..

وخطبت الاميرة الجبارة لاحد أمراء انجلترا ، وكان الباعث على تلك الخطبة اسبابا سياسية ، ورتبت الامور لكى يكون حفل الزفاف حدثا بالغ الروعة يردد العالم انباءه .. بيد ان اسبابا خفية لم تعلم كانت سببا فى تأجيل هذا الزفاف ، ونشطت الشائعات والتكهنات فى قصة هذا الزواج ، من بينها ان الامير لم تكن له رغبة فى اتمامه ، وانه راح يصرح بانه لا يقبل أن يكون أداة لتنفيذ اغراض معينة لا تمت الى الزواج بصلة ، وانه اكتسب عطف الناس حين صرح بذلك

وحين نزحت الاميرة الجبارة الى انجلترا ، لم تكن تعلم ان بها جبابرة مثلها .. وقد يكون ذلك مبعث دهشة ، ولكنه الحقيقة التى لا شك فيها .. ويرجع ذلك الى الوسط المحتشم الذى كانت تعيش الاميرة فى محيطه ، والذى يسير فيه كل شىء وفقا للتقاليد ، فقد حرص المحيطون بها

على اخفاء انباء الجبابرة عنها ، وكان الحـرص أشد كي لا ترى احدا منهم او أن يجول بذهنها في يوم من الايام أن في الدنيا أحدا من الجبابرة غيرها .. وكانت الاميرة على تلك الحال حين التقت بـ « ردوود » الابن

وكان لدى الاميرة في بلادها الكثير من الحدائق المزهرة الواسعة والتلال والفلوات ، تستطيع أن تستمتع فيها بحرية التنزه .. خصوصا وانه كان يستهويها جمال منظر الشمس عند شروقها وعند غروبها ، كذلك رؤية النجوم وهي تتلألأ في قبة السماء . وكانت هذه المناظر الطبيعية تفتنهـا اكثر من اى شيء عداها في هذه الدنيا ، فما أن وطئت قدماها ارض انجلترا ، واقامت بين اهلها — وهم المستمسكون بديمقراطيتهم ، المعتزون بتقاليدهم — حتى شعرت بأنها في جو متزمت ، فقد حسبت عليها حركاتها، وضاقت ذرعا بتضييق الخناق عليها ، وبالحد من حريتها ، الامر الذى فرض عليها فرضا .. اذ توافـد الناس من شتى المدن ليروا الاميرة الجبارة ، فصار لزاما عليهـا اذا رغبت في نزهة سيرا على الاقدام ، أن تستيقظ في ساعة مبكرة ، قبل ان يهجر الناس مضاجعهم وبيوتهم ويسعون الى اعمالهم .. وكانت رؤية « ردوود » لها — لاول مرة — وقت الفجر ذات يوم

وكانت حديقة القصر الذى جعل لضيافتهـا مترامية الاطراف ، حتى أنها كانت تمتد الى مدى عشرين ميلا ، وخيل الى الاميرة ان ازهار اشجار البلوط القائمة على جانبي الطريق والتي تعلو في ارتفاعها عن قامتها .. خيل اليها أن ازهارها كانت تتفتـح كلما مـرت بها ، ودام استمتاعها بمنظرها واستنشاقها لعبيرها وقتا طـويلا ، فلما استهوتها الازهار اخذت تقطف أينعها كلما مرت بها

.. ولم تر الاميرة « ردوود » الا بعد ان صار على قيد خطوات منهـــا

كانت الاميرة تسير على مهل تحت ظلال الاشجار دون أن يخطر على بالها ما يخبئه لها القدر بوقوع ذلك الشاب فى حبها ، وهو يقترب منها .. وقد راحت تتسلى بانتزاع بعض الاغصان او ضمها الى بعضها ، وهى تظن أن أحدا لا يراها أو يرقبها

بيد ان التفاتة حانت منها .. فاذا بالعيون تتقابل .. ولم يذهل الفتى للمفاجاة .. وأن كان العطف عـلى هذه الفتاة من جانبنا عسيرا بالنسبة لضخامتها ، ولكن الامر عند الفتى كان على العكس من ذلك ، فقد بدت له فى رشاقة غصن البان باهرة الحسن والجمال .. فهى انسب زوجـة تصلح له . وفى الحق انها كانت خفيفة الروح ، فارعة القوام ، ترتدى ثيابا هفهافة يداعبها نسيم الصباح فينزاح طرفه عن جسدها البض ، وكان بيـدها بعض أغصان البلوط المزهرة ... وكشف طوق قميصها الواسع عن جيـد ناصع البياض وكتف بض .. وعبث النسـيم بشعرها ، فانحدرت منه خصلة ذهبية على خدها الوردى ، وكانت عيناها صافيتين فى زرقة السماء . واستمرت الاميرة فى سيرها بين الاغصان ، لا تفارق ثغرها بسمة عذبة

وكانت رؤيتها له مباغتة ، ففزعت .. وراح الاثنـان ينظران الى بعضهما البعض لحظة .. وكانت لدهشـتها تكاد لا تصدق عينيها ، ولفتها الحيرة فقد راعها منظره فى مبدا الأمر ، كأنها ترى أمامها شخصا مما تقـرأ عنـه فى الاساطير ، او شخصا هبط من عالم علوى ، اذ رأت أمامها شابا خارقا ، جبارا ، خارجا عن كل ناموس من نواميس الحياة

كان الشاب فى ذلك الحين لا يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، وسيما ، ممشوقا ، اكتسب عن أبيه سـمرة اللون والوقار ، يكتسى بثياب من الجلد النـاعم لصقت بجسـمه .،. وكان عـارى الراس على عادته . ووقف الاثنان يتخاطبان بلغة العيون .. هى ذاهلة تكاد لا تصدق ما تراه عيناها ، أما هو فقد راح قلبه يخفق فى دقـات متتالية ..

كانت لحظة هـذا اللقاء من اللحظات المفاجئة التى لم تسبقها مقدمات أو عمل لها ترتيب أو اعداد. . لحظة من لحظات الحياة الحاسمة التى لها أعمق الأثر فى المصائر

على أن « ردوود » كان اقل دهشة من الاميرة .. ذلك لأنه كان دائب البحث عن فتاة أحلامه ، وكانت دقات قلبه واضحة مسموعة ، فتقدم نحوها على مهل وعيناه تحدقان فى وجهها .. ثم خاطبها قائلا :

ـ انك الأميرة بعينها. . لقد انبأنى أبى بأمرك. . الأميرة التى اطعمت الغذاء السحرى ..

فأجابته فى دهشة وذهول :

ـ اننى الأميرة حقا .. ولكن .. من انت ؟!

ـ انا ؟ .. اننى ابن ذلك الذى صنع الغذاء السحرى ..

ـ ماذا .. الغذاء السحرى ؟!.. هل تعنى أن هنـاك آخرين .. وأن غذاء ..

فلما راى دهشتها قال بصوت مرتفع :

ـ هل انت خالية الذهن من ذلك .. الم تصل أنباؤنا الى سمعك .. انت يا من ضمك ذلك الغذاء الى اسرتنا !

ولم يزايلها الارتياع الذى كان واضحا كل الوضوح فى عينيها وهما تحملقان فيه .. وبحركة لا ارادية ارتفعت

يدها الى صدرها ثم هبطت ثانيا ، وقالت بصوت كالهمس:
ـ لا ..

وشعرت بأن لا بد لها أن تبكى ، والا صرعها الاغماء .. بيد انها تمالكت نفسها واعصابها وراحت تتحدث وتفكر تفكيرا سليما واضح الاثر ، فقالت :

ـ لقد احاطونى بسياج كثيف حتى لا يتسرب الى علمى شيء من ذلك .. اننى الآن كالحالمة .. نعم كالحالمة ، بل اننى اذكر انى حلمت بمثل ما ارى الآن واسمع .. واريد ان اسمع منك وانا فى دنيا اليقظة .. فحدثنى .. من انت؟ .. وماهذا الغذاء السحرى؟ .. حدثنى فى هوادة ووضوح .. رباه .. لماذا لم يقولوا لى انى لست فريدة فى هـــذه الدنيا ..

***

راح « ردوود » يحـدث الأميرة وهـو مرهف الحس مضطرب .. فكان حديثه متناثرا فى البداية ، عن الغذاء السحرى وعن الاطفال الجبابرة الذين كثر عددهم فى بقاع شتى من أنحاء العالم

وغنى عن القول ، أن من العسير أن يصف الانســان ظواهر عاطفة الحب الجـارف التى طغت عليهما ، وقد لاحت على كليهما الدهشة والحياء .. فكل منهما أدرك ما الم بالآخر من مشاعر بما كشفت عنه أقواله المتناثرة ، فالفتاة لا تسمع من كلامه ، ولا تعى منه الا بعضه ، وهو أيضا كان طغيان العاطفة عليه شـديدا ، فراح يتحـدث ويكرر ثم يعيد ما يقوله فى غير وعى حتى لقد راح يتحدث فى شتى المواضيع .. حديثا شائقا مس وترا حساسا من قلب الاميرة ، ونقلها من غياهب الجهل بأحوال العالم الى دنيا المعرفة

وعرفت أخيرا أنها ليست فريدة فيما هى فيه من حال، وانها ليست شاذة عن غيرها من المخلوقات ‥ بل انهـــا واحدة من جمع عديد اعضاؤه ينتشرون فى كثير من بقاع العالم ، اطعموا جميعا الغذاء السحرى فنموا ذلك النمو الهائل الذى اخرجهم من دائرة البشر الصغار العاديين الذين يعتبرون بالنسبة اليهم أقزاما ضئيلة

وتشعب حديث «ردوود» حتى تناول أباه و «كوسار» وتحدث عن الجبابرة المنتشرين فى كل مكان . وأطنب فى الحديث عن عهدهم الجـــديد المزدهر ، ذى الأثر العظيم الذى لاحت بوادره فى تطور العالم ، ثم قال :

ـ اننا لا زلنا فى فجر عهدنا ‥ فنحن لسنا سوى طليعة لعالم المستقبل ـ عالم الغذاء السحرى ـ وانى لاتفق فى الرأى مع أبى فى أن عالم الصغار مصيره الى انقراض ‥ وعنـــدما يحين ذلك الوقت ســيكون الجبــابرة احــرارا لا يضايقهم ولا يقتتل معهم احد .. ويقبلون على أعمالهم التى ســتكون ولا شــك جليلة وعظيمة ‥ وانى متفائل بالمستقبل الزاهر الذى ينتظر الجبابرة، فنحن انما وجدنا على سبيل التجارب الاولى لخلق جيل عظيم ‥
فقالت له الفتاة :

ـ لقد انهيت الى بتفاصيل كنت خالية الذهن منها..
واستطرد «ردوود» قائلا :

ـ يجول بذهنى أحيانا أننا وجدنا قبل الوقت المناسب .. وانا لا انكر ان وجودنا فى الطليعة لا يضيرنا .. ولكن العالم لم يهيــأ لهذا التطور ولظهور أى كائن أو اى شىء اكتسب ضخامته وعظمته من الغذاء السحرى ‥وقدحدثت مناوشات ومنازعات وكثير من الجدل ، اتضح لنا منها ان القوم الصغار يبغضوننا ويناهضوننا .. لا لشىء الا لأنهم

صغار ، ولان اقدامنا ثقيلة على مقومات معاشهم .. وهم يتمنون ان يقضوا علينا وأن يفنونا ، الا اذا عدنا صغارا مثلهم .. انهم يستشعرون السعادة فى بيوتهم التى هى فى نظرنا زنزانات سجون .. ان مدنهم لا تلائم ضخامتنا وليس فى استطاعتنا ان نسير فى طرقاتها .. ولا نستطيع أن نلج كنائسهم لأن ابوابها أقصر من هاماتنا واصغر من احجامنا .. ويضايقهم منا ان ابصارنا أعلى من مستوى جدرانهم واسوارهم .. وأن بوسعنا ان نراهم من نوافذهم العليا ، فتظهر لنا عاداتهم ونرى ما يبيتونه لنا من مكائد .. واذا اقتربنا منهم أو جسنا بأرضهم او هممنا بعمل ما ، رأيناهم يصرخون ويصخبون .. وسيرنا الطبيعى فى نظرهم جرى وعدو .. وكل ماهو كبير لديهم انما هو ضئيل فى نظرنا .. وان أفقهم الضيق واعمالهم السخيفة واساليبهم الوضيعة لهى حجر عثرة فى سبيل نشاطنا وتقدمنا .. فآلاتهم لا تلائم سواعدنا القوية ، وليس بوسعنا ان نعمل عليها لنحصل على مقومات حياتنا ..

وليت الأمر يقف بهم عند هذا الحد ، بل انهم ايضا يضايقوننا ويقيدوننا بأساليبهم الملتوية .. بينما قوة الواحد منا تعادل مائة مرة قوة الفرد منهم .. ولكننا عزل ، ولهذا كتب علينا ان يتحكموا فينا .. لان الارض فى نظرهم ملك لهم ، وهم يرهقوننا بأثمان ما نحتاج اليه منهم من طعام وكساء يتناسبان مع ضخامتنا .. فيطلبون منا مزيدا من الكدح لارضاء رغائبهم

وهم يتفننون فى ابتكار وسائل ازعاجنا ، والتضييق علينا ، بينما ليس باستطاعتنا ان نحيا الا اذا اقتحمنا ارضهم .. ولم استطع ان اصل الى هنا والقاك الا بعد أن تخطيت بعض حواجزهم ، وهم يحولون بيننا وبين الاستمتاع بمباهج الحياة مثلهم .. فحظروا علينا الذهاب الى المدن

وعبور الجسور والسير فى حقولهم وارتياد الاماكن التى يصيدون فيها الطيور بنيران بنادقهم .. وأنا الآن فى عزلة تامة فيما عدا ابناء « كوسار » الثلاثة .. وحتى هؤلاء يقيمون العراقيل للحيلولة دون وصولى اليهم . ويخيل الى انهم يدأبون على التفنن فى ايقاع الاذى بنا ..

فقالت له :

ـ لا تنس اننا أقوياء ..

ـ نعم .. بل هذا ما يجب أن نكون عليه .. واننا لنشعر جميعا ـ وأعتقد أنك تشاركيننا نفس الشعور ـ بأننا أقوياء الى حد يمكننا من القيام بأعظم الاعمال .. أن قوة مضطرمة تعتمل بين جوانحنا ، ولكننا مع ذلك محجمون عن الاقدام على أى عمل ..

قال ذلك وهو يلوح بيده الهائلة فى الهواء ، كأنما ليظهر للعالم مبلغ جبروته ..!

ولاذت الفتاة بالصمت فترة قصيرة ، ثم قالت :

ـ لا اكون كاذبة حين اقول ان جميع هذه الخواطر جالت بذهنى حتى وأنا اظن ان ليس هناك مخلوق ضخم الا انا .. لقد كانوا يلقنوننى أن القوة ضرب من ضروب المعاصى ، وأن من الافضل للمرء أن يكون عاديا صغيرا عن أن يكون ضخما هائلا.. وان الأديان جميعها تشير بالعطف على الصغار وتشجيع الضعاف وتمكينهم من التكاثر .. وأن الواجب يقتضينا التضحية حتى بقوانا من أجلهم.. ولا اكتم عنك اننى كنت أرتاب فى ذلك الذى كانوا يلقنوننى اياه !..

فقال لها :

ـ أؤكد لك أننا خالدون .. وان أجسادنا لن يدركها العدم ..

ـ هذا صحيح .. لن يدرك الفناء أجسادنا ..

ـ كذلك لم نخلق لنضيع حياتنا هباء .. اننى اشعر انا واخوانى اننا على أبواب صراع رهيب .. بيد أنه ليس باستطاعتى ان اتكهن بما سنلقاه فى ذلك الصراع قبل أن تسمح لنا هذه المخلوقات الصغيرة بأن نعيش الحياة التى نبتغيها .. لقد تدارسنا جميعا هذا الأمر ، وتدارسه معنا «كوسار» الذى حدثتك عنه ..

ـ ولكنهم صغار وضعفاء .. !

ـ انهم حقا كذلك ، ولكنهم يملكون صنوفا من وسائل الهلاك كما تعلمين .. وقد تمرسوا على القتال ، وتفننوا حتى برعوا فيه لكثرة اقتتالهم مع بعضهم البعض .. وهم يتقنون الخداع والمخاتلة . ولذا فانى أتوقع كفاحا مريرا بيننا وبينهم .. كفاحا آتيا مافى ذلك شك .. هو مايدعونه هم حربا ، بيد اننا على كل حال مستعدون .. فالويل لهؤلاء الأقزام وان كنا لا نعرف القتل أو لا نحب أن نقتل احدا ..

بيد أنها قاطعته هاتفة :

ـ انظر ..!

وتناهى الى سمعه صوت بوق منطلق ..

والتفت « ردوود » الى الناحية التى تنظر اليها ، فلمح سيارة لامعة يقودها سائق فى ثياب سوداء وقد احتشدت بأشخاص يرتدون فراء .. وكان السائق هو الذى ينفخ فى البوق . ودنت السيارة من قدمى الفتى فتفاداها ، وواصلت سيرها والسائق يطلق نفخات غاضبة ، ثم عرجت الى المدينة . وتناهى الى سمع الفتى حديث واحد ممن فى السيارة يقول :

ـ انه يعترض طريقنا ..

وتلاه واحد آخر منهم يقول :

ـ هل رايت الأميرة الجبارة خلف الاغصان ؟..

ورآهم الفتى يتجهون جميعا بأبصارهم نحوها في ذهول ، ثم قال ثالث منهم :

ـ لم يعد باستطاعتنا السكوت على ذلك ..

وتكلمت الاميرة فقالت :

ـ لعمرى ان هذا لعجب عجاب .. لا ادري وربى كيف اصفه ! ..

فقال لها « ردوود » :

ـ واذا كانوا لم يحدثوك عن ذلك ..

ثم توقف عن الاسترسال فىالكلام قبل انيتمه، فقالت الفتاة :

ـ كنت قبل أن اراك أعتبر نفسى الجبارة الوحيدة فى هذا العالم .. وبالرغم من ذلك فقد نهجت نهجا خاصا فى حياتى .. وكانت نظرتى الى نفسى اننى فلتة من فلتات الطبيعة جاءت عفوا .. ولكن هذا الزعم انقشع الآن من خاطرى فى هذه الدقائق ، وطالعنا عالم آخر وظواهر أخرى ومستقبل عامر بالاحداث .. وعثرت على رفاق !..

فقال « ردوود » فى شرود :

ـ رفاق ! ..

***

وقالت الاميرة لـ « ردوود » :

ـ ان بى رغبة فى مزيد من حديثك .. مزيد ومزيد .. ان ما تذكره يتراءى لى وكاننى أقرأ احداث احدى القصص التى يندمج فيها المرء فيكون كالحالم .. حتى

ظهورك أنت على مسرح حياتى يترك هذا الاثر فى نفسى..

وتناهى الى سمعها صوت ساعة القصر حين أخذت تدق ، وبلغ عدد دقاتها سبعا .. وهو فى حيرة من امره ، فقالت له :

ـ لقد حان موعد عودتى الى القصر ، ففى هذه الساعة ياتون لى بالقهوة فى الجناح الذى اقيم فيه .. ويدب النشاط فى كل مكان بالقصر ، وياله من نشاط !.. انهم يتساءلون الان عن سبب تخلفى .. على اننى ارغب فى التحدث اليك ، ولكن لندع ذلك الان .. فانى أريد أن إخلو الى نفسى لافكر فى كل شىء تناوله تبدل ، وأريد أن أزيل من ذهنى شعور وحدتى السابقة ، وأن أدمجك واخوانك الاخرين فى دنياى .. ولهذا سأغادرك الان وأعود الى القصر ، بيد انى سأجيىء مرة أخرى الى هنا ... وسيكون ذلك فى فجر الغد ....

فقال لها على الفور :

ـ ستجديننى فى انتظارك ..

وعادت الاميرة تقول :

ـ وسأكرس يومى لهذا العالم الذى حدثتنى عنه والذى لا اكاد أصدق وجوده .. أسبح بأحلامى وافكارى ..

ثم خطت خطوة الى الوراء ورشقته بنظرة فاحصة ، وتلاقت نظراتهما .. وظلت فترة ساكنة بلا حراك ، ثم قالت وقد افتر ثغرها عن بسمة واهنة أبعد ما تكون عن البسمات :

ـ لاريب فى انك انسان .. ولكن ما اغرب ماحدثتنى عنه ... ماذا يكون لو فرض أنى جئت غدا فوجدتك قد

عدت صغيرا مثلهم .. يجب أن أفكر .. فالى اللقاء كما يقولون ..

ومدت يدها الى « ردوود » .. ولأول مرة تلامس جسماهما وتماسكت الايدى ، ثم تلاقت الاعين مرة أخرى .. واخيرا قالت له :

ـ والان الى اللقـاء .. الى اللقاء .. وموعدنا غدا يا اخى الجبار !..

وبدا أن فى نفسه شيئا يريد أن يقوله قبل أن تنصرف .. ولكنه احجم عن الكلام ، واكتفى بأن رد على تحيتها قائلا :

ـ الى اللقاء ...

بيد أن الايدى ظلت متماسكة فترة قصيرة ، وقد راح كل منهما يتملى وجه صاحبه ويتفحصه كأنما ليقرأ ما يرتسم عليه من خلجات ..

وبعد ذلك تركته وانصرفت ، بيد انها بعد ان ابتعدت عنه أخذت تنظر خلفها عدة مرات فى ريبة من أمره ، فوجدته ثابتا فى مكانه .. حيث التقيا !

وعندما بلغت القصر سارت فى بهوه فى أنفة وعظمة ، وفى يدها غصن من أغصان البلوط ، تدلى من خلفها على الارض ، ثم لاذت بجناحها الذى تقيم فيه

***

وتقابل الاثنان بعد ذلك أكثر من عشر مرات قبل أن تتطور الامور ، وكان لقاؤهما يتم فى البستان المترامى الاطراف أو على المرتفعات، وفى أحضان الوادى ذى الممرات المتربة والبقاع التى يكسوها العشب وتحف بها أشجار الصنوبر، وفى الطريق الكبير الذى تظلله أشجار البلوط ، وحول

البركة التى كان قد أمر جدها الملك بانشــائها ، حيث يجلسان عند حافتها التى يكسوها الكلأ الاخضر .. وقد اتخذ مكانه عند ركبتيها ، لا يرفع بصره عن وجههــا، ويحدثها بما قاساه هو واخوانه ، وعن عمله الذى كلفه ابوه به .. وعما يعتزم الجبابرة ان يفعلوه من جــلائل الاعمال ...

وكان لقاؤهما يتم دائما عند مطلع الفجر ، بيـد انهما تقابلا ذات مرة فى عصر احد الايام ، فلمحا بعض حشــود من الناس عن كثب منهما ، يســترقون الســمع والنظر خلال الاغصان .. بل لقد ذهب الفضول ببعضهم فاستقلوا القوارب وراحوا يقتربون منهما ، وينصتون الى احاديثهما .. فكانت هذه اولى بوادر اهتمام القوم بهذين العاشقين وبلقائهما .. وكذلك التقيا ذات مرة فى ليلة مقمرة ، ولمحهما الناس وهما يتناجيان ، فلاكتهما الالسن ..

ودار حديثهما ذات مرة حول الامل الذى يراودهما ، وهو اعداد عالم كبير من الجبــابرة وعن الكفــاح الذى ســيقوم من أجل تحقيق هــذه الغــاية ، والذى لابد سيشتركان فيه ، وعرجا على شئونهما الخاصة فتناولاها بحديث أفاضا فيه ..

وعلى مر الايام وتعدد اللقاء ، استشعرا أن بينهمــا رباطا اقوى من الصداقة ، يزيد من تقاربهما ويجتذب كلا منهما نحو صــاحبه .. واخيرا عبر لســاناهما عن تلك العاطفة ، وعرفا انهما حبيبان .. وانهما الاساس لجيل جديد ، هما آدمه وحواؤه ..

واستجاب قلباهما لهذه العاطفة ، ولاحت لهما الدنيا غير ما كانت عليه ، فكانا يريان ويلمسان الجمال فى كل

شيء .. فالنجوم اجرام تضيىء طريق حبهما وتحرسه ، والفجر جعلته الطبيعة ليكون موعدا للقائهما ، وحرارة الشمس تشعرهما بنار الوجد المشتعلة فى قلبيهما وبين ضلوعهما ، فسبحا فى دنيا الهيام وغمرهما الحنان وتأججت فى اعماقهما العاطفة فراحا يتناجيان ، وتقاربا ، وتلاقت أعينهما على ضوء القمر تحف بهما اشجار الصنوبر كأنما لتحييهما ..

وخيل اليهما انهما يسبحان فى عالم غير هذا العالم .. لا يشعران فيه الا بالسعادة تغمرهما ، ولا يسمعان فيه الا دقات قلبيهما ، تترجم لهما مشاعرهما .. وبدا لهما انه عالم سرمدى ، لا فناء فيه ولا موت . وليس تحليقهما فى هذا الخيال بالشيء المستغرب بعد أن استبدت بهما عاطفة الحب ، فأحسا بأنهما ينثران الجمال فى كل شيء ويضفيانه على كل ما يحيط بهما ..



الفصل الثامن :

العاشقان .. !



العاشقان

ليس يخفى على احد ما استولى على الناس الصفار من دهشة مقرونة بالانزعاج حينما ذاع بينهم امر تلك العلاقة التى توطدت أواصرها بين صاحبة العظمة والسمو الاميرة التى جاءت خصيصا ليخطبها أحد الامراء ، وبين شاب جبار من عامة الشعب ، فهو لا يعدو أنه ابن استاذ فى علم الكيمياء .. ليس ذا مكانة مرموقة ، فلا هو صاحب مال أو جاه او منصب او لقب من القاب الفخامة .. وان اللقاء بين الاميرة والشاب توالى وتعدد ، وانهما راحت تبادله الاحاديث كأنه لم يعد فى الدنيا ملوك أو أمراء ولا نظام وقوانين ، وكأنه ليس بالعالم سوى اقزام وبعض الجبابرة ، وما من شك فى ان تعدد لقاء الاميرة بالشاب تمخض عن حبها له ...

***

قالت الاميرة لفتاها الذى أحبها واحبته :

ـ انهم ينادون بضرورة افتراقنا ...

فصاح قائلا :

ـ ولماذا يريدون ذلك ... هل فقدوا رشدهم وطاش صوابهم ؟! ..

فقالت الاميرة :

ـ انهم يعتبرون حبك لى خيانة عظمى تستحق العقاب الصارم ..

فهتف قائلا :

ـ هراء ذلك الذى يرددونه .. ماذا يعنينا منه ؟.. كيف يتشدقون بأن لهم حقا علينا .. اننى لا أقيم وزنا لما يهرفون به مما يسمونه ولاء أو خيانة !

ـ استمع اذن الى ما قيل لى .. جاءنى رجل من الصفار لم تقع عينى على رجل فى مثل شكله ، وكان صوته عذبا خفيف الحركة لطيفها .. دلف الى حجرتى كما تتسلل الهرة .. وكان يقرن كلامه باشارات من يده الدقيقة البيضاء كلما أراد أن يعبر عن شيء هام .. وكان براسه شعيرات قلائل حتى ليكاد يكون أصلع الشعر .. ذو انف دقيق ووجه صغير ، والاثنان مشربان بحمرة وردية .. وله لحية مدببة ومسترسلة . وذكر الرجل ان نفسه جياشة بالعواطف ، وقد ظهر ذلك جليا فى عينيه المتألقتين .. وله بالاسرة المالكة رابطة الصداقة .. وكان يخاطبنى فى اعزاز بالغ ، اذ كان يستهل كلامه وهو يخاطبنى بكلمة « سيدتى العزيزة » وقد ابدى كثيرا من مشاعر العطف نحوى .. وهو يقول لى : « سيدتى العزيزة .. تعلمين ولاشك ان من اولى واجباتى ... » وكرر هذه العبارة جملة مرات .. ثم قال : « ان امامك رسالة هى فى حكم الواجب .. »

فالتفت اليها الفتى بغتة وقال لها :

ـ لعل ما قاله سخف وهراء ...

ـ بل كان ذا مغزى دون شك ..

ـ هل تعنين .. ؟

ـ أعنى اننا قد انتهكنا دون أن نعلم أقدس تقاليد أولئك القوم الصفار .. فانهم يرون فينا ـ نحن أبناء

الملوك الذين يجـرى فى عروقهم الدم الازرق ــ اننا من طبقة أرفع من سائر الطبقات لا تمت الى أى واحدة منهــا بصلة .. واننا خلقنا لتقبل آيات الولاء وان كنا ندفــع الثمن باهظا من حريتنا ومن التقاليد المقيدة لها .. انهم يرغبون تزويجى بأميرهم .. وأكبر ظنى انك لا تعلم من امره شيئا .. انه أمير قزم ضئيل ليست به رغبة فى هــذا الزواج .. ويبدو لى انهم يسعون من ورائه الى تقوية الروابط بين بلدى وبلد الامير ، وهم يتوقعون ان انجلترا ستفيد من هذه الزيجة .. فهل تدرك مدى ماينطوى عليه زواج هذه بواعثه ؟ .. زواج لا يمت بسبب أو صلة الى تلك الرابطة المقدسة ! ..

ــ وماذا يبتغون منك الان ؟..

ــ انهم يطلبون منى ان ارضخ لرغبتهم ... كأن مابيننا لم يكن ..

ــ هكذا ؟ ! ...

ــ نعم .. ولم يقتصر الامر على ذلك .. بل ..

ــ ومن طلب اليك ذلك .. اهو الشخص الذى يلقنك الاداب الاجتماعية ؟..

ــ أجل .. فقد أنهى الى ان من الافضل لك ولجميع اخوانك من الجبابرة ان نقطع ما بيننا والا نجتمع فى لقاء أو حديث

ــ ولكن ما شأن اولئك المتطفلين بنا وبحبنا ؟.. من اعطاهم هذا الحق ؟ .. لماذا يدسون أنوفهم فى أمورنا وهم ليسوا منا ؟

ــ انهم لا يؤمنون بهذا المنطق ..

ـ وانت لا تهتمين طبعا بما قاله الرجل ..

ـ يخيل الى أن الامر أبعد من ذلك وأعمق ..

ـ انها لحماقة أن يفرضوا علينا قوانينهم وان يربطونا الى عجلة تقاليدهم العتيقة السخيفة .. أعتقد أن الامر يقتضينا الا نلقى بالا الى ما يهرفون به ..

ـ انني ملك يمينك طالما أن الامور ..

ـ لماذا تعلقين الامر هكذا ؟!

ـ هل يمكن أن نتجاهل وجودهم ؟.. واذا عملوا على التفريق بيننا !..

ـ وما مدى قدرتهم ؟.. ماذا باستطاعتهم أن يفعلوا ؟

ـ هذا مالا أعلمه ...

ـ وماذا يعنينا من محاولاتهم ؟.. انت وأنا كل منا للاخر .. فماذا غير ذلك ؟. نحن لبعضنا الى الابد ... هل يجول بذهنك ان ارضخ لمشيئتهم ولقيودهم وأوامرهم واتخلى عنك ؟..

ـ انني أريد أن أعرف مدى سلطانهم وقدرتهم ..

ـ بل تريدين أن تعرفي ماذا يقتضينا أن نفعله ؟

ـ أجل ...

ـ لن نقطع علاقتنا .. مافي ذلك شك ..

ـ واذا عمدوا الى التفرقة بيننا قسرا ؟

فلوح الفتى بقبضة يده فى الهواء ، واستدار الى الخلف كأنما حشود الصفار قد جاءت لتفرق بينه وبينها، ثم سرح ببصره فى الفضاء وقال :

ـ انك على حق .. ترى ماذا يمكن أن يفعلوا ؟

ـ فى هذا المكان ...

وفكر الفتى قليلا ثم قال :

ـ انهم منتشرون فى كل مكان ...

ـ يمكننا أن نرحل وننجو بانفسنا ..

ـ الى أين ؟ ...

ـ عبر البحار .. نسبح فيها .. الى حيث يريد بنا القدر ...

ـ لم تسبق لى هذه التجربة ..

ـ اذن فالى الجبال الشامخة حيث لا تقع علينا عين انسان منهم ، وحيث الوديان المترامية والبحيرات الهادئة التى لا يعرفون مكانها والهضاب ألتى يكسوها الثلج والتى لم يذهب اليها انسان .. هناك .. هناك ملاذنا يا حبيبتى .. !

ـ وكيف السبيل اليها ؟ .. انها تقتضيناكفاحا مريرا وقتالا عنيفا .. لاننا لكى نصل اليها يتحتم علينا ان نمر بالملايين من هؤلاء البشر

ـ هـذا قبس أملنا الاوحد .. ليس لنا هنا بقاء أو مقام أو درع نحتمى به .. فماذا نكون نحن تجاه هـذه الحشود ؟.. انهم صـغار وفى امكانهم ان يختبئوا ، أما نحن فليس فى مقدورنا أن نختفى عن أعينهم .. وليس لنا مأوى ولا طعام .. انهم سيدأبون على مناهضتنا ومطاردتنا واقتفاء أثرنا ليلا ونهارا أينما ذهبنا ...

وفكر الفتى ، وبدا كأن فكرة لاحت بخاطره ، فقـال على الفور :

ـ اننى اعرف المكان الوحيد الذى نحتمى به فى هذا البلد ..

فقالت الاميرة بلهفة :

ـ وأين هو ؟...

ـ انه المكان الذى يقيم فيه اخوانى الجبابرة ، فقد اقاموا سورا حول بيتهم من جميع الجهات .. وحفروا حوله خنادق عميقة وانشئوا به مكامن دقيقة .. لقد حضر الى احدهم منذ وقت ليس ببعيد وحدثنى .. ولعله كان يحدثنى عن الاسلحة .. فى ذلك المكان نجد ملاذنا ومأوانا ..

وتوقف الفتى عن الكلام قليلا ، ثم استطرد يقول :

ـ لقد مضى وقت ليس بالقصير لم أقابل فيه اخوانى .. وكنت اثناء ذلك أحلم يا حبيبة القلب .. وراحت الايام تمر وانا على أمل لقياك .. يجدر بى الآن أن اسعى اليهم واقص قصتنا عليهم واوضح لهم الاخطار التى تهددنا .. انت وانا .. وانى لواثق ان فى مقدورهم ان يمدوا لنا يد المساعدة اذا أرادوا ذلك .. وفى هذه الحالة أستطيع ان اطمئن الى ماينتظرنا من خير .. واغلب الظن أن « كوسار » قد حصن ذلك المكان وجعله على قدر كبير من المناعة .. لقد كنت أتوجس من الشر الذى شعرنا ببوادره قبيل حلولك بيننا وانضمامك الى دنيانا .. ولقد فرغ أولئك الصفار من معركة انتخاباتهم التى اقحموا أمرنا فى الدعاية لها فكانوا ينادون بالقضاء على جنسنا .. طبعا الا أنت يا حبيبتى ، لهذا فقد استقر رأيى على ان أسعى ألى أخوانى لابصرهم بالاخطار التى تهددنا ...

***

تأخر الفتى قليلا فى موعد اللقاء التالى ، فقد كان

الوقت الذى حدداه حوالى الظهر فى بستان بجوار النهر .. توجهت اليـه الاميرة وراحت تنتظره ، وقد ظللت عينيها بيدها وأخذت تتطلع وتترقب مجيئه .. وبدا لهـا العالم وقد سكن كل شيء فيه كأنه يجاريها فى سكونها ..

وفى هذه المرة ، لم تر أثرا للعيون التى كانت تلاحقها وتتتبعها كلما سعت الى لقاء حبيبها ، فقد انقضى شطر كبير من النهار وهى تتلفت هنا وهنـاك دون أن تلمح احدا .. كما لم يقع نظرها على قارب يسبح فى النهر ، فحلقت بأفكارها فى هذا السكون الشامل الذى ران على الكون فى ذلك الوقت ..

ونبهها من أفكارها انها لمحت حبيبها « ردوود » مقبلا من بعيد بين الاشجار ، بيد أنه لم يلبث ان اختفى عن نظرها ، ثم عاد فظهر وهو يسرع الخطى بين الاشجار .. كان يسرع فى السير هذه المرة على خلاف ما عهدت فيه ، ولحظت أنه يعرج .. ولما اوح لها بيده سارت نحـوه ، وحين صارت قريبة منه ووقع نظرها على وجهه ، تبينت مبلغ الالم الذى يعانيه فى كل خطوة من خطواته ، فانزعجت وانتابها قلق شديد وهرولت نحوه فى وجل ، وازدحمت رأسها بعشرات الاسئلة تريد أن تستفسر بها جلية الامر منه ، ولكنه اقترب منها وراح يحدثها من غير أن يجيبها .. ثم قال لها فى لهفة :

ـ هل كتب علينا ان نفترق ؟

فتناولت يده بين يديها فى حنان دافق ، وقالت :

ـ لن ابتعد او افترق عنك .. بل لن اقبل او اسمح لك بأن تفارقنى ، ولو بذلت حياتى ثمنا لذلك ! ..

فقال لها وهو فى دهشة من هذا الذى قالته فى اعتداد وصراحة :

ـ هكذا ؟ .. الى هذا الحد ؟ ..

وشعرت الاميرة بيده تضغط على أصابعها وتقبض عليها ، فسرت فى جسدها رعشة غامضة لا عهد لها بها ...

وراح الفتى يدور بعينيه فيما حوله كأنه يتوجس من قدوم أولئك الصغار فيرونه وهو يتحدث الى حبيبته ، ثم قال :

ـ ربما كان فى ذلك هلاكى ..

ورات كلامه غامضا ، فسألته مستوضحة :

ـ أوضح ما تقول ..

فقال لها الفتى :

ـ لقد بذلوا شتى المحاولات لكى يحولوا بينى وبين الحضور للقائك فى هذه الساعة

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ حينما بارحت المصنع حيث كنت أقوم على صناعة الغذاء السحرى للاحتفاظ به فى بيت ابناء «كوسار» .. تصدى لى رجل صغير من رجال الشرطة يرتدى ملابس زاهية اللون ، ويضع فى يديه قفازين أبيضين .. وطلب هذا الرجل الى أن أقف ، منبها اياى بأن هذا الطريق موصد .. فلم أعره كبير اهتمام ، ثم درت حول المصنع ملتمسا الطريق الآخر .. فوجدت زميلا له قال لى هو أيضا ان السير هناك ممنوع .. بل قال ان جميع الطرق ممنوعة ..

ـ وماذا فعلت ؟ ..

ـ دخلت معه فى مناقشة ، وقلت له إنه طريق عام ..

فذكر أنه من أجل هذا يمنعنى لاننى اتلف بضخامتى وثقل قدمى طريق الجمهور ، فقبلت اعتراضه وقلت له انى سأسير عبر الحقول .. وما أن بدأت السير حتى فاجأنى رجال آخرون ، برزوا من وراء السور ونهرونى ذاكرين أن تلك الحقول املاك خاصة ليس لاحد ان يسير فيها .. فلم يسعنى الا ان صببت جام غضبى ولعنت الاملاك العامة والخاصة ، وصرخت فى وجوههم بأنى ذاهب الى اميرتى الحبيبة .. وبعد ذلك انحنيت وأمسكت بالرجل الصغير فى لين ولطف ، فراح يضرب بقدميه ويصرخ مستغيثا .. فأعدته الى الارض ونحيته جانبا . وفى لمح البصر رأيت حشودا منهم تملأ الحقول من حولى يهرولون غدوا ورواحا ، ولمحت واحدا منهم يمتطى جوادا .. وقف بجانبى وراح يقرأ شيئا بصوت مرتفع .. ولما انتهى من القراءة ركل جواده فركض وابتعد به .. بيد أنى لم أفقه كلمة مما قرأه الرجل . وفى اللحظة التالية دوت من خلفى طلقات البنادق ...

فقالت مذهولة :

ــ بنادق !؟..

ــ أجل كتلك التى يطلقونها على الجرذان الضخمة .. وردد الهواء أصداء الطلقات ، وقد أصابتنى طلقة منها فى ساقى ...

فقالت له فى ألم ودهشة :

ــ ومع ذلك سعيت الى ؟!...

فأجابها وهو مزهو بنفسه :

ــ هو ذاك ... وقد خلفتهم ورائى يصخبون ويقتفون اثرى وهم يطلقون رصاصهم ... والآن ...

ـ والآن ماذا ؟ ...

ـ انه نذير البـداية .. انهم يسـعون الى التفريق بيننا .. وهم الآن فى طريقهم الينا ...

فقالت الاميرة فى عزم واعتداد :

ـ لن نفترق ! ..

ومس قولها وترا حساسا من نفسه ، فقال لها :

ـ أجل يا حبيبتى .. لن يكون بيننا فراق .. ولكن اذا شئنا الا نفترق فان عليك أن تصحبينى الى حيث يقيم اخوانى الجبابرة ...

فسألته فى حزم وعزم :

ـ وكيف نصل اليهم ؟

ـ سياتى القوم الذين يطاردوننى من هذا الطريق .. فعلينا أن نتجنب طريقهم بأن نجعل وجهتنا ناحية الشرق .. فى ذلك الطريق الممتـد الذى تظلله الاشـجار .. وسأتقدمك فى السـير ، حتى اذا وجدتهم رابضـين فى انتظارنا ...

وهم بالسـير .. وما أن خطـا خطوة واحـدة حتى أمسكت بذراعه وقالت :

ـ كلا .. يجب الا تسير بمفردك ، سنسير جنبـا الى جنب ، وذراعى فى ذراعك .. اننى سليلة الملوك ، وقد يكون فى ذلك ما يحرم عليهم ايذائى .. وحين تكون ذراعى فى ذراعك فقد لا يطلقون عليك رصاص بنادقهم .. الا ليتنى أستطيع ان أطـير وانا اضـمك بين ذراعى .. يا حبيبى ! ..

قالت ذلك وطوقت كتفه بذراعيها ، وقبضت على يده ثم التصقت به ، وعادت تقول :

ـ نعم .. قد لا يطلقون عليك رصاص بنادقهم ...

بيد أنه ما أن احاطته بذراعيها وضمته الى صدرها ، حتى جاشت عواطفه الكامنة وتأججت لواعجه ، فضمها الى صدره ضمة قوية ، وطبع قبلة حارة على خدها ، أفرغ فيها كل مشاعره ، واستمرت ضمته لها فترة من الوقت ، فقالت له فى همس وكأنها حالمة :

ـ أتمنى لو دفعت حياتى ثمنا لذلك ! ..

ثم طوقت عنقه بذراعيها ، ورفعت وجهها الى وجهه ، وقالت :

ـ قبلنى يا حبيبى مرة أخرى ...

فضمها الى صدره مرة ثانية ، وغرقا فى دوامة غرامهما ، وراحا يتبادلان القبلات على الشفاه ويشددان الضمات ، وظلا فى نشوتهما تلك فترة من الوقت .. ثم شبكت يدها فى يده وازدادت قربا منه والتصاقا به ، وأخذا يسرعان الخطى ويحثان السير بغية الوصول الى بيت أبناء « كوسار » قبل أن يدركهما القوم الصغار ..

وبينما كانا يحثان السير فى بستان القصر ، اذ برز لهما من خلال الاشجار بعض الفرسان ، أطلقوا الاعنة لجيادهم ، ولكنهم عبثا حاولوا أن يدركوهما .. وبعد أن أفلتا من هذه المطاردة العنيفة الخطيرة رأيا فى مواجهتهما عددا من البيوت ، خرجت منها شرذمة من الرجال يحملون بنادقهم . وأراد الفتى الجبار أن يواصل

السير وأن يقتحم طريقهم ، ولو ادى ذلك الى ان يقاتلهم لينحيهم عن طريقه هو وحبيبته ...

ولكن الاميرة العاشقة ، بعقلها المفكر ، أشارت عليه بأن يحيد عن طريق الرجال المسلحين ... ثم سمعا وهما يسيران رصاصة تمرق فوق رأسيهما ...



الفصل التاسع

المارد في لندن !



المارد فى لندن

تخير « كادلز » هـــذه الفترة من الوقت ليخرج عن ذلك النطاق الضيق فى محجر الطباشير الى العـــالم الواسع ... وكان فى ذلك الحين يجهل كل شيء عن الاحداث التى قامت ، وعن المحاولات التى كانت تبـــذل لمناهضة الاخوان الجبابرة بغية القضاء عليهم .. بل لقد كان خالى الذهن تماما من أن له أخا فى هذه الدنيا .
وثاب الى رشده بعد أن ظل الى ذلك الحين يتساءل عن الاسباب التى فرضت عليه هذا الكدح المرير ، حتى ضاق ذرعا بحاله .. فقال لنفسه :

ــ لماذا يجبروننى على اداء هـــذا العمل الشـــاق فى تواصل ؟ .. لماذا يضـــيقون الحيز الذى يسمحون لى به ، ويحظرون على تخطيه لكى أرى ما يجرى فى العالم وما فيه من غرائب .. ترى ما هى جريرتى التى من أجلها فرض على كل هذا ؟! ..

واستبد به الضيق والتذمر ذات يوم ، فوقف منتصبا وقال بصوت مرتفع غاضب :

ــ كلا ... لن استمر على تلك الحال ...

ثم راح يصب جام غضبه ، ويلعن حفرة الطبـــاشير فى صوت كالرعد

ومنذ ذلك الوقت أخذ يعلن عما يجيش بنفسه من

غضب وتذمر بطريقة ايجابية فعالة ، ولم يكتف بالكلام والاحتجاج لان الالفاظ كانت لا تسعفه .. ورفع عربة محملة بالطباشير بيديه القويتين وقذف بها عربة أخرى ، فتهشمت العربتان وتحطمتا .. ثم ألقى بعدد من العربات فى حفرة ، وأخذ يقذفها بالصخور الضخمة حتى أتى عليها .. وكذلك اقتلع ما يقرب من عشرة أمتار من القضبان الحديدية ، وبالجملة راح يحطم محجر الطباشير برمته ، وهو راض عما يفعل مرتاح اليه ، وقال :

ـ أهكذا كتب على ان أنفق عمرى فى هذا الكدح المرير ؟ ! ..

واستمر فى ثورته تلك بضع دقائق يحطم كل ما تقع عليه عينه ، مما أذهل عالم الجيولوجيا ـ وهو من الصغار ـ والذى كاد يقع صريع صخرتين كبيرتين كان قد انتزعهما « كادلز » .. فهرول المسكين الى الخارج ناجيا بنفسه ، يتعثر فى السير وهو يحمل حقيبته التى راح يتساقط منها بعض حفريات أبحاثه . وبعد أن ارتاح « كادلز » الى ما فعله ، خرج الى العالم هائما على وجهه ليلقى ما تكتبه له المقادير ، وهو يحدث نفسه :

ـ اكنت أظل هكذا حتى أقضى نحبى ؟! .. أهكذا هانت فى نظرهم تلك الروح المستقرة فى جسمى الجبار .. اننى لا أدرى ماذا يفعلون بذلك الطباشير .. كلا .. كلا .. لن اعمل بعد الآن ..

وسار « كادلز » واتخذ طريقه نحو لندن اما مصادفة واما بوحى اتجاه الطريق والخط الحديدى .. سار بخطى واسعة صاعدا فوق التلال او هابطا منها ، ومخترقا الوديان والمراعى . وكان اليوم قائظا ، فكان هذا مبعث دهشة لكل من رآه . ووجد فى طريقه اعلانات على

الحوائط ، لم يدرك أنها بشأن المعركة الانتخابية التي كان من نتيجتها أن تولى « كترهام » ـ عدو الجبابرة والمحرض الاول على افنائهم والقضاء عليهم ـ زمام الحكم

وكذلك وجد « كادلز » لافتات بالطرق تحمل تعليمات « كترهام » التي يحظر فيها على كل شخص يزيد طول هامته على سبعة أقدام ان يتجاوز في تنقله مقدار خمسة أميال من محل اقامته الا باذن خاص ، كما رأى رجال الشرطة يتبعونه ويحاولون عبثا اللحاق به .. وقد راحوا يلوحون له بشيء يشبه الورق في أيديهم ، فلم يهتم بكل هذا .. لقد خرج هذا المارد من حيز دنياه الضيق المحدود ليستطلع ما في العالم الواسع ، وقرر في نفسه أن يقاوم أولئك الذين يتبعونه .. وحين وصل الى مكان رأى فيه بيوتا متناثرة ، تباطأ في سيره ، وراح يتأمل ما حوله وهو يلوح في الهواء بساطور كبير يحمله !

وكان قد تناهى الى سكان العاصمة بعض أنباء «كادلز» وعرفوا أنه شخص خفيف الظل يتسم بالغباء ، وأنه كان لوكيلة السيدة « وندرشوت » والقسيس شأن معه ، وأنه كان يحفظ لهما اهتمامهما بأمره ، ويحمل لهما في نفسه كل تقدير وتبجيل .. فلما طلعت عليهم الصحف بنبأ عصيانه عن العمل ، جال بذهنهم أن في الامر تدبيرا مبيتا ، وأخذ المسافرون ـ الذين عادوا ـ يتناقشون في الامر .. فمن قائل أن الجبابرة يجسون النبض ليعرفوا مدى قوة القوم الصغار ، الى قائل بأن « كترهام » خير حام لهم من هذا الخطر ، وان كان تصرف الجبابرة يعتبر خرقا للقوانين وتحديا لتعليمات « كترهام » .. وراحت

السنة الناس تتناول تلك الانباء والتعليق عليها ، كل حسب وجهة نظره

ونشرت الصحيفة الرسمية فى صفحتها الاولى وبالخط العريض خبر « القضاء على الشر » .. كما نشرت بعض الصحف انباء « ردوود » وانه لا يزال يلتقى بالاميرة ، وذلك بقصد اثارة الرأى العام ، كما عمدت بعض الصحف الى التهويل بأن الجبابرة بدءوا زحفهم على المدن يتهددونها

وبين هذا اللغط واحاديث الناس وأقاويلهم ، وماتنشره الصحف ، وصل « كادلز » الى لندن ..

***

وفى استطاعة المرء أن يتمثل « كادلز » سائرا فى الطريق بوجهه المضطرب الذى تلفحه الشمس بوهجها ، والطريق زاخرة بالعربات على اختلاف انواعها ، وبالسيارات ، وقاطرات الترام والدراجات ، كما انها زاخرة بالجماهير الراجلة من نساء ورجال وأطفال .. كل خرج ليقضى حاجة أو لغير قصد سوى المشى ، وجميعهم يتبعونه فى خطاه السريعة أينما ذهب . كما راح من فى المنازل يطلون عليه من نوافذهم ، وأخذ الصبية يجرون خلفه ويصرخون ، بينما وقف رجال الشرطة كأنهم تماثيل ثابتة فى أماكنها . . وكان عمال البناء ــ عند رؤيتهم له ــ يسقطون من الفزع ، فعم الهرج ، واختلطت الاصوات بين وعيد وسباب وسخط ولعنات ، و « كادلز » يحدق فيهم من فوق رءوسهم ..

واذ صار فى لندن ، أخذ يمشى فى بطء .. فقد عاقه عن سيره العادى التفاف القوم الصغار حوله . وبعد فترة

قصيرة ، بلغت حشود الناس من حوله حدا لم يستطع معه أن يتقدم خطوة واحدة ، فوقف واستند بظهره الى جدار أخذ المصانع ، يعلوه برج فى ضعف طوله هو ، وأخذ يتأمل فى عجب أولئك الاقزام الذين التفوا من حوله .. ولا ريب أنه كان فى لحظته تلك يقارن بين ما يرى وبين ما مر به فى سالف أيامه التى عاشها بين الفلوات والوديان والتلال والعشاق الذين يتناجون فى ليلهم وترنيم الكنائس وقطع الطباشير . وتواردت هذه الخواطر مجتمعة بذهنه واصطدمت بغرائزه ، واستشعر خطر الموت الذى يتهدده ، وصفاء السماء وجمالها من فوقه ، وحاول أن يجمع شتات أفكاره ليكون صورة واضحة المعالم ذات مغزى .. وضم حاجبيه فى تقطيب ، ثم هرش رأسه بأظافره ، وند عن نفسه زفرة شديدة أتبعها بأنين قوى كأنه صراخ ، ثم قال :

ــ لماذا أنتم هنا ؟ .. وماذا تفعلون انتم ايها الصغار بينما انا اكاد اهلك فى تقطيع الطباشير لكم ؟! ...

وعقد الذهول ألسنة الناس لسماع صوته ، وران عليهم صمت كصمت القبور ، وما هى الا لحظة حتى انفجر القوم صاخبين صارخين ، وهتف احدهم قائلا :

ــ انه يتحدث .. هل سمعتم ؟! ..

وكانوا يتوقون الى فهم ما يقوله هذا المارد العجيب ، وظنوا أنه مخمور فراح بعضهم يسخر منه .. وتصدى له رجل أمريكى كان يترنح من تأثير الخمر ، فأخذ يدفع الناس من حول المارد ثم قال :

ــ ماذا تريد يا هذا ؟! ....

وخاطبه رجل آخر طالبا اليه أن يعود الى داره ،

ونعته بالجبن والبلاهة .. وذكر له أن الخيل أجفلت من رؤيته ، واخيرا صرخ فيه قائلا :

ـ اليس فى هذا الحشد الذى حولك ما يجعلك تدرك ما يجب عليك أن تفعله ؟! ...

حدث كل ذلك بينما ظل « كادلز » فى وقفته تلك ، وقد لفه الاضطراب لهذه الضجة وهذا الصخب ، وراح يحدق فى الناس دون ان يتكلم ...

وفى هذه اللحظة ، حضر بعض رجال الشرطة وشقوا طريقهم بين الحشد المزدحم ، ثم قالوا :

ـ اتركوه وشأنه وتنحوا عن طريقه ...

ثم وجهوا الكلام لـ « كادلز » :

ـ معذرة .. نرجو أن تستأنف السير ..

وشعر « كادلز » برجل عجوز من الصفار يضرب قصبة ساقه ، كما رأى بعض الايدى تشير اليه ، فانحنى الى الامام وقال لهم :

ـ ماذا تقصدون بذلك ؟! ..

فقال له كبير رجال الشرطة :

ـ الوقوف هنا محظور عليك ... هل سمعت ؟ .. الوقوف هنا محظور عليك ! ..

فسأله « كادلز » :

ـ والى أين اذهب اذن ؟! ...

فقال له رجل الشرطة :

ـ عليك أن تعود من حيث أتيت .. الى قريتك .. الى البيت الذى تقيم فيه .. ومهما يكن من أمر فانه

يتحتم عليك أن تغادر هذا المكان لانك تسبب اخلالا في النظام وتعطل حركة المرور ..

ـ أى مرور تتحدث عنه ، وأى نظام تتشـــدق به ؟!

ـ المرور فى هذا الطريق الذى تقف فيه ..

ـ ولكنى اريد ان اعرف الى اين ينتهى هذا الطريق ؟.. وماذا يعنيه هذا الذى اراه ؟ .. لماذا يلتف الناس من حولى ، وماذا يبتغون منى ؟ . وماذا يضمرون لى ؟ . لقد اضنتنى العزلة وانهك تقطيع الطباشير قــواى من أجلكم ! .. ماذا تفعلون أنتم من اجلى ؟ .. اريد أن اعرف سبب كل ذلك قبل ان أخطو خطوة واحدة من مكانى هذا ؟! ..

ـ يؤسفنا اننا لا نملك الاجابة على أسئلتك هذه لانها ليست من صميم عملنا .. ان كل ما نطلبه هو أن تغادر المكان ! ..

ـ الم تفهم ما سألتك عنه ؟ ..

ـ اكرر القول بأن عليك الا تبقى هنا من فضلك .. ومن الخير لك أن تعود الى دارك .. لم تصل الينـــا تعليمات بشأنك حتى الآن ، ولكن وقوفك يتعارض مع القانون فضلا عن انه يخل بالنظام ويعطل المرور .. استأنف السير من فضلك ...

ورأى « كادلز » أن الرصيف قد أخلى من النـــاس ، وافسح له الطريق ، فسار فيه وهو يقول لنفسه :

ـ لعمرى لا أفقه شيئا من كل هذا !! ...

وتمنى لو أمكنه ان يستفسر من الجماهير التى حوله عن كل هذا الذى استغلق عليه فهمه ، ثم قال :

ـ لم يجل بذهني قط أن هناك بلادا كهذه .. ماذا تصنعون هنا أيها القوم ؟ .. وما غايتكم ؟ .. ثم بماذا تكافئونني جزاء كدحي وعملي ؟! ..

وسرعان ما ذاعت عباراته تلك ، وأخذ يتندر بهـا الشبان على سبيل الدعابة ، يسأل الواحد منهم صاحبه عن الغـاية التي من أجلها يعمل .. وتتعدد الاسـئلة ، ويتنوع التعليق ، وتختلف الاجابات ! ..

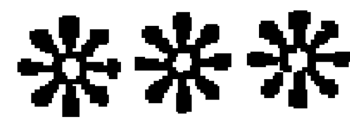
اول شهيد

كان هذا المارد يتوق الى غاية يضن عليه بها أولئـك الفاظ لا تكفي للافصاح او التعبير عما يجيش في نفسه ، القوم الصغار ، هي الحياة الاجتمـــاعية التي يريد أن يعيشها وفق هواه .. يتذوق حلاوتها حين يعرف الهدف منها ويحس مشاعرها . ولقـد ظل محروما من كل ذلك ، لم يمارس في حياته سوى الطواف في قريتـه ، لا يحدث احدا ولا يتحدث اليه احد .. وكل ما يعيـه من الـكلام فذهنه عاطل من كل شيء يتعلق بالمال والتجارة او الامور الاجتماعيـة .. وكان توآقا الى المعـرفة والالمام بشتى الشئون ، ولكن ليس في مقدوره أن يحصل على ما تصبو اليه نفسه

وقضى نهـاره القائظ وليـله في التجوال ، ولم يشعر بالتعب رغم الجوع الذي نال منه ، وراح يتأمل المارة في غدوهم ورواحهم ويرقب اعمال الصغار

وفي فجر اليوم التـالي كان قد وصـل الى « ريجنت بارك » فاجتاز الاسوار وتمدد فوق بقعة خضراء ، وغلبه النعاس فنام ساعة او بعض الساعة . وحين استيقظ ـ

وكانت الساعة السادسة صباحا ـ وجد نفسه قد اشتبك فى حديث مع امراة قذرة رثة الثياب ، كانت تفترش حفرة نامت فيها ، فسألها عما تهدف اليه من حياتها .. ولم يكد يفهم من حديثها شيئا !



ختم « كادلز » تجواله فى لندن فى صباح اليوم التالى، وكان قد نال منه الجوع حتى هد قواه .. وجذبت انظاره عربة كانت تتزود بالخبز الطازج ، زكمت رائحته انف المارد فركع على ركبتيه وراح يلتقطه من العربة .. ولمحه صاحبها ، فراح يشكوه لرجل الشرطة . وحين عاد كان « كادلز » قد أتى على كل ما فى العربة ، ثم اتجه الى حانوت والتهم كل ما به من خبز .. وقبل ان يفرغ من التهام ما بيده ، راح يبحث عن حانوت آخر حتى يتم وجبته ..

ورغم ارتفاع ثمن الطعام ، فان الجمهور راح ينظر بعين العطف الى « كادلز » الجبار فى الوقت الذى يحرمهم فيه من طعامهم ــ وهم فى أشد الحاجة اليه ــ وراحوا يضحكون ويصفقون له ، وهو ينظر مقطبا الى الشرطى ويهزأ به ، ثم قال وفمه محشو بالطعام :

ــ لقد نال منى الجوع ..

فهتف واحد من الجمع المحتشد حوله قائلا :

ــ كل ما طاب لك الاكل حتى تشبع ..!

ومنعه رجال الشرطة من اختطاف الخبز من الحانوت الثالث ، وضربوه على ساقيه ، ثم قال له أحدهم :

ــ هيا ايها المارد الظريف .. هيا لنعود بك الى بيتك .. !

وعبثا حاولوا القبض عليه رغم ما بذلوه من جهد ، ويروى انه كانت معهم عربة فيها حبال وسلاسل ليقيدوه بها ، لعزوفهم عن قتله ، لان « كترهام » صرح بأنه ليس من المشتركين فى المؤامرة ، وانه ليس من العدل سفك دمه .. الا اذا لم تعد هناك حيلة ..

ولم يدرك « كادلز » غرضهم فى اول الامر ، بيد انه ما لبث ان فهم ما يرمون اليه .. فنصحهم بالا يذهبوا فى تصرفاتهم شططا ، ثم سار فى خطوات واسعة الى ان وصل الى غابة متاخمة ، فجلس فى حديقة خاصة ، واخذ ينظف اسنانه مما علق بها .. فهاجمه بعض رجال الشرطة ، فصرخ فيهم أن يتركوه ، ثم سار فى البستان فأتلف ارضه وهدم جزءا من سوره ورجال الشرطة يتبعونه .. واصطدم بقدمه شرطى فوق جواده فوقع الجواد وراكبه

وهتف « كادلز » فى الجماهير ان يتركوه وشأنه ، وكان قد القى ساطوره فى الطريق .. فشعر بحاجته الى سلاح ، ويمم صوب فناء للبضائع وانتزع عمودا من أعمدة الاضاءة ، حمله على كتفه ثم واصل سيره مكفهر الوجه مكتئبا ، الى أن وصل ثانيا الى لندن ، مخترقا المقابر ... وجلس يلتمس بعض الراحة فى احدى الحدائق مستندا بظهره الى جدار احد المنازل ، واساريره تنم عن غضبه ، وخشيه الناس فاختبئوا وراء الاشجار ، واخذوا يسترقون اليه النظر ، وراح هو يتحدث الى نفسه قائلا :

ـ لست اعلم ماذا يدفعهم الى مطاردتى ؟ .. لماذا لا يتركوننى وشأنى ؟ .. الست بشرا ومن حقى ان آكل ؟ ! ..

ثم اخذ يجز على اسنانه فى غيظ ، وعاد يقول :

ــ اهكذا أكدح أنا واقطع لهم الطباشير .. وهم ينعمون ويسودون ويملكون .. ولا يسمحون لى بطعام او مكان ؟ !

واستبد به الغضب حين رأى شرطيا يعتلى سور الحديقة ، فصرخ « كادلز » فيه قائلا :

ــ قف مكانك .. ودعنى لشأنى ! ..

ــ انه واجبى أؤديه ..

ــ قلت لك دعنى وشأنى .. ان لى الحق كل الحق فى ان أعيش مثلكم ، وأن آكل وأفكر ..

ــ انا أنفذ القانون .. ولسنا نحن واضعوه .. !

ــ ولست انا ايضا واضعه .. انه قانونكم ، تحظرون به على الطعام الا بالكدح كالعبيد الارقاء ، وتحرمونى من الراحة والمسكن ، ومن كل شىء مستطاب

ــ ليس هذا من عملى ، وليس لى أن أتناقش معك فيه

وفى هذه اللحظة ، برز من خلفه بعض زملائه من رجال الشرطة .. فامسك « كادلز » بالعمود الضخم الذى معه متأهبا ، واكفهر وجهه ، وأشار بيده منذرا ومهددا ، وقال :

ــ ليس بينى وبينك ضغينة .. فاتركنى وشأنى ...

فهتف به الشرطى بحدة آمرا :

ــ عليك ان تعود الى بيتك .. والى محجر الطباشير حيث عملك ، والا اصابك أذى مستطير ..

فزمجر « كادلز » دون ان يلجأ الى العنف بيد أنه رأى اربعة آخرين من رجال الشرطة يحملون البنادق ، وقفوا فى هدوء مصطنع ، مستندين الى الجدار بظهورهم ،

فاستبد به الغيظ وتذكر ما سبق ان أصابه من رصاص البنادق ، فقال لهم :

ـ أتعتزمون اطلاق الرصاص على ؟!..

فجال بذهن الشرطى انه خائف ، فقال له :

ـ اذا رفضت العودة الى محجر الطباشير ...

وفى لمح البصر كان الشرطى يلوذ بالفرار قلقفزا فوق السور ، فقد كان « كادلز » يطارده بالعمود ، ثم دوت طلقات البنادق وتطايرت أحجار السور ، وتناثرت معها أشياء تركت آثارا حمراء على يد واحد منهم ، واستعد رجال الشرطة لاستئناف اطلاق النار من جديد ، وأصابت رصاصتان « كادلز » ، اخترقتا جسمه ، فتلفت ليرى من ذا الذى أصابه فى ظهره تلك الاصابة المؤلمة ، وتوالت الطلقات ..

ودارت بخيال « كادلز » فى تلك اللحظة صور كل ما مر به من منازل وحدائق وأولئك الذين كانوا يطلون عليه من نوافذهم ـ فى شكل مهزوز مضطرب ـ وخطا بضع خطوات ، ورفع العمود ثم عاد فألقاه على الفور ، وراح يمسك صدره ويتحسسه وهو يتلوى من شدة الالم ..

وشعر بسائل ساخن على يديه ..

وشاهد هذا المنظر شخص كان يطل من نافذة منزله .. رأى « كادلز » يحملق فى الفضاء ، فاغرا فاه ، مقطب الجبين ، يبكى من شدة الالم ويداه غارقتان فى الدماء .. وفى لحظة خارت ركبتاه وانثنتا ، وسقط على الارض جثة هامدة ، فكان أول شهيد من الجبابرة ..

سجين في بيته

أمر «كترهام» رجاله بالقبض على « ردوود » ، ووجد الرجال حين ذهبوا اليه أن عملية جراحية أجريت له فى جنبه ، وأن الاطباء أشاروا بأن يكون بمنأى عن كل ما يثيره .. وكان قد غادر الفراش حين أتوا اليه ، واخذ يقرأ إنباء الاضطرابات ، وأنباء ابنه والاميره وما يتعرضان له من أخطار .. وكان ذلك فى صبيحة يوم مصرع « كادلز » وأحس أن شبح الموت يقترب . وتطلع فى قلق واضطراب الى رجال الشرطة حين دخلوا عليه . واستقر راى الرجال على أن يمهلوه يومين قبل نقله حتى لايصيبه اذى ، واكتفوا بالتحفظ عليه فى بيته ، ثم اجروا تفتيشا واخذوا أوراقه الهامة رغم اعتراضه واحتجاجه ، فقال لهم :

ـ لايهمنى الآن أمر الفداء السحرى .. أريد أن اطمئن على ابنى ..

بيد أن رجل الشرطة لم يخبره بشيء عنه ، وحاول « ردوود » معالجة فتح الباب دون أن يدرى أن صلته بالعالم الخارجى قد انقطعت .. فأفهمه الشرطى انه عبثا يحاول ذلك . فعمد الى الجرس يضغطه فى الحاح مما أزعج رجال الشرطة ، فحضر اليه كبيرهم وطلب اليه أن يكف عن ذلك والا فلن يلبى أحد طلبا له اذا كان فى حاجة الى شيء ، ثم افهمه انهم على استعداد لتلبية طلباته المعقولة وانه لا داعى لازعاجهم والاحتجاج بهذه الطريقة، ثم سمعه رجل الشرطة يقول :

ـ بوسعكم أيها الرجال أن تصارحونى ، هل ابنى ..؟

***

لم يجد « ردوود » أمامه سوى النوافذ يلوذ بها ،فراح

يقضي معظم اليوم يتطلع منها .. بيد أن ذلك لم يحمل اليه ولا ريب أى انباء عن أحداث الخارج ، فقد كان الهدوء الشامل يحيط بالبيت وما حوله . وكل ما رآه ، كان عددا قليلا من الرجال يمرون بين الحين والحين ، لا تنم اساريرهم على أنهم يعلمون شيئا عما يجرى ، أو بعض الاطفال أو امرأة خرجت لتشترى شيئا ، وكانوا ينظرون الى البيت المحاصر برجال الشرطة فى دهشة ، ويحملقون ويتساءلون

وأطلت خادمة من نافذة فى البيت المواجه لبيت « ردوود » .. فأشار اليها بيده ، فردت على اشارته ردا لم يفهمه ثم اختفت ، كما خرج رجل من البيت التالى ولكنه سار فى طريقه دون أن يلقى بالا الى ما حوله ..

وانقضى الصباح وأقبل الظهر ، فسمع « ردوود » باعة الصحف يهرولون وينادون .. بيد أنهم سرعان ماابتعدوا دون أن يمروا بالشارع الذى فيه بيت « ردوود » على خلاف عادتهم ، وبدا له أن رجال الشرطة هم الذين أمروا بذلك وسدوا منافذ الشارع .. وأراد فتح النافذة ، فحضر اليه شرطى على الفور

ولعل النعاس قد غلبه فارتمى على مقعد أدناه من النافذة وأخذته سنة من النوم ، ثم استيقظ على حركة شديدة عن بعد لا يعلم كنهها ورأى النافذة تهتز كأنما من تأثير زلزال ، وسكنت الحركة قليلا ثم عادت ، وجال بذهنه أنها من تأثير عربة كبيرة محملة بالاثقال . وقفز الى ذهنه فجأة أنهم ربما يلقون القبض على الجبابرة جميعا فى وقت واحد ، كما كانوا يذكرون فى دعاياتهم الانتخابية ..

وأغلب الظن أنهم ألقوا القبض على « كوسار » .. وان كان « ردوود » يعلم مدى تمسك « كترهام » بأهداب

الدين ، ولكن شعور « ردوود » الباطن كان يوحى اليه بشىء رهيب ، وطالما حاول أن يبعد عن نفسه هـذا الشعور ولكنه لا يلبث ان يعاوده .. شعور بأن مذبحة توشك أن تحدث .. مذبحة رهيبة وحشـية ، ولكنه انكر أن يقدم « كترهام » على ذلك وهو الرجل المتدين المتمدين ، واستبد به التفكير فصاح :

ـ لا يمكن أن يكون .. ان الانسان لا يفقد صوابه الى هذا الحد .. ماذا يغنمون أو يفيدون من قتل الجبـابرة الآدميين ، وقد غلبوا على أمرهم فى الجبابرة من الكائنات الاخرى ؟ .. لن أسمح لنفسى بالتفكير فى ذلك اطلاقا ..

وفجأة لفه الاضطراب فقد شعر بالنـوافذ تهتز فى عنف ، واطل من احداها يستطلع الامر ، فوضح له ما تناهى الى سمعه .. اذ رأى امرأة فى المنزل المواجـه لبيته ، ورأى رجلا فى المنزل الذى يليه وكلاهما يحـدق فى الشـارع فى ذعر وذهول ليتبينا حقيقة ما يجرى ، ثم رأى الشرطى الواقف بالشـارع قد لاح عليه انه سمع هو الآخر ذلك الصوت .. اذن لم يكن وهما او خيالا هذا الذى تناهى الى سـمعه ، وعاد الى داخل الحجـرة ثم قال :

ـ أهى مدافع اذن ؟! ..

وجاءوا له بالشاى المركز الذى تعود أن يحتسيـه . وعرف أنهم استقوا بعض المعلومات عنه من السيدة التى يقيم عندها .. وانتهى من احتساء الشاى ، ولكن حدة اضطرابه حالت بينه وبين الجلوس الى النافذة ، فراح يذرع الحجرة غدوا ورواحا ، وقد ساعده ذلك على أن يفكر تفكيرا رزينا ..

ولمح الصور المعلقة على الحائط ، واستلفتت نظـره

صورة ابنه فاتجه اليها .. وأعادت هذه الصـــورة الى مخيلته ذكريات كان قد نسيها .. ذكريات الايام الاولى للفداء السحرى .. و « بنزنجتون » ومخاوفه .. وابنة عمه «جين» .. و «كوسار» .. وتلك الليلة الليلاء التى قضاها بالمزرعة .. تراءت له كل هذه الذكريات فى صورة واضحة ، كأن الاعوام التى مضت عليها لم تستطـع أن تطمس معالمها .. ثم تذكر طفولة الجبابرة والمخدع الكبير الذى كان قد أعده لابنه .. وكذلك تذكر المرة الاولى التى شعر فيها بعاطفة الحب الابوى ..

ولفه شعور طاغ ، لم يستطع له دفعا ، بأنه آمن يحيط به هذا السكون الرهيب وهذا الصمت العجيب ، بينما ابنه الحبيب وأبناء « كوسار » الاعزاء ، وكل هـذا الثمر الطيب الذى هو طليعة العهد الزاهر المقبل ، يناضلون فى تلك الساعة ، ويقاتلون دفاعا عن حياتهم وفقا لقانون تنازع البقاء .. وربما كان ابنه فى هذه اللحظة فى مأزق تحيط به الاخطار ، أو جريحا مغلوبا على أمره ..

ونحى « ردوود » هذه الفكرة عن ذهنه ، وابعدها عن خاطره ، وراح يذرع الغرفة ويلوح بيديه وقـد توترت اعصابه ، ثم صاح :

ـ كلا .. لا يمكن أن يكون هذا .. لا يمكن أن يكون هذا مطلقا .. آه .. ماذا أسمع ؟! ..

وتسمر فى مكانه ، كأنما أصاب أوصاله شلل .. فقد عادت النوافذ تهتز فى عنف هائل ، ثم سمع دكة ارتجت لها جدران البيت وراح فى دوامة .. وقد ظن انهم يدكون البيت على من فيه وما فيه ، فقد رأى زجاج النـوافذ يتساقط ويتناثر ، فأصابته صدمة شـديدة ، بيد أن السكون ما لبث أن عاد ، وتبين أن أقـداما تعدو فى الشارع ..

وتبهه ذلك من ذهوله فاتجه الى النـــافذة ورأى زجاجها الذى تهشم معظمه .. وتتابعت دقات قلبه ، وأوحى اليه الشعور الباطن بأن أحداثا جساما توشك أن تفك اساره وتنقذه .. بيد أن شعوره بضعفه وبوطـأة القيود القائمة عليه جعلته فى حيرة وذهول من امره ..

ولم يستطع أن يرى شيئا فى الخارج لان المصبـــاح المواجه للنافذة كان مطفأ ، كما لم يستطع أن يسمع شيئا بعد ذلك الصوت المدوى الذى هلع له قلبه . ولاح له وميض أحمر مضطرب فى قبة السماء من ناحية الجنوب الشرقى ، واخذ ضوء هذا الوميض يقوى ثم يضـــعف ، ويظهر ثم يختفى فى الظلام ، فكان هذا شـــاغله فى ليله الطويل الرهيب .. ليل الانتظار ، وخيل اليه أنه لهب يتراقص الى أن اختفى على ضوء القمر .. فتساءل عما عساه أن يكون ؟ .. لعله نار قريبة أو بعيدة ، ولم يتبين ما اذا كانت تلك التى مرت فوقه سحابة أو دخانا . ولاحت له بعد منتصف الليل أضواء كاشفة قوية دامت طـوال تلك الليلة الرهيبة .. وتساءل ايضا عما عســـاها أن تكون ، وأوحت تلك الرؤى المضطربة الى عقله أن انفجارا ما قد حدث ، فتضاعف اضطرابه واشتد قلقه ..

ولم يفكر فى اضاءة حجرته ، ولاذ بالنـــافذة فوقف أمامها معرضا نفسه لتيار الهواء ، فرآه الشرطى وطلب اليه أن ينام ليستريح .. وهكذا قضى ليلته أمام النافذة شاخصا الى السماء ببصره كأنه يريد ان يستشف من وراء حجبها مجريات الاحداث ، وكانت قواه قد انهارت عنـــد الفجر فتهالك على السرير الصغير الذى أعـــدوه له الى جوار الموقد ..

وهكذا ظل « ردوود » ثلاثة ايام فى عزلة عن العالم سجينا فى بيته لا يدرى شيئا عن المأســـاة الرهيبة التى استمرت يومين ، راح الصغار يقاتلون فيها هذه الطليعه من الجبابرة العظام .. فلما رفع عنه الحصار فجأة كما فرض عليه فجأة ، وجد نفسه عن كثب من ميدان النضال. وما أن سمع صوت عربة تقف على باب بيته حتى أقبل الى النافذة يستطلع الامر ، فرأى شابا صغيرا يهبط منها .. وبعد لحظة كان الشاب ماثلا امامه فى الحجرة ، وكان أنيق الثياب يبــدو انه على جانب من الادب والدماثة ، وابتدره الشاب قائلا :

ـ هل يسمح سيدى مستر « ردوود » بمقابلة مستر « كترهام » .. فانه يود أن تلقاه على عجل ..

ـ وماذا فعل بابنى ؟ ..

ـ انه فى طريقه الى التحسن .. هذا ما يمكن التكهن به الآن ..

ـ ماذا تقول ؟ .. فى طريقه الى التحسن ! ..

ـ ألم يبلغك أنه جرح بالامس يا سيدى ؟

ولم يصدق « ردوود » ذلك ، كما لم يطق الســكوت فقال فى غضب :

ـ انك تعلم جيدا انه لم يصل الى علمى شىء من هذا..

ـ ان مستر « كترهام » نفسه كان يتوقع المتاعب .. لقد عمت الثورة وشاع الاضطراب ، وكان ذلك مباغتة لنا .. ولقد حوصرت ياسيدى حتى لا يقع عليك اعتداء ..

ـ بل بقصد الحيلولة ، بينى وبين تحذير ابنى واسداء النصح اليه .. اخبرنى بصراحة .. ماذا حدث ؟ .. هل قتلتموهم ؟

وسار الشاب بضع خطوات ثم قال فى ايجاز :

ــ لا يا سيدى ..

ــ أفصح بالله عليك ..

ــ لم نكن نحن البادئين يا سيدى ، ولم نبيت النية له .. بل بوغتنا على غير استعداد من جانبنا ، ونشب قتال عنيف أتى على كل شيء .. نتيجة سوء فهم ذريع، فقتل عدد من الجبابرة ..

ــ هل لا يزال القتال دائرا ؟

ــ كلا يا سيدى .. تقدم « كترهام » بطلب الهدنة ، وبعث رسولا لهذا الغرض بعد أن أدرك الدافع وهو سوء الفهم .. وهو لهذا يرجو أن تلقاه ليوضح لك وجهة نظره، فانهم يرون ضرورة تدخلك فى النزاع .. !

ــ ماذا حدث لابنى بالضبط ؟ ..

ــ قلت لك انه جرح .. جاء ومعه الاميرة قبل اتمام الحصار الذى أريد اقامته على مقر أبناء « كوسار » .. جاءا فجأة واندفعا الى اجمة قريبة من النهر ، ثم هاجما كتيبة من الفرسان الذين فزعوا لانهم كانوا فى حالة شديدة من توتر الاعصاب ..

ــ وهل أطلقوا عليه بنادقهم ؟ ..

ــ كلا .. لان الجند فروا .. ولكن بعضهم دفعهم الهلع فأطلقوا الرصاص مخالفين الاوامر التى قضت بعدم ضرب النار من أجل الاميرة ..

ــ هذا معقول ..

ــ واندفع ابنك نحو مقر أبناء « كوسار » .. وجرى الجند ودوت الطلقات ، وقال شاهد عيان انه رآه يترنح..

ـ رباه ٠٠ !

ـ ولكن جرحه سطحى يا سيدى ٠٠ فقد بعث برسالة معنونة باسمك يذكر فيها أنه يتقدم حثيثا نحو الشفاء

ـ وماذا كان مصير الجبابرة الآخرين ؟

ـ هلك منهم ثلاثون يا سيدى ٠٠ عدا من جرحوا ٠٠

ـ وبعد كل هذا يطلب « كترهام » أن ألقاه ؟ ! ٠٠

ـ لقد لاذ بعضهم ببيوتهم أثناء النضـــال .. اذ يبدو أنهم عرفوا ٠٠

ـ طبعا ٠٠ ولولا « كوسار » ٠٠ هل هو هناك ؟

ـ أجل وجميع الاحيـــاء منهم ٠٠ توجهوا أو هم فى طريقهم الآن الى بيوتهم ، تؤمنهم الهدنة ٠٠

ـ هل أفهم أنكم منيتم بالهزيمة ؟

ـ كلا يا سيدى ٠٠ لقد خالف الجبابرة نظم الحروب وقوانينها ، فقد هاجمونا بعد أن توقفنا عن القتال ٠٠ هذا بالاضافة الى انهم بدءوا يلقون قنابلهم على لنـدن بعد ظهر اليوم ..

ـ انهم جد معذورون ومعهم كل الحق ٠٠

ـ ان قنابلهم تحمل السم ٠٠ فانها محشوة به ٠٠

ـ بالسم ؟ ! .. أتعنى ما تقول ؟ ..

ـ أجل ٠٠ بالغذاء السحرى ٠٠ أليس هو السم ؟ !٠٠

ـ اذن فهزيمتكم محققة لا ريب فيها ٠٠ هذا من تدبير « كوسار » .. لقد افلت الزمام من يدكم، وستستنشقون ـ ولا حيلة لكم فى ذلك ـ غبار هذا الغذاء الذى سينتشر فى الهواء دون أن تستطيعوا له دفعا ٠٠ فما جدوى القتال بعد ذلك؟

•• ان « كترهام » يغرر بى لكى أعاونه حتى يساومهم •• لقد لطخ يديه بدم الابرياء ، ونشر الفتنة والدمار •• فماذا يدفعنى الى مؤازرته ؟ ! ••

ـ لا اكتم عنك يا سيدى أن الجبابرة يلحون فى أن توافيهم •• ويقولون فى اصرار أنهم لا يقبلون وسيطا سواك .. ان تخلفك قد يتسبب فى تجدد القتال وسفك الدماء ••

ـ أتخشون سفك دمائكم ؟ !

ـ بل سفك دماء الطرفين •• والرأى العام يلح فى ضرورة الاسراع بوضع حد لهذه المأساة ••

ودار « ردوود » ببصره فى أرجاء الحجرة ، واستقرت عيناه على صورة ابنه المعلقة على الحائط ، فراح يتملاها برهة من الوقت •• ثم استدار الى الشاب الذى وقف ينتظر الرد الذى ينطق به « ردوود » وأخيرا قال :

ـ اننى سأوافيهم ••

***

واجتمع « ردوود » ب « كترهام » اجتماعا لم يكن يتوقعه ، وعندما رآه أدرك أنه يتمتع بجاذبية شخصية ، لعلها هى التى مكنته من شق طريقه فى الحياة حتى بلغ الذروة

ودار بينهما الحديث ، وسيطر « كترهام » على زمامه ، مستعينا بأسلوبه الخاص الذى رسم به خيوطه وخطوطه، جاعلا نصب عينيه البحث عن أنجح الوسائل لتفادى استفحال الخطر

وشعر « ردوود » خلال الحديث أنه لم يحضر ليتبادل مع محدثه وجهات النظر ، اذ راح « كترهام » يستأثر

بالجانب الاعظم من الحديث حتى صار « ردوود » شبه متفرج .. وادرك فى النهاية انه أمام عقل كبير ولكنه ضيق الافق ، اذ اتضح له أنه لم يكن ليهتم بالهزيمة أو حـــتى بالموت قدر اهتمامه بما عسي ان تتمخض عنه الاحداث الجارية من أثر فى مركزه ، وفى الغالبية المؤيدة له .. هذا اهم امر يشغل باله .. ان أمامه طريقين لا ثالث لهمـا ، فاما ان ينتصر على الجبابرة ، واما ان يسقط هو من ذروة المجد ويهوى نجمه بعد تألق .. !

واتضح ل « ردوود » أن « كترهام » لا يتورع عن تزييف الاصوات اذا استطاع ذلك ، لكى يحفظ لنفسه المركزالذى وصل اليه ..

ولم يفقد « كترهام » الامل ، وان راح ينحى علىنفسه باللائمة لما أوصله اليه سوء تصرفه من أزهاق أرواح وهلاك حرث وفتح ثغرة لحرب مقبلة لا هوادة فيها ، قد تقضى على كل حضارة وكل مدنية بل يتأرجح بها مصير العالم ، بيد انه كان يعتمد على صوته المجلجل الرنان وقدرته على الاقناع عند تفسير الامور وفق هواه ، للاحتفاظ بمركزه

الفصل العاشر :

جيل جديد !



كان على « ردوود » أن يعى كل كلمة تقال لما سيكون لها من الاهمية عند نقلها الى الجبابرة ..اقترح«كترهام» أن يلقى هؤلاء اسلحتهم ويستسلموا ، وأن يكونوا جبهة قائمة بنفسها ، وأن فى وسعه أن يفرد لهم مقاطعة لهذا الفرض فذلك من السهولة بمكان ، على أن تكون السلطة بيد الهيئة الحاكمة دون أن تشمل الجبابرة ومستقرهم، وأن يقضي على الغذاء قضاء تاما ، وسأله « ردوود » :

ـ وماذا يكون عليه موقف الاميرة ؟

ـ ان لها اعتبارا خاصا لا شأن لغيرها فيه ..

واعترض « ردوود » على ذلك ، فأشار « كترهام » بتأجيل بحث هذه النقطة ما دام الاتفاق قد تم على عدم انتاج الغذاء ، فقال له «ردوود » انه لم يوافق على شيء، وتساءل «كترهام» كيف يعيش نوعان من الخلائق صغير وكبير فى وقت واحد ، وماذا يتمخض عنه هذا الغذاء فى المستقبل ؟ ورفض « ردوود » أن يشتبك معه فى جدل قائلا انه يجب عليه أن يرجع الى الجبابرة ، وطلب ايضاح طلباته ، فقال « كترهام » :

ـ سيكون لهم اقليم كبير مستقل فى ربوع أمريكا أو افريقيا يعيشون فيه ويمرحون كيفما يطيب لهم ذلك .. فيفيدون ويستفيدون ..

ـ ولكن هناك جبابرة منتشرون فى أوربا !..

ـ يمكن التغلب على ذلك بميثاق دولى .. وقدجرت محادثات فعلا بهذا الصدد .. بيد انى اشترط الا ينجبوا اطفالا حتى ننقذ العالم من ثمار هذا الفداء .. اننا نحرق الآن الاماكن التى سقطت فيها قنابلهم ، ويجب أن تحملهم على قبول شروطنا .. والا فلا مفر من القتال فاننا لا نقبل أن تتلف أقدامهم الضخمة أرضنا ... ولا يغيبن عن الذهن أن من خلفنا شعبا بأكمله مستعد للنضال .. اننا نحن الذين بدأنا بالهدنة حقنا للدماء .. ولكن بوسعنا أن نقضي عليهم ، وان ما أعرضه الآن يحفظ الارواح جميعها ، أرواحهم وأرواحنا .. هل فى مقدور فئة قليلة أن تقهر شعبا بأسره ، يعضده ولاشك كثير من الشعوب الاخرى .. هل تريدون أن تقلبواميزانالبشرية بهذا الفداء ؟ .. اذهباليهم يا سيدى لتراهم وترى جرحاهم ..

ثم اشاح « كترهام » بوجهه وضغط على زر ، فسمع على الاثر وقع اقدام تقبل وصرير أبواب تفتح ..

***

استقل « ردوود » السيارة التى اعدت له ، وكانت الحشائش الضخمة ونبات القراص تكتنف الطريق من الجانبين ، ووصل السائق الى قمة التل وأشار بيده الى شيء اسود ، ورأى « ردوود » السور الهائل يعلوه ضوء وهاج وانوار كشافة تضيء ما يحيط بها ، ويظهران السائق كان يخشى أن يتقدم فى السير خطوة واحدة بعد ذلك .. والتمع فى قبة السماء ضوء ساطع استقرعليهما وغشى ابصارهما فوضعا أيديهما على أعينهما .. ثم مرق السائق بسيارته وصوت بوقها يشق سكون الليل ، ولا يدرى أحد ماذا دفع السائق الى هذه السرعةالجنونية..

ووجدا طريقا معتما يقوم عليه سور ، فاطمأنا الى السير فيه ، وهبطت بهما السيارة الى احدى الوهاد تقوم على جانبيها بيوت متناثرة ، ثم خرجا الى طريق مكشوف.. ومن جديد أخذت تحيط بهما النباتات الضخمة ، وفجأة وقعت عيونهما على واحد من الجبابرة ظهر فى وضوح حين وقع عليه الضوء الساطع ، صاح بهما :

ــ قفا ولا تتخطيا هذا المكان .. آه .. الاب « ردوود » ! ..

فتوقفت العربة عن التقدم ، وقد عقدت الدهشة لسانه ، وأجاب بغمغمة مبهمة .. لمح بعدها « كوسار » فى الطريق الى جانبه ، يعينه على النزول من العربة ، وبادره « ردوود » بقوله :

ــ ماذا حدث لابنى ؟ ..

ــ انه فى خير حال .. لم تكن اصابته خطيرة ..

ــ وكيف حال ابنائك ؟ ..

ــ جميعهم على احسن حال .. لقد بذلنا جهودا عنيفة لننجيهم ..

وتحدث الجبار الى السائق ، ثم دارت السيارة واختفى «كوسار» فجأة ولف الظلام «ردوود» لان الضوء راح ينير الطريق للسيارة فى صعودها التل ، واخذ « ردوود » يرقبها لحظة ، ثم استدار فوجد « كوسار » الى جانبه ، فأمسكه من يده وقال له :

ــ لقد حاصروا بيتى وحبسونى فيه ولم يسمحوا لى بالصحف مدة يومين !

ــ ونحن اطلقنا عليهم الغذاء السحرى فى قنابل ألقينا منها عليهم ثلاثين واحدة !

ـ وأين ابنى ؟ .. أريد أن أطمئن عليه ؟ ..

ـ انه فى خير حال .. والجبـــــابرة كلهم ينتظرون رسالتك ..

وسار مع « كوسار » فى نفق طويل منحدر أضيء لحظة لينير لهما الطريق ، حتى وصلا الى الحفرة التى اتخذها الجبابرة مقرا لهم وقد تراءت ل «ردوود » كأنها ميدان فسيح تحيط به الصخور ، وتناثرت على أرضه أشـياء متنوعة ، وتنعكس عليه بين الحين والحين أنوار كشافة، وفى ركن منه ـ كان يضيئه وهج أحمر ـ يعمل اثنان على أصوات المعادن ، وكذلك راى قواعد رجـح أنها جعلت للمدافع ، وبجانبها أجسام اسطوانية هائلة لعلها ذخائر، ورأى الآلات الضخمة فى كل مكان دون أن يدرك الفرض منها ، وراى الجبابرة يروحون ويغـــدون ، ويظهـرون ويختفون بين تلك الآلات ، بعضهم مكب على العمــــل وبعضهم مستلق على الارض يلتمس الراحة والنوم،ورأى « كوسار » أحدهم مستغرقا فى النوم وهو ممـدد على محفة من أغصان الصنوبر وقد لف جسمه بالاربطـة . وراح « ردوود » يحدق فى أجسامهم ، وتتنقل عيناه من واحد الى آخر ، واخيرا قال :

ـ أين ابنى يا «كوسار » ؟ ..

وفجأة وقعت عليه عينه .. كان جالسا فى ظل جدار هائل من الصلب ، ولم تكن ملامحه واضحة فى أول الامر وقد اعتمد ذقنه بيديه فى تفكير عميق .. والى جانبـه لمح الاميرة ، وراى وجهها الجميل على ضوء الوهج يفيض عطفا وهى لا ترفع عينيها عن حبيبها ، متكئة الى الجدار، وخيل اليه انها تهمس فى اذن ابنه ، وأراد أن يتركهما ، فقال له « كوسار » :

ـ والآن حدثنا برسالتك ..

ثم سار « ردوود » و «كوسار» فى طريق منحدر ، تعلوهما آلات متشابكة ، ووصـــلا الى ممر كبير يخترق الحفرة ، فشعر « ردوود » بضآلة حجمـــه .. ورأى الجبابرة بالمر يروحون ويغدون ، وقد ارتفعت أصواتهم هاتفين بطلب الاجتماع للاستماع الى الرسالة التى بعث بها « كترهام » والى شروطه ، ووصل به الممر الى مكان فسيح معتم فيه أشياء غامضة لا يعرفها، سارخلالهاشارد الذهن ، وامسك « كوسار » بيد صديقه بسبب العتمة فقال « ردوود » :

ـ اننى أرى عجبا .. رغم انى سبب من أسباب وجود هذا الذى أرى ! ...

ـ انها الضخامة يا صديقى .. لقد وضعت انا الاسس ثم اسلمت كل شيء لابنائى ..

***

وبعد ان اخترقا ممرات ملتوية وارتقيا درجات كثيرة، وصلا الى لسان صخرى بارز يطل على حفرة الجبابرة الذين اجتمعوا ليستمعوا الى الرسالة . ووقف الابن الاكبر على السور للحراسة خشية مفاجاتهم بهجوم ، وراح أثنـــان آخران يرقبان الالات فى عملها ، وكان الضوء القـــوى يسطع على أجسام الجبابرة فيكشفها للعيان ، وملابس البعض منهم من المعدن طبقات فوق بعضها بينما ملابس البعض الاخر من الجلد أو الحبال او المعادن المجدولة ، وكانوا فى وقوفهم وثباتهم جبابرة حتما ..

وهم « ردوود » أن يتكلم ولكنه لم يستطع ، وبدا له

وجه ابنه على وهج الضوء ورأى الحنان في عينيه ، فارسل صوته مجلجلا :

ـ سألقي على مسامعكم الشروط التى كلفنى « كترهام» بحملها اليكم •• وانى اذ اراكم الان فى اجتماعكم هذا أرى أنه من المتعذر قبولها •• لقد قبلت القيام بهذه المهمة لكى أراكم وأرى ابنى •• نعم لاراكم وأرى ابنى •• !

فقال له « كوسار » :

ـ أفصح لهم عن الشروط ••

ـ يطلب « كترهام » أن ترحلوا عن البلاد ••

ـ الى اين ؟ ••

ـ لم يوضح المكان ولم يحدده .. انه يقول ان عليكم ان ترحلوا الى أى بقعة فى العالم •• بقعة فسيحة تتسع لكم ، وكذلك عليكم ان تمتنعوا عن صنع الغذاء السحرى، ومحظور عليكم انجاب أبناء ، ولكم بعد ذلك أن تعيشوا كيفما تشاءون •• هذا ما كلفنى بأن انقله اليكم ••

وران على المكان صمت كصمت القبور ، ثم شعر بيد تلمس ساعده .. وأتى اليه « كوسار » بشيء قال انه كرسى ، وجلس «ردوود » واضعا ساقا فوق أخرى وقد ضم قبضتيه فى عصبية وشعر بضآلته وحرج موقفه ، ثم سمع صوتا يقول :

ـ هل سمعتم أيها الاخوان ؟ •• بماذا تجيبون على طلبات « كترهام » التعسفية ؟ ••

ـ اننا نرفضها ولا نقبلها بحال من الاحوال ! ••

وعاد الصمت من جديد الى أن قطعه صوت يقول :

ـ انهم محقون على حسب وجهة نظرهم ... فمن

الطبيعى ان يناهضوا كل ما هو أضخم منهم من الكائنات الاخرى .. وفيما حاولوه من افنائنا والقضاء علينا .. وفى قولهم بانه محظور علينا انجاب اطفال، لقد حان الوقت الذى يجب أن ندرك فيه أن وجود أقزام وجبابرة جنبا الى جنب أمر لا يمكن ان يقوم .. وكثيرا ما ردد «كترهام» بأن العالم لا يتسع لكلينا ، وانه اما لهم واما لنا ..

وقال آخر :

ـ اننا لا نزيد على الخمسين عدا .. بينما هم ملايين وملايين ..

ـ اننى ابصرتكم بالأمر الواقع وبالحقيقة ..

ـ وهل نموت نحن ؟ .. أو يموتون هم ؟ ..

ـ لا هـذا ولا ذاك .. ان «كترهام» يريد أن نحيا ثم نموت واحدا فى اثر واحد الى أن ننقرض .. ويستأصل هو وقومه جذور النبات الضخم، ويهلكون الكائنات الاخرى التى نمت ، ويحرقون الغـذاء السحرى فيقضون علينا وبذلك يعيشون هم وفق هواهم آمنين مطمئنين ..

وفى هذه اللحظة سقطت على الارض قطعة من الحديد هائلة فأحدث سقوطها صوتا أشبه بالرعد ، وعاد الصوت يقول :

ـ اننا ايها الاخوان ندرك ما يجب علينا ان نفعله

وابصر «ردوود» عيون الاخوان تتجه الى ابنه فى تلك اللحظة ..

ـ من السهل أن نصنع من الغـذاء السحرى ما يكفى العالم اجمع .. وهذا ما سنفعله .. لقد صمدنا وسنستمر على صمودنا .. لا نفكر فيمن ماتوا .. بل نفكر فيمن سيولدون ..

وقال «ردوود» الصغير :

ـ ليس امامنا الا النضـــال ، فاذا ما قهرناهم فرضنا عليهم الفداء .. انهم يتناولونه الآن رغم أنوفهم .. ونحن اذا اذعنا لحماقات «كترهام» وتنكرنا لفضل آبائنا علينا، وتغاضينا عما يعتمل بين جوانحنا وفى اعماقنا فماذا يكون مآلنا .. ان بوســعهم أن يقاتلوا عظمتنا ، ولــكن ليس بوسعهم أن يقضوا عليها حتى ولو أفنونا عن آخرنا ... لأنها لم تعد محصورة فى اشخاصنا ولا فى الفداء .. بل لانها غاية كامنة فى الطبيعة وفى الزمن .. سينمو كل كائن، هذا ناموس الحياة والنماء المتواصل ..!

ـ انهم سيقاتلوننا وسيبذلون كل ما فى طاقتهم للقضاء علينا ...

فقال واحد منهم :

ـ اننا لا نخشى شيئا ..

فقال « ردوود » الصغير :

ـ لا ريب فى انهم سيقاتلوننا فى حالة رفضنا لشروطهم .. بل انني لاتمنى انيكشفوا عن ذلك ويبدءوا الحرب .. انهم يخدعوننا بهذه الهدنة المصطنعة لياخذونا على غرة .. فخذوا حذركم ، لا بد مما ليس منه بد !. قد يأتى وقت تصنع لهم فيه اسلحة أمضى مما لديهم ، يقتلون بها ابناءنا .. اننــا على عتبــة الطريق .. ان امامنــا صراعا عنيفا سيستشهد بعضنا فيه ، ولن نسلم من غدرهم ، والنصر يتطلب مضاعفة الجهود .. وعلينا ان نعمــل لمستقبلنــا ولذريتنا ، فنعمر العالم بالفداء ونشبعه .. ولنتمسك به فهو شرطنا الاول .. لا يمكن ان يسود وئام او صفاء بين جبابرة واقزام .. فليكن الجميع جبابرة ..أى هراء ذلك

الذى ينادى به الاب حين يقول « يجب أن يكون ابنى كما كنت أنا » .. ألستم على هـذا الرأى الذى أبديته أيها الاخوان ؟..

وامن الجميع على قوله ، ثم قال واحد منهم :

ـ بل هـو راى نسلنا الذى سـيولد .. من أطفـال يصبحون رجالا ونساء .. أولئك الذين سيكونون جيـلا جديدا ..

وقال « ردوود » وقد اتجه بنظره الى ابنه :

ـ لا تنسوا ان الجيل التالى سيكون فيه اقوام صغار لان التطور يحتاج الى اجيال عدة .. وسـيقوم بينهم النزاع كما هو قائم الان ..

ـ بل سيكون نزاعا لا نهاية له ، ولن يستطيع الطرفان ان يتحابا أو يتعاونا .. ذلك لان العظمة كامنـة فى كل مولود يتلهف على الغذاء لينمو ..

ـ اذن سأعود لاخبر « كترهام » برأيكم ..

ـ كلا .. ستبقى أنت معنا .. وسنبعث له نحن برأينا فى فجر الغد ..

ـ وصل الى سمعنا أنه ينوى استئناف القتال ..

فقال « ردوود » الصغير :

ـ وماذا فى ذلك ؟. ليفعل . وليكن ما يكون ..

وامن الجميع على قوله ..

وفجأة قفز الى ذهن « ردوود » خاطر عجيب .. فقد خيل اليه ان كل ما يراه أمامه ليس الا اضغاث أحـلام ، وانه فى حلم لن يلبث أن يفيق منه فيجد نفسه فى بيته وفى مكتبه ، وان الجبابرة قد افنوا عن آخرهم وان الغذاء قد اعدم وانه هو قد أودع السجن .. **ولـكن ما هى**

الحياة ان لم تكن هذا ؟.. أن يظل الانسان سجينا الى الابد ! وانتهى الى انه سيصحو من نومه وحلمه فيجد نفسه غارقا بين الحرب والدماء .. وأن الغذاء ان هو الا سخف من سخافات الخيال ، وأن اماله فى عالم عظيم من الجبابرة ان هو الا سراب ، وان الصغار لا يمكن أن يغلبوا على امرهم ..!

ولفه شعور باليأس واعتقد أن القدر يغرر به وأن الحجاب لن يلبث أن ينقشع عن عينيه ، فانزعج وانتصب واقفا وغطى عينيه بيديه ،وظل فترة من الوقت على هذه الحال ، يخشى ان يفتحهما حتى لا يرى ما حوله فيجد ان الحلم قد تبخر ..

وراح الجبابرة يتحدثون بصوت خفيض ، طفت عليه طرقات المطارق .. وأخذت شكوكه تتضاءل حين سمع الجبابرة يتحدثون ، وسمع وقع أقدامهم من حوله .. اذن فهو الواقع وهى الحقيقة التى لا ريب فيها ، لا تقل فى واقعها عن الحق الذى يملأ جوانح الانسان، وقدانبثقت منها العظمة بمختلف صنوفها ، التى يدخرها المستقبل للعالم .. والى جانبها أشياء اخرى على نقيضها .. هم اولئك الصغار بحيوانيتهم وضعفهم .. تلك التى ستئول الى زوال .. ورفع « ردوود » يديه عن عينيه وفتحهما .. وقال احد الحدادين من الجبابرة :

ـ لقد انتهينا ...

ثم القى هو وزميله مطرقتيهما على الارض ..

وتناهى الى سمع « ردوود » صوت من مكان عال فالتفت نحوه ، فلمح ابن « كوسار » فوق السور بين اخوانه ، يخطب فيهم قائلا :

ـ ليس هدفنا أن نقضى على الصفار ليخلو لنا العالم أبد الدهر .. فلسنا الا من طينتهم .. والفارق بينناوبين صفارهم ضئيل طفيف .. **وليس كفاحنا من أجل أنفسنا بل من أجل المدنية والمعرفة .. ان غاية وجودنا انما هو تنمية وتقوية روحنا الكبيرة لنؤدى وسالتنا .. واكرر القول أن كفاحنا ليس من أجل أنفسنا ، فنحن طليعة مؤقتة لجيل جديد .. هذا ما لقننا اياه الاب « ردوود » .. فنحن والصفار لسنا سوى كيان شكلى وأداة يطل منها الروح المرتقب على الكون ليتطور الى حياة أفضل .. فلم يخلق العالم للجمود ، ولم يخلق البشر للهو .. ولو كان الامر كذلك لهانت علينا أرواحنا وقدمناها طائعين للصفار ... ولما كنا جديرين بأن نعيش ، ولكانوا هم جديرين بالانصياع حتى للحشرات .. اننا نكافح من أجل النماء المطرد الى الابد .. سواء عشنا أو متنا .. اننا نمهد السبيل لضمان النماء ، ذلك هو ناموس الحياة الابدى الذى أوجدته عناية الله لكى تخرج الكائنات الصغيرة من الظلمات الى النور ..**

وتوقف عن الكلام برهة ، ثم استطرد يقول بصوت رزين هادىء :

ـ ان هدفنا هو العظمة أيها الاخوان .. فهيا اليها ، بل الى ما هو فوق العظمة .. الى النماء الذى يقرب ما بين الانسان وبين خالقه .. ليعينه على ادراك عظمته .. النماء الذى يجعل من هذه الدنيا منفذا الى دار أخرى فيها الخلود والعظمة .. والذى لا تشعر فيه الروح بالخوف .. فتسمو الى هناك ..

واشار بيده الى السماء ..

ثم سكن الصوت وتلألات اشعة الضوء الساطع ،

واستقرت برهة فوق راسه .. فظهر امام الاعين جبارا عظيما يشير بيده الى السماء ..

وظل فى وقفته تلك فترة من الوقت ، وكان يبـــدو للعيان وهو يتطلع دون وجل الى السماء ، وقد تناثرت فيها النجوم ، بملابسه المعدنية وجسمه الضخم القوى وعزيمته الجبارة وهدوئه الرهيب ، ثم تجاوزه الضـــوء فخلفه شبحا أسود تحت قبة السماء الزرقاء .. رافعا يده كأنه يهدد الكون ...



كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القــراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتــاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية ، وقد نفدت جميعا حتى رقم ١٢٧ :

١ ـ عبقرية محمد
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد
تأليف المرحوم الدكتور احمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب أمير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الــكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ـ كليو باترا فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبدالعزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر .كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد علي جناح
تاليف عباس محمود العقاد
٢٢ ـ زينب
تاليف الدكتور محمد حسين هيكل
٢٣ ـ مذكرات عرابى (الجزء الاول)
تاليف الزعيم احمد عرابى
٢٤ ـ مذكرات عرابى (الجزء الثانى)
تاليف الزعيم احمد عرابى
٢٥ ـ عبقرية عمر
تاليف عباس محمود العقاد
٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء
٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون
تاليف عباس محمود العقاد
٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والاخرة
تاليف توفيق الحكيم
٢٩ ـ ابو نواس
تاليف عبد الرحمن صدقى
٣٠ ـ البؤساء
تاليف نيكتور هيجو
٣١ ـ علمتنى الحياة
لنخبة من علماء الشرق والغرب
٣٢ ـ فى الطريق
تاليف ابراهيم عبد القادر المازنى
٣٣ ـ مدرسة المغفلين
تاليف توفيق الحكيم
٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تاليف بيتر شتاينكرون
٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تاليف : جبران خليل جبران
٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان
تاليف عباس محمود العقاد
٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تاليف فتحى رضوان
٣٩ ـ عش مائة عام
تاليف جايلود هاوزر
٤٠ ـ الحرية الحمراء
تاليف حبيب جامانى
٤١ ـ اهل الكهف
تاليف توفيق الحكيم
٤٢ ـ الله
تاليف عباس محمود العقاد
٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تاليف فيكتور بوجومولتز
٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تاليف جرجى زيدان
٤٥ ـ نساء النبى
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء
٤٦ ـ ثائرون
تاليف محمود تيمور
٤٧ ـ زهرة العمر
تاليف توفيق الحكيم
٤٨ ـ هذا مذهبى
باقلام نخبة من الشرق والغرب
٤٩ ـ قادة النيل
تاليف اميل لودفيج
٥٠ ـ مطلع النور
تاليف عباس محمود العقاد
٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تاليف توفيق الحكيم
٥٢ ـ طريق السعادة
تاليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول)
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تاليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)
٥٦ ـ مدينة الشيطان
تاليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)
٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)
٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولنز
٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)
٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)
٦٤ ـ قصة الثورة كاملة
تأليف انور السادات
٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ـ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٧٠ ـ بطل الكفاح:الشهيد محمد فريد
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة
تأليف انور السادات

٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ـ البؤساء (طبعة جديدة)
تأليف فيكتور هوجو
تعريب حافظ ابراهيم
٧٩ ـ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية
تأليف انور السادات
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سـارة
بقلم عباس محمود العقاد
٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد ابو حديد
٨٨ ـ ياولدى .. هذا عمك جمال
بقلم انور السادات
٨٩ ـ ابليس
بقلم عباس محمود العقاد
٩٠ ـ جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
٩١ ـ روائع شكسبير (الجزء الاول)
تلخيص شارل ومارى لام
٩٢ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطىء
٩٣ ـ روائع شكسبير (الجزء الثانى)
تلخيص شارل ومارى لام

٩٤ - روائع شكسبير (الجزء الثالث)
تلخيص شارل ومارى لام
٩٥ - آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
٩٦ - دروس من القرآن الكريم
بقلم الامام محمد عبده
٩٧ - حديث عيسى بن هشام
(الجزء الاول)
بقلم محمد المويلحي
٩٨ - حديث عيسى بن هشام
(الجزء الثاني)
بقلم محمد المويلحي
٩٩ - مذكرات نجيب الريحاني
بقلم نجيب الريحاني
١٠٠ - ليالي سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
١٠١ - اعترافات شبابي
بقلم ليوتولستوي
١٠٢ - عجائب واساطير
تأليف الدكتور شوقي ضيف
١٠٣ - المرأة في القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٤ - الملك والثوار في عربة
تأليف فتحي رضوان
١٠٥ - الدكتور زيفاجو (الجزءالاول)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٦ - الدكتور زيفاجو(الجزءالثاني)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٧ - مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هوجو
ترجمة لطفي سلطان
١٠٨ - الاسلام في القرن العشرين
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٩ - بيودورا المثلة المتوجة
تأليف شارل ديل
ترجمة حبيب جاماتي
١١٠ - وثبة الاسلام
تأليف ابراهيم المصرى

١١١ - طريقك الى السعادة
تأليف الدكتور جون ا ، شندلر
ترجمة عبد المنعم الزيادي
١١٢ - أنت وغذاؤك
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
١١٣ - قلب وتاج
تأليف اميل لودفيج
١١٤ - الاسلام بين العلم والمدنية
للاستاذ الامام محمد عبده
١١٥ - ابو نواس الحسن بن هانيء
تأليف عباس محمود العقاد
١١٦ - عش مطمئن النفس
تأليف الدكتور فـرانك سي .
كابريو
ترجمة عبد المنعم الزيادى
١١٧ - الحب ابو العجائب
بقلم فكرى أباظه
١١٨ - عاصفة في قلب
بقلم صوفي عبد الله
١١٩ - عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد
١٢٠ - الامبراطورية الاسلامية
والاماكن المقدسة
بقلم الدكتور محمد حسين هيكل
١٢١ - مذكرات الامام محمد عبده
طاهر الطناحي
١٢٢ - الزواج السعيد
بقلم عبد المنعم الزيادي
١٢٣ - ذكريات الصبا والشباب
تأليف بوريس باسترناك
١٢٤ - المرأة في حياة العظماء
تأليف ابراهيم المصرى
١٢٥ - هذا طريقنا
للرئيس جمال عبد الناصر
١٢٦ - الانسان في القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٢٧ - سعادتك في ضوء علم النفس
تأليف د . لسلى ويذرهيد

١٢٨ ـ غراميات فيكتور هوجو
بقلم لطفى سلطان
١٢٩ ـ يوميات طبيب
بقلم د . كامل يعقوب
١٣٠ ـ الساعات الاخيرة
بقلم طاهر الطناحى
١٣١ ـ قصة حياتى
بقلم أحمد لطفى السيد
١٣٢ ـ ضوء القمر وقصص اخرى
تاليف أحمد حسن الزيات
١٣٣ ـ فن الزواج
تاليف الدكتور أمير بقطر
١٣٤ ـ الفلسفة القرآنية
تاليف عباس محمود العقاد
١٣٥ ـ خديجة ام المؤمنين
بقلم السيد عبد الحميد الزهراوى
١٣٦ ـ الحب عند شهيرات النساء
تاليف ابراهيم المصرى
١٣٧ ـ تفسير الاحلام
بقلم سيجموند فرويد
تبسيط وتلخيص الدكتور نظمى لوقا
١٣٨ ـ اسطورة حب وقصص اخرى
تاليف فتحى رضوان
١٣٩ ـ طريقك الى الشباب الدائم
بقلم الدكتورة مارجرى ويلسون
١٤٠ ـ الاسلام دين الهداية والاصلاح
تاليف محمد فريد وجدى
١٤١ ـ رحلة فى دنيا المستقبل
بقلم هـ . ج . ويلز

١٤٢ ـ تاريخ الحب ورسائله الخالدة
تأليف ابراهيم المصرى
١٤٣ ـ رسالة التوحيد
بقلم محمد عبده
١٤٤ ـ أزمات الشباب
تأليف الدكتور أوجست أيكورن
١٤٥ ـ هذه حياتى
للمرحوم عبد العزيز فهمى
١٤٦ ـ الشيوعية والانسانية
تأليف عباس محمود العقاد
١٤٧ ـ ٢٠ سنة فى حجرة الاعترافات
تأليف الدكتور فريدريك لويس
نقله الى العربية دكتور أمير بقطر
١٤٨ ـ أبناؤنا وبناتنا
تأليف جان جاك روسو
١٤٩ ـ مبادىء فى السياسة والأدب والاجتماع
تأليف أحمد لطفى السيد
١٥٠ ـ وجوه فى الظلام
بقلم أمينة السعيد
١٥١ ـ رجال عرفتهم
بقلم عباس محمود العقاد
١٥٢ ـ غراميات نابوليون بونابرت
بقلم جان سافان
ترجمة لطفى سلطان
١٥٣ ـ المسلمون والاسلام
بقلم الشيخ محمد عبده
١٥٤ ـ الى القرآن الكريم
بقلم الشيخ محمود شلتوت

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب ـ بعد رقم ١٢٧ ـ من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة، واكشاك الصحف،

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البرازيـل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـيراليون : Messers Allie Mustapha & Sons
P.O. Box 410
Freetown Sierra Leone

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Sa mait
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

نيجـيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
25, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

((ويلز)) من أنبياء العلم فى عصر العلم . وقد خصص الجانب الاكبر من مؤلفاته ، لتفهيم الناس مدى سلطان العلم ، وتصوير الحدود التى يمكن ان يصل اليها الابتكار العلمي فى تغيير حياة الانسان نفسه عن طريق تغيير ظروف حياته .. فهو الذى صور منذ خمسين سنة احتمالات غزونا لكواكب الفضاء أو غزو كواكب الفضاء لنا ..

وهو فى هذا الكتاب الذى كتبه فى قالب شبيه بالقصة يبلغ غاية المدى فى التشويق والمفاجأة على أساس منطق علمى .. فانسان المستقبل هو موضوعه . وهو يقدم فكرة علمية عن تغذية جديدة أشبه فى أثرها بآثار الذرة التى عرفناها لولا انها تنتج نسلا غاية فى الضخامة والقوة . ويصور النفس الانسانية بين الخوف على الذات ، وبين امكانات السوبرمان الجديد ، وذلك فى اطار من الاحداث والمواقف والتحليل الشائق والتفكير العلمى ..